د. يُوسُف القَرَضَاوِي

فِي وَدَاعِ الأَعْلَام



الدار الشامية
تركيا

النادي الشبابي

د. يُوسُفُ ٱلقَرَضَاوِيْ

فِي وَدَاعِ الأَعْلَام

الدار الشامية
تركيا


بسم الله الرحمن الرحيم


النادي الشبابي



مقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله وأنبيائه محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن أكرم الناس منزلة، وأرفعهم مقامًا عند الله، وأكثرهم نفعًا لخلقه، هم أنبياء الله تعالى ورسله، الذين جعلهم الله سفراء بين السماء والأرض، ورسل الخالق لإصلاح الخلق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، فهم الذين اصطفاهم الله، وكلفهم أن يدعوا الناس لعبادته، ويعيدوهم لشريعته، ويحثُّوهم على ابتغاء مرضاته، وأن يجتنبوا الطاغوت أيًّا كان اسمه ورسمه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولكن جرت سنة الله في الخلق أن كل حي يموت، وأن لا أحد من الناس جعل الله له الخلد، كما قال لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

فإذا مات الأنبياء لم تمت رسالتهم، ولم تنته مهمتهم، بل يقوم بها من بعدهم خلفاؤهم وورثتهم، الذين يحملون مشاعل النور، ومصابيح الهداية للناس؛ حتى لا تندرس معالم النبوة الهادية، وحتى تظل حجة الله قائمة على الناس، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ومن هنا قال رسول الإسلام ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[١].

قال الإمام الغزالي: ومعلوم أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة.

وفي هذا الحديث قال ﷺ: «**إن الله وملائكته، وأهل السماوات والأرض، وحتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلُّون على معلم الناس الخير**»[٢].

لا سيما «العلماء الربانيين» وهم الذين يتجسد علمهم خلقًا وسلوكًا يوجه حياتهم، ويصبغ علاقتهم بالله، وعلاقتهم بالناس، ثم هم يقتدون بالرسل في تعليم الناس ما علَّمهم الله، ودعوتهم إلى طريق الله، وصبرهم على ما أصابهم في سبيل الله؛ فالرباني الحق هو الذي يعْلم ويعمل ويعلّم، كما أشار إلى ذلك القرآن بقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

أجل، هم العلماء الربانيون الذين يعلمون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيصدقون، ويصدقون فيثبتون. على الصدق يحيون، وعلى الصدق يموتون.

ولا ريب أن وجود هؤلاء العلماء العاملين المعلمين الدعاة في أمة من الأمم: إنما هو رحمة من الله بها، ونعمة من الله عليها؛ فهم الذين يبينون الحقائق، ويردون على الأباطيل، ويدحضون الشبهات، ويصححون المفاهيم، ويأخذون بأيدي الناس إلى ساحة الله. يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقولون الحق ولو كان مرًّا، ويصدعون بأمر الله، لا يخافون

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٠٦)، وأبو داود (٣١٥٧)، والدارمي (٣٤٦)، عن أبي الدرداء.

(٢) رواه الترمذي عن أبي أمامة (٢٦٨٦) وقال: حسن صحيح غريب.

لومة لائم، ولا نقمة ظالم، ولا سطوة حاكم، فهم من ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وهم الذين روي في مثلهم الحديث القائل: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله: ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[(١)].

فلولا هؤلاء الهداة؛ لطغى الجهل على العلم، وغلب الضلال على الهدى، وغطت ظلمات الباطل على نور الحق، وانهزم جند الخير أمام جحافل الشر.

وإذا كان وجود هؤلاء العلماء رحمة وبركة ونعمة على الأمة، فإن موتهم ولا شك مصيبة، وفقدهم رزية، وغيابهم عن الساحة كارثة، لا سيما إذا لم يوجد من يسد مسدهم، ويحرس تركتهم، ويحيي تراثهم؛ ولهذا قال بعض السلف: «ذهاب قبيلة أيسر من ذهاب عالم»، وقال علي ﷺ: «إذا مات العالم ثلمت في الإسلام ثلمة، لا يسدها إلا خلف منه».

وإن المصيبة تكبر وتتعاظم إذا تتابع موت العلماء الأفذاذ في وقت يسير، كما رأينا في المدة الأخيرة، حتى مات في سنة واحدة عدد من الأعلام المرموقين، كأنما هم حبات عقد انفرط مرة واحدة.

وإن أخطر شيء على حياة الأمة المعنوية: أن يذهب العلماء، ويبقى الجهال، الذين يلبسون لبوس العلماء، ويحملون ألقاب العلماء، وهم لا يستندون إلى علم ولا هدى ولا كتاب منير؛ فهم إذا أفتوا لا يفتون بعلم، وإذا قضوا لا يقضون بحق، وإذا دعوا لا يدعون على بصيرة، وهو الذي حذر منه الحديث الصحيح الذي رواه عبد الله بن عمرو: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور**

---

(١) رواه ابن وضاح في البدع، حديث رقم (١)، والبيهقي في الكبرى (٢٠٩/١٠)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٨)، وقواه ابن القيم في كتابه (مفتاح دار السعادة، ومنشور أهل العلم والإرادة)، عن إبراهيم بن عبد الرحمٰن العذري.

الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جُهَّالًا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[1].

ولعل هذا الشعور هو الذي دفعني في السنوات الأخيرة أن أمسك بالقلم لأودع العلماء الكبار بكلمات رثاء، أبين فيها فضلهم، وأنوه بمكانتهم، والفجيعة فيهم، حتى يترحم الناس عليهم، ويدعوا لهم، ويجتهدوا أن يهيئوا من الأجيال الصاعدة من يملأ فراغهم، وإلا كانت الكارثة.

إن مما يؤسف له حقًّا أن يموت العالم الفقيه، أو العالم الداعية، أو العالم المفكر، فلا يكاد يشعر بموته أحد، على حين تهتز أجهزة الإعلام، وتمتلئ أنهار الصحف، وتهتم الإذاعات والتلفازات بموت ممثل أو ممثلة، أو مطرب أو مطربة، أو لاعب كرة أو غير هؤلاء، ممن أمسوا (نجوم المجتمع)!.

وأسف آخر أن العلمانيين والماركسيين وأشباههم إذا فقد واحد منهم، أثاروا ضجة بموته، وصنعوا له هالات مزورة، وتفننوا في الحديث عنه، واختراع الأمجاد له، وهكذا نراهم يزين بعضهم بعضًا، ويضخم بعضهم شأن بعض، على حين لا نرى الإسلاميين يفعلون ذلك مع أحيائهم ولا أمواتهم، وهذا ما شكا منه الأدباء والشعراء الأصلاء من قديم، حتى قال قائلهم:

ذهب الرجالُ المقتدى بفعالهم ... المنكرون لكلِّ أمر منكَرِ
وبقيت في خلْف يزيِّن بعضهم ... بعضًا، ليدفع مُغْور عن مُغْورِ!

لهذا كان لزامًا علينا أن نعرِّف بعلمائنا وأعلامنا ومفكرينا ودعاتنا؛ فهذا حقهم علينا، وحق الأجيال أيضًا: أن نعرفهم بهم، ونصلهم بتراثهم.

وأود أن أنبه هنا على أمر، وهو أني كتبت في الطبعة السابقة عن الشخصيات التي أعرفها، وكانت لي بها صلة متينة، بحيث أعرف من معالم سيرتها ومسيرتها

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فضل العلم (١٠٠)، ومسلم في العلم (٢٦٧٣).

وعطائها ما يمكنني من الكتابة عنها، وإعطائهـا حقها، وأما من لم تكن لي به مثل هذه الصلة، فلم أكتب عنه، ولعله يستحق الكتابة مثل الآخرين.

كما أن الشخصية قد تستحق الكتابة، ولي بها من الصلة ما يوجب ذلك، ولكن لم تساعدني الأقدار على ذلك لمرض أو سفر أو نحو ذلك؛ ولهذا لم أكتب عن عدد من الشـخصيات التي رحلت عن دنيانا، وكنت أود أن أسهم بالكتابة عنها، مثل شيخنا الشيخ محمد متولي الشعراوي، والشيخ عبد الحميد كشك، والشيخ خالد محمد خالد، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ مناع القطان، والشيخ ناصر الدين الألباني، والشـيخ صلاح أبو إسماعيل، بيد أن الظروف لم تواتني.

وقد حاولت استدراك ذلك بالحديث عنهم في خطبة الجمعة، التي تذاع في فضائية قطر، أو في حلقة برنامج «الشريعة والحياة» من قناة «الجزيرة» في قطر، أو برنامج «المنبر» من قناة «أبو ظبي» الفضائية.

على أني قد استدركت الحديث عن معظم الشخصيات التي حالت ظروفي دون الكتابة عنهم عند وفاتهم، وذلك في «مذكراتي» التي تناولت مسيرة حياتي، فقد تناولت عددًا من هذه الشـخصيات وغيرها، متحدثًا عنها حسـب سـياق الأحداث، وبما عاصرته من مواقف، أستطيع بها الحكم والحديث عن الشخصية المتحدث عنها، فقد تناولت الحديث عن الشيخ الشعراوي والشيخ مناع القطان والشيخ خالد محمد خالد والدكتور سعيد رمضان والدكتور عبد العزيز كامل، وغيرهم من الدعاة الكثيرين، مما لا مجال لحصره هنا، محاولة لأداء بعض ما لهم من حقوق أخوة العلم والإسلام؛ والعلم رحم بين أهله.

وقد اجتهدت أن أجمع العديد من هؤلاء في هذه الطبعة الجديدة من كتابي «في وداع الأعلام» آملًا أن أكون قد وفيتهم بعض حقهم، أسـأل الله تعالى أن يتولاهم برحمته، وأن يرفع درجاتهم في عليين، وأن يتجاوز عنا وعنهم أجمعين.

وأنا أعرف أن من الباحثين المعاصرين من لا يعول إلا على الجماهير، ولا يعول على النخب المثقفة والقيادات الفكرية والدينية والسياسية، ويشكك في الحكمة المأثورة «صنفان من الأمة إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء».

ولا ريب أن الاهتمام بالجماهير، والتركيز عليها أمر واجب، وقد جاء في الحديث: «**عليكم بالسواد الأعظم**»، «**عليكم بالجماعة والعامة**»، بل جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «**إنما ترزقون بضعفائكم**»؛ فأشار إلى أهمية الفئات الضعيفة في المجتمع، مثل: العمال والفلاحين والحرفيين، فهم عدة الإنتاج في السلم، وعدة النصر في الحرب، وهو معنى «ترزقون وتنصرون».

ولكن من المؤكد أن الشعوب والجماهير كثيرًا ما يشغلها هَمُّ لقمة الخبز، وستر العورة، وضروريات العيش، عن التفكير في قضايا الإصلاح وقضايا المصير، حتى عن قضاياهم ومطالبهم الخاصة.

لهذا كانوا في حاجة إلى من يوقظهم من رقود، ويبعثهم من هموم، ويحركهم من جمود، وينور عقولهم بالمعرفة، ويحرك عزائمهم بالإيمان، ويدفعهم إلى العمل والتكاليف من أجل حياة طيبة، يرضون فيها ربهم، ويسعدون فيها أنفسهم، ويخدمون فيها وطنهم وأمتهم.

وهذا هو دور العلماء والدعاة والمفكرين، وحملة الأقلام، الذين يقودون أوطانهم وشعوبهم في معارك التحرير والاستقلال، ومعارك النهوض والبناء، ولا تزال الأمة بخير ما كان لأهل العلم والفكر كلمة مسموعة في توجيه مسيرتها، وترشيد حركتها، وتسديد خطاها على الطريق القويم.

ويا ويل أمة يقودها الجهال والضالون، الذيــن لا يؤدون أمانتها، ولا يرعون رسالتها، ولا يحترمون خصوصيتها، فهم كما قال الشاعر:

إذا أنت حملــت الخؤون أمانة فإنك قد أســندتها شــر مسند!

وفي صحيح البخاري: أن رجلًا ســأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ قال: «**إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة**» قال: وكيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**».

ولكل أمة ســاعة تذهب فيها عزتها، وتضيع ســيادتها، ويسيرها غيرها؛ وذلك إذا كان زمامها في غير أولي الأيدي والأبصار.

وإنا لندعو بما كان يدعو به أسلافنا الصالحون: اللهم ولّ أمورنا خيارنا، ولا تولِّ أمورنا شرارنا، ونعوذ بك من زمن يسود فيه الرؤوس الجهال.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

يوسف القرضاوي

الدوحة

الأحد ١٨ من ذي القعدة ١٤٣٧هـ

الموافق ٢١ من أغسطس ٢٠١٦م



١ الإمام حسن البنا
مؤسس جماعة الإخوان المسلمين
(١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ = ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م)

كان حسن البنا رحمة الله عليه رجلًا متعدد المواهب والقدرات، فهو عالم وداعية، ومصلح ومجدِّد، وقائد وزعيـــم، وهو كذلك مُرَبٍّ من الطراز الأول، كان مربِّيًا بحكم الموهبة، وبحكم الدراسة، وبحكم الممارسة، فقد كان الإمام الشهيد حســـن البنا يعمل في التدريس عدة ســـنوات من حياة الدعوة، حتى أجبرته ظروف الدعوة وتطور الحركة على التفرغ التام لها.

وكانت لديـــه كل الأدوات التي يفتقر إليها المربِّـــي الناجح، من البصيرة النَّيِّرة، والقلب الكبير، والعقل المنفتح، واللسان الفصيح، والوجه البشوش، والفِراسة النادرة، إلى جوار العلم الواسع، والخبرة الفنية والاجتماعية.

فلا غرو أن نراه يؤثر بسرعة في كل من صحبه وعايشه، بل في كل من لقيه لقاء عابرًا، فتراه يذكر له كلمة معبِّرة، أو موقِفًا مؤثِّرًا، أو حكاية لها دلالة، أو نحو ذلك مما يعرفه الكثيرون عنه.

وقد صدق قول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: علامة الرجل الصالح أن يترك في كل مكان يحل فيه أثرًا صالحًا. وهكذا كان.

كان الإمام حســـن البنا في القاهرة، وكنت في طنطا، فلم يكن لقائي إياه ممكنًا إلا أن أذهب إلى القاهرة، أو يأتي هو إلى طنطا.

وكم تمنيت أن أســـتمع إليه ـ ولو مرة واحدة ـ في حديث الثلاثاء، الذي يلقيه في المركز العام للإخوان، في معظم أيام السنة، ولكني لم أظفر بذلك،

ولا مرة واحدة، حتى المرات التي كنا نسافر فيها مجانًا ـ نحن طلاب المعهد الديني ـ لم نصادف فيها حديث الثلاثاء؛ إما لأن الدرس كان متوقفًا في تلك الفترة لأسباب ما، أو لأن اليوم لم يكن يوم ثلاثاء، ولا يمكننا البقاء في القاهرة إلى الثلاثاء المقبل، ونحن غرباء.

فلم يبق لي سبيل إلى لقاء الشيخ والاستمتاع بحديثه وتوجيهه وفكره إلا بحضوره هو إلى طنطا، أو بعض المدن الأخرى القريبة.

حظيت بالاستماع إلى الشيخ الإمام حسن البنا، منذ كنت طالبًا في السنة الأولى الابتدائية، كما تحدثت عن ذلك في مذكراتي، وأعجبت بشخصية الرجل، وملك حبه قلبي، وإذا كانوا في عالم العشاق يتحدثون عن الحب من أول نظرة، ففي عالم الدعوة يمكن أن نتحدث عن الحب من أول كلمة.

وكانت أول مرة أسمعه يوم جاء إلى طنطا في بداية السنة الهجرية، وكانت الجمعيات المختلفة تتنافس في الاحتفال بها، وكان منها جمعية الإخوان المسلمين في طنطا.

وفي ليلة من الليالي قال لي ابن عمتي: سنتركك تنام، ونذهب لسماع الشيخ حسن البنا في احتفال الهجرة.

قلتُ لابن عمتي: ولماذا لا أذهب معكم؟.

قال: أنت صغير، ومثل هذه الاحتفالات يطول ويمتد!.

قلت: ولكني حريص على الاستماع إلى الشيخ البنا، ولا أريد أن أحرم منه.

قال ابن عمتي لأصحابه من طلاب الثانوي الكبار من أبناء قريتنا: الولد مُصِرّ على المجيء لسماع الشيخ.

فقالوا له: دعه يحضر، فلعله يسمع شيئًا ينفعه في المستقبل.

وذهبت معهم إلى شعبة الإخوان قرب (ميدان الساعة) في طنطا، وتكلم كثيرون قبل الشيخ البنا، ومنهم شعراء وخطباء مؤثرون، ثم كانت كلمة الختام للشيخ البنا، الذي انتظره الناس بفارغ الصبر، كما ينتظر الظمآن الماء، والسقيم الشفاء.

وتحدث الشيخ عن وداع عام، واستقبال عام، وشبه السنة المنصرمة بكراسة الطالب الذي أساء استخدامها، وأمسى يريد الخلاص منها، والاستعاضة عنها بكراسة جديدة نظيفة يحرص على نظافتها وسلامتها، حتى إذا اطلع عليها المفتش رضي عنها.

أخذ الشيخ هذا المثل من مهنته بوصفه معلمًا، ثم تحدث عن الهجرة، وقال: إن الهجرة بوصفها قصة لخصها الله في آية من كتابه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

قال الشيخ: ولكننا نتحدث عن الهجرة باعتبارها حدًّا فاصلًا بين عهدين: عهد تكوين الفرد في مكة، وعهد إقامة المجتمع في المدينة. وتحدث بتفصيل مناسب عن خصائص كل منهما بما شفى وكفى، وأوفى إلى الغاية.

كنت منذ وعيت أستمع إلى حديث الهجرة كل عام من علماء قريتنا، وهو حديث مكرور لا يعدو الحديث عن قصة العنكبوت والحمام، وما يجري مجرى ذلك، أما هذه الليلة فقد سمعت حديثًا جديدًا أصيلًا، لا عهد لي بمثله. ولقد وعيته وهضمته، وأكاد أحفظ كلامه كله لشدة وضوحه وتركيزه وبلاغته.

وعند عودتنا إلى المنزل سألني ابن عمتي وصحابه: ماذا فهمت من الشيخ البنا؟ فقلت لهم: لقد قال الرجل كذا وكذا وكذا، وسردت عليهم حديث الرجل مفصلًا، فعجبوا من ذلك، وقالوا: ما شـاء الله، لقد حفظ الولد حديث الشيخ ووعاه كأنما يقرؤه من كتاب.

وأصبحت منذ تلك الليلة حريصًا كل الحرص على الاستماع إلى الشيخ البنا، كلما جاء إلى طنطا في مناسبة من المناسبات.

لقد تعلق فؤادي بحسـن البنا، تعلُّق المريد بالشـيخ، والتلميذ بالأسـتاذ، والجندي بالقائد، وإن كنت لم أصبح جنديًا في جماعته إلا بعد ثلاث سنوات، ولكني كنت أترقب قدومه إلى طنطا، لأسعى إلى الاستماع إلى حديثه المتفرد، وقد جاء مرة إلى طنطا لإحياء ذكرى الإسراء والمعراج، وسمعت منه ما لم أسمع من غيره في هذه المناسـبة. وأهم ما نبه عليه في هذه المناسبة: التذكير بقضية المسجد الأقصى، منتهى رحلة الإسـراء، ومبتدأ رحلة المعراج، وواجب الأمة المسلمة نحو مقاومة المشروع الصهيوني، وكانت هذه المرة حين اشتعال قضية فلسطين، والتنادي بالجهاد، وتخاذل الحكومات العربية، وقال فيما قال: ليتهم يمدون أهل فلسطين بالمال والسلاح والمتطوعين، ويكفون أيديهم عنهم.

كان الرجل من القلائل الذين أدركوا خطر الصهيونية، وحذروا منه وأنذروا في وقت مبكر، وكان يعيش في قضية فلسطين، أو قل: تعيش فيه قضية فلسطين.

وفي هذه الزيارة ألقيت قصيدة بين يديه في مدحه، وما مدحت أحدًا من الأحياء غيره، وقد وقعت منه موقع الرضا والاستحسـان، وأحسبه قال: إنه لشاعر فحل، أو شاعر مطبوع. لا أذكر تمامًا. وقد أخذ القصيدة مني سكرتيره: الأستاذ سعد الدين الوليلي، الذي كان يرافقه باستمرار غالبًا. ولم تكن عندي منها نسـخة أخرى، ولكني كنت أحفظ أكثرها، وحيـن أراد الأخ الحبيب: حسني أدهم جرار، جمع ما تيسر من شـعري، أمليت ما أحفظه عليه منها،

ونشـــرت بعنوان: (يا مرشـــدًا قاد بالإســـلام إخوانا) في ديوانـــي «نفحات ولفحات»، قلت فيها:

يا مرشـــدًا قـــاد بالإســـلام إخوانا ... وهـــزَّ بالدعـــوة الغـــراء أوطانـــا
يا مرشدًا قد سرتْ في الشرق صحبته ... فقـــام بعـــد منـــام طـــال يقظانـــا
فكان للعُرْب والإســـلام فجرَ هدى ... وكان للغـــرب زلـــزالًا وبركانـــا
ربَّيـــتَ جيلًا مـــن الفـــولاذ معدِنه ... يزيـــده الضغـــطُ إســـلامًا وإيمانـــا
أردتَ تجديد صـــرح الدين إذ عبثَتْ ... بـــه الســـنون فهـــدَّتْ منـــه جدرانا
فقمـــتَ تحمـــل أنقاضًـــا مكدَّســـة ... وعشـــتَ تُعلـــي لديـــن الله أركانا
تُرسي الأســـاسَ على التوحيد في ثقة ... وترفـــع الصَّـــرحَ بالأخـــلاق مُزدانا
حتى بلغتَ الأعالـــي مُصْلِحًا بطلًا ... تطلُّ مـــن فوقهـــا كالبـــدر جَذْلانا
وثلةُ الهـــدمِ في الســـفلى مواقعهم ... صبُّوا عليـــك الأذى بغيًـــا وعدوانا
ترميـــك بالإفـــكِ أقـــلامٌ وألســـنةٌ ... خانـــتْ أمانتَها، يا بئـــسَ مَنْ خانا
وتنشـــرُ الـــزُّوْرَ أحـــزابٌ مضللـــةٌ ... تغلي صدورُهمـــو حقـــدًا وكفرانا
كـــذاك لا بـــدَّ للبنـــاء مـــن حجرٍ ... يصيبـــه أو يصيـــب الطيـــنَ أردانا
ولـــم نلمهـــم فهـــذا كلُّـــه حســـدٌ ... والغـــلُّ يوقد فـــي الأحشـــاء نيرانا
وانظـــر ليوســـف إذ عـــاداه إخوتُه ... فجرَّعـــوه مـــن الإيـــذاءِ ألوانـــا
رأوه شمسًـــا، وهم في جنبه ســـرجٌ ... رأوا أباهـــم بهـــذا النـــورِ ولهانـــا
فـــدبَّـــروهـــا بـــظـــلـــمـــاء مـــؤامـــرةً ... ليبعـــدوا عنـــه وجهًـــا كان فتَّانـــا
ألقوه في الجُبِّ لم يرعـــوا طفولتَهُ ... باعوه كالشـــاة لـــم يرعوا له شـــانا
وعاش يوســـفُ دهرًا يخـــدم امرأةً ... عبدًا، وكان له في الســـجن ما كانا
فإن يك نســـلُ يعقوب كـــذا فعلوا ... فـــلا تلـــمْ نســـلَ فرعـــونٍ وهامانا
ودَعْ أذاهم وقُلْ: موتـــوا بغيظِكُمُو ... فالغـــربُ مولاكمـــو، والله مولانـــا

آذوكَ ظلمًـا فلم تَجْـزِ الأذى بأذى ... وكان منـك جزاءُ السـوءِ إحسـانا
وكنتَ كالنخل يُرمـى بالحجارة من ... قـومٍ فيرميهمـو بالتَّمْـرِ ألوانـا
قـد أوسـعوك أكاذيبًـا ملفَّقَـةً ... وأنت أوسـعتَهم صفحًـا وغفرانا
وقلت: ربِّ اهدهم للحـقِّ واهدِ بهم ... واجعلهمـو للهدى جنـدًا وأعوانا
ومـن تكـن برسـول الله أسـوتُه ... كانـت خلائقُـهُ روحًـا وريحانـا

قال: يا رب سلم.

ومن المرات التي حضرها إلى طنطا، مرة ألقى فيها أكثر من حديث، منها: حديث مع المعلمين، وحديث مع الطلاب، وقد أوصانا في هذا اللقاء بوصايا ثلاث: الاجتهاد في العلم، والاستقامة في الدين، والمحبة بيننا.

على أن أعظم زيارة لمدينة طنطا، تجلت فيها عبقرية حسن البنا، وتحدث فيها فأبلغ وأبدع وأشـبع، كانت حين عقد المؤتمر العام للإخوان المسلمين لشرح المطالب القومية. وكان هذا المؤتمر أحد مؤتمرات الإخوان التي تعقد في عواصم المديريات في مصر، لشرح الأهداف الوطنية، التي هبَّت الأمة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية للمطالبة بها.

أقيم سرادق كبير في ميدان البلدية بطنطا، حضره جم غفير من أبناء طنطا، ومن إخوان الغربيـة من مراكزهـم المختلفة، وتحدث فيه عـدد من خطباء الإخوان، منهم: الأسـتاذ أحمد السـكري وكيل الإخوان، والأسـتاذ نصيف ميخائيل، وهو باحث قبطي مصري كان يصطحبه الأسـتاذ البنا في مؤتمراته المختلفـة، ليتحـدث عن قضية قنـاة السـويس وحق مصر فيهـا، وهو من المتخصصين في هذا المجال، الذي يهتم به البنا ويعرف قيمته. وكان يهدف بهذا إلى تجميع عنصري الأمة من المسـلمين والأقباط لمواجهة الاستعمار البريطاني، وقطع الطريق على الذين يصيدون في الماء العكر، ليفرقوا بين أبناء الشعب الواحد، وإشعال نار الفتنة الدينية بينهما.

وكان الأستاذ البنا على وعي بألاعيب الاستعمار الذي جعل شعاره: (فرق تسد)؛ فكان على صلة حسنة بزعماء الأقباط، حتى أشرك بعضهم في اللجنة السياسية للإخوان.

وبعد أن تحدث الخطباء والشـعراء، جاء دور الإمام البنا، الذي انتظرت الجموع الحاشدة كلمته بفارغ الصبر، وشديد الشوق.

وقام حسـن البنا ليعلن: أنه سـيتحدث في أمور ثلاثة: قضيتنا، وسليتنا، دعوتنا. قال:

• أما (قضيتنا)، فأقصد بها قضية (الوطن): الصغير، والكبير، والأكبر.

وبيَّن ما يريد بالوطن (الصغير) وهو: وادي النيل، بشماله (مصر)، وجنوبه (السودان)، وقال: إنه يعتبر مصر هي السـودان الشمالي، والسودان هو مصر الجنوبية. وحدد الهدف القومي بالنسبة لهما في أمرين: الجلاء التام (أي جلاء جيش الإنجليز) عن وادي النيل كله برًّا وبحرًا وجوًّا، وتركه لأهله يحكمونه كما يشاؤون. ووحدة هذا الوادي تحت علم واحد، ومَلِك واحد، وحدة سياسية واقتصادية وثقافية وتعليمية... إلخ.

أما الوطن الكبير، فيشـرحه البنا بأنه (الوطن العربي)، ويحدده بأنه من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلسي ـ ولم يكن مصطلح (الخليج العربي) قد ظهر بعد ـ وقد أصبح يقال بعد: من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر. وكان كلام البنا أول كلام محدد أعرف به حدود الوطن العربي.

وأما الوطن الأكبر، فهو (الوطن الإسلامي) من المحيط إلى المحيط، أي من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، أو من جاكرتا على المحيط الهادي إلى رباط الفتح على المحيط الأطلسي. وكان هذا أول تحديد للوطن الإسلامي أسـمعه، ولهذا تحدث عن إندونيسـيا وضـرورة تحريرها من الاسـتعمار

الهولندي، وعن ضرورة تحرير تونس والجزائر ومراكش؛ بلاد المغرب العربي، وكان يعبر عن المغرب في هذه الفترة بـ(مُرَّاكش).

وبيَّن أن على الأمة الإسلامية بالتضامن أن تعمل على تحرير أوطانها كلها من كل سلطان أجنبي ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

وأشار إلى ما ذكره الفقهاء من أنه: إذا أسرت امرأة في المشرق، وعجز أهل المشرق أن ينقذوها من أسرها، فعلى أهل المغرب أن يقوموا بذلك.

وأفاض الأستاذ البنا في قضية مصر، وشرح جذورها التاريخية، وحدد الأهداف الوطنية ـ كما قلت ـ في الجلاء والوحدة.

• ثم تحدث عن (وسيلتنا) في تحقيق أهدافنا والوصول إلى حقنا، وبيَّنها وسيلة بعد وسيلة، تبدأ بـ(المفاوضة) مفاوضة صاحب الحق لا المستجدي، ويجب أن تقف الأمة كلها وراء المفاوض، وعلى المفاوض أن يتجاوب مع نبض الأمة، ولا يستخزي ولا يستسلم أبدًا.

فإن لم تُجْدِ (المفاوضة) لجأنا إلى (المقاطعة) مقاطعة الإنجليز اقتصاديًّا، لا نشتري منهم، ولا نبيع لهم، نحن المصريين والسودانيين والعرب والمسلمين عامة. فنقاطع كل بضاعة إنجليزية، وعلى علمائنا أن يصدروا الفتاوى الدينية القاطعة بتحريم الشراء من العدو؛ لأن ذلك تقوية له على المسلمين، وكل ما يقويه على المسلمين لا يجوز لنا أن نعين فيه، وكل قرش يذهب إلى الخزانة البريطانية يتحول إلى رصاصة تقتل المصريين والسودانيين.

وأشار إلى أن الشعب المصري (شعب قنوع) يستطيع أن يعيش على القليل، والأقل من القليل، إذا كان ذلك في سبيل عزته وكرامته وحريته.

فإن لم تُجْدِ (المقاطعة) أو لم تكْفِ، فلا بد من الوسيلة الأخيرة التي يفرضها الواقع، كما يفرضها الدين، وهي (الجهاد): أن نقاتل الإنجليز بكل

ما نستطيع من قوة، وأن نجند رجالنا وشـــبابنا لذلك، وأن نربي أنفسنا لهذه الغاية، وأن نشيع روح الجهاد في الأمة، بدل روح الميوعة والخلاعة والخنوثة، التي تفعل في نفوس أبنائنا ما تفعل السموم في الأبدان.

والجهاد في هذه الحالة فرض عين على كل مصري وسوداني، حتى يُخْرِج الإنجليز مـــن وطنـــه، وكل مواطن عليه أن يبـــذل ما يقدر عليـــه، والإخوان المسلمون مستعدون أن يقدموا الآلاف من شبابهم فداء لوطنهم، الذي هو جزء عزيز من أرض الإسلام.

ثم قال الأســـتاذ: لقد كنت في مقتبل شـــبابي أقرأ بعض الأوراد التي تتضمن أذكارًا وأدعية نتعبد لله بترادها. وكان من هذه الأدعيـــة دعاء يقول: اللهم ارزقني الحياة الحســـنة، والموتة الحســـنة. فما الموتة الحســـنة أيها الإخوان؟ هل الموتة الحسنة أن تموت على سريرك بين أهلك وأولادك وذويك؟ إن الموتة الحسنة ـ كما أتصورها ـ أن يفصل هذا الرأس ـ وأشار إلى رأسه ـ عن هذا الجسد، في سبيل الله!.

وهنا ضج الجمع الحاشد بالتكبير والتهليل.

• ثم تحدث الأســـتاذ رَحِمَهُ اللَّهُ عن المحـــور الثالث، وهـــو (**دعوتنا**)، مركزًا الحديث حول (الدعوة الإســـلامية) فـــي هذا العصر، ومضمونهـــا وأهدافها، وخصائصها.

وكان الرجل مشـــرقًا متألقًا، كأن كلامه تنزيلٌ من التنزيل، أو أقباسٌ من أضواء النبوة.

وانفض المؤتمر الكبير بسلام، ولا حديث للناس إلا عن حسن البنا، وفهم حسن البنا، وكلام حسن البنا.

والحـــق أن مؤتمرات الإخوان فـــي عواصم المديريات المصرية لشـــرح القضية الوطنية، كانت إضاءات جديدة ومميزة في طريق العمل الوطني، وكان

هدفها توعية جماهير الشعب بقضيته، وحشد قوى الأمة جميعها للوقوف في وجه الإنجليز، حتى يخرجوا من الوطن طوعًا أو كرهًا، وتتحرر إرادة شعب مصر من كل سلطان أوربي.

• **إلى كفر المصيلحة:**

ومن البلاد التي ذهبنا إليها وراء حسن البنا: كفر المصيلحة، بجوار مدينة شبين الكوم، ذهبت في فرقة الجوالة، بلبس الجوالة، وتحدث الأستاذ في ذلك الحفل الكبير ـ على عادته ـ حديثًا جامعًا استشهد فيه بالشعر كثيرًا.

وبتنا هناك، وكانت الليلة ليلة جمعة، ففي اليوم التالي خطب الأستاذ خطبة الجمعة في (المسجد العباسي)، وتحدث فيها عن هدفين أساسيين يجب أن تنصبَّ جهود العاملين عليهما، وهما: الفكرة الإسلامية، والأرض الإسلامية. ولا بد أن يكون أكبر همنا: تحقيق الفكرة الإسلامية، وتحرير الأرض الإسلامية. وعدنا بعدها إلى طنطا.

• **إلى كفر الزيات:**

وفي إحدى المرات بعد زيارته إلى طنطا، كانت رحلته إلى مدينة (كفر الزيات) من مراكز الغربية، وقد خطب فيها الجمعة، وترك الحديث بعد الجمعة للشاب الداعية المتألق (محمد فتحي عثمان)، الذي كان يصحبه في هذه الرحلة، والذي كانت كلمته موضع القبول والرضا من الحاضرين.

وكان الأستاذ البنا يصطحب بعض هؤلاء الشباب النابهين ليدربهم من ناحية، وليبرزهم للناس من ناحية أخرى. وكان فتحي عثمان صاحب لسان وقلم، فهو خطيب مفوه، وكاتب بارع. كما أنه مترجم من الطراز الأول، فقد بعثه الأستاذ المرشد العام يومًا مع السيد (عليم الله الصديقي) وهو داعية باكستاني يتكلم بالإنجليزية ولا يحسن العربية، فكان الذي يترجم له فتحي عثمان الذي أسر الحضور بحسن ترجمته، وحلاوة بيانه الذي يرتجله.

• **إلى دسوق:**

ومن المرات التي سافرنا فيها لنحظى بالسماع للأستاذ البنا: سفرنا إلى مدينة (دسوق)، ونظرًا لثقل تكاليف الرحلة علينا، فقد قررنا أن نسافر بقطار الدلتا لرخصه، وإن كان بطيئًا، وركبنا الدلتا، أنا والعسال والدمرداش، ووصلنا إلى دسوق، وكان بمناسبة الاحتفال بذكرى المولد النبوي، وكان مع الأستاذ زوج ابنته الداعية المحبوب المعروف الأستاذ سعيد رمضان، وقد ألقى كلمة موفقة قبل كلمة الأستاذ، كما تكلم الدكتور القاضي رئيس الإخوان في دسوق، ثم تكلم الأستاذ، فأفاض وأبدع، كما هو المعتاد.

وبتنا في دسوق ضيوفًا على الإخوان، ثم عدنا في اليوم التالي إلى طنطا.

• **ليلة ويوم مع المرشد البنا في المحلة:**

ومن أهم المرات التي لقيت فيها الأستاذ المرشد حسن البنا: مرة زيارته للمحلة الكبرى، قادمًا من زفتى.

وقد أقيم له سرادق كبير، دعي إليه جم غفير من المحلة، ومما حولها من البلدان. وقد تحدث بعض الإخوة، ثم كان حديث الأستاذ في الختام.

وفي أثناء حديث الأستاذ حدث هرج ومرج، استطاع الأستاذ معه أن يسيطر على الموقف بسرعة، ويمتلك قلوب الحاضرين.

ذلك أن جماعة من الحزبيين بالمحلة أرادوا أن يفسدوا حفل الإخوان، بافتعال معركة مع الإخوان، وبمجرد حدوث ضجة سينفرط العقد، ويختل النظام، ويهيج الناس، فينفض الحفل لا محالة.

هكذا خطط المخططون، وكاد الكائدون، ولكن الله رد كيدهم في نحورهم، فقد تجمعوا يحملون عصيهم وهراواتهم، واقتربوا من الحفل وهم يهتفون هتافات معادية. وكانت الخطة أن يصلوا إلى السرادق، وهم يرددون

هتافاتهم متحدِّين للإخـــوان، فيرد عليهـــم الإخوان بهتافات ضـــد هتافاتهم ويصطدم الفريقان، وبمجرد أن يحدث الاحتكاك، سيحدث الاختلال.

وقد كادت الخطة تنجح، لولا موقف الأستاذ البنا، الذي أحس بأن شيئًا بالخارج يحدث، فقال للحاضرين: أيها الإخوة، الزموا أماكنكم، فوالله ما نريد بأحد ســـوءًا، ولكن نريد لهذه الأمـــة أن تنهض من كبوتهـــا، وأن تتوحد من فرقتها، وأن تعتصم بحبل الله جميعًا ولا تتفرق.

وارتفع صوت الأســـتاذ، وهو يقول بلهجة ثائرة لم أره ثار مثلها من قبل: إننا أقوياء بالله، فلن نضعف أبدًا، أعزاء بالله، فلـــن نذل أبدًا، أغنياء بالله، فلن نفتقر أبدًا. إننا نريد أن نؤدب الأمة بأدب جديد، هو أدب الإسلام، وأن نربيها على خلق الإســـلام، وأن نقودها بمنهج الإسلام، لتســـير خلف أعظم قائد، وأشرف قائد، محمد ﷺ.

هذه الكلمات الثائرة، التي انطلقت من فم حســـن البنا كأنها القنابل في دويها، كانت بردًا وسلامًا على سامعيها، شـــدتهم إلى الرجل شدًّا، وأسرتهم أسرًا، وبقي كل واحد في موضعه لم يتحرك يمنة ولا يسرة.

في هذه الحالة كان جوالة الإخوان قد أنهوا تلك الحركة المشاغبة، وفرّقوا جمعهم، وأمسكوا ببعضهم، وولى الآخرون هاربين.

وهنا عاد البنا يقول: كنا نتحدث عن كذا وكذا، كأن شيئًا لم يكن، وانتهى الحفل على خير حال.

وذهب الأســـتاذ بعد ذلك إلـــى دار الإخوان ليلتقي بنواب الشُّـــعَب، ثم بالعمال، ثم بالطلاب، وظل في اجتماعات إلـــى أن بقي على الفجر حوالي ساعة، فقال: أستأذنكم لأستريح هذه الســـاعة، ودخل حجرة ليستريح، وبعد ساعة، وجدناه خارجًا، فلا أدري هل نام هذه الساعة أو لم ينم؟ الذين عايشوه قالوا: إنه إذا أراد أن ينام نام، وكان يقول: إذا أحب الله عبدًا سخر له النوم!.

وجاء الفجر، فصلَّى بنا، وقرأ سورة (قَ) في الركعتين.

وبعد ذلك أخلدنا نحن إلى النوم، ولا ندري ماذا فعل الشيخ بعد ذلك.

وعندما استيقظنا في الضحى، علمنا أن الشيخ مدعوٌّ إلى قرية (محلة أبو علي) بجوار المحلة، لتناول الغداء فيها، ثم إلقاء محاضرة في أحد مساجدها.

ومن هنا سافرت إلى محلة أبو علي، لألتقي بأصدقائي فيها، ولننتظر الشيخ هناك، وقد صلينا العصر في المسجد العباسي مع الأستاذ المرشد، وألقى محاضرة بعد العصر، نوّه في مقدمتها بعلماء البلدة ودعاتها، مثل الشيخ أحمد القط.

وبعد انتهاء المحاضرة ودّع الشيخ إخوانه ومضيفيه في محلة أبو علي، ليولي شطره نحو مدينة (بلقاس) وهي آخر محطة في هذه الرحلة الدعوية، ليعود من جديد إلى القاهرة، ليستعد لرحلة أخرى، فهكذا هو أبدًا، حل وارتحال، وحركة وانتقال، وقد سمعته مرة يقول: نحن كالعرب أصحاب الخيام:

لعذيب يومًا، ويومًا بالخليصاء ويومًا بحزوى، ويومًا بالعقيق

وكنت كلما سافرت إلى القاهرة، انتهزت الفرصة للذهاب إلى المركز العام للإخوان، ومحاولة اللقاء بالشيخ البنا، وقلما يسعفني القدر أن أجده، فقد كان دائم التجوال في أرجاء مصر.

وفي إحدى الزيارات وجدنا الإمام البنا، وكنا مجموعة من طلاب الأزهر، وطلبنا إليه أن يجلس إلينا، ولكنه قال لنا بأدب: كان يسعدني أن أجلس معكم، وأتحدث إليكم، ولكني للأسف مرتبط بموعد آخر، ولكني سأنيب بعض الإخوان ليجلس إليكم، ونادى الشيخ أحمد الباقوري لينوب عنه في الجلوس والحديث، وجلسنا معه جلسة طيبة، ولكنها لم تكن التي ننشدها، ولم نجد فيها ما يروي ظمأنا.

وأذكر أننا أخذنا صورة على سلم المركز العام مع الإمام الشهيد، ولا أدري: أيحتفظ أحد بهذه الصورة أم لا؟ فليس لي مع الإمام غير هذه الصورة.

- **الإمام البنا وقضية فلسطين:**

كان الإسلاميون هم الذين يعون تمامًا الخطر اليهودي وأطماعه وأهدافه في المنطقة العربية والإسلامية، وكان في مقدمة هؤلاء الإسلاميين الوعاة لهذا الخطر وأبعاده: الشيخ حسن البنا، الذي كان يتابع من قديم ما يجري على الأرض المقدسة من أحداث، وما يُخطط لها من مكايد، وما يقوم به أهلها من ثورات، وما يبذلونه من أرواح.

ومن أول القضايا التي اهتم بها الشهيد البنا، ولفت إلى خطرها الأنظار، وأثار الهمم، وحرك الجماهير: قضية أرض النبوات، أرض الإسراء والمعراج، أرض فلسطين، والخطر اليهودي الذي يتربص بها، في الوقت الذي كان الكثيرون من زعماء العرب والمسلمين في غفلة عن المؤامرة الكبرى التي تبيَّت لأولى القبلتين، المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

وكم كتب حسن البنا من مقالات، وكم قاد من مسيرات، وكم عقد من مؤتمرات، وكم جند من رجال، وكم جمع من سلاح ومال، من أجل قضية فلسطين.

وحسبه ما سطرته دماء الشهداء من أبنائه وجنوده على أرض فلسطين سنة (١٩٤٨م)، وما سجله لهم التاريخ بأحرف من نور، كما شهد بذلك اللواء المواوي، وغيره من قادة الجيش المصري، بل ما شهد به اليهود أنفسهم.

وفي كتاب الأستاذ كامل الشريف (الإخوان المسلمون وحرب فلسطين) صفحات مضيئة لهذا الجهاد المجيد، وفيه من الوقائع والحقائق ما يكفي ويشفي.

كان أهم ما يقوم به حسن البنا وأمثاله من رجال الأمة ودعاتها: مقاومة موجة الغفلة التي غشيت الأمة، وموجة الاتهام والتخوين لأهل فلسطين، الذين أشاعوا عنهم زورًا بأنهم باعوا أرضهم لليهود، وأنهم تقاعسوا عن الجهاد، وهذه أكاذيب لفَّقَها اليهود والمستعمرون، فالواقع أن الذي بِيع من أرض فلسطين لا يتجاوز (٢٪) منها، وكان الذين باعوها من الأجانب، ومن غير المسلمين، كما أن أهل فلسطين قاوموا المشروع الصهيوني بكل ما في وسعهم، ولكن الانتداب البريطاني على فلسطين كان يقف في سبيلهم، ويمنعهم من امتلاك أي سلاح يدافعون به عن أنفسهم، على حين يتيح لليهود كل أسباب القوة، بل العدوان.

والعجيب أن السياسة الاستعمارية والصهيونية ـ التي استجاب لها العرب وقادتهم ـ هي أن يعزل الشعب الفلسطيني عن قضيته، ويبعد عن ممارسة حقه في الدفاع عن أرضه ومقدساته، على خلاف السياسة المتبعة اليوم، والتي توحي بها بل تفرضها القوى المعادية للإسلام والعروبة، وهي ترك القضية للفلسطينيين وحدهم، بعد أن تحولت (إسرائيل) إلى أخطبوط في المنطقة، وإلى ترسانة عسكرية ضخمة، وهذا في الوقت الذي تعتبر إسرائيل كل يهودي في العالم مسؤولًا عنها.

كان حسن البنا على وعي كامل بهذه الحقائق كلها، ويجتهد أن يشيعها بين الناس، وأن يزيح عن الأعين الغشاوات حتى ترى، ويزيل الوقر من الآذان حتى تسمع.

وكان له علاقة برجال فلسطين، وعلى رأسهم المجاهد الكبير الحاج أمين الحسيني، وكان يجند مجلته (النذير) ثم (الإخوان) لإيقاظ الأمة نحو القضية وتطوراتها، وينتهز فرصة ذكرى الإسراء والمعراج، ليذكر بـ(المسجد الأقصى)، كما يتخذ من (٢ نوفمبر) ذكرى وعد (بلفور) لتعبئة الأمة ضد هذا

الوعد الذي صدر ممن لا يملك لمن لا يستحق، والذي علَّق عليه الحاج أمين بقوله: إن فلسطين ليست وطنًا بغير شعب حتى تستقبل شعبًا بغير وطن!.

وفي سنة (١٩٣٦م) أصدر عددًا خاصًا من مجلة (النذير) عن ثورة فلسطين، وكتب فيه مقالًا عن (صناعة الموت)، يحرض الأمة فيه على الجهاد، والاستعداد للموت في سبيل الله، فمن حرص على الموت وهبت له الحياة.

وفي سنة (١٩٤٦م) أرسل العالم الداعية الشيخ عبد المعز عبد الستار، ليطوف بمدن فلسطين مشرِّقًا ومغرِّبًا، لتنبيه العقول، وإحياء القلوب، وإشعال المشاعر، وتجميع الصفوف، وقد بقي الشيخ عبد المعز ـ كما سمعت منه ـ شهرين كاملين في فلسطين، ولكنه عاد من هناك يحمل همًّا كبيرًا، ويشفق على مصير فلسطين؛ فحينما زار المسجد الأقصى لم يجد فيه غير صفين أو ثلاثة، فآلمه ذلك أشد الإيلام، ولما قال لبعض المقدسيين ذلك، قال له: صحيح أن الصلاة ثقيلة عليهم، ولكن إذا ناديتهم إلى المعركة لبوا النداء في سرعة البرق! وقال لهم الشيخ: إن أول الجهاد أن نجاهد أنفسنا، وأن ننتصر عليها، والله تعالى يقول: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

ومما لاحظه الشيخ أن القادة كلهم غائبون، الحاج أمين الحسيني منفي في الخارج، والآخرون متفرقون. كما لاحظ أن اليهود يعملون ليل نهار، وفي غاية من اليقظة والاستعداد، والعرب ليسوا على هذا المستوى، ولهذا حين عاد إلى مصر قال للأستاذ البنا: الحقيقة أن دولة اليهود قائمة بالفعل، ولا ينقصها إلا الإعلان عنها!.

وفي سنة (١٩٤٧م) بدأ الاستعداد بتهيئة الإخوان لمعركة قادمة لا ريب فيها، ولا سيما بعد رفض قرار التقسيم، وبعد استفحال أمر العصابات الصهيونية التي تعمل بدهاء وتخطيط ومكر، في حماية الانتداب البريطاني، الذي أفسح المجال للهجرات الجماعية لليهود من أنحاء أوربة ـ وخصوصًا الشرقية ـ وأمريكة

وغيرها، ليبنوا مستعمراتهم في سائر أرض فلسطين، ومكنهم أن يسلحوا أنفسهم، في حين حرم أهل البلاد من حمل أي سلاح، ولو كان قطعة صغيرة.

جاءت سنة (١٩٤٨م) والقِدْر تزداد غليانًا، ومعسكرات التدريب تستقبل الشباب ليوم معدود، وكان كثير منا متحمِّسِين لخوض المعركة ضد اليهود، ولكن قرار (مكتب الإرشاد) بالقاهرة: ألا يشارك طلاب الثانوي في الجهاد، ويكتفى بطلاب الجامعة وغيرهم من أبناء الشعب.

وكنا نحن دعاة الإخوان نطوف المدن والقرى، نحرض على الجهاد بالنفس وبالمال، وأحيانًا نركز على المال لشدة الحاجة إليه لشراء السلاح للإخوان في فلسطين ونجمع لهم السلاح إن وجدناه، ونعبئ مشاعر الأمة وأفكارها، لتستعد لمعركة آتية عن قريب مع بني صهيون، الذين زرعهم الغرب في المنطقة، ولا يزال يساندهم ويؤيدهم عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا.

وقد تجلى ذلك للعيان، حين أعلن قيام الكيان الصهيوني العدواني الذي سمي (إسرائيل)، فاعترفت أمريكا بها في الحال، وبعدها بريطانيا وفرنسا وروسيا وغيرها، وأعلن الجميع أنها خُلقت لتبقى.

- **الإمام البنا والأزهر:**

لم يكن الأزهر غريبًا عن دعوة حسن البنا، بل كان حضوره بأبنائه وإسهامهم في الدعوة واضحًا من أول يوم.

فقد كان من المؤسسين الأوائل للدعوة مع الأستاذ البنا: الشيخ حامد عسكرية، الذي ذكره الإمام البنا في مذكراته (مذكرات الدعوة والداعية) في أكثر من مكان، والذي شهد له كل من عرفوه بأنه كان عالمًا وواعظًا أزهريًا متميزًا من الرجال المخلصين والمتجردين، نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله.

وقد قدر الله تعالى أن تخترمه المنيَّةُ في شبابه، وينتقل إلى جوار ربه والدعوة لا تزال في طورها الأول.

وكان من الأوائل الشـــيخ أحمد عبد الحميد، وقد كان أحد المعتقلين في الطور (١٩٤٩م).

ومن علمـــاء الأزهر الذين التحقوا بالدعوة وهم طـــلاب عدد من الرعيل الأول، من أمثال: الشـــيخ أحمد حســـن الباقوري، والشـــيخ محمد الغزالي، والشيخ عبد المعز عبد الستار، والشيخ محمد فرغلي، والشيخ أحمد شِرِيت، والشيخ سيد سابق، والشيخ عبد اللطيف الشعشاعي، وغيرهم ممن كان له باع رحب في الدعوة، لا يجهله أحد.

وكان الشيخ البنا حفيًّا بالأزهر ورجاله، وكانت علاقته ـ كما علمتُ ـ طيبة بالأستاذ الأكبر الشيخ المراغي رَحِمَهُ اللَّهُ، وبكثير من كبار الشيوخ.

وحين كُلِّف الأستاذ البنا إصدار (مجلة المنار) بعد وفاة مؤسسها العلَّامة المجدد محمد رشيد رضا، كتب الإمام المراغي مقدمة لأول عدد أصدره البنا، فكان مما قال فيه:

«والآن قد علمتُ أن الأستاذ حسن البنا يريد أن يبعث المنار، ويعيده سيرَتَه الأولى، فسرني هذا؛ فإن الأستاذ البنا رجل مسلم غيور على دينه، يفهم الوسط الذي يعيش فيه، ويعرف مواضع الداء في جســـم الأمة الإسلامية، ويفقه أسرار الإســـلام، وقد اتصل بالناس اتصالًا وثيقًا على اختلاف طبقاتهم، وشغل نفسه بالإصلاح الديني والاجتماعي على الطريقة التي كان يرضاها سلف هذه الأمة.

(وبعد) فإني أرجو للأستاذ البنا أن يكون على سيرة السيد رشيد رضا، وأن يلازمه التوفيق كما صاحب الســـيد رشيد رضا، والله هو المعين، عليه نتوكل، وبه نستعين»[1].

وأذكر أنه في حفل من الاحتفالات التي أقيمت في طنطا، حضر عدد من

---

(١) تصدير مجلة المنار، جمادى الآخرة ١٣٥٨هـ يوليو ١٩٣٩م.

علماء المعهد، على رأسهم الشـيخ محمد أبو طبل وكيل المعهد، وقد رحب الأستاذ بهم ترحيبًا خاصًا، وقال لهم: أنتم الجيش الرسمي للدفاع عن الإسلام، ونحن الجيش الاحتياطي من ورائكم، فقودوا الركب تجدونا من خلفكم.

• **اغتيال الإمام البنا:**

وفي يوم (١٣ فبراير سنة ١٩٤٩م) خرجنا من سـجن القسم الأول بطنطا، لنرى الشمس ساطعة بعد أن غابت عنا هذه الفترة الطويلة، ولكن هذه الشمس سـرعان ما أظلمت في وجوهنا حين طالعتنا الصحف التي حُجبت عنا هذه المدة، ووجدنا عناوينها الرئيسة تحمل هذا النبأ المفجع: (اغتيال حسن البنا) كما في جريدة الأهرام، أو (مصرع الشيخ البنا) كما في جريدة المصري.

ضاقت الدنيا في أعيننا، وضاقت علينا الأرض بما رحبت، وضاقت علينا أنفسـنا، وظننا ألا ملجأ من الله إلا إليه.. بهذا النبأ الذي كان صدمة هائلة لنا، وإن كنا نخافه ونتوقعه، منذ أن اعتقل الإخوان، وتُرك قائدهم طليق السـراح؛ ليكون صيدًا سمينًا لهم، ولا سيما أن الأستاذ رفض أن يختفي، أو يذهب ضيفًا لدى بعض القبائل العربية، أو تكون عليه حراسـة مشددة، رفض الرجل ذلك كله، مفوّضًا أمره وحراسته إلى الله؛ فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

عرفنا من الصحف أن الأستاذ اسـتُدرج إلى جمعية (الشبان المسلمين)، ليلقى بعضَ الناس، ضمن مساعي الوساطة التي كان يسعى إليها الأستاذ، وما إن غادر الدار، حتى أُطلقت عليه رصاصات المجرم الأثيم، الذي استقلَّ سيارة كانت تنتظره، الْتقط الأسـتاذ البنا ـ برغم إصابته ـ رقمها، وأملاه على رفيقه وصهره الأسـتاذ عبد الكريم منصور المحامي، وكانت هي المفتاح الذي جرَّ المجرمين إلى المحاكمة فيما بعد.

كان يمكن أن يُسعف الأستاذ، وأن يوقف النزيف، وتنتزع الرصاصات من الجسد، بقدر الله ووفق سنته، ولكن وقع إهمال جسيم متعمَّد، فظل دم الرجل

ينزف، ولا يقدم له الإسعاف السريع اللازم، حتى قضى نحبه، وتحققت له (الموتة الحسنة)، التي كان يدعو الله أن يحققها له، وقد فسرها في خطابه في طنطا: أن يُفصل هذا الرأس عن هذا الجسد في سبيل الله. وصدق الله إذ يقول: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

لم يجد حسن البنا شهيد الظلم والطغيان من يشيّع جنازته، بل من يحمل نعشه، حتى قيل: إن الذي حمله النساء. ولم يجد والده الصابر المحتسب العالم المحدث الجليل الشيخ: أحمد عبد الرحمٰن البنا الساعاتي، من يعزيه في ابنه الفقيد، الذي كان ملء السمع والبصر، فقد كان بيت الفقيد محاصرًا برجال الأمن، وكان كل من يقترب منه أو يحوم حوله يُقبض عليه. رجل واحد ـ فيما نعلم ـ هو الذي ذهب للعزاء، وهو الزعيم القبطي المعروف مكرم عبيد باشا.

وهكذا قتلوه أكثر من مرة؛ قتلوه بإطلاق الرصاص الآثم، وقتلوه بترك الإسعاف المتعمد، وقتلوه بمنع تشييعه والعزاء فيه، وذلك كله ليتضاعف أجره ومثوبته، ويعلو مقامه عند الله:

جزى الله خيرًا من إمامٍ وباركتْ يدُ الله في ذاك الأديمِ المُمَزَّقِ

لم يكن حسن البنا مجرد رئيس جماعة، ولو كان كذلك لأمكن بسهولة أن تستبدل الجماعة رئيسًا برئيس، ولكن علاقته بأنصار دعوته علاقة الأستاذ بتلاميذه من الناحية العقلية، وعلاقة الشيخ بمريديه من الناحية الروحية، وعلاقة الأب بأبنائه من الناحية العاطفية، وعلاقة القائد بجنده من الناحية التنظيمية.

وكان كل من عاشر حسن البنا يحمل ذكريات عنه؛ مواقف يحكيها، أو كلمات يحفظها، أو نكتة يرويها، أو لفتة إنسانية يتحدث عنها.

وهو الذي بذر البذرة، وتعهدهـا بالرعاية، حتى نمَتْ وأورقت وأزهرت، وامتدت جذوعها في الأرض، وفروعها في السماء، وكان المرجوَّ أن يمد الله في حياته حتى تؤتي أُكُلها بإذن ربها.

ولهذا كان فقده في هذا الوقت خسارة كبيرة على الجماعة، وخسارة كبيرة على الوطن، وخسارة كبيرة على الأمة، ولكن هذا قدرُ الله الذي لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، وقد بذر الرجل البذرة، ووضع الأسـاس، وارتفع البناء، وربَّى جيلًا من الرجال، قادرًا على أن يحمل اللواء، ويمضي بالسـفينة رغم تلاطم الأمواج، ولن يتخلى عن دعوته، وإن سقط القائد في الميدان.

ونحن أناسٌ لا نرى القتلَ سبةً ... إذا مـا رأتْـهُ عامـرٌ وسـلولُ
إذا مـاتَ منا سـيدٌ قام سـيدٌ ... قؤول لما قـال الكـرام فعولُ

كان حسـن البنا من الأفراد القلائل الذين يمن بهم القدر على الأمم في فترات وهنها وهوانها، لتنهض من كبوة، وتصحو من غفوة، وتُبعث من همود، وتتحرك من جمود، وتقوم من قعود.

• **زيارة والد الإمام البنا:**

سعدنا بزيارة المحدث الجليل الشيخ أحمد عبد الرحمٰن البنا، والد الأستاذ حسن البنا في حارة الروم بالغورية، وكان معي الأخ الدمرداش، وحدثنا عن عمله الكبير في موسوعته الفريدة التي يعمل فيها منذ سنين، وهي ترتيب مسند الإمام أحمد على الموضوعات، وشرحه وتخريج أحاديثه، والذي سماه (الفتح الرباني) وهو عمل تنوء بمثله المجامع، وقد عاش له الرجل حتى أنجزه، وبدأ بطبعه على نفقته، كما رتب مسند الشافعي والسنن، ومسند أبي داود الطيالسي وغيرها من الكتب. وعاش الرجل للحديث وعلومه، وإن كان ظل يكسب عيشه من إصلاح الساعات، وقد مهر فيها وأتقنها، حتى غدا مشهورًا بها ويلقب بـ(الساعاتي).

* * *



٢ العلَّامة محمد عبد الله دراز

شيخ العلماء ورائد الفلاسفة ورجل الفكر والدعوة والتربية

(١٣١٢ ـ ١٣٧٧هـ = ١٨٩٤ ـ ١٩٥٨م)

فقد العالم العربي، والعالم الإسلامي، والعالم الإنساني، في عشية يوم الاثنين (١٦) من شهر جمادى الثانية سنة (١٣٧٧هـ)، الموافق (٦) من يناير سنة (١٩٥٨م)، العلَّامة الذي كان في عصره ـ بحقٍّ ـ الحبر البحر، الفهَّامة القرآني، والعالم النوراني، والمعلم الربَّاني، محمد عبد الله دراز.

كان الشيخ دراز رَحِمَهُ اللَّهُ من العلماء الموسوعيين، الذين جمعوا بين علوم الشريعة وثقافة العصر، وأجاد الفرنسية إجادته لعلوم العربية، فهو ابن الأزهر، وابن السوربون، فإن شئت نسبته إلى جامع (الأزهر)، فهو ابنه البار، وتكوينه الأزهري قوي متين، وإن شئت نسبته إلى جامعة (السوربون)، فهو من خريجيها الذين تعتزُّ بهم، وتفخر بانتمائهم إليها، وهو أحد رجال الفلسفة والأخلاق المعدودين في عالمنا العربي والإسلامي، ولكن دراسته في السوربون لم تُخرجه عن أزهريَّته العريقة، حتى إنه من القليلين الذين بقوا على زيِّهم الأزهري ـ الجُبَّة والعمامة ـ بعد عودتهم من بعثتهم إلى الخارج.

- **معرفتي بالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:**

عرَفتُ الشيخ وأنا طالب بكلية أصول الدين، حين قرأنا بعض فصوله وكتبه المتميزة العميقة، مثل: (النبأ العظيم) و(الربا) وغيرهما، وزرناه ـ أنا وبعض إخواني ـ طالبين معونته لكتيبة الأزهر التي نعدُّها لتذهب إلى القناة؛ لمقاومة الاحتلال البريطاني، فشجَّعنا وشدَّ أزرنا، ولم يبخل علينا بمادة ولا نصيحة.

وفي تخصُّص التدريس، كان يدرِّس لنا علم الأخلاق، فكان آية في شرحه، وآية في عمقه، وآية في أسلوبه، وحسن بيانه، وكنا ننتظر محاضرته في لهف وشوق، كشوق الظمآن إلى الماء العذب البارد؛ لا لنتعلَّم منه العلم فقط، ولكن لنتعلَّم أيضًا طريقة التعليم.

وبعد خروجنا من السجن الحربي سنة (١٩٥٦م)، زرتُه أنا والأَخَوَان: أحمد العسال، وأحمد حمد، أكثر من مرَّة في بيته في شارع أبو بكر الصديق في مصر الجديدة، والحقُّ أنه هشَّ لنا، ورحَّب بنا، وفتح لنا صدره، كما فتح لنا بيته.

- **طلب زيارة دورية:**

وكنا نرى أن وجود مثل هذا الشيخ العلَّامة، الذي يتميَّز بالموسوعية وبالمنهجية، وبالتحقيق والتعميق والتدقيق، وبحسن تناول المسائل الصعبة والعويصة بطريقة تجعلها سهلة سلسة، وباستخدام البيان الأدبي في أسلوبه الذي يجمع بين إقناع العقول وإمتاع العواطف، ويضمُّ إلى رصانة الأصالة رونق المعاصرة، كنا نرى وجوده نعمة من الله للأمة، وفرصة يجب أن يستفيد منها طلَّاب العلم، وعشَّاق الفكر الأصيل المجدِّد، فطلبنا إليه ـ نحن الثلاثة ـ أن يتيح لنا فرصة زيارته دوريًّا: كلَّ أسبوع، أو كلَّ أسبوعين، لنتتلمذ عليه، ونتلقَّى عنه العلم والعمل، ونقتبس منهجه، ونُشْرَب رُوحه.

ولقي هذا الاقتراح منه رضًا وترحيبًا، وكان يُعِدُّ العُدَّة للسفر إلى لاهور لحضور مؤتمر الأديان، الذي سيذهب إليه ممثِّلًا للأزهر، فوعدنا أن نرجئ ترتيب هذا اللقاء وتحديد مواعيده ومنهجه وموضوعاته إلى ما بعد عودته من المؤتمر.. وشاء الله تعالى ألا يعود الشيخ من المؤتمر، وأن يوافيه الأجل المحتوم هناك، وأن يعود الشيخ جثمانًا محمولًا، ليُصلَّى عليه في الجامع الأزهر، ويُدفن في مصر.

• **زهد الشيخ دراز** رَحِمَهُ اللَّهُ :

كان شيخنا دراز من العلماء الربَّانيين، الموصولين بالله تبارك وتعالى، وإن لم يُعرف عنه الانتساب إلى التصوُّف، مثل الشيخ عبد الحليم محمود. وما ذهبنا إليه في بيته إلا وجدناه يتلو القرآن استظهارًا، لقوَّة حفظه له، يتعبَّد بتلاوته، فقد كان وقته معمورًا بذكر الله، أو بفعل الخير، أو بخدمة العلم.

وما حدَّثناه وجلسنا إليه، إلا وجدناه مشغولًا بأمر الإسلام وهموم المسلمين.

وقد عرض عليه رجال الثورة بواسطة مندوبين منهم: منصب مشيخة الأزهر، وحسبوا أن الرجل سيسارع بالقَبول والتلبية، ولكنهم فوجئوا به يشترط شروطًا لقَبول المنصب، ومنها: أن تطلق يده في إصلاح الأزهر. فخرجوا من عنده، ولم يعودوا إليه. إنهم لا يريدون مَن يشترط عليهم شرطًا، بل مَن يقبل بلا قيد ولا شرط، ويقدِّم إليهم الحمد والشكر.

ولم يكن هذا شأن الشيخ، الذي يرى في المنصب تكليفًا لا تشريفًا، وفرصة للإصلاح والبناء، لا للظهور والأضواء.

• **آثاره:**

كان أحد العلماء الراسخين في علوم العقيدة والفلسفة، وقد ترك لنا جملة آثار مهمَّة، تدلُّ على شخصيَّته الفلسفية، وهي:

ـ كتاب (**الدين**)، الذي ألقاه محاضرات على طلبة كلية الآداب، بوصفه بحوثًا ممهِّدة لتاريخ الأديان، والتي دعاه إليها صديقه وعارف فضله الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي، أستاذ التربية في كلية الآداب.

ـ ورسالته التي نال بها درجة الدكتوراه من السوربون، والتي ترجمها أخونا الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين بعنوان: (**دستور الأخلاق في القرآن الكريم**)، وهي أدلُّ على شخصية الشيخ الفكرية.

ـ **والأثر الثالث**: رسالته الموجزة والمركَّزة، التي سمَّاها (**كلمات في مبادئ علم الأخلاق**)، والتي سعدنا بتدريسه إياها لنا في تخصُّص التدريس.

وهناك بحوث ومقالات أخرى تؤكِّد هذا الاتجاه الكلامي والفلسفي في شخصية الشيخ العلميَّة، حتى نجد ذلك بوضوح في شرحه لبعض الأحاديث النبوية، وفي تفسيره لبعض الآيات القرآنية.

ـ وكان الشيخ أيضًا أحد العلماء الراسخين في التفسير وعلوم القرآن، وقد ترك لنا من دلائل ذلك: كتابه الرائع (**النبأ العظيم**)، وهو كتاب متفرِّد، ويحتوي نظرات جديدة ومتميِّزة في الإعجاز البياني أو الأدبي للقرآن، لم ينسجه على منوال أحد قبله في مضمونه وأسلوبه.

ـ كما ترك كتابه (**مدخل لدراسة القرآن الكريم**)، وقد كتبه بالفرنسية، ثم تُرجم إلى العربية.

ـ وترك الشيخ كذلك (**تفسير الفاتحة**)، و(**مقدمة التلاوة**) لعدد من سور القرآن الكريم، وكلُّها تدلُّ على عمق نظرات الشيخ إلى كتاب الله، وتذوُّقه لمعانيه، وغوصه في أسراره.

ـ وكان الشيخ كذلك من الراسخين في علوم السنة، ولا سيما في فقه الحديث، وشرحه، كما تبيَّن ذلك من كتابه القيم (**المختار من كنوز السنة**)، الذي شرح فيه جملة من الأحاديث النبوية.

ـ وقد قام بتخريج أحاديث (الموافقات) الذي حقَّقه والده، تخريجًا موجزًا يدلُّ على مدى اهتمامه بالحديث منذ شبابه.

وكان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في كلِّ ما يكتبه متميِّزا في منهجيَّته، متميِّزا في عمقه، متميِّزا في أسلوبه.

ـ وقد شرع في بعض البحوث، ولكن لم يمهله القدر حتى يكملها، مثل: كتابه (**الميزان بين السنة والبدعة**)، أراد به أن يحدِّث كتاب (الاعتصام)

للشاطبي، وأن يعرضه بلسان العصر، وكما أن الشاطبي مؤلِّف الأصل ـ وهو (الاعتصام) ـ لم يكمله، فكذلك مؤلف (الميزان).

وكان الشيخ عضوًا في جماعة كبار العلماء، كما كان موضع ثقة مشيخة الأزهر في عهوده المختلفة، وكان يكلَّف بتمثيل الأزهر في المؤتمرات العالمية.

مثَّل الأزهر في (مؤتمر الحقوق الدولية) المنعقد في باريس سنة (١٩٥١م)، وفيه كتب بحثه عن (الربا).

وكذلك مثَّل الأزهر في (مؤتمر العلاقات الدولية)، وكتب رسالته (الإسلام والعلاقات الدولية).

وآخر ما مثَّل فيه الأزهر (مؤتمر الأديان)، الذي أُقيم بمدينة لاهور باكستان، وفيه وافاه أجل الله، الذي إذا جاء لا يؤخَّر.

- **قُوَّتُه في الحق:**

حكى لنا شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ اللَّهُ عن موقف له في المجلس الأعلى للإذاعة، وقد كان عضوًا فيه: أنهم أرادوا أن يجعلوا وقت قراءة القرآن في الافتتاح والختام، وبعض الفترات محسوبًا على نصيب الدين فقط، فقال لهم: إن سماع القرآن ليس دينًا فقط؛ إنه استمتاع أيضًا بالفن والجمال المودع في القرآن، والمؤدَّى بأحسن الأصوات.

- **وفاته:**

وافته المنية رَحِمَهُ اللَّهُ في مؤتمر الأديان في لاهور سنة (١٩٥٨م)، وقد استقبلنا الشيخ لنصلِّي عليه مع ألوف المصلِّين من أبناء الأزهر، ونبكيه مع الباكين من أبناء الأمة، وندعو أن يتقبَّله الله في الأئمة الصادقين، وأن يعوِّض الأمة فيه خيرًا.

* * *



٣ الشيخ الفضيل الورتلاني

عضو جمعية العلماء بالجزائر

(١٣٢٣ ـ ١٣٧٨هـ = ١٩٠٦ ـ ١٩٥٩م)

الداعية العالم المجاهد الكبير الشيخ إبراهيم بن مصطفى الجزائري، المعروف بالفضيل الورتلاني، أحد رجالات الجزائر، ومجاهدي علمائها المرموقين، وهو تلميذ العلَّامة الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أَسسسها وإخوانه سنة (١٩٣١م)، نشأ في بيت علم وفضل، فجده الشيخ الحسين الورتلاني من العلماء المعروفين.

وقد ابتُعث الورتلاني إلى فرنسا مندوبًا لجمعية العلماء، حيث أقام في باريس من سنة (١٩٣٦م) إلى سنة (١٩٣٨م) يبث الروح الإسلامية العظيمة في العمال والطلبة الجزائريين بفرنسا، وهناك أنشأ الأندية، لتعليم اللغة العربية، ومبادئ الدين الإسلامي، ومحاربة الرذيلة في أوساط المسلمين المقيمين بفرنسا، واستطاع خلال عامين أن يفتح الكثير من الأندية الثقافية في باريس وضواحيها، والمدن الفرنسية الأخرى، وكانت تلك الأندية تحتوي على قاعة للصلاة، ومدرسة لتعليم الدين الإسلامي، وتدريس اللغة العربية.

- **معرفتي به:**

كنت أعرف الفضيل عن طريق السماع من إخوان القاهرة، الذين التقوا به، وتحدثوا معه، وعرفوا فضله، ولكن نحن الشباب الذين كنا نعيش بعيدًا عن القاهرة، لم يتح لنا ذلك.

أول مرة التقيتُ فيها الشيخَ الورتلاني، حين زرت لبنان في أغسطس سنة (١٩٥٢م)، بعد قيام انقلاب الجيش المصري في (٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م).

وكانت فرنسا قد أصدرت حكمًا بنفيه من الجزائر، لخطورته ونشاطه، فوصل إلى القاهرة والتقى بجماعة الإخوان المسلمين وقد بقي في القاهرة مدة من الزمن.

وقد كان قبل ذلك على صلة وثيقة بالأستاذ البنا، وقد كلفه الأستاذ البنا بملف (اليمن) والاتصال بأحرارها ورجال الإصلاح فيها، وكان له دور معروف غير منكور في انقلاب اليمن على الإمام يحيى حميد الدين، وقد أخفق الانقلاب الذي قام به ابن الوزير، وسيف الإسلام إبراهيم ابن الإمام يحيى، وعدد من رجال الإصلاح باليمن، بعد أن نجح أول الأمر، ولكنه لم يستقر، وقد فر الأستاذ الورتلاني من اليمن، بوسائله الخاصة، وبمعاونة بعض اليمنيين، وحاول أن يجد بلدًا يؤويه، فلم يجد، وظل على ظهر الباخرة شهرين، حتى استطاع بوسيلة أو بأخرى أن ينزل إلى بيروت، باسم مستعار. ويُعرف بين الناس باسم (أبو مصطفى)، الذي عرف به في لبنان، وظل يلتقي بالناس بهذا الاسم.

وكانت فرصة طيبة لي أن التقيت به، وتحدثت طويلًا إليه، واستمعت إلى أفكاره في الإصلاح، واقترحت عليه أن ينزل إلى مصر، بعد تغير الوضع وزوال الملكية، ووافق على ذلك، على أن ينزل في صورة تليق بمكانته وتاريخه.

وكان اللقاء الثاني به في القاهرة، بعد أن ترك بيروت، ودخل مصر معززًا مكرمًا من رجال ثورة يوليو، كونه أحد رموز الجهاد الوطني والعربي.

وقد رجا أن يراني في القاهرة حين يعود إليها، وقد أرسل إليّ لأزوره حيث يقيم، فاصطحبت أخي محمد الدمرداش رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي كان يسكن معي، وذهبت لزيارته، فحدثنا عن بعض تجاربه في حياته الحافلة، وهي حياة مثيرة خصبة التجارب، وسألته أن يحدثنا عن شيخه الشيخ عبد الحميد بن باديس

مؤسس (جمعية علماء الجزائر) التي قامت بدور لا يجحده عربي، في نهضة الجزائر، وإعادتها إلى هويتها العربية الإسلامية، بعد استماتة فرنسا في القضاء على هذه الهوية، بالفَرْنَسة التي تريد أن تلغي ـ أول ما تلغي ـ الإسلام والعروبة من الجزائر، وقام الشيخ ابن باديس، وإخوانه: البشير الإبراهيمي، والعربي التبسي، وغيرهم بمقاومة الفرنسة، بحركته الإسلامية العربية التعليمية التربوية التثقيفية الدعوية في كل ربوع الجزائر، وأنشأ الشيخ ابن باديس نشيده الذي كان يحفظه الجزائريون ويرددونه:

شعبُ الجزائرِ مسلم وإلى العروبةِ يَنتسب
من قالَ: حادَ عنَ اصْله أو قال: ماتَ، فقد كَذَب
أو رامَ إدماجًا له رامَ المُحَالَ مِنَ الطَّلَب

وأسَّس ابن باديس مجلة (الشهاب) التي كان يكتب فيها هو وإخوانه لتعميق فكرتهم، وتوصيلها إلى الشعب الجزائري.

وتحدث الشيخ الفضيل طويلًا عن شيخه بإعجاب وحب، وأنه كان يحوِّل دروسه كلها بقدرة فائقة إلى دروس تربوية ودعوية.

ومما ذكره لنا: أن ابن باديس كان يشرح لهم «الألفية» ـ أي: ألفية ابن مالك المعروفة ـ في النحو والصرف، ووقف عند البيت الأول بعد المقدمة، وهو الذي يقول:

كلامنا لفظٌ مفيدٌ كاستقمْ واسمٌ وفعلٌ ثم حرفٌ الكَلِمْ

فبعد أن شرح الشيخ البيت من الناحية النحوية، عرج على الناحية التربوية فقال: انظروا إلى براعة الاستهلال في هذا البيت، فهو يقول: كلامنا لفظ مفيد. إنه يتكلم عن الجماعة المسلمة؛ ليعلن أنها لا تَهرفُ بما لا تعرف، ولا تلقي الكلام جزافًا، ولا تقول ما يضرها في دينها أو دنياها، إن كلامها (لفظ مفيد) ليس عبثًا ولا ضارًا.

ثم اختار التمثيل بكلمة (استقم)، وهي التي أمر الله بها رسوله ﷺ في كتابه: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢]، وأوصى بها رسوله ﷺ من سأله من أصحابه عن وصية جامعة، فقال: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»[(١)].

وذكر لنا أشياء من هذه المواقف، في علم الفقه وفي التفسير، تُعَدُّ غاية في الروعة.

وفي هذا اللقاء حاول الشيخ الورتلاني أن يملأني ثقة بنفسي، فقال: أرى فيك شبهًا من الأستاذ حسن البنا، وهذا يلقي عليك تبعات، فقلت له: يا أستاذ، وأين يوسف القرضاوي من الأستاذ حسن البنا؟! وأين الثرى من الثُّريا؟!.

فثار عليَّ، وقال: لا تحقر نفسك، إن حسن البنا عنده قدرات ليست عندك، وأنت عندك قدرات ليست عنده، ومجموع مواهبك يؤهلك لتقوم بدور، فلا تنسحب منه، ولا تبخس نفسك حقها.

قلتُ: أسأل الله أن يجعلني أهلًا لثقتك وحسن ظنك.

قال: ستثبت لك الأيام حسن ظني.

قلت: أرجو الله. وقد قرأت في حِكَم ابن عطاء الله السكندري: إن الناس يمدحونك لما يظنونه فيك، فكن أنت ذامًّا لنفسك لما تستيقنه منها. أجهلُ الناس من ترك يقين نفسه لظنِّ مَا عند الناس.

قال: وهذا يزيدني ثقة بك.

وكان أخي الدمرداش يستمع إلى حديثه عني، وهو منفرج الأسارير، فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد الحب لي، والاعتزاز بي، إلى حد الإسراف أحيانًا.

وفي نهاية اللقاء قال لي: هنا أحد إخواني من شباب علماء الجزائر النابهين، وقد جاء ليكمل دراسته بالأزهر، وهو من قريتي، ولا آمن أن يعيش مع أحد من

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٣٨)، وأحمد (١٥٤١٦)، عن سفيان بن عبد الله الثقفي.

مصر إلا معك، فأنا أوصيك به خيرًا، ولعلها تكون فرصة له لينهل منك شخصيًّا ومن الإخوان وروحهم بصفة عامة، وكان هذا الأخ في الخارج، فناداه، فحضر، وقال: هذا هو (محمد الأقصري) أمانة في عنقك. وهو من قريتي وقريب مني.

وكان محمد الأقصري شـابًّا أديبًـا قارئًا مثقفًا، وهو مـن أعضاء جمعية العلماء بالجزائر، وقد التحق بكلية أصول الدين، في السنة الثالثة على ما أذكر، فكان من المناسب أن يسكن معنا في شقتنا بشبرا.

- **دوره في اليمن:**

(يـروي القاضي المـؤرخ عبد الله الشـماحي فـي كتابه: (اليمن الإنسـان والحضارة) قصَّة تعرُّفه إلى الإمام الشهيد حسن البنا، والفضيل الورتلاني فيقول:

«كان الإمام البنا ممن التقيته في الحج، وقويـت الصلة به، وتلازمنا في منى ومكة والمدينة، ودرسنا الوضع العام في العالم الإسلامي، وقد شخّصت للإمام البنا الوضـع في اليمن، واتفقنا على التعاون بين الإخوان المسـلمين والمنظمات اليمنية؛ وقد أوفى الإمام البنا بوعده، وسـاند النضال اليمني بما كانت تنشره صحافة الإخوان المسـلمين، ثم أوفد الأستاذ الجزائري الفضيل الورتلاني وغيره إلى اليمن عن طريق عدن.

ويأتي الأسـتاذ الجزائري الفضيل الورتلاني موفدًا من الإمام حسن البنا، وروح الثورة تتقدمه، فيمر بعدن، ويضاعف حماس قادة حزب الأحرار وأعضائه، ذلك الحماس الزاحف مع الفضيل الورتلاني، إلى كل مكان حل فيه...

وفي (تعز) اتصل الفضيل الورتلاني بالقاضي عبد الرحمٰن الإرياني والسيد زيد الموشكي والسيد أحمد الشـامي وغيرهم، وتبادلوا النظرات، وبه ارتبط السيد أحمد الشامي ولازمه في تجولاته، وتأثر كل منهما بالآخر؛ وفي (صنعاء) قام الفضيل الورتلاني بنشاطه الثوري، يرافقه المؤرخ المصري أحمد فخري، ويساعده أحمد الشامي، فيجتذبان إليهما السيد حسين الكبسي، ويندفع الفضيل

الورتلاني في إقامة الندوات وإلقاء المحاضرات في المدارس والمساجد والحفلات، فتسري روحه إلى الشباب والضباط وطلاب المدارس»[1] انتهى.

ويروي الأستاذ حسين محمد المقبلي في مذكراته (مذكرات المقبلي):

«... وصل إلى صنعاء الأستاذ الفضيل الورتلاني سنة (١٩٤٧م) وهو جزائري، وعضو في حركة الإخوان المسلمين، وخطيب لا يجاريه أحد في ذلك، وفهم للإسلام على غرار فهم الشيخ صالح المقبلي صاحب كتاب (العلم الشامخ في الرد على الآباء والمشايخ) وهو في مجمل القول خليفة الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده المصري، عمره حوالي الأربعين عندما وصل اليمن، لإنشاء فرع لشركة محمد سالم المصرية للمواصلات البرية.

كان الإخوة الموجودون في مصر، وعلى رأسهم الشيخ الشهيد محمد صالح المسمري على صلة كبيرة جدًّا بالإخوان المسلمين، وكان الإخوان المسلمون ـ وعلى رأسهم الشيخ حسن البنا ـ يطمحون إلى تغيير الواقع في البلاد العربية، وإلى قيادة إسلامية صحيحة، وإلى ناشئة إسلامية قوية.

وصل الفضيل الورتلاني يحمل مشعلًا آخر، وبدأ يخطب الناس بأسلوب جديد، دفع الشباب اليمني دفعًا إلى اعتناق الثورة، وبدأت أتردد على الفضيل الورتلاني في منزله غير مكتف بملاحقته في المساجد والمجتمعات، للاستماع إلى خطبه. وبدأ يحدّثني أننا نحن المسلمين فوق كوكب هذه الأرض نمثّل الملايين، ولكني أقول ـ وهو يضغط على الحروف ـ: إننا مستسلمون ولسنا مسلمين..» انتهى.

ويقول السيد أحمد بن محمد بن عبد الله الوزير في كتابه (حياة الأمير علي بن عبد الله الوزير كما سمعت ورأيت):

---

(١) اليمن الإنسان والحضارة، ص٢٢٢ ـ ٢٢٣، منشورات المدينة ـ بيروت ـ لبنان، ط: الثالثة، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م.

«.. لقد كان للإخوان المسلمين، وعلى رأسهم زعيمهم الإمام حسن البنا رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي لم يألُ جهدًا في بذل مساعيه الحميدة بإخراج اليمن من عزلتها وفقرها وجهلها، وكان الإمام البنا قد راسل الإمام يحيى، وأدلى له بالنصح والإرشاد، وحاول أن يتصل بالإمام مباشرة، وأن تقدِّم جماعة الإخوان المسلمين كل طاقاتها وخبراتها ومعلوماتها لتنشئ دولة إسلامية في شعب مسلم عريق.

لكن الأقدار لم تسمح بعد، فتهيئ الفرصة لإقامة الدولة الإسلامية، لما عليه اليمن من جهل وتخلف وحرمان، ولأن الإمام يحيى لا يحب أن يفيق الشعب من سُباته العميق، تهرُّبًا من أن يدرك ما فيه من التخلف والحرمان، فيهوي بعرشه المتداعي..

وكان وصول الأخ عبد الله بن علي الوزير ومعه فضيلة المجاهد الكبير السيد الفضيل الورتلاني، قد دفعا بالحركة الإصلاحية قفزة واسعة.

وأخذت القضية تتحرك بسرعة واندفاع، فكان السيد الفضيل الورتلاني العلم الجزائري المعروف والخطيب المصقع، يُلهب أحاسيس الناس في الخطب يوم الجمعة، وعن طريق الاجتماعات المستمرة بالشخصيات القوية» انتهى.

ويقول الأستاذ أحمد بن محمد الشامي في مذكراته (رياح التغيير في اليمن):

«... وفي اعتقادي أن العالم المجاهد الجزائري السيد الفضيل الورتلاني هو الذي غيَّر مجرى تاريخ اليمن في القرن الرابع عشر الهجري، وأنه حين وضع قدمه على أرض اليمن كأنما وضعها على (زرٍّ) دولاب تاريخها، فدار بها دورة جديدة في اتجاه جديد؛ لأن ثورة الدستور سنة (١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م) هي من صنع الورتلاني.. لقد كانت هناك معارضة يمنية، وكان هناك نقد وتبرم ومنشورات ضد الدولة، وكانت هناك طموحات وزعامات وتحفزات، وكل ذلك يصلح أن يكون وقودًا لثورة ما.. ولكن (المعارضة) كانت

بلا تنظيم، واتجاهات زعمائها مختلفة ومتباينة، والمناشدون بالإصلاح ودعاة التغير والتطور لا توحِّدهم رابطة، والنقد والتبرم غير موجهين توجيهًا سياسيًّا هادفًا بناءً.. والطموحات تتنافس فيما بينها، وكلٌّ متربص بالآخر، والزعامات العلمية والدينية والسياسية قد خدَّرها الوهن، وجمدتها الأطماع، والتحفزات الوطنية، ليس لها زعماء أكفاء ذوو مؤهلات قيادية، فلما جاء السيد الفضيل الورتلاني، عمل ما لم يعمله أحد من اليمنيين، فوحَّد شتات (المعارضة) في الداخل والخارج، وأرشد المطالبين بالإصلاح والمناشدين بالتغيير والتطوير إلى طرق العمل، وجمعهم في رابطة وطنية، وقارب بينهم وبين أرباب الطموحات السياسية والزعامات العلمية والدينية والقبلية والتحفزات الإصلاحية من الناقمين والناقدين والمتبرمين، وصهر مجهوداتهم وأهدافهم واتجاهاتهم وآمالهم وأمانيهم في بوتقة (الميثاق الوطني).

وإنني أعتبر الورتلاني هو الذي استطاع أن يقنع الرئيس جمال جميل، بأن يؤلف جبهة من ضباط الجيش لتأييد الدستور، وأنه هو الذي أعاد الثقة إلى قلوب الموشكي والشامي، وجعلهما يتعاونان من جديد مع الزبيري ونعمان في إطار الميثاق الوطني، وهو الذي استطاع إقناع الأمراء والعلماء والمشايخ والتجار والضباط والأدباء بمبايعة عبد الله الوزير إمامًا ثوريًّا دستوريًّا. ولولا الورتلاني ما توحَّد الأحرار في اليمن، فالورتلاني هو مهندس ثورة (١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م) حقًّا» انتهى.

ويمضي الأستاذ أحمد محمد الشامي في كتابه المذكور فيقول:

«إن واضع الخطوط العريضة الأولى لميثاق الثورة الدستورية اليمنية هو العلَّامة الجزائري السيد الفضيل الورتلاني، والأستاذ الإمام المرشد العام للإخوان المسلمين حسن البنا، وكان هذان العبقريان المصلحان يهتمان بالمسلمين وشؤونهم في العالم بدافع قرآني خالص، لا يشوبه شعور وطني معين، ولا تعصب إقليمي أو طائفي أو مذهبي محدود.

لقد كان لدى الأستاذ الورتلاني من المعرفة بكتاب الله وسُنَّة رسوله والفقه وأصوله، والفهم والعبقرية والفصاحة والتقـوى ما يخوِّله أن يفهم ويعرف ما فهمه وعرفه الإمام زيد بن علي الذي لم يكن (زيديًا) بل كان حنيفًا مسـلمًا، كما كان الورتلاني والبنا من بعده.

ولا بد أن يدرك أن مجيء السيد الورتلاني كان له الأثر الفعَّال، حيث إنه هو الذي وحَّد بين أحرار اليمن في الداخل والخارج، ووحّد بين وجهات النظر المختلفة للفئات اليمنية»[1] انتهى.

وقد وصفه الشاعر اليمني القاضي محمد محمود الزبيري بقوله:

«لا أظن أنه يوجد للفضيـل الورتلاني نظير في العالم الإسـلامي علمًا وكمالًا وإخلاصًا وهيبة وجلالًا») انتهى[2].

• **وفاته:**

توفي الشـيخ الورتلاني في (١٢ مارس ١٩٥٩م)، في مستشـفى في تركيا، وكان قد أوصى أن يدفن في الجزائر، ولكن حالت الظروف دون ذلك، ودفن في تركيا بعد أن رفضت أي دول عربية أن يدفن في أرضها، وبعد عدة سنوات وبالتحديد سـنة (١٩٨٧م) نُقِل رفاته إلى مسقط رأسـه في الجزائر، رحمه الله رحمة واسعة، على ما قدمه للإسـلام والمسلمين، وبما أسـهم في استعادة الجزائر وجْهَها الإسلامي المشرق.

* * *

(١) رياح التغيير في اليمن، ص١٩٤، ط: الأولى، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م.

(٢) نقلًا عن كتاب: المستشار عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية (٢/٦٩٦ ـ ٧٠٠).



محمد الدمرداش مراد
رفيق رحلة ودرب
(ت: ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م)

أخي وحبيبي ورفيقي في الدراسة والدعوة والمسكن محمد الدمرداش سليمان مراد، تعرفت عليه، أو قل: هو الذي طفق يقترب مني، ويتعرف عليَّ بلهفة وصدق؛ فقد كان مدرس مادة (الإنشاء) يطالبنا بأن يتحدث بعضنا عن موضوع معين قبل أن نكتب فيه، في حصة الإنشاء الشفهي، ثم نكتب الموضوع في حصة الإنشاء التحريري.

وكان يستمع إلي حينما أتحدث وأتكلم عن بعض الموضوعات بدون تحضير، وآتي ببعض الكلمات الأنيقة، والعبارات الرشيقة، ويلتصق بي، ويثني عليَّ، ويقول لي: من أين تأتي بهذا الكلام الحلو؟.

وظل يقترب مني أكثر فأكثر، في الفصل، وفي جامع السيد البدوي، حيث يطيب لنا المذاكرة هناك، وقد رأى الزملاء يجتمعون حولي، يسألونني في (المعضلات) الإعرابية، فأعربها بسهولة.

وكان الدمرداش رَحِمَهُ اللَّهُ سليم الفطرة، يُعجب بكل ذي موهبة أصيلة، ويحب أن يكون مثله، أو يقبس منه. وأذكر أن بعضهم سألني عن إعراب قوله تعالى في سورة المعارج ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج: ١١] فأجبت على الفور: «يبصرون»: فعل من الأفعال الخمسة مرفوع بثبوت النون، واو الجماعة فيه نائب فاعل سد مسد المفعول الأول، وضمير الجمع (هم) مفعول ثان. فدهش، ودهش الحاضرون من قدرتي على الإعراب، وسرعتي فيه.

وقد أصبح الدمرداش ملازمًا لي؛ إذا ذهبت إلى الجامع ذهب معي، وإذا ذهبت إلى شعبة الإخوان ذهب معي، وغدونا لا نكاد نفترق إلا عند النوم، فلم نجد بُدًّا من أن نسكن معًا.

وقد أخذنا حجرة في منزل خالتي، وكان معـــه زميله وبلديُّه أحمد صقر حجازي، الذي كان يجيد الطهي، وأنا لا أحسن شيئًا من هذا، فكان ذلك من حسن حظي، ومن صنع الله لي.

وبذا أصبح محمد الدمرداش رفيق السكن، ورفيق الدراسة، ورفيق الدعوة. وغدا أقرب الأصدقاء إلي حسًّا ومعنى، وبدا كأنما يريد أن يدخل في أعماقي، أو يُمْسي جزءًا من كياني، يدخل بين جلدي ولحمي لو استطاع. وعن طريق الدمرداش تعرفت على إخوة وأصدقاء آخرين من بلدياته، من مركز (زفتى)؛ ومن هؤلاء الصديق العزيز والأخ الكريم عبد العظيم محمود الديب رَحِمَهُ اللَّهُ.

• **فترة هروب قصيرة ساذجة:**

في أواخر عام (١٩٤٨م) بعد حل جماعة الإخوان المسلمين، في الثامن من ديسمبر؛ اعتقل كثير من الإخوة، واتسعت دائرة الاعتقال لتضم أعدادًا أكثر من الإخوان في أرجاء المملكة المصرية، واعتُقل عدد من الإخوان في طنطا، وقال لي بعضهم: الدور عليك لا محالة. وفكرت في الأمر أنا وأخي ورفيقي محمد الدمرداش مراد، وتشاورنا في الأمر، وقررنا أن نغيب عن المعهد، ونختفي معًا في قرية الأخ الدمرداش (السملاوية)، فهي قرية صغيرة بعيدة عن أعين الرقباء، ونستطيع أن ندخلها خلسة، بحيث لا يرانا أحد، ولا نخبر بوجودنا أحدًا، إلا بعض الثقات المأمونين من الإخوة، وهنـــاك نبقى فترة من الزمن، حتى تهدأ الأمور، أو يهيئ الله حلًّا للمشكلة.

ونفذنا ما اتفقنا عليه بالفعل، بعد أن اصطحبنا ملابسنا وكتبنا؛ لنستذكر فيها ما يفوتنا من دروس، وغاب عنا: أن اختفاءنا معًا سيوجه رجال الأمن إلى البحث

عنا في قرية كل منا، وقد علمت أنهم ذهبوا إلى قريتنا (صفط تراب) وسألوا عني، فقالوا لهم: إنه يدرس في طنطا. قالوا: إنه مختفٍ عندكم، واختفاؤه لا يفيده، فأين هو؟ قالوا: الدار أمامكم.. ففتشوا كيف شئتم. وفتشوا الدار، وقلبوها رأسًا على عقب، ولم يجدوا فيها شيئًا، إلا بعض الأوراق الخاصة بي، أخذوها معهم، ودُور الأرياف غاية في البساطة؛ فليس فيها من الأثاث والأدوات ما يجعل التفتيش فيها عسيرًا، ففي دقائق معدودة تم كل شيء.

ولما لم يجدوني في قريتي (صفط)، اتجه تفكيرهم إلى قرية (السملاوية)؛ فبينا كنا نجلس أنا وأخي الدمرداش في (مقعد) في الطابق الثاني، نتدارس في بعض ما صحبنا من الكتب، فإذا طرق شديد عنيف على باب الدار، فأدركنا أنهم رجال الأمن السياسي، أو القسم المخصوص، كما كان يسمى في ذلك الحين.

وقال الأخ محمد: يمكننا أن نختفي عند الجيران بواسطة (سلالم السطح)، وكانت سطوح منازل القرى في الريف المصري متصلة، فليس هناك أسوار تعزل البيوت بعضها عن بعض، وكانت السطوح مغطاة بالقش والحطب ونحوها؛ وهو ما يعرضها للخطر عند وجود أي حريق في أحدها. وصعدنا سلم سطح الأخ محمد لننزل من سلم سطح الجيران إلى الطابق الثاني، فالطابق الأرضي، فأدخلتنا جارتهم إحدى الحجرات، ثم أغلقت علينا بالمفتاح، وخرجت من المنزل ذاهبة إلى الحقل.

فتحت الحاجة أم الدمرداش الباب بعد الطرق الشديد، لتجد أمامها رجال الأمن، فسألوها: أين ابنك وصديقه؟ فقالت: ابني في معهده في طنطا.. اسألوا عنه هناك. ففتشوا الدور الأول من المنزل، فلم يجدوا فيه شيئًا، ثم صعدوا إلى الدور العلوي، فوجدوا أحذيتنا وكتبنا وملابسنا

موجودة، فتوجهوا إلى أم الدمرداش، وقالوا لها: تكذبين وأنت امرأة كبيرة؟ هذه آثارهم تدل عليهم، فقولي: أين هما؟ وإلا أخذناك بديلًا عنهما. قالت: لا أعرف عنهما شيئًا. واتجه تفكيرهم إلى البيت المجاور، فدخلوه، وفتشوا حجراته تحت وفوق، فلم يجدوا إلا حجرة كانـــت مغلقة، لم يتمكنوا من دخولها أو فتحها.

وبعد هذه الجولة غادروا القرية مصطحبين معهم المرأة الطيبة الصالحة أم محمد الدمرداش إلى نقطة البوليس في (نهطاي) القرية المجاورة، وبقينا نحن حبيسي الحجرة التي أُغلقت علينا، ولا ندري ماذا حدث في الخارج؟ فلما جاءت الجارة صاحبة البيت فتحت علينا، وعرفنا ما حدث، وقلت للأخ محمد: لم يعد أمامنا بُدٌّ من تســليم أنفسنا، ولا يجوز أن تبقى والدتك ليلة واحدة في الحجز، فلنتوكل على الله، ولنبادر بالذهاب إلى نهطاي؛ لكيلا ندع حجة في إبقاء الوالدة عندهم. وفعلًا أبلغنا عمدة القرية، وبعث بنا إلى نقطة نهطاي، فسلمنا أنفسنا، وأفرجوا عن الحاجة رحمها الله.

• **إلى شرطة زفتى.. حولناها إلى مسجد بفضل الله:**

وبعد أن سلمنا أنفسنا إلى النقطة، أرسلت بنا إلى (مركز زفتى) ليتولى أمرنا، ويرسل بنا إلى طنطا (عاصمة المديرية). وكان اليوم يوم خميس، وقد وصلنا إلى مركز زفتى في المساء، فلم يكن مأمور المركز ولا نائبه، ولا أحد المســؤولين موجودًا، ما عدا (الضابط النوبتجي) الذي سلمنا إلى جاويش المركز، ليضعنا في الحجز، حتى صباح يوم السبت، لنسلم إلى طنطا.

ودخلنا حجز المركز، لنجد فيه أكثر من أربعين شخصًا، معظمهم ليسوا من أهل الجريمة، بل من الفلاحين الذين ارتكبوا مخالفات تتعلق بالزراعة أو بالري أو نحو ذلك، وجاء وقت العشــاء فأذَّنَّا في الحجــز، وأقمنا الصلاة، وطلبنا منهم أن يصلوا معنا، وكان عدد منهم من أهل الصلاة، فصلوا معنا.

• **مرض الدمرداش ثم وفاته:**

كانت وفاة أخي محمد الدمرداش صدمة هائلة لي، وكان فقده من أشد المصائب قسوة على نفسي. وقد فقدت أمي وعمي وابن عمي، وكثيرًا من الأقارب، فلم أحزن عليهم كما حزنت على الدمرداش. بل أشهد أني جزعت عليه أكثر مما ينبغي من مثلي، ممن يعلِّم الناس أن الموت حق، وأنه قدر الله الذي لا يقابل بغير الرضا والتسليم، وأن الجزع لا يرد فائتًا، ولا يحيي ميتًا، وأن الصبر عند الصدمة الأولى، وأن الموت ليس نهاية المطاف، بل هو بداية سفر جديد إلى دار أخرى هي خير وأبقى للمؤمنين.

وما الموتُ إلَّا رحلة غير أنَّها من المنزلِ الفاني إلى المنزلِ الباقي!

وقد سافرت من قريتنا (صفط تراب) أنا وأخي مصباح عبده رَحِمَهُ اللَّهُ وبعض الإخوة إلى السملاوية، ولكنا لم ندرك دفن الفقيد، ولا الصلاة عليه، فقد تم ذلك منذ الصباح، ونحن لم نصل إلا في المساء. وكان الناس يكلمونني، فلا أرد عليهم إلا بالبكاء. وحضر بعض الإخوة من المحلة مثل الأخ مصطفى الغنيمي والأخ حسين عتيبة رحمهما الله، وطلبوا مني أن ألقي كلمة عن الفقيد بما أعرفه عنه، ولكن لم يكن عندي قابلية للكلام، ولا قدرة عليه. ما عندي غير البكاء، ولغة الدموع.

لم أتذرع بالصبر الذي يتسلح به المؤمنون في مواجهة عوادي الدهر، وهو ما أمرنا به الله في كتابه حين قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ۞ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٣ ـ ١٥٧].

وكان ينبغي أن أتصبَّر، وأتكلَّف الصبر، حتى يصبِّرُني الله على ما ابتلاني، كما وعدنا الرسول الكريم ﷺ بقوله: «**ومن يتصبّر يصبره الله**»[1].

ولكن الواقع أن مصيبتي في أخي هزتني وهزمتني، فقد كان الدمرداش هو الأخ الذي قال فيه المثل العربي: رب أخ لك لم تلده أمك. وكان الصديق الذي قال فيه الشاعر:

حسبي من الدنيا صديقٌ صادقٌ فردٌ، فكُنْه، ولا احتياجَ لثانِ!

كان أكثر الأصدقاء قربًا مني، ورضًا عني، واعتزازًا بي، وحبًّا لي، وتوقًا إليّ، ورجاء فيّ، وكان يعرف مدخلي ومخرجي، وظاهري وباطني، وسري وعلانيتي، وأفضي إليه بما لا أفضي إلى غيره من الإخوة والأصدقاء، وقد اقترب كلانا من صاحبه حتى أوشكنا أن نكون شخصًا واحدًا.

وقد عرفته، وعرفت أسرته جميعًا: أباه وأمه وأخويه عبد العزيز وعبد اللطيف وأخته وزوجها الشيخ حامد عمر، وأصهارهم، وكل من يتصل بهم. ومن دارهم وقريتهم اعتقلت سنة (١٩٤٩م)، كما عرف هو كذلك أهلي وأسرتي وعمي وخالي وكثيرًا من أقاربي.

ربما كان عيبه أنه ينظر إليّ بعين الرضا والحب، فلا يكاد يرى عيوبي ونواقصي، وما أكثرها! وإنما يرى محاسني بمنظار مكبر، يجعل من القط جملًا، ومن الحَبَّة قُبَّة، كما يقول المثل، أو كما قال الإمام الشافعي:

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ كما أنَّ عينَ السُّخْطِ تُبدي المَسَاوِيا!

كان الدمرداش مثلي في نشأته الريفية، معتزًّا بأخلاق القرية المصرية الأصيلة، قبل أن تفسدها تقاليد المدينة التي غزتها من بعد، ونقلت إليها كثيرًا من أمراضها التي انتقلت إليها بالعدوى من الخواجات والأجانب.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، وكلاهما في الزكاة، عن أبي سعيد الخدري.

كان فيه شهامة أهل القرية ونجدتهم، وكرمهم وصفاء طويتهم، وفيها أحيانًا لون من الشـــدة أو الصرامة الفطريـــة، قال لي يومًا عن ســـببها: إن أصلنا من الصعيد، فهم يقولون: المرايدة (عائلة مراد) صعايدة.

وكان الدمرداش يحب معالي الأمور، ويكره سفســـافها، ويطمح إلى أن يجعل من نفســـه شـــيئًا مذكورًا، فهو ينظر إلى من حولـــه، ويتأمل المواقف، ويتدبر السير، ويستمع إلى الكلمات، ويختزن هذا كله ويتمثله، ليأخذ أحسن ما فيه، قولًا وعملًا، وفكرًا وشعورًا وسلوكًا. وكان يملك وعيًا بصيرًا، ويملك إرادة قوية، وإذا اجتمع الوعي والإرادة صنعا الكثير.

كان يحب أن يكون أديبًا، وقد أخذ نفســـه بالقراءة والمطالعة ما أسعفه وقته وجهده، حتى وصل إلى مرتبة يحسن أن يقول فيها فيُسمِع، وأن يكتب فيبدع. رأيت معه مرة مذكرات يكتب فيها خواطره، فقرأت فيها فقرات تنبئ عـــن ارتقائه إلى درجـــة عالية من تـــذوق الأدب، وروعة البيـــان، وجمال الأسلوب، وأحسب لو أمهله القدر، لكان له شأن في عالم الأدب. ولقد عُيِّن مدرسًا للغة العربية والدين في مدينة (ملّوي) بصعيد مصر، فكان خطابه في طابور الصباح يهزّ المشـــاعر، ويأخذ بالألباب. كما كان محببًا إلى طلابه، لحســـن طريقته معهم، وحدبه عليهم، ورعايته لهم، كما كان موضع حب وثناء من أهل البلد جميعًا.

قابلني بعد أن صـــدرت الطبعة الأولى من كتابي (الحـــلال والحرام في الإســـلام)، فكان حفيًا به، ومزهوًا بظهوره، كأنما هو مصنفه، وكان يقول: إنه باكورة طيبة، نرجو أن ينهمر بعدها الغيث.

ولم تمهله المنون حتى يرى بشائر الغيث، فقد اختطفه الموت، وهو في ريعان الشباب، أرجى ما كان قربًا من النضج والعطاء. فما أقسى الموت، وهو يأخذ منا أحبابنا، ويعجّل بخيارنا!

النـــاسُ للموتِ كحبـــلِ الطراد فالســـابقُ الســـابقُ منها الجواد
والمـــوتُ نقَّـــادٌ علـــى كفِّـــه جواهـــرُ يختـــارُ منهـــا الجِياد

لم يكن المرض الذي أصاب الدمرداش بالعضال ولا بالقتّال، ولكن يبدو أن الطبيب الذي عالجه في أول الأمر أخطأ تشـــخيص المرض، فأعطاه أدوية مرض آخر، وهي أدوية ذات تأثير كبير على الجســـم، فهدت البنيان القوي، وظلّ يعاني مدة طويلة، ولا يتقدم، حتى اضطر أن يترك (ملّوي)، ويذهب إلى قريته؛ ليبحث عن علاج آخر، وطبيب آخر. وقد أخبرني أخي د. عبد العظيم الديب، الذي كان زميلًا له في ملوي، مســـاكنًا له في المنزل الذي يقيم فيه، فكل منهما يحتل أحد الطوابق: أنه حين غادر ملوي، لم يكن بالحالة المتردية التي يخشى عليه فيها، ولكن سرعان ما اشتد عليه الداء، ونقل إلى مستشفى الدمرداش في القاهرة، التي وافاه فيها الأجل المحتوم، الذي لا يستأخر ساعة ولا يستقدم. وإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر. وما أصدق ما قاله ابن الرومي، وقد مرض، فغلط الطبيب في تشخيص دائه، ووصف دوائه، وكان في ذلك منيته، وقد قال في ذلك:

غلطَ الطبيبُ علـــيَّ غلطةَ مُوردٍ عجزتْ مواردُه عـــنِ الإصدارِ!
والناسُ يلحُون الطبيبَ، وإنَّما غلـــطُ الطبيبِ إصابـــةُ الأقدارِ!

وقد رثيته بقصيدة كتبتها، وأنا رهين محبس المخابرات المصرية في حي ســـراي القبة بعد وفاته، والعجيب أن هذه القصيـــدة تاهت مني مع قصائد وأوراق أخرى، ثم عثـــرت عليها مصادفة بعد (٣٨) ثمانية وثلاثين عامًا، ومما جاء فيها:

كان يومًا مقطبَ الوجهِ أســـودْ يوم قالوا: مات الحبيبُ محمدْ
غرق الوجـــهُ بالدموع، وكاد الـ ـقلبُ مـــن فرط ما بـــه يتجمَّد
وتهاويـــت مثخنًـــا مثـــلَ طيرٍ هاضَ منه الجناحَ ســـهمٌ مسدَّد

غلبــتْ رَوْعــة المصيبةِ صبري ... ويقيني، ما استطعتُ أن أتجلَّد
كيف لا؟ والحبيب قد ودعتْه اليو ... مَ وَدَاعًا لا يعرف: العَوْدُ أحمدْ
فرَّق الموت بيننا، يا أســى قلـ ... ـبٍ لطــولِ الفراقِ لــم يتعوَّدْ
يــا لَحَظِّــي! أأفقــد الأمَّ والوا ... لدَ حتــى أخــو شــبابي يُفقَدْ
يا لَحظّي! أخي الذي كان دِرْعي ... في خطوبي، وكان سيفي المهنَّدْ
ربِّ عفوًا! ما منك أشكو، ولكن ... غلــبَ الصــدرَ حزنُــه فتنهَّــد
حكمــة الله فوق أوهــامِ عقلي ... ولسانُ الســماءِ والأرضِ يشهد
ربِّ، آمنتُ بالقضاء، فهبْ لي ... من لدنك الرضا، لأقوى وأصمُد
حاشَ لي أسخط القضاءَ، ولكن ... ما خلقتَ الذي بصدريَ جَلْمَد
أنــتَ عوَّضْتَني به عــن أخ الد ... م فــكان الأخَ الشــقيقَ وأزْيَد
كان مســتودعًا لســري مــن آ ... لام أمسٍ مضى، ومن حلم الغد
إنهــا لــم تكــن صداقــة أعوا ... مٍ ولــكــنــه إخــاءٌ تجسَّد
ما رآني يومًا ســعيدًا فيأســى ... أو رآني يومًا، حزينًا، فيســعد
يبســم الدهرُ لي، فيطرب كالـ ... ـبلبلِ فوقَ الأغصان غنَّى وغرَّد
ويصيــب الزمانُ قلبي بســهمٍ ... فــكأنَّ الرامــي إليــه تعمَّــد
كنتُ منه وكان مني كشــخصٍ ... قد تسمَّى بـ«يوسف» و«محمد»
فهو يبدو في صورتين وباسميـ ... ـن وخلف الرَّسْمَين رُوح مفرد
لهفَ نفسي على فتى عاش للـ ... ـه وللدينِ صارمًــا ليس يغمد
عاش للخير ســاعيًا غيــر وانٍ ... عاشَ للحــقِّ جمرةً ليس تخمَد
عاش للمجد والمعالي طموحًا ... ودّ لو يمتطي السحاب فيصعد
عاش في ساحة الفضيلة جنديـ ... ـًا وفي حلبــة الشــهامة أوْحَد

خُلُــقُ القريــةِ الأصيلــةِ فيــه ... قبل غزو القُرى بما ليس يُحمد
يا عُضــالًا حــار الأطبــاء فيه ... أرقد الفارس الفتى شــرَّ مَرْقد
ليس فيه من الحياة ســوى قلـ ... ـــبٍ بصــدرٍ أنفاسُــه تتــردَّد
وفمٍ قبــلُ كان يهــدر بالفُصْـ ... ـحى تراه ما عــاد يُرغِي ويُزبِد
ثم عيــنٍ فيهــا بريــقٌ، ولكن ... قبــلُ كانــت شــرارةً تتوقَّــد
أين باقي الفتــى، لقد مات منه ... بــدنٌ هامــدٌ، وحــسٌّ تبلَّــد
قــدرُ الله أعجــزَ الطــبَّ فارتد ... حســيرًا يقول: ما لــي من يد
قل لذاك المغرور بالعلم: ماذا يفعل ... العلــم، والرَّدى لــك مرصد؟
فَجِّــرِ الذَّرَّ شــامخًا، ثم طأطئ ... عند ســرِّ الحياةِ هــذا المعقَّد

كان الدمرداش قد وُفِّق إلى الزواج والإصهــار إلى أكرم عائلات قريته، فتزوج ابنة الأستاذ إبراهيم أبو سعدة، وهو من خيرة رجال التربية والتعليم، وقد ترك القرية، وأقام في مدينة زفتى، وكان موفقًا في زواجه، سعيدًا به، وقد رُزِق من زوجه ابنتين هما: ناهــد ونجوى، كانتا قرة عينــه، ومهجة فؤاده، وكبديه تمشيان على الأرض، وقد شــاء القدر الأعلى أن يودعهما ويتركهما زهرتين لم تتفتحا بعد. واســتودعهما عند من لا تضيــع عنده الودائع. وقد نشــأت الفتاتان الكريمتان في حضانة جدهما وخالهما، ورعاية أمهما التي تأيمت عليهما. وسرعان ما توفِّي الجد رَحِمَهُ اللَّهُ، وبعد سنين توفيت الأم رحمها الله، على صغر سنها، وتوفِّي الخال أيضًا، وتخرجت الفتاتان وتزوجتا، وكتب الله لهما السعادة والتوفيق.

* * *



العلَّامة محمود شلتوت

شيخ الأزهر

(١٣١٠ ـ ١٣٨٣هـ = ١٨٩٣ ـ ١٩٦٣م)

الشيخ محمود محمد شلتوت، الفقيه المجدد الذائع الصيت، الذي كنت أزوره في بيته في حي (الظاهر) قبل أن ينتقل إلى مصر الجديدة، وأستفيد من فقهه ونظراته التجديدية، وكنا تعودنا أن نزوره جماعة: أنا والأخ أحمد العسال، والأخ أحمد حمد، وكنا ثلاثتنا متلازمين في هذه الزيارات للمشـــايخ الكبار، وقد قال لنا الشيخ شلتوت مرة: أرجو أن تظلوا مترابطين، وأن تظل أخوتكم دائمة، ولا تفرق الأيام بينكم، كما حدث لإخوة قبلكم. وكنا نســتغرب هذا الكلام الذي ليس له أية مقدمات، ثم أثبتت الأيام صدقه.

وكان مما نحرص عليه ثلاثتنا محاضرات (دار الحكمة) في تفسير القرآن الكريم، ذلك المورد العذب الذي ازدحم عليها القُصَّاد في تلك الفترة، وكان الذي يقوم بهذه المحاضرات أربعة من رجال العلم المشاهير في ذلك الوقت:

أولهم: الفقيه المفسِّـــر الشهير الشيخ محمود شـــلتوت، الذي ذاع صيته، وانتشرت دعوته إلى التجديد، وغدت له شعبية واســـعة بين الناس بأحاديثه الصباحية في إذاعة القاهرة، هو والشـــيخ محمد المدني، حتى إن الســـيدة أم كلثوم ســـئلت مرة عن أحب الأصوات التي تحب أن تسمعها، فقالت: صوت الشيخ محمود شلتوت.

والمفسِّر الثاني: كان الفقيه المعروف الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف أستاذ الشـــريعة الإســـلامية في كلية الحقوق، وصاحب كتاب (أصول الفقه) وغيره من الكتب الشرعية.

والثالث: كان الأستاذ عبد الوهاب حمودة أستاذ اللغة العربية بكلية الآداب. ونسيت **الرابع**.

وكان للشيخ شلتوت أحاديثه الصباحية في إذاعة القاهرة في التفسير، وكان يحضِّر درسه التفسيري تحضيرًا جيدًا، وكانت له نظرات ووقفات تأملية في كتاب الله، أودعها بعد ذلك في مقالاته التي نشرها في مجلة (رسالة الإسلام)، التي كانت تصدر عن (دار التقريب بين المذاهب) في القاهرة، ثم خرجت بعد ذلك في كتاب في التفسير حول الأجزاء العشرة الأولى.

وكنت أنا وأخي أحمد العسَّال كُلِّفنا بنقلها من المجلة لتأخذ صورة الكتاب، حتى إن الشيخ شلتوت رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وقد كان وقتها شيخًا للأزهر ـ أذن لي بأن أملأ الفجوات التي أراها بقلمي وأسلوبي الخاص، ثقة منه بي.

لهذا فكرنا جديًّا أن ننتقل من الأوقاف إلى الأزهر، فهو مكاننا الطبيعي، ولا سيما أن شيخنا العلَّامة محمود شلتوت هو الآن شيخ الأزهر، وإمامه الأكبر، وبيننا وبينه من قديم مودة مكينة، وصلة متينة، ونعتقد أننا إذا ذهبنا إليه وكلمناه في نقلنا إلى الأزهر، فلن يتأخر عن تلبية طلبنا.

وهذا ما حدث بالفعل، فقد زرنا الشيخ في بيته، وحدثناه عن وضعنا في الأوقاف، ورغبتنا في الانتقال إلى بيتنا ـ بيت العائلة ـ بالأزهر، فرحب الشيخ بنا كل الترحيب، وقال: الأزهر داركم وموئلكم، وأنتم أبناؤه البررة، والأب يرحب بعودة أبنائه إليه، وإن اغتربوا فترة عنه.

وطلب الشيخ الأكبر من صهره ومدير مكتبه الأستاذ أحمد نصار أن يكلم الأستاذ الدكتور محمد البهي المدير العام لإدارة الثقافة الإسلامية، لينقلنا إلى إدارته، فرحب بذلك وأيده. بل طلب الإسراع بإنجاز الإجراءات اللازمة التي كثيرًا ما تطول بين الوزارات والمؤسسات المختلفة.

وانتقلنا إلى الأزهـــر لنعمل في مراقبة البحوث والثقافـــة، التابعة للإدارة العامة للثقافة الإسلامية، تحت إشـــراف مديرها العام الأستاذ الدكتور محمد البهي أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية أصول الدين وكلية اللغة العربية.

فكر الدكتور البهي فيما يســـند إليّ أنا وزميلي العسال من عمل، ثم قال: لدينا عمل كبير لا ينجزه غيركما، وهو أن ننشر تراث الشيخ شلتوت على الناس في كتب كبيرة، ولا بد أن نجمع هذا التراث من مظانه المختلفة في الصحف والمجلات، وفيما لدى الشـــيخ الأكبر من مقالات أو مســـودات. وأنتما أهل لتجميع ذلك وتنسيقه وطباعته وتصحيحه، ومطبعة الأزهر رهن إشارتكما.

وكان الشيخ شلتوت ـ رغم شـــهرته وذيوع صيته ـ لا يكاد يوجد له كتب يقرؤها الناس، غير كتاب شارك فيه العلَّامة محمد علي السايس، وهو كتاب «المقارنة بين المذاهب الفقهية» المقرر على الســـنة الرابعة من كلية الشريعة جامعة الأزهر.

وله كتاب آخر كان في أصله محاضرات ألقاها على طلبة الدراسات العليا بكلية الحقوق، عنوانه: «فقه الكتاب والسنة: القصاص».

وله رســـالة صغيرة عن «القرآن والقتال»، وأخرى عـــن «القرآن والمرأة»، وثالثة عن «منهج القرآن في بناء المجتمع».

وما عدا ذلك لـــه فتاوى وبحوث في جوانب شـــتى، نشـــرها في بعض المجلات، أو بعض الصحـــف اليومية، أو بثتها الإذاعة المصرية، من ذلك ما كان في مجلة (الرسالة) التي كان يصدرها الأستاذ الزيات، وما كان في مجلة (الأزهر)، وما كان في مجلة (رسالة الإسلام) التي تصدر عن (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية) بالقاهرة.

وكانت الخطوة الأولى هي التنقيب عن هذا التراث في مظانه المختلفة، وتجميعه من كل من عنده شيء منه.

وبعد أن تجمع لدينا كم كبير من تراث الشـــيخ، ترجح لنا أن نضعه في أربعة كتب كبيرة:

الأول: يتضمن الجانب الفقهي والأصولي أو التشريعي من كتابات الشيخ، والـــذي كان قد كتب فيه رســـالة صغيرة الحجم، ســـماها: (الإســـلام عقيدة وشريعة)، وفيه أفرغنا كتاب (فقه القرآن والسنة)، وبعض ما كتبه الشيخ حول هذا الجانب من العقيدة والشريعة.

والثاني: يتضمن (فتاوى الشـــيخ) التي أصدرها ونشـــرها في مناســـبات مختلفة، وهي فتاوى تتسم بالتجديد والجرأة، وتجمع بين الأصالة والمعاصرة معًا. وقد أودعنا فيه كل ما عثرنا عليه من فتاوى الشيخ.

والثالث: يتضمن المقالات الدعوية والتوجيهية في شـــتى جوانب الدين والحياة، وهو الذي اختار له الدكتور البهي عنوان (من توجيهات الإسلام).

والرابع: يتضمن مقالات (التفسير) للقرآن، التي نشرت في مجلة (رسالة الإســـلام)، وكان جمعها أســـهل من غيرها؛ لأنها مكتوبة منشورة مرتبة، فلا تحتاج أكثر من التجميع.

- **العمل على إخراج تراث الشيخ وثقته بي:**

كنت أرى أن من القربات إلى الله أن نعمل على إخراج علم الشيخ شلتوت إلى النور، لتنتفع به الأمة، وأن أي جهد نبذله فهو ـ إن شاء الله ـ في ميزاننا، وإن ضاع عند الناس فلن يضيع عند الله.

وعند جمع تراث الشيخ شـــلتوت، مع أخي أحمد العســـال، كنا نراجع الشيخ في بعض الفقرات التي تكون لنا عليها ملاحظة، فيقرنا عليها، وأحيانًا يوكلني بإتمام ما أراه ناقصًا.

وأذكر أنَّا عرضنا عليه أن بعض الآيات في سورة الأنفال، لم تأخذ حقها

من الشـــرح رغم أهميتها، فقال لي: سُـــدّ هذه الفجوة بما تراه. ذلك تفويض مطلـــق. وكان الأخ العسَّـــال كلما مر على هـــذه الفقرة ونحوهـــا يقول: هذه قرضاوية. فأقول له: قد أصبحت بإقرار الشيخ شلتوتية!.

والحقيقة أن ثقة الشيخ بي كانت غير محدودة، فكثيرًا ما أحال إليَّ بعض الأشياء المعضلة لألخصها له، مثل: رأي ابن القيم في (فناء النار) وقد لخصته له من كتابيه: (شفاء العليل في القدر والحكمة والتعليل) و(حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح).

وأحيانًا يحيل عليَّ بعض الاستفتاءات لأرد عليها بقلمي. مثل: فتوى إفطار الجنود في الصوم عند قتال العدو، وقد كتبتها وسلمتها للشيخ ونشرت باسمه.

- **زيارة المودودي للشيخ شلتوت في بيته:**

وأذكر أنه عندما زار المودودي مصر، طلب مني الدكتور البهي، أن أصحبه ليزور إدارات الأزهر المختلفة، وصحبته إلى مكتب الشيخ شلتوت في مكتبه، ورحَّب به كثيرًا، وأشاد بفضله ومنزلته في تجديد الفكر الإسلامي، وكان الشيخ شلتوت قد علَّق في إحدى مقالاته على رسالة (نظرية الإسلام السياسية) للأستاذ المودودي، وقد أودعناها كتابه (من توجيهات الإسلام). ودعاه الشيخ شلتوت إلى زيارته في بيته، ومن الجميل أن الشيخ شلتوت عند زيارته له طلب منه أن يفســـر له ســـورة الفاتحة، وحاول المودودي أن يعتذر فأصر الشـــيخ، وفسرها الضيف تفسيرًا مختصرًا جميلًا. وهذا من أدب العلماء الكبار بعضهم مع بعض.

- **رأي الشيخ شلتوت في أول كتاب لي (الحلال والحرام):**

أول نسخة أهديتها من كتابي الأول (الحلال والحرام) أهديتها إلى شيخنا الإمام الأكبر الشـــيخ محمود شـــلتوت الذي تصفح الكتاب طويلًا، ومدحه بكلمات شجعتني، وســـررت بها. مع أني خالفته في بعض المسائل. وحينما أهديت نسخة منه للشـــيخ عبد الرحيم فودة، وقال لي: أود أن أهنئك يا شيخ يوســـف على أمريـــن: **الأول**: على منهجـــك الرائع، وأســـلوبك الســـلس،

وترجيحاتك الموفقة في كتابك (الحلال والحرام). **والثاني**: مخالفتك بصراحة لرأي شيخك وشيخ الأزهر الشيخ شلتوت في مسألة فوائد البنوك الربوية ونحوها. وهذه شجاعة قلما تتوافر إلا لمثلك. **قلت**: منهج الشيخ شلتوت هو التحرر من الجمود والتقليد، وأظنه لن يطالبنا بالتحرر من تقليد أبي حنيفة ومالك لتقليده هو. إني أعتقد أني وإن خالفت الشيخ شلتوت في بعض آرائه، فإني على منهج شلتوت في اتباع الدليل الراجح حيث لاح للباحث، والنظر إلى القول لا إلى قائله، فإن الرجال يعرفون بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال.

- **التقريب بين المذاهب الإسلامية:**

كان الشيخ من أعضاء (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية)، وألقى حديثًا دينيًا في صبيحة افتتاح إذاعة القاهرة، دعا فيه إلى توحيد كلمة المسلمين ولمّ شملهم، والقضاء على الخلافات بين المذاهب، بإدخال دراسة المذاهب في الأزهر.

وللعلَّامة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر فتوى بجواز التعبد بالمذهب الجعفري، على أساس أنه ـ في الجانب الفقهي ـ قريب من مذاهب أهل السنة، إلا في أشياء قليلة، لا تخرجه عن جواز التعبد به في الجملة: في الصلاة والصيام، والزكاة والحج، والمعاملات. وكنت قد قلتُ في بعض فتاواي وبعض تسجيلاتي: إن هذه الفتوى لم أرها في نص مكتوب.

ورغم أني عايشت الشيخ شلتوت عدة سنوات، وكنت من أقرب الناس إليه، وأخرجت كتب الشيخ شلتوت الأربعة الأساسية.. كتاب (الإسلام عقيدة وشريعة)، وكتاب (فتاوى الشيخ شلتوت)، والأجزاء العشرة الأولى في كتاب (التفسير)، وكتاب (من توجيهات الإسلام)، وكانت ضائعة في الصحف والمجلات والإذاعة، فجمعتها أنا وزميلي الأخ أحمد العسال، رغم كل هذا ما رأيت هذه الفتوى في حياتي قط، ولم أسمع عنها، ولا سمعته تكلم بها، لكن نبهني الشيخ عصام تليمة سكرتيري الأسبق إلى وجود هذه الفتوى في مجلة (رسالة الإسلام) التي كانت

تصدر عـــن (دار التقريب بين المذاهب الإســـلامية) بالقاهـــرة، بعنوان: (فتوى تاريخية)، وكان ممـــا قاله فيها: «إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشـــيعة الإمامية الاثني عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة.

فينبغي للمســـلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عنـــد الله تعالى يجوز لمن ليس أهلًا للنظر والاجتهاد تقليدهم، والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات»[1].

وذكر الأخ عصام أن هذه الفتوى صدرت من الشيخ بعد جمعنا أنا والأخ أحمد العسال لتراث الشيخ.

والذي أود التنبيه عليه هنا أن فتوى شـــلتوت لم تتدخل في قضية العقائد والأصول، التي فيها الخلاف الحقيقي بين السنة والشيعة، مثل: قضية الإمامة والأئمة الاثني عشر وعصمتهم وعلمهم بالغيب، ومنزلتهم التي لم يصل إليها ملك مقرب، ولا نبي مرســـل، واعتقاد أنها أصل مهمٌ مـــن أصول الدين، لا يصلح إيمان، ولا يقبل إســـلام إلا بها، ومنكرها كافر، مخلد في النار، ومثل عقيدتهم في الصحابة، وتكفيرهم لهم إلا نفرًا قليلًا يعدون على اليد الواحدة، وغير ذلك مما يعتقدونه من أصل دينهم.

ومع هذا لم نر من الشـــيعة من جزى الحسنة بالحســـنة، ومن رد التحية بأحسن منها، أو بمثلها، فلم يصدر مرجع شـــيعي في منزلة شلتوت من أهل الســـنة أو قريبًا من منزلته في (قمّ) أو (النجف) فتـــوى تجيز لأتباعهم التعبد بمذاهب أهل السنة!! بل رأينا عكس ذلك.

---

(١) مجلة (رسالة الإسلام) الفصلية، العدد الثالث من الســـنة الحادية عشرة، الصادر في محرم ١٣٧٩هـ = يوليو ١٩٥٩م، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

• **الوسطية عند الشيخ شلتوت:**

والشيخ شلتوت ممّن ركّز على الوسطية وتجليتها في عصرنا؛ فقال في تفسير ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في تفسير سورة الفاتحة: «إن من يتتبّع حالة العالم في عصوره المتتابعة قبل الإسلام، فإنه سيجد أن العالم كان يتردّد بين طرفين من إفراط وتفريط، وكان ذلك شأنه في كل شيء: في العقائد، في الأخلاق، في صلة الإنسان بالحياة، في علاقة الفرد بالمجتمع، في علاقة الأمم بعضها ببعض، في طريقة التشريع، إلى غير ذلك من سائر الشؤون. وقد جاء الإسلام فأدرك أن العالم لا يصلح بواحدة من هاتين الخطتين، وأنهما منافيتان للفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية، منافيتان لسنن الاجتماع التي تقضي بالوقوف عند الحدّ الوسط في كل شيء لضمان البقاء والصلاح، وعدم التعرض للانحلال والفساد، وأدرك الإسلام ذلك فجاءت شريعته وسطًا لا إفراط فيها ولا تفريط، ووقعت أحكامها ومبادئها مهما تنوّعت وتشعبت في هذه الدائرة، التي رسمها كتاب الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[1].

وفصّل الشيخ هذه الوسطية تفصيلًا فريدًا، فبين رحمه الله أن الإسلام وسط في عقيدته بين الذين ينكرون الإله، ويزعمون أن هذه الحياة الدنيا ليست إلا وليدة المصادفات والتفاعلات المادية، وبين الذين يقولون بالتعدد، ويتخذون مع الله أندادًا، وأنه وسط في أخلاقه بين الذين يتحلّلون من كل الفضائل، والذين يشتطّون في تصوّر الفضيلة والتزام طرف التشديد فيها، فقررت الأخلاق الإسلامية أن الفضيلة وسط بين رذيلتين: لا جبن ولا تهور، لا بخل ولا تبذير، لا استكبار ولا استخذاء، لا جزع ولا استكانة. وهو في صلة الإنسان بالحياة وسط بين المادية البحتة، التي لا تعرف شيئًا وراء ما يقع عليه الحسّ من طعام وشراب، ولذّات وشهوات، وغلبة وبطش، وجمع

---

(١) فقه الوسطية، ص١٠٨ ـ ١١٢، طبعة دار الشروق بالقاهرة، وانظر: تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى، للشيخ محمود شلتوت، ص٣١ وما بعدها.

للأموال، وتكاثر وتفاخر، والروحية البحتة التي تزهد في الحياة وتُعرض عنها إعراضًا تامًّا، فلا زواج، ولا سعي، ولا عمل، ولكن تبتّل مطلق وإهمال للأسباب!.

إلى آخر ما ذكر وفصل رَحِمَهُ اللَّهُ.

• **مؤلفاته**

ترك الشيخ الإمام محمود شـــلتوت ثروة طائلة من الأبحاث والدراسات القيمة، ومن أهم مؤلفاته:

ـ فقه القرآن والسُّنة.

ـ القرآن والقتال.

ـ مقارنة المذاهب.

ـ الإسلام عقيدة وشريعة.

ـ المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية، وهي الرسالة التي ألقاها الإمام في مؤتمر القانون الدولي المقارن في لاهاي، وقد نال بها عضوية جماعة كبار العلماء.

ـ الفتاوى، وهي تعبر عن رأي الإمام في كثير من المشـــكلات العصرية والاجتماعية.

ـ تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى)، ويمتاز هذا التفسير بجعله السورة وحدة متكاملة مترابطة متسلسلة، كما يمتاز هذا التفسير بالتزامه تفسير القرآن بالقرآن، وتنقية تفسيره من الإســـرائيليات وأمثالها من الأساطير، وقد راعى فيه القصد والاقتصار على المعاني القرآنية دون استطراد.

• **وفاته**

عرجت روحه إلى بارئها في مساء ليلة الجمعة (ليلة الإسراء والمعراج)، وأدَّى المصلون عليه صلاة الجنازة في (السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٨٣هـ، الموافق ١٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٣م).

* * *



٦ الدكتور محمد يوسف موسى

(١٣١٧ ـ ١٣٨٣هـ = ١٨٩٩ ـ ١٩٦٣م)

الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة والأخلاق في كلية أصول الدين، من مواليد مدينة الزقازيق بمحافظة الشرقية، وبدأ في طلب العلم في رحاب الأزهر حتى نال العالمية، وعُيِّنَ مدرِّسًا بمعهد الزقازيق لثلاث سنوات، فصل بعدها لضعف بصره، الذي سبب له مشاكل كثيرة، جعلته يتجه إلى تعلُّم اللغة الفرنسية، لتكون وسيلته لدراسة الحقوق والاشتغال بالمحاماة فيما بعد.

أكبَّ على دراسة الفرنسية، وتفرغ لها، حتى أتقنها، ثم اشتغل بالمحاماة الشرعية متدرِّبًا ثم متمرِّسًا ولامعًا، وعندما انتهت مشيخة الأزهر إلى الشيخ محمد مصطفى المراغي عُيِّنَ بالأزهر، تاركًا المحاماة وبريقها وشهرتها، مؤثِرًا التدريس والتعليم، استجابة لميله الفطري، وإيمانه بمكانة الأزهر الدينية والعلمية.

ظل بالأزهر ومعاهده حتى رُقِّي مدرسًا بكلية أصول الدين، التي درَّس فيها الفلسفة والأخلاق، بمنهج جديد لم يكن معروفًا ولا مألوفًا في الأزهر من قبل، وأخذ يكتب في المجالات العلمية، كما بدأ يترجم عن الفرنسية بعض الدراسات الخاصة بتاريخ الفلسفة في الشرق والغرب.

ومما أذكره من قصص الدكتور محمد يوسف موسى عن حياته في فرنسا، قصة لطيفة، قال: كنا في بيت، وكانت تخدمنا فيه فتاة يظهر على وجهها مخايل شرف الأصل، فهي متماسكة وعاقلة، ولا تتبذَّل، فسألوا عنها، فقالوا: إن عمها

المليونير فلان الفلاني. فقال: لماذا لا ينفق عليها؟ ألا تستطيع أن ترفع أمرها للمحكمة؟ فقيل له بأنه ليس لديهم قانون يلزم بمثل هذا. ثم سئل: هل لديكم أيها المسلمون قانون ينص على ذلك؟ فقال: نعم، إن مثل هذا يجب أن ينفق على بنت أخيه، ولو رفعت دعوى إلى المحكمة لقضت لها أن تأخذ حقها منه، وألزمته بذلك إلزامًا، فقالت المرأة الفرنسية: لو كان لدينا قانون كهذا لما وجدت امرأة تخرج في الصباح الباكر لتزاحم الرجال في العمل؛ لأنها لو لم تفعل هذا لماتت جوعًا.

وقد التقى أستاذنا العلَّامة الدكتور محمد يوسف موسى، الشيخ أبا الحسن الندوي في زيارته لمصر في يناير سنة (١٩٥١م)، وقد كتب له مقدمة لكتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟).

- **الدكتور محمد يوسف موسى يحسم الأمر:**

كان للدكتور محمد يوسف فضل في أن أختار شعبة التفسير والحديث في كلية أصول الدين، فقد كان بكلية أصول الدين شعبتان، شعبة علوم القرآن والسنة (أو التفسير والحديث)، وشعبة (العقيدة والفلسفة).

وكانت كل هذه الشروط في كلتا الشعبتين عندي موفورة بأكثر من المطلوب، ولكني توقفت كثيرًا في ترجيح اختيار إحدى الشعبتين: أأختار شعبة القرآن والسنة؛ لأنها تصلني مباشرة بمصادر الإسلام الأصلية، وتتيح لي فرصة التعمق في دراستهما، وتصحيح ما طرأ على فهمهما من أغلاط، والرد على ما يُثَار حولهما من شبهات وافتراءات؟ ولا يمكن للعالم المسلم أن يكون عالمًا حقًّا، إلا إذا أتقن علوم القرآن والحديث.

أم يا ترى أختار شعبة العقيدة والفلسفة، بما فيها من إغراء بدراسة الفكر الإنساني، وتتبع المذاهب الفكرية، والمدارس الفلسفية، ودراسة أغوارها، والإحاطة بتناقضاتها، وكيف ينقض بعضها بعضًا، وتوظيف هذه المعرفة في

خدمة الدعوة الإسلامية، والثقافة الإسلامية، ومخاطبة الإنسان المعاصر باللغة التي يفهمها؟.

كان الاختيار بين الشعبتين صعبًا، وكان الأمر محيرًا لي، ولم يحسم هذا الأمر عندي إلا باستشارة أهل الذكر والخبرة، كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]، وقال: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

لهذا توكلت على الله، وعزمت على زيارة أستاذنا الدكتور محمد يوسف موسى، وكان بيني وبينه مودة، رغم أني لم أدركه في كلية أصول الدين، ولم أسعد بتدريسه لي، وإن كنا سعدنا بدراسة كتبه، درسها لنا غيره، وقد زُرْتُه قبل ذلك في منزله بالروضة، ورحَّب بي، مع أنه لم يكن يقبل زيارةَ مَن لم يأخذ موعدًا منه.

كان الدكتور موسى راهبًا من رهبان العلم والفكر، لم يتزوج غير العلم والمكتبة، وكان ضليعًا متمكنًا في علوم الفقه والشريعة، وعلوم الفلسفة والعقيدة، وقد حصل على الدكتوراه من فرنسا، ومن ثَم كان أهلًا لأن يستشار في قضيتي.

ذهبت إليه، وطرقت عليه الباب، ففتح لي، ورحّب بي. قلت له: سامحني أن جئتك بغير موعد سابق.

قال: ومتى جئت بموعد يا قرضاوي؟ بيتي بالنسبة لك مفتوح دائمًا.

قلت: جئت لأستشيرك في قضية في غاية الأهمية بالنسبة لمستقبلي، ولم أجد غيرك يفتيني فيها!.

قال: خير.. ما هي؟.

قلت: أمامي اختياران في الدراسة العليا بكلية أصول الدين: علوم القرآن والسنة، أو علوم العقيدة والفلسفة. وأنا مستوفي الشروطِ للدراسة في كلتا

الشعبتين، وربما كانت درجاتي أعلى في شـعبة الفلسفة، وقد احترتُ بينهما حيرة شديدة؛ فأيهما تختار لي يا أستاذ؟.

فقال: اسمع يا يوسف، لقد عرفتَ أني عشت أكثر عمري في كلية أصول الدين أدرِّس الفلسـفة ونظريات الأخلاق، وتاريخ الفلسفات.. وما إلى ذلك، وألَّفت في ذلك ما ألفت من كتب، لعلك درست بعضها في الكلية.

قلت: نعم درسـنا أكثر من كتاب، منها كتاب: (حول فلسفة الأخلاق وتاريخها).

قال: ثم انتهى بي المطاف الآن إلى تدريس الشريعة الإسلامية في كليات الحقـوق، وأحمد الله قـد ألَّفْتُ فيهـا عددًا مـن الكتب تلقاها أهـل العلم والاختصاص بالقبول.

قلت: نعم، وقرأنا الكثير منها، وانتفعنا به.

قال: والآن أجد أن ما درسـته من قبل في الفلسـفة ومذاهبها ومدارسها الفكرية، كأنما كان تمهيدًا أو مقدمة لدراسـة الشـريعة؛ فالشريعة هي الغاية، وهي اللُّبُّ والجوهر، وكل ما عداها يجب أن يكون وسائل إليها.

وأعتقد أنَّك قد درسـتَ في كليـة أصول الدين مـن مذاهب واتجاهات الفلسفة الشرقية واليونانية والإسلامية والحديثة، ما أطلعك على أصول الفكر الإنساني والمذاهب الفلسـفية الكبرى، والنظريات الأخلاقية المختلفة، وأن لديك الآن من الإمكانات المعرفية ما تستطيع أن تتابع به حركة الفكر الإنساني في تطورها. وإنما الذي يحتاج إلى خدمة حقًّا هو: الشريعة وفقهها وأصولها، ومصدر الشريعة القرآن والسنة، إذا تضلَّعت في علوم القرآن والسنة أمكنك أن تخدم رسـالة الإسلام حقًّا، وأحسـب أن لك دورًا إن شـاء الله في الاجتهاد والتجديد لهذا الدين، أرجو ألا يخِيب ظني فيك... إلى آخر ما قال رحمه الله رحمة واسعة.

وكانت كلمات الدكتور موسى أشعة من نور أزالت غياهب الشك والتردد والحيرة من ذهني ونفسي تمامًا، وأقنعتني ألا أبتغي بالقرآن والسنة بدلًا، ولا أبغي عنهما حِوَلًا.

وودَّعتُ الأستاذ الكبير وشكرتُ له، ودعوتُ له من كل قلبي، وخرجت من عنده منشـــرح الصدر، مطمئن الضمير، مســـدَّد الوجْهة، مســـتبين الغاية والطريق.

• **رأيه في عبد الناصر:**

قال الدكتور محمد يوسف موســـى لي مرة: إن هذا البلد سجنٌ كبير، له باب واحد، وقفل واحد، ومفتاح واحد، في يد سجان واحد، هو عبد الناصر! وإن كان هذا (الســـجان) قد غدا في فترة من الفترات (ســـجينًا) لدى بعض مرؤوسيه، كما هو معروف في سيرة عبد الناصر: أن عبد الحكيم عامر صديقه، قد أصبح هو الذي يحكم مصر حقيقة، ســـواء ما يتعلق بالجيش، أم ما يتعلق بالشعب، وصار عبد الناصر (طرطورًا) أو (ديكورًا) صار كما قيل: يملك ولا يحكم!.

• **إهدائي له كتابي (الحلال والحرام):**

بعد أن ألفت كتابـــي الأول «الحلال والحرام في الإســـلام» وطبعت منه الطبعة الأولى في مطبعة الحلبي، وقد زرت شـــيخنا في منزله، وسلمتُ إليه نسخةً منه، سألني عن سبب تأليف هذا الكتاب، فأخبرته بقصة تكليفي به من الأزهر، فقال: عجيب! هذا الموضوع كُلِّف به زميلنا الشيخ فلان عضو جماعة كبار العلماء، وقد كان محتارًا: ماذا يكتب في هذا الموضوع المبعثر المشتت، واقترحت عليه بعض الأشـــياء، ولكن ما أحسبه يهتدي إلى ما هداك الله إليه، بورك فيك يا يوسف.

• **مؤلفاته:**

تنوعت كتابات موسى ومؤلفاته ومقالاته ما بين الأخلاق والشريعة وعلم الكلام والترجمة والتحقيق، ثم المؤلفات الإسلامية العامة. بعض هذه المؤلفات تُرْجِم عن الفرنسية في الفلسفة والشريعة، ومنها بحث في الفرنسية نشر عام (١٤١٥هـ = ١٩٩٥م) بمجلة (لاريفي دي كير) بالقاهرة، في عدد خاص عن ابن سينا في ذكراه، بالإضافة إلى رسالة الدكتوراه التي كتبت بالفرنسية ثم ترجمها بعد ذلك إلى العربية.

في الأخلاق له أربعة مؤلفات؛ وهي: (مباحث في فلسفة الأخلاق)، و(الأخلاق في الإسلام)، و(فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية)، و(تاريخ الأخلاق).

وفي الفلسفة: (القرآن والفلسفة)، و(بين الدين والفلسفة في رأي ابن رشد)، و(فلاسفة العصور الوسطى)، و(ابن رشد الفيلسوف)، و(الدين والفلسفة معناهما ونشأتهما وعوامل التفرقة بينهما)، و(بين رجال الدين والفلسفة)، و(ابن سينا والأزهر).. وغيرها.

وفي الشريعة: (مدخل لدراسة الفقه الإسلامي)، و(أحكام الأحوال الشخصية في الفقه الإسلامي)، و(نظام الحكم في الإسلام).

والأستاذ الدكتور موسى له مقالات متنوعة وكثيرة في مجلات وصحف لها وزنها الثقافي والعلمي كالأزهر والرسالة والمسلمون والمجلة، وتنوعت هذه المقالات من حيث الموضوعات، لكن كثيرًا منها دار حول المخاطر التي تهدد الأمة، وكان بعضها نقدًا لمؤلفات تاريخية أو أدبية، أو في الدراسات الفقهية بوجه عام. وقد جمع هذه المقالات في كتابه (الإسلام والحياة).

• **وفاته:**

لقد وهب الرجل نفسه للعلم فلم يتزوج، أو تشغله المناصب عن مشروعه الإصلاحي التجديدي، وقضى حياته كلها في سبيل أمنية غالية عزيزة على قلبه، ألا وهي: الإصلاح والتجديد. ولاقى في سبيل ذلك الكثير من العنت، كما كان حظ الكثير من المصلحين السابقين واللاحقين على السواء.

وافته المنيَّة صباح يوم (١٨ ربيع الأول ١٣٨٣هـ = ثامن أغسطس ١٩٦٣م) عن أربعة وستين عامًا، أمضاها في العلم والتعليم والتأليف والدعوة إلى الوسطية والتجديد. رحمه الله وغفر له.

* * *



الشيخ الدكتور مصطفى السباعي

رجل العلم والدعوة والتربية والجهاد

(١٣٣٣ ـ ١٣٨٤هـ = ١٩١٥ ـ ١٩٦٤م)

من الرجال الذين اصطفاهم الله لنفسه، وصنعهم على عينه، ورباهم بين يديه ـ نحسبه كذلك ـ الداعية الفقيه الأصولي، الصابر المجاهد، مصطفى حسني السباعي، أحد العمالقة في العلوم الشرعية، وفي الثقافة اللغوية، وفي الخبرة التربوية، وفي المصارعة السياسية، وفي المقاومة الاجتماعية، هو في كل هذه الميادين، فارس الميدان، ثقيل الميزان، حبيب الرحمن.

صاحب الروح المشرق، والبيان المُغْدِق، والعقل المنفتح، الذي قاوم أعداء السُّنَّة، فأسكتهم، ودعاة العلمانية فأفحمهم، مؤسس الحركة الإسلامية في سورية، والمراقب العام الأول للإخوان في سورية، ومنشئ مجلة (حضارة الإسلام)، وأول عميد لكلية الشريعة الإسلامية في سورية، وصاحب الكتب القيمة والرسائل النافعة.

كان الشيخ السباعي أحد الشخصيات الإسلامية النادرة: في علمها وفكرها، وفي عواطفها ومشاعرها، وفي أخلاقها وسلوكها، وفي دعوتها وجهادها. كان خطيبًا وسياسيًّا يهز أعواد المنابر، ومحاضرًا يأسر سامعيه بعميق فكره، وجميل أسلوبه، ومؤلفًا متمكنًا يوثق أقواله بالأدلة العلمية، وزعيمًا شعبيًّا يقود الجماهير بكياسة وحكمة، وقائدًا إسلاميًّا يقود سفينة الدعوة بوعي وصبر وثبات.

وبعد أحكام الإعدام في مصر في عام (١٩٥٤م) على ستة من الإخوان المسلمين، هم: عبد القادر عودة، والشيخ محمد فرغلي، ويوسف طلعت،

وإبراهيم الطيب، وهنداوي دويـــر، ومحمود عبد اللطيف، رحمهم الله تعالى، صلى الأستاذ الســباعي في دمشق صلاة الغائب على الشـــهداء، ووقف بعد الصلاة متحدثًا للجمهور، وطالبهم أن يعاهدوه على «الانتقام للشـــهداء» وقد استجابوا له، وعادت العلاقات مرة أخرى بين سورية ومصر إلى حد القطيعة.

وبعد أن حول أتاتورك جامع آيا صوفيا إلى متحف، كان الشيخ السباعي كلما زار آيا صوفيا صلى فيه ركعتين. وقد اقتدى العلَّامة أبو الحسن الندوي بالشيخ السباعي حين زار آيا صوفيا وصلى ركعتين بالمسجد.

• **لقاءاتي بالشيخ السباعي:**

لقيته **أول مرة** عندما زارنا في مدينة المحلة ســـنة (١٩٥٣م) على ما أذكر، وألقى محاضرة رائعة شـــهدها جمهور كبير، واســـتمر نحو ساعتين، والناس مشدودون إلى المحاضر بأعينهم وعقولهم ومشاعرهم، لم يبرح أحد مكانه. وقلما يحدث هذا والداعية غير مصري.

والمرة الثانية كانت عندما جمعني به الأســـتاذ الدكتور محمد البهي المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر، على حفل شاي في فندق شبرد، وكان ذلك تكرمًا منه، فهو رئيسي في العمل، ولكنه كان يعاملني معاملة خاصة لا يحظى بها أحد من زملائي، وقد أهداني الشيخ كتابيه (الســـنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) و(اشتراكية الإسلام). وكان الدكتور محمد البهي يعتبر الدكتور السباعي في مقدمة علماء سورية، ويعتبره مثلًا أعلى في التجرد الأخلاقي والثقافي.

والمرة الثالثة في رحاب المسجد الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا، في موسم الحج ســـنة (١٣٨٤هـ)، الموافق ســـنة (١٩٦٤م)، فقد قال تعالى في منافع الحـــج: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]، وكان من هـــذه المنافع لقاء العلماء والدعاة بعضهم ببعض، وأخذ بعضهـــم عن بعض، وتحمل التواصي بالحق وبالصبر فيما بينهم.

وجلست معه طويلًا، وتحدث إليَّ طويلًا وتحدثت إليه قليلًا، وأفضى إليَّ بما في ذات نفسه، وأسمعني من قصائده العاطفية التي تفيض حبًّا وشوقًا إلى رسول الله ﷺ، مثل قصيدته الشهيرة:

احملوني إلى الحبيبِ وروحوا واتركونـي ببابِهِ واستريحوا

وكان الشيخ ينشد هذه الأبيات ودموعه تسيل على خديه تأثرًا وحبًّا للرسول الكريم ﷺ. وقد تأثرت بإنشاده فبكيت معه.

وذكر الشيخ لي معاناته وآلامه، في سنواته الأخيرة، وكيف ذهب إلى أوربة للعلاج، وكيف وجد في كل مدينة يذهب إليها إخوة ينتظرونه، وقد رتبوا له كل شيء: الفندق الذي ينزل به، والمستشفى الذي سيعالج فيه، والطبيب الذي سيتولى فحصه والإشراف عليه، وكل ما يلزمه من دقائق الأمور وجلائلها، يقول: فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، وبدافع من الأخوة الإيمانية، وأنا والله لا أعرفهم، ولا هم من بلدي، ولكنه سر الدعوة التي أزالت الحواجز بين الناس، وقربت أهل الإيمان بعضهم من بعض، حتى كأنهم أسرة واحدة؛ فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصدق الله حين قال لرسوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣]

وكان هذا هو اللقاء الأخير بالأخ الكبير، والأستاذ المبجل، والإمام الجليل، وكانت أحاديثه معي من القلب إلى القلب، كأنما هي أحاديث مودّع، فما هي إلا أشهر قليلة، حتى اختار الله الشيخ لجواره، وودعته الأمة المسلمة.

- **إهدائي له كتابي (الحلال والحرام):**

وكان الأستاذ السباعي ممن أهديت له كتابي (الحلال والحرام في الإسلام)، وأهديته أيضًا لثلاثة آخرين من علماء سورية، وكلهم أصدقاء الشيخ؛

هم: الأستاذ مصطفى الزرقا، والدكتور معروف الدواليبي، بالإضافة إلى الأستاذ محمد المبارك، أرسلت ـ النسخ الأربع ـ مع أحد الإخوة السوريين الذين يدرسون في مصر.

• **السباعي من رواد الوسطية:**

الشيخ السباعي من رواد الوسطية، وممن دعا إليها بلسانه وقلمه وبسياسته ونهجه، وبمحاضراته وكتبه ودروسه، كما تجلّى ذلك في كتبه (السنة ومكانتها في التشريع)، و(المرأة بين الفقه والقانون)، و(من روائع حضارتنا)، و(اشتراكية الإسلام) وإن اعترض بعض الناس على عنوانه، ولكنه أضاف الاشتراكية إلى الإسلام، فلم يدْعُ إلى أيِّ اشتراكية، بل الاشتراكية المضافة إلى الإسلام، والمستمدَّة من الإسلام.

وله عددٌ من الرسائل والمقالات كلها تنبع من النظرة الوسطية المجدِّدة، أو التجديد الوسطي في الإسلام.

• **مؤلفاته:**

كان للشيخ السباعي عدة مؤلفات هامة في موضوعها، واضحة في هدفها، أصيلة في فكرتها، رائعة في أسلوبها، قوية في أدلتها، مؤثرة في قُرَّائها، تجمع بين العقل والعاطفة، تخاطب صميم العقل، وتنفذ إلى أعماق القلب.

ـ منها: كتابه (**السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**)، وقد رد فيه على خصوم السنة قديمًا وحديثًا، وفنَّد شبهاتهم. رد على المستشرِقِين، وعلى الأستاذ أحمد أمين، وعلى أبو رية وكتابه (أضواء على السنة المحمدية)، فكشف زيفه، وعرّاه، وأسقطه مثخنًا بالجراح، بالبراهين العلمية، وبالرجوع إلى المصادر الموثقة، لا إلى كتب الأدب والتاريخ ونحوها، كما فعل أبو رية.

وقد حدثني الشيخ السباعي: أن (أبو رية) زاره عندما جاء إلى مصر، وقال له: إنه كان شديد القسوة عليه، وإن ضرباته له كانت موجعة. وقال الشيخ: إني

لم أحِدْ عن المنطق العلمي قِيدَ شعرة، ولم أعتمد على مصدر تافه، ولا على قول واهن السند، ولا على قول أحد مطعون في علمه أو دينه. وهل تريدني أن أرفق بك، وأنت لم ترفق بسنة رسول الله ﷺ ـ بأبي هو وأمي ـ ولا بأصحاب رسول الله، ومنهم أبو هريرة رضي الله عنه، أكثر الصحابة رواية عن الرسول الكريم ﷺ، ولا بأئمة المسلمين المتفق على جلالتهم وفضلهم وسعة علمهم وأمانتهم؟ هل تريد مع هذا أن أسميك (شيخ الإسلام)؟! ولم يستطع أبو رية أن يتكلم.

ـ ومن كتب الشيخ المهمة والذائعة الصيت: (**اشتراكية الإسلام**)، وهو كتاب علمي أصيل، يعتمد على الأصول الإسلامية من القرآن والحديث وقواعد الشريعة ومقاصدها، وللشيخ فيه آراء عميقة، واجتهادات متميزة، وإن خالفه في شيء منها بعض مشايخ سورية المعروفين؛ مثل: شيخ حماة وخطيبها العلَّامة محمد الحامد. ولكل منهجٌ نهجه، كما يقر بذلك الشيخ الحامد.

ومن العلماء من لم يعترض على مضمون الكتاب، إنما اعترض على العنوان، وهو نسبة الاشتراكية للإسلام، ورسول الإسلام لم يكن اشتراكيًّا ولا رأسماليًّا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين.

وإنما اختار الشيخ هذا العنوان حين فُتِنَ الناس بالاشتراكية، وزعم من زعم أنها هي المذهب الذي حدَّ من طغيان الأغنياء، ورفع من مستوى الفقراء، ووقف في صف الكادحين، أمام جشع الرأسماليين المستغلِّين، والطامعين المتجبرين، فأراد أن يقول لهم: إن الإسلام سبق بهذه المبادئ التي تنصف الفئات الضعيفة، والطبقات المسحوقة، وتأخذ بأيديها، وتصون حقوقها، بل تشعل الحرب من أجلها، حتى إن الدولة الإسلامية هي أول دولة في التاريخ، تُجَيِّش الجيوش، وتعلن القتال من أجل انتزاع حق الفقراء من براثن الأغنياء، حتى قال الصديق أبو بكر الصاحب الأول والخليفة الأول: والله لو منعوني عقالًا (أي: حبل بعير من حقوق الفقراء) كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه!.

وهذه المبادئ في الإسلام على أحكم وجه، وأكمل صورة، وأقرب شيء إلى العدل والتوازن، دون اشتراكية مادية أو ملحدة أو مجحفة، بل الاشتراكية التي تقيم عدل الله في أرض الله، على جميع عباد الله، وهي الجديرة بأن تنسب إلى الإسلام؛ فهي اشتراكية مادية روحية، فردية اجتماعية، اقتصادية أخلاقية، إنسانية ربانية، واقعية مثالية، وليست مثل الاشتراكيات المقطوعة النسب بالله ﷻ.

وقد استغلت ثورة (٢٣ يوليو) في عهد عبد الناصر الكتاب، وطبعت منه عشرات الألوف، ترويجًا لاشتراكيتها الثورية الخاصة، ولعلَّ هذا ما أساء إلى الكتاب؛ حيث استُغِلَّ ما فيه من حق، لتأييد ما عند القوم من باطل، وهو ما شكا منه الشيخ في أواخر حياته، غفر الله له، ورحمه، وتقبله في عباده، الذين أنعم عليهم، من الصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

ـ ومن كتبه الشهيرة كتاب: (**من روائع حضارتنا**)، الذي قدَّم فيه بعض منجزات هذه الحضارة وآثارها المباركة، مما لا يمكن أن توصف معه بأنها حضارة جاهلية!.

ـ ومن كتب الشيخ: (**المرأة بين الفقه والقانون**)، و(**شرح قانون الأحوال الشخصية**)، و(**أخلاقنا الاجتماعية**)، وغيرها من الكتب والرسائل التي أسهمت في وقتها في تثقيف الأمة، وتوعيتها وتنوير عقولها، ودعوتها إلى المنهج الوسط الذي لا غلو فيه ولا تفريط.

ـ وكان من الآثار الطيبة التي تركها الشيخ: مجلة (حضارة الإسلام)، أسسها لتكون منبر (الإسلام الحضاري)، الذي يدعو إليه، وليس إسلام الطروشة أو الرهبنة، ولا إسلام العنف والنقمة، ولا إسلام التعصب والانغلاق.. وإنما هو الإسلام الذي يقيم حضارة عالمية إنسانية ربانية أخلاقية، علمية عمرانية، تصل الأرض بالسماء، والدنيا بالدين، والمخلوق بخالقه.

• **سجنه وإبعاده إلى لبنان:**

في عام (١٩٥٦م) طلب السباعي من الحكومة السورية السماح لجماعة الإخوان المسلمين بسورية بالمشاركة في حرب السويس، إلى جانب المصريين، فقامت حكومة أديب الشيشكلي بحل الجماعة واعتقال السباعي وإخوانه، ثم أصدر أمره بفصل السباعي من الجامعة السورية، وإبعاده خارج سورية إلى لبنان.

• **وفاته:**

أصيب الشيخ مصطفى السباعي رَحِمَهُ اللَّهُ في آخر عمره بالشلل النصفي، حيث شلَّ طرفه الأيسر، وظل صابرًا محتسبًا مدة (٨ سنوات). ولحق بالملأ الأعلى راضيًا مرضيًّا إن شاء الله، يوم السبت (٣ أكتوبر ١٩٦٤م)، أحوج ما تكون الأمة إلى مثله في علمه وفكره، وإيمانه وعمله، وخلقه وتوازنه، ولكنها سنة الله في خلقه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وكذا قال الله لخاتم رسله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وصُلِّيَ عليه في الجامع الأموي بدمشق، وعزاؤنا فيه: أن العلماء الربانيين لا يموتون، تذهب أجسامهم، وتبقى آثارهم، في كتب تُقْرَأ، أو أشرطة تُسْمَع، أو مواقف تروى، أو أحداث تُؤَثِّر، أو مؤسسات تربي، أو جامعات ومدارس تبني تلاميذ يعلمون الناس. وبهذا يضيفون أعمارًا إلى أعمارهم، فإن عملهم موصول، وأثرهم لم ينقطع بالموت.

فَفُزْ بعلمٍ تعشْ حيًّا به أبدًا ... الناسُ موتى وأهلُ العلم أحياءُ!

وكما قال شوقي في رثاء مصطفى كامل:

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له ... إنَّ الحياةَ دقائق وثواني
فارفعْ لنفسك بعد موتِك ذكرَها ... فالذِّكْرُ للإنسانِ عمرٌ ثانِ

* * *



الشيخ العلَّامة محمد بن مانع

كبير علماء قطر في عصره

(١٣٠٠ ـ ١٣٨٥هـ = ١٨٨٣ ـ ١٩٦٥م)

العلَّامة الشيخ محمد بن عبد العزيز المانع، كبير علماء قطر، ومدير المعارف سابقًا بالمملكة العربية السعودية، وكان الشيخ ابن مانع من العلماء الذين لهم ولع بالتراث وبالكتب، وله رسائل وتحقيقات بعضها نشر، وبعضها لم ينشر.

وكان عالمًا حنبليًا معتزًا بحنبليته، وكان يتمسك بالمذهب الحنبلي، ويردد بيت الشاعر الذي يقول:

أنا حنبليٌّ ما حييتُ، فإنْ أمُتْ فوصيتي للنَّاس أن يَتَحَنْبَلُوا!

ومع هذا لم يكن متعصبًا، بل كان رجلًا سمحًا، لطيف المعشر، لين الجانب، حسن الأخلاق.

- **رحلته في طلب العلم:**

رحل المانع إلى العراق، فوصل إلى البصرة أول الأمر، ومكث فيها فترة، ثم قصد بغداد، فقرأ النحو والفقه والفرائض والحساب على يد شيوخ وأساتذة بغداد، فقرأ على محمود شكري الآلوسي، وعلى عليٍّ بن السيد نعمان أفندي الآلوسي، وعبد الوهاب بن عبد القادر بن عبد الغني، وعبد الرزاق الأعظمي، ويحيى بن قاسم الوتري، وقد استمرت رحلته في العراق أربع سنوات.

ثم شد الشيخ الرحال إلى القاهرة، متوجهًا إلى الأزهر الشريف، ومكث في الأزهر ثلاث سنوات، حضر خلالها دروسًا ولقاءات للإمام محمد عبده،

والأستاذ محمد رشيد رضا، وقرأ (الروض المربع شرح زاد المستقنع)، وبعضًا من (شرح دليل الطالب)، كما قرأ النحو والعلوم السائدة في الأزهر على الشيخ محمد الذهبي شـيخ الحنابلة بمصر، ثم توجه المانع بعد ثلاث سنوات إلى دمشق، سمع فيها على أشهر علماء عصره: جمال الدين القاسمي، سمع عليه صحيح البخاري، وحضر الدروس التي كان ينظمها العلَّامة عبد الرزاق البيطار ثم عاد إلى عنيزة.

- **لقائي بالعلَّامة ابن مانع:**

كان بيت الشيخ ومجلسـه بجوار جامع الشيوخ، وألقيت مرة درسًا عن فضل طلب العلم بعد خطبة الشيخ ابن تركي، كان درسي بعد صلاة الجمعة جاذبًا لانتباه من سـمعوه مـن أهل العلم، وعلى رأسـهم العلَّامة الشـيخ محمد بـن عبد العزيز المانـع، كبير علماء قطـر، ومدير المعارف سـابقًا بالمملكة العربية السعودية، وكان بيته ومجلسه بجوار الجامع الكبير، وبعد كل صلاة جمعة يجلس مع صحبه في مجلسـه، فدعاني إلى مجلسه، وسلم علي ورحب بي، وأثنى على حديثي، وعرفني بأنه زار مصر، وأنه لقي الشيخ محمد عبده، وأنه أول من جلب علماء الأزهر إلى المملكة، وكان يذكر هذا على سبيل الفخر والاعتزاز.

وكان فكه الحديث يقول: اجتمع عندنا في الرياض من مشايخ الأزهر ما يكون حديقة حيوان، فكان عندنا من العلماء والمشايخ: النمر والضبع والديب والسبع والسراحين! يعني آل سرحان، وكانوا ثلاثة.

- **مؤلفاته:**

كتب الشيخ منها ما هو من تأليفه، ومنها ما قام بتحقيقه، كما أنه له تقديم لعدة كتب:

ـ من الكتب التي ألفها: (تحديق النظر في أخبار الإمام المهدي المنتظر)، و(إقامة الدّليل والبُرهان)، و(القول السديد)، و(كشف الشبُهات)، و(الرسالة المفيدة).. وغيرها.

ـ ومما قام بتحقيقه كتاب: (عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان) لمحمد شمس الحق آبادي.

ـ وقد قدم لعدة كتب منها: (شـرح العقيدة الواسِطية) لشيخ الإسلام ابن تيمية، و(قـرة عيون الموحدين)، و(الـدُرَّة المُضِيـة)، و(الأجوبة الجلية في الأحكام الحنبلية).. وغيرها كثير.

• **وفاته:**

أصيب محمد المانع أواخر حياته بمرض البروستاتا، ثم سافر إلى بيروت لإجراء عمليـة جراحية في مستشـفى دار الصحة، وقد توفـي عقب العملية بالمستشفى يوم الخميس (١٤ رجب ١٣٨٥هـ، الموافق ٧ نوفمبر ١٩٦٥م)، وقد صلّى عليه في بيـروت جمع من أهل العلم والفضل والحكم والسـفراء من رجالات لبنان والعالم الإسلامي، ثم نقل جثمانه إلى الدوحة بالطائرة، حيث تمت الصلاة عليه بجامع الشيوخ نهار السبت السادس عشر من رجب، ودفن في المقبرة الشرقية بالدوحة.

* * *



٩ المفكر الإسلامي سيد قطب

شهيد الدعوة والتربية والثقافة والفكر

(١٣٢٤ ـ ١٣٨٦هـ = ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦م)

الأديب الكبيـــر، والداعية المفكـــر، والمجاهد الصُّلْـــب، صاحب القلم السيَّال، والأسلوب الرفيع: سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي.

إذا سألتني: من هو سيد قطب؟ أقول: حقًّا سيد قطب أحد عظماء الرجال في أمتنا، في تاريخنا الحديث والمعاصر، هو مســـلم عظيم، إذا قِسْنا العَظَمة بمقياس الإنســـانية، وهو أديب عظيم، إذا قِسْـــنا العظمة بمقياس الإبداع في الأدب والنقد الأدبي، وهو داعية عظيم، إذا قِسْنا العظمة بقوة التأثير في الدعوة والتوجيه، وهو عالم ومفكِّر عظيم، له أثره في العلم والفكر، إذا قسْنا العظمة بمقدار الاســـتقلال في الفكر وأصالة العلم، وهو أيضًا مسلم عظيم، إذا قسنا العظمة بالبذل والتضحية في سبيل الله. وحسْبُنا أن الرجل قدَّم عنقَه ودمه فداءً للدعوة التي يؤمن بها، وأعتقد أنَّه كان مخلصًا في دعوته، أصاب فيها أم أخطأ فهو مخلص، وأعتقد أنه مـــن الذين ينطبق عليهم قـــول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

• انضمام سيد للإخوان:

مما لفت نظر الشهيد سيد قطب للانضمام لجماعة الإخوان المسلمين ما حدث من أحداث في أمريكا، شهدها بعينه، ونبهته على شيء لم ينتبه له من قبل، وذلك حق؛ فقد احتفلت أمريكا ورقصت طربًا لموت حسن البنّا، وكتبت الجرائد والمجلات عن موت عدو الغرب الأوَّل في الشرق الأوسط!.

والحادثة الثانية لقاؤه مع رجل المخابرات البريطاني (جون هيوورث دن) في بيته؛ حيث حذَّر (دن) سيِّدًا من الإخوان المسلمين، ومن مغَبَّة إمساكهم بزمام الأمور في مصر، وقدَّم له معلومات دقيقة عن التنظيم، وأهاب به أن يقف وأمثاله من المثقفين المصريين في وجه الإخوان المسلمين! عندها أدرك سيِّد صِدْقَ دعوة الإخوان، وكيد أعداء الأمة بهم، وفي بيت هذا الإنجليزي قرر سيّد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في قرارة نفسه ـ الانضمام للإخوان المسلمين.. فأصبح واحدًا منهم، بل غدا من قادة الفكر والتوجيه فيهم، وأضحى موضع الثقة عند مرشدهم المستشار حسن الهضيبي، حتى أسند إليه رئاسة (قسم نشر الدعوة) في الجماعة، كما أسندت إليه رئاسة تحرير مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية، كما كان سكرتير تحرير المجلة معه الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ محمد فتحي عثمان.

وقد اختار بملء إرادته الانضمام إلى دعوة الإخوان، ولا سيما بعد أن خاب ظنه في رجال الثورة، الذين علق عليهم في أول الأمر آمالًا وأحلامًا، فتبخرت وضاعت، كما تبخرت أحلام الشاعر العاشق الذي قال:

كأنِّي مِنْ ليلى الغداةَ كقابضٍ على الماء خانَتْهُ فروجُ الأصابِعِ

- **لقاؤه بأبي حسن الندوي:**

التقى الشيخ أبو الحسن في القاهرة بكثير من العلماء والدعاة والمفكرين، وسجل عنهم ملاحظاته الدقيقة في كتابه الذي أصدره بعد رجوعه (مذكرات سائح في الشرق العربي).. كان ممن التقى به الشهيد سيد قطب، وأعجب به الشهيد، وكتب مقدمة أخرى لكتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) أنصف فيها الكتاب وصاحبه، وقدره حق قدره.

- **لقاءاتي مع سيد قطب:**

بعد أن انضم الأستاذ سيد قطب إلى جماعة الإخوان غدا من قادة الفكر والتوجيه فيهم، وأضحى موضع الثقة عند مرشدهم المستشار حسن الهضيبي،

حتى أسند إليه رئاسة (قسم نشر الدعوة) في الجماعة، كما أسندت إليه رئاسة تحرير مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية.

وفي هذه الفترة طلبني الأستاذ سيد قطب لألقاه، فذهبت إليه في المجلة، وقال لي: إنه كُلِّف رئاسة قسم نشر الدعوة، وهو يريد أن ينهض بالقسم على أسس منهجية سليمة، ويرجو من دعاة الإخوان أن يعاونوه على ذلك، فهو لا يستطيع أن يحقق ما يريد إلا بتعاون الجميع معه، وخصوصًا شباب الدعاة المرجوّين أمثالك.

قلت له: أنا معك في كل ما تصبو إليه إن شاء الله، ونحن جنودك في تحقيق آمالك الكبيرة المرجوَّة في نشر الدعوة بطريقة علمية.

قال: تعلم أن أحاديث الثلاثاء أصبحت متروكة للمصادفات، في كل ثلاثاء يقدَّم أحد الإخوان الدعاة، ليلقي ما يخطر بباله بدون إعداد ولا تحضير، وإنما هو حديث مرتجل عفو الخاطر، ومثل هذا لا يليق بجماعة كبيرة عريقة مثل الإخوان.

لهذا رأيت أن ننظم هذا الأمر، بحيث نكلف عددًا من دعاة الإخوان، كل واحد يأخذ شهرًا، يلقي فيه أربعة أحاديث في موضوع محدد يتفق معه عليه، ويحضِّر له المادة المطلوبة، ويلقيه على الإخوان، فيستفيدون علمًا وثقافة، لا مجرد عواطف ومشاعر، قلت له: نِعْمَ الرأي هذا.

قال: وعلى هذا الأساس أعرض عليك واحدًا من موضوعين، تختار أحدهما لتعده وتلقيه في الوقت المناسب، الموضوع الأول: مواقف من السيرة النبوية، والثاني: من أخلاق القرآن، فهل ترى هذين مناسبين؟.

قلت: كلاهما ملائم، ولكني أختار الثاني، فربما عندي فيه ما يقال مما يفيد إن شاء الله.

قال: على بركة الله، فليكن ذلك في شهر نوفمبر تقريبًا، أي: في أثناء السنة الدراسية إن شاء الله.

ولكن الأمور تغيَّرت بسرعة مذهلة، وحدث ما حدث، حتى إن شهر نوفمبر الموعود حينما جاء، كان قد ضمه وضمني وضم الإخوان معنا السجن الحربي، والعبد يفكر، والله يقدر، ولله في خلقه شؤون.

كانت هذه **المرة الثانية** التي ألقى فيها الشهيد سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ وأجلس إليه منفردًا به.

أما المرة الأولى، فكنت أنا الذي طلبت لقاءه، فقد كنتُ مشغولًا بإصلاح الأزهر، لعلمي بأن الأزهر مؤسسة علمية دينية كبرى، ذات تأثير في مصر وفي العالم الإسلامي كله، بل في المسلمين خارج العالم الإسلامي حيثما كانوا، وأنه بإضاعة الأزهر يضيع خيرٌ كثير على الأمة، وبإصلاحه يصلح كثير من شأن الأمة، وقديمًا قالوا:

يا أيُّها العلماءُ، يا ملحَ البلد ما يُصلحُ المِلْحَ إذا الملحُ فَسَد؟

ذهبت إلى الأستاذ سيد رَحِمَهُ اللَّهُ، وعرضت عليه ما عندي من أفكار لإصلاح الأزهر، والرقي بمناهجه، والنهوض بعلمائه ورجاله، وشرحت له ذلك في جلسة مطوَّلة، في دار الإخوان بالحلمية، وقد أثنى على جهدي وتوجُّهي الإصلاحي، وشجَّعني تشجيعًا سرَّني وشرح صدري، وأضاف إليّ بعض النصائح والتوجيهات المهمة من ثمرات قراءته، ومن تجاربه في الحياة، وأذكر مما قاله لي، وأنا أحدثه عن الفلسفة الإسلامية: إنها في الحقيقة ليست فلسفة إسلامية، إنها في الواقع ظلال للفلسفة اليونانية، مترجمة إلى العربية، مضافًا إليها بعض إضافات لم تغير جوهرها، إننا في حاجة إلى فلسفة تعبر عن حقائق الإسلام الكبرى، وعن فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان، بصورة تبيِّن مزايا النظرة الإسلامية عن سائر النظرات والفلسفات الأخرى، سواء كانت نظرة

الديانات السماوية الأخرى التي حُرِّفَت، أم الديانات الوثنية الأرضية، أم الفلسفات البشرية الوضعية.

ولم يُقَدَّر لي بعد هاتين الجلستين مع الشهيد، أن أسعد به مرة أخرى، فقد كنت في القاهرة صيف سنة (١٩٦٤م) حين أفرج عنه من سجنه بشفاعة الرئيس العراقي عبد السلام عارف، وأردت أن أسلم عليه بعد خروجه من السجن، وذهبت مع أحد الإخوة الأزهريين العراقيين الذين كانوا يدرسون للدكتوراه في مصر، وهو الأخ الشيخ حسيب السامرائي، الذي تفضل بأخذنا في سيارته أنا والأخ الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر، وذهبنا إلى بيته في حلوان، ولكنا للأسف لم نجده، ولم تتح لنا زيارته مرة أخرى، إذ في السنة القادمة كانت محنة (١٩٦٥م)، والتي جرى فيها ما جرى، والحمد لله على كل حال.

• **تنظيم (٦٥):**

أعلنت أجهزة عبد الناصر أنها اكتشفت (تنظيمًا سريًّا) خطيرًا جدًّا، يقوده (سيد قطب) ومعه مجموعة من الإخوان.

هذا التنظيم المحدود العدد، المحدود الإمكانية ـ الذي يقوم في الأساس على التوعية والتثقيف والإعداد الفكري والنفسي ـ قد هوَّلت أجهزة عبد الناصر من أمره، وجعلت (من الحَبَّة قُبَّة)، و(من القِطِّ جملًا)، كما يقول المثل. وأعتقد أن هذه الأجهزة هوَّلت الأمر لعبد الناصر نفسه، وعرضت عليه الأمر عرضًا يضخِّم الواقع أضعاف ما هو عليه، فكأنما يراه بمجهر مكبِّر (ميكروسكوب). وذلك لتستخرج منه القرار المشؤوم بإشعال تنور الأذى والعذاب.

فقد حاولوا أن يضفوا المبالغات على هذا التنظيم المحدود، فقالوا: إنه كان يخطط (لنسف القناطر الخيرية)! وهل يفكر في ذلك عاقل؟! وماذا يستفيد من ذلك إلا الهلاك والخراب؟! وإذا كان يريد أن يحكم البلاد، فكيف يخرِّبها قبل أن يستولي عليها؟!.

وقالوا: إنهم يريدون اغتيال (أم كلثوم).. وهل يفكر في ذلك من له ذرّة من عقل؟! وماذا ارتكبت أم كلثوم من جرائم تستحق عليها القتل؟! وهل يقتل عاقل إنسانة يحبها جماهير الشعب المصري ـ بل العربي كله ـ ويُعَرِّض نفسه لسخط عام دون حاجة لذلك؟!.

وساعد الحكومة في ذلك ما تملك من أجهزة الإعلام ـ ومن المعروف أن الصحف كلها في مصر قد (أُمِّمَت) وأصبحت ملك الدولة ـ المقروءة والمسموعة والمرئية، فهي الناطقة باسمها، والمدافعة عنها، والمهاجمة لخصومها، ما تستطيع به أن تغير الرأي العام إلى صفها. ولا سيما أن الخصم لا يملك أية وسيلة إعلامية يستطيع بها أن يدافع عن نفسه، ولو بأدنى دفاع.

وقد بدأت هذه الجولة بالقبض على الأستاذ محمد قطب يوم (٣٠ يوليو سنة ١٩٦٥م)، ثم القبض على الأستاذ سيد قطب في (٩ أغسطس) التالي، وانطلقت بعد ذلك جحافل عبد الناصر تلقي القبض على آلاف الإخوان، وتفاخر عبد الناصر فيما بعد بأنه قبض على ثلاثين ألفًا في نصف ساعة!.

• **تنبيه على أمرين مهمين:**

وأود أن أوضح هنا أمرين:

أحدهما: أن جماعة الإخوان التي يرأسها الأستاذ الهضيبي وقتها، لم تؤسس هذا التنظيم، وليست هي المسؤولة عنه، وإنما يُسأل عنه العدد المحدود الذين دعوا إليه ونظَّموه.

ومن الظلم أن تحمَّل جماعة كبيرة كالإخوان وزر فئة محدودة منها، لم تلتزم بخطها، ولم تأخذ إذنًا من مرشدها العام.

كما أن جماعة الإخوان غير موجودة قانونًا، ومحلولة رسميًّا، فلا يجوز أن

يُنسَب إليها أي عمل، والأفراد ينبغي أن يحملوا جزاءَ ما عملوا بصفتهم الفردية.

والثاني: أن هذه الأشياء التي ذكروها في اتهام هذا التنظيم ـ إن افترضنا صحتها ـ لم يُنفَّذ منها شيء على أرض الواقع، وقد قيل: إن بعضهم كتبها على ورقة، باعتبارها أشياء يفكر فيها، أو مقترحات قد يعرضها على غيره، أو نحو ذلك.

والإنسان إنما يُسأل ـ شرعًا وقانونًا ـ عما يعمله بالفعل، أو يشرع في عمله، ويأخذ في ذلك خطوات للتنفيذ. أما أحاديث النفس وخواطرها، وما يدور بتفكيرها، فلا يحاسب عليها الدين، ولا يحاسب عليها القانون.

وفي الحديث الصحيح: «**إن الله عفا عن أمتي ما حدثت بها أنفسها، ما لم تعمل به أو تتكلم**»[1].

- **عَلامَ حُوكم سيد قطب؟:**

الحقيقة أن سيد قطب وتنظيمه لم يحاكما من أجل (الأعمال الخطيرة) التي ارتكبها، ولكن حوكم كلاهما من أجل (الأفكار الخطيرة) التي اعتنقها، أو دعا الناس إليها. ولو أنصفوا وامتلكوا الشجاعة لقالوا: إننا حاكمنا الرجل ـ بل حكمنا عليه بالإعدام ـ من أجل أفكاره، لا من أجل أعماله. والعجيب أن الذي كان يحاكم أفكار سيد قطب ضابط محدود الثقافة، قليل البضاعة من العلم والفكر، وإن كان لواء في الجيش. فإن كان لا بد من محاكمة فكر سيد قطب، فلتكوَّن له لجنة من كبار العلماء والمفكرين، تناقشه فيما ذهب إليه.

لقد حوكم سيد قطب على أخطر كتاب ألفه، وهو كتاب (معالم في الطريق)؛ فهو الذي تتركز فيه أفكاره الأساسية في التغيير الذي ينشده، وإن

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (١٢٧)، عن أبي هريرة.

كان أصله مأخوذًا من تفسيره (في ظلال القرآن) في طبعته الثانية، وفي أجزائه الأخيرة من طبعته الأولى. كان الكتـــاب قد طبع منه عدد محدود في طبعته الأولى التي نشـــرتها (مكتبة وهبة)، ولكن بعد أن حُكم بإعدام سيد قطب، وبعد أن كتبت له الشـــهادة أصبح الكتـــاب يطبع في العالم كله بعشـــرات الآلاف. وصدق ما قاله عليه رحمة الله: «ستظل كلماتنا عرائس من الشمع، لا روح فيها ولا حياة، حتى إذا متنا في ســـبيلها؛ دبت فيها الروح، وكتبت لها الحياة!». فهم في الحقيقة لم يقاوموا أفكار سيد قطب، بل ساهموا مساهمة فعالة في إذاعتها ونشرها!.

• **الحكم بالإعدام:**

حوكم سيد قطب أمام (محكمة عسكرية)، تتكون من ضباط كبار، وإن من العجب ـ حقًّا ـ أن يحاكِمَ رجل عسكري ـ مهما تكن خبرته ومعرفته ـ رجلًا في حجم سيد قطب الأديب الشاعر الناقد العالم الداعية المفكِّر!.

وفي نهاية المحاكمة التي راقبها الكثيرون فـــي كل مكان، فوجئ الناس بالحكم على ثلاثة من المتهمين بالإعدام: سيد قطب، ومحمد يوسف هواش، وعبد الفتاح إسماعيل، وعلى آخرين بأحكام متفاوتة.

إن دمَ سيد قطب ورفيقيه سيظل لعنة على من سفكوه بغير حق، وسيظل يطاردهم، حتى يثأر له القدر من الطغاة الظالمين، ويستجيب لدعاء المظلومين الذي يرفعه الله فـــوق الغمام، ويفتح له أبوب الســـماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين.

• **مشاركتي في مظاهرة عمان للتنديد بإعدام سيد قطب:**

بعد تنفيذ حكم الإعدام، الذي صدر من المحكمة العســـكرية في مصر، وضرب جمال عبد الناصر عُـــرْض الحائط بكل النداءات والتوســـلات التي وصلت إليه من بلاد العرب والمســـلمين؛ كان لهذا الحدث صداه الواسع في

أنحاء العالم، وخصوصًا بين العاملين في الساحة الإسلامية، والمهتمين بالشأن الإسلامي، وعلى الأخص بين الإخوان في الخارج الذين زلزلهم هذا الحدث زلزالًا شـديدًا. وقرر الإخوة في (عمَّان) تنظيم مسيرة احتجاج كبرى في يوم معين، وحرصت أن أشارك بنفسـي في هذه المسيرة، فسـافرت من الخليل ـ التي كنت مقيمًا فيها في ذلـك الصيف ـ إلى عمَّان، لألتقي الإخوان هناك، وأسـاهم مع الإخوة في رفع الشـعارات التي تندد بالظلم والطغيان، وتنادي بالويـل للطغاة والجباريـن، وبالثأر للشـهيد المظلوم. وبعد المشـاركة في المسيرة، عدت إلى الخليل؛ لأتهيأ لخطبة الجمعة القادمة، وأذكر أنها كانت في مسجد الخليل إبراهيم.

- **وقفة مع الشهيد سيد قطب:**

لا يشك دارس منصف، ولا راصد عدل، في أن سيد قطب مسلم عظيم، وداعية كبير، وكاتب قدير، ومفكر متميز، وأنه رجل تجرَّد لدينه من كل شائبة، وأسلم وجهه لله وحده، وجعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين، لا شريك له. ولا شك في إخلاص سيد قطب لفكرته التي آمن بها، ولا يشك في حماسه لها، وفنائه فيها، وأنه وضع رأسه على كفه، وقدم روحه رخيصة من أجلها. ولا ريب أنه قضى سـنوات عمـره الأخيرة، وهو في السـجن يجلي الفكرة، ويشرحها بقلمه المبدع، وبيانه العذب، وأسلوبه الأخَّاذ. كما لا ريب أن كتبه تعطي قارئها شـحنة روحية وعاطفية دافقة ودافئة ودافعة، توقظه من رقود، وتحركه من سكون؛ لما فيها من حرارة وإخلاص.

وهذه الفكرة هي التي انتهى إليها تطوره الفكري والعلمي، بعد مسـيرة حافلة بالعطاء، في مجال الأدب والنقد، وفي مجـال الدعوة والفكر. ولا بد لمن يريد أن يفهم سيد قطب أن يحيط بمراحل حياته وتطوره فيها، حتى يعرف حقيقة موقفه الذي انتهى إليه. سيد قطب مرَّ في حياته بمراحل:

ـ أولًا: مرحلة الأدب والنقد:

أول ما ظهر سيد قطب ظهر أديبًا شاعرًا، ثم ناقدًا أديبًا.

كان شاعرًا رقيقًا، مرهفَ الحس، دافقَ العاطفة، يحسبُه الناقدون على الاتجاه الرومانسي) في الشعر، وعده د. محمد مندور في جماعة (أبولُّو) ذات الاتجاهات الرومانسية المعروفة.

ومن المعروف أنه كان في أدبه النثري محسوبًا على (مدرسة العقاد)، وكان العقاد يمثل (المدرسة الليبرالية) والفكر الحر، ولم يكن قد ظهر توجُّهُه الإسلامي الذي اتضح في كتاباته الأخيرة. وكان الذي يمثل (المدرسة الإسلامية) في الأدب هو مصطفى صادق الرافعي. وكان بين الاتجاهين أو المدرستين صراع دامٍ؛ سلاحه القلم، وميدانه المجلات الأدبية كـ(الرسالة) و(الثقافة) وغيرهما، والكتب الأدبية، وقد هاجم الرافعي العقاد في مقالات نشرت بعد ذلك في كتاب سماه (على السفُّود). لم يكن سيد قطب في هذه المرحلة قد عُرِفَ بتوجه إسلامي واضح، رغم أنه خريج (دار العلوم) وقد عاصر حسن البنا، وإن لم يتعرف عليه وعلى دعوته إلا بعد استشهاده.

وقد ذكر الأستاذ محمود عبد الحليم في كتابه (الإخوان المسلمون.. أحداث صنعت التاريخ) واقعة عن سيد قطب في هذه المرحلة، ما زلت في تردد من أمرها، وهي: أنه كتب مقالة في الأهرام تدافع عن (العرْي) وأنه من الحرية الشخصية للإنسان، على غرار ما يكتبه دعاة الإباحية، وهذا نفس غريب على مسيرة سيد قطب، فلم يكن الرجل ـ على ما أعلم ـ في أي فترة من حياته من دعاة التحلل. وأرجو من إخواننا من شباب الباحثين أن يحققوا ويبحثوا في حقيقة هذه الواقعة وماذا وراءها.

وقد توَّج هذه المرحلة من مراحل مسيرته عملان كبيران من الأعمال الأدبية الأصيلة، التي لم يقلد سيد قطب فيها أحدًا، بل كان فيها نسيجَ وحدِه:

أولهما: كتابه عن (**أصول النقد الأدبي**) وهـو ـ باعتراف مؤرخي الأدب العربي ـ عمل متميز، وإن لم يأخذ حقه من الظهور، ربما كان سبب ذلك هو تحول صاحبه إلى الدعوة الإسلامية، وأنه أمسى محسوبًا على عالم الدعاة، لا على عالم الأدباء والنقاد.

وثانيهما: عمله الأصيل المتميز في خدمة القرآن، وإعجازه البياني، بمنهج لم يسبق له نظير، وهذا العمل يتمثل في كتابيه الرائعين:

أ ـ التصوير الفني في القرآن.

ب ـ مشاهد القيامة في القرآن.

والكتاب الأول يجسد النظرية، والثاني بمثابة التطبيق لها.

وهذان الكتابان يمثلان تمهيدًا أو همزة وصـل للمرحلة القادمة؛ مرحلة الدعوة إلى الإسلام.

ـ ثانيًا: مرحلة الدعوة الإسلامية:

والمرحلة الثانية في حياة سـيد قطب هي مرحلة الدعوة إلى الإسـلام؛ بوصفه عقيدة ونظامًا للحياة يقيم العدالة الاجتماعية في الأرض، ويرفع التظالم بين الناس، ويرعى حقوق الفقراء والمستضعفين، بوسيلتين أساسيتين، هما: التشريع القانوني، والتوجيه الأخلاقي.

وكان هذا التطور لـه مقدمات وعلامات، منها: اهتمامـه بقضية المظالم الاجتماعية في مصر، وسـيطرة الإقطاع المتجبّر في الأرياف، والرأسـمالية الاحتكارية المسـتغلة في المدن على الاقتصاد المصـري، وضياع الفلاحين والعمال ـ وهم جل المصريين ـ بين تجبُّر أولئك وتسلُّط هؤلاء.

وقد بدا هذا التوجه واضحًا في مشـاركته في مجلة (الفكر الجديد) التي كانت تُعْنَى بهذا الجانب الاجتماعي، والتي لم تدم طويلًا، وقد أشرنا

إلى ذلك في الجزء الثالث من كتابنا: (ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة)[١].

ولعلَّ كتابيه السالفين في خدمة البيان القرآني قد مهدا له الطريق؛ ليطل على (المضامين) الإصلاحية العظيمة التي اشتمل عليها القرآن، وإن كانت دراسته أساسًا تهتم بالشكل والأسلوب.

ظهر أول كتاب له في هذه المرحلة، وهو: كتاب (**العدالة الاجتماعية في الإسلام**) الذي عرض الموضوع بطريقة منهجية، بيَّن فيه أسس العدالة الاجتماعية في الإسلام، وإن كان الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ له فضل السبق بتناول هذه الموضوعات في مقالاته التي كان ينشرها في مجلة (الإخوان المسلمون)، ثم جمعها في كتبه: (الإسلام والأوضاع الاقتصادية)، و(الإسلام والمناهج الاشتراكية)، و(الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين)، ولكن هذه الكتب لم تكتب بالطريقة المنهجية التي كتب بها سيد قطب؛ لأنها في الأصل مقالات، تجلي جوانب مهمة في هذا الجانب الاجتماعي والاقتصادي في الإسلام.

ولا شك أن الشهيد سيد قطب قد استفاد من كتب الغزالي، وإن لم ينقل عنها بالحرف، وإنما اقتبس كثيرًا من الأفكار. ولهذا جعل من مصادره في الطبعة الأولى للكتاب: (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و(الإسلام والمناهج الاشتراكية). ثم حُذفا بعد ذلك مع قائمة المصادر كلها.

استقبلت الأوساطُ الإسلامية كتابَ (العدالة) بالحفاوة والترحيب؛ باعتباره أول مولود لسيد قطب في عهده الجديد، واستبشروا بأن التيار الإسلامي قد كسب كاتبًا له وزنه الأدبي، وقلمه البليغ؛ فهو يعتبر إضافة لها قيمتها إلى هذا التيار.

---

(١) (٣/٥١ ـ ٦٩).

وغمرت الإخوانَ خاصَّةً فرحةٌ بهذا القلم الجديد، الذي انضم إلى القافلة الإسلامية، وكأنه كان مكافأة لهم بعد خروجهم من معتقلات الطور و(هايكستب)، وسقوط وزارة إبراهيم عبد الهادي قاتلة حسن البنا، وصاحب التاريخ الأسود!.

ولم يكتفِ سيد قطب بهذا الكتاب بل أتبعه بكتب أخرى: (**معركة الإسلام والرأسمالية**) و(**السلام العالمي والإسلام**)، ومقالات عدة كتبها في مجلة (الدعوة) التي يصدرها الإخوان، ومجلة (الاشتراكية) التي يصدرها حزب العمل، ومجلة (اللواء) التي يصدرها الحزب الوطني، ولكن هذه المقالات كانت كلها تحت عنوان واحد هو: (تحت راية الإسلام)، وهي التي جُمِعَتْ بعد ذلك تحت عنوان (**دراسات إسلامية**).

وفي هذه الفترة بدأ يكتب تفسيره الشهير الذي لم يسمِّه تفسيرًا، ولكنه رضي أن يسميه (**في ظلال القرآن**) وصدق في تسميته، فلم يكن في طبعته الأولى يحمل الطابع الرسمي للتفسير، ولكنها وقفات عقل متدبر، وقلب حي، ووجدان مرهف أمام القرآن، يلتمس عظاته، ويجلي إعجازه، ويبين حقائقه، وينبِّه على مقاصده، وإن تغيَّر ذلك في الأجزاء الأخيرة، وفي الطبعة الثانية للأجزاء الأولى، فقد بدأ يهتم بالجانب التفسيري، حتى أحسب أنه أفرغ خلاصة تفسير ابن كثير في (ظلاله).

وفي هذه الفترة بدأ سيد قطب يقترب من الإخوان، ويرى بعينيه نشاطهم والتزامهم، وما بينهم من رباط وثيق، وإخاء عميق، وما يتميز به كثير منهم من وعي دقيق، وشعور رقيق، وكان المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبي يصطحبه معه في رحلاته، ليرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويحكم بعد ذلك بعقله، ويختار لنفسه.

ـ ثالثًا: مرحلة الثورة الإسلامية:

وهذه مرحلة جديدة تطور إليها فكر سيد قطب، يمكن أن نسميها (مرحلة الثورة الإسلامية)، الثورة على كل (الحكومات الإسلامية)، أو التي تدَّعي أنها إسلامية، والثورة على كل (المجتمعات الإسلامية) أو التي تدَّعي أنها إسلامية.

• سيد قطب والتكفير:

الحقيقة في نظر سيد قطب أن كل المجتمعات القائمة في الأرض أصبحت مجتمعات جاهلية، تكوَّن هذا الفكر الثوري الرافض لكل من حوله وما حوله، والذي ينضح بتكفير المجتمع، وتكفير الناس عامة؛ لأنهم (أسقطوا حاكمية الله تعالى) ورضوا بغيره حكمًا، واحتكموا إلى أنظمة بشرية، وقوانين وضعية، وقيم أرضية، واستوردوا الفلسفات والمناهج التربوية والثقافية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية وغيرها من غير المصادر الإسلامية، ومن خارج مجتمعات الإسلام.. فبماذا يوصف هؤلاء إلا بالردة عن دين الإسلام؟! بل الواقع عنده أنهم لم يدخلوا الإسلام قط حتى يحكم عليهم بالردة، إن دخول الإسلام إنما هو النطق بالشهادتين: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وهم لم يفهموا معنى هذه الشهادة، لم يفهموا أن (لا إلٰه إلا الله) منهج حياة للمسلم، تميزه عن غيره من أصحاب الجاهليات المختلفة، ممن يعتبرهم الناس أهل العلم والحضارة.

أقول: تكوَّن هذا الفكر الثوري الرافض، داخل السجن، وخصوصًا بعد أن خلت مصر وزعيمها عبد الناصر، عن ضرورة التحول الاشتراكي، وحتمية الحل الاشتراكي، وصدر (الميثاق) الذي سماه بعضهم (قرآن الثورة)! وبعد الاقتراب المصري السوفييتي، ومصالحة الشيوعيين، ووثوبهم على أجهزة الإعلام والثقافة والأدب والفكر، ومحاولتهم تغيير وجه مصر الإسلامي التاريخي؛ هنالك رأى سيد قطب أن الكفر قد كشف اللِّثَام عن نفسه، وأنه لم يعد في حاجة إلى أن يختفي بأغطية وشعارات لإسكات الجماهير، وتضليل العوام.

هنالك رأى أن يخوض المعركة وحده، راكبًا أو راجلًا، حاملًا سيفه (ولا سيف له غير القلم) لقتال خصومه، وما أكثرهم! سيقاتل الملاحدة الجاحدين، ويقاتل المشركين الوثنيين، ويقاتل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويقاتل المسلمين أيضًا، الذين اغتالتهم الجاهلية، فعاشوا مسلمين بلا إسلام! وأنا برغم إعجابي بذكاء سيد قطب ونبوغه وتفوقه، وبرغم حبي وتقديري الكبيرين له، وبرغم إيماني بإخلاصه وتجرده فيما وصل إليه من فكر، نتيجة اجتهاد وإعمال فكر؛ أخالفه في جملة توجهاته الفكرية الجديدة، التي خالف فيها سيد قطب الجديد سيد قطب القديم، وعارض فيها سيد قطب الثائر الرافض سيد قطب الداعية المسالم، أو سيد قطب صاحب (العدالة) سيد قطب صاحب (المعالم). ولقد ناقشت المفكر الشهيد في بعض كتبي في بعض أفكاره الأساسية، وإن لامني بعض الإخوة على ذلك، ولكني في الواقع كتبت ما كتبتُ، وناقشتُ ما ناقشت، من باب النصيحة في الدين، والإعذار إلى الله، وبيان ما أعتقد أنه الحق، وإلا كنت ممن كتم العلم، أو جامل في الحق، أو داهن في الدين، أو آثر رضا الأشخاص على رضا الله تبارك وتعالى.

ونحن نؤمن بأنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ، وكل أحد غيره يؤخذ من كلامه ويرد عليه، وأن ليس في العلم كبير، وأن خطأ العالم لا ينقص من قدره، إذا توفَّرت النية الصالحة، والاجتهاد من أهله، وأن المجتهد المخطئ معذور، بل مأجور أجرًا واحدًا، كما في الحديث الشريف، سواء أكان خطؤه في المسائل العلمية أم العملية، الأصولية أم الفروعية، كما حقق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم وغيرهما.

وأخطر ما تحتويه التوجهات الجديدة في هذه المرحلة لسيد قطب، هو ركونه إلى فكرة (التكفير) والتوسع فيه، بحيث يفهم قارئه من ظاهر كلامه في مواضع كثيرة ومتفرقة من (الظلال) ومما أفرغه في كتابه (معالم في الطريق) أن المجتمعات كلها قد أصبحت (جاهلية). وهو لا يقصد بـ(الجاهلية) جاهلية

العمل والسلوك فقط، بل (جاهلية العقيدة)، إنها الشرك والكفر بالله، حيث لم يرض بحاكميته تعالى، وأشركت معه آلهة أخرى، استوردت من عندهم الأنظمة والقوانين، والقيم والموازين، والأفكار والمفاهيم، واستبدلوا بها شريعة الله، وأحكام كتابه وسنة رسوله ﷺ.

وعلى هذا، ليس الناس في حاجة إلى أن نعرض عليهم نظام الإسلام الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو السياسي، أو القانوني، ونحو ذلك؛ لأن هذه الأنظمة إنما ينتفع بها المؤمنون بها، وبأنها من عند الله. أما من لا يؤمن بها، فيجب أن نعرض عليه (العقيدة أولًا) حتى يؤمن بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، وبالشريعة حاكمة. وهذا ما أشار إليه في كتابه (المعالم)، وفصله في كتابه (الإسلام ومشكلات الحضارة). وشبه مجتمعاتنا اليوم بمجتمع مكة في عهد الرسالة، وأن الرسول لم يعرض عليه النظام والتشريع، بل عرض عليه العقيدة والتوحيد.

• سيد قطب والفقه:

كما رأى عليه رحمة الله أن لا معنى مما يحاوله المحاولون من علماء العصر لما سموه (تطوير) الفقه الإسلامي أو (تجديده) أو (إحياء الاجتهاد) فيه؛ إذ لا فائدة من ذلك كله ما دام المجتمع المسلم غائبًا، يجب أن يقوم المجتمع المسلم أولًا، ثم نجتهد له في حل مشكلاته في ضوء واقعنا الإسلامي.

وقد ناقشت أفكاره عن (الاجتهاد) وعدم حاجتنا إليه قبل أن يقوم المجتمع الإسلامي، في كتابي (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية)، وبينت بالأدلة خطأ فكرته هذه[1]. وكما ناقشت الشهيد سيد قطب في رأيه حول قضية (الاجتهاد) ناقشته في رأيه في (الجهاد)، وقد تبنى أضيق الآراء وأشدها في الفقه

---

(١) ص ٢٤٩ ـ ٢٨٢، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

الإسلامي، مخالفًا اتجاه كبار الفقهاء والدعاة المعاصرين، داعيًا إلى أن على المسلمين أن يُعِدُّوا أنفسهم لقتال العالم كله، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون!.

وحجته في ذلك آيات سورة التوبة، وما سماه بعضهم (آية السيف)، ولم يبالِ بمخالفة آيات كثيرة تدعو إلى السلم، وقصر القتال على من يقاتلنا، وكف أيدينا عمن اعتزلنا ولم يقاتلنا، ومد يده لمسالمتنا، وتدعونا إلى البر والقسط مع المخالفين لنا إذا سالمونا، فلم يقاتلونا في الدين، ولم يخرجونا من ديارنا، ولم يظاهروا على إخراجنا.

هذا ما تدل عليه الآيات الكثيرة من كتاب الله، مثل:

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩١].

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٩١].

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

والأستاذ سيد رَحِمَهُ اللَّهُ يتخلص من هذه الآيات وأمثالها بكلمة في غاية السهولة: أن هذه كان معمولًا بها في مرحلة، ثم توقف العمل بها، والعبرة بالموقف

الأخير، وهو ما يعبر عنه الأقدمون بالنسخ، وقولهم في هذه الآيات: نسختها آية السيف. ولا أدري كيف هان على سيد قطب ـ وهو رجل القرآن الذي عاش في ظلاله سنين عددًا يتأمله ويتدبره ويفسره ـ أن يعطل هذه الآيات الكريمة كلها، وأكثر منها في القرآن، بآية زعموها آية السيف؟ وما معنى بقائها في القرآن إذا بقي لفظها وألغي معناها، وبطل مفعولها وحكمها؟! ويقول الشهيد رَحِمَهُ اللَّهُ: إننا لا نفرض على الناس عقيدتنا، إذ لا إكراه في الدين، وإنما نفرض عليهم نظامنا وشريعتنا، ليعيشوا في ظله، وينعموا بعدله. ولكن بماذا نجيب الناس إذا قالوا لنا: إننا أحرار في اختيار النظام الذي نرضاه لأنفسنا، فلماذا تفرضون علينا نظامكم بالقوة؟! إن كل شيء يجرعه الإنسان تجريعًا رغم أنفه يكرهه وينفر منه، ولو كان هو السكر المذاب، أو العسل المصفَّى!.. وما الحكم إذا كنا نحن ـ اليهود أو النصارى أو الوثنيين ـ أصحاب القوة والمنعة، وأنتم الضعفاء في العدة أو الأقلون في العدد؟ هل تقبلون أن نفرض عليكم نظامنا ومنهج حياتنا؟ كما هو شأن أمريكا اليوم، وتطلعاتها للهيمنة على العالم؟.

ومما ننكره على الأستاذ سيد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يتهم معارضيه من علماء العصر بأمرين:

الأول: السذاجة والغفلة والبله، ونحو ذلك مما يتصل بالقصور في الجانب العقلي والمعرفي.

والثاني: الوهن والضعف النفسي، والهزيمة النفسية أمام ضغط الواقع الغربي المعاصر، وتأثير الاستشراق الماكر مما يتعلق بالجانب النفسي والخلقي.

والذين يتهمهم بذلك هم أعلام الأمة في العلم والفقه والدعوة والفكر، ابتداء من الشيخ محمد عبده، مرورًا بالشيخ رشيد رضا، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والمشايخ: محمود شلتوت، ومحمد عبد الله دراز، وأحمد إبراهيم، وعبد الوهاب خلاف، وعلي الخفيف،

ومحمد أبو زهرة، ومحمد يوسف موسى، ومحمد المدني، ومحمد مصطفى شلبي، ومحمد البهي، وحسن البنا، ومصطفى السباعي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، وعلي الطنطاوي، ومعروف الدواليبي، والبهي الخولي، ومحمد الغزالي، وسيد سابق، وعلال الفاسي، وعبد الله بن زيد المحمود، ومحمد فتحي عثمان، وغيرهم من شيوخ العلم الديني.

هذا فضلًا عن الكُتَّاب والمفكرين (المدنيين) الذين لا يحسبون على العلوم الشرعية، من أمثال: د. محمد حسين هيكل، وعباس العقاد، ومحمد فريد وجدي، وأحمد أمين، ومحمود شيت خطاب، وعبد الرحمٰن عزَّام، وجمال الدين محفوظ، ومحمد فرج (في كتابه الصغير: بدر والفتح قمة المعارك الإسلامية. وكتابه: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول).. وغيرهم وغيرهم في بلاد العرب والمسلمين.

على أية حال كانت هذه هي الأفكار المحورية في هذه المرحلة من حياة سيد قطب، وفيها عدَّل من أفكاره واتجاهه تعديلًا جذريًّا، وأصبح ما كتبه قديمًا في (العدالة الاجتماعية) وغيرها، يمثل مرحلة من حياته، ولا يمثل الخط الأخير الذي يتبناه ويدعو إليه، ويدافع عنه. وقد حدثني الأخ د. محمد المهدي البدري أن أحد الإخوة المقربين من سيد قطب ـ وكان معه معتقلًا في محنة (١٩٦٥م) ـ أخبره أن الأستاذ سيد قطب عليه رحمة الله، قال له: إن الذي يمثل فكري هو كتبي الأخيرة: (المعالم)، والأجزاء الأخيرة من (الظلال)، والطبعة الثانية من الأجزاء الأولى، و(خصائص التصور الإسلامي ومقوماته)، و(الإسلام ومشكلات الحضارة).. ونحوها مما صدر له وهو في السجن، أما كتبه القديمة فهو لا يتبناها، فهي تمثل تاريخًا لا أكثر.

فقال له هذا الأخ من تلاميذه: إذن أنت كالشافعي لك مذهبان: قديم وجديد، والذي تتمسك به هو الجديد لا القديم من مذهبك. قال سيد رَحِمَهُ اللَّهُ: نعم، غيَّرت كما غير الشافعي رضي الله عنه، ولكن الشافعي غير في الفروع، وأنا غيَّرتُ في الأصول!.

فالرجل يعرف مدى التغيير الذي حدث في فكره، فهو تغيير أصولي، أو (استراتيجي) كما يقولون اليوم.

وهو على كل حال مخلص في توجهه، مأجور في اجتهاده، أصاب أم أخطأ، ما دام الإسلام مرجعه، والإسلام منطلقه، والإسلام هدفه، وأشهد أن الرجل في المرحلة الأخيرة من حياته، كان كله للإسلام، عاش للإسلام، ومات في سبيل الإسلام! فرضي الله عنه وأرضاه، وجعل الفردوس مثواه، وغفر له ما نحسب أنه أخطأ فيه، وأجره عليه أجر المجتهدين الصادقين. وغفر لنا معه أجمعين.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

• **تحامل على سيد قطب في فكرة الحاكمية:**

ولقد اتهم بعض الكاتبين سيد قطب بأنه تبنى فكرة (الحاكمية) التي أخذها عن المودودي، وجعلها من صلب عقيدة التوحيد، ورتَّب عليها أحكامًا خطيرة، منها: أن الدولة التي تقوم على أساسها أشبه ما تكون بالدولة الدينية، التي تقوم على الحكم بالحق الإلٰهي. وهذا تحامل ظالم على الرجل.

والحق أن فكرة الحاكمية أساء فهمها الكثيرون، وأدخلوا في مفهومها ما لم يُرِدْه أصحابها. وأود أن أنبّه هنا على جملة ملاحظات حول هذه القضية:

١ ـ **الملاحظة الأولى**: أن الحاكمية التي ركَّز عليها سيد قطب والمودودي، هي الحاكمية بالمعنى التشريعي، ومفهومها أن الله سبحانه هو المشرِّع لخلقه، وهو الذي يأمرهم وينهاهم، ويحل لهم ويحرم عليهم، وهذا ليس من ابتكار المودودي، ولا سيد قطب، بل هو أمر مقرَّر عند المسلمين جميعًا؛ ولهذا حين قال الخوارج لعلي: لا حكم إلا لله. لم يعترض عليٌّ ﷺ على المبدأ، وإنما اعترض على الباعث والهدف المقصود من وراء الكلمة، فقال ردًّا عليهم: كلمة حق يُراد بها باطل.

وقد بحث في هذه القضية علماء (أصول الفقــه) في مقدماتهم الأصولية التي بحثوا فيها عن الحكم الشرعي، والحاكم، والمحكوم به، والمحكوم عليه. فها نحن نجد إمامًا مثل أبــي حامد الغزالي يقول في مقدمات كتابه الشــهير (المستصفى من علم الأصول) عن (الحكم) الذي هو أول مباحث العلم: «وهو عبارة عن خطاب الشرع، ولا حكم قبل ورود الشرع، وله تعلُّق بالحاكم، وهو الشارع، وبالمحكوم عليه، وهو المكلف، وبالمحكوم فيه، وهو فعل المكلف...

ثم يقول: وفي البحث عن الحاكم يتبين: أنْ لا حُكم إلا لله، وأن لا حكم للرسول، ولا للسيد على العبد، ولا لمخلوق على مخلوق، بل كل ذلك حكم الله تعالى ووضعه، لا حكم لغيره».

ثم يعــود إلى الحديث عــن (الحاكم) وهــو صاحب الخطــاب الموجَّه إلى المكلفين، فيقول: «أما استحقاق نفوذ الحكم، فليس إلا لمن له الخلق والأمر، فإنما النافذ حكم المالك على مملوكــه، ولا مالك إلا الخالق، فلا حُكم ولا أمر إلا له، أما النبي ﷺ والسلطان والسيد والأب والزوج، فإذا أمروا وأوجبوا، لم يجب شيء بإيجابهم، بل بإيجاب من الله تعالى طاعتهم، ولولا ذلك لكان كل مخلوق أوجب على غيره شيئًا، كان للموجَب عليه أن يقلب عليه الإيجاب، إذ ليس أحدهما أولى من الآخر، فإذن الواجبُ طاعةُ الله تعالى، وطاعة من أوجب الله تعالى طاعته».

وبهذا نعلم أن فكرة (الحاكمية) ليست من اختراع سيد قطب ولا المودودي، بل هي فكرة إســلامية أصيلة، قررها علماء الأصول، واتفق عليها أهل الســنة والمعتزلة جميعًا.

٢ ـ **الملاحظــة الثانيــة**: أن (الحاكمية) التي قال بهــا المودودي وقطب، وجعلاها لله وحده، لا تعنــي أن الله تعالى هو الذي يولــي العلماء والأمراء، يحكمون باســمه، بل المقصود بها الحاكمية التشريعية فقط، أما سند السلطة السياســية فمرجعه إلى الأمة، فهي التي تختار حكامها، وهي التي تحاسبهم

وتراقبهم، بل تعتزلهم. والتفريق بين الأمرين مهم، والخلط بينهما موهم ومضلل، كما أشار إلى ذلك الدكتور أحمد كمال أبو المجد، بحق.

فليس معنى الحاكمية الدعوة إلى دولة ثيوقراطية، بل هذا ما نفاه كل من سيد قطب والمودودي رحمهما الله. وحسبي هنا أن أذكر قول سيد قطب في (معالمه): «ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم ـ هم رجال الدين ـ كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة، كما كان الحال فيما يُعرف باسم الثيوقراطية أو الحكم الإلٰهي المقدس! ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن يكون مرد الأمر إلى الله، وفق ما قرره من شريعة مبينة»[1].

٣ ـ **الملاحظة الثالثة**: أن الحاكمية التشريعية التي يجب أن تكون لله وحده، وليست لأحد من خلقه، ونادى بها المودودي وقطب، هي الحاكمية (العليا) و(المطلقة) التي لا يحدها ولا يقيدها شيء، فهي من دلائل وحدانية الألوهية، بل من مقومات التوحيد، كما بين القرآن في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وهذه الحاكمية ـ بهذا المعنى ـ لا تنفي أن يكون للبشر قَدْر من التشريع أذن به الله لهم، إنما هي تمنع أن يكون لهم استقلال بالتشريع غير مأذون به من الله، وذلك مثل التشريع الديني المحض، كالتشريع في أمر العبادات، والتشريع الذي يحل ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، ويسقط ما فرض الله. أما التشريع فيما لا نص فيه، أو في المصالح المرسلة، وفيما للاجتهاد فيه نصيب، فهذا من حق المسلمين، ولهذا كانت نصوص الدين في غالب الأمر كلية إجمالية لا تفصيلية، ليتاح للناس أن يشرعوا لأنفسهم، ويملؤوا الفراغ التشريعي بما يناسبهم.

---

(١) معالم في الطريق، للشهيد سيد قطب، ص٦٠، ط: دار الشروق ـ القاهرة، وفي ظلال القرآن (١٤٣٤/٣)، ط: ١٧، ١٤١٢هـ.

• **سيد قطب والتاريخ الإسلامي:**

ومما نأخذه على الشهيد سيد قطب أنه من الذين قسوا على التاريخ الإسلامي، وعلى ما أنتج من حضارة شامخة، وبالغوا في نقده، وتضخيم هناته، وإخفاء حسناته، مما ساعد العلمانيين، وأعطاهم حجة، ليُسَوِّقوا دعواهم في أن الشريعة لم تطبق إلا في عهد عمر، وأنها شريعة مثالية غير صالحة للتطبيق.

وهو ما لا يقول به سيد قطب ولا غيره من الدعاة الكبار الذين لهم النظرة نفسها للتاريخ الإسلامي.

يقول قطب عن التاريخ الإسلامي في أول كتاب له دخل به ميدان الدعوة الإسلامية والفكر الإسلامي، وهو كتاب (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، فصل (من الواقع التاريخي في الإسلام)، وقد تحدث في هذا الفصل عن (روح الإسلام) وأثرها في مسيرة التاريخ، وذكر الكثير من الشواهد على المثالية الإسلامية في عصور شتى.

ولكنه عندما تحدث عن سيدنا عثمان الخليفة الثالث، قسا عليه كثيرًا، أنه ترك لمروان بن الحكم الأموي أن يتصرف في الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام، كما أن طبيعة عثمان الرخيّة وحرصه الشديد على أهله، قد ساهم كلاهما في حدوث تصرفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله، وكان لها مضاعفات كثيرة، وآثار في الفتنة التي عانى الإسلام منها كثيرًا. قال: «واعتذارنا لعثمان ﷺ: أن الخلافة قد جاءت إليه متأخرة، فكانت العصبة الأموية حوله، وهو يدلف إلى الثمانين، فكان موقفه كما وصفه صاحبه علي بن أبي طالب: إني إن قعدت في بيتي قال: تركتني وقرابتي وحقي؛ وإن تكلمت فجاء ما يريد، يلعب به مروان، فصار سيقة له يسوقه حيث شاء، بعد كبر السن وصحبته لرسول الله ﷺ.

ولقد كان من جراء مباكرة الدين الناشئ بالتمكين منه للعصبة الأموية على يدي الخليفة الثالث في كَبرته: أن تقاليده العملية لم تتأصل على أسس من تعاليمه النظرية لفترة أطول. وقد نشأ عن عهد عثمان الطويل في الخلافة أن تنمو السلطة الأموية، ويستفحل أمرها في الشام وفي غير الشام؛ وأن تتضخم الثروات نتيجة لسياسة عثمان (كما سيجيء)، وأن تخلخل الثورة على عثمان بناء الأمة الإسلامية في وقت مبكر شديد التبكير.

ومع كل ما يحمله تاريخ هذه الفترة وأحداثها من أمجاد لهذا الدين، تكشف عن نقلة بعيدة جدًا في تصور الناس للحياة والحكم، وحقوق الأمراء وحقوق الرعية، إلا أن الفتنة التي وقعت لا يمكن التقليل من خطرها وآثارها البعيدة المدى.

مضى عثمان إلى رحمة ربه، وقد خلَّف الدولة الأموية قائمة بالفعل، بفضل ما مكَّن لها في الأرض، وبخاصة في الشام، وبفضل ما مكَّن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام، من إقامة الملك الوراثي والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع، مما أحدث خلخلة في الروح الإسلامي العام. وليس بقليل ما يشيع في نفس الرعية، إن حقًا وإن باطلًا: أن الخليفة يؤثر أهله، ويمنحهم مئات الألوف؛ ويعزل أصحاب رسول الله، ليولي أعداء رسول الله؛ ويعد مثل أبي ذر؛ لأنه أنكر كنز الأموال، وأنكر الترف الذي يخبُّ فيه الأثرياء، ودعا إلى مثل ما كان يدعو إليه الرسول ﷺ من الإنفاق والبر والتعفُّف.. فإن النتيجة الطبيعية لشيوع مثل هذه الأفكار، إن حقًا وإن باطلًا، أن تثور نفوس، وأن تنحل نفوس. تثور نفوس الذين أشربت نفوسهم روح الدين إنكارًا وتأثمًا؛ وتنحل نفوس الذين لبسوا الإسلام رداء، ولم تخالط بشاشته قلوبهم، والذين تجرفهم مطامع الدنيا، ويرون الانحدار مع التيار. وهذا كله قد كان في أواخر عهد عثمان.

فلما أن جاء علي كرم الله وجهه لم يكن من اليسير أن يرد الأمر إلى نصابه

في هوادة. وقد علم المستنفعون على عهد عثمان، وبخاصة من أمية، أن عليًا لن يسكت عليهم، فانحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية.

جاء علي ليرد التصور الإسلامي للحكم إلى نفوس الحكام ونفوس الناس، جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيدها، ويختم هو على جراب الشعير ويقول: لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم. وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام، وكره أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة مُؤثِرًا عليه الخِصَاص التي يسكنها الفقراء.

والذين يرون في معاوية دهاء وبراعة لا يرونهما في علي؛ ويعزون إليهما غلبة معاوية في النهاية، إنما يخطئون تقدير الظروف، كما يخطئون فهم عليٍّ وواجبه. لقد كان واجب عليٍّ الأول والأخير: أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها؛ وأن يرد إلى الدين روحه؛ وأن يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي بني أمية في كَبْرة عثمان. ولو جارى وسائل بني أمية في المعركة لبطلت مهمته الحقيقية؛ ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين. إن عليًا إما أن يكون عليًا، أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها. وهذا هو الفهم الصحيح الذي لم يَغِبْ عنه كرم الله وجهه وهو يقول فيما رُوِيَ عنه ـ إن صحت الرواية ـ: والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر. ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس!.

ومضى عليٌّ إلى رحمة ربه، وجاء بنو أمية. فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورِقَّته، كانت تقف حاجزًا أمام أمية.. لقد انهار هذا الحاجز.. وانفتح الطريق للانحراف.

لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد، ولكن روحه انحسرت بلا جدال. ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته الروحية، لكانت أيام أمية كفيلة بتغيير مجراه الأصيل. ولكن روحه ظلت تقاوم وتغالب، وما تزال فيها الطاقة الكامنة للغلب والانتصار.

غير أنه منذ أمية انساحت حدود بيت مال المسلمين، فصار مباحًا للملوك والحاشية والمتملقين؛ وتخلخلت قواعد العدل الإسلامي الصارم، فأصبح للطبقة الحاكمة امتيازات، ولأذيالها منافع، ولحاشيتها رسوم؛ وانقلبت الخلافة ملكًا، وملكًا عضوضًا، كما قال عنه رسول الله ﷺ في وثبة من وثبات الاستشفاف الروحي العميق[1].

وعدنا نسمع عن الهِبَات للمتملقين والملهين والمطربين، فيهب أحد ملوك أمية اثني عشر ألف دينار لمعبد، ويهب هارون الرشيد ـ من ملوك العباسيين ـ إسماعيل بن جامع المغني في صوت واحد أربعة آلاف دينار، ومنزلًا نفيس الأثاث والرِّيَاش... وتنطلق الموجة في طريقها لا تقف إلا فترة بين الحين والحين»[2] اهـ.

رغم شدة سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ على التاريخ الإسلامي، بعد عصر الراشدين، وحملته القاسية على بني أمية في كتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، لم يسعه إلا أن يعترف بأن الإسلام ظل راسخ البناء، مرفوع اللواء، منفردًا بالفتوى والقضاء والتشريع للأمة الإسلامية، في كل شؤونها، اثني عشر قرنًا من الزمان، وبهذا أنصف الإسلام، وأنصف التاريخ، وأنصف نفسه كذلك.

يقول في آخر كتاب ألفه، وقد نشر في (١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م)، أي بعد استشهاده رَحِمَهُ اللَّهُ بعشرين عامًا، يقول في مقدمة كتابه (مقومات التصور الإسلامي)، وهو الجزء المكمل لـ(خصائص التصور الإسلامي): «وارتفع لواء الإسلام عاليًا، وظل مرفوعًا أكثر من ألف عام، بل حوالي مئتين وألف عام، ممثلًا في النظام الإسلامي في ظل الأقطار الإسلامية، وهو النظام الذي يرجع

---

(١) الأولى من هذا التعبير: نقول: كان ذلك بوحي من الله، إذا ثبتت صحة الحديث.

(٢) انظر: العدالة الاجتماعية في الإسلام، لسيد قطب، فصل (من الواقع التاريخي في الإسلام) ص ٢١٠ وما بعدها، الطبعة السابعة، ١٩٦٧م.

الناس فيه إلى شـريعة الله وحدها، ولا يحكم قضاة هذه الأمة إلا بالشـريعة الإسـلامية في كل أمر مـن أمور الحيـاة، ولا يتحاكم الناس إلـى غير هذه الشريعة، في شأن واحد من شؤون المعاش»[1].

• **الشهيد سيد قطب وحديثه عن وسطية الأمة:**

وربما كان من الغريب هنا أن يذكر الشهيد سيد قطب ـ وهو محسوب على الغلاة ـ بين المتحدثين عن وسـطية الإسـلام، ومع هذا فرض عليه القرآن، وطبيعة الإسلام إلا أن يتحدث عن (وسطية الأمة) بقلمه البليغ في تفسيره (في ظلال القرآن) فيبدع ويؤثر.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسـير قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقـرة: ١٤٣]: «إنها الأمّة الوسـط التي تشـهد على الناس جميعًا، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقِيَم، وتبدي فيهم رأيها، فيكـون هو الـرأي المعتمد، وتـزن قيمهم وتصوراتهـم، وتقاليدهم وشعاراتهم، فتفصل في أمرها، وتقول: هذا حقٌّ منها وهذا باطل. لا التي تتلقَّى من الناس تصوُّراتها وقيمها وموازينها.

وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم.. وبينما هي تشهد على الناس هكذا، فإن الرسـول هو الذي يشـهد عليها، فيقـرر لها موازينها وقيمها، ويحكم على أعمالهـا وتقاليدها، ويزن ما يصـدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة.. وبهذا تتحدَّد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها.. لتعرفها، ولتشعر بضخامتها، ولتقدِّر دورها حقَّ قدرِه، وتستعدَّ له استعدادًا لائقًا.

وإنها للأمة الوسـط بكل معاني الوسط، سـواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسـط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي..

---

(١) راجع كتابنا: تاريخنا المفترى عليه، ص ٥٧ ـ ٦١، ٦٨، دار الشروق ـ القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾.. في التصوّر والاعتقاد.. لا تغلو في التجرّد الروحي، ولا في الارتكاس المادي. إنّما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبِّس بجسد، أو جسد تتلبس به روح. وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقَّه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع، بلا تفريط ولا إفراط، في قصد وتناسق واعتدال»[1].

* * *

(١) في ظلال القرآن (١/١٣٠، ١٣٢).



١٠ العالم الداعية عبد الله بن تركي السبيعي

أول مفتش للعلوم الشرعية في دولة قطر

(١٣١٨ ـ ١٣٨٨هـ = ١٨٩٧ ـ ١٩٦٨م)

عبد الله بن تركي السبيعي، رائد من رواد النهضة التعليمية في دولة قطر، وعالم من علماء الشريعة المرموقين، وأحد العبادلة الثلاثة من أهل العلم الديني في قطر: أولهم عبد الله بن زيد المحمود قاضي المحكمة الشرعية. وثانيهم: عبد الله الأنصاري، مدير مدرسة صلاح الدين. وهو ثالثهم. وكلهم كانوا يخطبون في المساجد، ويعلمون أحكام الشريعة، ومكارم الأخلاق.

- **رائد نهضة التعليم الديني في قطر:**

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في مجلة (الدوحة) ـ وهي مجلة مدرسية صدرت في خمسينيات القرن الماضي ـ مبينًا دوره في نهضة التعليم الديني في قطر: «لقد بدأت النهضة التعليمية في قطر منذ عشر سنوات، ولكنها لم تأخذ مجراها الطبيعي، وتؤدي ثمارها الطيبة، إلا منذ أن تولى زمامها وقيادتها سمو الشيخ خليفة بن حمد عام (١٩٥٦م)، وقد انتدبني سمو الشيخ خليفة لأشرف على النهضة، من حيث التعليم الديني. وحين قمت بجولة في المدارس، متفقدًا حالتها، ساءني أمر مناهج العلوم الشرعية، فلم تكن أمرًا ذا بال، وكانت من القِصَر والضيق بحيث لا تُعدُّ شيئًا يُذكر، فاستخرت الله، وقمت بإعداد منهج شامل، تُدرس فيه عقيدة السلف، وتفسير القرآن الكريم، ويتعرف الطالب في الوقت نفسه على سيرة النبي الكريم، وصحبه الأبرار، وطرف من الحديث النبوي الشريف، ويأخذ بعد ذلك الفقه الإسلامي من كتب مذهب الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم نقف عند هذا الحد، بل جئنا بالآداب

الدينية والاجتماعية، ليكون الطالب على بصيرة من التقاليد الكريمة التي يجب اتباعها».

وكان لا بد للشيخ أن يوفر المعلمين المؤهلين الأكفاء القادرين على تعليم هذا المنهج، وبث روحه في تلاميذهم وعيًا وفكرًا وسلوكًا، فلم يجد سوى الأزهر الشريف المورد العذب لعلوم الشريعة عبر العصور، وبموافقة المسؤولين في الدولة أُذن للشيخ أن يسافر للقاهرة.

وكان من مآثر الشيخ ابن تركي أنه هو الذي سعى بجد وحرص لجلب علماء الأزهر من مصر لتدريس العلوم الشرعية، وكان يعتز بذلك ويفتخر به.

- **أول لقاء بيني وبين الشيخ ابن تركي:**

وفي عام (١٩٥٧م) وكنت أخطب في مسجد الزمالك، زار الشيخ عبد الله بن تركي السبيعي مصر، وكان وقتها مفتش العلوم الشرعية بوزارة المعارف، والمسؤول عن التعاقد مع علماء الأزهر وغيرهم لتدريس العلوم الشرعية في مدارس قطر.

وكان يصحبه من أبناء الأزهر أخونا الشيخ يوسف عبد المقصود، الذي ذهب إلى قطر من قديم، وعمل في مدارسها، قبل أن يحصل على الشهادة العالمية. وقد اصطحب أخونا يوسف الشيخَ ابن تركي، ليصلي الجمعة في مسجد الزمالك، واستمع إلى خطبتي، وأنا لا أعلم، وشاء الله أن يعجب بها، ثم صافحني بعد الصلاة، وعرفني به الأخ يوسف. وطلب مني أن أزوره في الفندق الذي يقيم فيه (جراند أوتيل) في وسط القاهرة.

وقد زرت الشيخ، وتبادلنا الحديث في علوم الشرع، وعلم الإمامين ابن تيمية وابن القيم، وغير ذلك، مما شد الشيخ إليّ، وزاده ثقة بي، واطمئنانًا إليّ، وودعته، وشكرت له، وحييته.

ولما رجع الشيخ إلى قطر، أرسل كتابًا إلى الشيخ الباقوري وزير الأوقاف

يطلب منه إعارتي إلى قطر، ولم يعرف ابن تركي أن وزير الأوقاف لا يملك أن يعيرني إلى قطر؛ لأني لست موظَّفًا عاديًّا كسائر الناس، بل كنت مُعَيَّنًا على مسؤولية الباقوري استثناء. وحتى لو كنت موظفًا عاديًّا، فلا بد أن تمر عليّ ثلاث سنوات حتى أعار إلى خارج مصر، فاعتذر وزير الأوقاف إليه. ولكن اسمي ظل محفورًا في ذاكرة الشيخ، حتى آن الأوان بعد ذلك لإعارتي إلى قطر.

- **وبعد مضي السنوات الثلاث:**

بعد مضي ثلاث سنوات علينا في العمل: يحق لنا أن نتقدم بطلب ليكون لنا حق الابتعاث أو الإعارة لبعض البلاد العربية التي تطلب مدرسين لمدارسها أو معاهدها.

وما إن اكتملت لنا مدة السنوات الثلاث ـ منذ بدء تعييننا في الأوقاف ـ حتى تقدمنا بهذا الطلب، لنلحق بالمعارين إلى السعودية والكويت وغيرهما. وبخاصة أننا قد تأخرنا في التعيين، وفي حاجة ماسة إلى سند مادي يشد ظهرنا في مواجهة مطالب الحياة، وكل منا يريد أن يكون له بيت يملكه، لا مجرد شقة يستأجرها، وأن يكون له قدر من المال يدخره لمفاجآت الحياة.

ولأن عدد المتقدمين للإعارة يكون دائمًا أكبر من الفرص المتاحة، فكان الأزهر يجري للمتقدمين (امتحانًا شفهيًّا) تقوم به لجنة من العلماء المرموقين، ويرشح منهم الناجحون الأول فالأول.

ويسر الله سبحانه، وكنت أول المتقدمين من علماء الأزهر في هذا الامتحان. ومن ثَم كان من حقي أن أختار أي بلد أحب من البلاد التي يبعث إليها الأزهريون. وكان أفضل بلد يختاره الأزهريون عادة هو (الكويت) فقد كانت الكويت تعطي أعلى الرواتب للمعارين إليها.

ولكني لم أختر الكويت، بل اخترت (قطر) ولم يكن لقطر شهرة في ذلك الوقت، ولا يرغب المعارون فيها كغيرها، فقد كانت تخطو الخطوات الأولى في سلم الترقي الحضاري، وكانت رواتبها أقل من غيرها.

ولكن لأن الشيخ عبد الله بن تركي المسؤول عن العلوم الشرعية فيها كان قد طلبني من قبل من وزارة الأوقاف، ولا يزال حريصًا على استقدامي إلى قطر، فكان من الواجب أن أبادله ودًّا بود، وأقابل تحيته بمثلها أو أحسن منها.

ومضينا نتخذ الإجراءات للبعثة، ونهيئ الأسباب للسفر القريب، واستخرجت جواز السفر لي وللعائلة، ولكني فوجئت بما لم يكن في الحسبان، فقد مضت أمور أخي العسال بلا عقبات ولا اعتراض من أحد، أما أنا فقالوا: إن جهات الأمن معترضة عليك.

وسألنا عن سبب الاعتراض، فلم نجد جوابًا، وطلبت من الدكتور البهي أن يسأل مكتب السيد كمال رفعت[1]، ومديره السيد علي إمبابي الذي كان دائم الصلة بمكتب الدكتور البهي، وكانت إشارته حكمًا، وطاعته غنمًا، وتوجيهاته لا ترد ولا تناقش، وكل هذا لم يجدِ شيئًا.

وظل الشيخ عبد الله بن تركي يرسل البرقيات تلو البرقيات لتسهيل إعارتي إلى حكومة قطر، ولا من سميع أو مجيب.

- **اللقاء الثاني:**

ولقد حضر إلى مصر في الإجازة الصيفية الشيخ عبد الله بن تركي من قطر، وقابلته أنا والأخ أحمد العسال، وكان لقاء علميًّا حيًّا، طرقنا فيه موضوعات في العقيدة والفقه والتربية، وسر به الشيخ ابن تركي، وطلبني رسميًّا من الأزهر.

وفي خلال هذه السنة الدراسية (١٩٦٠ ـ ١٩٦١م) لم تنقطع رسائل وزارة المعارف في قطر عن طلبي من الحكومة المصرية، وبخاصة أن فضيلة الشيخ عبد الله بن تركي مسؤول العلوم الشرعية في المعارف، والمسؤول عن التعاقد

---

(١) أحد الضباط الأحرار، عين بعد الثورة في المخابرات الحربية، ثم عين أول وزير للعمل في أغسطس ١٩٦١م.

مع علماء الأزهر في مصر، لم يكف عن إرسال البرقيات إلى الأزهر، وإلى السيد حسين الشافعي عضو مجلس الثورة، والمشرف على الأزهر في ذلك الوقت، يطلب فيها (فك الحظر) عني والسماح لي بالسفر إلى قطر.

ونظرًا لكثرة البرقيات وإلحاحها: شرع مكتب حسين الشافعي يحقق في أمر منعي وأسبابه، وانتهى إلى إلغاء قرار المنع والسماح لي بالسفر إلى قطر، ابتداء من العام الدراسي القادم (١٩٦١ ـ ١٩٦٢م).

وكان اتفاق الشيخ ابن تركي معي، على أن أتسلم إدارة المعهد الديني الثانوي في قطر، خلفًا عن مديره السابق فضيلة الشيخ الدكتور عبد الغني الراجحي الذي تسلم إدارته لسنة واحدة، هي كل عمر المعهد الناشئ.

• **كان الشيخ ابن تركي نعم العون لي:**

كان الشيخ نعم العون لي في كل ما يخص المعهد الديني، وكانت أولى العقبات التي قابلتني في إدارتي للمعهد الديني بُعَيْد وصولي لقطر، أني لم أجد طالبًا واحدًا تقدم للالتحاق بالصف الأول بالمعهد. كل ما هنالك أن طالبًا لم يدخل الامتحان في العام الماضي فأعاد السنة، فهذا هو الاسم الوحيد الموجود على قائمة الصف الأول.

ومر يوم واثنان وثلاثة، وبقية الأسبوع، فلم يتقدم إلينا أحد، ومعنى هذا: أن المعهد يصفي نفسه من أول يوم؛ إذ لا معنى لمعهد لا يأتيه طلاب جدد، والطلاب القدامى كأنما فُرضوا عليه، أو فُرض عليهم فرضًا. وبدأت أتهيأ لمواجهة هذه المشكلة العاجلة، فكتبت نشرة توزع على نطاق واسع في المساجد، تبين أهمية الدراسة الدينية والتفقه في الدين، وأنه واجب على كل مجتمع أن يهيئ من أبنائه فئة تتفقه في الدين، حتى إذا سئلوا أفتوا بعلم، وإذا قضوا قضوا بحق، وإذا دعوا إلى الله دعوا على بصيرة، ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وفي يوم الجمعة، تحدثت بعد خطبة الشيخ ابن تركي في الجامع الكبير المعروف باسم (جامع الشيوخ) حديثًا عن طلب العلم، وأهمية علم الدين... إلخ، فبدأ يجيئنا طالب بعد آخر، حتى اكتمل الصف الأول ثمانية طلاب. وقلنا: فيهم بركة، وربنا يبعث المزيد، وكان هذا أول درس ديني ألقيه في قطر.

المشكلة الثانية: كان التلاميذ يأخذون جميعًا رواتب من الحكومة، ترغيبًا لهم في الالتحاق بالمدارس، وكان جميع التلاميذ يأخذون هذه الرواتب، أو المعاشات كما يسمونها، ولكن في السنة التي وصلت فيها: اتخذت الحكومة قرارًا جديدًا، وهو قصر الرواتب على التلاميذ القطريين وحدهم، أما غير القطريين فلا يصرف لهم شيء. وكان في المعهد الديني عدد من الطلاب من غير القطريين، بعضهم من الإمارات، مثل: الطالب أحمد عبد الله عسكر من خور فكّان، والطالب محمد عبد الرحمٰن البكر من رأس الخيمة، والطالب محمود هزاع من اليمن، وغيرهم. وتحدثت مع الشيخ عبد الله بن تركي عن هذه القضية، وقلت له: يجب أن يستثنى طلاب المعهد الديني من قرار قصر الراتب على القطريين، تشجيعًا للتعليم الديني، فقال لي: إن هذا الأمر بيد الشيخ خليفة، وأنا أرى أن نذهب معًا لزيارته، ليتعرف عليك، ولتحدثه في هذا الأمر بنفسك، وأعتقد أنه سيقتنع بمنطقك.

وفعلًا ذهبت مع الشيخ ابن تركي إلى الشيخ خليفة، فحيَّاني الرجل، ورحَّب بي، وقال لي: سمعنا عنك قبل قدومك، وأرجو أن تجد في قطر وطنك الثاني. وشكرته على المجاملة الطيبة. وقلت له: يا طويل العمر، أريد أن أشرح لكم موقف المسلمين من العلم الديني طوال العصور الماضية، فقد وقفوا عليه الأوقاف، والصدقات الجارية، ليستمر علم الشرع موصولًا متوارثًا، جيلًا بعد جيل، فهو فرض كفاية على الأمة، إذا قام به عدد كافٍ يلبي الحاجة، رفع الحرج عن الأمة، وإلا أثمت الأمة كلها. وقد جرت عادة

أهل الخير من المسلمين أن يخصوا الطلبة الغرباء بعناية أكبر من غيرهم، لشدة حاجتهم في غربتهم، وتشجيعًا لهم أن يتفقهوا في الدين، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم. ونحن ـ طلبة الأزهر المصريين ـ في كلياتنا، لا يعطى لنا شيء، على حين يعطى طالب البعوث الإسلامية قدرًا من المعونة يساعده على معيشته، وبعضهم يأخذها رغم أنه يسكن في مدينة البعوث الإسلامية التي خصصها لهم الأزهر. وهذا امتداد لـ(نظام الأروقة) الذي كان متبعًا في الأزهر من قديم، فهناك في مباني الأزهر نفسه: رواق للمغاربة، ورواق للأكراد، ورواق للشوام، وهكذا. وأنا لا أطالب سموكم بإعطاء الطلبة الغرباء، وحرمان القطريين.. بل أريد التسوية بين الجميع في ذلك، وتكون هذه ميزة لطلبة المعهد الديني.

وتفهَّم الرجل قصدي، واستجاب له في الحال. بل ظلت هذه الميزة لطلاب المعهد مستمرة، حتى بعد أن ألغيت الرواتب من الطلاب القطريين أنفسهم بعد ذلك.

ومما أعانني فيه الشيخ ابن تركي أنه قد بدا لي أن أقسم المعهد إلى مرحلتين: إعدادية وثانوية. كل مرحلة منهما ثلاث سنوات، مثل مراحل التعليم العام، يدرس الطالب في المرحلتين ما يدرسه الطالب في التعليم العام تقريبًا، إلا ما لا ضرورة إليه مما يوفِّر لنا بعض الحصص.. وتدرس نفس الكتب المقررة على الإعدادي والثانوي في العلوم والرياضيات والمواد الاجتماعية، واللغة الإنجليزية ونحوها. وفي الثانوي تدرس مناهج القسم الأدبي، على أن نزيد الجرعات التي يأخذها الطالب من العلوم الشرعية والعربية. وهنا لا بد أن نبذل جهدًا في تيسير هذه العلوم وتقريبها، بحيث لا نرهق الطالب بتعقيداتها. ولا بد من تقرير الكتب المناسبة لذلك. وقد يضطرنا هذا أن نزيد حصتين في الخطة الدراسية.

ومعنى هذا: أن علينا أن نهيئ الطالب في الصف الثالث بالمعهد هذا العام لامتحان الشهادة الإعدادية. وحصول الطالب على هذه الشهادة سيشعره بأنه

قطع مرحلة دراسية مهمة، وحصل على شهادتها. وكلمت الشيخ عبد الله بن تركي في هذا التغيير، ورحب به جدًّا، ووافقني عليه، وقال: علينا أن نقابل مدير المعارف وتقنعه بهذا الأمر. وكان مدير المعارف حينئذ، هو الأستاذ عبد الرحمٰن عطية. وكان مفتشًا للغة العربية، وأبدى نشاطًا ملحوظًا، فعيَّنه الشيخ قاسم مديرًا للمعارف، وكنت قد لقيته في القاهرة في الصيف لقاء عابرًا، وكان الأستاذ محمد المبارك أوصاه بي. فذهبت إليه، وشرحت له فكرتي، فشد على يدي، وشجعني على سرعة التنفيذ.

• **من السنن الحسنة التي سنها** رَحِمَهُ اللَّهُ :

ـ **ومن السنن الحسنة** التي سنها الشيخ ابن تركي في كل رمضان: أن يرسل العلماء الأزهريين الذين يدرِّسون العلوم الشرعية، إلى مساجد الدوحة وضواحيها، ومساجد القرى، ليلقوا فيها دروسًا، إما بعد العصر، وهو الغالب، أو بعد العشاء. ويوزع جدولًا في كل رمضان بالمدرسين ومساجدهم.

ـ **ومن السنن الحميدة** التي سنتها وزارة التربية والتعليم في قطر باقتراح من فضيلة الشيخ عبد الله بن تركي رئيس تفتيش العلوم الشرعية: **إقامة مسابقة في حفظ القرآن وتلاوته**، مفتوحة لجميع الطلاب والطالبات في جميع مدارس قطر بالدوحة، وغيرها من مناطق قطر. وكان الفائزون الأوائل الثلاثة في كل فصل يأخذون جوائز نقدية تشجيعية، وكانت المدارس تتنافس في ذلك، كما يتنافس الأبناء والبنات في حفظ كتاب الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقد أدى ذلك إلى تسابق كثير من الطلاب والطالبات في حفظ القرآن، وأن تجد البيوت قبيل الامتحان مشغولة بالقرآن. كما فتحت الوزارة ـ جزاها الله خيرًا ـ باب التسابق للطلاب ولغير الطلاب في حفظ القرآن كله، أو نصفه، أو أجزاء منه، ويعطَى الحافظ جائزة قيمة على قوة حفظه وحسن تلاوته.

وكانت بناتي إلهام وسهام وعلا ثم أسـماء بعد يدخلن كل عام هذه المسابقة ويفزن فيها، ويحصلن على جائزتها. بل دخلت إلهام هذه المسابقة في الأجزاء الخمسـة الأخيرة، ونجحت فيها، وحصلت على جائزتها، ودخلت سهام في ثلاثة أجزاء، وأسماء في جزأين.

ـ **ومن هذه السـنن أيضًا: تعليم البنات**، فقد نادى الشيخ ابن تركي بحق الفتاة القطرية في التعليم، في وقت كان يرى فيه كثير من الناس أن تعليم الفتاة وصمة قد تنتهي بالفتاة إلى عزوف الرجال عن الزواج منها، بل إن بعض فئات المجتمع كانت تعد تعليم الفتاة منكرًا يحرمه الدين، ولكن الشيخ عبد الله سار متحملًا في ذلك العبء الأكبر، اسـتطاع بقوة منطقه، ورجاحة رأيه، وحسن فهمه لدينه: أن يقنع الكثيرين مـن المتحفظين المنكرين لتعليم الفتاة، ونادى الشيخ الجليل بهذا الرأي ضاربًا المثل بما كانت عليه المسلمات الأوليات من فقه في الدين وعلم بشؤون الحياة وتفريق القرآن الكريم بين من يعلمون ومن لا يعلمون ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ودعوته إلى القراءة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وشجعه سمو الشـيخ خليفة بن حمد آل ثاني (ولي العهد إذاك)، فوضع بتوجيه من سـموه لتعليم الفتاة نظامًا وترتيبًا يحافظ علـى صونها وعفافها، ويمنع اختلاطها بغيرها، وتم افتتاح مدارس البنات.

ومن الغريب أن الشيخ عبد الله بن زيد المحمود، صاحب الفتاوى الجريئة في الحج وغيره، كان في ذلك الوقت من أنصار التضييق والتشديد في تعليم المرأة، وإن كان قد تغير رأيه بعد ذلك، والحمد لله.

وكان الشـيخان: ابن تركي والأنصاري من القائلين بإتاحة الفرصة لتتعلم كل علم نافع تريده وتقدر عليه.

• **وفاته:**

وبعد حياة مليئة بالحيوية والمعرفة، والكفاح في مجالي الدعوة والتعليم، توفي الشيخ يوم السبت (العشرين من شهر رجب عام ١٣٨٨هـ، الموافق ١٢ أكتوبر ١٩٦٨م)، وشيعه إلى مثواه الأخير آلاف المحبين له، والعارفين بفضله، والمقدرين لجهاده في موكب مهيب.

رحم الله الشيخ عبد الله بن تركي السبيعي، وجزاه على ما قدم من عمل نافع للعلوم الشرعية وتعليمها، خير ما يجزي به العاملين الصالحين من عباده.

* * *



١١ الأستاذ محب الدين الخطيب

رجل الدعوة والأمة، والتراث والصحافة

(١٣٠٣ ـ ١٣٨٩هـ = ١٨٨٦ ـ ١٩٦٩م)

العلَّامة المؤرخ والمحقق، والداعية والمصلح: السيد محب الدين بن أبي الفتح محمد الخطيب، يمتد نسبه إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، أبوه الشيخ أبو الفتح الخطيب، من أفاضل أهل دمشق، وكان أمين دار الكتب الظاهرية، وتولى التدريس والوعظ في الجامع الأمـوي، وكان زاهدًا، متقشـفًا، يكره معاشـرة الحكام، وله (مختصر تاريخ ابن عساكر) في خمسة أجزاء، و(مختصر تيسير الطالب) وغيرهما.

نشأ محب الدين الخطيب يتيمًا، فماتت أمه وهو رضيع في حجرها، في أثناء عودتها من الحج، ثم مات أبوه وهو في الصف الأول الثانوي بمدرسـة (مكتب عنبر)، وعمره حوالي ثلاثة عشر عامًا، ورأت أسرته بعد وفاة الوالد أن يترك المدرسة، فتركها ولازم العلماء.

كان للشيخ طاهر الجزائري، الذي كان صديقًا للشيخ أبي الفتح، والد محب الدين، والذي كان مشرفًا على المكتبات والمدارس في بلاد الشام: فضل كبير في توجيه الشيخ محب الدين إلى العلم، كما كان له الدور الأول في تكوين أفكاره، حتى إن الشـيخ محب الدين قال عنه: «مِنْ هذا الشـيخ الحكيم، عرفت عروبتي وإسـلامي، منه عرفت أن المعدن الصدِئ الآن، الذي بَرَأ الله منه في الدهر الأول أصولَ العروبة، ثم تخيَّرها ظِئْرًا للإسلام؛ إنما هو معدن كريم، لم يَبْرَأ الله أمة في الأرض تُدانِيه، في أصالته، وسلامته، وصلابته، وعظيم استعداده للحق»[1].

---

(١) من المقدمة التي كتبها لديوان (مجد الإسلام) لأحمد محرم، ص٦، نشر: دار العروبة، ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م.

ما إن علم الشـيخ طاهر بموت أبي الفتح، حتى احتضـن محب الدين واحتواه، وعطف عليه، ووجهه نحو العلم لينهل منه، ويتضلع من مشاربه.

وسعى الشيخ الجزائري ليخلف محب الدين أباه في دار الكتب الظاهرية، على أن ينـوب عنه من يقـوم بها، حتى يبلغ سـن الرشـد، وكان ينتقي له مخطوطات من تأليف شـيخ الإسـلام ابن تيمية وأضرابه، فيكلفه بنسخها، ينتفع بأجرة النسخ، وهو ما كان له دوره في توسع ثقافته العلمية، وترسخه في العلم، واطلاعه على كتب ابن تيمية ومدرسته السلفية مبكرًا.

كان محب الدين الخطيب مواظبًا على حضور الحلقة العلمية التي يعقدها الشيخ الجزائري بدار الكتب بدمشق، ويؤمها الشيوخ والشباب.

وجه الشـيخ الجزائري تلميذه للالتحاق مرة ثانية بمكتب عنبر، وأوصاه بالتردد على العلماء: أحمد النويلاتي، وجمال الدين القاسمي، ومحمد علي مسلم، حيث كانت لهم غرف في مدرسة (عبد الله باشا العظم).

وكان الشيخ الجزائري متأثرًا بأفكار الإمام محمد عبده، وبأفكار الكواكبي التي نفثها في كتابه (طبائع الاستبداد)، وهو ما انتقل بالتبعية إلى محب الدين الخطيب.

انتفع محب الدين بما تلقاه في مدرسة (مكتب عنبر) ـ التي كانت تدرس العلوم باللغة التركية ـ من علوم كونية، وأضاف إليها مطالعاته المتواصلة في دار الكتب الظاهرية، واطلاعه علـى المجلات الكبرى في عصره: المقتطف، الهلال، الضيـاء. في هذه الفتـرة كان يبثُّ أفكار شـيخه الجزائري، ويكتب المقالات العلمية، والقطع الأدبية، التي يُعَرِّبها من التركية، ويرسـل بها إلى صحيفة (ثمرات الزمان) في بيروت.

بعد أن أتم دراسته الثانوية، سافر إلى إستانبول حاضرة الخلافة، والتحق هناك بكليَّتَي (الحقوق والآداب)، وهناك أسس جمعية (النهضة العربية) لتعليم

الطلاب العربيةَ وآدابَهـا وثقافتَها، وتذكيرِهم بأصالتهـم وبدورهم القيادي. واشتد نشاطه، وأخذ يعقد الاجتماعات، ويلقي الخُطَب والمحاضرات، حتى شعرت بنشاطه جمعية (الاتحاد والترقي) الذين انقلبوا على الخلافة العثمانية، وأبقوا الخليفة اسـمًا يحكمون باسـمه، فداهموا غرفة الشـيخ محب الدين الخطيب، ووجدوا فيها أوراقًا وصحفًا عربية، وكاد الشيخ أن يهلك، لولا أن الله قيض له رجلًا كانت تربطه بأسرته روابط قوية.

فاضطر إلى تقليص نشاطه، والاكتفاء بالدراسة بكلية الحقوق، والانقطاع عن الدراسة بكلية الآداب، لعدم قدرته الجمعَ بينهما مع نشاطه في الجمعية، ثم غادر الآستانة بعد الانتهاء من السنة الثالثة إلى دمشق.

اختير محب الدين للعمل في اليمـن مترجمًا في القنصلية التركية بمدينة (الحديدة)، وفي طريقه إلى اليمن توقف في مصر، ليلتقي شيخه الشيخ طاهر الجزائري، وصديقـه محمد كرد علي، واتصل فيها بأركان (جمعية الشـورى العثمانية) الذين كانوا يطالبون بالحكم النيابي، وإعلان الدستور، ووضع حدّ للحكم الفردي، وكان منهم: الشيخ رشيد رضا، ورفيق العظم، والأديب التركي عبد الله جود.. وسواهم، وفوّضوه بتأسـيس فرع جديد لجمعيتهم في اليمن، والبلاد العربية، من الرجال الصالحين.

وقد سـعى فترة بقائه في اليمن إلى إنشـاء مدرسـة كانت هي المدرسة الوحيدة، وكان يتولى تدريس معظم العلوم فيهـا، بالإضافة لعمله كمترجم، ونشط في اليمن نشـاطًا عظيمًا في ميادين: السياسـة، والصحافة، والطباعة، والتعليم، والنشـاط الاجتماعي، والثقافي، الأمر الـذي جعل الأجهزة تراقبه وتضايقه.

فعاد إلى دمشق، ثم سافر إلى مصر، حيث عمل في جريدة (المؤيد)، فذاع صيته، وانتشرت مقالاته وترجماته، وبخاصة ما يتعلق بالمبشرين البروتستانت،

وخططهم الخبيثة لتنصير المسلمين، والتي كان ينشرها الكاتب الفرنسي المبشر (مسيو لوشاتليه) في الدوائر الكنسية، فكشفها محب الدين الخطيب، وهتك أستارها، ونبّه المسلمين إلى خطورتها، ثم جمعها في كتاب وأصدره بعنوان (الغارة على العالم الإسلامي).

كما عمل مترجمًا ومحررًا بجريدة (الأهرام) المصرية فترة قصيرة؛ لأنه لم يرتح لسياسة القائمين عليها، الذين يداهنون الاستعمار وأعوانه، ولا يهتمون بقضايا المسلمين، وما يحيط بهم من مؤامرات ومكائد.

وأصدر الشيخ في مصر مجلة (الفتح)، ثم مجلة (الزهراء) التي تُعنى بالبحث العلمي والنقد الموضوعي للأفكار الوافدة والمقولات الباطلة، وجعل المجلتين منبرًا للدفاع عن الإسلام والمسلمين، ومعالجة قضايا العروبة والإسلام، والحفاظ على الدين واللغة العربية، ونشر الثقافة الإسلامية، واستقطب لها الكثير من الكتّاب المسلمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي، وكان لهما صدى واسع في تنوير العقل الإسلامي، وفي توعية الأمة بقضاياها المصيرية، وبهويتها الحضارية والعقدية، وقد كان للأستاذ الخطيب شعاران يرفعهما: أحدهما يقول: أنت على ثُغرة من ثغور الإسلام فلا يؤتين من قبلك. والآخر يقول: المسلمون إلى خير ولكن الضعف في القيادة.

- **اكتشافه لموهبة حسن البنا:**

كان السيد محب الدين قد اكتشف من قديم موهبة الشاب النابه، المتخرج حديثًا في دار العلوم: حسن البنا، وطلب إليه أن يكتب في مجلته (الفتح)، وشجعه على ذلك، فكتب حسن البنا أول مقال له بعنوان: (الدعوة إلى الله). وكان الخطيب يباهي بأن حسن البنا من اكتشافه، وأنه ممن ساهم في صناعته.

ففي مقال له بعنوان (حديث عن البنا) بمناسبة مرور عشرين عامًا على تأسيس جماعة الإخوان المسلمين كتب الأستاذ الخطيب:

«إن الأستاذ حسن البنا أمة وحده، وقوة كنتُ أَنشُدها في نفس مؤمن، فلم أجدها، إلا يوم عرفتُه في تلك الغرفة المتواضعة من دار المطبعة السلفية سنة (١٣٤٦هـ)، وكنتُ (ابنَ صنعة) يوم اكتشفت بيني وبين نفسي حاجة الإسلام إلى هذا الداعية القوي الصابر المثابر، الذي يعطي الدعوة من ذات نفسه ما هي في حاجة إليه، من قوة ومرونة، ولين وجلد، وصبر وثبات إلى النهاية»[١].

• **ترؤسه لجريدة الإخوان المسلمين:**

وحين أنشأ الإمام البنا صحيفة (الإخوان المسلمون) اليومية، أوكل رئاسة تحريرها إلى الأستاذ محب الدين الخطيب، الذي يعرفه البنا من قديم بوصفه أحد رواد الصحافة الإسلامية المتميزة.

وكان الخطيب يدعم هذه الصحيفة، وذلك بطبعها في مطبعته المطبعة السلفية، إلى أن وصلت المجلة لسنتها الثانية، فأسس الأستاذ البنا: (الشركة التعاونية للإخوان المسلمين للطباعة والنشر)، وتولت طباعة المجلة. وعلق البنا في الصفحة الأخيرة من المجلة بمقال عنوانه: (من مطبعتنا إلى مطبعتنا) قدم فيه الشكر للسيد محب الدين الخطيب قائلًا عنه: «الذي لم يكن يومًا من الأيام إلا ركنًا من أركان الجماعة».

وكان الأستاذ البنا قد اختار الأستاذ الخطيب من قبل مديرًا لتحرير مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية، وهي أول مجلة للإخوان المسلمين، وقد صدرت في (٢١ من صفر سنة ١٣٥٢هـ، ١٥ من يونيو سنة ١٩٣٣م). وكان الأستاذ طنطاوي جوهري رئيس تحريرها، وكان الأستاذ البنا مسؤولًا عن القسم الديني بها. وقد خلف الخطيب في إدارة تحرير المجلة الشيخ أحمد عبد الرحمٰن البنا والد الأستاذ البنا.

---

(١) نقلًا عن: حسن البنا الداعية الإمام والمجدد الشهيد، لأنور الجندي، ص٣٣٨ ـ ٣٣٩، نشر: دار القلم ـ دمشق.

وكان للمطبعة السلفية التي أنشأها السيد محب الدين الفضل في نشر عدد كبير من كتب التراث وغيرها، ثم ألحق بها محب الدين الخطيب المكتبة السلفية، وكان الخطيب من الخبراء بالتراث الإسلامي، والمطلعين على كنوزه، والمدافعين عنه، وكان يدعو إلى تحرير التاريخ مما أدخله عليه الإخباريون والوضّاعون من روايات زائفة، شوهت الوجه الحقيقي للأمة، في أزهى عصورها، ولا سيما عصر الصحابة والتابعين والأتباع خير قرون هذه الأمة.

كما برع الأستاذ محب الدين الخطيب في فن الترجمة من بعض اللغات الأعجمية، فقد كان متقنًا رَحِمَهُ اللَّهُ للغة التركية، واللغة الإنجليزية، وصدر له في هذا اللون: ترجمة (مذكرات غليوم الثاني)، فقد ترجمها الأستاذ الخطيب عن اللغة التركية للعربية، ونشرها وطبعها في المطبعة السلفية سنة (١٩٢٩م). وترجم عن الإنجليزية كتاب (الغارة على العالم الإسلامي) لمؤلفه: لوشاتليه، وهو من أوائل الكتب المنشورة عن: التنصير والتبشير في ديار المسلمين، وخطط المنصرين لتنصير المسلمين.

وكان الأستاذ محب الدين الخطيب مولعًا بالأدب العربي، وكان له فيه خطرات جيدة، وقد برز ذلك في مجموعته المعروفة بـ(الحديقة) التي بلغت مجلداتها (١٣ جزءًا)، حفلت بمختارات بليغة من منثور الأدب والحكمة العربية، لنخبة كبيرة من فحول البلغاء المتقدمين والمعاصرين، ومن المعروف أن الأستاذ محب الدين الخطيب خالُ أديب الفقهاء وفقيه الأدباء: الشيخ علي طنطاوي.

- **مشاركته بإنشاء جمعية الشبان المسلمين:**

لم يكتف محب الدين الخطيب بالكتابة والعمل الصحفي والعلمي والفكري، بل سعى مع ثلة من المفكرين والعلماء والدعاة والمصلحين الغيورين على الدين لإنشاء (جمعية الشبان المسلمين) بالقاهرة، التي شارك في تأسيسها الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر، وأحمد تيمور باشا،

وعبد العزيز جاويش، ومحمد أحمد الغمراوي، وعبد الوهاب النجار، وحسن البنا، وصالح حرب.. وغيرهم، وقد أسندت رئاستها للدكتور عبد الحميد سعيد، فكانت هذه الجمعية في أول تأسيسها منارة إصلاح ورسالة توجيه وإرشاد.

• **توليه مجلة الأزهر:**

وقد أسندت رئاسة (مجلة الأزهر) في عهد الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين إلى الأستاذ محب الدين، لعدة سنوات.

يقول أخي وصديقي العزيز المستشار عبد الله العقيل: «ولم يتوقف الأستاذ محب الدين الخطيب عن الكتابة والنشر، بل استمر من خلال المكتبة السلفية، والمطبعة السلفية يُصدر الكتب والنشرات، ويحقق كتب التراث الإسلامي، ثم سعدنا به رئيسًا لتحرير مجلة (الأزهر) بناء على ترشيح شيخ الأزهر العلَّامة الإمام محمد الخضر حسين، ولقد كانت افتتاحيات محب الدين الخطيب زادًا لنا نحن الطلبة الأزهريين، تشحذ هممنا، وتُقوّي عزائمنا، وتستثير نخوتنا الإسلامية للذود عن الإسلام وحرماته، والتصدي لأعدائه في الداخل والخارج، ممن ينالون من الإسلام، أو نبي الإسلام، أو صحابة رسول الله ﷺ.

ولقد أسهم محب الدين الخطيب بعلمه الغزير وقلمه السيّال، في فضح دسائس الباطنية، وغلاة الرافضة، ومكائد الصهيونية، وسموم الاستعمار، وحقد المجوسية، ولن أنسى له توجيهاته لنا نحن الطلبة، وتحذيراته لنا من مؤامرات أعداء الإسلام، حيث كان يكرر في أحاديثه لنا بأن كل أنواع الهدم والتخريب والفساد والتدمير والكذب والتزوير، الذي أصاب المسلمين في القديم والحديث، سواء على مستوى اغتيال الخلفاء، أو الإسرائيليات في التفسير والحديث، أو الطعن في الصحابة والتابعين، أو الدّس في السيرة والتاريخ، إنما هو من صنع اليهود والمجوس؛ لأنهم هم وراء كل ذلك، وهم الذين أنشؤوا الحركات الهدامة والجمعيات السرّية والفرق الباطنية، وما زال هذا شأنهم وديدنهم إلى اليوم، وهم يتوارون وراء أسماء براقة، ورايات متعددة، ومسميات

مختلفة، وكلها تصُبّ في مجرى واحد يستهدف تقويض الإسلام، وإفساد أبنائه، وحرب دعاته، وسلب خيراته، وتحطيم مجتمعاته، وتدمير أسره وأفراده، فهم يملكون وسائل الإعلام والمال، وعصابات الربا والدعارة والمخدرات، ودور الفن والملاهي والقمار والخمر، وغيرها من وسائل الإفساد والهدم والتضليل والغواية التي تدمر الشباب، وتهدم مقومات المجتمع، وتُذيب هوية الأفراد، وتربط الأمة بذيل الغرب الاستعماري، مستعينين بتلامذتهم الذين رضعوا حضارة الغرب بخيرها وشرّها، وحلوها ومرّها، ما يُحمد منها وما يُعاب، فكانوا كالببغاوات التي تردد ما يُملى عليها دون وعي أو إدراك»[1].

• **محب الدين والشيعة:**

كتب الأستاذ الخطيب رسالته المركزة الشهيرة تحت عنوان: (الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثني عشرية)، وأثار قضايا خطيرة عن القرآن عند الشيعة، والقول بتحريفه ونقصه، ومَن ألف في ذلك من الشيعة، وخصوصًا كتاب (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب) ـ أي: القرآن العظيم ـ للنوري الطبرسي، الذي احتفل الشيعة بوفاته احتفالًا كبيرًا، ودفنوه بالقرب من قبر الإمام علي رضي الله عنه.

وبيَّن موقف الشيعة من السنة، وموقفهم من الصحابة، ومن التقية، ومن عدة أمور، باين فيها مذهبُهم مذهبَ أهل السنة مباينةً واضحة قاطعة.

وكتب محب الدين الخطيب عدة كتب ورسائل يدافع فيها عن الصحابة، مثل تحقيقه وتعليقه ونشره للجزء الخاص بموقف الصحابة من كتاب العلَّامة المالكي القاضي أبي بكر ابن العربي، المعروف باسم (العواصم من القواصم). ومثل حواشيه على كتاب (المنتقى من منهاج الاعتدال) للذهبي. كما كتب كتابًا سماه (مع الرعيل الأول)، أبرز فيه مكانة الصحابة في الدين وجهادهم

---

(١) من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، ط: دار البشير، (٢/٧٤٧ ـ ٧٤٨).

وجهودهم في نصرة خاتم النبيين. كما كتب عن (حملة رسالة الإسلام الأولون) وبيَّن مناقبهم وفضائلهم، وما كانوا يحملونه من قيم عليا، ومُثُل رفيعة، تجعلهم أبعد ما يكونون عما وصفهم به الذين شوهوهم ظلمًا وزورًا.

- **أنا ومحب الدين الخطيب:**

ومما آسف له: أني حاولت أن ألقى السيد محب الدين الخطيب، وأجلس إليه، وأتعلم منه، ولكن لم يتح لي ذلك، وقد ذهبت مرة قاصدًا لزيارته في مكتبه في المطبعة السلفية، التي كان يصدر منها ما يتبناه من كتب، فلم أظفر إلا بمصافحته والسلام عليه، إذ كان خارجًا لأمر آخر.

- **مؤلفاته وآثاره:**

لقد ساهمت كتب الأستاذ محب الدين الخطيب ومؤلفاته، وتحقيقاته، وترجماته، القيمة بعطائها الفكري المتجدد، وثرائها المتأصل، مع صحافته النيرة المجددة، بكل ألوانها وأسمائها؛ في وضع منهج متميز لدراسة المستجدات، وتجديد المسارات، وإيقاظ العقول والضمائر، وتدل مؤلفاته وكتبه على عمق تفكيره، وقوة معرفته، وكذا تحقيقاته، خصوصًا تحقيقه لما نشره من كتاب: (العواصم من القواصم) لأبي بكر ابن العربي، وتعليقاته القيمة عليه، ومن تحقيقاته تحقيقه لكتاب (مختصر التحفة الاثني عشرية) لولي الله الدهلوي، وكتاب (المنتقى) للحافظ الذهبي، وكتاب (الميسر والقداح) لابن قتيبة، وكتاب (الخراج) لأبي يوسف، وكتاب (تاريخ الدولة الناصرية) للسان الدين بن الخطيب.

أما كتبه التي ألفها، فمنها: كتاب (الخطوط العريضة)، وكتاب (الرعيل الأول)، وكتاب (تقويمنا الشمسي)، وكتاب (قصر الزهراء بالأندلس)، وكتاب (ذكرى موقعة حطين)، وكتاب (الأزهر ماضيه وحاضره والحاجة إلى إصلاحه)، وكتاب (اتجاهات الموجات البشرية في جزيرة العرب).

وله ترجمات من التركيـة والإنجليزية والفرنسـية، منهـا ترجمته لكتاب (مذكرات غليوم الثاني)، وترجمته لكتاب (قميص من نار) للكاتبة التركية خالدة أديب، وكتاب (الدولة والجماعة) للمفكر التركي أحمد شعيب، وكتاب (الغارة على العالم الإسلامي) للكاتب الفرنسي لوشاتليه، وغيرها من الكتب المؤلفة أو المحققـة أو المترجمة، وكلها تدل علـى مدى الفهم العميـق، والفقه الدقيق، والبصر الثاقب. وصدق فيه قول الدكتـور محمد رجب البيومي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين): «إن محب الدين الخطيب كان أمة في واحد، لأن أكثر حركات التحرر الإسلامي في الأمة العربية، عرفت منه المشير المؤيـد، والمقترح المصمم، ولكـن طبيعة الجندي في نفسـه، جعلته لا يطمح إلى منزلة القائد الرسـمية، أما في الواقع العملي فهو قائد حقًّا، وأنت حين تعرض أسـماء: شـكري القوتلي، وصالح حرب، ولطفي الحفار، ورفيق المعظم، ومحمد كرد علي، وحسـن البنا، وعبد الرحمٰن عزام، وعزيز المصري، وغيرهـم، تجد ارتباطًـا قويًّا بينهم وبيـن محب الدين الخطيـب في كثير من المواقف الحاسـمة على مدى نصف قرن متطـاول، لأن محب الدين الخطيب تنقل في دنيا الكفاح الإسـلامي ما بين دمشـق، وبيـروت، وتركيا، والقاهرة، واليمن، ومكة المكرمة، انتقال المكافح الذي يقف في مقدمة الصفوف»[1] انتهى.

• **وفاته:**

وقد انتقل إلى رحمة الله عام (١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م)، ودُفِنَ بمصر، ورحم الله أستاذنا العلَّامة محب الدين الخطيب، وتقبله في العلماء الربانيين، والدعاة الصادقين، والأئمة العاملين، على ما قدم لأمته ولدينه، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين، خير ما يجزي عباده الصالحين.

* * *

---

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين (٣١١/٢)، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت.



الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد الثاني لجماعة الإخوان المسلمين

(١٣٠٩ ـ ١٣٩٣هـ = ١٨٩١ ـ ١٩٧٣م)

«مصري ولد في (عرب الصوالحة) سنة (١٣٠٩هـ)، قبيلته عربية عريقة في عروبتها ودينها، ودرس في كلية الحقوق، وتخرج فيها سنة (١٣٣٥هـ)، واشتغل بالمحاماة، ثم عُين في القضاء، وهو الآن مستشار في محكمة النقض، سعادته خير قدوة لرجال القانون؛ فقد عُرف في جميع مراحل حياته باللباقة وسمو الخلق، والغيرة على الإسلام والدعوة إليه، وهو يحفظ القرآن، وذو رأي مسدَّد في كل ما يتصل باللغة والإسلام، كما أن لسعادته دراسات واسعة في القانون المقارن والتشريع الإسلامي، واطلاع واسع على كتبه وموسوعاته» هكذا عرف الإمام البنا في (مجلة الشهاب) المستشار حسن الهضيبي، وقد نُشرت صورته في (سجل التعارف الإسلامي) في العدد الأول، وكأن هذا التعريف الشامل المركز من الأستاذ البنا، كان يحمل ترشيحًا لصاحبه، ليقود سفينة الجماعة من بعد مرشدها الأول، رحمهما الله جميعًا.

كان الأستاذ الهضيبي على صلة قديمة بالإخوان، وبالأستاذ حسن البنا، ولكن منصبه القضائي جعله يبتعد عن الظهور العلني في الإخوان.

اختير الأستاذ الهضيبي مرشدًا عامًا لجماعة الإخوان المسلمين بعد استشهاد مرشدها الأول الإمام حسن البنا، وقد حل هذا الاختيار عقدة اختيار المرشد من رجال الصف الأول البارزين: صالح عشماوي وكيل الإخوان، وعبد الرحمٰن البنا عضو مكتب الإرشاد وشقيق المرشد الأول، وعبد الحكيم عابدين السكرتير العام للجماعة وزوج أخت الأستاذ، والشيخ أحمد الباقوري

أحد قدامى الإخوان، وغيرهم من المتطلعين إلى منصب المرشد العام، وكل يزعم ـ أو يُزْعَم له ـ أنه أحق به من غيره، وقد تنازعوا فيما بينهم: أيهم يقود الجماعة، ولم يتفقوا على واحد منهم؛ فكان اختيار الأستاذ الهضيبي من خارج المجموعة كلها حلًّا للإشكال، فحسم اختياره النزاع، ووحد الوجهة، ووجدت السفينة ربانًا يقودها باسم الله مجراها ومرساها، وإن بقي في بعض النفوس ما بقي، مما لا يسلم منه البشر.

وكان الإخوان قد اختاروا مقرًّا مؤقتًا في حي (الظاهر) بالقاهرة، يلتقون فيه حتى يكسبوا قضيتهم، وتعود إليهم ممتلكاتهم، ومنها المركز العام بالحلمية الجديدة.

وكان أول لقاء عام بالإخوان للأستاذ الهضيبي في هذا المقر المؤقت، وقد أوصى الإخوان بتقوى الله ﷻ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وطلب منهم أن يُقِلُّوا الحديث عما أصابهم من بلاء في سبيل الدعوة؛ فهذا أول الطريق، وكأنه يستشف ما يُكنُّه ضمير التاريخ من محن كبيرة مخبَّأة للإخوان.

وبعد جهود واتصالات ومظاهـــرة أمام مجلس النواب، وضغط على حكومة الوفد أُلغي قرار حل الإخوان، وعادوا رسميًّا ليمارسوا نشاطهم تحت سمع القانون وبصره، وتســلَّموا مركزهم العــام، ليقيموا فيه (أحاديث الثلاثاء)، التي أمســى يتعاقب عليها عدد من دعاة الإخوان، ولكن أين من يملأ مكان حسن البنا؟!.

- **الهضيبي والملك فاروق:**

وفي هذا الوقت طُلب من الأستاذ الهضيبي أن يزور الملك فاروق، وحدد موعد الزيارة، وكأن الملك أراد بذلك أن يقيم صلة، أو يعقد هدنة مع الإخوان، بعد أن اغتيل مرشدهم الأول لحسابه، وذهب الأستاذ الهضيبي للقاء الملك، وجرى بينهما حديث عن الله، ثم الملك، ثم الشعب، فعقب الهضيبي قائلًا: بل الله، ثم الشعب، ثم الملك.

وبعد خروج الأستاذ الهضيبي من الزيارة الملكية، سأله الصحفيون عن مضمون هذه الزيارة، فقال: لقد كانت زيارة كريمة لملك كريم.

واستغلها خصوم الدعوة؛ ليشوشوا على الإخوان، وعلى مرشدهم الجديد، وليجعلوا منها مقدمة لدوران الإخوان في فلك القصر، وأن الهضيبي إنما جاء ليؤدي هذا الدور، وكل هذه أوهام وأباطيل، وإنما قالها الرجل على سجيته جملة يريد بها المجاملة، لا أكثر من ذلك، وما غيَّر الإخوان من أهدافهم، ولا من مناهجهم، قِيدَ شعرة، كما يعرف ذلك كل مراقب للإخوان، مُطَّلِع على مسيرة الإخوان.

وقد ذكر الأستاذ محمود عبد الحليم في الجزء الأول من كتابه (الإخوان المسلمون.. أحداث صنعت التاريخ) بعض التفاصيل عن هذه الزيارة، منها: أنهم بعثوا إلى الأستاذ الهضيبي من القصر حلة خاصة لا يقابَل الملك إلا بمثلها، يسمونها (الردنجوت)، فرفض الهضيبي أن يلبسها، وأصر على أن يلقى الملك بحلته المعتادة، وقبلوا بذلك لأول مرة.

ومنها: أن الملك ظل يتحدث نحو الساعة، معتذرًا عمَّا أصاب الإخوان، وأنه من عمل حزب السعديين وحكومتهم، وأنه هو الذي أقال حكومة إبراهيم عبد الهادي، وأمر بالإفراج عن الإخوان... إلخ، والأستاذ ساكت.

ومنها: أن الملك أرسل إلى الهضيبي صورة فاخرة له موقعة بخطه، وكان ينتظر أن يعلقها في مكتبه، فلم يفعل، ولكنه أخذها إلى بيته، ووضعها على الأرض في مكان لا يراه أحد.

- **الهضيبي والنظام الخاص:**

حينما اختير الأستاذ الهضيبي مرشدًا للجماعة، وعرف بقصة النظام الخاص وتاريخه ونفوذ قادته باستقلالهم عن الجماعة، أحس بأن هذا خطر يجب أن يقاوم، فأعلن أول الأمر أن لا سرية في الإسلام.

ثم يبدو أن بعض الإخوان أقنعوه أن الدعوة لا سرية فيها، ولكن بعض التنظيمات تقضي الضرورات التي تعيشها بلادنا أن تكون سرًّا، ولا سيما مع وجود الاحتلال الإنجليزي، والحكومات الموالية له، وفساد القصر، وتهديد الدولة الصهيونية على حدود مصر... إلخ، فوافق المرشد على بقائه، على أن يحدث فيه بعض التغيير، وخصوصًا في القيادة.

ويظهر أن النظام شعر بذلك، فبدأ يقاوم ذلك؛ وهو ما أدى إلى فصل أربعة من كبار أعضائه وقادته، وهم: رئيس النظام عبد الرحمٰن السندي، ومحمود الصباغ، وأحمد زكي حسن، وأحمد عادل كمال.

وكان ذلك على إثر حادثة غير مسبوقة ولا ملحوقة في تاريخ الإخوان، تمثل جريمة من الجرائم الكبرى التي لا تبرر بحال من الأحوال، وهي قتل أحد الإخوة المخلصين والمهمين الناقمين على قادة النظام، وهو المهندس (السيد فايز)، الذي كان موضع الرضا والقبول من المرشد العام، ومن كل من عرفه؛ لما تميَّز به من حسن الفهم، وحسن الخلق، والبذل والإخلاص للدعوة.

وكان قتله بطريقة بشعة؛ إذ أرسلت له علبة حلوى بمناسبة المولد النبوي، وكان غائبًا عن المنزل؛ فلمَّا عاد وفتح العلبة انفجرت فيه، فأودت بحياته، وحياة شقيقه الصغير، وكانت أصابع الاتهام كلها تشير إلى النظام، وإن كان التحقيق الرسمي لم يسفر عن شيء.

وكانت هذه الجريمة النكراء سبب استياء عارم، وسخط عام في صفوف الإخوان؛ فكيف يستحل الأخ دم أخيه، وإن اختلف معه في الرأي؟ وبأي ذنب قتلت هذه النفس التي حرّم الله، والتي جعل القرآن وكُتبُ السماء من قتلها كأنما قتل الناس جميعًا؟ ومن أفتى هؤلاء بإباحة هذا الدم الحرام؟ أم أنهم جعلوا من أنفسهم المفتي والقاضي والمنفِّذ؟.

ومع هذا لم يكتفِ رجال النظام بما اقترفوا، بل أرادوا أن يقاوموا قرار فصل الأربعة الذي صدر من مكتب الإرشاد العام صاحب السلطة التنفيذية العليا في الجماعة، والذي من حقه أن يفصل الأعضاء بناء على اعتبارات يراها، وليس من الضروري أن يعلن الأسباب، ولا سيما إذا كان ذلك يضر بالجماعة.

أراد رئيس النظام ومن عاونه من شباب النظام أن يحدثوا انقلابًا غير دستوري في الإخوان بأن يحتلوا المركز العام بالقوة، وأن يذهب فريق منهم إلى منزل المرشد العام، ويرغموه على الاستقالة، وأن يتولى فريق من كبار الإخوان المركز العام ويديروه حتى يختار الإخوان لهم مرشدًا جديدًا.

وبالفعل احتلوا المركز العام، وذهب خمسون منهم إلى بيت المرشد، مقتحمين بغير استئناس ولا استئذان، كما هو أدب الإسلام، وطلبوا منه الاستقالة فرفض، وبهذا أخفقوا في هذا البند.

وقد تجاوب معهم من الكبار: الأستاذ صالح عشماوي، والشيخ محمد الغزالي، والدكتور محمد أحمد سليمان، والأستاذ أحمد عبد العزيز جلال، والشيخ سيد سابق، الذي قيل: إنهم اختاروه مرشدًا بدل الهضيبي!.

وقام الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل بدور مهم في محاولة فضّ هذا الأمر، وإقناع الشباب بالانصراف، وقد استجابوا له بالفعل، فلم يأتِ الفجرُ حتى كانوا قد رحلوا.

وسرعان ما شعر الكثير منهم بجسامة ما اقترفوا، وسارع بعضهم إلى التوبة والاعتذار، ومنهم الأخوان الكريمان: علي صديق، وفتحي البوز.

وفي المساء امتلأ المركز العام بالإخوان، وتحدث عدد من دعاة الإخوان: عبد الحكيم عابدين، وسيد قطب، وسعيد رمضان، وعز الدين إبراهيم، وخُتم اللقاء بكلمة المرشد العام.

واعتذر د. سليمان، وأعلن ثقته بالمرشد العام، واكتفي منه بذلك، وأحيل الثلاثة الآخرون (عشماوي والغزالي وجلال) إلى (لجنة العضوية) بالهيئة التأسيسية بصفتهم أعضاء بها، لتنظر في أمرهم، وانتهى الأمر بفصلهم، وهي نهاية مؤسفة، ولكن لم يكن بد من ذلك، وكما قال الشاعر:

إذا لم يكن إلَّا الأسنَّةُ مركبٌ فما حيلةُ المضطرِّ إلَّا ركوبُها!

• **الهضيبي والضباط الأحرار:**

كان كل شيء في مصر يبشر أن تغييرًا لا بد أن يقع، فكان التغيير هو قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م) التي سميت أول الأمر (حركة الجيش المباركة)، ثم أطلق عليها (الانقلاب)، ثم استقرت على اسم (الثورة).

لقد استبشر الشعب بانقلاب هؤلاء الضباط الذين قالوا عنهم: (حَمَلَة مصاحف) كما قالوا عنهم: إنهم من تلاميذ الشيخ محمد الأودن. كما قيل: إن منهم عددًا من الإخوان.

وقد طُلب منا نحن الإخوان أن نحرس المنشآت الأجنبية من احتمال تحرك أي أيد مخربة، تحاول أن تصطاد في الماء العكر، والوضع حساس لا يحتمل وقوع أي حادث يكدر صفو الأمن، ويظهر وجود معارضة للانقلاب.

كان رجال الجيش يعتبرون الإخوان هم سندهم الشعبي، فلا غرو أن اعتمدوا عليهم في حراسة المنشآت ومراقبة أي تحرك مريب.

ولكن من الأيام الأولى بدأ لون من الحساسية يظهر عند رجال الانقلاب، حتى صدر بيان يعلن أن حركة الجيش حرة مستقلة عن الجماعات والأحزاب، وليس لأي منها سلطان عليها، وكان البيان يعني الإخوان خاصة.

ويبدو أن الأستاذ الهضيبي منذ أول لقاء معهم لم يسترح لهم، كما لم يستريحوا هم وهذا الشعور بعدم الارتياح المتبادل من الطرفين كان له أثره فيما بعد.

وحين كان عبد الناصر يزور بعض المناطق كان الإخوان يستقبلونه على طريقتهم بالتهليل والتكبير، وخصوصًا أن الكثيرين من عوام الإخوان كانوا يحسبون أن حركة الجيش حركة إخوانية، أو على الأقل موالية ومساندة للإخوان، وقد سمعت بأذني في مدينة الحوامدية، حين كبر الإخوان وعبد الناصر يتكلم، ما قاله وهو غاضب ثائر: إلى متى تظلون كالببغاوات، تهتفون وتصرخون ولا تدرون ما تقولون؟!.

ساءت العلاقة بين الإخوان والثورة، واقتيد الإخوان إلى السجون، ومما عرفناه ونحن في السجن الحربي: أن الأستاذ الهضيبي بعث برسالة إلى الرئيس محمد نجيب، تتضمن بعض النصائح، ويطالبه فيها بإعادة الحريات والحياة النيابية إلى الشعب، ومما أذكره مما جاء في هذه الرسالة قوله: إنكم عبتم على الأحزاب والزعماء قبل الثورة: أنهم لم يقولوا للملك وبطانته: لا، حيث يجب أن تقال. وأنتم بموقفكم من الإخوان تمنعونهم أن يقولوا لكم: لا، حيث يجب أن تقال.

ثم وقعت أحداث فبراير عام (١٩٥٤م) التي بدأت داخل الجيش وسلاح الفرسان بقيادة خالد محيي الدين، بعد إعلان قبول استقالة محمد نجيب.. خرجت المظاهرات تطالب نجيبًا بالبقاء. وكان من المعروف أنها من تدبير الإخوان المسلمين.. وشهدت القاهرة أعنف المظاهرات، واضطر عبد الناصر إلى إعادة نجيب.

وفي يوم (٢٨ فبراير) خرجت المظاهرات من جامعة القاهرة والأزهر، ومن أبناء الشعب، فأصيب عدد من المواطنين، منهم الطالب ثروت يونس العطافي الطالب بكلية الهندسة، واستشهد أحد طلاب الإخوان، وهو الطالب توفيق عجينة، وحمل المتظاهرون قمصان المصابين ملوثة بدمائهم وتوجهوا إلى قصر عابدين.. وخرج إليهم محمد نجيب محاولًا دفعهم للانصراف.. ولكنهم

لم يتحركوا.. ولمح بينهم الأستاذ عبد القادر عودة، فدعاه إلى الشرفة لإلقاء خطاب لفض المتظاهرين، وصعد بالفعل، ووقف بجوار محمد نجيب الذي أعلن أنه سينشئ الجمعية التأسيسية وسيعيد الحياة النيابية.. وانصرفت المظاهرات. وجاء في خطاب نجيب ما يلي: «إننا قررنا أن تكون الجمهورية جمهورية برلمانية على أساس، هو أن نبدأ فورًا بتأليف جمعية تأسيسية تمثل كافة هيئات الشعب المختلفة، لتؤدي وظيفة البرلمان مؤقتًا، وتراجع نصوص الدستور بعد أن يتم وضعها. وبعد ذلك تعود الحياة النيابية إلى البلاد في مدة أقصاها نهاية فترة الانتقال. وهذا أمر متفق عليه.. ونحن عند وعدنا الذي قطعناه على أنفسنا من أننا لم نقم إلا لإعادة الدستور على أساس سليم في نهاية فترة الانتقال».

واختتم نجيب كلمته قائلًا: «نحمد الله ﷻ مرة أخرى على أننا اجتزنا هذا الامتحان القاسي بنجاح.. وأؤكد لكم مرة أخرى أني لا أطمع في حكم أو سلطة أو جاه، وإنما أطمع فقط في أن أؤدي واجبي، وأن تزهق روحي في سبيل بلادي وتحريرها، وفي سبيل اتحاد أبنائها. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وكانت تلك الكلمة سببًا في انصراف المتظاهرين.

وفي نفس الوقت ثارت ثائرة عبد الناصر ضد الإخوان المسلمين، فقد علم معاونوه أن الذي أوحى لنجيب بهذا الكلام هو عبد القادر عودة، أحد خطاب الإخوان، الذي كان يقف إلى جوار نجيب في شرفة قصر عابدين.

ومرت ثلاثة أيام، وفي يوم (٢ مارس) قامت سلطات البوليس الحربي باعتقال (١١٨) شخصًا بينهم (٤٥) من الإخوان، و(٢٠) من الاشتراكيين، و (٥) من الوفديين، و (٤) شيوعيين، بادعاء أنهم كانوا يدبرون لإحداث فتنة في البلاد، مستغلين فرحة الشعب بعودة نجيب.. وكان في مقدمة المقبوض عليهم: حسن الهضيبي وعبد القادر عودة وصالح أبو رقيق وأحمد حسين زعيم

الاشـــتراكيين. ثم بعدها بقليل أفرج عن المعتقلين، وخرج الأستاذ الهضيبي، وكان له مؤتمر حاشد ليلة خروجه في المركز العام للجماعة، أوصى الأستاذ في كلمته في المؤتمر الإخوان: ألا يكثروا الحديث عما أصابهم من المحن في ســبيل الله، فإنهم لا يدرون ما ينتظرهم مما يخبئه الغد. وكأنما كان ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق!.

وفي يــوم (٢٥ مارس) هــذا الذي تقرر فيــه الإفراج عن آخــر دفعة من المعتقلين هو نفس اليوم الذي اجتمع فيه مجلس الثورة اجتماعًا استمر خمس ســاعات بحث خلالها الموقف الداخلي. وبعد انتهاء الاجتماع خرج الصاغ كمال الدين حسين إلى الصحفيين وأذاع عليهم القرار التاريخي وهذا نصه:

قرر مجلس الثورة بجلسته اليوم (١٩٥٤/٣/٢٥م):

أولًا: يسمح بقيام أحزاب.

ثانيًا: المجلس لا يؤلف حزبًا.

ثالثًا: لا حرمان من الحقوق السياســية حتى لا يكون هناك تأثير على الانتخابات.

رابعًا: تنتخب الجمعية التأسيســية انتخابًا حرًّا مباشرًا بدون أن يعين أي فرد، وتكون لها السيادة الكاملة والسلطة الكاملة، وتكون لها سلطة البرلمان كاملة، وتكون الانتخابات حرة.

خامسًا: حل مجلس الثورة في (٢٤ يوليو) المقبل باعتبار الثورة قد انتهت، وتسلم البلاد لممثلي الأمة.

سادسًا: تنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية بمجرد انعقادها.

وبعد أن نشرت الصحف هذه القرارات، نشرت ما يأتي:

«تم الإفراج أمس عن الأستاذ حســن الهضيبي من السجن الحربي، كما

أفرج عن باقي أعضاء جماعة الإخوان المعتقلين. وقد تم اتصال أمس بين المسؤولين وبين السيد حسن الهضيبي المرشد العام قبل الإفراج عنه بشأن عودة جماعة الإخوان المسلمين إلى نشاطها السابق.

وقد تم الاتفاق معهم على ثلاث نقط:

أولًا: أن تعود الجماعة إلى سابق نشاطها وكيانها بدون أي حد من حرياتها، وإعادة أموالها المصادرة وشُعَبها ومركزها العام.

ثانيًا: الإفراج فورًا عن جميع الإخوان مدنيين أو عسكريين مع إعادة من فصل منهم إلى الخدمة العسكرية.

ثالثًا: أن يصدر مجلس الثورة بيانًا يوضح فيه حقيقة الأسباب التي اعتبرها داعية إلى حل الإخوان. ويكون هذا البيان بمثابة الختام في هذه المسألة المؤسفة.

وقد صرح السيد حسن الهضيبي للمسؤولين بأن الإخوان سيكونون بعد عودتهم عونًا للحكومة على طرد الإنجليز من منطقة قناة السويس، ورد اعتداءاتهم الوحشية. وفي منتصف ليلة أمس توجه البكباشي جمال عبد الناصر إلى منزل الأستاذ الهضيبي حيث اجتمع به في منزله».

وبدأت جماعة الإخوان المسلمين تستأنف نشاطها من يوم (٢٦ مارس).. واعتقد الجميع أن الحياة النيابية ستعود.. وفي اليوم نفسه بدأ عبد الناصر تنفيذ خطته.. وفوجئت القاهرة بتوقف جميع وسائل النقل بها في الساعة الواحدة ظهرًا ما عدا الترام، بعد أن استطاع عبد الناصر أن يستميل إليه الصاوي أحمد الصاوي رئيس اتحاد نقابات عمال النقل، بعد أن دفع له أربعة آلاف جنيه، ليعلن إضرابًا شاملًا لمطالب خاصة، ثم بدأت الإذاعة تذيع إضراب العمال بسبب قرارات عودة الحياة النيابية للبلاد، ورغبتهم في الإبقاء على مجلس الثورة.

وبدأت المظاهرات تشـتد.. وهي المظاهرات التي كان يدبرها البوليس الحربي، وكانت تطالب بعدم عودة الحياة النيابية.. وتهتف بسقوط المثقفين! وذهبت إلى مجلس الدولة، فاعتدت على رئيسه القانوني الكبير د. عبد الرزاق السنهوري!.

• **بيان من المرشد العام الأستاذ الهضيبي حول الأزمة:**

وأصدر المرشد العام بيانًا يوم (٢٨ مارس) هذا نصه:

«بسـم الله الرحمن الرحيم.. لا ريب أن مصر الآن تمر بفترة بالغة الدقة والخطورة في تاريخها، بعيدة الأثر في كيانها ومستقبلها. وهي فترة تقتضي من كل مواطن أن يهب البلاد نفسه، ويبذل لها وجوده، ويؤثرها بالخالص من رأيه ومشـورته، حتى يأذن الله بانجلاء هذه الغمرة، ويبـدل الوطن منها حياة أمن واستقرار ووحدة.

وقد فوجئ الإخوان المسـلمون غداة خروجهم من السجون والمعتقلات بتوالي الأحداث الخطيرة التي تتعرض لها البلاد في حدة وسـرعة لم يتيسر معها معرفة أسـبابها والعوامل التي تؤثر فيها، ثم تحديد وسائل العلاج التي تلائمها.

من أجل ذلك بادر الإخوان المسـلمون إلى العمل على أداء واجبهم في التماس المخرج من هذه الأزمة، فبدا لهم أن من العسـير أن ترسـم الخطط الصالحة، ويوضع العلاج لهذه المشاكل، وتسمع المشورة الصادقة المستقلة في جو الغضب والانفعال، وقد كان رسـول الله ﷺ يسأل الله ألا يستجيب له وهو غضبان.

لهذا لم يكن بد من الإسراع بلقاء المسؤولين والاتصال بطرفي الخلاف للدعوة إلى اتخاذ مهلـة تتجنب فيها المضاعفات، وتنتهـي فيها حالة التوتر القائمة حتى يتيسر لأولي الرأي والإخلاص أن يتقدموا للمسؤولين من الأمة

خطة كاملة مدروسة تكشف عن البلاد هذه الشـــدة، وتضع الحلول الكفيلة وقاية البلاد من أن تتعرض لمثلها في أية مناسبة.

وعلى هذا الأســـاس قام وفد من الإخوان المسلمين برئاسة المرشد العام لقاء البكباشي جمال عبد الناصر في الليلة الماضية، ثم بزيارة اللواء محمد جيب لانشـــغاله في هذه الليلة بالاجتماع بجلالة الملك سعود ضيف مصر كبير، الذي آثر مشكورًا بكريم وساطته في علاج هذا الموقف العصيب.

وما زال الإخوان المســـلمون يواصلون خطواتهم في إقناع المســـؤولين تخاذ مهلة، مع قيامهم في الوقت نفسه بدراسة خطة العلاج الشاملة، آملين ن يستجيب المســـؤولون إلى ندائهم، فتتغلب الحكمة والوطنية على بواعث خلاف والفرقة، ويلتقي الجميع بإذن الله على كلمة سواء.

وإذا كانت الجهود تتوالى في العمل على جمع الكلمة وحل الأزمة، فإننا ناشد شعب مصر الكريم أن يعتصم بالهدوء والسكينة ورباطة الجأش، وأن نصرف أبناؤه جميعًا إلى أعمالهم فـــي انتظام وطمأنينة، مع التوجه إلى الله علـــي الكبير أن يحفظ البلاد من كل ســـوء، وأن يعين الســـاعين، ويجمع مســـؤولين على الحل الكامل الســـليم الـــذي يخرج بالبـــلاد من المأزق حاضر، ويحفظ وحدة الأمـــة، ويصون حقوق الشـــعب وحرياته، ويحقق ستقرار المنشود، في ظل حياة نيابية نظيفة محوطة بالضمانات التي تجنبها ســـاوئ الماضي، وتوفر الجهود لتخليص الوطن من الغاصب المستعمر، تابعة حركة الإصلاحات الإيجابية التي تستكمل البلاد بها نهضتها، والله ي التوفيق».

وأذيع هذا البيان الذي طلبه عبد الناصر من المرشد بعد اتفاق الاثنين على ن توقف المظاهرات لحين انتهاء زيارة الملك ســـعود، وإيجاد حل للأزمة، شر البيان يوم (٢٩ مارس) نفس يوم مغادرة الملك سعود مصر.

لم تطل فترة الصلح بين الإخوان والثورة؛ فسرعان ما تحول الصفاء إلى كدر، والصحو إلى غيم، وكان لذلك أسباب شتى؛ بعضها نفسي يتعلق بموقف عبد الناصر من الهضيبي، وعدم استراحته له، ونفس الشيء عند الهضيبي، وكما قيل: «من القلب إلى القلب رسول».

وبعض الأسباب موضوعي، وهو أن عبد الناصر يريد أن يحكم البلد وحده، لا يشاركه أحد في حكمها، ولا ينتقده في رأي، وقد قال ذلك للأستاذ فريد عبد الخالق في إحدى جلسات الحوار معه: أنا أريد أن أضغط على زر فتتحرك البلد من الإسكندرية إلى أسوان، وأضغط على زر آخر فتتوقف البلد.

والإخوان يصرون على عودة الحكم النيابي البرلماني للبلاد، وعودة الحريات العامة، ومنها حرية الصحافة، وقد وعد رجال الثورة بذلك، وجعلوه من مبادئهم الستة التي أعلنوها من أول الأمر.

وكان عبد الناصر يقول للإخوان: تريدون أن يعود حكم الباشوات، وحكم النحاس باشا وزينب الوكيل من جديد؟!.

وكان الأستاذ الهضيبي لا يكلُّ ولا يملُّ من المطالبة بعودة الحياة الديمقراطية والنيابية للبلاد، ويرى أنه لا خلاص لمصر إلا بها، كما كان ينادي باستمرار بتحكيم الشريعة الإسلامية، واتخاذها مصدرًا للتقنين.

كما وجد عنصر جديد زاد العلاقة توترًا، والنار اشتعالًا، وهو الاتفاقية الجديدة التي عقدها عبد الناصر مع بريطانيا، ولم يرها الإخوان محقِّقة لكل آمال البلاد، بعثوا مذكرة مفصلة إلى حكومة الثورة برأيهم في الاتفاقية وملاحظاتهم عليها، وقد أغضب ذلك عبد الناصر، وزاد من تدهور الوضع.

ولم يكن الإخوان وحدهم هم الذين نقدوا الاتفاقية، فقد نقدها كذلك الرئيس محمد نجيب، وكان لا يزال رئيسًا للجمهورية.

وأوعز عبد الناصر ببدء حملة صحفية إعلامية على الإخوان، وعلى الأستاذ وأعوانه خاصة؛ سعيًا لإيجاد معارضة للمرشد داخل الجماعة، مؤيدة منه، ومسنودة من قبله، وهو ما حدث بالفعل.

وزاد الطين بلة: أن الصحف القومية التي كانت تتبع الحكومة ـ وكل الصحف كانت كذلك ـ بعد إلغاء جريدة «المصري» التي كانت لسان حزب الوفد.. هذه الصحف لم تكن تنشر ما يذيعه الإخوان من بيانات وردود على دعاوى الثورة عليهم واتهاماتها لهم، فلجأ الإخوان إلى إصدار نشرات سرية شن حملات نارية على الثورة وزعيمها ورجالها.

وفي هذا الوقت قُبض على بعض الإخوان للتحقيق معهم، وتعرضوا لتعذيب بشع داخل السجن، أذكر منهم الأستاذ محمد المهدي عاكف، ولا أذكر من كان معه.

وازداد الجو سخونة حين اختفى المرشد من القاهرة، ولجأ إلى مخبأ لا يعرفه أحد إلا عدد محدود جدًّا من المقربين منه، وقيل: إن سبب اختفائه أنه كان مهددًا بالاغتيال، ولا أحسب أن هذا هو السبب الحقيقي؛ فقد كان الهضيبي من الرجال الشجعان المتوكلين على الله، الذين لا يخشون شيئًا ولا أحدًا إلا الله.

ظل التوتر الناشئ عن نقد مشروع الاتفاق مكتومًا أثناء غياب الهضيبي الذي كان ما زال في سورية، وأثناء غياب عبد الناصر الذي كان بالسعودية من (١٠ ـ ١٥ أغسطس) لأداء فريضة الحج، ولحضور المؤتمر الذي اقتُرح عقده مؤخرًا ليضم زعماء المسلمين في مكة. وعاد الهضيبي في (٢٢ أغسطس)، وفي اليوم نفسه نظمت حملة صحفية تهاجم فيه موقفه من الاتفاق، واعتمدت في ذلك أساسًا على التشهير بالهضيبي، مفصلة موقفه في (الاتفاق السري) الذي

زعم أنه تفاوض فيه مع الإنجليز في فصل الربيع، والذي ادّعت الصحف أنه أعطى الإنجليز امتيازات أكثر مما أعطتهم الحكومة.

قوبل الهضيبي بترحاب حار في المركز العام مساء ذلك اليوم، وكتب رده الأول والأخير على تهمة المفاوضات السرية، وأرسل به في خطاب إلى عبد الناصر، كما تضمن هذا الخطاب رجاء بالسماح للإخوان المسلمين أن يعبروا عن آرائهم حتى يستطيع الناس أن يحكموا علينا بأفعالنا وليس بأقوالك. ومرة أخرى وزِّع هذا الخطاب في صورة منشور.

وفي اليوم التالي كان اجتماع الثلاثاء الأسبوعي، وكان آخر اجتماع من نوعه، وقد ساده التوتر. وقف الهضيبي أمام جمع غفير، فأعاد ما سبق ذكره يوم الأحد الماضي؛ ليعلم من لم يسمعه ذلك اليوم، مبديًا تفاصيل رحلته وتفسيره للمحادثات مع تريفور إيفانز التابع للسفارة البريطانية (وهذا تم بعلم عبد الناصر وتشجيعه). ثم تناول موضوع توقف الصحيفة الأسبوعية التي كفت عن الصدور بعد عددها الثاني عشر، وأرجع ذلك إلى أن الرقابة جعلت صدور الصحيفة أمرًا غير عملي، وأخذ شعور الإخوان يزداد التهابًا كلما امتد الاجتماع، وبذل الهضيبي قصارى جهده ليحتفظ بالنظام، وتعمد التقليل من خطورة الموقف، مصدرًا أمره في غضب؛ ليسكت الأعضاء الذين كانوا يقفون هاتفين بهتافات عدائية للحكومة، وعلا صوته، فجاوز نبراته المعتادة حين توجه باللوم إلى شاب صاح بهتاف (الموت للخائنين)، ثم أنهى كلمته بعبارات هادئة كان لها أثر كبير على المجتمعين، مقررًا أنه (مستعد لكل ما قد يحدث)، معلنًا تمسكه بمبدأ أساسي للجمعية، وهو أن (الموت في سبيل الله أسمى أمانينا).

كانت تلك آخر مرة رأى فيها الكثير من الإخوان مرشدهم، حتى اعتقل وقدِّم إلى المحاكمة بعد عدة أشهر، واختفى الهضيبي واثنان من أقرب

مستشاريه: حسن العشماوي، وصلاح شادي، إذ إنهما نصحاه بأن يجنب نفسه احتمال الاغتيال أو الاعتقال، وأيدهما آخرون في ذلك، وقد وجد في نفسه استعدادًا للبعد عن مسرح الحوادث، إذ كان ما زال موقنًا تمامًا أن في ذهابه خدمة للقضية وإنقاذًا للموقف، وأقر مكتب الإرشاد غياب المرشد بإعلان أن المرشد في (إجازة). واستغلت الحكومة اختفاء الهضيبي لتشتد في الحملة عليه شخصيًا.

وفي (٤ أكتوبر) ـ كما ذكر ريتشارد ميتشل في كتابه عن (الإخوان) ـ زار يوسف طلعت) الهضيبي في الإسكندرية، وأخبره بوجود الكثير من البلبلة والتلبس الفكري في الصفوف حول أفضلية ما يجب عمله ونوع ذلك العمل، وطلب من المرشد أن يخرج على الناس، حتى يوضح الأمر، ويرفع من الروح المعنوية المتدهورة للجمعية، وقد أجاب الهضيبي أن مكتب الإرشاد يرغب في أن يبقى مختفيًا، كما أخبره أنه أحس بالقلق في الأيام القليلة الماضية من حتمية احتمال وقوع عنف واغتيال، وأضاف: (إذا أردتم القيام بمظاهرة تؤيدها جميع طبقات الشعب، فذلك هو الصواب). ومع ذلك فيجب (أن تقتصر المظاهرة على المطالبة بحرية الصحافة، وبمجلس نيابي، وبعرض اتفاقية الجلاء على الشعب)، كما يجب أن تكون (مظاهرة شعبية)، وأكد: أنه يرفض أي حل أي (عمل إجرامي)، مؤكدًا أنه يعتبر نفسه (بريئًا من دم أي شخص كان). وهنا الوضوح الذي يضاهي شمس الضحى في الظهور، كان جواب المرشد العام الأستاذ الهضيبي عليه رحمة الله، وكان رجلًا مستقيم الفكر والسلوك لا يعرف الالتواء، ولا اللعب بالألفاظ، فلا يمكن أن ينسب إليه أحد من المفترين أنه وافق على أي خطة فيها اغتيال. وقد وضح الصبح لذي عينين.

ثم تطورت الأحداث أكثر بعد (تمثيلية المنشية)، وحكم على الأستاذ الهضيبي بالإعدام ثم خفف الحكم للمؤبد، وظل الرجل صامدًا كالجبل الأشم صابرًا، إلى أن أذن الله بالفرج.

• **الإفراج عن الأستاذ الهضيبي:**

في شـــهر يوليو من ســـنة (١٩٧١م) صدر قرار الإفراج عن الأستاذ حسن الهضيبي المرشـــد العام للإخوان المســـلمين الذي أفرج عنـــه بعفو صحي. واستقبل الإخوان ذلك بالفرح والاستبشار، وزاره الكثيرون مهنئين ومجددين للبيعة والعمل لتبصير الأمة، وإحياء الدعوة، وخدمة الإسلام.

• **أنا والهضيبي:**

أنا لم أختلط بالأستاذ الهضيبي كثيرًا، فقد كنت طالبًا في كلية أصول الدين وفي تخصـــص التدريس، أيام ولايتـــه، ولكني لقيته عدة مـــرات من قريب، ووجدته رجلًا سهلًا سمحًا قريبًا، على غير ما يُظَنُّ به.

أول ما لقيتـــه كان في مدينة المحلة الكبرى، وقـــد أقام الإخوان له حفلًا كبيرًا، كنت من المتحدثين فيه، وكنت شـــابًا متحمّسًا، فكانت كلمتي معبرة عني، وعن شخصيتي في ذلك الوقت.

وعندما تحدث هو بعد خطباء الحفل قال: أنا لا أحسن الخطب الحماسية مثل الشـــيخ القرضاوي، ولكني أنصحكم بكذا وكذا أو بكذا. فكانت كلماته أشبه بتعليمات محددة.

ودعاه رجل المحلة الأول ـ رجل البر والخير ـ عبد الحي باشا خليل إلى بيته، فذهبنا معه، وكان موضع التجلة والاحترام من هؤلاء الأعيان.

وكذلك ذهبنا معه في اليوم التالي لزيارة مصنـــع المحلة، فكان الجميع يحترمونه ويقدرونه.

وزارنا في المحلة مرة أخرى، ومعه ســـيد قطب، وعبد الحكيم عابدين، فتعرفت به أكثر.

وذهبت معه مرتين قبل الثورة إلى مدينتيـــن من مدن مصر: مرة إلى مدينة

كفر الشيخ، ومرة إلى مدينة السويس. وكان معه في كلتا الزيارتين: الشيخ أحمد حسن الباقوري، فقد كان قريبًا منه. وكان الإخوة في قسم نشر الدعوة يريدون أن أحضر مع المرشد والباقوري لأكملهما، فكلاهما يحدث الخاصة، ولا يخاطب الجماهير. وكأن الأستاذ المرشد استراح إلى ذلك، فكان يرحب بوجودي.

وفي عودتنا من رحلة السويس، كنتُ رفيقَهما في السيارة التي حملتهما، وهنا اقتربت أكثر من الأستاذ الهضيبي، واستمعت إلى بعض نكاته، ومنها نكات يعدها بعض الناس خارجة! ويبدو أن الأستاذ الهضيبي ـ من خلال هاتين المرتين ـ كوَّن عنِّي فكرة حسنة.

ففي أوائل الثورة في شهر أغسطس: أُبْلِغْتُ بأن الأستاذ المرشد يريدني أن أذهب لزيارة الإخوة في سورية والأردن، أنا والأخ محمد علي سليم من إخوان الشرقية. وبعد عودتي كتبت له تقريرًا عن الرحلة، ولما لقيته في مناسبة بعدها، قال لي: لقد قرأت تقريرك عن رحلتك إلى بلاد الشام، واهتممت به، وخصوصًا ما كتبته عن (حزب التحرير).

وعندما أنشأ عبد الناصر (هيئة التحرير) لتكون سنده الشعبي، بدلًا من الإخوان، وبدأت تحدث تحديات وصدامات في بعض البلدان، أرسلني الأستاذ المرشد لأجوب مدن الصعيد كلها من الفيوم إلى أسوان، لألقى الإخوان، وأحثهم على أن يتمسكوا بدعوتهم، ولا يذوبوا في أي جماعة أخرى، ولا يصطدموا بأحد يريد أن يجرهم إلى الصدام بوسيلة وأخرى.

وفعلًا قمت بهذه الرحلة، وكانت من أخصب الرحلات، وأكثرها بركة.

وعندما اعتقلنا في المرة الأولى في عهد الثورة في يناير (١٩٥٤م)، وأخذنا إلى العامرية، ثم نقلونا ـ أنا وخمسة من الإخوان ـ إلى السجن الحربي: أنزلونا في سجن (رقم ٤)، وكان فيه الأستاذ الهضيبي وكبار الإخوان، وكانوا يغلقون عنازين في أول الأمر علينا، ثم فتحوها لنا. فكنا نصلي جماعة. وهنا أمرني

الأستاذ أن أؤم الإخوان، وقد أطلت في بعض الصلوات الجهرية، فنصحني أن لا أطيل، مراعاة للكبير والمريض وذي الحاجة.

ثم نُقِل الأستاذ وكبار الإخوان إلى عنبر الإدارة، وكان هذا آخر عهدي به، حتى إني لم أحضر اللقاء الكبير الذي أقيم في المركز العام يوم خروج الإخوان من السجن الحربي، بعد أن اصطلحوا مع عبد الناصر، فقد كنتُ المعتقلَ الوحيد الذي تأخر الإفراج عنه يومًا واحدًا، كما حكيت في الجزء الثاني من مذكراتي[1].

حتى إني حين اعتقلت في المرة الثانية بعد حادث المنشية: بقيت فترة في حجز مباحث المحلة الكبرى، التي تولَّت التحقيق معي، فلم أصل إلى السجن الحربي إلا يوم خروج الأستاذ الهضيبي منه بعد أن صدر الحكم عليه وعلى ستة معه بالإعدام!.

ولما حدث الخلاف بين الأستاذ الهضيبي وجماعة من الإخوان القدامى، على رأسهم الأستاذ البهي الخولي، والمشايخ: الغزالي وعبد المعز عبد الستار وسيد سابق ومحمد جودة وآخرون، كنت ـ أنا وأخي العسال والدمرداش وآخرون ـ أقرب إلى صف المشايخ. فلما وقعت الواقعة، انضممنا إلى ركب الجماعة، وحوكمنا مع من حوكموا، وعُذِّبْنا مع من عذبوا، ونرجو أن يكون ذلك في ذات الله تعالى، وأن لا نحرم أجره عند الله.

لا يختلف اثنان من الإخوان ـ حتى من المعارضين ـ في أن الأستاذ الهضيبي مسلم عظيم، وأنه من الذين أخلصوا دينهم لله، فليس من المتاجرين بالدين ولا بالدعوة، ولا يريد من وراء عمله للإسلام جزاء ولا شكورًا، وأنه رجل نظيف لا يماري أحد في نظافته، وأنه لم يسعَ إلى قيادة الإخوان، ولكن الإخوان هم الذين سعوا إليه، وأنه لم يستفد لنفسه ولا لأسرته من

---

(١) ابن القرية والكتاب (٤٢/٢ ـ ٥١).

وراء الدعوة شيئًا ماديًا قط، إلا ما أصابه من لأواء في سبيل الله، وأنه رجل صلب لا يداهن في دينـــه، ولا يجامل أحدًا في أمر الدين، وهو يقول الحق ولا يخشـــى فيه لومة لائم، وأنه أوذي في الله ـ مع كبر سنه ـ فما وهن ولا ضعف ولا استكان، ولا طأطأ رأســـه لمخلوق، وأنه كان يعامل عبد الناصر ورجال الثورة بعزة واستعلاء، معاملة الند للند، والسيد للسيد، اعتزازًا منه بأنه يمثل دعوة الإسلام.

ولعل هذه النقطة الأخيـــرة هي التي جعلت بعض الإخـــوان يقولون: إن موقف الأســـتاذ الهضيبي من رجـــال الثورة عامة، ومـــن عبد الناصر خاصة، ومعاملتهم باستعلاء وربما بازدراء! هي التي ولَّدت هذه الجفوة بين الطرفين، التي انتهت إلى خصومة، ثم انتهت إلى صراع بين الطرفين. ويقولون: لو كان حســن البنا في موقف حســـن الهضيبي لكان له موقف آخر، ولاستطاع برفقه وتلطفه ولين طبعه: أن يجذبهم إلى ســـاحته، وأن يأخذهم بالتي هي أحسن، وأن يهتدي بقول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولكنه نفر منهم، ونفروا منه، وأغلظ عليهم، وأغلظوا له، وساء ظنه بهم، وساءت ظنونهم بالجماعة.

هكذا رأيت بعض الإخوان يفكرون، وسمعتهم يتكلمون، فهل هذا المنطق سليم؟ وأن موقف الأستاذ الهضيبي هو السبب الأول فيما جرى؟! ومن يدري ماذا كان سيفعل حسن البنا لو كان حيًا، فهذا علمه عند الله، ولا يملك أحد أن يقول غيره في ذلك ما لم يقل.

على أن الذي يبدو لي من تسلسل الأحداث، ومما أظهره عبد الناصر من مكر وتوجهات: أن الرجل لم يكن يريد لأحد ـ لا الإخوان ولا غيرهم ـ أن يشـــاركه في الحكم، ولو بالمشـــورة والتســـديد. وقد أعلن في الأيام الأولى

للثورة: أنها مستقلة ولا وصاية لأحد عليها.. وقال بصراحة للإخوان: إنه يريد أن يضغط على زر فتتحرك مصر من الإسكندرية إلى أسوان، ويضغط على زر آخر، فتتوقف مصر من الإسكندرية إلى أسوان!.

كان في إهـــاب عبد الناصر (دكتاتور) يريد أن يســـتبد بالأمر، ولا يكون لأحد معه رأي ولا قول، إلا من كان يسير في ركبه، ويدور في فلكه. ومثل هذا الطاغية المتجبر في الأرض: لا يمكن أن ينســـجم مع أي رجل ينصح له، أو يقول له كلمة حق، أو يأمره بمعروف، أو ينهاه عن منكر، سواء أكان حسنًا البنا أم حسنًا الهضيبي.

- **الأستاذ الهضيبي والحفاظ على الخط الفكري للجماعة:**

ذاق الإخوان في سجون عبد الناصر الويلات، وألهبت ظهورهم السياط، وظهرت ظاهرة جديدة ليست من أدبيات الإخوان ولا فكرهم ألا وهي (الغلو في التكفير)، والتفاف طائفة ـ جلهم من الشباب الحديث السن الحديث العهد بالدعوة ـ حول هذا الفكـــر المتطرف، إلى حد جعلهـــم يرفضون الصلاة مع إخوانهم في العقيدة والفكر، وشركائهم في الاضطهاد والمحنة، وأساتذتهم في الدعوة والحركة.

ولا يصعب على الدارس أن يلمس ســـبب هذا التطـــرف، فهو يكمن في المعاملة الوحشية التي عومل بها السجناء والمعتقلون، والتي لا تتفق مع دين ولا خلق ولا قانون ولا إنسانية.

لقد اقتيد هؤلاء الشباب البرآء من بيوتهم إلى ساحات التعذيب، وصب عليهم من ألوان القهر والإذلال والتنكيل ما لا يكاد يحتمله بشر، لقد تفننوا في إيذاء الأبـــدان، وإهانـــة الأنفس، والاســـتخفاف بالعقـــول، وتحطيم الشخصية، والاستهانة بالآدمية، إلى حد يعجز القلم عن تصويره، ويتوقف العقل في تصوره.

ولم هذا كله؟ إنهم ـ في نظر أنفسهم على الأقل ـ لم يقترفوا ذنبًا؛ إلا أن يقولوا: ربنـــا الله! لم يقترفوا في حـــق أحد جرمًا، ولم يفكروا في شـــر، ولم يجتمعوا على معصية وفجور. كل ما فعلوه أنهم آمنوا بالإســـلام نظام حياة، والتزموا به فكرًا وسلوكًا، واعتبروا الدعوة إليه وإلى تطبيق شرعه واجبًا يأثمون بتركه، والتقصير فيه، فلماذا يشردون ويعذبون، وينكل بهم أشد التنكيل؟!.

وزاد الطين هنا بلة جملة أمور:

ـ أن الفســـقة والفجار والملاحدة واللادينيين طلقاء أحرار، لا يحاسبهم أحـــد، ولا يعاقبهم أحد، بـــل وثبوا على أجهـــزة الإعـــلام والتوجيه وغيرها يوجهونها كما يشاؤون إلى الكفر والفسوق والعصيان.

ـ وأن الذين يعذبونهم وينكلون بهم لا دين لهم ولا تقوى، بل كان منهم من يسخرون من تدينهم، ومنهم من ظهر على لسانه من الكلمات ما يصل به إلى الكفر البـــواح، حتى قال واحد منهم: هاتوا ربكـــم وأنا أحطه في زنزانة! تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

ـ وأن بعض الكتب الإسلامية الحديثة التي كتبت في هذه الظروف نفسها: كانت تحمل بذور هذا التفكير، وتدفع إليه دفعًا، بما تتسم به من قوة التعبير، وحرارة التأثير.

وهكذا احتضنت هذه الفئة هـــذا الفكر المطبوع بطابـــع الغلو والعنف، والذي ينظر إلى الناس ـ أفرادًا ومجتمعات ـ من وراء منظار أسود قاتم.

وكان السؤال الأول الذي طرح نفسه: ما حكم هؤلاء الناس الذين يعذبوننا بقســـوة وجراءة؟ أو على الأصح: ما حكـــم من وراءهم مـــن الحكام الذين يأمرونهم بتعذيبنا إلى حد الموت، لا لشيء إلا لأننا ندعوهم إلى الحكم بما أنزل الله؟.

وكان الجواب عندهم جاهزًا، أخذوه من ظاهر بعض النصوص: من آيات القرآن مثل آية المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ومن أحاديث الرسول ﷺ، كالأحاديث التي أطلقت الكفر على بعض المعاصي. ولم يقف الأمر عند هذا الحد: فإن الذين لم يوافقوهم على هذا الفهم للنصوص التي استدلوا بها، وقالوا: إنها مؤوَّلة عند أهل السنة والجماعة لاصطدامها بأدلة وقواعد أخرى أقوى منها، وأظهر في الدلالة ـ هؤلاء الذين لم يوافقوهم اتهموهم أيضًا بالكفر وقالوا: من لم يكفر هؤلاء الحكام ومن والاهم فهو كافر؛ لأن الشك في كفر الكفار يُعدّ كفرًا، كمن شك في كفر المشركين واليهود والنصارى والمجوس وأمثالهم.

ومن هنا بدأ نطاق التكفير يتسع، لا ليشمل من وَالى الحكام أو رضي بحكمهم فقط، بل من سكت عن تكفيرهم، وهذا يعم جمهور الناس.

وقد اصطدم فكر هذه الفئة القليلة بفكر الجمهرة العظمى للمعتقلين أو المسجونين من الإخوان المسلمين، وبخاصة القدامى منهم، الذين تتلمذوا على حسن البنا مؤسس الحركة، وواضع دعائمها الفكرية والتنظيمية الأولى، وقد كان منهجه يتميز بالاعتدال والرفق، وعلى هذا ربى أنصاره وأعوانه.

وكان مما أخذه على بعض الجماعات الدينية في مصر سوء رأي بعضها في بعض، إلى حد قد يصل إلى التكفير في بعض الأحيان. لهذا نص في الأصول العشرين من رسالة التعاليم ـ وهي الأصول التي يجب أن يفهم الإسلام في حدودها ـ على هذا الأصل بهذه العبارات الواضحة: «لا نكفر مسلمًا أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما برأي أو معصية، إلا إذا أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب العربية بحال، أو عمل عملًا لا يحتمل تأويلًا غير الكفر».

وقد بلغت القضية مرشد الإخوان المسلمين الثاني، الرجل الصابر الفقيه الأستاذ حسن الهضيبي رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو في سجنه، فأنكر هذا الاتجاه، وأعلن مجافاته لخط الجماعة وفكرتها، وبين في وضوح أن مذهب الإخوان في هذه القضية وغيرها هو مذهب أهل السنة والجماعة، كما قال كلمته الحكيمة المعبرة: نحن دعاة لا قضاة.

وهذه الكلمة الوجيزة التي أصبحت بعد ذلك عنوانًا لكتاب كامل في هذا الموضوع، إنما هي تعبير عن منهج إيجابي عملي، يجب أن يتضح للعاملين للإسلام الغيورين عليه: أنهم دعاة لا قضاة.

وفرق كبير بين القاضي والداعي: **القاضي** يجب أن يبحث عن حقيقة الناس حتى يحكم لهم أو عليهم، ولا بد له من أن يصفهم ويعرف مواقفهم ليقضي لهم بالبراءة أو العقوبة، ثم إن موقف القضاء يجعلنا ننظر للناس على أنهم متهمون، والأصل أنهم برآء.

أما **الداعي** فهو يدعو الجميع، ويبلغ الجميع، ويعلّم الجميع، إنه يصدع بكلمة الإسلام يدعو إليها كل الناس، من كان ضالًا فليهتد، ومن كان عاصيًا فليتب، ومن كان جاهلًا فليتعلم، وحتى من كان كافرًا فليسلم.

والداعي لا يعمل على عقوبة المخطئ، بل يعمل على هدايته، ولا يتعقب المرتد ليقتله، بل يتتبعه ليعلّمه وليرده إلى حظيرة الإسلام.

وكان لموقف الإخوان ومرشدهم أثره في تقليص دائرة المنتمين إلى التطرف أو التكفير، وانفضاض الكثيرين من حولهم، وإن بقي عدد منهم ممن لم ترسخ أقدامهم في الدعوة، ولم تتأصل جذورهم فيها، بل يعدون جددًا عليها، فمعظمهم من الجيل الذي يسمونه (جيل الثورة).

• **وفاة الأستاذ الهضيبي**

وفي موسم الحج سنة (١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م) خرج الأستاذ الهضيبي لأداء شعيرة الحج إلى بيت الله الحرام، لينضم إلى الآتين من كل فج عميق ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾ [الحج: ٢٨].

وكان من المنافع المشهودة في ذلك الموسم أن لقيه الإخوان الذين قدموا من أقطار شتى من أنحاء العالم، وسُرَّ الأستاذ بهم، وسُرُّوا به، وانسكبت دموع الأعين؛ فرحًا بلقاء الإخوة بعضهم لبعض، ولقاء القائد للجنود، في البلد الحرام، والشهر الحرام.

ولم يقدر لي أن أذهب إلى الحج في هذا الموسم؛ إذ لم يكن لديَّ عِلْم بأن الأستاذ على نية السفر إلى الحج، وهكذا قدر الله أن لا أرى المرشد في الحج، ولا ما بعد الحج، حتى وافاه الأجل بعد رجوعه في شهر أكتوبر. وأوصى بأن يُدفَن في (مقابر الصدقة)، وهو مَن هو مكانة ومنزلة في المجتمع عامة، وفي الإخوان خاصة.

• **مقارنة بين البنا والهضيبي:**

كانت شخصية الأستاذ الهضيبي مختلفة تمام الاختلاف عن شخصية الأستاذ البنا، التي تتلمذ عليها الإخوان، وعايشوها، وأخذوا عنها طوال عشرين عامًا، عاشها الإمام الشهيد مرشدًا ومربيًا وموجِّهًا للجماعة.

ـ كانت شخصية البنا شخصية المعلِّم الداعية، الذي يجيد الخطبة إذا خطب، والمحاضرة إذا حاضر، والمقالة إذا كتب، والتأليف إذا ألَّف، والحديث إذا حدَّث. وكان يأسر سامعه بحسن حديثه، وحلو نكاته. وهو الذي شد هذه الجموع إلى الله، وجنَّدهم لخدمة الإسلام.

كانت شخصية الهضيبي شخصية القاضي الذي يستمع كثيرًا، ويتكلم قليلًا، فإذا تكلم كان كلامه حُكْمًا صارمًا، يجب على الآخرين الإذعان

له، وتنفيذه بكل دقة، ولم تكن لديه مؤهلات الخطابة والمحاضرة والتصنيف.

ـ كان البنا ذا ثقافة واسعة، تكونت لديه من الدراسة في دار العلوم، ومن قراءاته الخاصة الطويلة والمتنوعة؛ فهو عالم متبحر في علوم اللغة العربية وآدابها، وفي العلوم الشرعية: العقيدة والفقه والأصول والتفسير والحديث والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، وله إلمام جيد بالعلوم الاجتماعية.

وكان الأستاذ الهضيبي حقوقيًا متميزًا، متفوقًا في علم القانون وفروعه، قارئًا جيدًا في علم الفقه، ولا سيما في (المحلَّى) لابن حزم.

ـ كان حسن البنا رجلًا (شعبيًا) قريبًا من الناس، يلقاه العامل والفلاح وابن القرية الفقير، فلا يشعر بأنه يكلم إنسانًا من طبقة فوق طبقته، بل يندمج معه، ويحس بأنه من البنا، وأن البنا منه.

وكان حسن الهضيبي ـ بحكم منصبه ودرجته الإدارية والمالية ورتبة «البكوية» التي يحملها ـ رجلًا (أرستقراطيًا) كما يقولون، لا تكلُّفًا منه، ولا تعاليًا على أحد، لكن هكذا شاءت له الأقدار أن يكون!.

ـ كان البنا صاحب قلب حي، وعاطفة جياشة، وكان إذا لقي الإخوان كل أسبوع في (حديث الثلاثاء) يبدأ حديثه بما يسميه (عاطفة الثلاثاء)، يوقد فيها جذوة الإيمان والربانية في الصدور، وشعلة الحب والأخوة في القلوب. فإن الحب في الله من أوثق عرى الإيمان.

وكان الهضيبي صاحب عقل يقظ، يزن الأمور والأشخاص والأحداث والمواقف بميزان دقيق، ولم يكن للعواطف عنده كبير اهتمام بحكم تكوينه ومسار حياته.

ـ كان أقرب الناس إلى حسن البنا في الجماعة مكوَّنين من طبقات شتى، من علية القوم، ومن أواسط القوم، ومن فقراء القوم، كما يظهر في تكوين مكتب الإرشاد العام الذي يقود الجماعة.

وكان أقرب الناس إلى حسن الهضيبي من كانوا في مثل طبقته، من العِلْية غالبًا، وإن لم يبعد الآخرين أو يطردهم، ولكن كما قيل: شبيه الشيء ينجذب إليه، وإن الطيور على أشكالها تقع. هذه سُنة ماضية.

واختلاف ما بين الشخصيتين للمرشدين الأول والثاني كان له أثر ـ على المدى الطويل ـ في أنفس بعض الإخوان. وربما كوَّن بعضهم لنفسه فكرة غير صحيحة عن المرشد الثاني، وأنه رجل متكبر أو متعال على غيره.

• **بين الهضيبي والغزالي:**

وربما تساءل بعض الإخوة هنا عن موقف الشيخ الغزالي وما كان من خصومة بينه وبين الأستاذ الهضيبي، اشتد لهيبها بعد فصل الشيخ من الجماعة، فأطلق لقلمه العنان، فقال ما قال. وكان ذلك من آثار الفتنة التي بذر عبد الناصر بذورها بين الإخوان بعضهم وبعض. ومما هيج الشيخ أكثر، واستثار غضبه أن بعض المتحمسين من الإخوان تحداه، وهدَّده بالقتل إن تكلم أو كتب.

ومع هذا حين تبين له طغيان عبد الناصر، وسوء موقفه من الإسلام، ومن دعوة الإخوان، وسمع ما سمع عن التنكيل والتعذيب الذي تجرع مرارته إخوانه في السجون والمعتقلات، وعن صلابة الأستاذ الهضيبي وثباته في وجه الجبابرة، وأنه لم يحن لهم رأسًا، ولم يوطئ لهم ظهرًا.. غيَّر موقفه من المرشد الهضيبي، ونوه بموقفه، وأشاد بإيمانه ورجولته. وحين أفرج عنه، سارع بالذهاب إلى منزله، ليهنئه ويصافحه ويعانقه بحرارة وإخلاص، وقد قابله المرشد بنفس الحرارة، وروح الأخوة التي كانت دائمًا إحدى السمات الأولى المميزة لعلاقات الإخوان بعضهم ببعض.

بعد أن كتب الغزالي ما كتب من مقالات ـ في فترة الغضب بعد فصله من الجماعة ـ رأى أن يطوي بعضها فلا ينشره في كتاب، ونشر بعضها ثم حذفه، بعد أن هدأت نفسه، واستجابت لنصح بعض إخوانه.

وأبقى بعض الأشياء ـ على ما فيها من آثار الحدة والغضب ـ للتاريخ، ومع هذا عقب في إحدى الحواشي عليها بقوله: «في هذه الصفحات مرارة تبلغ حد القسوة، وكان يجب ألا يتأدى الغضب بصاحبه إلى هذا المدى، بيد أن ذلك ـ للأسف ـ ما حدث. وقد عاد المؤلف إلى نفسه يحاسبها وتحاسبه في حديث أثبته آخر هذا الباب»[1].

ثم عاد آخر الباب إلى الحديث عن الأستاذ الهضيبي رَحِمَهُ اللَّهُ وأكرم مثواه، فقال: «إنه ما ادعى لنفسه العصمة، بل من حق الرجل أن أقول عنه: إنه لم يسع إلى قيادة الإخوان، ولكن الإخوان هم الذين سعوا إليه، وإن من الظلم تحميله أخطاء هيئة كبيرة مليئة بشتى النزعات والأهواء. ومن حقه أن يعرف الناس عنه أنه تحمل بصلابة وبأس كل ما نزل به، فلم يجزع ولم يتراجع، وبقي في شيخوخته المثقلة عميق الإيمان، واسع الأمل، حتى خرج من السجن.

الحق يقال، إن صبره الذي أعز الإيمان، رفعه في نفسي، وإن المآسي التي مرت به وبأسرته لم تفقده صدق الحكم على الأمور، ولم تبعده عن منهج الجماعة الإسلامية منذ بدأ تاريخنا.. على حين خرج من السجن أناس لم تُبق المصائب لهم عقلًا.

وقد ذهبت إليه بعد ذهاب محنته، وأصلحت ما بيني وبينه، ويغفر الله لنا جميعين» اهـ.

---

(١) حاشية (ص٢١٦) «من معالم الحق».

كان مما هز الشيخ الغزالي وقدره من مواقف للأستاذ الهضيبي أنه أوصى في مرض موته أن يدفن في مقابر الصدقة التي يدفن فيها الفقراء والغرباء! وهو مَن هو منزلة ومنصبًا وجاهًا. فهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الرجل من الله بمكان أي مكان! ولم يكن من عبّاد المظاهر التي فتنت الكثيرين، ولا أزكيه على الله.

• رحم الله حسن الهضيبي وغفر له، وآجره أجر المجتهدين على ما أخطأ فيه، وجزاه عن دينه وأمته خير ما يجزي الدعاة الصادقين الذين صبروا وصابروا ورابطوا، والذين أوذوا في أنفسهم وأهليهم وإخوانهم، ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

* * *



الإمام محمد أبو زهرة

العلَّامة الفقيه المفسر المؤرخ الداعية

(١٣١٥ ـ ١٣٩٤هـ = ١٨٩٨ ـ ١٩٧٤م)

رغم حبِّي وإجلالي للشيخ، وأنه بَلَدِيِّي، فهو مثلي من أبناء مركز المحلة الكبرى، محافظة الغربية، إلا أنه لم يُتَح لي أن ألقاه إلا مرَّة واحدة، في مدينة البيضاء في ليبيا سنة (١٩٧٢م)، في ندوة التشريع الإسلامي، التي دُعي إليها عددٌ من العلماء والفقهاء من أنحاء الوطن العربي، وكان الشيخ بحقٍّ نجم الندوة الساطع، بتعليقاته الدقيقة، واستدراكاته العميقة، التي كان يتدفَّق بها كالبحر، ويتألَّق فيها كالبدر، وقد تعرَّف عليَّ في هذه الندوة، وانعقدت بيني وبينه مودَّة، لم تطُل، فقد اختاره الله إلى جواره بعد وقت قريب، رحمه الله تعالى، وغفر له، وتقبَّله في الصَّالحين.

عرَفت الشيخ (أبو زهرة) أستاذًا للشريعة في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، مع رفيقيه العلَّامتين: الشيخ علي الخفيف، والشيخ عبد الوهاب خلَّاف.

وعرَفناه عضوًا عالي الصوت في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، منذ إنشائه.

وعرَفناه مؤلِّفًا موسوعيًّا في جوانب مختلفة من الثقافة الإسلامية، فألَّف في العقائد ومقارنة الأديان (محاضرات في النصرانية)، وألَّف في الخطابة والجدل، وألَّف في السيرة النبوية (خاتم النبيين)، وألَّف في علوم القرآن، وفي تفسير القرآن، تفسيره في تسعة مجلدات، الذي انتهى فيه إلى سورة النمل، وألَّف في تاريخ المذاهب الإسلامية، وفي أصول الفقه، والأحوال الشخصية، والجريمة والعقوبة، وفي الزكاة والمجتمع الإنساني في ظلِّ الإسلام، وغيرها من جوانب الفقه.

واشتهر بكتبه عن الأئمة الفقهاء: الأئمة الأربعة، والإمام الصادق، والإمام زيد، وابن حزم، وابن تيمية: حياتهم وعصرهم وآرائهم وفقههم. وقد أبدع فيها وأجاد، وأصبحت مراجع معتمدة للباحثين في موضوعاتها من أنحاء العالم.

لم يشتهر الشيخ أبو زهرة كثيرًا في الأوساط العلمية بالفتوى، كما اشتهر الشيخ شلتوت مثلًا، ولم يقُم هو بجمع ما نُشر له من فتاوى على صفحات مجلة (لواء الإسلام)؛ لأنها في الواقع كانت في معظمها إجابات شفهية مقتضبة تحتاج إلى تنقيح وتحرير.

وكانت الندوات هي الميدان الذي يصولُ فيه الشيخ ويجول، ويُبدي رأيه بكلِّ صراحة، ويناقش آراء الآخرين، ويعارضها بكلِّ حرية، بشخصيته القوية، وقدرته على الإقناع، وبتأثيره، وصوته الجهوري، في مجلس يضمُّ نخبة من أهل العلم، يصدرون بعد البحث والمناقشة عن رأي واحد، هو أقربُ ما يكون إلى الاجتهاد الجماعي الذي ندعو إليه، والذي رأيناه يتجسَّد أحيانًا في المجامع الفقهية والعلمية.

- **رأيه في الرجم، وحواري معه:**

وفي ندوة التشريع الإسلامي في مدينة البيضاء بليبيا، فجر الشيخ أبو زهرة قنبلة فقهية، هيجت عليه أعضاء المؤتمر، حينما فاجأهم برأيه الجديد.

وقصة ذلك: أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وقف في المؤتمر، وقال: إني كتمت رأيًا فقهيًّا في نفسي من عشرين سنة، وكنت قد بحت به للدكتور عبد العزيز كامل، واستشهد به قائلًا: أليس كذلك يا دكتور عبد العزيز؟ قال: بلى. قال الشيخ: وآن لي أن أبوح بما كتمته، قبل أن ألقى الله تعالى، ويسألني: لماذا كتمت ما لديك من علم، ولم تبينه للناس؟.

هذا الرأي يتعلق بقضية (الرجم) للمحصن، في حد الزنى، فرأى أن الرجم كان شريعة يهودية، أقرها الرسول في أول الأمر، ثم نسخت بحد الجلد في سورة النور.

قال الشيخ: ولي على ذلك أدلة ثلاثة:

الأول: أن الله تعالى قال في سورة النساء: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]. والرجم عقوبة لا تنصف، فثبت أن العذاب في الآية هو المذكور في سورة النور: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

والثاني: ما رواه البخاري في (جامعه الصحيح): عن عبد الله بن أوفى: أنه سئل عن الرجم؛ هل كان بعد سورة النور أو قبلها؟ فقال: لا أدري[1].

فمن المحتمل جدًّا أن تكون عقوبة الرجم قبل نزول آية النور التي نسختها.

الثالث: أن الحديث الذي اعتمدوا عليه، وقالوا: إنه كان قرآنًا، ثم نسخت تلاوته، وبقي حكمه: أمر لا يقره العقل، لماذا تنسخ التلاوة والحكم باق؟ وما قيل: إنه كان في صحيفته فجاءت الداجن وأكلتها: لا يقبله منطق.

وما إن انتهى الشيخ من كلامه حتى ثار عليه أغلب الحضور، وقام من قام منهم، ورد عليه بما هو مذكور في كتب الفقه حول هذه الأدلة. ولكن الشيخ ثبت على رأيه.

وقد لقيته بعد انفضاض الجلسة، وقلت له: يا مولانا، عندي رأي قريب من رأيك، ولكنه أدنى إلى القبول منه. قال: وما هو؟.

قلت: جاء في الحديث الصحيح: «**البكر بالبكر: جلد مئة ونفي سنة، والثيب بالثيب: جلد مئة، ورجم بالحجارة**»[2].

قال: وماذا تأخذ من هذا الحديث؟ قلت: تعلم فضيلتك أن الحنفية قالوا في الشطر الأول من الحديث: الحد هو الجلد، أما التغريب أو النفي، فهو سياسة وتعزير، موكول إلى رأي الإمام، ولكنه ليس لازمًا في كل حال.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٨١٣)، ومسلم (١٧٠٢)، كلاهما في الحدود.

(٢) رواه مسلم في الحدود (١٦٩٠)، وأحمد (٢٢٦٦٦).

وعلى هذا نقول في الشق الثاني من الحديث: إن الحد هو الجلد، والرجم سياسة وتعزير، مثل التغريب والنفي، فنثبت ما جاءت به الروايات من الرجم في العهد النبوي، فقد رجم ﷺ يهوديين[١]، ورجم ماعزًا، ورجم الغامدية[٢]، وبعث أحد أصحابه في قضية امرأة العسيف، وقال له: «**اغدُ يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها**»[٣]. وكذلك ما روي: أن عمر رجم من بعده[٤]، وأن عليًا رجم كذلك[٥]. ولكنا نفسر هذه الوقائع على أنها لون من التعزير والسياسة الشرعية.

ولكن الشيخ لم يوافق على رأيي هذا، وقال لي: يا يوسف، هل معقول أن محمد بن عبد الله الرحمة المهداة، يرمي الناس بالحجارة حتى الموت؟ هذه شريعة يهودية، وهي أليق بقساوة اليهود.

وكان رأي الشيخ الزرقا مع الجمهور، ولكنه يخالف الجمهور في تعريف (المحصن) فعندهم: أن المحصن من حصل له الزواج، وإن فارقته زوجه بطلاق أو وفاة، وبات في واقع الحال لا زوجة له، وعند الزرقا: المحصن: من له زوجة بالفعل. وهذا رأي الشيخ رشيد رضا ذكره في (تفسير المنار).

توقفت طويلًا عند قول الشيخ أبو زهرة عن رأيه: أنه كتمه في نفسه عشرين عامًا: لماذا كتمه، ولم يعلنه في درس أو محاضرة أو كتاب أو مقالة؟ لقد فعل ذلك خشية هياج العامة عليه، وتوجيه سهام التشهير والتجريح إليه، كما حدث له في هذه الندوة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المحاربين من أهل الكفر والردة (٦٨٤١)، ومسلم في الحدود (١٦٩٩)، عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم في الحدود (١٦٩٥)، وأحمد (٢٢٩٤٢)، عن بريدة بن الحصيب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الوكالة (٢٣١٤)، ومسلم في الحدود (١٦٩٨)، عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٦٨٢٩)، ومسلم (١٦٩١)، كلاهما في الحدود.

(٥) رواه البخاري في الحدود (٦٨١٢).

وقلتُ في نفسي: كم من آراء واجتهادات جديدة وجريئة تبقى حبيسة في صدور أصحابها، حتى تموت معهم، ولم يسمع بها أحد، ولم ينقلها أحد عنهم!.

ولذلك حين تحدثت عن معالم وضوابط الاجتهاد المعاصر، في كتابي (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية) جعلت منها: أن نفسح صدورنا للمخطئ في اجتهاده، فبهذا يحيا الاجتهاد ويزدهر، والمجتهد بشر غير معصوم، فمن حقه ـ بل من الواجب عليه ـ أن يجتهد ويتحرى ويستفرغ وسعه، ولا يلزمه أن يكون الصواب معه دائمًا، وما دامت صدورنا تضيق بالرأي المخالف للجمهور، فلن ينمو الاجتهاد، ولن يؤتي ثمراته.

على أن ما يحسبه بعض الناس خطأ، قد يكن هو الصواب بعينه، وخصوصًا إذا تغير المكان والزمان والحال.

ويبدو أن هذه الحملة الهائجة المائجة التي واجهها الشيخ أبو زهرة، جعلته يصمت عن إبداء رأيه، فلم يسجله مكتوبًا بعد ذلك. وربما لأن الشيخ الكبير لم يعمر بعد ذلك طويلًا، فقد وافته المنية في شهر أبريل سنة (١٩٧٤م)، عليه رحمة الله ورضوانه.

وقد رأيت الشيخ نسب هذا الرأي في كتابه (العقوبة) إلى الخوارج، واستدل لهم بما ذكره في ندوة ليبيا[1]، وأعتقد أن ذلك كان أسبق من الندوة.

• **في زيارة القذافي:**

بعد أن انتهت الندوة، قالوا لنا: أنتم مطلوبون للقاء العقيد القذافي قائد الثورة في مدينة طرابلس، فاستعدوا للذهاب إلى بني غازي، ومن هناك، سنأخذنا طائرة خاصة إلى العاصمة طرابلس، وقد وصلنا في حوالي العاشرة

---

(١) العقوبة، ص ٩٣ وما بعدها، دار الفكر العربي، وينظر: زهرة التفاسير (١٠/٥١٣٩ ـ ٥١٤٢)، دار الفكر العربي.

مســـاء، ثم نقلنا إلى مقر مجلس الثورة، لننتظر نحو نصف ساعة، حتى حضر العقيد، ومعه اثنان من القادة، أحدهما يجلس عن يمينه، وهو عبد السلام جلود نائبه، والثاني: لا نعرفه.

وكان يصحبه بعض المدنيين، منهم الأســتاذ إبراهيــم الغويل المحامي، ومنهم صحفي يساري، اسمه: صادق نيهوم، كان كأنه المتحدث باسمه، وهو علماني جريء طويل اللسان.

وقد أثار القذافي موضوعات شــتى، وتطرق الحديث إلى العلماء ودور العلماء، وعزلة العلماء عن المشــاركة في توجيه المجتمع، وتحدث الإخوة المشايخ: أن العلماء لا يتأخرون عن القيام بواجبهم، إذا فتح الباب لهم، وأتيح لهم أن يبينوا للناس شرع الله.

وقلت في ذلك: إن العلماء مستعدون أن يكونوا خدمًا لمن يخدم الشريعة.

وهنا قال الشيخ أبو زهرة: إننا لسنا خدمًا لأحد كائنًا من كان.

قلت: يا مولانا، إننا خدم لمن يخدم الشريعة، فخدمتنا في الحقيقة إنما هي للشريعة.

قال: نحن سادة ولسنا خدمًا!.

وهكذا كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ معتزًّا بنفسه وبعلمه، ولا يفرط في كرامة العلم، ولا بأدنى كلمة.

• وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال وبكل ما يحمد عليه توفي الشيخ سنة (١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م) تاركًا تراثًا خالدًا وذكرى عطرة ومواقف مشرفة.

رحمه الله رحمة واســعة، وجعله مــع الذين أنعم الله عليهــم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

* * *



١٤ الشيخ محمد الأودن

أستاذ الحديث بكلية أصول الدين

(حوالي ١٣١١ ـ ١٣٩٦هـ = ١٨٩٤ ـ ١٩٧٦م)[١]

من شيوخي الذين أحبُّهم وأعتزُّ بهم، وأدعو لهم: الشيخ الكبير، الداعية المربي الحبيب، الشيخ محمد حسن الأودن، الرجل الربَّاني، الذي كان يتدفَّق إيمانًا وروحانية، الأستاذ في كلية أصول الدين، والذي لم أشرف بتدريسه لي في الكلية أي مادة من المواد العلمية التي تـدرَّس في الكلية، وخصوصًا أنه كان في أواخر مدته.

ولكني تعرفت على الشـيخ الكريم حين زرته في بيته، في حي الزيتون بشرق القاهرة، وفي بيته الذي كان في أحد أطراف المدينة، ليكون معه حديقة قابلة للغرس والزرع، فيبذر فيها الحب، ويغرس فيها الزرع، وبعد ذلك ينتظر الحصاد والقطاف. ومن لم يتعب في الغراس، فسيندم يوم الحصاد.

زرت الشيخ أول مرة أنا وأخي الشـيخ عبد الودود شلبي، وقد درَّس له الشيخ وعرفه، فأصبح يزوره بين الحين والحين، وتعرفتُ إلى الشيخ وأعلمته أني أتقرب إلى الله تعالى بحبه، وأقول كما يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

أحبُّ الصالحين ولسـتُ منهم ... عسـاني أن أنالَ بهم شـفاعة
وأكرهُ مَن بضاعتُـه المعاصي ... وإن كُنَّـا سـواءً فـي البضاعة

فرح الشـيخ بزيارتي، ودعاني إلى أن أكرِّرها، فهو يحب الطلبة المتفوِّقين، ويرجو الخير للأمة فيهم، خصوصًا إذا كان تفوُّقهم وتبحرهم في العلوم الإسلامية.

---

(١) ذكر التاريخ الهجري للميلاد والوفاة بالتقريب.

وكان الشيخ يقول: إني كلما وجدت شابًّا نابهًا معلَّق القلب بالإسلام، حمدت الله تعالى، ودعوت لهذا الشاب أن يحفظه الله للإسلام، وأن يحميه من شياطين الإنس والجن، وأن يحفظه لدعوة الإســـلام، ولتربية الشباب على الإسلام.

ويقول الشـــيخ: إن لدينا من شباب المســـلمين في الأزهر وفي المدارس الأخرى من المدنيين ومن العســـكريين مَن إذا مُلئَت رؤوسهم بالعلم النافع، وقلوبهم بالإيمان الكامل، وحياتهم بالدعوة الصالحة إلى الإسلام الحق كما أنزل الله به القرآن، وكما بعث الله به محمدًا ﷺ، وكما فهمه الصحابة الكرام، وكما دعوا إليه الأمم المختلفة التي دخلت مختارة إلى الإســـلام، فطَعِمت به من جوع، وآمنت به من خوف، واجتمعت به من فرقة، وتحابَّتْ به بعد عداوة، وغنيت به بعد فقر، وعزت به بعد ذل. وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس ـ فسيجعل الله على أيديهم الخير الكثير للوطن وللأمة وللبشرية أجمع.

قلت له: يا مولانا، إذا هيأ الله تعالى الشيوخ الأفاضل المربِّين، فسيجدون الشباب الذين يتنافسون عليهم، ولن يُعدم الخير في هذه الأمة، وفي الحديث: «**مثل أمتي مثل المطر، لا يُدرى: أوله خير أم آخره**»[(١)].

قال لي: أحســـنت يا بني، فهذه الأمة لا يزال فيهـــا الخير كامنًا إلى يوم القيامة، ولن تضيع أمةٌ محمدٌ أولُها، والمسيح عيسى آخرها. و«**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلـــون على الحق ظاهرين على من ناوأهـــم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال**»[(٢)].

---

(١) رواه أحمـــد (١٢٤٦١)، وقال مخرّجوه: حديث قوي بطرقه وشـــواهده، والترمذي في الأمثال (٢٨٦٩)، وقال: حسن غريب، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (١٩٨٥١) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود في الجهاد (٢٤٨٤)، والحاكم في الجهاد (٧١/٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٥٩)، عن عمران بن حصين.

ومنذ قدمنا إلى الشيخ إلى أن فارقنا، لم نشبع من كلامه الرباني الذي يتدفق كالماء الزلال، وينسكب على الأرواح الظمأى فيرويها، والأفئدة الفارغة فيملؤها.

وكنا كلَّ عدة أشهر نذهب إلى الشيخ، ففي الغالب نجده يعمل في الحديقة، بفأسه يَفْلَح فيها ويَعْزِقها، وينظف أرضها للزراعة، أو يقطف شيئًا مما ينبت في أرضها من الخضراوات الطرية التي تشتهيها الأنفس، وتلذُّها الأعين، أو من الورود والأزهار، التي تبتهج برؤيتها الأعين، وتستطيب شمّها الأنوف.

وفي بعض الأيام يُقدِّم لنا من حديقته أو من بيته بعض ما يؤكل، ويُلزمنا أن نأكل منه، ولم نكن نخجل أن نأكل عند الشيخ، ومن يديه، فهو رجل كريم، يحب أن يُكرم إخوانه وأبناءه، وكنا نجد في أكله بركة، وليس شيءٌ أفضل من أن نأكل من طعام هو أبعد ما يكون عن السُّحت والخبث والحرام، ونحن ندعو ونقول: اللهم اكفنا بحلالك عن حرام، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك.

ولما كانت ثورة (٢٣ يوليو) بقيادة رجال الجيش المصري، وعلى رأسهم اللواء محمد نجيب، اشتُهر أن بعض القيادات في هؤلاء الثوار كان من تلاميذ الشيخ الأودن.

ولما سألنا الشيخ عن حقيقة ذلك، أقر لنا الشيخ بأن عددًا منهم كانوا يحضرون عنده، ويتلقَّوْن دروسه، ويسمعون عظاته، ولذلك قالوا: إنهم كانوا يحملون (المصاحف) في جيوبهم ليلة مطلع الفجر أو مطلع الثورة.

ولذلك لما أرادوا أن يُكلِّفوا مجموعة بإصدار دستور لانقلابهم ـ أو ثورتهم بعد أن تغير لفظ الانقلاب وأصبح اسمه في الإعلام: ثورة ـ كان اسم الشيخ الأودن في أوائل الأسماء.

ولكن الأمور لـــم تجرِ كما كان يظنُّ الكثيرون لهـــا، فقد اختلف الضباط الأحرار ـ كما ســـمَّوْا أنفســـهم ـ مع محمد نجيب، ومع غيره، واختلفوا مع الإخوان الذين كانوا معهم جنبًا إلى جنب، فهم الذين حرسوا لهم كل المواقع الحسَّاســـة في البلاد من البنوك والســـفارات والمواقع المهمة، حتى مضت الليالي المهمة والخطيرة بسلام.

ولقد جرت الأقدار بأن يُقاد الإخوان بوصفهم خصومًا للثورة للســـجون، وأن يحاكمـــوا، ويحكم على عدد منهم ـ ومنهم مرشـــدهم الأســـتاذ حســـن الهضبي ـ بالإعدام، ولكن الهضيبي أعفي عنه من الإعدام لسنِّه، وأعدم ستة منهم، هم الشـــهداء: عبد القادر عـــودة، وإبراهيم الطيب، ويوســـف طلعت، وعبد اللطيف محمود، وهنداوي دوير، والشيخ محمد فرغلي.

وقتل أكثر من عشـــرين مـــن الإخوان في ســـجن (ليمان طـــره)، ضربًا بالرصـــاص، في زنازينهم أو أمامهـــا، بدعوى أنهم متمـــرِّدون، وكيف يتمرد مسجون في سجن مغلق مليء بالحراس المدجَّجين بالسلاح؟!.

ومن المؤسف للأنفس حقًّا والمذيب للأعين صدقًا: أن يقاد الشيخ محمد الأودن، الذي درس وربَّى بعـــض هؤلاء الضباط، إلى الســـجن، ولا تُحترم لحيته، ولا عمامته، ولا جبته، ولا شيخوخته.

رحم الله الشـــيخ الأودن، وتقبله في الصالحين، وغفر له ولكل من يحبه، ورحمه وجزاه عن الأمة خير ما يجزي علماءه العاملين، وعباده الصالحين.

* * *



١٥ الشيخ مصباح محمد عبده

العالم الداعية المرح

(ت: ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م)

الصديق الثاني الذي أفقده من أصدقائي المقربين، أصدقاء الشباب، بعد أن فقدت صديقي الأول محمد الدمرداش مراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأنا رجل عاطفي، أحـزن وأفرح، وأضحك وأبكـي، وإن كانت عاطفة الحزن عندي أقوى، ومنها الحزن على الأصدقاء.

هو الأخ الحبيـب، والصديق الصدوق، الشـيخ مصبـاح محمد عبده، المدرس بالمعهد الديني الثانوي في قطر، والذي وافته المنية فجأة في أوائل العام الدراسي في (١٩٧٦/٩/٢٦م)، بعد أزمة قلبية، لم يسعفه فيها الدواء المعتاد الذي كان يتناوله عندما تصيبه هـذه الأزمة، يبدو أن الدواء قد فرغ من عنده، ولم يسارع بإحضار البديل، لينفذ قضاء الله في وقته المقدر له، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١].

وقد اتصل بي أهله، وقـد بلغ الكتاب أجله، فذهبـت إلى منزله، لأجد (مصباح) قد انطفأ، وقد فات أوان الإسـعاف والإنقاذ، ولم يبق إلا التسليم لقدر الله الذي لا يرد، وإلا أن نقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

كان مصباح كأنما يتهيأ للخروج، فقد كُنَّا في إجـازة العيد، ولذا وجدته بكامل لباسه، وكل شيء فيه كأنه لا يزال حيًّا، لولا هذا الكائن الداخلي الذي يجحده الماديون، ويؤمن به كل ذي دين، وهو ما نسـميه (الروح)؛ الذي به يكتسي هذا الغلاف الطيني (الحياة).

وبدون هذه الروح ـ أو ما يسميه عامة الناس: السر الإلٰهي ـ يتحول الإنسان صاحب العلم والبيان، إلى جثة هامدة، بمجرد أن يختطف الموت هذا الكائن الداخلي، ولا يستطيع أحد له مقاومة. وهكذا دخلنا الحياة بغير إرادتنا، وخرجنا منها بغير إرادتنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

وأصرَّت زوجته على أن يدفن في بلده محلة أبو علي، وأن ينقل جثمانه ـ كما هي العادة ـ على الطائرة إلى القاهرة، ثم تحمله سيارة إسعاف إلى حيث يقبر، وكنا نود لو ووري جثمانه في ثرى قطر، وهي أرض إسلامية، بدل السفر وما فيه من مشقة. ولكن أمام إصرار الزوجة، لم يكن بد من تسفيره على حساب حكومة قطر، وأن يسافر أحد الإخوة في رفقة أهله.

كان مصباح من أصدقائي القدامى، فقد كان زميلًا لي في المعهد، وفي نفس السنة، وإن كان شافعي المذهب، وكان يتميز بالنكتة وخفة الروح، وسلامة الفطرة، والغيرة على الدعوة.

وقد دعاني الأخ مصباح لزيارة قريته، فذهبت إليها في إحدى إجازات الصيف، وحاضرت في شعبة الإخوان فيها، وألقيت خطبة الجمعة بالمسجد، وتعرفت على عدد من أهلها من شباب الإخوان، مثل: رمزي (أو طُلْبَة) الدمنهوري، والسيد الغضبان، وحمدي شبند، والسيد النفاض، وعلي عبد المقصود خفاجة، وعبد المجيد بقلولة.. وغيرهم. كما تعرفت على بعض الرجال الكبار في القرية، أمثال: الحاج عبد الغني الدمنهوري، والحاج محمد الغضبان.. وغيرهما.

لقد تعارفنا حين كنا طلبة في المرحلة الثانوية في طنطا، وزرته في قريته، وزارني في قريتي، ولكني كنت الأكثر ترددًا على قريته (محلة أبو علي ـ القنطرة) وهي تعتبر الجار ذا القربى للمحلة الكبرى. والآن تلاصقتا، وأصبحتا كأنهما جزء من المحلة الكبرى.

وكان مصباح قد تُوُفِّي أبوه وهو صغير، وتربى يتيمًا مثلي، وتولت تربيته أمه، وكانت امرأة عاقلة ذات عزيمة قوية، مـا زالت وراءه حتى دخل الأزهر وتخرج فيه.

وكنت كثيرًا ما أبيت في محلة أبو علي ـ أيام العزوبة ـ مع أحد الأصدقاء. وفي كلية أصول الدين سكن معي مصباح في (شقة شارع راتب باشا) الشهيرة، في شبرا، ولكنه نجا من الاعتقال في حين معظم سكانها اعتقلوا.

وعمل الشيخ مصباح مفتشًا للمساجد في وزارة الأوقاف مع الشيخ الغزالي، إلى أن جاء إلى قطر.

وقد اعتقل معنا في محنة (١٩٤٩م)، ودخل معي معتقل هايكستب، ورحلنا معًا إلى الطور، وأصابه مـا أصابه من مرض الروماتيـزم، وذكر من فكاهاته وطرائفه، ما أضحكنا، وأدخل علينا البهجة في أتون الاعتقال.

وكان كلما اشتدَّ به الألم يقول: الله يخرب بيتك يا اللي في بالي. ولم يكن يترك إخوانه في حالة صمت، فكان يصدر صيحة: عبادك يا كريم.

كان مصباح رجلًا طيب القلب، نقي السـريرة، ظاهره كباطنـه، محبَّبًا إلى الناس، لم أرَ أحدًا يكرهه أو يعاديه! فقد كان سـهل التعامل، هينًا لينًا متواضعًا خافض الجناح لإخوانه، يألف ويؤلف، بسيطًا في مظهره، وفي مخبره، وفي حياته كلها، كما كان فَكِهًا خفيف الروح، له لطائف وفكاهات، تصدر عنه بلا تكلف ولا تصنع. كنا ونحن بالكلية إذا سئل: كم كان ترتيبك يا شيخ مصباح؟ فيقول: الشيخ يوسف هو الأول من ناحية، وأنا الأول من الناحية الأخرى! فنحن نحيط الكلية من جانبيها! وكان يعمد إلى الألفاظ الغريبة والشائكة، إذا كانت صحيحة، مثل: كلمة (الدلالة)، ينطقها بضم الدال (الدُّلالة)، فإذا اعترض عليه معترض وسأله، لماذا الدال يجوز فيها الفتح والكسر والضم، ثم يقول: أنا آتي بالغريب، ليُستَشكَل علي فأجيب! وله شعر مما يسميه بعضهم: الشعر الحلبنتيشي!.

منه قوله:

ولست بشـــارب شـــايًا بقرش ولكن أشـــربُ الشـــايَ البلاشا

ومنها:

ولقد ذكرتُك والجنودُ تعجنني وسط العنابر بالعصا يا سوسو

رحم الله مصباحًا وغفر له وتقبله في عباده الصالحين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وجمعنا به في الفردوس الأعلى. آمين.

* * *



شيخنا العلَّامة البهي الخولي

رجل العلم والدعوة والتربية

(١٣١٧ ـ ١٣٩٨هـ = ١٩٠١ ـ ١٩٧٧م)

في يوم (١٩٧٧/١٢/٢٧م) ودعت مصر في هدوء: الداعية الإسلامي الكبير أستاذنا البهي الخولي رحمه الله وغفر له.

كان الأستاذ البهي الخولي زميلًا للإمام حسن البنا في دار العلوم، وكان معجبًا به كل الإعجاب، فلما قام البنا بدعوته كان البهي من المسارعين بالإجابة.

وقد تعرفت إلى الأستاذ البهي في المعهد الديني الابتدائي بطنطا، حيث كان مدرسًا للمحفوظات، التي كان المدرسون يحولونها إلى حصة للراحة أو القراءة الحرة، ولكن الشيخ حوّل حصتها إلى ثقافة ودعوة، وكان ـ أيضًا ـ مدرسًا لمادة الجغرافيا التي كان يتقن رسم خرائطها، وأنا لا أتقنه. وتوثقت صلتي به وأنا في المرحلة الثانوية، فاتصلت به عن قرب، واستفدت من حلقاته ومجالسه، والتقطت من لآلئه وجواهره.

ولقد فكر الأستاذ البهي أن يصطفي نخبة من خيرة شباب الإخوان، يدنيهم منه، ويربيهم في مدرسته، ويلقنهم فكره وذوقه، ويأخذهم بعزائم السلوك، فقد كان رجال التربية الروحية حاجة المريد إلى شيخ يأخذ عنه، ويقتبس من نوره، وأن صحبة الشيخ لا يغني عنها قراءة الكتب، حتى قال بعضهم: من لا شيخ له فشيخه الشيطان. وقد اختار الشيخ لهذه المجموعة اسم (كتيبة الذبيح).

ويراد بالذبيح: سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، والذي رفع قواعد البيت مع أبيه إبراهيم الخليل، وقد ذكر لنا القرآن الكريم في سورة الصافات

قصته مع أبيه بعد أن بلغ معه السعي، وأضحى يَرْتجِي منه ما يُرتجَى من الشباب في معاونة أبيه. فجاء الامتحان الإلٰهي البليغ للأب، الذي بلغ به اليقين أن ضحَّى بولده، وفلذة كبده، امتثالًا لإشارة الوحي من ربه، وللابن الذي بلغ به اليقين أن قدَّم عنقه، طاعة لأمر ربه، ولم يتلكأ أو يتردد، بل كان كما قال القرآن: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

يقول الشيخ البهي، وهو يشرح لنا القصة في أول جلسة: انظر إلى الابن كيف قال لأبيه، وقد عرض عليه ذبحه: (**يا أبت افعل ما تؤمر**) ولم يقل: افعل (بي) ما تؤمر، فكأنما غاب عن نفسه، وفني عن ذاته، وقال لأبيه: نفذ ما عندك من أوامر الله، ولن تجد مني إلا الطاعة والصبر على أمر الله. ولم يفعل ذلك ادعاء للشجاعة والبطولة، بل وكَّل الأمر إلى الله يسدِّدُه ويشُدُّ أزره، حين قال: (**ستجدني إن شاء الله من الصابرين**).

اختار الأستاذ البهي أكثر هذه النخبة من طلاب المعهد الديني، وأقلهم من طلاب المدرسة الثانوية، وأذكر من هذه النخبة: الإخوة: أحمد العسال، ومحمد الصفطاوي، ومحمد الدمرداش مراد، وعبد العظيم الديب، وعبد الوهاب البتانوني، ومحمد وعبد الفتاح الحشاش، من أبناء الأزهر، وعبد المنعم عثمان، وسعيد شتا، وكمال العريان من الثانوية، وآخرين لا أذكرهم الآن.

كان موعد اللقاء قبيل فجر الاثنين ـ على ما أذكر ـ من كل أسبوع، وفي بيت الأستاذ، نصلي معه الفجر، ثم نجلس في حلقتنا الروحية، التي يحلق بنا فيها إلى أجواء ربانية عالية، فنحس بأننا نشف ونصفو حتى نكاد نطير بلا أجنحة.

وظل تتلمذي على الأستاذ البهي ممتدًّا إلى فترة الجامعة وما بعد الجامعة، فكثيرًا ما كنتُ أزوره في بيته بالمطرية، قبل أن ينتقل إلى شارع القصر العيني.

وكان الأستاذ البهي ممن تنبهوا مبكرًا للكتابة في مفهوم الدعوة وغاياتها وأساليبها، وما يجب أن يكون عليه الداعية، فكتب كتابه الأول الذي لم يسبق أحد إلى مثله في التأصيل والتفصيل والتدليل، مع عمق الفكرة ووضوحها، كتبه بأسلوب أدبي رائع، ذلكم هو كتابه الشهير (تذكرة الدعاة)؛ الذي كتب له الإمام الشهيد مقدمة موجزة مركزة، قال فيها:

«الله أكبر، والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وآله الداعين إليه على بصيرة، والمجاهدين فيه بإحسان، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد: فقد طالعت هذه التوجيهات، بل المحاضرات في أساليب الدعوة وتكوين الدعاة، فأعجبت بها وهششت لها، وشممت فيها بوارق الإخلاص والتوفيق، إن شاء الله، ودعوت الله تبارك وتعالى أن يجعلها نافعة لعباده، موجهة قلوب الناطقين بكلمته والهاتفين بدعوته. وليس ذلك غريبًا على كاتبها وملقيها الأخ الداعية المجاهد الأستاذ البهي الخولي، فهو بحمد الله صافي الذهن، دقيق الفهم، مشرق النفس، قوي الإيمان، عميق اليقين، أحسن الله مثوبته، وأجزل مكافأته، وبوأنا وإياه منازل مَن أحب من عباده، فرضي عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون. آمين. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا».

وهو الكتاب الوحيد ـ بعد رسائل الإمام الشهيد ـ الذي تفرد في تلك الفترة بأن يكتب عليه: من رسائل الإخوان المسلمين. أي: إن قيادة الحركة تتبناه ضمن مناهجها المعتمدة.

وكان الأستاذ البهي وثيق الصلة بالقرآن الكريم، له فيه تأملاته وتأويلاته الخاصة، وتفسيراته العميقة، بعضها ضمنه بعض كتبه المنشورة، وبعضها لعله لا يزال في أوراق منثورة في أضابيره، وكان مما أصدره من ذلك: كتابه (آدم عليه السلام).

وكان له اهتمام قديم بالجانب الاقتصادي في الإسلام، ونظرة الإسلام المتوازنة إليه، وقد تمثل ذلك في عدة كتب: (الثروة في ظل الإسلام)، و(الإسلام لا شيوعية ولا رأسمالية: العمل والعمال). و(الاشتراكية بين النظرية والتطبيق).

وكان له نظرات في الفقه وفي الاقتصاد، تنبئ عن فهم متميز، وأصالة في النظر، وعن شخصية مستقلة لها رؤيتها واجتهادها.

وكان له اهتمام بالجانب الرباني أو الجانب الروحي ـ أو ما سماه في تذكرة الدعاة (الروحانية الاجتماعية) ـ وله في هذا باع أي باع.

وأذكر أنني كنت في الجلسة التي نجلسها معه ـ على فطرتي وطريقتي ـ أناقش وأسأل في كل ما لا يقتنع به عقلي، أو يطمئن إليه قلبي، فطرة فطرني الله عليها، وأعتقد أنها نعمة من الله عليّ، بجوار نعمه التي لا تعد ولا تحصى. وقد ظن الشيخ البهي رَحِمَهُ اللَّهُ أن لي موقفًا مضادًّا من التصوف وأهله، ثم فوجئ بكتابيّ: (العبادة في الإسلام) و(الإيمان والحياة)، فوجد فيهما نزعة ربانية أصيلة، وقال لي بعد أن أهديتهما له: كيف خبَّأت عنا هذه الروحانية العميقة بمناقشاتك القديمة، التي جعلتنا نفهمك على غير حقيقتك؟ قلت له: يا فضيلة الأستاذ، المناقشة جزء من كياني، وربما يضيق بها الصوفية الذين يقولون: من قال لشيخه: لِم؟ لم يفلح. ويقولون: المريد بين يد الشيخ كالميت بين يد الغاسل. ولكني تلميذك الأمين فيما قررته في كتابك الفريد (تذكرة الدعاة) عن (الروحانية الاجتماعية)، فأنا مع (الربانية) ولست مع (الرهبانية) كما قال الشيخ أبو الحسن الندوي.

ومن أجل اهتمامه بهذا الجانب اهتم بسير الصالحين، وكان يحرر في مجلة (المسلمون) ـ التي أصدرها تلميذه د. سعيد رمضان ـ باب (مع العارفين). كتب فيه عن (الإمام الممتحن أحمد بن حنبل) كتابة متميزة، وكتب

عن (عتبة الغلام)، وعن بعض الشخصيات الأخرى من السلف، ثم توقف واستمر الباب. ولم يكتب اسمه تحت هذا الباب، وقد نُشِر بعض ما كتبه ولم يُنْسَب إليه.

أكسب هذا الجانب الشيخ البهي حدسًا صادقًا وفراسة قوية، فكان يقول عن أخينا عبد الوهاب البتانوني: كلما رأيت عبد الوهاب لحظت دم الشهادة يترقرق في وجهه. وكان يقول عنه: سيدي عبد الوهاب البتانوني. وقدر الله لعبد الوهاب أن يُرْزَق الشهادة على أرض فلسطين مع اثنين من إخوانه، طاردهم اليهود حتى لجؤوا إلى مصنع للسلاح، للاختباء فيه، ويظهر أنهم رأوا أنهم مقتولون لا محالة، وأن أفضل طريقة: أن يفجروا المصنع على من فيه وما فيه، وإن ضحوا بأنفسهم في سبيل ذلك. وقد أشار إلى ذلك الأستاذ كامل الشريف في كتابه (الإخوان المسلمون في حرب فلسطين)، وقد كان أحد القادة في هذه الحرب. كما فصل ذلك الأخ يحيى عبد الحليم فيما كتبه عن (معركة عصلوج).

وتحقق ما قاله الشيخ البهي: كلما رأيت عبد الوهاب، رأيت دم الشهادة يترقرق في وجهه. رحمه الله ورضي عنه، وجعله شفيعًا لأهله ولنا معهم.

وهكذا كان منهج شيخنا البهي في الدعوة: منهجًا متوازنًا، يقوم على القرآن، ولكنه لا يغفل السنة، ويعنى بالجانب الروحي أو الإيماني، ولكنه لا يسرف فيه حتى يصير رهبانية، بل يريدها كما قال الشيخ الندوي: ربانية لا رهبانية. ولا غرو أن انعقدت بينه وبين أبي الحسن الندوي مودة عميقة.

ولم يكتف بالعمل العام في الدعوة، حتى كان رئيسًا للمكتب الإداري للإخوان في مديرية (محافظة) الغربية، قبل أن ينقل إلى القاهرة، بل ضمَّ إلى ذلك العمل في (النظام الخاص) ـ أو ما سموه بعد ذلك (الجهاز السري) ـ للإخوان، فكان هو المسؤول عن هذا النظام في الغربية: يبايعه من يبايع من أفراد الجماعة ـ الذين يقبلون الانضمام إلى هذا النظام ـ على المصحف

والمسدس، كما ذكر في التحقيقات بعد ذلك. وإن كانت المحكمة قد حكمت له بالبراءة.

ولقد كنا تلاميذه المقربين في طنطا: أنا والعسال والدمرداش والصفطاوي والديب والحشاش وعبد المنعم البدراوي، وغيرهم، ولكنه لم يعرض علينا يومًا الالتحاق بهذا النظام، وكأنه اكتفى بـ(كتيبة الذبيح)، التي نتربى فيها على البذل والتضحية في سبيل الله، ولو قدم المؤمن رقبته طاعة لله، كما فعل الذبيح إسماعيل عليه السلام، حين قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وحين حلت حكومة النقراشي: جماعة الإخوان، بدعاوى لا تبلغ أن تكون سببًا لضرب هذه الجماعة وتمزيقها، والحكم عليها بالإعدام. وقد رد الأستاذ البنا بنفسه على دعاوى الحكومة، كما أشرنا إلى ذلك في الجزء الأول من مذكراتنا (ابن القرية والكتاب)[1]. وقد تبين أن هذا كان استجابة لطلبات سفراء إنجلترا وأمريكا وفرنسا، الذين اجتمعوا في (فايد) بمنطقة القناة، وقد تسبب هذا في اعتقال أعداد كبيرة من الإخوان تجمعوا في النهاية في معتقل الطور.

وامتثالًا للأمر النبوي: «**إن كنتم ثلاثة في سفر فأمِّروا أحدكم**»[2]، واتباعًا لمنهج السلف الذين كانوا في أسفارهم يختارون واحدًا منهم أميرًا لهم، ويقولون: «هو أميرنا، أمّره علينا رسول الله ﷺ». اختار الإخوان أميرًا لهم في المعتقل، هو أستاذنا (البهي الخولي) أكبر الدعاة الموجودين في المعتقل، ورفيق الأستاذ البنا، وصاحب (تذكرة الدعاة)، ولكن لم يطُل المقام بالأستاذ

---

(١) الكتاب المذكور (٣٢١/١ وما بعدها).

(٢) رواه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٩)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٤٨): حسن صحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «**إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم**».

البهي، فاستُدعي إلى القاهرة للتحقيق معه في قضية تتعلق بالنظام الخاص، كما استُدعي الأستاذ عمر التلمساني المحامي الشهير إلى القاهرة أيضًا، فاختار الإخوان أميرًا آخر اجتمعت كلمتهم عليه هو الشيخ محمد الغزالي، الذي كان في بداية السنة الثانية والثلاثين من عمره، وكان يتوقد ذكاء وفتوة وغيرة وعزيمة.

وفي عهد المرشد الثاني الأستاذ حسن الهضيبي، كان الأستاذ البهي موضع ثقته من الناحية العلمية، وكلفه بتأليف كتاب عن (المرأة)؛ يبين فيه حقوقها وواجباتها، في ضوء الشريعة الإسلامية، ونهض بذلك، وكتب كتابه الموفق (المرأة بين البيت والمجتمع)؛ الذي عكس نظرة وسطية بين الغلاة والمفرطين في قضية المرأة، ثم طوَّره بعد ذلك إلى كتاب (الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة).

وظلت العلاقات بينه وبين الأستاذ الهضيبي طيبة، حتى قامت ثورة يوليو، وكان التعاون بينها وبين الإخوان ملحوظًا، ثم حدث الخلاف، ودخل الباقوري وزارة مع الثورة، على خلاف رأي الإخوان، فطلبوا إليه أن يستقيل من الجماعة، فاستقال، ليتحمل هو مسؤولية اختياره، واختار فريقًا من الإخوان يعمل معه، كان منهم الأستاذ البهي الخولي، والشيخ الغزالي، والشيخ سيد سابق. رحمهم الله جميعًا.

وحين اشتد الخلاف، واحتدم النزاع: اختلف أعضاء الهيئة التأسيسية فيما بينهم، فكان منهم فريق على رأسهم الأستاذ البهي، يرون ضرورة الصلح مع عبد الناصر، وتفادي جر الجماعة إلى معركة غير متكافئة مع الثورة، تُجَرُّ فيها للمهلكة بغير مبرر، وهؤلاء يحسنون الظن بعبد الناصر، ويرون أنهم إذا عقدوا عهدًا معه نفذه. وفريق آخر يمثل قيادة الإخوان، ويمثل الأكثرية منهم ـ أيضًا ـ لا يثقون بعبد الناصر، ولا بتعهداته، وأنه لا يضمر خيرًا للجماعة،

بل يتربص بها، ويريد أن يتخلص منهـا؛ ولهذا يريد ضرب بعضها ببعض، فيكون بأسهم بينهم.

ومن هنا يجب الوقوف ضد هذه الفتنة، ومساندة القيادة الشرعية فيما تؤمن به، وتحرص عليه.

ويبدو أن الأحـداث بعد ذلك صدَّقت ما قاله هؤلاء، وأن رؤية الأسـتاذ الهضيبي كانت أصدق، ولقد وقف الرجل ـ برغم كبر سنه ـ راسخ القدم، رافع الرأس، كأنه الطود الأشم.

هذا الموقف من الأسـتاذ البهي الخولي، جعـل الكثيرين من الإخوان، يتخذون منه موقفًا، وبخاصة الذين دخلوا السجن الحربي، ممن حوكموا، ومن لم يحاكموا، وهو موقف طبيعي بالنسبة للبشر، الذين لا يحبون من آذاهم، ولا من وقف مع من آذاهم.

ولقد حوكم الأستاذ البهي وإخوانه من أعضاء مكتب الإرشاد، مثل: الشيخ عبد المعز عبد السـتار، وأرادوا بهذه المحاكمة أن تكون شهادة ضد المرشد وإخوانه. ولقد كتب مؤرخ الإخوان الأسـتاذ محمـود عبد الحليم في كتابه: (الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ) عن هذه الخلافات والصراعات داخل الجماعة، وهو شـاهد عيان، ومرضيٌّ عند الطرفين فليراجع، وقد نقلنا بعض كلامه في الجزء الثاني من مذكراتنا[1].

ولكن من المفترض أن تهدأ النفوس بعد مدة من الزمن، ويعود الناس إلى جو التسـامح وخلق العفو والصفح، كما قال يوسـف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وقد قال الله تعالى في شـأن من شـاركوا في حديث الإفك، وقد حلف أبو بكر أن يحرم أحدهم مما كان يصله به من قبل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ

---

(١) ابن القرية والكتاب (٢/٧٠، وما بعدها).

﴿ٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال تعالى في شأن أهل الكتاب: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

فأولى أن يكون الصفح والعفو بين المؤمنين بعضهم وبعض.

لقد ساءني أن مجلة (الدعوة)، لسان حال الإخوان في مصر، حين انتقل الأستاذ البهي الخولي إلى رحمة الله، لم تعره أي التفات، ولم تتحدث عنه وصفه أحد رجال الدعوة الذين عاشوا عمرهم لها، وتركوا آثارًا فيها.

وكان يمكن أن تشير إلى الخلاف الذي وقع، وتقول رأيها في تخطئة الأستاذ البهي ومجموعته، ثم تقول: ولكنه الآن أفضى إلى ما قدَّم، وهو موكول إلى نيته، وإنما لكل امرئ ما نوى.

وهنا لا بد لي من كلمة منصفة عن الخلاف داخل الإخوان، وأعتقد أنه ينطبق على كل الجماعات. والإخوان شأنهم شأن الجماهير دائمًا، تسرف في الحب، وتسرف في البغض، من أحبته ارتفعت به إلى أعلى عليين، ومن بغضته نزلت به إلى أسفل سافلين، وفي هذا الحالة تنسى سوابقه، وتلغي خيره، ولا يذكر عنه إلا الجانب المظلم.

هذا مع أن القرآن يعلمنا أن نعدل مع من نكره، كما نعدل مع من نحب، لا يمنعنا شنآن قوم (شدة بغضهم لنا أو بغضنا لهم) أن نعطيهم حقهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ومن العدل أن تذكر للخصم حسناته، كما تذكر سيئاته، كما يعلمنا الإسلام: أن نتعامل مع أهل الإيمان بحسن الظن، وأن يحمل حال المسلم على

أحسن حال، ونلتمس له العذر ما استطعنا، فالمؤمن أبدًا يلتمس المعاذير، والمنافق يتطلب العيوب والعثرات، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث**».

أضف إلى ذلك: أن من آداب الإسلام: ألَّا ينسى المسلمون لمن أخطأ في حقهم: سوابقه الخيرة، ومواقفه الطيبة، التي حفل بها سجله، فربما كانت السوابق شافعة له، كما قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب، وقد قال عن حاطب بن أبي بلتعة: دعني يا رسول الله، أضرب عنق هذا المنافق! وقد حاول أن يفشي سر رسول الله إلى أهل مكة، ويخبرهم بقدوم جيشه عليهم، والرسول حريص على أن يفاجئهم، فيجبرهم على التسليم بلا قتال أو بأقل الخسائر الممكنة، فعمله مما يمكن أن يعد اليوم في أعمال الخيانة العظمى، ومع هذا قال الرسول ﷺ لعمر: «**ما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فإني قد غفرت لكم**»![1].

كما أن من روائع هذا الدين: أنه يُقَدِّر ضعف الإنسان، وأن كل بني آدم خطاء، وأن من أخطاء الإنسان ما لا يعاقب عليه، بل يؤجر أجرًا واحدًا، إذا صدر عن اجتهاد وتحرٍّ للحق، فإن أصاب الحق فله أجران، وإن أخطأ فله أجر. هذه مبادئ مهمة في التربية الأخلاقية الإسلامية، ولكن الإخوة كثيرًا ما يغفلونها، نتيجة لغلبة الغضب عليهم، أو إساءة الظن بمن يخاصمونه، واتهامه في سريرته ونيته، ونحن لم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس، بل لنا الظاهر، والله يتولى السرائر.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤)، عن علي.

• **هذه رسالة كتبها لي العلَّامة المربي الداعية الكبير الأستاذ البهي الخولي:**



نص الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم.

عزيزي الأخ الكريم الأستاذ: يوسف القرَضاوي،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!.

لقيت تهنئتكم بالعيد، فكان لها أكثر من معنى..

فروض الجاف الذي صوَّحت خمائلُه، وسكنت بلابله، وتفرَّقت عنه زهراته الحبيبة، حمل إليه بعيد عبيرًا من ألمانيا من عبد المنعم (عثمان) الحبيب، وعبيرًا من قطر من يوسف (القرضاوي) الحبيب.. وجاء مع العبير الذكرى، وامتلأ الرأس بالصور والأطياف، وامتلأ الصدر بالمشاعر، وتندَّى ما بين الجَفْنَين إثر الحنين والحنان..

ويقف القلم ولا يجد جدوى من الإفاضة إلا الدعاء، فأسأل الله لك أن يجيبك في أمانك، وأن يقيمك في حق مبادئك، وألا يجعل علمك الغزير لك فتنة.

تحياتي لأخيك أحمد (العسال)، وتحياتي للأستاذ عبد البديع (صقر)، وسائر إخوانك.

أرسل إليك نسختين؛ إحداهما لك، والأخرى لأخيك وأخي أحمد (العسال).

رسالة وضعتها وأنا أشعر بحب عاصف عميق لمولاي وسيدي رسول الله ﷺ، وكنت بهذا الحب أسمو حتى أكاد أسمع حفيفَ الملائكة، وكنت قبلها أعيش في صفاء وتأمُّل مع روح أمين أهل الأرض والسماء عبد الرحمٰن بن عوف، وروح الزاهد الصادق العملاق الذي لم تُقلّ الأرض، ولم تظلّ السماء أصدقَ لهجة منه، وحقَّق في الأرض زهد عيسى ابن مريم مع ما ذكر الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام.

ولقد كنت في انفعالي العنيف بهما أتساءل: إذا كان هذان العظيمان من تلاميذ النبي ﷺ، فكيف كانت عظمته عليه الصلاة والسلام؟! وأرجو أن تخرج ثمرة هذه الدراسة قريبًا.

وقد شاء لهما الله ـ وله الحمد والمنة ـ أن تكون مُحرَّرة من كل شائبة يتبرع بها الظانُّون بالناس ظنَّ السَّوء.

وسأوافيكم بها إن شاء الله عبر صدورها. وأعتقد أن أهم ما فيها هو صدق الحب لعبد الرحمٰن وأبي ذر.

فإلى اللقاء برسالة أخرى معها الصحابيان الجليلان.

وكل عام وأنتم بخير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

البهي (٨ شوال ١٣٨٢هـ)

* * *



شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود

رجل العلم والفلسفة والتصوف

(١٣٢٨ ـ ١٣٩٧هـ = ١٩١٠ ـ ١٩٧٨م)

الشيخ عبد الحليم محمود من قرية أبو أحمد التابعة لمدينة بلبيس بمحافظة الشرقية، ولد في (٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٢٨هـ، الموافق ١٢ من مايو ١٩١٠م)، والتحق بالأزهر، وحصل على الشهادة العالمية سنة (١٩٣٢م)، ثم سافر على نفقته الخاصة لاستكمال تعليمه العالي في باريس، ونجح في الحصول على درجة الدكتوراه في سنة (١٩٤٠م).

- **تدريسه لي مادة الفلسفة الإسلامية:**

كان الشيخ من أبرز من درسني في كلية أصول الدين، فقد درسني في السنة الثالثة مادة (الفلسفة الإسلامية)، وقد اختار لنا كتاب الدكتور إبراهيم بيومي مدكور (الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيقه)؛ ليكون موضوع دراستنا، كما درَّس لنا فصلًا من كتاب (الإشارات والتنبيهات) لابن سينا، يتعلق بالتصوف.

ودرسنا في السنة الرابعة: فصولًا في التصوف في ضوء (المنقذ من الضلال) لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، كما أعطانا فكرة عن فلسفة ابن طفيل، في ضوء (قصة حي بن يقظان) لابن طفيل، بالإضافة إلى نظرات في الفلسفة الحديثة، التي درسنا فصولًا منها في (النظريات الأخلاقية).

كان الدكتور عبد الحليم في تلك الآونة، يلبس الحلة (البدلة) الإفرنجية، كما كان حليق اللحية، ولكنه كان رجلًا متصوفًا: فكرًا، وعاطفة، وعملًا، وكان لا يهتم بالمظاهر لا في نفسه، ولا في بيته.

وقد زرته في بيته بضاحيـــة الزيتون عدة مرات، وحدي أحيانًا، ومع الأخ عبد الودود شلبي أحيانًا، فكان بيته متواضعًا في أثاثه وفراشه، لا يليق برجل تخرج في فرنسا.

وكان كثيرَ الصمت، لا يتكلم إلا قليلًا، وكان معجبًا بشـــيخه في فرنسا، وهو (رينيه جينو) أو (عبد الواحد يحيى)، وهذا اســـمه بعد أن أســـلم، وكان متصوفًا كبيرًا، وكثيرًا ما حدثنا عنه، وكتب عنه رسالة نُشرت.

وقد عين الدكتور عبد الحليم محمود بعد ذلك عميدًا لكلية أصول الدين، ثم تولى أمانة مجمع البحوث الإسلامية، ثم تولى وزارة الأوقاف، وصدر قرارٌ بتعيينه شيخًا للأزهر في (٢٢ من صفر ١٣٩٣هـ، الموافق ٢٧ من مارس ١٩٧٣م). وكان من أبرز شيوخ الأزهر، الذين لهم مواقف تذكر، وإن أخذ بعض الناس عليه ـ وأنا منهم ـ في تصوفه ما أخذوا، مما قد يُعَدُّ من الغلو، يغفر الله له ولنا معه، ومن ذا الذي أجمع عليه الناس؟!.

- **لقائي به في الهند:**

أراد العلَّامة الشيخ أبو الحسن الندوي أن يجمع كبار علماء الأمة ودعاتها بمناســـبة (مهرجان ندوة العلماء) بلكهنـــو بالهند، ليروا (نـــدوة العلماء) هذه المؤسســـة الفريدة بأعينهم، ويلمســـوا آثارهـــا بأيديهم، ويتحسســـوا حاجاتها بأنفسهم، ويســـاهموا في إقامة مشـــروعاتها المســـتقبلية. ولهذا لم يسعنا حين وصلتنا دعوة الشـــيخ إلَّا أن نلبي النداء، ونهرع إلى هنـــاك، وكنا وفدًا من قطر مكونًا من فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، وفضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، والفقير إليه تعالى، وقد دُعِيَ عدد من الإمارات على رأسهم فضيلة الشـــيخ أحمد عبد العزيز المبـــارك، رئيس القضاء الشـــرعي، وعدد من علماء المملكة العربية الســـعودية ورجالها، ومن الكويـــت والبحرين ومصر وغيرها، وكان على رأس الوفد المصري الإمام الأكبر الشـــيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر، وفضيلة الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي وزير الأوقاف.

كان المتبع في مثل هذه الأحوال: أن يكون الشيخ أبو الحسن الندوي هو رئيس هذا المهرجـــان أو المؤتمر، ولكنه أبى إلا أن يكون الرئيس هو شـــيخ الأزهر الشيخ عبد الحليم محمود.

وكانت دولة الهند إكرامًا للشـــيخ أبي الحسن، واعترافًا بمنزلته في العالم الإسلامي، قد استضافت عددًا من الضيوف، وهيأت لهم زيارة بعض المناطق السياحية، في دلهي، وفي تاج محل وغيرهما. وكان الشيخ عبد الحليم محمود، والشيخ الذهبي، والشيخ الأنصاري، والشيخ عبد المعز، وأنا، ممن نزلوا ضيوفًا على الدولة، وذهبنا للسلام على رئيس الجمهورية، وكان مسلمًا، وهو الدكتور ذاكر حسين، والمعروف أن رئيس الجمهورية في الهند ليس له سلطات تذكر، وإنما السلطة في قبضة رئيس الوزراء، على غرار النظام الإنجليزي.

- **زيارته لقطر:**

وفي عام (١٩٧٣م) زار الشيخ عبد الحليم محمود قطر، وزار المعهد الديني، وكنت ما زلت مديرًا له، وألقى كلمة للطلاب والمدرسين، وزار عدة أماكن في



قطر، منها كلية التربية التي كنت أدرس فيها بعض المواد، وكان عميدها الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم كاظم الذي كان عميدًا لكلية التربية بجامعة الأزهر.

- **شجاعة الشيخ ومواقفه:**

من مواقفه أنه بعد عودته من فرنسا كان يرتدي البدلة، غير أنه بعد سماع خطبة للرئيس عبد الناصر يتهكَّم فيها على الأزهر وعلمائه بقوله: إنهم يُفتون الفتوى من أجل ديكٍ يأكلونه. فغضب الشيخ، وشعر بالمهانة التي لحقت بالأزهر، فما كان منه إلا أنه خلع البدلة، ولبس الزيَّ الأزهريَّ، وطالب زملاءَه بذلك، فاستجابوا له تحديًا لعبد الناصر، ورفعًا للمهانة عن الأزهر وعلمائه.

كما كان له موقفه الشجاع نحو قانون الأحوال الشخصية، الذي روَّج له بعضُ المسؤولين بتعديله؛ بحيث يقيَّد الطلاق، ويُمنَع تعدد الزوجات، فانتفض الشيخ وقال: لا قيودَ على الطلاق، إلا من ضمير المسلم، ولا قيودَ على التعدد، إلا من ضمير المسلم. ولم يهدأ حتى أُلغي القرار.

وفي يوليو (١٩٧٤م) صدر قرارٌ جمهوري بتنظيم شؤون الأزهر، وتحديد مسؤولياته، على أن يكون الأزهر تابعًا لمسؤولية وزير شؤون الأزهر؛ مما أفقد الأزهر استقلالَه، فأسرع الشيخ بتقديم استقالته في أول أغسطس؛ احتجاجًا على القرارِ، ولم يعُد لمنصبه إلا بعد إلغاء القرار وصدور اللائحة التنفيذية التي تخوِّل للأزهر شؤونه.

- **توسعه في إنشاء المعاهد الأزهرية والكتاتيب:**

كان للشيخ عبد الحليم محمود بعد توليه مشيخة الأزهر دور كبير في انتشار المعاهد الأزهرية في القطر المصري، يقول الدكتور محمد رجب البيومي:

«أدرك الشيخ عقبى ما ينتظر الأزهر من قضاء على صميم رسالته الدينية، فجعل يجوب القرى والمراكز والمدن، ليدعو الناس إلى التبرع الحتمي كي ينشئوا المعاهد الدينية في كل مكان، وكان الرجل من قوة العزيمة ومضاء الهمة بحيث هانت عليه أعباء الطريق من أقصى الصعيد إلى أقصى الدلتا، فلم

يترك محافظة ما دون أن يتصل بذوي أمرها ودون أن يدعو الناس إلى استماع موعظته بالمسجد الجامع، ليعلن رغبته في إنشاء معهد ديني في الإقليم.

ثم امتد بنظره إلى مكاتب تحفيظ القرآن لتكون المدد الأولي للمعاهد، حيث تسلح الطالب الأزهري بحفظ قدر كبير من كتاب الله، وبذل ما بذل حتى ضم أكثر هذه المكاتب إلى إدارة الأزهر»[1].

• **دعوته لتطبيق الشريعة الإسلامية:**

ومن أهم دعوات الشيخ: دعوته إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، داعيًا وخطيبًا ومحاضرًا ومخاطبًا المسؤولين في البلاد، فكتب إلى كل من سيد مرعي رئيس مجلس الشعب، وممدوح سالم رئيس مجلس الوزراء، يطالبهما بالإسراع في تطبيق الشريعة الإسلامية، ويقول لهما: «لقد آن الأوان لإرواء الأشواق الظامئة في القلوب إلى وضع شريعة الله بيننا في موضعها الصحيح، ويبدلنا الله بعسرنا يُسرًا وبخوفنا أمنًا».

وكون لجنة بمجمع البحوث الإسلامية لتقنين الشريعة الإسلامية في صيغة مواد قانونية تُسهِّل استخراج الأحكام الفقهية على غرار القوانين الوضعية، وأتمت اللجنة تقنين القانون المدني كله في كل مذهب من المذاهب الأربعة.

• **وفاته** رَحِمَهُ اللَّهُ:

بعد عودته من الأراضي المقدسة أحس الشيخ بآلام شديدة، فأجرى عملية جراحية لقي الله بعدها في صبيحة يوم الثلاثاء الموافق (١٥ من ذي القعدة ١٣٩٨هـ، الموافق ١٧ من أكتوبر ١٩٧٨م، وقد كان آخر ما قاله الشيخ وهو يودع الحياة: (الله حق، والموت حق)، فكانت هاتان الجملتان آخر ما نطق به الإمام الأكبر في حياته، ثم ارتقى إلى ربه، رحم الله الشيخ الإمام رحمة واسعة.

* * *

---

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين (٢٢٨/١)، دار القلم ـ دمشق، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.



١٨ الإمام أبو الأعلى المودودي

أمير الجماعة الإسلامية في باكستان

(١٣٢١ ـ ١٣٩٩هـ = ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩م)

أبو الأعلى بن أحمد حسن مودودي، أمير (الجماعة الإسلامية) في باكستان والهند، ومؤسسها، وصاحب الكتب والرسائل التي قرأها المسلمون بلغات شتى.

ولد في الثالث من رجب سنة (١٣٢١هـ = ١٩٠٣م) في أورنج آباد في حيدر آباد، وتلقى تعليمه على يد والده، الذي كان تفرغ أواخر حياته للعبادة والتنسك، فتعلم القرآن والعربية والحديث والفقه والفارسية.

وترأس جريدة (مسلم) الأسبوعية التي كانت تصدر في العاصمة، وفي عام (١٩٣٢م) بدأ إصدار مجلة (ترجمان القرآن) الشهرية، التي أصبحت الوسيلة الرئيسية لتوجيه مسلمي شبه القارة الهندية.

في عام (١٣٩٩هـ) مُنح جائزة الملك فيصل تقديرًا لجهوده وتضحياته في خدمة الإسلام.

- **لقائي الأول بالعلَّامة المودودي:**

في سنة (١٩٦٠م) زار مصر الأستاذ الكبير العلَّامة أبو الأعلى المودودي، وكان يكتب تفسيره الشهير (تفهيم القرآن)، وكان يجتهد أن يتعرف على الأماكن التي ذكرت في القرآن في مواقعها، ومنها (مصر)، التي ذكرت في القرآن خمس مرات، ومنها: الطور، أو طور سيناء، أو طور سينين، وهل يمكن معرفة أين فلق البحر بعصا موسى؟ وأين مجمع البحرين؟ وأين أرض التيه؟

إلى غير ذلك من الأماكن التي ذكرت في القرآن، ولها علاقة بمصر، وقد سافر الشيخ إلى سيناء وغيرها من بلاد مصر.

وكان من برنامج الإمام المودودي: زيارة الشيخ شلتوت شيخ الأزهر، والعالم المجدد في فتاواه وبحوثه، والدكتور محمد البهي، المعروف بوقوفه في وجه الملاحدة والماديين والعلمانيين والمستشرقين.

وأذكر أني صحبت المودودي، بأمر أستاذنا محمد البهي؛ لأمرّ به على إدارات الأزهر المختلفة، وكان ممن مررنا بهم: مدير مجلة الأزهر الأستاذ أحمد حسن الزيات، الأديب المعروف، ومؤسس مجلة (الرسالة) التي كانت المجلة الأدبية الأولى في العالم العربي. وكان مما فاجأني به: أني لما قدمت الأستاذ المودودي إلى الأستاذ الزيات، وجدته لا يعرف عنه أي شيء! فوقفت أشرح له مكانة الأستاذ المودودي مؤسس (الجماعة الإسلامية) في باكستان والهند، وصاحب الكتب والرسائل التي شرِّقت وغرِّبت، وتُرْجِمَت إلى لغات شتى في أنحاء العالم، ومنها إلى اللغة العربية، وأن له مواقفَ كذا وكذا.. وأنا في خجل أن يكون مثقف كبير في مصر مثل الزيات لا يعرف عن المودودي وجماعته شيئًا. وكان مع المودودي الأستاذ عاصم حداد، مترجم كتبه إلى العربية.

وقد قابل المودودي في زيارته تلك الشيخ شلتوت في مكتبه بالأزهر، ورحَّب به الشيخ شلتوت كثيرًا، وأشاد بفضله ومنزلته في تجديد الفكر الإسلامي، وكان الشيخ شلتوت قد علق في إحدى مقالاته على رسالة (نظرية الإسلام السياسية) للأستاذ المودودي، وقد أودعناها كتابه (من توجيهات الإسلام) ـ الذي قمت بجمعه من مقالاته المتفرقة هنا وهناك، أنا وأخي أحمد العسال ـ ودعاه الشيخ شلتوت إلى زيارته في بيته، ومن الجميل أن الشيخ شلتوت عند زيارته له طلب منه أن يفسر له سورة الفاتحة، وحاول المودودي

أن يعتذر فأصر الشيخ، وفسرها الضيف تفسيرًا مختصرًا جميلًا. وهذا من أدب العلماء الكبار بعضهم مع بعض.

وقد بقي الأستاذ المودودي مدة في مصر، ثم عاد إلى باكستان.

• **كتاب (الحلال والحرام):**

كان أخونا الشيخ مصطفى جبر ـ وهو أحد المصريين الذي وصلوا إلى قطر قديمًا ـ قد قرأ كتابي الأول (الحلال والحرام)، بعد أن طبعه على نفقته الشيخ فهد بن علي آل ثاني، ليوزعه في قطر، وأعجب به إعجابًا شديدًا، فاستأذنني أن يرسل مجموعة من النسخ مع أحد الإخوة المسافرين إلى باكستان، فأرسل نسخة إلى العلَّامة أبي الأعلى المودودي، وعليها إهداء مني، ونسخة إلى جامعة البنجاب بلاهور، وأخرى إلى جامعة كراتشي.

وقد أرسل إلي الأستاذ المودودي يشكرني على إهداء الكتاب له، ويقول في رسالته: إني أعتز بهذا الكتاب، وأعتبره إضافة جليلة إلى مكتبتي.

• **رسالتي إلى المودودي:**

كان سبب هذه الرسالة أن بعض الإخوة اقترح عليَّ أن أراسل جامعة (البنجاب) في لاهور بجمهورية باكستان الإسلامية، لأستكمل الدراسات العليا هناك، بعد أن انسد الأمر في مصر، بسبب التضييق الأمني، وجامعة (البنجاب) جامعة عريقة، وفيها قسم للدراسات الإسلامية، ورئيس الجامعة العلَّامة علاء الدين الصديقي، الذي كان رئيسًا لقسم الدراسات الإسلامية من قبل، حين حصلت إحدى طالبات القسم (جميلة شوكت) على درجة الماجستير عن بحثها حول كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) فقال المحبذون: فالجامعة تعرفك ولا تجهلك، ورئيسها يعرفك ولا ينكرك، وهو على صلة طيبة بالأستاذ العلَّامة أبي الأعلى المودودي، أمير الجماعة الإسلامية، ويكن له كل مودة وتقدير. ورأى هؤلاء الإخوة أن من الخير أن أكتب للأستاذ أبي الأعلى

مودودي، وأعرض عليه الأمر، طالبًا مشورته بعد أن يكلم العلَّامة الصديقي.

وبادرت بكتابة رسالة إلى الإمام المودودي، شرحت له فيها الموقف، وانسداد الطرق في وجهي بالنسبة للدراسات العليا في مصر، ما دام الوضع الحالي باقيًا، وانفتاح فرجة أمامي في جامعة البنجاب، إلى آخر ما جاء في الرسالة.

وسرعان ما أجابني الأستاذ المودودي: أنه كلم صديقه البروفسور الصديقي، وأنه يرحب كل الترحيب بكم، وهو يعرفكم جيدًا، وكذلك أساتذة القسم الإسلامي في الجامعة، كلهم مرحِّبون ومتعاونون، ونصحني أن أسارع بالمجيء إلى لاهور، للتفاهم مع المختصين حول الخطوات التي يجب اتخاذها للوصول إلى الهدف. وحمدت الله تعالى أن فُتِح لي هذا الباب، وعقدت النية على الذهاب إلى لاهور بمجرد انتهاء العام الدراسي.

• **لقاء المودودي في لاهور:**

في مطار لاهور استقبلني بعض الإخوة أعضاء الجماعة الإسلامية، ومنهم الأستاذ رحمة إلٰهي، الأمين العام للجماعة، مندوبًا عن الأستاذ المودودي، ومعه الأخ الداعية الفاضل الشيخ خليل أحمد الحامدي، مدير القسم العربي في الجماعة، الذي يتحدث العربية بطلاقة.

أبى إخواننا في الجماعة الإسلامية إلا أن ينزلوني ضيفًا عليهم، فاشترطت عليهم أن تكون الضيافة لمدة ثلاثة أيام، ثم يدَعوني وشأني.

وفي المساء لقيت الإمام المودودي في دار الجماعة، ورحب بي هو وإخوانه جميعًا، ولا سيما نائبه الأستاذ طفيل محمد، ورتَّبوا لي عددًا من اللقاءات بأعضاء الجماعة، وخصوصًا جمعية الطلبة المسلمين، التي توجهها الجماعة، وزيارة بعض البلاد حول مدينة لاهور، وعقد بعض المؤتمرات الصحفية. ورحبتُ بهذا كله، ولكني طلبت أن يرتبوا لي زيارة لجامعة

البنجاب، ومقابلة رئيسها وأساتذتها، حتى لا نُضيع الأمرَ الذي جئت من أجله، وقالوا: هذا طبيعي ومنطقي بلا ريب.

والحقيقة أن الإخوة في الجماعة الإسلامية أكرموني غاية الإكرام، وفي كل يوم كان يدعونا أحدهم إلى وليمة، يدعى إليها مولانا المودودي وكبار الجماعة، وكان بعض الإخوة يريد أن يأخذ لنا صورة تذكارية بهذه المناسبة، ولكن المودودي ـ كعلماء باكستان والهند عمومًا ـ يشدِّدُون في أمر الصور؛ فكان الأستاذ المودودي يقول لهم: خذوا بمذهب القرضاوي الذي رجَّحه في (الحلال والحرام). والعجيب أني لم آخذ معي شيئًا من هذه الصور، فليت أحدًا من الإخوة الذين يقتنونها يتحفني بشيء منها، وله مني الشكر، ومن الله الأجر.

وكنت قد استأذنت الجماعة الإسلامية بعد ضيافة الأيام الثلاثة أن أنتقل إلى فندق مناسب، أقضي فيه ما بقي لي من أيام في لاهور، وقمت ببعض الأنشطة.

وقال مولانا المودودي لي: ليتك تذهب إلى دكَّا (عاصمة بنجلاديش)؛ فهي تحتاج إلى مثلك، في هذا الوقت الذي يعمل دعاة الانفصال، مؤيدين من أعداء باكستان وأعداء الإسلام.

قال المودودي: إنك ستجد باكستان الشرقية جنة الله في أرضه، وأنهارها أشبه بالبحار.

- **كتاب (فقه الزكاة):**

وبعد أن فرغتُ من كتاب (فقه الزكاة)، وظهر إلى عالم النشر والتوزيع في مجلدين، وبدأت أبعث بنسخ منه إلى كبار الشخصيات العلمية، في العالمين العربي والإسلامي، أرسلت نسخة منه إلى العلَّامة المودودي رَحِمَهُ اللَّهُ، وقال عنه: إنه كتاب القرن (أي: الرابع عشر الهجري) في الفقه الإسلامي. نقل ذلك عنه الأستاذ خليل أحمد الحامدي مدير القسم العربي بالجماعة الإسلامية بباكستان.

• **وفاة الأستاذ المودودي والصلاة عليه:**

في (١٩٧٩/٩/٢٢م)، نشـرت وكالات الأنباء العالمية والإقليمية، وعنها نقلت الصحف والإذاعات والتلفزيونـات، نبأ وفاة الداعية الإسـلامي المجدد الكبير: الشيخ أبي الأعلى المودودي، مؤسس الجماعة الإسلامية في الهند الكبرى، ثم في باكستان الغربية، والشرقية التي انفصلت فيما بعد، وسميت جمهورية (بنجلاديش)، وأحد المصلحين الإسـلاميين، والمؤلفين الكبار في القضايا الفكرية الإسلامية، والذي تشكل كتبه ورسائله مدرسة متميزة في الفكر الإسلامي، والدعوة الإسلامية المعاصرة. فلا عجب أن تلقى العلماء والدعاة والمفكرون، وأبناء الحركة الإسلامية في العالم الإسـلامي وخارجه: نبأ وفاته بالحزن والألم والاسـترجاع، لفقد هذا العالم الفذ، الذي انتفع بعلمه المسـلمون عربهم وعجمهم، فقد ترجمت مؤلفاته إلى لغات شتى إسلامية وعالمية، وفي مقدمتها: اللغة العربية.

• **أثر فقد العلماء الأعلام:**

ولا ريب أن فقـد العلماء الأعلام، يعدُّ من المصائـب التي تنزل بالأمة، ولا سـيما أولئك الأفذاذ الذين يجود بهم القدر بين الحين والآخر، ويتركون آثارهم في الحياة والأحياء، وقلما يعوضون. وقد جاء في الحديث المتفق عليه: **«إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور النـاس، وإنما يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا: اتخذ الناس رؤوسًـا جُهَّالًا، فسـئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا»**[١].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موت رجاله[٢].

ولذا قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: إذا مات العالم ثلمت في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه[٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) كلاهما في العلم، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه البيهقي في المدخل في السنن الكبرى (٣٨٨).

(٣) إحياء علوم الدين (٧/١).

وقال عمر رضي الله عنه: موت ألف عابد قائم الليل، صائم النهار: أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه[١].

• **وقع وفاة المودودي:**

ومن هنا كان وقع وفاة المودودي على كل مَن يعرفه من أبناء الأمة شديدًا، وقد تنادى كثير من الإخوة من العلماء والدعاة، من مصر وبلاد الشام، وبلاد الخليج، وغيرها للسفر إلى مدينة لاهور ـ محل إقامة المودودي ـ للمشاركة في صلاة الجنازة عليه. لم يبق في ذاكرتي منهم إلا الدكتور أحمد الملط من مصر، والشيخ سعيد حوى من سورية، والأستاذ عبد الله العقيل من السعودية. وكان المودودي قد وافاه أجله في أمريكا، حيث كان يعالج هناك من مدة، وقد قُدِّر لي أن أزوره هناك في مدينة (يفلو) حيث يقيم ابنه هناك، وذلك قبل وفاته بزمن غير بعيد.

وقد صُلِّي على جثمان المودودي في أكثر من بلد: صُلِّيَ عليه حيث توفي في (يفلو)، وصُلِّيَ عليه في مطار نيويورك، وفي مطار لندن، وفي مطار كراتشي، وهي المحطات التي مرَّ عليها جثمان الأستاذ.

• **سفري إلى لاهور:**

وكانت الصلاة الأخيرة والأساسية عليه في مدينة لاهور، التي سافرت إليها مع مَن سافر من بلاد العرب، وقد تجمع جمٌّ غفير، قُدِّروا بأكثر من مليون في أكبر نادٍ رياضي (إستاد) في لاهور. وقد سُرَّ الإخوة من قادة (الجماعة الإسلامية) بحضوري، وقدَّموني لأقول كلمة في جموع الحاضرين، قبل الصلاة، ثم شرفوني بإمامة المصلين على الأستاذ، ولم أرَ في حياتي تجمُّعًا لصلاة أو لغيرها، مثل هذا التجمع، الذي كان على رأسه رئيس جمهورية باكستان الرئيس ضياء الحق رحمه الله.

---

(١) المصدر السابق (٩/١).

وكان هذا التجمع الإسلامي الكبير دليلًا على مكانة هذا الرجل في قومه، وإن كان هناك مَن يخالفونه في بعض المسائل، ولكن جمهور علماء باكستان ودعاتها ومثقفيها، يعرفون منزلة الرجل، ويقدرون فكره وفقهه وجهاده، ووقوفه في وجه الحضارة الغربية الغازية. وقد قال بعض علمائنا السابقين لأهل البدع والمنحرفين: بيننا وبينكم الجنائز.

فالجنازة هي التي تعبر عن مكانة الفقيد عند الأمة، إذ لا يمكن أن يكون حرص الناس على الصلاة على الميت، ببواعث دنيوية من الخوف أو الطمع، وقد انتقل العالِم إلى رحمة الله، وغادر الدنيا إلى الآخرة؛ ولذا كان حرص أبناء المجتمع على تشييع جنازة العالم، والصلاة عليه: نوعًا من الوفاء له، والتعبير عن مدى حبهم له، وحرصهم على المشاركة في الدعاء له مع الداعين.

ومن الجنائز التي يتحدث عنها المؤرخون: جنازة الإمام أحمد في بغداد سنة (٢٤١هـ). ومنها: جنازة ابن الجوزي سنة (٥٩٧هـ) في بغداد. ومنها: جنازة شيخ الإسلام ابن تيمية في دمشق سنة (٧٢٨هـ).

وقد دفن الأستاذ المودودي في بيته حسب وصيته، وكنتُ أُوثِر أن يدفن في المقابر العامة كسائر المسلمين.

كان المودودي في كلِّ ما كتب الفارس المغوار، والصارم البتار، يقول ما يعتقد، ويعلن عما يقتنع به، ويؤمن بأنه الحقُّ، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا صولة ظالم، من العلمانيين أو المقلدين أو المتغربين أو الطاغين.

ولا يرتاب مسلم دارس في إمامة المودودي وعبقريته، في فكره الإسلامي الرحب، الذي تناول فيه قضايا الإسلام، من تفسير ختم فيه القرآن الكريم، وعن دراسة للسنة، وردٍّ على الذين زعموا أنفسهم قرآنيين، بدعوى أنهم يعملون حديث رسول الله ﷺ، الذي روته الأمة وخدمته، وأقامت لخدمته تسعين عِلْمًا من علوم الحديث، وقامت مكتبة ضخمة لهذه العلوم، عكف

عليها العلماء، ولكن سبحان من له الكمال، وكل يؤخذ منه ويرد عليه إلا رسول الله ﷺ، وقد انتُقِد على الإمام المودودي عدة أمور، منها:

١ ـ قضية الحاكمية:

مما انتقض على الأستاذ المودودي: أنه أول مَن نادى بفكرة (الحاكمية)، التي اقتبسها منه الشهيد سيد قطب، ويُحَمِّل المنتقدون هذه الفكرة وزر (التكفير) وجماعاته، كما أنها قديمًا كانت سبب فتنة الخوارج الذين قالوا: لا حكم إلا لله!.

صحيح أن قضية (الحاكمية) قد ألحَّ عليها الأستاذ المودودي إلحاحًا بيِّنًا، حتى تكاد تُعتبر هي المحور المركزي الذي يدور حوله كثير من أفكاره ونظراته.

والفكرة في ذاتها إسلامية أصولية صحيحة، وقد سبق أن قرَّرها علماء أصول الفقه من قرون، فها نحن نجد إمامًا مثل أبي حامد الغزالي يتحدَّث في مقدِّمات كتابه الشهير (المستصفى من علم الأصول) عن (الحكم) الذي هو أول مباحث العلم، وهو عبارة عن خطاب الشرع، ولا حكم قبل ورود الشرع، وله تعلُّق بالحاكم وهو الشارع، وبالمحكوم عليه وهو المكلَّف، وبالمحكوم فيه وهو فعل المكلف، ثم يقول: «وفي البحث عن الحكم يتبيَّن أن (لا حكم إلا لله)، وأنه لا حكم للرسول، ولا للسيِّد على العبد، ولا لمخلوق على مخلوق، بل كل ذلك حكم الله تعالى ووضعه، لا حكم لغيره»[(١)].

إن إثبات (الحاكمية) لله أمر مقرَّر في الإسلام، وانفراد الله تعالى بالحاكمية لخلقه أحد عناصر التوحيد التي قرَّرها القرآن، وخصوصًا في (سورة الأنعام)، وهي ثلاثة عناصر أساسية:

أ ـ ألا يتخذ غير الله وليًّا: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

ب ـ ألا يبتغي غير الله حَكَمًا: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

---

(١) المستصفى، لأبي حامد (٨/١)، طبعة دار صادر ـ بيروت، مصورة عن طبعة بولاق.

ج ـ ألا يبتغي غير الله ربًّا: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وعلى كلِّ حال، إذا كان المراد من الحاكمية: السيادة والهيمنة التشريعية العليا والمطلقة، التي تملك وحدها الأمر والنهي، والإذن والمنع، والتحليل والتحريم، والإلزام والإيجاب؛ فهذه لا شكَّ أنها لله وحده، فهو الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وله وحده أن يكلِّف خلقه بما يشاء، ويعفيهم مما يشاء.

وأما إن كان المراد بهذه (الحاكمية): منع البشر من التقنين مطلقًا، ورفض أي حاكمية بشريَّة مقيَّدة، كما كان رأي الخوارج الساذج قديمًا، حينما رفضوا التحكيم بين المسلمين فيما تنازعوا فيه، وقالوا: لا حكم إلا لله؛ إن كان هذا هو المراد بالحاكمية، كما قد يُفهم أحيانًا من بعض عبارات العلَّامة المودودي وسيد قطب، فهو أمر مرفوض.

وقد ردَّ حَبر الأمة ابن عباس على الخوارج، وحاجَّهم بكتاب الله، الذي شرع التحكيم بين الزوجين إذا خيف شقاق بينهما فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥].

وفي قتل المحرم للصيد، قال: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

ويجب على الدارس المنصف هنا: أن يضمَّ كلام المودودي بعضه إلى بعض، ولا يكتفي بكتاب عن آخر، ولا بفترة عن أخرى، فربَّما صنَّف بعض الكتب والرسائل وهو في سنِّ الشباب الدافق المتحمِّس، قبل تقسيم الهند وظهور دولة باكستان الإسلامية، وقبل اكتمال نضجه وتجربته، فقد كتب رسالة موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه) في سنة (١٩٤٠م)، وهي في الأصل مقالة مطوَّلة نُشرت في مجلة (الفرقان)، في عددها الخاص بذكرى الإمام المجدِّد ولي الله الدهلوي (ت: ١١٧٦هـ).

وأحب أن أنبه هنا إلى أن (الحاكمية) التي قال بها المودودي، ونقلها عنه سيد قطب، وجعلاها لله وحده، لا تعني أن الله تعالى هو الذي يولي العلماء والأمراء،

يحكمون باسمه، بل المقصود بها الحاكمية التشريعية فقط، أما سند السلطة السياسية، فمرجعه إلى الأمة، هي التي تختار حكامها، وهي التي تحاسبهم، وتراقبهم، بل تعزلهم. والتفريق بين الأمرين مهم، والخلط بينهما موهم ومضلِّل، كما أشار إلى ذلك الدكتور أحمد كمال أبو المجد في بحث له[١]، فليس معنى الحاكمية الدعوة إلى دولة ثيوقراطية، بل هذا ما نفاه الأستاذ المودودي رَحِمَهُ اللَّهُ.

فقد أخذ بعض الناس جزءًا من كلامه وفهموه على غير ما يريد، ورتبوا عليه أحكامًا ونتائج لم يقل بها، ولا تتفق مع سائر أفكاره، ومفاهيم دعوته، التي فصَّلها في عشرات الكتب والرسائل، والمقالات والمحاضرات.

وهذا ما يحدث مع كلام الله تعالى وكلام رسوله، إذا أُخِذَ جزء منه معزولًا عن سياقه وسباقه، وعن غيره مما يكمِّله أو يبيِّنه أو يقيِّده، فكيف بكلام غيرهما من البشر؟!.

فقد ذكر المودودي خصائص الديمقراطية الغربية ثم قال: «وأنت ترى أنها ليست من الإسلام في شيء. فلا يصح إطلاق كلمة (الديمقراطية) على نظام الدولة الإسلامية، بل أصدق منها تعبيرًا كلمة: الحكومة الإلٰهية أو الثيوقراطية»[٢].

ثم استدرك فقال: «ولكن الثيوقراطية الأوربية تختلف عنها الحكومة الإلٰهية (الثيوقراطية الإسلامية) اختلافًا كليًا، فإن أوربة لم تعرف منها إلا التي تقوم فيها طبقة من السدنة مخصوصة، يشرعون للناس قانونًا من عند أنفسهم، حسب ما شاءت أهواؤهم وأغراضهم، ويسلطون ألوهيتهم على عامة أهل البلاد، متسترين وراء القانون الإلٰهي، فما أجدر مثل هذه الحكومة أن تسمى بالحكومة الشيطانية منها بالحكومة الإلٰهية!.

وأما الثيوقراطية التي جاء بها الإسلام، فلا تستبد بأمرها طبقة من السدنة

---

(١) انظر: رؤية إسلامية معاصرة، ص٢٩ ـ ٣٠، ط: الشروق ـ القاهرة.

(٢) راجع: نظرات في فكر المودودي، والدين والسياسية، ص١٤٠ ـ ١٤٤، طبعة المجلس الأوربي للإفتاء، وبينات الحل الإسلامي، ص١٦٢ ـ ١٦٧، مكتبة وهبة، الطبعة الخامسة، ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م.

أو المشايخ، بل هي التي تكون في أيدي المسلمين عامة، وهم الذين يتولون أمرها، والقيام بشؤونها، وفق ما ورد به كتاب الله وسنة رسوله.

ولئن سمحتم لي بابتداع مصطلح جديد لأثرت كلمة (الثيوقراطية الديمقراطية) أو (الحكومة الإلٰهية الديمقراطية) لهذا الطراز من نظم الحكم؛ لأنه قد خوَّل فيها للمسلمين حاكمية شعبية مقيدة، وذلك تحت سلطة الله القاهرة، وحكمه الذي لا يُغْلَب.

ولا تتألف السلطة التنفيذية إلا بآراء المسلمين، وبيدهم يكون عزلها من منصبها، وكذلك جميع الشؤون التي يوجد عنها في الشريعة حكم صريح، لا يقطع فيها بشيء إلا بإجماع المسلمين، وكلما مست الحاجة إلى إيضاح قانون أو شرح نص من نصوص الشرع، لا يقوم ببيانه طبقة أو أسرة مخصوصة فحسب، بل يتولى شرحه وبيانه كل مَن بلغ درجة الاجتهاد من عامة المسلمين. فمن هذه الوجهة يعد الحكم الإسلامي (ديمقراطيًا)»[١].

ومع أنه أشهر من نادى بالحاكمية، وتشدد فيها ـ قد بيَّن في كلامه أن للناس متسعًا في التشريع فيما وراء القطعيات والأحكام الثابتة والحدود المقرَّرة. وذلك عن طريق تأويل النصوص وتفسيرها، وعن طريق القياس، وطريق الاستحسان، وطريق الاجتهاد[٢].

٢ ـ موقفه من التاريخ الإسلامي:

الأستاذ المودودي من العلماء الذين انتقدوا التاريخ الإسلامي بشدة، وكان هذا من النقاط التي أثارت عليه نقمة علماء الهند وباكستان، فقد تناول بعض الصحابة بما لا يليق بصحبتهم لرسول الله ﷺ، مثل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، دع عنك ما ذكره عن معاوية بن أبي سفيان، وبني أمية.

---

(١) نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، لأبي الأعلى المودودي، ص ٣٤ ـ ٣٦، طبعة دار الفكر.

(٢) انظر مجموعة: نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، ص ١٧١ وما بعدها.

وقد أثبت رأيه هذا في أكثر من كتاب له، ولا سيما كتبه: (الخلافة والملك) و(موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه) و(الحكومة الإسلامية).

ووجه الأستاذ المودودي ضربة قاضية إلى الحضارة التي نسميها (إسلامية) في قرطبة وبغداد ودمشق ودلهي والقاهرة، وقطع أي صلة لها بالإسلام، لما كان في قصور حكامها من الترف والملذات الدنيوية.

واختصار الحضارة في الملذات الدنيوية، فيه ظلم كبير لهذه الحضارة، التي تركت علومًا وآدابًا وثقافة وفنونًا، كان للإسلام ـ بلا شك ـ بصماته على كثير منها، بجوار ما تركت من روحانيات وقيم وأخلاقيات، لا أحسب أن المودودي يجحدها.

ويرى المودوي: أن الإسلام لا دخل له ولا صلة إطلاقًا بهذه الحضارة، ويضرب مثلًا لذلك بـ(تاج محل) بمدينة (أكرا) بالهند، الذي يعتبر من روائع الفن المعماري في تاريخ المسلمين، على حين ينظر إليه المودودي أن شاه جهان الإمبراطور المغولي أقطع رقعة كبيرة من الأرض، وأنفق عليه ملايين الروبيات أو الجنيهات، لكي يدفن فيه جثة ميتة!.

ولكن هناك من ينظر إلى هذا الأمر من زاوية أخرى؛ فهذا الملك أراد أن يبين للناس، ويسجل للتاريخ مدى الرقي العمراني، ومبلغ الدقة الهندسية، ومقدار التقدم الفني في عهده، حتى لا يُتَّهم المسلمون بأنهم بَدْوٌ متخلفون في ميدان التحضر والارتقاء الهندسي والعمراني.

وأود أن أسجل هنا: أن رأي المودودي في التاريخ الإسلامي ـ وإن انتقدناه وأنكرناه ـ لا ينال من إمامته ومكانته الفكرية والدعوية، فكفى المرء نبلًا أن تعد معايبه، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث[1].

* * *

(١) راجع مناقشتنا للأستاذ المودودي في كتابنا: تاريخنا المفترى عليه، ص ٤٧ ـ ٥٧، ٦٨ وما بعدها.

١٩ الأستاذ محمد المبارك
(١٣٣١ ـ ١٤٠٢هـ = ١٩١٢ ـ ١٩٨١م)

في شهر ديسمبر من عام (١٩٨١م)، الموافق صفر (١٤٠٢هـ)، توفي العالم والوزير والكاتب والمفكر والداعية والمربي والسياسي الإسلامي المعروف الأستاذ محمد بن عبد القادر بن محمد المبارك الشريف الحسني، في المدينة المنورة، والده عبد القادر المبارك وجده محمد المبارك، وكلاهما من علماء اللغة والأدب.

ولد الأستاذ محمد المبارك في دمشق سنة (١٣٣١هـ = ١٩١٢م).

جمع الأستاذ محمد المبارك في دراسته بين الدراسة النظامية وطلب العلم على المشايخ، فدرس الابتدائية ثم الثانوية في مدارس دمشق، ثم أكمل دراسته الجامعية في جامعة دمشق، فدرس في آن واحد في كليتي الحقوق والآداب، وأنهى الدراستين معًا في سنة (١٩٣٥م)، وكان في المساء يدرس على الشيخ محمد بدر الدين الحسني، وقد استفاد المبارك من علمه، وقرأ عليه النحو والصرف والتفسير والمصطلح والفرائض وأصول الفقه والكلام والبلاغة والحساب والجبر والهندسة، ودرس كذلك على الشيخ سليم الجندي، وعلى والده العلَّامة اللغوي الشيخ عبد القادر علوم اللغة العربية.

وبعد تخرجه في الجامعة السورية، أوفدته الدولة إلى جامعة السوربون في باريس ليدرس في كلية الآداب وفي معهد الدراسات الإسلامية التابع لها ثلاث سنوات، والتقى هناك الأمير شكيب أرسلان، ودرس بالإضافة إلى الأدب العربي والثقافة الإسلامية، الأدب الفرنسي وعصوره وفنونه وأعلامه، ودرس ـ أيضًا ـ علم الاجتماع.

تعرف في باريس إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان يتردد على نواديهم ويتعاون معهم في مجال الدعوة الإسلامية التي كانت أشمل من محاربة الاستعمار والتحرر والاستقلال.

بعد عودته من فرنسا عمل بتدريس الأدب للمرحلة الثانوية بمدينة حلب، ثم دمشق، ودرَّس كذلك في دار المعلمين العليا.

بعد جلاء القوات الأجنبية عن سورية، عين الأستاذ محمد المبارك عضوًا في اللجنة الفنية للتربية ومفتشًا اختصاصيًا لسورية لمادتي اللغة العربية والدين، وكثيرًا ما كان يكلف بتفتيش مواد اللغة الفرنسية والفلسفة لعدم وجود مفتشين لهذه المواد يومئذ.

وفي تلك الفترة كُلف بوضع مناهج اللغة العربية والدين للمدارس الثانوية منفردًا، وعمل في ذلك عملًا جادًا استغرق نحو شهرين، أنجز خلالهما وضع مناهج المادتين لجميع سنوات التعليم الثانوي الست.

في عام (١٩٤٧م) رشح نفسه للانتخابات النيابية عن مدينة دمشق تلبية لرغبة رابطة العلماء والجمعيات الإسلامية، وقد انتخب ثلاث مرات عن مدينة دمشق خلال الفترة من (١٩٤٧م) إلى (١٩٥٨م).

كما عين المبارك خلال الفترة من (١٩٤٩م) إلى (١٩٥٢م) وزيرًا للأشغال العامة، ثم وزيرًا للمواصلات، ثم وزيرًا للزراعة.

بعد الوحدة بين مصر وسورية، انصرف عن العمل السياسي إلى العمل الجامعي العلمي، وفضَّل التدريس والكتابة وإلقاء المحاضرات، ليرفع مستوى الوعي الإسلامي العام عند الجماهير الإسلامية.

تولى عمادة كلية الشريعة في جامعة دمشق وذلك بعد عميدها الأول الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي.

عمل الأستاذ المبارك بعدة جامعات عربية منها جامعة أم درمان الإسلامية في السودان أستاذًا ومشاركًا في التخطيط ورئيسًا لقسم الدراسات الإسلامية، ودرس كذلك في كلية الحقوق بجامعة الخرطوم مادة السياسة الشرعية.

وعُين أستاذًا ورئيسًا لقسم الشريعة والدراسات الإسلامية في كلية الشريعة بمكة المكرمة، وكان قد اشترك في وضع خطتها وبعض مناهجها، ثم عُين أستاذًا باحثًا ومستشارًا في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وفي أثناء تلك الفترة عمل أستاذًا زائرًا في الجامعة الأردنية.

وبقي يمارس التدريس في الجامعات حتى وفاته.

كان الأستاذ المبارك عضوًا في مجمع اللغة العربية (المجمع العلمي) بدمشق، وعضوًا في المجلس الأعلى الاستشاري في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

كان للأستاذ المبارك نشاطه الدعوي ومحاضراته في مدن سورية وقراها، شارك في عدد من الجمعيات الإسلامية، فكان أول رئيس لجمعية الشبان المسلمين في دمشق، ولما أسس الدكتور مصطفى السباعي مدرسة الدعوة في دمشق كان المبارك يحاضر فيها هو والسباعي وثلة من الأساتذة المرموقين.

والأستاذ المبارك من مؤسسي جماعة الإخوان المسلمين في سورية، وكان ممثلهم في البرلمان السوري، وكان الساعد الأيمن للسباعي ومستشاره السياسي والتنظيمي والاجتماعي.

وبعد أن غادر سورية بقي المبارك على صلات طيبة مع الإخوان فكان مع الإخوان السوريين حيث يوجد إخوان سوريون، وكان مع الإخوان في سائر الأقطار التي يزورها أو يقيم فيها، يقدم لهم إرشاداته ونصائحه، ويعطيهم تجاربه العلمية التي اكتسبها طوال عمره السياسي والتنظيمي. وكان له دور في

ترشـــيد الحركة الإسلامية، وتقديم النصح والمســـاعدة المادية والمعنوية من خلال عمله.

الأستاذ المبارك أحد كبار العلماء السوريين، المجدّدين المعتدلين، الذين تتجلَّى في إنتاجهم الأصالة التي تُعبِّر عن ذاتيَّة الأمة، ورســـالتها الإسلامية، والمعاصرة التـــي تعرف الغرب وثقافته ومدارســـه المختلفة، نظـــرًا لمعرفته بالفرنسية.

- **تعرُّفي على الأستاذ المبارك:**

عرفت الأستاذ محمد المبارك صورة واسْمًا (صورة شمسية طبعًا) في سنة (١٩٤٨م)، في سجل التعارف الإسلامي، في صفحة من صفحات مجلةٍ عزيزة علينا، كانت تصدر في مصر اسمها (الشهاب)، صدر منها خمسة أعداد فقط، ثم ذهب صاحبها ومؤسّســـها بيد الغدر، مؤسســـها هو الإمام الشهيد (حسن البنا)، مؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة في هذا الشرق العربي.

في مجلة الشـــهاب كان (سجل التعارف الإســـلامي)، وكانت صورة، وكان اسم، بل كانت صور وأسماء لعدد من الرجال العاملين في الحقل الإسلامي، وفي الفكر الإسلامي، في العالم الإسلامي، كان منهم اسم محمد المبارك ورسمه.

ثم ظهرت بعض مؤلفات وبحوث للأستاذ محمد المبارك، فازددنا تعرفًا عليه وإعجابًا به وحبًّا له، ثم جمعتنا بـــه الظروف فيما بعد في مصر، فازددنا إعجابًا به وتقديرًا له، وعرفنا أنه من خيرة الرجال.. نقول ذلك ولا نزكّي على الله أحدًا.

فهناك من الأشـــخاص من تســـمع عنهم، فإذا لقيتهم زهدتَ فيهم، لكن الأستاذ المبارك كان معنا كما قال الشاعر قديمًا:

كانت مُحَادَثـــةُ الرُّكْبـــانِ تُنْبِئُنا ... عن جابرِ بنِ رِبَاحٍ أطيبَ الخَبَرِ
حتَّى التقينا فلا واللهِ ما سمعتْ ... أُذني بأحسَنَ ممَّا قد رأى بَصَرِي

• **تقريره عن كتابي (الحلال والحرام):**

ثم عرفته أكثر حين أحال إليه أستاذنا الدكتور محمد البهي المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف مسودة كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) ليكتب تقريرًا عنه يتضمن رأيه فيه: هل يصلح أن يتبنَّاه الأزهر ليترجم إلى اللغة الإنجليزية أم لا؟ وإنما اختاره الدكتور البهي لمعرفته بالثقافة الغربية والعقلية الغربية، بجوار ثقافته الإسلامية، وبهذا يملك القدرة على معرفة مدى صلاحية الكتاب لمخاطبة الغرب.

وقد كتب تقريرًا متميِّزًا عن الكتاب، قال فيه: إنَّ المؤلف توخَّى فيه الاعتدال في أحكامه.

وقال: إنَّ الكتاب جيد في بابه، ضروري في موضوعه، وإذا استدركت فيه بعض الملاحظات، كان خير كتاب في هذا الموضوع فيما أعلم.

وقد كان له بعض أسئلة واستفسارات سألني عنها، وأجبته عنها، وبعض أشياء ناقشني فيها، سلَّمت له ببعضها وعدَّلته، وبعضها سلَّم لي بها.

• **اجتماعي به مع الدكتور السباعي:**

ثم شاء الله أن يزور مصر، وأن يجمعني به الدكتور البهي، ويعرِّفني عليه، ويعرِّفه عليَّ، وكان هو مع علَّامةِ سورية الأستاذ الشيخ الدكتور مصطفى السباعي، وقد صنع لهما الدكتور البهي حفل شاي تكريمًا لهما، وأبى فضله إلا أن أحضر معهما، برغم حداثة سنِّي، ودنوّ مرتبتي الوظيفيَّة، وقد أهداني السباعي كتابه (السنة ومكانتها في التشريع).

ومن اللطائف: أني حين لقيت الأستاذ المبارك بعد ذلك في إحدى زياراته للقاهرة في أيام الوحدة مع سورية، أخبرني بقصته مع كتابي، قال لي: كنت أقرأ مسودة الكتاب، فيعجبني تناوله للموضوع، وبيان الحكم والحكمة، وربطه بتعاليم الإسلام العامة، فأقول في نفسي: هذا الشخص واعٍ فاهم لما

يكتب، ولكن الغريب أنه غير معروف، وكان شقيقي مازن المبارك يحضّر الدكتوراه في جامعة القاهرة، فعاد يومًا إلى دمشق، فسألته: هل تعرف شخصًا اسمه يوسف القرضاوي؟.

قال: كيف لا أعرفه، وكم صليت وراءه الجمعة في جامع الزمالك بالقاهرة؟ وهو كذا وكذا وكذا.. وظل يعدد لي من مناقب القرضاوي ما لم أكن أعلمه.

قلت له: الآن زدتني اطمئنانًا إلى هذا الشخص الذي قرأت له ما عرفت به أني قد تعرفت على عالم جديد له مستقبله إن شاء الله.

- **محاضرته في قاعة محمد عبده (نحو وعي إسلامي رشيد):**

وبعد ذلك توثَّقت علاقتي بالأستاذ المبارك، بمناسبات شتى، وأول ما لقيته بعد ذلك بمناسبة محاضرته التي ألقاها في قاعة الشيخ محمد عبده، وكانت بعنوان: (نحو وعي إسلامي رشيد).

- **كلمته في كتابي (فقه الزكاة):**

ومما لا أنساه للأستاذ المبارك ما كتبه عن كتابي (فقه الزكاة) في تقديمه كتابه عن (نظام الاقتصاد الإسلامي) الذي قال في تقدير منه:

«ومن الكتب الحديثة ما هو خاص بموضوع مُعيَّن، ومن هذا النوع كتاب (فقه الزكاة) للأستاذ يوسُف القَرَضاوي، وهو موسوعة فقهيَّة في الزكاة، استوعبت مسائلها القديمة والحديثة، وأحكامها النصيَّة والاجتهاديَّة، على جميع المذاهب المعروفة المدوَّنة، لم يقتصر فيها على المذاهب الأربعة، مع ذكر الأدلة ومناقشتها، وعرض لما حَدَث من قضايا ومسائل، ومع نظرات تحليليَّة عميقة.. وهو بالجملة عمل تنوء بمثله المجامع الفقهية، ويُعتبر حَدَثًا هامًّا في التأليف الفقهي.. جزى الله مؤلفه خيرًا»[1].

---

(١) نظام الإسلام.. الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة، ص ١٨، دار الفكر ـ بيروت، ط: الثانية، ١٣٩٤هـ = ١٩٧٣م.

• **استدعاؤه لجامعة قطر:**

وبعد انتقاله إلى المملكة العربية السعوديَّة، ثم بعد أن أُسِّست جامعة قطر، استدعاه الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم كاظم مدير جامعة قطر، ليلقي محاضرات في علم الاجتماع، من وجهة نظر إسلامية، فألقى محاضرات ضمَّها كتابه: (نحو مجتمع إسلامي معاصر).

• **تقديمي لمحاضرته عن (الإسلام والتنمية الصناعية):**

وفي هذه الفترة ألقى محاضرته عن (الإسلام والتنمية الصناعية)، وقد وكَّل إليَّ الدكتور كاظم أن أتولَّى تقديمه. وكان تقديمي المرتجل هو الذي قامت أسرة الأستاذ المبارك رحمه الله بتفريغه، وقدَّمت به كتابه: (الإسلام والتيَّارات الفكرية العالمية).

وفي هذا قلت:

«فيسعدني في هذه الليلة الطيبة أن أقدِّم إليكم، بالنيابة عن هذه الكلية الفتية، وعن اللجنة الثقافية بها، عَلَمًا من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، ورجلًا من رجالات العلم والدعوة إلى الإسلام، ذلك هو الأستاذ الكبير: محمد المبارك.

والأستاذ محمد المبارك غنيٌّ عن التعريف، ولكن جَرَت العادة أن يقدِّم المقدِّم كل محاضر بنبذة عن حياته.

• **جمعه بين الثقافتين الدينية والمدنية:**

الأستاذ المبارك من الذين جمعوا بين الثقافتين، وهذا هو العنصر المفقود الذي نشكو من ندرته، بل من فقدانه في حياتنا.

هناك أناس درسوا دراسة مدنية، وهناك أناس درسوا دراسة دينية، وبين الطائفتين فَجْوة أو جَفْوة، ولكنْ قليل من الناس من جَمَع بين الدراسة الدينية

وبين الدراسة المدنية، من جَمَع بين القديم والحديث، بين علم الشرق وثقافة الغرب.. أحد هؤلاء كان الأستاذ المبارك، فقد درس على الطريقة القديمة، درس تلقائيًا على الشيوخ، على الحلقة، درس على والده اللغوي الكبير العلَّامة الشيخ عبد القادر مبارك رَحِمَهُ اللَّهُ، فهو والحمد لله من أسرة علمية دينية، حيث كان والده وكان جدّه من علماء دمشق المعدودين.

• **دراسته ووظائفه:**

ودرس على كبار الشيوخ في دمشق علوم الدين واللغة، ثم درس الدراسة النظامية في المدارس الابتدائية والثانوية، ثم درس في الجامعة، حيث تخرج في كلية العلوم ومدرسة الآداب العليا في سنة (١٩٣٥م)، ثم ذهب إلى باريس حيث بقي هناك ثلاث سنوات، فعاد منها بعد أن تخرَّج في جامعة السوربون في الأدب والاجتماع، وعاد من يومها يعمل في حقل التربية والتعليم في المدارس الثانوية، مفتِّشًا وعضوًا في اللجان الفنيّة المختصّة بالمناهج الخاصة بتدريس الدين واللغة العربية.

ثم انتقل بعد ذلك سنة (١٩٤٨م) إلى الجامعة، حيث عمل مدرسًا بها، وعمل في كلية الشريعة من يوم تأسيسها برتبة أستاذ، ورئيسًا لقسم الأديان ومقارنة المذاهب، ثم عميدًا لكلية الشريعة.

ثم انتقل من سورية إلى بلاد عديدة، حيث عمل في جامعة أم درمان الإسلامية في الدراسات الإسلامية، كما عمل في جامعة الملك عبد العزيز أستاذًا ومستشارًا، وعمل في كلية الشريعة بمكة أيضًا رئيسًا لقسم الشريعة.

• **مشاركته في التخطيط التربوي:**

وأسهم بنصيب ملحوظ في التخطيط التربوي، وفي العمل في المناهج والخطط التربوية فيما يتعلق بالدين واللغة والأدب في الثانويات الشرعية في سورية، وفي الثانويات العامة، وفي كلية الشريعة في الأزهر في عهد

تطوير، وفي جامعة أم درمان الإسلامية، وفي كلية الشريعة بمكة، وفي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وفي المعهد العالي بالرياض، في كل هذه المواطِن: كان الأستاذ مبارك أحد الذين شاركوا في التخطيط والتوجيه والتأثير.

وقد اختير عضوًا في المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ إنشائها، كما أنه عضو بالمجمع العلمي العربي بدمشق.

• **عمله في حقل الدعوة الإسلامية:**

الأستاذ المبارك منذ ريعان الشباب كان يعمل في حقل الدعوة الإسلامية، وحينما ذهب سنة (١٩٣٥م) إلى باريس كان مهتمًا بالدعوة إلى الإسلام، وبالتيارات المعادية للإسلام، وبخاصة الشيوعية. كان يحضر مؤتمرات الشيوعيين، ويندسُّ فيهم على أنه واحد منهم، وقد يظهر الموافقة على مقرَّراتهم، حتى يعرف ما لديهم، فالإنسان لا يستطيع أن يحارب عدوًّا حتى يعرف ماذا عنده.

اشترك بنشاطه في رابطة علماء دمشق، واشترك في تأسيس عدد من الجمعيات الإسلامية، وكان له دور ملحوظ في العمل الإسلامي، وفي الدعوة الإسلامية في سورية.

هذا هو الأستاذ محمد المبارك كعالم وكداعية وسياسي.

وأحب أن أتحدّث عن الأستاذ المبارك كمفكّر. الحقيقة أنا قد نجد كثيرًا من الناس وعّاظًا أو دعاة، لكننا قلّما نجد الداعية العالم المتمكِّن، وقد تجد داعية العالم، ولكنك قلّما تجد العالم المفكر الذي يفكر للإسلام ويفكر بالإسلام، أي: يفكر بمنطق الإسلام، وبمنطق من أصوله ونصوصه وروحه العامة، لكنّنا نحمد الله تعالى أن كان الأستاذ المبارك أحدَ الذين يفكرون بالإسلام ويفكرون للإسلام، وهكذا عاش لهذا الدين وعاش بهذا الدين.

هو أحد العقول القلائل في هذا العالم الإسلامي التي تفكّر بالإسلام وتفكر للإسلام، ولو أحببنا أن نعُدَّ عشرة عقول في العالم الإسلامي تفكر للإسلام وبالإسلام، لكان الأستاذ المبارك من ألمعها، ونحمد الله على ذلك.

- **نظرته الشمولية للإسلام:**

إنَّ من خصائص تفكير الأستاذ المبارك النظرة الشمولية للإسلام. إنَّ عيبَ كثيرين أنهم يأخذون الإسلام مُجَزَّأً، يأخذون جانبًا وينْسون جانبًا، أو جوانب، ولكن الذين وفّقهم الله، هم الذين ينظرون إلى الإسلام من جميع جوانبه، لا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، إنما يؤمنون بالكتاب كلِّه، وبالإسلام كله، فالإسلام وحدة لا تتجزأ، الإسلام كلٌّ شامل.

- **اقتراحه تدريس مادة (نظام الإسلام) في الجامعات:**

وهذه هي نظرة الأستاذ المبارك، وعلى هذا الأساس كان يتبنّى في كل ما شارك فيه من مناهج التربية في الجامعات الإسلامية والعربية.. فكرة تدريس مادة اقترح أن تُسمّى (نظام الإسلام)، مادة يدرَّسُ فيها الإسلام كله، كوحدة لا تتجزأ، اقترح ذلك في جامعة الأزهر، وفي جامعة أم درمان، وفي الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وفي جامعة الملك عبد العزيز، واقترح ذلك في كل جامعة شارك فيها.

مادة نظام الإسلام: أن يُنظر إلى الإسلام كلِّه شاملًا، ويُدرس على هذا الأساس.

وهو قد شارك في هذا، وألّف في هذا بالفعل، وقد نال تأليفه في هذا الموضوع إعجاب كثيرين من أهل الشرق والغرب، وحتى من المستشرقين أنفسِهم على قلّة المنصفين منهم.. هذه النظرة الشاملة يتميَّز بها تفكير الأستاذ المبارك، ومؤلفات الأستاذ المبارك.

• **اعتداله وتوازنه:**

كذلك يتميز الأستاذ المبارك بالاعتدال، والتوازن.. إنه يجتهد أن يحكم بين المختلفين بالقسط، ولا يقف مع طرف ضدَّ طرف آخر.. إنه يحاول أن يقف الموقف الذي وصف الله به أمة الإسلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

إنه في المواقف التي يقف الناس فيها عادة كلٌّ منهم في طرف يحارب الآخر، كمعارك الصوفية والسلفية، أو المذهبية واللامذهبية.. أو غير ذلك، تجده يقف الموقف المعتدل، الذي ينبع من روح الإسلام، ومن فلسفة الإسلام، فلسفة الوسطية في الإسلام، وفلسفة التوازن في الإسلام.

• **دعوته إلى تسليف الصوفيين وتصويف السلفيين:**

ومن كلماته اللطيفة التي سمعتها منه أخيرًا أن يقول مع جماعة الصوفيين وجماعة السلفيين: (إن منهجي هو تسليف الصوفيين، وتصويف السلفيين) أي: إن هناك بعض السلفيِّين فيهم نوع من الجفاف الروحي، وهناك كثير من الصوفية أيضًا فيهم نوع من التخريف والبعد عن العقائد الصحيحة، فلا بدَّ من قَدْر مشترك، لا بدّ من أن تطعَّم الصوفية بالسلفية المعتدلة المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، ولا بدَّ أن تطعّم السلفية بقَدْر من الروحانيَّة المُشرقة المعتدلة. وهكذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم، فهؤلاء لم يكونوا مجرَّد أناس مجادلين في العقائد، بل كانوا متألهين، أهل روحانية وإشراق».

وفاته:

توفي الشيخ المبارك بالمدينة المنورة يوم الخميس (١٤٠٢/٢/٧هـ)، إثر نوبة قلبية، ومما ذكر أنه قال وهو في طريقه إلى المستشفى: هنيئًا لمن يُدفن في البقيع.

وقد صُلي عليه في مسجد (قباء) عقب صلاة الجمعة، ودُفن في مقبرة البقيع بالمدينة، حيث كان يتمنى ذلك.

رحم الله أستاذنا محمد المبارك رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

* * *



٢٠ الدكتور محمد البهي
(١٣٢٣ ـ ١٤٠٢هـ = ١٩٠٥ ـ ١٩٨٢م)

الأستاذ الكبير الدكتور محمد البهي، أستاذ الفلسفة والعقيدة في كلية أصول الدين، وفي كلية اللغة العربية، والمدير العام لإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر، وأحد كبار علماء الأزهر، ووزير الأوقاف المصري الأسبق، وأحد مفكري الإسلام في العصر الحديث.

دعا إلى الإصلاح الديني بالعودة للأصول، وتتبع نشأة الفكر الإسلامي منذ بدايته حتى الوقت المعاصر، موازنًا بينه وبين غيره من المذاهب الفكرية، متصديًا للأفكار الهدامة، وفاضحًا الاستعمار ودوره الثقافي في المجتمعات الإسلامية.

• **عملي معه** رَحِمَهُ اللَّهُ :

وقد عملت مع الدكتور محمد البهي رَحِمَهُ اللَّهُ نحو ثلاث سنوات، لا في التدريس ولا في الوعظ، ولكن في الإدارة العامة للثقافة الإسلامية، في المكتب الفني لإدارة الدعوة والإرشاد، مع مدير الوعظ في ذلك الوقت العالم الجليل الشيخ عبد الله المشد رَحِمَهُ اللَّهُ ، وذلك في عهد شيخنا الأكبر الفقيه العلَّامة الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر رَحِمَهُ اللَّهُ .

وكان الدكتور البهي مشهورًا بالشدة ـ وربما العنف ـ في إدارته، ولكن ـ ولا أقول إلا الحق ـ كان معي في غاية الدماثة واللطف، ما دخلت عليه إلا أجلسني بجواره، وإذا كان عنده ضيوف كبار، قدمني إليهم تقديمًا أشعر بالخجل منه، فهو يضفي عليّ من الأوصاف أكثر مما أستحق، ولم يفعل ذلك

مع أي موظف يعمل معه، حتى رؤساء الأقسام عنده كانوا يقفون أمامه وَجِلِين، وأنا جالس بجواره. وهذا لا تفسير له عندي، إلا أنه فضل من الله على عبده.

• **إخراج كتب الشيخ شلتوت:**

فكر الدكتور البهي فيما يسند إليّ أنا وزميلي العسال من عمل، بعد أن نقلنا من وزارة الأوقاف إلى الأزهر، وأصبحنا نعمل تحت إداراته، ثم قال: لدينا عمل كبير لا ينجزه غيركما، تعرفان أن الشيخ شلتوت رغم شهرته في العالم، لا تُعرف له كتب كبيرة، يقرؤها الناس ويرجعون إليها، وهذا ما نريده منكما، أن ننشر تراث الشيخ شلتوت على الناس في كتب كبيرة، ولا بد أن نجمع هذا التراث من مظانه المختلفة في الصحف والمجلات، وفيما لدى الشيخ الأكبر من مقالات أو مسودات، وأنتما أهل لتجميع ذلك، وتنسيقه وطباعته، وتصحيحه، ومطبعة الأزهر رهن إشارتكما.

ولقد نوّه الأستاذ الدكتور محمد البهي بما قمنا به ـ أنا والعسال ـ من جهد في تجميع هذه الكتب وتنسيقها، حتى خرجت للناس بصورتها المشرقة مبوبة مفهرسة، في صورة كتب أصبحت معروفة الآن، كتاب (الإسلام عقيدة وشريعة)، وكتاب (الفتاوى)، وكتاب (من توجيهات الإسلام). وقد كتب الأستاذ الدكتور البهي مقدمة لكل كتاب منها، شهد فيها لي أنا والعسال بجهدنا في تجميع مادة الكتب من مظانها، وفهرستها، وتقسيمها، ووضع العناوين الجانبية لها، وهذه المقدمات في طبعة الأزهر الأولى للكتب، فلما اختلف الشيخ الأكبر مع الدكتور البهي، حذفت هذه المقدمات، ونسي عملنا الأساسي، الذي به أصبحت هذه الكتب كتبًا.

• **آثاره:**

كان رَحِمَهُ اللَّهُ عفيف اللسان والقلم، ذا أدب رفيع، وفقه في الدين، وأوتي نصيبًا موفورًا من الحكمة التي أثرت إنتاجه، وأذاعت فضله، وباعدت بينه

وبين شطط الأقوال، وزلل الآراء وخطل الأفكار، وقد بارك الله تعالى في عمره وفي وقته، رغم انشغاله بالتدريس معظم حياته، فقد ترك مؤلفات كثيرة منها: (الجانب الإلٰهي في التفكير الإسلامي)، و(الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي)، و(المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الإسلام) و(منهج القرآن في تطوير المجتمع)، (رأي الدين بين السائل والمجيب) و(سلسلة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) بدأ فيها تفسير السور المكية، وفسَّر ثلاثًا وعشرين سورة مكية، بالإضافة إلى جزء عمّ، وجعل عبارة: (القرآن في مواجهة المادية) عنوانًا في تفسيره للسور المكيَّة، وحالت المنية دون تفسيره لبقية سور القرآن.

• **إعارته إلى قطر:**

ولقد ظلت علاقتي بأستاذنا الدكتور البهي موصولة الحبال، لم تنقطع خيوطها يومًا، رغم أنه رَحِمَهُ اللَّهُ ساءت علاقته بالشيخ الغزالي والشيخ سيد سابق، بعد أن عُيِّن وزيرًا للأوقاف، واصطدم بهما بغير مبرر، مع أنهما كانا حفيَّيْن به، وطالما دعواه وقدماه وكرماه، من خلال منصبيهما في الوزارة، ولكن (عنف) الدكتور البهي غلب عليه، فعاملهما بجفوة مستغربة، مما اضطرهما أن يطلبا نقلهما إلى الأزهر، وبقيا فيه حتى خرج د. البهي من الوزارة.

وقد طلبته بعد ذلك بمدة أستاذًا زائرًا لكلية الشريعة بجامعة قطر، عندما كنت عميدًا لها، فجاءنا مع أهله، ورحبنا به، ووفرنا له ما يستحق من تكريم، وذلك حين عرفت ضائقته المادية، فهو لم يستفد من الوزارة شيئًا غير راتبه، وغير العداوات التي جلبها على نفسه.

وقد كان من دأب الدكتور البهي ـ الذي عرفناه من سيرته ـ أنه لا يأخذ أجرًا على مقالة يكتبها، أو محاضرة يلقيها، أو حديث يذيعه، طريقة اتخذها لنفسه، وأصرَّ عليها إلى أن لقي ربه، رحمة الله عليه ورضوانه.

وحينما رأى نشاطي المتنوع في قطر، سُرَّ به سرورًا بالغًا، وقال لي يومًا: كان ظني بك فـي محله، وأنك العالم المرجو لغد هـذه الأمة. قلت: إنما أنا تلميذ لكم، مستفيد من فكركم.

وكان يقول للأزهريين الذين يزورونه: إن القرضـاوي لم يأخذ حقه، إن مكانه الصحيح هو مشيخة الأزهر! إن الأزهر في حاجة إلى قيادة تجمع بين الفكر والدعوة، وبين الأصالة والتجديد، وإن علينا ـ نحن علماء الأزهر ـ أن نرشـح القرضاوي ليقود سـفينة الأزهر التي تميل بها الرياح. وكان هذا من حسـن ظنه بي غفر الله لي وله. وكان الزملاء ينقلون إليَّ قوله. وقد صارحني بذلك في إحدى زياراتي له في الفندق، وقلت له: يا فضيلة الأسـتاذ شكر الله حسن ظنك بي، ولكن هل ترى مثلي يصلح لهذا المنصب في هذه الظروف التي تعرفها؟ وهل يقبلون مثلي لهذا الأمر؟! قال: هم لا يقبلون، ولكن علينا نحن أن نقنعهم! قلت: وهبهم اقتنعوا، هل يطلقون يدي لأنفذ ما أريد؟!.

• **وفاته:**

عندما بلغ السـتين من عمره ترك التدريس، ورفض قرار مجلس الوزراء بمد خدمته خمس سنوات أخرى، وآثر التفرغ للكتابة والتأليف، إلى أن وافته المنية في ذي القعدة ١٤٠٢هـ/ ١٠ سـبتمبر ١٩٨٢م عن عمر يناهز سبعة وسبعين عامًا.

رحمه الله رحمة واسعة، وأجزل له العطاء على ما قدم لأمته من خير.

* * *



الشيخ أحمد حسن الباقوري

وزير الأوقاف وشؤون الأزهر ورئيس جامعة الأزهر الأسبق

(١٣٢٥ ـ ١٤٠٥هـ = ١٩٠٧ ـ ١٩٨٥م)

أحمد حسن الباقوري، أحد علماء الأزهر الشريف، وأحد الخطباء المعدودين في العالم العربي، من الأعضاء السابقين في دعوة الإخوان المسلمين.

ولد في قرية باقور بمحافظة أسيوط، وإليها ينسب.

التحق ـ كعادة الناس وقتها ـ بكتاب القرية، وبعد إتمامه حِفْظَ القرآن التحق بمعهد أسيوط الديني.

حصل الباقوري على الشهادة الثانوية عام (١٩٢٨م)، ثم التحق بالقسم العالي، وانتقل إلى القاهرة عام (١٩٢٩م)، وحصل منه على شهادة العالمية عام (١٩٣٢م)، ثم حصل على شهادة التخصص في البلاغة والأدب عن رسالته (أثر القرآن في اللغة العربية).

وبعد تخرجه عين مدرسًا للغة العربية وعلوم البلاغة في معهد القاهرة الأزهري، ثم نقل مدرسًا بكلية اللغة العربية، وبعدها نقل وكيلًا لمعهد أسيوط العلمي الديني، ولم يلبث أن نقل وكيلًا لمعهد القاهرة الديني الأزهري عام (١٩٤٧م)، وفي سنة (١٩٥٠م) عين شيخًا للمعهد الديني بالمنيا.

انضم إلى حركة الإخوان المسلمين سنة (١٩٣٣م)، وهو طالب في الأزهر، وكان أحد قيادات الإخوان، ثم عضو مكتب الإرشاد، وكان أحد المرشحين بقوة لخلافة الإمام حسن البنا.

• **قيادته لثورة الأزهر:**

كان الشيخ الباقوري طوال حياته من طلاب الأزهر النابهين، وكان خطيبًا مفوهًا، وشاعرًا مجيدًا، وقد اختاره طلاب الأزهر قائدًا لثورتهم سنة (١٩٤٠م)، حين ثاروا على مشيختهم المفروضة عليهم من قبل الملك، الذي أقال شيخهم الأكبر القريب منهم والمحبب إليهم: الشيخ محمد مصطفى المراغي.

ثار الأزهر على الظلم الواقع عليه، فقد كان العالِم من خريجي الأزهر في أي من كلياته يُعيَّن براتب قدره ثلاثة جنيهات في معاهد الأزهر، وكان معلم المدرسة الإلزامية خريج مدرسة المعلمين الابتدائية يعيَّن بأربعة جنيهات، ولم يجد الأزهريون شيخًا يتبنَّى مطالبهم غير الشيخ المراغي، وهو من الشيوخ الذين جمعوا بين الأصالة والمعاصرة، فثاروا مطالبين بتحسين أوضاعهم، وإعادة شيخهم المراغي لقيادة سفينة الأزهر.

ومما ينسب إلى الباقوري من الشعر في هذه الثورة قوله:

ثورةَ الأزهرِ، أرخَصْنَا الدِّمَاء فَكُلي الأرضَ وثنِّي بالسماء!

وانتصرت ثورة الأزهر التي لمع فيها اسم الباقوري زعيم الثورة، حتى أطلقت الصحفية نعم الباز لقب (ثائر تحت العمامة) على الشيخ الباقوري، في دراسة لها عن الباقوري ومواقفه وحياته، فلم تجد عنوانًا يعبر عن مواقفه إلا هذا العنوان، وبعد عودة الشيخ المراغي إلى مشيخة الأزهر دعا الشيخ أحمد حسن الباقوري، وقدم له هدية منه تقديرًا منه لجهوده في إعادته للأزهر.

وأصهر الباقوري إلى أحد كبار علماء الأزهر، وهو الشيخ محمد عبد اللطيف دراز، فقد تزوج ابنته، وأنجب منها ثلاثَ بنات. ثم أصبح الشيخ دراز وكيلًا للأزهر بعد ذلك، وهو من عائلة شيخنا العلَّامة الدكتور محمد عبد الله دراز.

• **الباقوري الأديب:**

كان الشيخ الباقوري إلى الأدباء أقرب منه إلى العلماء؛ لذا عرف بالخطابة والشعر، أكثر مما عرف بالفقه والبحث العلمي.

وكان له شعر جميل كنا نحفظه، أناشيد تثير فينا مشاعر الحب والحماس للإسلام، ومنها النشيد المعروف:

يا رسولَ الله هَلْ يُرضيك أنَّا إخوةٌ في اللهِ للإسلامِ قُمْنا
ننفضُ اليومَ غبارَ النَّوم عنَّا لا نهابُ الموتَ لا بلْ نتمنَّى
أنْ يرانا اللهُ في ساحِ الفِدَاء

وهو النشيد الذي اعترض عليه بعض الإخوة السلفيين بأنه يخالف العقيدة الصحيحة؛ لأنه يوحي بأن العمل يكون لإرضاء رسول الله، لا لإرضاء الله.

ورأيي أن الشيخ لا يقصد ما ذهب إليه هؤلاء، وإنما يريد أن يقول: هل يسرك يا رسول الله ويفرحك ويقر عينك: أُخُوَّتنا في الله، وقيامنا لنصرة دينك، والدفاع عن دعوتك؟... إلخ.

ولا أعلم أن شعر الباقوري جُمع إلى اليوم، وقد سمعته مرة وقد سئل عن شعره، فقال في تواضع: إنه من شعر العلماء، وشعر العلماء كعلم الشعراء.

وأحسب أن هذا من جميل أدبه وتواضعه، فكثيرًا ما يكون للشعراء علم راسخ، كما يكون للعلماء شعر رائع، ومن هذا شعر الإمام الشافعي الذي لا شك دارس في قيمته الأدبية، وعلو مستواه الفني. ومن ذلك قوله:

أنا إنْ عشتُ لستُ أعدمُ قوتًا وإذا متُّ لستُ أعدمُ قَبْرا
هِمَّتي همةُ الملوكِ ونفسي نفسُ حُرٍّ ترى المذلَّةَ كُفْرا
وإذا ما قنعتُ بالقوتِ عُمري فلماذا أخافُ زيدًا وعمرا؟

• **الباقوري والإخوان المسلمون:**

وكان الشـــيخ الباقوري قد انضم إلى دعوة الإخوان المسلمين من قديم، وبايع الإمام حسن البنا على العمل لنصرة الإسلام، واستعادة مجده، وتحرير أوطانه، والتمكين له عقيدة ونظامًا في حياة المسلمين، وكان عضوًا في الهيئة التأسيسية، ثم بعد ذلك في مكتب الإرشاد العام.

وكان أول لقاء بيني وبينه وأنا طالب في معهد طنطا الأزهري، فقد سافرت مع بعض الإخوة إلى القاهـــرة لنلتقي الإمام البنا فـــي المركز العام للإخوان المسلمين، وكنا مجموعة من طلاب الأزهر، وطلبنا إلى الإمام البنا أن يجلس إلينا، ولكنه قال لنا بأدب: كان يســـعدني أن أجلس معكم، وأتحدث إليكم، ولكني للأســـف مرتبط بموعد آخر، ولكني ســـأنيب بعض الإخوان ليجلس إليكم، ونادى الشـــيخ أحمد الباقوري لينوب عنه فـــي الجلوس والحديث، وجلســـنا معه جلســـة طيبة، وهذا يدل على مكانته من الإمام البنا، وعلى ثقة الإمام البنا به.

وعندما حل النقراشي جماعة الإخوان في ديسمبر (١٩٤٨م)، بلغني أن الأستـاذ البنـا أوصـى بأن يكـون الباقوري مســؤولًا عن الإخوان خارج المعتقل.

وبعد استشهاد الإمام البنا كان اسم الباقوري أحد الأسماء المرشحة لقيادة الجماعة.

وفي الانتخابات التي جرت بعد سقوط وزارة إبراهيم عبد الهادي وحزب الســـعديين، الذين عادوا الإخوان وافتروا عليهم: رشَّح الشيخ الباقوري نفسه في دائرة الخليفة بالقلعة، كما رشَّـــح عدد من الإخوان أنفسهم، وقد شهدته وهو يدور على أماكن التجمعات في الدائرة ويخطـــب فيها، وإن لم يحالفه النجاح في النهاية، شأنه شأن كل مرشحي الإخوان: مصطفى مؤمن، وفهمي

ـو غدير، وطاهر الخشـــاب، والشيخ عبد المعز عبد الســـتار، والشيخ علي ـحاتة وغيرهم.

وأذكر أني لقيته في تلك الفترة ـ بعد خروج الإخوان من المعتقلات ـ في ـحطة القطار بمدينة طنطا، فهرعت إليه، وسلمت عليه، وعرفته بنفسي، وسألته عن حال الإخوان، فتنفس الصُّعَداء، وشكا إلى الله من سوء الحال، وقال: خير ـجماعة أن تكتفـــي بما أنجزت، وأن تقف عند هذا الحـــد، وتُبقي على هذا ـاريخ الناصع، بدل أن تكدر صفاءه بما لا يلائم تـــراث الجماعة ومواقفها ـشامخة في قضايا الوطن والإسلام.

وحين اختارت الجماعة الأستاذ الهضيبي مرشدًا عامًّا، كان الباقوري أول من بايعه، وكان الهضيبي يصطحب الباقوري كثيرًا في رحلاته إلى محافظات ـصر، ويقدمه للحديث إلى الجماهير، وقد صحبته في رحلتين كان الباقوري ـفيقه في كلتيهما: إحداهما إلى مدينة السويس، والأخرى إلى كفر الشيخ.

وكان الباقوري عضوًا في مكتب الإرشاد مع الأستاذ الهضيبي، حتى قامت ـورة (٢٣ يوليو)، وحين طلب جمال عبد الناصر ورجال الثورة من الإخوان أن ـرشحوا أشخاصًا للوزارة، رشَّح الأستاذ الهضيبي لهم ثلاثة لم يكن الباقوري ـنهم، واختار رجـــال الثورة الباقوري ليتولـــى وزارة الأوقاف معهم، وأبدى ـاقوري للهضيبي أنه راغب في الاستجابة لهم، وأن لديه أفكارًا وتطلعات في ـصلاح المساجد والأوقاف، ولم يمانع الأستاذ الهضيبي في ذلك، ولكنه طلب ـيه أن يدخل في الوزارة باســـمه لا باسم الجماعة. وهذا يتطلب منه أن يقدم ـستقالته من الجماعة، وقد قَبِل.

ومن مكارم الأستاذ الهضيبي أنه ذهب للباقوري في مكتبه يهنئه بمنصبه، ـهذا يعني أنه لم يعتبر دخوله قطعًا لصلة المودة له، وقال له الباقوري: عفوًا ـ مولانا، إنها شهوة نفس. فقال له الهضيبي: اشبع بها!.

ومما يذكر للباقوري ما نشرته جريدة (المصري) بتاريخ (١٩٥٢/٩/١١م)، فقد سأل مندوبُها الشيخَ عن أسباب استقالته من الإخوان، فكان جوابه: هي أسباب أحب أن أوثر نفسي بها، وليس من بينها سبب واحد يمس احترامي لإخواني، واعتزازي بهم، فكل واحد منهم ـ صغيرًا كان أو كبيرًا ـ في أعمق مكان في قلبي.

• **الباقوري الوزير:**

انسجم الباقوري مع الثورة، وانسجمت معه الثورة، وكان خطيبها ولسانها المتحدث باسم الدين، وهو رجل حسن المظهر، حصيف الرأي، حلو اللسان، يحسن استقبال الناس، ويحسن الحديث إليهم، ويعرف متى يمسك لسانه، ومتى يطلقه، وفيم يطلقه.

ومن حسناته: أنه ضم إليه مجموعة من الدعاة المعروفين، ووكل إليهم شؤون الدعوة والمساجد، والثقافة الدينية، وعلى رأس هؤلاء: أستاذنا البهي الخولي الذي ولاه منصب مراقبة الشؤون الدينية، وشيخنا الشيخ محمد الغزالي الذي تولى منصب مدير المساجد، وشيخنا الشيخ سيد سابق الذي تولى منصب مدير الثقافة، وكل هؤلاء من كبار دعاة الإخوان، والمقدمين فيهم.

كما شهد الكثيرون من الإخوان أن الباقوري ما ذهب إليه من أعضاء الجماعة أحد يطلب منه عونًا أو خدمة في قضية، إلا لبَّى طلبه وقضى حاجته، ما دام يقدر عليها.

• **الباقوري يدعوني إلى الوقوف ضد الإنجليز والصهاينة:**

وبعد العدوان الثلاثي على مصر، بعد أن أمم عبد الناصر قناة السويس، جاءتني برقية من وزارة الأوقاف تطلب إلي أن أحضر بسرعة إلى القاهرة لأتسلم منبر الأزهر، لرفع الروح المعنوية في الشعب في هذه المرحلة الخطيرة

في تاريخ مصر، وكان هذا بتوجيه من شيوخنا: البهي الخولي ومحمد الغزالي وسيد سابق، الذين أشاروا على الشيخ الباقوري أن يستدعيني للأزهر. بيد أني لم أتجاوب مع هذه البرقية، وقلت في نفسي: إنهم يستنجدون بي الآن، حتى إذا انكشفت الغمة طرحونا وراءهم ظهريًّا!.

ولما لم أرد عليهم كلفوا شيخنا الشيخ محمد الغزالي الذي اعتلى منبر الأزهر، وظل يخطب فيه عدة سنوات، وقد كان الشيخ الغزالي يخطب في جامع الزمالك الكبير، فخلا مكانه، فأرسلوا إلي في القرية أحد الإخوة ليبلغني ضرورة الاستجابة إلى طلب الأوقاف، وإلحاحهم في أن أحل محل الشيخ الغزالي في مسجد الزمالك، واستجبت إلى رغبة شيوخنا، وسافرت إلى القاهرة، وتسلمت مسجد الزمالك لأخطب فيه، بمكافأة قدرها اثنا عشر جنيهًا، وعرف الكثيرون ذلك فبدأ الناس يتوافدون على المسجد من أنحاء القاهرة ونواحيها، بل من خارج القاهرة أيضًا، وظللت أكثر من سنة أخطب الجمعة بمسجد الزمالك، حتى بعد أن انتهت الحرب، ولاحظ رجال المباحث العامة أن المسجد أصبح يمثل مدرسة دعوية متميزة بخطبه، وبالحلقات التي أعقدها بعد كل خطبة أجيب فيها عن أسئلة الناس، وأمسى الناس يفدون إليه من كل صوب وحدب. وأخيرًا ضاق صدرهم، ونفد صبرهم، فأجبروا الأوقاف أن تستعني من الخطابة، فقد انتهت مهمتي بعد أن أصرت أمريكا على دول المحور الثلاثي أن تجلو عن مصر، وهذا ما كنت أتوقعه منهم.

• تعيينه لعشرة من الإخوان رغم أنف المباحث:

ومما يذكر للشيخ الباقوري في أثناء توليه وزارة الأوقاف تعيينه لعشرة من الإخوان في الوزارة، فقد عقدت مسابقة لتعيين وعاظ بالأزهر، وأئمة وخطباء للأوقاف، وقدمتُ فيها أنا وعدد من الإخوان، ونحن نعلم أننا ممنوعون من الوظائف المتصلة بالجماهير، ومنها الخطابة والوعظ، ولكن قلنا: لن نخسر شيئًا إذا قدَّمْنا، فربما نجحنا وقُبِلنا.

ودخلنا الامتحان دخول من لا يعتقد أن وراءه جدوى، وسرعان ما ظهرت النتيجة، وقد نجح فيه عشـرة من الإخوان: أنا، والعسـال، وسـليمان عطا، وعبد الرؤوف عامر، وعبد التواب هيكل، وعبد الحميد شاهين... إلخ.

وكان ترتيبي هو الثاني في هذه المسابقة، فقد كان الأول هو زميلنا الأخ العالم الفاضل الشيخ إبراهيم الدسوقي جلهوم، خطيب مسجد السيدة زينب فيما بعد.

وبعد نجاحنا كان للشيخ الباقوري وزير الأوقاف موقف رجولة وإنسانية لا ننسـاه، وهو أنه عارض رجال الأمن، وقال: أنا سأعينهم على مسؤوليتي، في أعمال غير الخطابة والتدريس.

وفعلًا كانت وظيفتنا الرسـمية: الإمامة والخطابة، ووظيفتنا الفعلية التي انتدبنا لها نحن العشـرة العمل بقسـم النُّظَّار والأوقاف، ومقرُّه سطوح وزارة الأوقاف.

وقد حضرت أنا وأخي العسـال يومًا واحدًا في هذا القسـم، ثم انتدبنا للعمل في مراقبة الشـؤون الدينية، وكلَّفني المراقب العام للشـؤون الدينية الأسـتاذ البهي الخولي بالإشـراف على (معهـد الأئمة)، وكلَّف العسـال بالإشراف على مكتبة إدارة الثقافة بمسجد عمر مكرم. ومعهد الأئمة ليس له مبنى، ولكنه (فكرة) تقوم على أسـاس النهوض بمسـتوى الأئمة، والرقي بثقافتهم، على أساس تنظيم محاضرات لهم في موضوعات إسلامية وفكرية متنوعة من علماء ومفكرين كبار، توسع من آفاقهم، وتنير من بصائرهم، في فقه حقيقة الدين، وحقيقة الواقع.

وقد عملت فترة من الزمن بترتيب هذه المحاضرات لعدد من أئمة الوزارة، يقدم هذه المحاضرات الأساتذة الكبار مثل الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي الذي كان يقرأ للمشـايخ فقرات من مقدمة ابـن خلدون. ومحاضرات

فضيلة العلَّامة الشيخ محمد المدني الذي كان يلقي محاضرات في فهم القرآن الكريم، والشيخ البهي والشيخ الغزالي وغيرهم.

• **عبد الناصر يغضب على الباقوري:**

وظل عبد الناصر راضيًا عن الباقوري سنين طويلة، حتى بلغه عنه شيء كرهه منه، قيل: إنه حديث جرى عنده من الأديب والمحقق الكبير الأستاذ محمود محمد شاكر، وهو رجل معروف بأنه لا يبالي من أصاب بلسانه، لا يخاف لومة لائم، ولا نقمة ظالم، فيبدو أنه ـ على سجيته ـ صب جام غضبه على عبد الناصر، ولم يدافع الباقوري عن رئيسه وقائده كما ينبغي، ولم يعلم أن ذلك سيبلغ عبد الناصر، الذي له عيون وآذان في كل مكان، حتى عند وزرائه أنفسهم، وقد قيل: إن هذا الحديث سُجِّل، وسمعه عبد الناصر. وقيل: إن الباقوري كان مشغولًا حين تكلم شاكر مع صديق له في بيت الباقوري، وأن الباقوري لم يسمع كلام شاكر.

وغضب جمال على وزيره، ولم يشفع له ماضيه معه، وخرج الباقوري من الوزارة سنة (١٩٥٩م)، وجلس في بيته معتكفًا ـ أو كالمعتكف ـ خمس سنوات أو يزيد، واتخذ من بيته صومعة يخلو فيها إلى التعبد وتلاوة القرآن، ومدارسة كتب العلم، ولا يكاد يقابل أحدًا، ثم بدأ يلقى في بيته بعض الخاصة من الناس، من أهل العلم والفكر، يذهبون ويجلسون عنده، يتراجعون في بعض مسائل العلم، وقضايا الأدب والفكر، وقد يحتدُّ النقاش بينهم، فيرجعون إلى مصدر من المصادر في مكتبة الشيخ.

وقد زرته في هذه الفترة أنا وأخي أحمد العسال، فكان عنده العالم الأزهري الكبير البحَّاثة المعروف: الشيخ عبد الجليل عيسى، مؤلف كتاب (صفوة صحيح البخاري) الذي كان مقرَّرًا علينا في المرحلة الثانوية، وكتاب (اجتهاد رسول الإسلام)، وكتاب (ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين) و(تيسير التفسير).. وغيرها، وكان من جلسائه الدائمين.

كما وجدنا عنده الأستاذ خالد محمد خالد الكاتب الشهير، الذي لم أكن أعرف وجهه، ولم أعلم أنه خالد إلا بعد انصرافه.

• **مدير جامعة الأزهر:**

وبعد ذلك رضي عنه عبد الناصر، فأسند إليه في سنة (١٩٦٤م) منصب أول مدير لجامعة الأزهر بعد التطوير، واستمر فيه حتى وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ (١٩٨٥م).

كما كان مديرًا لمعهد الدراسات الإسلامية بالزمالك الذي أسسه رَحِمَهُ اللَّهُ، حتى غدا يعرف بـ(معهد الباقوري)، والذي كان يعطي درجة الماجستير في العلوم الإسلامية، وقد ناقشت فيه رسالة ماجستير في الاقتصاد الإسلامي، قدمها الطالب النابه محمد عبد الحكيم زعير، المراقب الشرعي الآن لبنك دبي الإسلامي، وكنت مع أ.د. عيسى عبده إبراهيم رئيس لجنة المناقشة، والزميل الكريم أ.د. حسين حامد حسان.

لم تكن صلتي قوية بالشيخ الباقوري، كما كانت بالمشايخ: الخولي والغزالي وسابق. ولذلك لا أعرف الكثير عن سيرته وحياته، ولا عن إنتاجه العلمي والأدبي، والمعروف أنه كان قليل العطاء في هذه الناحية، وخصوصًا بعد توليه الوزارة.

• **مؤلفاته:**

ونحن وإن غلبنا الجانب الأدبي في حياة الباقوري العلمية، فمن الإنصاف أن نذكر أن له بعض مؤلفات جيدة، تحمل روح الداعية، وأسلوب الأديب.

ـ منها: كتابه (قطوف من أدب النبوة) الذي شرح فيه عددًا من الأحاديث شرحًا ميسَّرًا سلسًا، في متناول القراء العاديين، والكتاب يقع في جزأين صغيرين. وله كذلك كتابه: (من أدب القرآن: تفسير سورة تبارك).

ـ أما ما يدل على عقلية الباقوري البحثية، فهو كتابه الصغير الحجم، الكثير النفع، (أثر القرآن الكريم في اللغة العربية)، وهو كتاب شهد بغزارة علم

مؤلفه وجزالة أسلوبه وقوة حجته: الأديب المعروف الدكتور طه حسين، حتى كتب مقدمة للكتاب، أثنى فيها على الباقوري وعلمه.

ـ ومنها أيضًا: (عروبة ودين)، وهو مجموعة مقالات وبحوث جيدة ومتنوعة في موضوعاتها تمثل خلاصة لمجموعة الخطب التي ألقاها في مناسبات مختلفة وفي حفلات عديدة، إلى مقـالات أخرى، منها: مقاله لأبي الكلام آزاد تحدث فيها بحديث طويل عن ذي القرنين ورأيه فيه، وأيده الباقوري.

ـ وكذلك كتاباه: (مع القرآن)، و(مع الصائمين).

• **وفاته:**

توفي الشيخ أحمد الباقوري أثناء علاجه في لندن في (٢٧ أغسطس ١٩٨٥م).

غفر الله للباقوري ورحمه، وجزاه خيرًا عما قدم لدينه وأمته.

* * *



الأستاذ عمر التلمساني

المرشد الثالث للإخوان

(١٣٢٢ ـ ١٤٠٦هـ = ١٩٠٤ ـ ١٩٨٦م)

في (١٣ من شهر رمضان ١٤٠٦ = ٢٢ مايو ١٩٨٦م)، وفي يوم الأربعاء، انتقل إلى جوار ربه الأستاذ عمر التلمساني، المرشد الثالث للإخوان المسلمين، وقد صُلي عليه في مسجد عمر مكرم، ودُفن في مقابر مدينة نصر، وشيَّعته جماهير غفيرة تقدر بالألوف، من إخوان مصر وأحبائهم، رغم حرارة جو القاهرة، ومع صيام شهر رمضان. ولم يقدر لي أن أشهد جنازته، فقد كنت في قطر، وإن شاركت بالدعاء له والترحُّم والصلاة عليه، والحديث عنه بما يستحق.

وقد ودعته الجموع بأعين باكية، وقلوب آسية، وألسن داعية.. كلها تبتهل إلى الله ﷻ أن يسكنه الفردوس الأعلى، وأن يجزيه عن الإسلام ودعوته وأمته خير ما يجزي الدعاة الصادقين، والعلماء العاملين.

- **خصال الخير في الأستاذ عمر:**

كان الأستاذ التلمساني رجلًا مُحببًا إلى خلق الله، لما وهبه الله من خصال الخير، وفضائل الإيمان، ومكارم الأخلاق، كان سهلًا سمحًا باسم الثغر، حيِّيًا متواضعًا، ليِّن الجانب، رفيقًا رقيقًا مع القريب والبعيد، والكبير والصغير، والمسلم وغير المسلم، كأنما اقتبس ذلك من أخلاق النبوة التي أثنى الله على صاحبها بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقول المصريون في مثله: يوضع على الجرح فيبرد! كأنما هو مرهم أو

ـياق. ومع هـذا لم يكـن يفرّط في حق، أو يداهن في باطل؛ بل كان متمسكًا ـعروة الوثقى لا انفصام لها، علمًا وعملًا، وإيمانًا وسلوكًا، وغيرة وجهادًا.

• **في معتقل الطور سنة (١٩٤٩م):**

كان معنا في معتقل الطور ســنة (١٩٤٩م)، واتفق الإخوان المعتقلون على أن ـوه قيادتهم في المعتقل، بعد اســتدعاء الأســتاذ البهي الخولي للتحقيق معه، ـالًا للحديــث النبوي: «**إذا كنتم ثلاثــة فأمِّروا أحدكم**»[1]. ولكنه ســرعان ما ـدعي هو الآخر، واختار المعتقلون بعدها الشيخ الغزالي، وهو في ريعان شبابه.

• **في سجون عبد الناصر:**

عمل الأستاذ عمر مع المرشد الأول حسن البنا، ثم عمل مع المرشد الثاني حسـن الهضيبي، فلما اصطدمت الثورة بالإخوان، أو اصطدم الإخوان بالثورة، ـ عضوًا بمكتب الإرشــاد العام للجماعة، فقُدم للمحاكمة مع من قُدِّموا من ـات الإخوان، وقد حكم عليه بخمس عشرة سنة سجنًا مع الأشغال الشاقة، ـ والعالم الأزهري الكبير الشيخ أحمد شِرِيت رحمهما الله تعالى.

• **قيادة التلمساني للجماعة في عهد السادات:**

وبعد أن قضى مدة سجنه، خرج ليتولى قيادة الجماعة في عهد السادات، حكمته ورفقه، وأناته وحِلمه، وحُسن سياسته، وتأنيه للأمور، في غير عنف ـ إحراج.

وأصدر (مجلة الدعوة) الأســبوعية من جديد، ليرأس تحريرها، ويكتب ـ مقالًا أو أكثر كل شهر.

وكان بحلمه وســماحته ورقته يحــل كثيرًا من المشــاكل المعقدة، التي ـعب على الكثيرين أن يحلوها بطريق الشدة والقوة وعرض العضلات.

ـبق تخريجه ص ١٨٠ في كتابنا هذا.

• **بين التلمساني والسادات:**

وقد اجتمع مرة مع الرئيس السادات ممثلًا لدعوة الإخوان، التي اعترف بها واقعًا وفعلًا، وإن لم يعترف بها رسميًا وقانونًا، وقد ذكر السادات عنه شيئًا، فقال له: ليس لي إلا أن أشكوك إلى الله؛ فإن الإنسان إذا ظلمه شخص عادي، شكاه إلى الحاكم، فإذا ظلمه الحاكم نفسه، لم يكن له إلا أن يشكو إلى الله!.

وهنا قال له السادات: لا تشكني إليه، فإني أخافه سبحانه، وأعرف قدره، ولا قِبَل لي به جل جلاله!.

قال التلمساني: ولكني أشكوك إلى رب عادل، لا يظلم مثقال ذرة، ولا يخاف أحد عنده ظلمًا ولا هضمًا!.

قال السادات: ومع ذلك أنا أخافه ولا أدعي العصمة.

• **زيارة التلمساني لي في قطر:**

وقد سعدت بزيارته في قطر، واستقباله في منزلي، أول ما تولى منصبه، وقد التقى بعدد من الإخوان الذين يعملون في قطر، وإن كان منهم من لم يعد له صلة بالتنظيم الإخواني، بل هو من الإخوان بحكم النشأة والولاء، وأذكر من الموجودين: عبد البديع صقر، وعز الدين إبراهيم، وكمال ناجي، وعلي جمّاز، وعبد اللطيف زايد، وآخرين.

وكان الأستاذ عمر الأميري بالدوحة، فالتقى العُمران رحمهما الله.

• **لقاءاتي المتكررة بالتلمساني:**

ولقيته أكثر من مرة في اجتماعات مجلس الشورى العالمي، أيام البحبحة، والسماح لقادة الإخوان بالسفر إلى الخارج، كما التقيته في القاهرة في دار الإخوان بالتوفيقية، وفي أحفال كبيرة يقيمها الإخوان بمناسبات شتى كالمولد

نبوي، والهجرة النبوية، وغيرها، في الساحات الكبرى، في القاهرة والجيزة وبعض عواصم المديريات (المحافظات).

وحين قرر إعادة إصدار (مجلة الدعوة) الشهرية، رأس تحريرها، ودعاني إلى الكتابة فيها، فكتبت فيها عدة مقالات عن شمول الإسلام، وعن الجهاد، وعن شرح بعض الأصول العشرين، كما نشرت فيها كتابي (ثقافة الداعية) على حلقات..

وقد انتشرت الدعوة في عهده في مصر وفي خارج مصر، فقد أثبت الواقع التي تعيشه الأمة أنه لا خلاص لها إلا بالعودة إلى الإسلام الحقيقي، بتوازنه وتكامله وتسامحه، وأن دعوة الإخوان هي أقرب الدعوات المعروضة في الساحة إلى الإسلام الحق، وإلى المنهج الوسط، الذي لا ينحاز إلى اليمين أو اليسار، ولا إلى الغلو، ولا إلى التفريط.

وكان معتدًّا بقيادة الإمام حسن البنا مؤسس الجماعة ويسميه (الملهَم الموهوب).

• **إيثاره السهولة والسماحة:**

كما كان يؤثر السهولة والسماحة في كل شيء، ولا يميل إلى التفلسف والتنظير وما إلى ذلك من تعقيدات أهل الفكر، ومُجادلي التيارات المخالفة.

قيل له يومًا: لا بدّ لنا من خطة استراتيجية، تستلهم الماضي، وتعايش الحاضر، وتستشرف المستقبل.

فقال: لا أرى أن الدعوة إلى الله تحتاج إلى هذا كله. هل يحتاج قولك للناس: اتقوا الله، واعملوا بإسلامكم، إلى استراتيجية وخطة مستقبلية... إلخ؟!.

قلت له: يا فضيلة الأستاذ نحن لسنا مجرَّد وعَّاظ نذكر الناس بالله، والدار الآخرة، نحن مع ذلك دعاة إصلاح للأمة، وتجديد الدين، ولنا أهداف كبيرة،

نريد الوصول إليها، وهذه الأهداف تحتاج إلى وسائل متنوعة، وإلى مراحل محددة، تسلم كل مرحلة إلى الأخرى، كما علينا أن نحدد المفاهيم التي تلتبس على الناس، ونرد الشبهات التي يثيرها خصوم الإسلام، ونضع المفاهيم العلمية والدعوية والتربوية وغيرها اللازمة للنهوض بالأمة، والسير بالجماعة إلى الطريق الأقوم، والسبيل الأوضح.

وهنا قال: أدعو الله يا شيخ يوسف أن يوفقكم فيما تصبون إليه.

رحم الله الأستاذ التلمساني، وغفر له، وجزاه عن العلم والدعوة والإسلام خير ما يجزي العلماء الربانيين، والدعاة الصادقين، وأسكنه الفردوس الأعلى مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

* * *



الشيخ عبد البديع صقر
رجل الدعوة والتربية والثقافة
(١٣٣٤ ـ ١٤٠٧هـ = ١٩١٥ ـ ١٩٨٦م)

في (١٣ ديسمبر ١٩٨٦م) جاءنا ـ ونحن في قطر ـ خبر وفاة أخينا الحبيب الداعية المعروف الأستاذ: عبد البديع صقر رَحِمَهُ اللَّهُ، غرقًا في إحدى الترع، وهو عائد في الليل من مدينة بلبيس، من بعد زيارة لها لإلقاء محاضرة، فانحرفت به السيارة وهو يقودها، فسقطت في الترعة، ووافاه الأجل.. ولم يعرف الناس الحادث إلا بعد وقت، فتعذَّر إسعافه، وكتب الله له الشهادة بموته غريقًا، لا سيما وهو راجع من عمل دعوي في سبيل الله، فنسأل الله أن يكتبه في الشهداء والصالحين، وأن يحشره مع النبيين والصديقين.

• **من الرعيل الأول:**

كان عبد البديع من الرعيل الأول من الإخوان، فقد عرف الدعوة منذ سنة (١٩٣٣م)، وكان قريبًا من الإمام حسن البنا، ويحكي عنه وقائع معلِّمة، ونوادر عميقة، وقد كتب له مقدمة لكتابه (كيف ندعو الناس؟). وقد عمل مدة معاونًا لمركز العام، أي: مراقبًا للمبنى وأحواله.

• **تعرفي على عبد البديع:**

عرفت عبد البديع أول ما عرفته وأنا طالب في الثانوي، حين قرأت رسالته اللطيفة (كيف ندعو الناس؟)؛ فهذه الرسالة على وجازتها تتضمن نصائح داعية مجرِّب، قويِّ الملاحظة، خفيفِ الرُّوح، سهل العبارة، لا يميل إلى التعقيد أو التكلُّف، مخلص في دعوته، يدخل كلامه إلى القلوب بيسر، وحببته قبل أن أعرفه.

• **في معتقل الطور:**

ثم قُدِّر لي أن ألتقيه في معتقل الطور، فوجدته كما توقعته، شخصية هادئة متواضعة، تراه دائمًا باسم الثغر، بشوش الوجه، فكِهًا خفيف الدم كما يقول المصريون.

وكان الإخوة الدعاة يعقدون اجتماعات، لتدارس شؤون الدعوة، وكيف يمكن تطويرها والارتقاء بها، منهم: الشيخ الغزالي، والشيخ سيد سابق، وعبد البديع صقر.. وعدد من الإخوان نسيتهم لطول الزمن، وكانوا يدعون بعض الشباب ليحضروا معهم، فحضرت معهم عِدَّة مرات.

• **إلى قطر:**

ثم لم يقدَّر لنا أن نلتقي به بعد ذلك لقاء مباشرًا، إلا في قطر، حيث كانت قطر تريد مديرًا للمعارف التي كانت محدودة في ذلك الوقت، وكان المسؤول عنها الشيخ قاسم درويش فخرو رَحِمَهُ اللَّهُ، فطلب من الأستاذ محب الدين الخطيب ـ الكاتب والمحقِّق الإسلامي المعروف ـ أن يرشِّح له شابًّا نابهًا، يقوم بتوجيه المعارف في قطر، فرشَّح له الشاب النابه الكاتب الإسلامي المتألّق محمد فتحي عثمان، الذي كان قد تخرج في كلية الآداب قسم التاريخ، من جامعة القاهرة.

ولكن لظروف معينة، اعتذر الأستاذ فتحي عثمان، فرشَّح الإخوان بدله الأستاذ عبد البديع صقر.

وسافر إلى قطر، التي كانت تخطو الخطوات الأولى في سبيل نهضتها، وأظن أنها لم تكن فيها مدرسة إعدادية، فضلًا عن الثانوية، في ذلك الوقت، سنة (١٩٥٤م).

ولم يكن هناك أي مدرسة للبنات، وكانت الحياة كلها بسيطة، أقرب إلى حياة القرية، أو البادية.

• **مع حاكم قطر الشيخ علي آل ثاني:**

وكان ذلك في عهد الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني رَحِمَهُ اللَّهُ حاكم قطر، وكان رجلًا يحبُّ العلم والأدب، ومجلسه دومًا يضمُّ عددًا من العلماء والأدباء والشعراء، يُقرأ فيه ما تيسَّر من الكتب في هذه المجالات.

كما عُني الشيخ عليٌّ بطبع جملة وافرة من الكتب الشرعية والأدبية النافعة، وخصوصًا في الفقه الحنبلي، وفي التفسير والحديث والأدب والشعر.

وقد انضمَّ عبد البديع إلى مجلس الشيخ علي، وأضحى قريبًا منه، وكان يذهب إلى بعض البلاد ليختار المدرسين منها، وخصوصًا سورية والأردن وفلسطين، إذ لم يكن يستطيع دخول مصر في عهد عبد الناصر.

ثم انضمَّ إليه عدد من المصريين، الذين نجوا من محنة الإخوان سنة (١٩٥٤ ـ ١٩٥٦م)، التي اشتهرت بما فيها من قسوة وتعذيب، إلى حد سقوط بعض الأفراد شهداء تحت السياط. وكان من هؤلاء الناجين: كمال ناجي، وعز الدين إبراهيم، وعلي شحاتة، وعبد الحليم أبو شقة، وحسن المعايرجي، ومحمد الشافعي، وكلهم عملوا مع عبد البديع في المعارف في سنواته الأولى.

• **الإشراف على مكتبة حاكم قطر:**

ثم تغيَّر الوضع في المعارف، بعد أن أصبح مسؤولًا عنها الشيخ خليفة بن حمد، ولي العهد ونائب الحاكم، وأُعفي عبد البديع ومن كان يساعده من المصريين، وكلَّف الشيخ عليٌّ حاكم قطر عبدَ البديع بأن يشرف على مكتباته في القصر وفي خارجه.

وظلَّ كذلك، حتى تنازل الشيخ علي عن منصبه إلى ابنه الشيخ أحمد بن علي، ليكون حاكم قطر. وقد قرَّب الشيخ أحمد عبد البديع منه، وكان مشرفًا على مكتبته الخاصَّة، بجوار المكتبات العامة، وكان يجالسه تقريبًا في كل مساء.

• **وصولي إلى قطر وتجديد صلتي بعبد البديع:**

وقد وصلت إلى قطر، في السنة التالية لتولِّي الشيخ أحمد مقاليد الحكم، وجدَّدت الصلة بعبد البديع، بعد أن انقطعت منذ أيام الطُّور.

وكانت لنا لقاءات، أحيانًا في قصر الحاكم، أو في مكتبته بدعوة منه، أو في بيت عبد البديع، أو في بيتنا، أو في بيت الشـيخ عبد المعز عبد الستار، حيث وصلنا معًا إلى الدوحة في سنة واحدة. كما كانت هناك صلة مودة بين أسـرتي وأسـرته، التي تتكوَّن من زوجته الفاضلة أم إبراهيم، وابنته الداعية الناشطة سناء، وابنيه النجيبين إبراهيم وأحمد.

وكان أخونا الأستاذ عبد البديع صقر قد اقترح عليَّ أنا والشيخ عبد المعز أن نزور الحاكـم، فليس لائقًا برجال في منزلة الشـيخ عبد المعز والشـيخ القرضاوي أن يجيئوا إلى قطر للعمل فيها، ولا يزورون حاكمها. قلت له: أيضًا لا يليق بنا أن نقحم أنفسـنا على الرجل، أو نفرض أنفسـنا عليه، ولم تأتِ مناسبة معينة لذلك. قال: أنا آخذ لكم موعدًا منه. وأخذ لنا موعدًا لنزوره في مكتبته التي كان يشرف عليها الشيخ عبد البديع. وكان لقاء طيبًا، استقبلنا فيه الرجل استقبالًا حسـنًا، ورحّب بنا في بلدنا الثاني، وتحدث معنا حديثًا كله مودة ومحبة. وكان غاية في الدماثة والتواضع وحسن الأدب. ثم دعا بالعشاء فتعشينا معه.

• **مدير دار الكتب القطرية:**

وبعد ذلك ضُمَّت مكتبات حاكم قطر إلى وزارة المعارف (التربية والتعليم بعد ذلك)، وأنشـئت منها (دار الكتب القطرية)، وعُيِّن عبد البديع أول مدير لها. وقد ظلَّ في منصبه إلى أن غادر قطر سنة (١٩٧٢م) بعد الحركة التصحيحية التي قام بها الشيخ خليفة بن حمد، وَوَلي حكم البلاد بإقرار الأسرة الحاكمة، وتأييد الشعب القطري.

وقد اعتقل بعض أتباع الشـــيخ أحمد فترة قليلة من الزمن، مثل الأســـتاذ عبد البديع صقر، ولكنه لم يؤذَ في معتقله، ولم توجه إليه أية إهانة، ثم ما لبث أن أفرج عنه.

وقد اعتقل بعض الشباب التابعين للأستاذ عبد البديع، ولم يكن لهم في الحديد، ولا النفير، فكلمت قائد الشـــرطة في ذلك الوقت في شأنهم، فأفرج عنهم فورًا.

وانتقل الأستاذ عبد البديع إلى دولة الإمارات العربية المتحدة، حيث بقي فيها إلى أن انتقل إلى رحمة الله.

• **تعاوننا في محنة عام (١٩٦٥م):**

ومن أهم الفترات التي التقينا فيها وعملنا معًا في قطر: سنة (١٩٦٥م) وما بعدها، حين أصاب الإخوان في مصر ما أصابهم من محنة عاتية، هانت إلى جانبها محنة (١٩٥٤م) على قسوتها.

وكان علينا نحن الإخوان في الخارج ـ وقد عافانا الله من البلاء ـ أن نعين أسر الألوف من المسجونين والمعتقلين، الذين فُصلوا من أعمالهم تعسُّفيًّا، وضُيِّق على أهليهم وعيالهم بكل سبيل. وقديمًا قالوا: قطعُ الأعناق، ولا قطع الأرزاق.

وكثيرًا ما كنا نجتمع في بيت عبد البديع: الشيخ عبد المعز، وكمال ناجي، وعز الدين إبراهيم، والفقير إليه تعالى، وبعض الإخوة، نجمع بعض التبرعات لتوصيلها إلى الأســـرة المُمْتحنة، ولنتعاون مع الإخوة في بلاد الخليج، فيما يجب عمله، من تكثيف الدعاية المضادة لإعلام عبد الناصر الكاسح، ولا سيما في موسم الحج تلك السنة.

على كلِّ حال، كان عبد البديع رجلًا نشيطًا، يحمل الدعوة فكرة في رأسه، وعقيدة في قلبه، وسلوكًا في حياته. وكان مُحِبًّا لإخوانه، بارًّا بهم.

• **ندوة إخوانية في إستانبول:**

وكنا قد اتفقنا أنا وعدد من الإخوان المصريين خاصة أن نلتقي في مدينة إستانبول؛ لنتدارس بعض القضايا المهمة الخاصة بالدعوة، ونقدم فيها ورقات للبحث والمناقشة. وكان الغالب على هذه القضايا الجانب الفكري وتأصيل المفاهيم، وخصوصًا بعد أن دار جدل حام بين الإخوان بعد محنة (١٩٦٥م) داخل السجون وخارجها، وطار رذاذ منه إلى الخارج، وحدث التباس في عدد من القضايا، مثل: قضية (الجاهلية)، وقضية (الحاكمية)، وقضية (التكفير).. وغيرها.

وقد مرت بالجماعة ثلاث محن كبيرة في تاريخها: محنة عهد الملكية، ومحنتان أكبر منها وأقسى في عهد الثورة، كل محنة أكبر من أختها. ومن حق الجماعة، بل من واجبها، أن تراجع نفسها، وتقوِّم مناهجها على غرار ما تفعل وزارات التربية والجامعات والمؤسسات المختلفة من ضرورة مراجعة فلسفتها ومناهجها وسياساتها كل مدة من الزمن؛ لعلها تجد خللًا فتسده، أو نقصًا فتكمله، أو عيبًا فتصلحه، أو خطأ فتصححه، وإن جماعة مضى على تأسيسها أربعون عامًا لهي أجدر أن تراجع نفسها، وتقوّم مسيرتها، طلبًا للتصحيح والتصويب والتعديل والتكميل والتحسين، والمؤمن دائمًا ينشد الأمثل والأحسن، كما قال تعالى في وصف المهتدين من أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ [الزمر: ١٨].

وقد شاركت في هذه الندوة بورقتين؛ إحداهما حول «التقليد والتمذهب في الفقه»، والأخرى حول «التصوف والصوفية»، ومحاولة تحرير موقفنا من هذين الأمرين. وكان المشاركون في هذه الندوة على ما أذكر: د. توفيق الشاوي، والأستاذ هارون المجددي، والأستاذ عبد البديع صقر، والشيخ أحمد العسال، ود. صلاح شاهين، وآخرين لم أعد أذكرهم لطول الزمن.

• **لطف معشره وفكاهته ونوادره:**

وكان لطيفًا في معاشرته، في فكاهاته ونوادره، وكان يزور بعض إخوانه، وبعد فترة قليلة يقول: أعتقد أننا قد شرَّفنا! وينصرف.

وكان بيته مفتوحًا لإخوانه، وكان يدعو بعض الناس إلى الغداء عنده، ثم ينسى أن يخبر أم إبراهيم (زوجته)، فيعود إلى المنزل ليجد الضيوف داخلين معه، ولم يهيئ أهل المنزل لهم الطعام.

فيقدِّم لهم الموجود، ويعتذر لهم، قائلًا: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣].

وكان أحيانًا يؤخِّرهم حتى يصنع لهم ثريدًا، ويقول: الثريد هو الطعام الذي يقبل القسمة على أي عدد!.

وكان يقول: على الداعية المسلم أن يفتح اعتمادًا دائمًا لتحمُّل البلاء في سبيل الله!.

• **إنشاؤه (مدارس الإيمان) في الإمارات:**

وبعد انتقاله إلى الإمارات، التقيته كثيرًا، ولا سيما في جمعية الإصلاح في العين، حين أُدعى لإلقاء محاضرة هناك.

وقد أنشأ هناك (مدارس الإيمان) في دبي وفي الشارقة، وقد زرتها، ولمستُ فيها من نشاط وروح إسلامية سارية في جنباتها.

وظلَّ الرجل عاملًا لدينه ودعوته، حتى لقي ربه راضيًا مرضيًّا إن شاء الله. رحمه الله وغفر له، وتقبَّله في الشهداء والصالحين.

* * *



الشيخ عبد الله الأنصاري

العالم الغيور شعلة الدعوة والحركة والنشاط

(١٣٣٣ ـ ١٤١٠هـ = ١٩١٤ ـ ١٩٨٩م)

• **بداية لقائي بالشيخ:**

لا زلت أذكر ذلك اليوم وتلك الساعة، وكأنها كانت بالأمس، كان ذلك اليوم هو الرابع من شهر ربيع الآخر سنة (١٣٨١هـ)، الذي يوافق الخامس عشر من شهر أيلول (سبتمبر) سنة (١٩٦١م)، وهو أول يوم أتسلم فيه عملي فور خروجي من مصر، في حكومة قطر، وفي وزارة المعارف مديرًا للمعهد الديني الثانوي.

كان المعهد يحتل مبنى صغيرًا بقينا فيه سنة واحدة، وقد دخل مكانه في مبنى رئاسة المحاكم الشرعية الذي تركته، وأصبح الآن مبنى (صندوق الزكاة)، ولم أكد أجلس على مقعدي ويمضي علي أقل من ساعة، حتى دخل علي شيخ بشوش الوجه، باسم الثغر، تبدو عليه الهمة والنشاط، ذو لحية سوداء وعمامة بيضاء، وهي عمامة متميزة، ليست كعمامة علماء مصر ولا مشايخ الشام، وقد سلم علي، وصافحني بحرارة وقال: مرحبًا بك في بلدك الثاني، لقد عرفتك قبل أن تحضر، وسمعنا بك قبل أن نراك، والشاعر يقول:

..... **والأذن تعشق قبل العين أحيانا**

أخوك عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، أحد طلبة العلم هنا، ومدير مدرسة صلاح الدين الأيوبي.

قلت له رادًّا التحية بمثلها أو بأحسن منها: أهلًا بك يا أخي ومرحبًا، لقد

سعدت بزيارتك، وأنت أول زائر لي في مكتبي، وأنعم بك من زائر، أما سماعك بي قبل أن تراني فأخشى أن ينطبق المثل العربي الشهير: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»!.

قال الشيخ باسمًا: بل صدّق الخُبر الخَبر، وما مثلنا إلا كما قال الشاعر قديمًا:

كانت محادثةُ الرُّكبانِ تُخْبِرُنا عن جعفرِ بن رباحٍ أطيبَ الخَبَرِ
حتَّى التقينا فما واللهِ ما سَمِعَتْ أُذني بأحْسَنَ ممَّا قد رأى بَصَرِي

وكانت جلسة علمية وأدبية لطيفة، تبادلنا فيها الأحاديث وتناشدنا الأشعار، وقال الشيخ قبل أن يودعني: أرجو أن تعتبر هذا البلد بلدك، وأن تعتبرنا لك أهلًا وإخوانًا، وأن تعتبر بيوتنا بيوتًا لك، ولا تتردَّدْ في طلب شيء تحتاج إليه، فصدورنا ودورنا لك مفتوحة، وأرجو أن تشرف بيتكم الصغير في أول فرصة. فشكرت له هذا الموقف الكريم، ووعدته بالزيارة بمجرد أن تستقر وتترتب الأمور، شعرت بعد هذه الزيارة أن هذا الرجل الذي ألقاه لأول مرة من أهل الخير، ومن حملة العلم، ودعاة الدين، الذين لا يتاجرون به، وتوسمت فيه الصدق، وقد صدقت الأيام ظني فيه ولله الحمد.

وقديمًا قال الشاعر:

لا تسألِ المرءَ عَنْ خَلَائقه في وجهِهِ شاهدٌ مِنَ الخَبَرِ

كان الشيخ الأنصاري هو الرجل الثاني الذي أتعرف عليه من علماء قطر، بعد أن تعرفت على الشيخ عبد الله بن تركي، الذي تعرفت عليه في القاهرة، ومن أكثر من سنة، حين جاء إلى مصر للتعاقد مع علماء الأزهر لتدريس العلوم الشرعية في قطر، وكان هو مفتش العلوم الشرعية، وكان أول من سعى لجلب العلماء من مصر، وكان يفخر بذلك ويعتزُّ به.

• **أول زيارة للشيخ في مجلسه:**

وما هي إلا أيام قليلة حتى زرت الشيخ عبد الله في بيته بين المغرب والعشاء، أعني بيته القديم، الذين كان قريبًا من مسجد الشيخ غانم، وكان مجلسه مجلسًا عربيًا نجلس فيه على الأرض المفروشة، متكئين على الوسائد، وكان مجلس الشيخ يتميز بأنه مجلس ومكتبة في الوقت ذاته، ففي جدرانه الأربعة حفرت مكتبات في أصل البناية هيئت تهيئة حسنة، وملئت رفوفها بالكتب المصنفة، على العلوم الشرعية واللغوية والأدبية، من التفاسير، وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والفقه على مختلف مذاهبه، وأصول الفقه، والعقيدة، والتاريخ، والنحو، والصرف، والأدب، والبلاغة.

ومن حسن الطالع: أني حين زرت الشيخ وجدته يقرأ مع بعض جلسائه في بعض كتب الحديث، وطلب مني الشيخ أن أعلق على الحديث الذي قرئ، ففتح الله علي وقلت كلامًا مرتجلًا، بغير إعداد ولا ترتيب، وكان الشيخ يهتز طربًا، كلما سمعني أشرح وأفصل، فدلني هذا على إخلاص الرجل وتجرده، فإن بعض ذوي النفوس المريضة، لا يسره أن يظهر عالم غيره بل ينغص ذلك عليه، ويسوءُه. وجاءت صلاة العشاء فأبى الشيخ إلا أن يقدمني للإمامة فزاده ذلك عندي رفعةً وعلوًا.

• **توثق العلاقات مع الشيخ:**

وتوثقت العلاقات بيني وبين الشيخ، وتعددت الزيارات، واللقاءات والجلسات العلمية، والندوات القرآنية، التي كان الشيخ يعقدها مساء كل خميس في المسجد المجاور لمنزله، وكان يحرص أن أختمها بدرس أو خواطر قرآنية كلما حضرت، وكلما أقام ندوة أو احتفالًا بمناسبة من المناسبات، حرص على أن أكون في مقدمة المتحدثين.

• **سَلَفيٌّ سَمْحٌ على منهاج النبوة:**

كان الشيخ الأنصاري شعلة من النشاط والحركة والغيرة الدينية، وكان رضيًا محببًا إلى كل من عرفه من الناس، كان سر ذلك يرجع إلى سماحة نفسه، وسعة صدره، وحسن خلقه، ورقة طبعه، فهو رجل سهل سمح موطأ الأكناف، كريم النفس، مبسوط اليد، يألف ويؤلف، يُحِب ويُحَب، يرحم الصغير، ويوقر الكبير، يقري الضيف، ويبذل للمحتاجين، ويعين على نوائب الدهر، تقوم حياته على المياسرة لا المعاسرة، والتسهيل لا التعقيد، والتسامح لا التعصب، والمرونة لا الجمود، ظهر هذا في علمه وفقهه، كما ظهر في تعامله وسلوكه، فهو يقتبس من المنهج النبوي: «**يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا**»[1]. كما اقتبس من الخلق النبوي: «أنه ﷺ ما خُيِّر بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثمًا»[2].

ومن خلق السماحة لدى الشيخ أنَّه كان قريبًا جدًّا للذين يعملون معه، ما كانوا يشعرون أنهم مع رئيس يستعلي عليهم، بل مع أب يحنو عليهم، ولا غرو أن استمر الذين عملوا معه سنين بل عقودًا، لم يتغير عليهم، ولم يتغيروا عليه، مثل الأستاذ محمد الشافعي، الذي عمل مساعدًا له في إدارة شؤون القرى، ثم انتقل إلى إدارة الشؤون الدينية، فإحياء التراث الإسلامي.

وكذلك الأخ فوزي سلامة والإخوة آل عبّارة، كل هؤلاء ظلوا مع الشيخ، وظل هو وفيًّا لهم، مدافعًا عنهم في بعض الأحيان، أمام بعض الأقاويل التي تظهر بين حين وآخر عن فلان أو علان من الناس.

• **دلائل السماحة والسهولة عند الشيخ:**

عرفت الشيخ شافعي المذهب، ولكنه لم يكن متعصبًا لمذهبه، ولا يكاد يعرف أحد له مذهبًا، فهو يحب الأئمة جميعًا، ويقدرهم جميعًا، ويحترم المذاهب

---

[1] متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٧٣٤)، عن أنس.

[2] متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، عن عائشة.

كلها، ويأخذ منها ما ترجح دليله لديه، ولا يمنع العامة من تقليد أي مذهب رضوه منها، ولا يطعن في أحد من العلماء الأموات أو الأحياء، بل كان عف اللسان، ولا يحب أن يذكر أحد بسوء، وطريقته أن يضيء الشموع ولا يلعن الظلام.

وعرفت الشيخ ذا وجدان روحي عميق، وحِسٍّ إيماني رقيق، تغلب الدموع عينيه، وترفرف العبرات على وجنتيه، عندما يعظ أو يخطب، فيأخذه الوجد أو يغلي به الحماس، ولكنه لم يكن من الخرافيين، الذين يتبعون ترهات الطرق الصوفية، أو الذين يتقبلون البدع ويحاولون تبريرها، أو الذين يروجون الشكليات في العقيدة، بصورة من الصور.

كان مسؤولًا في فترة طويلة في وزارة التربية والتعليم ـ في عهد الشيخ قاسم بن حمد رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عن إدارة شؤون القرى، وهي إدارة لها مشكلاتها وعقدها وطبيعتها الخاصة، وكنت إذا زرته في مكتبه أجده مزدحمًا بأصحاب المطالب والحاجات من أهل القرى والبوادي، وكنت أعجب من صبره عليهم، مع سهولة وطلاقة وجه لا يُلقَّاها إلا الذين صبروا ولا يُلقَّاها إلَّا ذو حظ عظيم.

ووكل إلى الشيخ إدارة الشؤون الدينية بالوزارة، بوصفها إحدى الإدارات الأربع في عهد إدارة الدكتور كمال ناجي، وكنت بحكم إدارتي للمعهد الديني أتردد عليه، وحدي حينًا، ومع فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار أحيانًا، وكان هو يتردد على المعهد، ولا أذكر أني اصطدمت به أو اصطدم بي يومًا من الأيام، وما ذلك إلا لخلقه السمح، وصدره الرحب، والحب الكبير المتبادل بيننا، والثقة التي يوليها كل منا لأخيه.

- **الرفيق الكريم في السفر:**

ولقد عرفت الشيخ معرفة أعمق عن طريق الأسفار التي جمعتنا أكثر من مرة، لقد قيل: إنما سمي السفر سفرًا، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، ويكشف عن معادنهم، فقد سافرنا معًا في رحلة طويلة، إلى الشرق الأقصى بأمر من

أمير البلاد، الشـــيخ خليفة بن حمد ـ حفظه الله ـ وذلك سنة (١٩٧٤م) وكان يرافقنا الأستاذ سيد أبو يوسف، المسؤول عن العلاقات الثقافية بوزارة التربية والتعليم، لمعرفته الجيدة باللغة الإنكليزية ـ التي لا يتقنها الشـــيخ ولا أنا ـ وهو رجل على دين وخلق، كان نعم الرفيق والمعين لنا، وكانت رحلة ممتعة على طولها ومشقتها، فقد زرنا فيها ماليزيا، وأندونيسية، وسنغافورة، وهونج كونج، والفلبين، وكوريـــة، واليابان، وقد اهتمت حكومـــة الفلبين بزيارتنا، ووضعت تحت أيدينا طائرة خاصة، نقلتنا إلى جنوب الفلبين، وكانت أيامنا في الفلبين ثرية وخصبـــة، وخصوصًا في مدينة (مـــراوي)، وقد زرنا جامعة (ماندناو) الرسمية بها، ومعهد الملك فيصل للدراسات الإسلامية، والجامعة الإسلامية الأهلية، التي أسسها المجاهد المعروف الدكتور (أحمد الونتو) رَحِمَهُ اللَّهُ مؤسس جمعية أنصار الإسلام، وزرنا جمعية إقامة الإسلام التي أسسها الشيخ أحمد بشـــير رَحِمَهُ اللَّهُ ومعهدها العربي الإســـلامي، وعدد من المدارس العربية الكثيرة المنتشرة في تلك البقعة، وتضم البنين والبنات، وتعلمهم اللغة العربية والإســـلام، والتي كانت زيارتنا لكل منها (عرسًـــا) للمدرســـة، ومدرسيها، وطلابها، وطالباتها.

وكان الشيخ الأنصاري يحمل معه مبالغ من الدولارات، بعضها من الأمير ـ حفظه الله ـ، وبعضها من أهـــل الخير من رجال البـــلاد، وبعضها من ماله الخاص، فكان يعطي لهذه المدارس والمؤسســـات والجمعيات ما يساعدها على القيام برسالتها، وشق طريقها وسط الصعاب والعقبات.

وقد حاولنا أن يضم تلك المدارس الكثيرة اتحاد أو رابطة يجمع شتاتها، ويطور مضمونها وشـــكلها، ويأخذ هو المعونات ويتولى توزيعها بالقسطاس المستقيم، وكانت من التوصيات التي أكدناها قبل أن نغادرهم.

وسافرت معه بعد ذلك إلى الرياض، وإلى باكستان والهند، وإلى القاهرة، وإلى الكويت، وإلى البحريـــن، وإلى مكة المكرمة فـــي الحج إلى بيت الله

الحرام، وكان هو رئيسًا لبعثة الحج، فكان هو دائمًا النبع الثري، والمعين السخي، والمعدن الأصيل، الذي لا يضيق برفيق، ولا يتبرم بصديق، ولا تشعر معه بضيق، وإن طال به الطريق.

السفر معه روح وريحان، والجلوس معه حب وإيمان، وذكر وقرآن.

- **جهود الشيخ في المؤتمر العالمي الثالث للسنة والسيرة:**

وعندما تبنت دولة قطر المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية، وجعلته مقدمة لاحتفال الأمة الإسلامية بالقرن الجديد، القرن الخامس عشر الهجري، تعاونا معًا في اللجنة التحضيرية ـ التي رأسها الشيخ ـ والتي أعدت العدة لاستضافة هذا المؤتمر الكبير، واستجاب الشيخ لما اقترحناه: أن نجعله مؤتمرًا للسنة والسيرة معًا، كما استجاب لكل من اقترحناه عليه من أسماء للاستعانة بها في إنضاج الموضوع، وفي ترشيح الأسماء سواء بالكتابة إليهم أم باستحضارهم، إذا ساعدتهم ظروفهم؛ مثل: الشيخ أبي الحسن الندوي، والدكتور عبد العزيز كامل ـ رحمهما الله ـ، والدكتور عز الدين إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبذل الشيخ جهودًا مضنية تذكر فتشكر، في الإعداد والترتيب وتذليل الصعاب، وجاء المؤتمر بحمد الله رافعًا للرأس لائقًا بموضوعه، وبالمناسبة التي عقد فيها، وتوج ذلك بإجماع الحاضرين، من أقطار العالم الإسلامي ومن الجاليات الإسلامية خارجه، على اختيار الشيخ الأنصاري رئيسًا للمؤتمر، الذي أصدر توصيات طيبة، نشرت في كتيب خاص، وصدرت بحوثه في سبعة مجلدات بإشراف الشيخ.

- **إحياء التراث:**

وتولى الشيخ (إدارة إحياء التراث الإسلامي)، فاستطاع أن ينشر من خلالها عددًا غير قليل من كتب التراث النافعة، كثير منها يطبع لأول مرة، بعضها في التفسير، وبعضها في الحديث، وبعضها في الفقه، وبعضها في

لعقيدة، وبعضها في السلوك، وبعضها في التاريخ، وبعضها في الأدب واللغة، وبعضها في معارف متنوعة. أكثرها على نفقة الدولة، وكثير منها على نفقة أمير البلاد.

وقد وصلت هذه الكتب إلى بلاد إسلامية شتى، وانتفع بها الكثيرون من أهل العلم وطلابه، وكثيرًا ما كتب لها المقدمات بقلمه، مختارًا لنفسه هذا اللقب (خادم العلم)، وما أجله من مخدوم، وما أرفعها من مهنة! وبهذا واصل الشيخ ما بدأته دولة قطر، واشتهرت به من نشر العلم ومصادر التراث، منذ عهد الشيخ (علي بن عبد الله) رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى يومنا هذا.

ولقد اعترض بعض الناس على بعض ما نشر من كتب، وربما كنت من هؤلاء، ولكن طبيعة الشيخ السهلة السمحة هي التي أتاحت نشر هذه الكتب، وجعلته لا يدقق فيها كما ينبغي، ويقبلها ممن عرضها عليه ثقة منه بهم وبحسن اختيارهم، وهو على كل حال بشر غير معصوم لم يَدَّعِ العصمة لنفسه، ولا ادعاها له أحد من محبيه، وحسبه أن اجتهد ما استطاع، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فلن يحرم من أجر واحد، كما أن غالب ما نشرته إدارة إحياء التراث هو النافع المفيد، ولله الفضل والمنة، وقد قال علماؤنا: للأكثر حكم الكل.

وعندما دعوتُ إلى مقاومة الحملة التنصيرية الكبرى التي تهدف إلى تنصير المسلمين في العالم كما قرر مؤتمر (كولورادو) الشهير سنة (١٩٨٧م)، وبادرت بإنشاء الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية في الكويت: كان الشيخ من أوائل المستجيبين لهذا النداء والمشجعين له، والساعين في ترويجه، فلا غرو أن اختير من بين الأعضاء المؤسسين، كما اختير عضوًا في مجلس إدارة الهيئة، وظل به إلى أن لقي ربه، وكان أحد أعضاء اللجنة التي كلفت لقاء أمراء الخليج والحديث إليهم عن الهيئة، وقد لقينا معًا، وبصحبة الأخوين الكريمين: الشيخ يوسف الحجي والشيخ عبد الله المطوع: أمراء الكويت وقطر والبحرين.

وكثيرًا ما كان الشيخ يجمعنا في بيته وفي مكتبته الجديدة الأنيقة الحافلة، التي حدثها وطورها شكلًا ومبنًى، ومضمونًا ومعنًى، فجعل لها مبنى مستقلًا من طابقين، وزودها بالكتب المتنوعة في شتى العلوم الدينية والأدبية والإنسانية؛ لنتدارس القضايا الإسلامية الحية وموقفنا منها، وكان يجمع الأعضاء المؤسسين للهيئة الخيرية في قطر: فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، والأستاذ عبد العزيز عبد الله تركي، والأستاذ عبد الرحمٰن عبد الله آل محمود، والدكتور حسن المعايرجي، والأستاذ خليل حمد، والفقير إليه تعالى، وذلك للبحث في تنشيط عمل الهيئة، وجمع التبرعات لها، وكثيرًا ما ذهبنا معًا لزيارة بعض الوجهاء من أهل الخير لهذا الهدف، أمثال الشيخ خالد بن حمد آل ثاني، والشيخ جاسم بن علي آل ثاني، في أم قرن، وشيوخ الوكير من آل عبد الرحمٰن آل ثاني، والزعيم محمد العطية، والشيخ قاسم درويش فخرو، والسيد عبد الله عبد الغني، وإخوانه، وغيرهم من المعنيين في كل مشروع خيري، وما أكثرهم في قطر.

وكان الشيخ عضوًا في أكثر من هيئة ومؤسسة خيرية واجتماعية، فقد كان عضوًا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وكان على صلة بكثير من الجمعيات والمؤسسات والجامعات الإسلامية في الهند وباكستان والفلبين وغيرها من بلدان آسية وإفريقية، ولا عجب أن تجد لديه إذا زرته في مكتبه بإحياء التراث أو في مجلسه في داره العامرة: زوارًا من أنحاء العالم الإسلامي وفدوا إليه ينشدون نجدته ويطلبون معاونته في نصرة قضاياهم وفي حل مشكلاتهم، وتنشد إذا رأيتهم قول الشاعر:

يزدحمُ القصَّاد في داره والمنهلُ العذبُ كثيرُ الزِّحام

لقد كان من خصائص الشيخ الأنصاري: أنه رجل جلد نشيط قوي البنية، مفتول الذراعين، نفعته في ذلك نشأته في مهنة الغوص، وفي رحاب البحر، وقد كان ماهرًا في السباحة والغوص، ورأى أصحابه من ذلك ما يبهر الأبصار ويدهش

عقول، حتى غطس مرة أمام عدد من إخوانه من رجال التربية تحت الماء لعدة دقائق، وأشهد لقد حضرت مرة معه ليلة عيد الأضحى في موسم الحج، بعد أن مررنا بمزدلفة، وصلينا بها المغرب والعشاء، وبقينا حتى منتصف الليل، ثم ذهبنا إلى منى، ورمينا جمرة العقبة، ثم نزلنا إلى مكة لنطوف بالبيت طواف الإفاضة، ثم نسعى بين الصفا والمروة، والشيخ يتقدمنا جميعًا، ويسبقنا وأنا أصغر منه سنًا، وكان معنا بعض الشباب الذين لم يكونوا ليلحقوه في نشاطه وسرعته.

ومن خصائص الأنصاري: أنه رجل مقدام لا يتهيب العواقب ولا يتخوف النتائج، ولا يحسب الحسابات التي يحسبها بعض الناس إذا أرادوا أمرًا من الأمور، فهم يقدمون رِجْلًا ويؤخرون أخرى، وربما أخذ ذلك عليه بعض الناس، ولكن الرجل كان متوكلًا على الله تعالى، ولم يخيب الله تعالى رجاءه، فشرح له صدره ويسر له أمره، وحل له العقد التي يجدها غيره ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

• **ومن خصائص الشيخ:**

أنه رجل محبوب، يألف الناس ويألفه الناس، وما ذلك إلا لما ذكرناه من سعة خلقه، وسماحة طبعه، وسلاسة معاملته، فهو ممن يشمله الحديث الشريف: «**رحم الله امرأً سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى**»[1] رواه البخاري عن جابر، وقد كان الشيخ ـ كما يشهد له مرافقوه ومعايشوه ـ سمحًا في كل شؤون حياته.

ولهذا يصعب عليك أن تختلف معه، وإذا اختلفت معه يومًا في رأي أو قضية، يصعب عليك أن تشتد في خلافك معه، لأنك لا تجد هذه الفرصة، فهو حريص على أن تتسامح معه، كما يتسامح هو معك.

---

(١) نص الحديث عند البخاري: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى**» رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٦)، وأحمد (١٤٦٥٨)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٣)، عن جابر.

وأحسب أنني لم أختلف معه في قضايا العلم إلا في القليل من الأمور، منها موقفه من صعود الإنسان إلى القمر، واستبعاده هذا الأمر، وهو موقف غريب من مثله، ولكنه لم يلح على هذا الأمر ولم يركز عليه، وهذا لخلق السهولة عنده.

ومن ذلك: موقفه الشهير في رفضه استكمال شهر رمضان في قطر، موافقة للمملكة العربية السعودية، في إثبات دخول شوال وعيد الفطر، بعد ثمانية وعشرين يومًا من رمضان، وإصرار الشيخ على إعلان الفطر وصلاة العيد في مسجده، مخالفًا ما قضت به السلطة الشرعية في البلاد، وقد خرج الشيخ عن طبيعته في هذه القضية، وتشدد في ذلك واعتبر الصيام محرمًا في ذلك اليوم!.

هذا هو الموقف الوحيد الغريب من مواقف الشيخ، فلم يكن الأمر يستحق هذا التصلب، وكم مرة قبل هذه خالفت دولة قطر المملكة، وأتمت الشهر ثلاثين، ولم يعترض الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فما له يعترض هذه المرة؟ مع أن رمضان هنا لم يمض منه إلا ثمانية وعشرون يومًا، وقد رفضت مصر وغيرها من الأقطار موافقة السعودية، ومن المقرر في هذه القضايا الخلافية أن حكم الحاكم فيها يرفع الخلاف، ولهذا أرى أننا إذا لم نستطع أن نصل إلى وحدة المسلمين في مثل هذه الشعائر، فلا أقل من أن نحرص على وحدة أهل البلد الواحد، بحيث يصومون معًا ويعيّدون معًا.

ولكن هكذا اجتهد الشيخ في هذه المسألة، وهو مأجور على اجتهاده، إن شاء الله.

ومن اللطيف أن نَجْلَ الشيخِ الأكبرَ الأستاذ محمد عبد الله الأنصاري كتب في الصحف القطرية مخالفًا والده، بأدب، وهذا من الإنصاف الذي ربى الشيخ عليه أبناءه.

- **وفاته:**

وفي يوم من الأيام لا ينسى، هوى النجم، وترجل الفارس، وأغمد السيف، فقد بلغ الكتاب أجله، ولقي الشيخ الحبيب ربه، مشيعًا بخفقات القلوب المحبة، وزفرات الصدور الحزينة، وعبرات الأعين الباكية، ودعوات الألسن

المتضرعة، التي تسأل ربها أن يشمله بمغفرته ورضوانه، وأن يسكنه أعلى جناته، وصلى عليه الألوف وشيعوه إلى مثواه الأخير، راضيًا مرضيًا إن شاء الله.

كان لوفاته صدى في بلاد شتى، فقد كان الرجل محبوبًا بحق ممن عرف من الناس، وعسى أن يكون هذا دليل حب الله تعالى له، فقد جاء في (الصحيحين): عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله تعالى عبدًا نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبه. فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه. فيحبه أهل السماء، ثم يوضع القبول له في الأرض**»[1].

أجل لقد ودعنا الشيخ الأنصاري، وترك وراءه أبناء من صلبه، أحسن تربيتهم، وأدَّبهم فأحسن تأديبهم، وأبناء وإخوانًا محبين في أقطار عالم الإسلام، كما ترك آثارًا علمية عني بنشرها، وترك ذكرًا حسنًا وسيرة طيبة، تعطر المجالس، فهو بهذا حي معنا وإن مات، باق بروحه وإن غاب عنا بجسده.

ورحم الله أحمد شوقي حين قال:

دَقَّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له ... إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثوانِ!

فارفَعْ لنفسِكَ بعدَ موتِكَ ذِكْرَها ... فالذِّكْرُ للإنسانِ عمرٌ ثانِ!

لقد جاء في (الصحيح): «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[2].

وقد ترك الشيخ هذه الثلاثة من ورائه، فجعل عمله فينا ممتدًا، وأثره باقيًا، وسعيه موصولًا.

رحم الله الشيخ عبد الله الأنصاري رحمة واسعة، وتقبَّله في عباده الصالحين، وجزاه عن دينه وأمته خير ما يجزي به العلماء العاملين، والدعاة الصادقين.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٩)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٣٧).

(٢) رواه مسلم في الوصية (١٦٣١)، وأحمد (٨٨٤٤)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٦)، والنسائي في الوصايا (٣٦٥١)، عن أبي هريرة.



الشيخ السيد أحمد صقر
(١٣٣٤ ـ ١٤١٠هـ ـ ١٩١٥ ـ ١٩٨٩م)

في يوم السبت (٣ من شهر جمادى الآخر، ١٤١٠هـ، الموافق ٢ ديسمبر من عام ١٩٨٩م)، توفي المحدث اللغوي المحقق الناقد، الباحث الدؤوب، الشيخ سيد أحمد صقر.

وبعضهم يظن أن اسمه (أحمد) وأن (السيد) من صفته. وقد بعُد عن الصواب من ظن هذا. فهو سيد، اسمًا وصفة. وأما (أحمد) فاسم أبيه، العالم الجليل الشيخ أحمد محمد صقر، الأستاذ بكلية أصول الدين، وقد عاصرته بها، وإن لم أسعد بتدريسه لي.

وُلِدَ السيد أحمد صقر في عام (١٣٣٤هـ = ١٩١٥م)، في قريةِ (صَفْط تراب)، قريتي العزيزة عليَّ، فهو بلديي وابن قريتي، وبين عائلتينا مصاهرة، فقد كانت عمته متزوجة من ابن عمتي الأكبر.

وقد حفظ السيد القرآن ودخل معاهد الأزهر، ثم كلية اللغة العربية، ولم يكتفِ بما يكتفي به بعض الناس، وهو التدريس، والحصول على الراتب آخر الشهر، بل اشتغل بالقراءة في كتب العربية، وما أكثرها! وأصبح لديه ولع بها، وبالعمل على إخراجها، وتحقيقها ونشرها، ورأيت له بعض مقالات رصينة في مجلة (الأزهر)، وهو من أقدر الناس على تقديم الكتب، وتقويم النص، وتوثيق النقل، وتخريج شاهد، واستقصاء خبر، وكيف لا، وهو من كبار علماء العربية؟.

• **بدء اشتغاله بالتراث:**

بدأ الأستاذ سيد اشتغاله بالتراث في مطلع شبابه، حين حقق وشرح ديوان علقمة بن عَبَدة)، عـام (١٣٥٣هـ = ١٩٣٥م)، وكان طالبًا في الثانوي بالأزهر الشريف، وهذا يدل على نبوغ مبكر.

كان إنتاج السيد أحمد صقر في ميدانين اثنين من ميادين العلم: الأول: تحقيق النصوص التراثية ونشـرها، والثاني: كتابة بعـض المقالات النقدية العلمية من كتب التـراث، وفـي كلا المجالين ظهر علمه الغزيـر، وثقافته الواسعة، وبصره بعلوم الشريعة والتاريخ واللغة، كتابًا وسُنَّة، وتفسيرًا وفقهًا، وأصولًا وتاريخًـا، وأدبًا ونحوًا، حتى إنه كان كثيـرًا ما يردد في محاضراته عبارته الطريفة: (لستُ محدِّثًا ولا مفسِّرًا ولا فقيهًا، ولكنني أخرِّج المحدِّث والمفسِّر والفقيهَ).

• **ثناء العلماء عليه:**

وقد صاحب الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ جمهرة من العلماء والأدباء والنُّقاد منهم:

١ ـ **العلَّامة محمد الخضر حسـين**، شـيخ الأزهر، وكتب له تقريظًا على شـرحه لديوان علقمة، بعد أن أطلعه عليه في مجلة (الهداية الإسلامية)، كان مما قاله فيه: «عُنِي حضرة الشـاب الأديب الفاضل الشيخ السيد أحمد صقر بالبحث عن شعر علقمة الفحل، فجمعه في ديوان، وتناوله بشرح موجز نفيس، وصدره بمقدمة في تاريخ حياة ذلك الشـاعر، وآراء الأدباء في شـعره، وقد اطلعنا عليه، فرأيناه شـاهد صدق على ألمعية المؤلف، وحُسْن بيانه، فنشكر حضرته علـى الجمع والتحرير والطبـع، ونحث أهل العلم علـى اقتناء هذا الكتاب العامر بالفوائد اللغوية والأدبية»[1].

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، المجلد السابع، عدد رجب سنة ١٣٥٥هـ، ص ٢١٤.

٢ ـ يقول الشيخ **العلَّامة أحمد محمد شاكر** عنه: «والأستاذ الأديب السيد أحمد صقر مني بمنزلة الأخ الأصغر، نشأ معي، وعرفته وعرفني، وتأدبنا بأدب واحد في العلم والبحث، وفي فقه المسائل، والحرص على التقصي ما استطعنا، وإن له مدى مديدًا في الاطلاع والتقصي، وَنَفَذات صادقة في الدقائق والمُعضلات، يندر أن توجدَ في أنداده؛ بل في كثير من شيوخه وأساتذته، وهو أنفذ بصرًا مني في الشعر وما إليه»[(١)].

٣ ـ ويقول **الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد** في تصديره لكتاب (معرفة السنن والآثار) للبيهقي، بتحقيق السيد أحمد صقر: «وقد قام الأستاذ السيد أحمد صقر، بتحقيق هذا الكتاب تحقيقًا علميًّا بارعًا، وعلق عليه، وخَرج أحاديثه تخريجًا دَل على مهارة ونبوغ في هذه البَابَة، والأستاذ معروف لكل أعضاء لجنة (إحياء أمهات كتب السنة) معرفة زمالة وخبرة، وكلهم ـ والحمد لله ـ مِن أبنائي البَرَرة في طلب العلم، فوق أنه مشهور في أنحاء العالم العربي بالتفوق في تحقيقه، فما من حاجة بنا إلى الحديث عنه، والله تعالى نسأل أن يجزيه خيرًا، وأن ينفعَ بهذا العمل، إنه سبحانه سميع الدعاء»[(٢)].

- **وصية الشيخ لمن يعمل بالتراث:**

كان رَحِمَهُ اللَّهُ إذا استنصحه أحد في الاشتغال بتحقيق كتب التراث، طلب منه الأستاذ سيد: وجوب التضلع من مجمل العلوم العربية والشرعية، التي ينبغي أن يتحلى بها المتصدي لقراءة وتصحيح كتب التراث، واستفراغ الوسع في جلب نُسَخِ الكتاب، أينما وُجِدت في مكتبات العالم، وعدم الاستعجال، وكان دائمًا ما يتمثل بما ذكره في خاتمة مقدمته لكتاب (الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري) للآمدي، حيث قال: «وإني ـ على نَهجي الذي انتهجتُ

---

(١) انظر مقال: (تعقيب على نقد ودرس للمنقود قبل الناقد)، مجلة الكتاب، المجلد العاشر، عدد أبريل سنة ١٩٥١م.

(٢) الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر.

منذ أول كتابٍ نشـــرتُ ـ أدعو النُقَّاد إلى إظهاري على أوْهامي فيها، وتَبْيينِ ما دَقَّ عن فهمي من معانيها، أو نَدَّ عـــن نظري من مَبَانِيها، وفاءً بحق العِلْمِ عليهم، وأداءً لحق النصيحة فيه، لأبلُغ بالكتاب فيما يُستَأنَف من الزمان أمثل ما أستطيع من الصحة والإتقان. والنشرُ فَنٌّ خَفِيُّ المسالك، عظيمُ المزالق، جمُّ المصاعب، كثيرُ المضايق، وشـــواغلُ الفكر فيه متواترة، ومَتَاعِبُ البال متكررة، ومُبهِظاتُ العقل[1] غامـــرة، وجهود الفرد في مضماره قاصرة، يؤودُها حفظ الصواب، في سائر نصوص الكتاب، ويُعجزها ضبط شوارد الأخطاء، ورَجْعُها جميعًا إلى أصلها، فيأتي الناقد وهو موفور الْجَمَامِ، فيقصد قصدها، ويسهل عليه قَنْصها، ومن أجل ذلك قلتُ ـ وما أزالُ أقول ـ: إنه يجب على كل قارئ للكتب القديمة أن يعاون ناشـــريها بذكر ما يـــراه فيها من أخطاء، تخلص من شـــوائب التحريف والتصحيف الذي مُنِيَت به، وتخرُج للناس صحيحة كاملة، والله ولي التوفيق»[2].

• **وظائفه وأعماله:**

عمل بعد تخرجه مدرسًـــا للأدب العربي بالمعاهـــد الأزهرية، وانتدب في وقت من الأوقات لبعض المدارس الأجنبية بالقاهرة؛ كمدرسة اللِّيسِيه الفرنسية.

وبعد أن ذاعت شـــهرته في تحقيق التراث، عُيِّن مدرسًا بكلية أصول الدين بالأزهر، وقد عُيِّن خبيرًا بوزارة الثقافة والإعلام، ثم بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، برئاسة فضيلة العلَّامة محمد محيي الدين عبد الحميد، وانتقل إلى العمل في الكويت، واستمر هناك ثلاث سنوات، ثم عاد بعدها إلى مصر، ولما عاد إلى مصر، جعلوه مدرسًا للمرحلة الابتدائية! وظل كذلك حتى تولى الشيخ عبد الرحمٰن بيصار مشيخة الأزهر، فساهم مساهمة متأخرة في ترقية السيد أحمد صقر، فجعله أمينًا عامًّا مساعدًا لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

---

(١) أي: مرهقاته ومثقلاته.

(٢) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري (١٤/١)، دار المعارف.

وبعد ذلك ذهب إلى المملكة العربية السعودية، واستمر بها عشر سنوات تقريبًا، وقد عومل هناك وظيفيًا تحت بند (كفاءات نادرة)، وهو بند يَعتمد في التقويم على الشهرة والمكانة في العلم، وليس على الشهادة، وكان له جهودٌ كبيرةٌ هناك في الدراسات العليا، وأشرف على عدة رسائل ماجستير ودكتوراه.

• **مساعدته لتلاميذه:**

وكان أحد تلاميذه إذا وقف الساعات الطوَال أمام لفظة أو جملة، يقتدح لها زناد الرأي، ويقلبُ وجوه النظَر، ثم يقف حائرًا وقد استعجمتْ عليه دَلالات الألفاظ، وتنَكرت له معاني الحروف، فكان هذا يُحْزِنُه، وَيشُق عليه، فيلتجئ إلى أستاذه البار العَطُوف السيد أحمد صقر يستعين به ـ بعد الله ﷻ ـ فيما التبس عليه من وجه الصواب، فيرشِدُه ـ رحمةُ الله عليه ـ إلى معالِم الطريق، ويدله على مَقْطَع الحق، وفَصْل الخطاب، فجزاه الله خير الجزاء، عما قدم له ولجيله كله من توجيه ورعاية وإرشاد، وجعل كل ذلك في موازينه، يوم تجد كل نفس ما عملت من خيرٍ مُحضَرًا.

• **تحقيقاته:**

ـ في علوم القرآن الكريم:

١ ـ إعجاز القرآن، للباقلاني: مجلد واحد، دار المعارف بمصر، ١٣٧٤هـ = ١٩٥٤م، وطُبِع مرارًا.

٢ ـ تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (شرح وتحقيق): مجلد واحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤م، وصُور بعد ذلك مرارًا.

٣ ـ تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة (شرح وتحقيق): مجلد واحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٨هـ = ١٩٥٨م، وصُور بعد ذلك مرارًا.

٤ ـ أسباب النزول، للواحدي: مجلد واحد، دار الكتاب الجديد، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٩م، وطُبع مرارًا.

ـ وفي علوم السنة النبوية:

١ ـ فتح الباري، لابن حجر (تعليق): ثلاثة مجلدات (لم يتم)، دار الكتاب الجديد، ١٣٨٩هـ.

٢ ـ الإلماع، للقاضي عياض: مجلد واحد، مكتبة دار التراث، ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م، وطبع أكثر من مرة.

٣ ـ دلائل النبوة، للبيهقي: مجلد واحد (لم يتم)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، ١٣٨٩هـ = ١٩٧٠م.

٤ ـ معرفة السنن والآثار، للبيهقي: مجلد واحد (لم يتم)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م.

٥ ـ مناقب الشافعي، للبيهقي: مجلدان، مكتبة دار التراث، ١٣٩١هـ = ١٩٧١م.

٦ ـ شرح السنة، للبغوي: مجلد واحد (لم يتم)، مطبعة دار الكتب، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.

ـ في اللغة والأدب والشعر:

١ ـ جمع وشرح ديوان علقمة الفحل: مجلد واحد، مطبعة المحمودية ـ القاهرة، ١٣٥٣هـ = ١٩٣٥م.

٢ ـ مَقَاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصبهاني (شرح وتحقيق): مجلد واحد، ١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م.

٣ ـ الهوامل والشوامل، لأبي حيان التوحيدي ومسكويه: مجلد واحد، لجنة التأليف والترجمة والنشر بوزارة الثقافة، ١٣٧٠هـ = ١٩٥١م.

٤ ـ البصائر والذخائر، لأبي حيان: مجلد واحد (لم يتم)، لجنة التأليف والترجمة والنشر بوزارة الثقافة، ١٣٧٣هـ = ١٩٥٣م.

٥ ـ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للآمدي: مجلدان (لم يتم)، دار المعارف بمصر، ١٣٧٩هـ = ١٩٦٠م.

٦ ـ الصاحبي، لابن فارس: مجلد واحد، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.

• **صلتي بالشيخ السيد:**

عرفت الشيخ السيد أول مرة حين زار قريتنا صفط تراب، وخطب فيها خطبة جمعة، هي الخطبة الوحيدة، ولكني لم ألقه في تلك الزيارة، فقد كنت صغيرًا نسبيًا، ولم يبق هو بعدها مدة في البلد، كما كان يفعل والده الشيخ أحمد صقر، الذي كان يحبه الناس، وينصتون لقراءته الخاشعة الجميلة للقرآن الكريم، ويستمعون لخطبه ومواعظه.

ولكن عرفته وزرته واتصلت به بعد أن تخرجت واعتُقلت، وبدأت أؤلف وأكتب، واجتهدت أن أتعرف عليه، وأستفيد منه، وأسمع لنصائحه في العلم والقرآن، وأهدي إليه من بضاعتي المزجاة، ولكن الرجل رحب بي كثيرًا، وعاتبني على أنه لم يرني من قبل، مع ما بيننا من وشائج القربى والمصاهرة، فضلًا عن وشائج العلم، وهو رحم بين أهله.

وقلت له: تعلم أن حياتي كان فيها أحداث مريرة، حالت بيني وبينك. فالحمد لله قد انفكَّ الطوقُ، وأصبح الدرب معروفًا لنا.

وأذكر أني أهديت إليه بعض كتبي في ذلك الوقت، وقد سُرَّ بها، وشجَّعني على الاستمرار، والحصول على ما أقصى ما أستطيع من الدرجات العلمية.

وقد أهداني بعض ما كان عنده مما أخرجه من كتب ابن قتيبة الدينوري، وكذلك كتاب (مقاتل الطالبيين) لأبي الفرج الأصبهاني، وأوصاني ألا أنقطع عنه، وأن يرى كل ما يصدر لي من كتب.

كان الشيخ يسكن في شارع محمد علي، الذي يبتدئ من ميدان العتبة، إلى ميدان القلعة، وظل فيه سنين طويلة، حتى انتقل منه أخيرًا إلى بيت لم يتهيأ لي أن أزوره فيه.

سافرت بعدها إلى قطر، وبقيت عدة سنوات، ثم حدثت أحداث للإخوان في مصر، وأصابت بعض من كان في الخارج، ولكن الله عافاني من النزول في تلك الوقت، ونجوت من هذه المحنة.

ولكني لقيت في هذه الفترة أخانا وأستاذنا الشيخ السيد في مقره في مكة المكرمة، حين ذهب للتعاقد مع السعودية، التي عرفت له مكانته العلمية، وتمكنه من التراث وتحقيقه، وأعطوه حقه، كما أعطوا ذلك لكثير من العلماء المعروفين، مثل: الشيخ الغزالي، والشيخ سيد سابق، والأستاذ محمد قطب، وغيرهم ممن لا يحملون دكتوراه، ولكن شهد العلماء والأدباء والناس بسبق علمهم وفضلهم، وقدرتهم على إفادة الطلاب النابهين، وعلى توسيع دائرة العلم في المملكة.

كان الشيخ يقيم في هذه السنوات التي اكتملت عشرًا، في فندق (الفتح) القريب من الحرم المكي، يأخذ فيه جناحًا كبيرًا، يقيم فيه مكتبته ومكتبه وحجرة نومه، وقد زرته فيه أكثر من مرة، ووجدته يدرس لطلابه، ويشرف على رسائلهم، ويتدارس ويتناقش معهم، ويعمل لخدمة كتبه التي لا يشغله عنها شاغل، ووجدته سعيدًا بعمله، وسعيدًا بملاقاته بالطلاب، وبالزملاء، وبالرؤساء، وكانت علاقته بهم طيبة، كما عرفت ذلك من بعض الطلاب، ومن بعض المشايخ.

ومع هذا، فهو رجل ناصح أمين، يقول الحق، ولكن بأناة وحكمة، يبلغهم ما يجب بلا تطاول ولا انتفاخ.

ومن اللطائف التي سمعتها منه، وكذلك من الشيخ الغزالي: أن أحد المشايخ هناك استدلَّ بحديث ضعيف، يروج عند بعض الناس، فقال الشيخ الغزالي للشيخ سيد: أليس هذا الحديث ضعيفًا يا شيخ سيد؟ قال: نعم، يا شيخ غزالي، ولكن قواه الريال السعودي!.

عندما عدت إلى القاهرة بعد موت عبد الناصر، وحصلت على الدكتوراه من كلية أصول الدين سنة (١٩٧٣م)، زرته في بيته، وفي سنة (١٩٧٤م) دعاني الأستاذ أحمد فراج ـ مقدم البرنامج الديني الشهير (نور على نور)، والذي قدم فيه الشيخ الشعراوي ـ إلى أن أشارك ببعض الحلقات في البرنامج، واختار أن أقدم هذه الحلقات عن (الزكاة)، ورحبت بذلك، وقدَّمتها في صيف (١٩٧٤م)، ونالت هذه الحلقات استحسانًا من الناس، وقالوا لأحمد فراج: لماذا تحرموننا من هؤلاء العلماء؟!.

المهم أني زرت بعدها الشيخ السيد، وأثنى على حلقاتي في البرنامج، وتمنى أن يتكرر هذا، ولكنه أنكر عليَّ النظارة التي كنت ألبسها، فهي سميكة سوداء، لا تكاد تُرى عين الإنسان منها. قال: من يراك يظنك مكفوفًا، مع أنك سليم البصر بحمد الله، أرجوك ألا تلبس هذه النظارة. وكانت هذه نصيحة خالصة، وقد نظرت لنفسي وتعجبت! كيف قبلت أن أظهر في هذه الصورة العجيبة؟! فالحمد لله قد ألقيت هذه النظارة، وشكرت للشيخ السيد.

* * *



العلَّامة الشيخ صلاح أبو إسماعيل

الداعية الكبير، والبرلماني الشهير، والمفسر الأثير

(١٣٤٥ ـ ١٤١٠هـ = ١٩٢٧ ـ ١٩٩٠م)

في شهر مايو سنة (١٩٩٠م) فُجِعْنا بنبأ وفاة أخينا وصديقنا الكريم، الداعية الكبير، والبرلماني المصري الشهير، الشيخ صلاح أبو إسماعيل، وكنا قد سعدنا به منذ زمن قريب في قطر، وودَّعناه ذاهبًا إلى (أبو ظبي) لتسجيل حلقات مطلوبة منه، في تفسير القرآن الكريم، على ما أذكره.

وقد أطال الشيخ المقام في أبو ظبي، كلما عزم على الرحيل، ألَحُّوا عليه يتأخَّر لمزيد من التسجيل، والشيخ يُراعي خاطرهم، ويستجيب لهم، مع أنه كان مرهقًا، وفي حاجة إلى الاستجمام والراحة، ولا سيما في مثل سنه وحالته الصحية. وقديمًا قالوا: من الحب ما قتل! ومن الحب ما يمرض ويؤذي! أو كما قال أبو الطيب:

ومِنَ العداوةِ ما ينالُك نفعُه ومِنَ الصَّداقةِ ما يضرُّ ويؤلمُ!

وأخيرًا سُمح للشيخ أن يسافر ويعود إلى وطنه، وكان عادة يسافر وحده بلا رفيق، وفعلًا حزم أمتعته، وذهب إلى مطار أبو ظبي مرهقًا شديد الإرهاق. وفي مطار أبو ظبي، وهو ينتظر إقلاع الطائرة، مسترخيًا في صورة نائم، وافاه الأجل، ونفدت آخر قطرة في سراج العمر، وفوجئ الناس بالشيخ، وقد فاضت روحه إلى بارئها، راضية مرضية إن شاء الله، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

كان الشيخ صلاح داعية مرموقًا، له شخصيته المتميِّزَة، وله أسلوبه الخاص، وله جمهوره المحبُّ له، وكانت له عقلية علمية منفتحة على التراث

وعلى العصر، ولسان فصيح، وحديث عَذْب، ونفسية مشغولة بهموم الناس، شغلها بنصرة الدين، وقلب شـــجاع، لا يخاف في الله لومة لائم، ووجه هادئ باسم، تحس أن وراءه نفسًـــا زكية، وســـريرة طاهرة، إلى روح فَكِهة، تتذوق النكتة المصرية، وتساهم فيها.

• **قارئ مفسّر داعية:**

كان حافظًا متقنًا للقرآن الكريم، يُحســـن تلاوتـــه وترتيله بصوت جميل، كثيرًا ما كان يُدعى في مآتم منطقته ليقرأ القرآن، ولكنه لم يكن يتقاضى عليه أجرًا، ثم تميَّز عن القراء الآخرين بأنه يقرأ الربع ثم يفسِّره للناس، وكان له فيه تذوُّق، وحُسْن فهم. فهو قارئ وداعية.

• **نجاحه الباهر في الانتخابات:**

وهذا هو الذي عرّف الناس به، وعرَّفه بهم، فلما رشَّح نفسه لمجلس الشـــعب، كان أهل منطقته جنودًا له، يفدونه بأنفسهم وما ملكت أيديهم، حتى إنهم كانوا يستميتون في حراســـة صناديق الانتخاب، ويستقتلون في الدفاع عنها، حتى لا تُســـرق وتبدَّل بصناديق أخرى. وهـــذا هو ما جعل الشيخ ينجح في مرات كثيرة رغم أنف الحكومة، ورغم التزوير المكشوف في أكثر الدوائر.

• **حيلة لطيفة لحفظ الصناديق من التبديل:**

وقد هداه ذكاؤه إلـــى حيلة لطيفة لحفظ الصناديق مـــن التبديل، وهو أن يعطي كل مسؤول عن صندوق (قرش صاغ) يضعه في الصندوق، ويقول: هو مندوب عني، ثم بعد ذلك لا يقبل صندوقًا إلا إذا وجد فيه القرش! وإلا كان معناه أنه غُيِّر.

• **شعاره في الانتخابات:**

كان شـــعاره في الانتخابات: أعطني صوتك لنصلح الدنيا بالدين. وكان

هتاف الناس له: يحيا العلم ويحيا الدين.. وعاش الشيخ أبو إسماعين. والعامة في مصر ينطقون لام إسماعيل نونًا[1].

• **معرفتي بالشيخ صلاح أبو إسماعيل:**

عرفت الشيخ صلاح أبو إسماعيل أول ما عرفته، عندما كنَّا طلابًا في الكليات، كنتُ في كلية أصول الدين، وكان هو في كلية اللغة العربية، وكان كلانا من طلاب الإخوان المسلمين.

كنت مسؤولًا عن طلاب الإخوان في كليات الأزهر، ومعهد القاهرة، وكان هو مسؤولًا عن طلاب كلية اللغة العربية، وكنا نلتقي في اجتماعاتنا الدورية، وفي المركز العام، وفي رحلات إلى جبل المقطم، وفي مخيمات تربوية يقيمها الإخوان بين حين وآخر.

ثم تخرجنا، وجاءت مِحَن الإخوان، وفرّقت بيننا الأيام، وأُعِرْتُ إلى قطر، وبقيت فيها، واستقر هو في مصر. ثم جمعنا العمل الدعوي العام في أقطار شتى، ومناسبات عدة، في ندوات ومؤتمرات ولقاءات: في مصر، وفي قطر، وفي الجزائر، وفي السودان، وفي المملكة العربية، وفي الإمارات، والكويت.. وغيرها من بلاد الإسلام، وخارج بلاد الإسلام.

وكان الشيخ صلاح رجلًا محبَّبًا إلى كل من يعرفه، لذكاء عقله، وسعة علمه، ودماثة خلقه، ولطف معاشرته، وسماحة نفسه، وإشراقة وجهه، وابتسامة ثغره، وتوقُّد حماسته، وتواصل نشاطه، وصبره على العمل والتنقل والحركة، رغم ضخامة جسمه، وثقل وزنه، لكنه كان قوي العزيمة، عالي الهمة، عميق الإيمان، عظيم الأمل في انتصار الإسلام، شديد اليقين بنجاح دعوته، إذا وجدت الداعية المؤهَّل باليقين والأخلاق والعلم والحضور وحسن الطريقة.

---

[1] هي لغة في كل ما آخره (إيل) العبرية، تقلب لامها نونًا، فيقال في جبريل: جبرين، وفي إسرافيل: إسرافين، وفي إسرائيل: إسرائين. انظر: الصحاح (سرف).

• **الصوت الجهير في مجلس الشعب:**

كان صوته جهيرًا في مجلس الشعب المصري، الذي مثَّل دائرته فيه لعدة دورات. وكان مطالبًا بتحكيم الشريعة، داعيًا إلى الحريات، ولا سيما الحرية السياسية، منتقدًا للأوضاع العوجاء بصراحة وقوة، مستفيدًا من حصانته البرلمانية. وقد ظل يسعى ويجتهد في المجلس، حتى أصدر جملة من القوانين الموافقة للشريعة الإسلامية، ولكنها ظلت حبيسة الأدراج، لم تخرج إلى النور، لأنه لم توجد (الإرادة السياسية) التي تتبناها وتحولها إلى واقع مشهود.

• **شهادته الصريحة في محكمة أمن الدولة:**

ولقد دعته محكمة أمن الدولة، التي كانت تحاكم (تنظيم الجهاد)، ليدلي بشهادته باعتباره شاهدَ نفيٍ، وبوصفه أحد علماء الأزهر، الذين اشتهروا بالدعوة إلى الإسلام في مصر وغيرها، وقد أدلى الشيخ في المحكمة بشهادته الخطيرة الصريحة التي هزت الدنيا، وزلزلت أركان الحكم في مصر زلزالًا! اتهم فيها النظام بالكفر والفسق والظلم، وفقًا لما جاء به القرآن في سورة المائدة:

- ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].
- ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].
- ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وقد نشرها في كتاب بعنوان (الشهادة).

• **دعوة جمع غفير من الدعاة إلى قريته:**

في إجازة من إجازات الصيف، دعا الشيخ صلاح عددًا من شيوخ العلم والدعوة (أذكر منهم: الشيخ محمد الغزالي، والشيخ عبد المعز عبد الستار، والفقير إليه تعالى، وجمًّا غفيرًا من الدعاة لم أعد أذكرهم) إلى قريته بهرمس، مركز إمبابة، في محافظة الجيزة، لنطلع على المؤسَّسات التي أنشأها من تعليمية وصحية واجتماعية، وأقام لنا وليمة كبرى في بيته، جمع فيها ما لذَّ

وطاب، إكرامًا لإخوانه. وقد مازحته يومها فقلت له: يا شيخ صلاح، الصوفية يقولون: العادة تثبت بمرة واحدة! فقال: وأنا موافق، وليتكم في كل صَيْفِيَّة تكرمونني بهذه الزيارة، فأنا والله الفائز. وأحسب أننا زرناه مرة أخرى، ولكن كان العدد محدودًا، وليس كالمرة الأولى.

• **المسيرة المليونية في السودان تأييدًا لتطبيق الشريعة:**

دعا الرئيس السوداني جعفر نميري، إلى مسيرة مليونية تأييدًا لقراره بتطبيق الشريعة الإسلامية، وشارك فيها بقوة: الإسلاميون، وكل فئات الشعب، وحضر عدد كبير من العلماء من بلاد عربية وإسلامية شتى، منهم: شيخنا الشيخ محمد الغزالي، وأخونا الداعية الكبير الشيخ صلاح أبو إسماعيل، وكثيرون من علماء العالم الإسلامي لم أعد أذكرهم.

وقد أقيم للمدعوين سرادق في مكان متميز في الخرطوم، بحيث يشرفون من موقعهم على المسيرة وهي تمر أمامهم، ممثلة لفئات المجتمع المختلفة، ومهنه المتنوعة، من الجمعيات الخيرية، ومن الطرق الصوفية، ومن النقابات المهنية، ومن التجمعات القبلية، ومن الجماعات السياسية، ومن غير ذلك من الفئات والجهات، التي شملت الشعب كله، وكلها تهتف من أعماقها للشريعة الإسلامية، وللدعوة الإسلامية، وعلى وجوه الناس الفرحة والثقة، وهذا استفتاء صادق للشعب، وقد كان الجو حارًّا، والمسافة طويلة من بداية المسيرة في الخرطوم إلى منتهاها في أم درمان، ولكن الناس كانوا أقوى من الحر، وأقوى من طول المسافة.

وفي الحقيقة كان يومًا حافلًا، ويومًا رائعًا، ويومًا من أيام الله، وكان كثير من المدعوين ـ وأنا منهم ـ تغرورق عيناه بالدموع، كلما رأى هذه المناظر الشعبية التلقائية، المؤيدة لشرع الله، وأحكام الله.

وكان أخونا الشيخ صلاح أبو إسماعيل يقول في حرقة وحرارة: متى أرى مثل هذه المسيرة في القاهرة؟ أسأل الله ألا يميتنا حتى يقر أعيننا برؤية مثل هذه المسيرة. ولكنه انتقل إلى رحمة الله قبل أن يرى هذه المسيرة.

* * *



الشيخ عبد الله المشد
الفقيه الأصولي
(١٣٢١ ـ ١٤١١هـ = ١٩٠٣ ـ ١٩٩٠م)

العالم الأزهري، والفقيه الأصولي المستنير، الشيخ عبد الله المشد، شغل عدة مناصب علميـــة ودعوية، منهـــا: مدير الوعظ بالأزهـــر، وعضو بمجمع البحوث الإســـلامية، ورئيس لجنة الفتوى بالأزهر، والمستشار الديني لبعض البنوك الوطنية.

وكان المشد رجل صدق، ومن العلماء النابهين الناشطين من أبناء مديرية البحيرة، مثل: الشيخ شلتوت، والدكتور البهي، والدكتور ماضي.

وقد كان معنيًا بالقضايا الإسلامية، وكان رئيسًا للبعثة التي أرسلها الأزهر إلى بلاد (الصومال) و(إريتريا) و(عدن) و(الحبشة)، لدراسة أحوال المسلمين بهذه البلاد.

واستغرقت رحلة البعثة ثلاثة أشهر، ما بين يوم (٢٦ من شعبان سنة ١٣٧٠هـ، الموافق أول يونيو سنة ١٩٥١م) ويوم (٢٩ من ذي القعدة الموافق أول سبتمبر سنة ١٩٥١م). وكتبت البعثة تقريرًا مفصلًا، يتسم بالدقة والاعتدال والواقعية، يقع في مئة وســـتين صفحة كبيرة. ومع هذا فقد حوى ذلك التقريـــر عجبًا عجابًا عن الاضطهاد الديني في القرن العشـــرين، ولا غرو أن ظل رجـــال إريتريا الكبار، وشبابها الصغار، يترددون على الشيخ المشد، ولا سيما عندما بدؤوا يفكرون في إنشاء حركات التحرير من الاحتلال الإثيوبي لبلدهم، والاستقلال عن الحبشة، وأذكر من هؤلاء الأســـتاذ آدم إدريس، أحد الزعمـــاء المرموقين، الذين قاوموا جبروت وطغيان هيلاسلاسي الذي حكم إثيوبيا بين (١٩٢٨ ـ ١٩٧٤م).

ومن المواقف التي أذكرها للشيخ المشد، عندما اعتقلت في مصر بعد عودتي من قطر في الإجازة السنوية لعام (١٩٦٢م)، ولم يعرف أهلي إلى أين أُخِذْتُ، فذهبت زوجتي (أم محمد رحمها الله) إليه في مكتبه بالأزهر، ليساعدها في الوصول إليَّ، فحاول واجتهد، ولكنه عجز عن أن يصل إلى شيء.

ومما أخذته على الشيخ، أمر يغتفر في بحر حسناته، ولكن أذكره للتاريخ، فقد ساءني أن أرى اسمه ضمن من كتب في الملحق الذي أصدرته مجلة (منبر الإسلام)، التي كانت تصدر عن (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية) الذي يديره الضابط المعروف توفيق عويضة أمينه العام، والذي كانت تعلو كلمته على كلمة وزير الأوقاف إذا تعارضتا، وكان ملحقًا خاصًا مثيرًا، عنوانه: (رأي الدين في إخوان الشياطين)! وكان ذلك في أثناء محاكمات تنظيم (١٩٦٥م)، وقد كتب فيه عدد من العلماء والمشايخ، كنت أربأ ببعضهم أن ينساقوا في هذا التيار، ويُستخدَموا أدوات في أيدي الظلمة الجبارين، وكان من هؤلاء الأسماء التي ساءني أن أراها في هذه القائمة: الشيخ عبد الله المشد، والأستاذ أنور الجندي، والمعروف أنه من الإخوان. ولكن يبدو أن الضغط كان شديدًا!.. غفر الله لهما.

- **فتاوى تدل على تمكن الشيخ المشد:**

وكان للشيخ المشد رَحِمَهُ اللَّهُ عديد من الفتاوى المهمة، والاجتهادات التي تدل على تمكنه الفقهي، منها جواز ذبح الهدي خارج الأراضي الحجازية، إذا لم يجد الحاج من يأكل ذبيحته هناك، ليستفيد بها فقراء المسلمين، وترتب على فتواه هذه أن أقامت المملكة العربية السعودية مصانع لتعليب الذبائح، وإرسالها إلى المسلمين الفقراء في العالم.

وله أيضًا فتاوى حول تحديد أوائل الشـــهور العربية، وحول فرق القيمة الذي اعتبره ليس من الربا المحرم، وله فتوى أجاز فيها نقل الأعضاء، وأجاز التأمين على الحياة.

- **من مؤلفاته:**

ـ تقرير عن أحوال المسلمين في بلاد الصومال وإريتريا، ١٩٥٧م.

ـ علي مبارك: حياته ودعوته وآثاره، بالاشـــتراك مع محمود الشـــرقاوي، ١٩٦٢م.

ـ واشترك مع أمين الخولي في تأليف كتاب (الآداب الدينية الاجتماعية)، ١٩٦٦م.

* * *



الدكتور عبد العزيز كامل

الداعية والكاتب الإسلامي، وعضو الهيئة التأسيسية، وعضو مكتب الإرشاد

(١٣٣٨ ـ ١٤١١هـ = ١٩١٩ ـ ١٩٩١م)

د. عبد العزيز كامل، الداعية والكاتب والمفكر الإسلامي، أحد الأقلام الأولى التي غيرت الفكر الإخواني، حتى رشحه عدد من الإخوان مرشدًا بعد حسن الهضيبي، تولى وزارة الأوقاف، وشارك في وزارات محمود فوزي وعزيز صدقي وممدوح سالم، وعُيِّن نائبًا لرئيس الوزراء عام (١٩٧٤م).

سافر د. كامل بعد ذلك إلى الكويت، وبقي فيها ستة عشر عامًا مدرِّسًا ومديرًا لجامعتها ومستشارًا لأميرها.

وكان مشاركًا نشطًا في الحوار الإسلامي المسيحي، إيمانًا بإمكان إيجاد قاعدة مشتركة من التعاون يجري من خلالها إسهام المسلمين في بناء ثقافة عالمية مؤمنة.

كما تعاون مع اليونسكو وشارك في أنشطتها. وأسهم في الرد على ما اشتملت عليه الطبعة الإنجليزية من المجلد الثالث من كتاب (تاريخ البشرية) من أخطاء ومغالطات، وتجنٍّ على الإسلام وتاريخ أهله، وعن القرآن الكريم.

- **معرفتي بعبد العزيز كامل:**

عرفت عبد العزيز كامل أول ما عرفته من قراءتي لمقالاته في مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية، وكنت من المعجبين بهذه المقالات، والمداومين لقراءتها، هي ومقالة الشيخ الغزالي، وإن كان لكل منهما طابعه المتميز، ومذاقه الخاص.

فقد كان الشيخ الغزالي يكتب ـ عادة ـ للمسلمين عامة، وكان عبد العزيز كامل يكتب للإخوان خاصة، بل كثيرًا ما يكتب للإخوان العاملين منهم.

كان الغزالي يركز على التوعية العامة، وكامل يركز على التربية الخاصة، بغرس الجانب الرباني في تكوين الشخصية المسلمة، وكانت له سلسلة مقالات تحت عنوان: (كونوا ربانيين). كما كتب سلسلة مقالات عن (البناء والهدم في الدعوات) وعن (المحن في الدعوات) كان لها تأثيرها في إضاءة العقول بالمعرفة، وإنارة القلوب بالإيمان.

وكتب أيضًا تحت عنوان (في صميم الدعوة) مقالات توجيهية تربوية، تهدف إلى تصحيح مفاهيم الدعوة عند الإخوان، ودفعهم إلى السلوك القويم، والبذل من أجل الدعوة والتآخي عليها. وكان له نَفَس خاص في مقالاته، لا يكاد يوجد عند غيره.

والعجيب أن هذه المقالات التي كتبها عبد العزيز كامل لم يسعَ أحد لجمعها ونشرها؛ ليستفيد الناس منها؛ فالأفكار لا تموت بموت أصحابها، بل يموت العلماء وتبقى آثارهم حية.

• **لقاءاتي به** رَحِمَهُ اللَّهُ :

عندما قُدِّر لي أن ألتقي بالأستاذ عبد العزيز ازداد إعجابي به، وحبِّي له، وقد كان أول لقاء لي به حينما زارنا في طنطا قبل حل الإخوان الأول بقليل، وألقى محاضرة مؤثرة في دار الإخوان بطنطا، وكان في ذلك الوقت معلِّمًا بمعهد شبين الكوم العالي للتربية، ولم يكن قد حصل على الدكتوراه بعد.

كانت معرفتي به حين لقيته في معتقل الطور، واستمعنا بشغف إلى أحاديثه العميقة، وكنا نسمع من إخوان القاهرة: أن الأستاذ البنا كان يعدُّه ليكون (المرشد) من بعده. وبعد الإفراج عن الإخوان زرته أكثر من مرة في بيته أنا والأخ أحمد العسال. وتوثقت هذه الصلة أكثر حين كان مسؤولًا عن

(قسم الأُسَـــر) بالمركز العام للإخوان، وقد اجتهد أن يرقى بهذا القسم، وأن يقيمه على دعائم راســـخة من العلم الشـــرعي، والثقافة التربوية، وكان معنيًا بالتأصيل أكثر من اهتمامه بالتفريع، ولا سيما فكرة المحاسبة للنفس أو النقد الذاتي للجماعة؛ فإن الله لم يجعل العصمة إلا لمجموع الأمة، أما أي جماعة فيمكن أن تخطئ كما يمكن أن تصيب.

وعندما قمت أنا ومجموعة من شباب الأزهر آمنوا بربهم ورسالتهم، وآلوا على أنفسهم أن يرفعوا صرح الأزهر عاليًا أو يموتوا تحت أنقاضه، بعمل لجنة لبعث الأزهري، وقد كلفني الإخوة الزملاء مؤسســـو اللجنـــة أن أبدأ بكتابة الرسالة الأولى من رسائلها المعرِّفة بها والمعبِّرة عن مهمتها، (رسالتكم يا أبناء الأزهر)، وقد عرضتها على الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي ليقرأها ويبدي ملاحظاته عليها، فأجاب ذلك مشـــكورًا، وقرأها، وقال عنها: إنها من أمتع ما قرأت، فكرة وعاطفة وأسلوبًا. وعرضتها كذلك على الداعية والمربي الجليل الأستاذ عبد العزيز كامل، فسُرَّ بها كثيرًا، ولكنه نصحني بأن أخرِّج أحاديثها، حتى تأخذ الصبغة العلمية.

وبدأ بنشر سلسلة تنويرية للإخوان سماها: (نحو جيل مسلم) لا تستنكف أن تضمن النقد لبعض الأفكار، وبعض السلوكيات السائدة في الجماعة.

ثم توثقت العلاقة أكثر حين جمعنا الســـجن الحربي، والمحن بطبيعتها تجمع ولا تُفَرِّق، وبعد خروجنا من السجن كنتُ أتردد عليه أنا وأخي العسَّال للاقتباس منه، والاقتطاف من ثمار معرفته وخبرته.

وهذا الاتصال به كان ســـببًا في اعتقالي أنا والعسال، حينما تم اعتقالنا صيف ســـنة (١٩٦٢م)، بعد وصولنا من قطر إلى مصر بعدة أيام، ولم نعرف سبب اعتقالنا إلا بعد الإفراج عنا؛ فقد كان عبد العزيز كامل وحسن عباس زكي وعمر مرعي وآخرون متهمين مع بعض الضباط في الجيش المصري

بعمل انقـــلاب ضد عبد الناصـــر، وأننا ـ باعتبارنا فـــي الخليج ـ كنا همزة الوصل لتمويل هـــذا الانقلاب المزعوم، الذي لم نعلم عنه شـــيئًا، إلا بعد خروجنا من ســـجن المخابرات! مع أني لم يكن لي في الخليج إلا بضعة أشهر، فبعد أن ذهبنا إلى مبنى المخابرات المصرية، وقد بدؤوا سؤالي: هل تعرف أحدًا في الدُّقي؟ قلت: نعم أعرف جماعة ســـعودي: الحاج سعودي وإخوانه. قالوا: ألا تعرف أحدًا آخر؟ قلـــت: لا أذكر الآن. قالوا: ألا تعرف عبد العزيز كامل؟ قلت: بلى، أعرفه جيدًا. قالوا: فلماذا تنكر، وقد زرته أكثر من مرة؟ قلتُ: لم أنكر، ولو سألتموني مباشرة لأجبت بالإيجاب، وهل في معرفة عبد العزيز كامل أو زيارته تهمة؟ على أن عبد العزيز كامل عاش دهرًا وهو من سكان إمبابة، وهو حديث عهد بسكنى الدقي؛ ولذا لم يخطر ببالي لأول وهلة.

قالوا: هل تعرف أحدًا من ضباط الجيش؟ قلتُ: لا أذكر أحدًا غير معروف الحضري، وقد كان معنا في السجن الحربي. قال: عادتكم تنكرون كل شيء، وليس هناك طريقة تنطقكم غير طريقة حمزة البسيوني والسجن الحربي.

قلتُ: وماذا أنكرتُ أنا حتى تقول هذا الكلام؟ قـــال: ألا تعرف الضابط محمود يونس؟ قلت: بلى، أعرفه. قالـــوا: فلماذا ادعيت أنك لا تعرف أحدًا؟ قلت: لو سألتني عن معرفة محمود يونس ما أنكرت، ولكن هذه معرفة قديمة، ولم أره منذ سنين، وصلته بالأخ العسال أقدم وأوثق. قالوا: وهل تعرف صلة محمود يونس بعبد العزيز كامل؟ قلت: أظنه كان يريد أن يتزوج ابنة أخته أو نحو ذلك، فهذا هو ســـر صلته به فيما أعلم. قالوا: أهذا كل صلته بعبد العزيز كامل؟ قلت: هذا كل ما أعلمه عن صلته بـــه، وأي صلة يمكن أن تكون بين يونس وكامل؟ قال أحدهم: هكـــذا أنتم أيها الإخوان، تتخذون دائمًا ســـبيل الجحود والإنكار، ما لم تُستخدم معكم أدوات تجبركم على الكلام. قلت له: والله ما عندي شيء أخفيه.

وسألوني بعض الأسئلة عن قطر، وعن عملي في قطر.. ثم أمروني بالانصراف، وأنا لا أدري شيئًا عن هذه الأسئلة التي وجهت إليَّ، ولماذا سئلت عن عبد العزيز كامل ومحمود يونس دون العالمين؟ وهل انتهى التحقيق معي أو لم تزل له بقية؟.

كل هذه الأسئلة بقيت معلقة لم أجد لها جوابًا. وما هي إلا أيام حتى عرفت من الناس التهمة التي أخذت بها، وهي شبهة المشاركة في انقلاب ديني مطابع، دبَّره بعض الضباط في الجيش، مع فئة من القيادات الدينية الصوفية، وعلى رأسهم: الدكتور حسن عباس زكي وزير الاقتصاد السابق، والأستاذ عمر مرعي، شقيق السيد مرعي رئيس مجلس الشعب، ومعهما الأستاذ عبد العزيز كامل.

• **سعة ثقافته الإسلامية:**

من عرف عبد العزيز كامل واقترب منه، وجده من أوسع الناس ثقافة؛ فرغم أنه خريج الجامعة المصرية من قسم الجغرافيا بكلية الآداب، تجد ثقافته العربية والإسلامية مؤسسة تأسيسًا قويًّا، وقد نشأ في الإسكندرية قريبًا من جماعة أنصار السنة المحمدية، فاستفاد من مصادرها واهتماماتها السلفية، وتعرف على مدرسة ابن تيمية وابن القيم، كما كان على اطلاع على الفكر العربي ومدارسه، وعُني كذلك بالفكر التربوي وفلسفته وأصوله النظرية، وتطبيقاته العملية.

• **المؤتمر العالمي للسيرة النبوية:**

ومما أذكره حضور الأستاذ عبد العزيز للمؤتمر العالمي للسيرة النبوية، التي استضافته دولة قطر، بفضل جهود صديقنا العالم الجليل الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ، وتجاوب المسؤولين في دولة قطر، وكان هذا المؤتمر قد عقد مرتين قبل ذلك: مرة في باكستان، ومرة في تركيا. وأرادت

قطر باستضافة هذا المؤتمر: أن تكون بداية احتفالات الأمة الإسلامية بمقدم القرن الخامس عشر الهجري. واقترحنا أن نستعين ببعض الشخصيات البارزة، منهم: الدكتور عبد العزيز كامل في الكويت، الذي كان له إسهامه البارز في المؤتمر، وقد اقترح إضافة كلمة في غاية الأهمية إلى عنوان المؤتمر، وهي كلمة (السنة) فبدل أن كان اسمه (المؤتمر العالمي للسيرة النبوية) يجب أن يكون اسمه (المؤتمر العالمي للسنة والسيرة النبوية)؛ فالسنة أعم وأشمل من السيرة، وهي في حاجة إلى خدمة وعناية كبرى، والسيرة جزء منها. وينبغي على هذا المؤتمر أن يكون تركيزه على النهوض بالواجب نحو السنة وعلومها، نهوضًا يليق بإمكانات العصر. واستجابت اللجنة لاقتراحه فورًا، وغيرت عنوان المؤتمر.

• **عبد العزيز كامل والإخوان:**

كان كثير من الإخوان يرشحون الأستاذ عبد العزيز كامل ليكون خليفة للمرشد العام الأول الإمام حسن البنا؛ لما رأوا فيه من مواهب وفضائل، ربما لا تتوفَّر في غيره، ولما رأوا قربه من الأستاذ البنا، بل قيل: إن الأستاذ البنا نفسه كان يرشحه لهذا المنصب في وقت من الأوقات.

وكان آخرون يعيبون على الأستاذ عبد العزيز الغموض في موقفه من بعض القضايا الكبرى داخل الجماعة، ومحاولته أن يمسك العصا من الوسط، وأن يرضي جميع الأطراف، وربما كان هذا ناشئًا عن خلق الرفق واللين عنده؛ فهو لا يحسم الأمر حيث ينبغي أن يُحسَم، ولا يعلن موقفه الصريح حين ينبغي أن يعلن.

وبعد ذلك غيَّر أكثر الإخوان موقفهم منه، حين انضم إلى ركب الثورة، وقرر أن يسلك سبيل التعاون معهم، لا المعارضة لهم.

وقد عرفت من الأستاذ محمد فريد عبد الخالق أنه أخبره في أواخر أيامه في السجن الحربي أنه سيعمل وحده بعيدًا عن الإخوان، وكلَّفه أن يبلغ ذلك

على الإخوان، وأنه استخار الله في ذلك وصمَّم عليه، ويبدو من هذا: أنه رأى أن يغير خطه بعد خروجه من السجن، وأنه لا فائدة من الصراع مع الثورة، وأن العمل معهم أجدى من الصراع ضدهم.

وكان هذا اجتهادًا منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رضيه منه رجال الثورة، وعُيِّن على أساسه وزيرًا للأوقاف وشؤون الأزهر، ثم نائبًا لرئيس الوزراء لهذه الشؤون الدينية، ولم يرض ذلك منه جمهور الإخوان، واعتبروه قد خان الدعوة التي نشأ فيها، وصار في ركاب أعدائها، وأنه قد أحبط عمله، وضيع تاريخه، وختم حياته خاتمة سوء، وإنما الأعمال بالخواتيم.

والإخوان بهذا قساة في حكمهم على إخوانهم الذين يختلفون معهم.

ورأيي أن الناس تتفاوت طاقاتهم في احتمال البلاء والصبر عليه، وهذا أمر مشاهَد ومتفَق عليه، وأن من ضعف احتماله عن السير في الطريق إلى نهايته، فمن حقه أن يستريح ويُريح، ولا يكلف نفسه ما لا تطيق. وفي الحديث الشريف: «**لا يحل لمؤمن أن يذل نفسه**» قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: «**يحملها من البلاء ما لا تطيق**»[1]. والقرآن يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وفي آية أخرى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

والعمل الجماعي لخدمة الإسلام يقوم على الإرادة الطوعية الاختيارية، وهي مبنية على اقتناع الإنسان بأهمية هذا العمل وقدرته على الإسهام فيه، فإذا تغير هذا الاقتناع، ورأى المرء المسلم أن وجوده في العمل الجماعي غير نافع له، بل ربما أضر به، أو أنه لم يعد قادرًا على الإسهام فيه؛ فلا جناح عليه أن

---

(١) رواه أحمد (٢٣٤٤٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف من أجل علي بن زيد بن جدعان، وهو مع ضعفه قد خولف فيه، والترمذي (٢٢٥٤)، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه (٤٠١٦)، كلاهما في الفتن، والبيهقي في الشعب، باب في الإعراض عن اللغو (٤١٨/٧)، عن حذيفة، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٤٣).

يعمل بما يقدر عليه من وسائل، وفقًا لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وقوله ﷺ: «**إذا أمرتُكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»[(١)].

والأجدر بالمسلم أن يحسن الظن بالمسلمين عامة، ولا يظن بهم السوء، ويحمل تصرفاتهم على الوجه الحسن ما استطاع؛ فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث**»[(٢)].

وهذا في المسلمين عامة؛ فكيف بإخوانك الذين عرفتهم وخبرتهم، ولم تعلم عنهم طوال تاريخهم إلا خيرًا؟! فهم أولى بحسن ظنك بلا ريب، وقد قال بعض السلف: ألتمس لأخي من عذر إلى سبعين، ثم أقول: لعل له عذرًا آخر لا أعرفه! والمؤمن أبدًا يلتمس المعاذير، والمنافق يبحث عن العثرات.

على أن المسلم إذا اضطرته الظروف أن يغير موقفه من إخوانه ومن دعوته ومن الآخرين، فعليه أن يتقي الله في التاريخ، وألا يغير الحقائق والوقائع لإرضاء الوضع الجديد؛ فكل شيء يجب أن يكون دينيًّا ومضبوطًا ومشهودًا له أو عليه بالقسط والعدل، لا يحيف ولا يهمل لطرف على طرف، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

- **مؤلفاته**

(دروس من سورة يوسف)، و(الإسلام والمستقبل)، و(الإسلام والعصر)، و(خطوات نحو القدس)، و(نحو تخطيط علمي لدراساتنا الإفريقية)، و(أحاديث رمضان)، و(الدين والحياة)، و(دروس من غزوة أحد)، و(مواقف إسلامية)، و(مدخل جغرافي إلى قصص القرآن الكريم)، وغيرها كثير.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الفضائل (١٣٣٧)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الفرائض (٦٧٢٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

ولا نملك إلا أن ندعو للأخ الكبير الدكتور عبد العزيز كامل ـ وإن اختلفنا معه في مواقفه الأخيرة ـ أن يغفر الله له ويرحمه، ويتقبله في الصالحين من عباده، ويجزيه خيرًا عمَّا قدم لدينه وأمته، وألا يحرمه أجر المجتهد المخطئ فيما أخطأ فيه من مواقف، ويجعلنا وإياه من الذين رضي الله عنهم، ورضوا عنه، أولئك لهم مغفرة من ربهم، وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعم أجر العاملين.

* * *



الدكتور محمد إبراهيم كاظم

أول مدير لجامعة قطر

(حوالي ١٣٤٦ ـ ١٤١٢هـ = ١٩٢٨ ـ ١٩٩٢م)

المعلم الرائد التربوي محمد إبراهيم كاظم، من مواليد القاهرة (١٩٢٨/١٢/٢٦م)، حصل على درجة الدكتوراه في التربية من جامعة كنساس، وبدأ عمله محاضرًا في كلية المعلمين في القاهرة سنة (١٩٥٧م)، ومن ثَمَّ عمل محاضرًا في طرق تدريس العلوم بجامعة عين شمس، وقد شغل العديد من المناصب، منها: الملحق الثقافي لمصر في الفلبين، وعمل أستاذًا مشاركًا للتربية بجامعة بغداد، وهو مؤسس كلية التربية بجامعة الأزهر، وعميدها الأول، هو عميد كليتي التربية في جامعة قطر ورئيسها الأول، وفي عام (١٩٨٦م) انتقل الدكتور محمد للعمل في اليونسكو، فعمل مديرًا إقليميًّا لمكتب اليونسكو للتربية في العالم العربي، ثم منسقًا إقليميًّا للمنطقة العربية، ثم ممثلًا شخصيًّا لمدير عام اليونسكو في العالم العربي.

ونظرًا لكونه باحثًا متميزًا، ترأس العديد من مجالس البحث العلمي في الجامعات، وحصل على العديد من الجوائز التقديرية، وله أكثر من (١٠٠) بحث أكاديمي أو دراسة متنوعة في مجالات التعليم والتربية، والأصول الاجتماعية والتكنولوجيا واستخداماتها، والسياسات العلمية والأكاديمية والتنظيمية.

- **تعرفي على الدكتور كاظم:**

بعد انتهاء مناقشتي لرسالة الدكتوراه عن (الزكاة) من جامعة الأزهر، كان عليَّ أن أسعى لاستخراج ورقة من جامعة الأزهر بحصولي على الدكتوراه، فإن الشهادة الأصلية لا تستخرج إلا بعد مدة، وهذا جعلني أتردد على مدير

الجامعة، وكان في حينها الأستاذ الدكتور بدوي عبد اللطيف، أستاذ التاريخ، الذي كان قد سمع عني، فاستقبلني بحفاوة، ورحَّب بي، وتحدثنا في أمور الجامعة، وآمال الناس فيها، وحدثته عن السنة التأهيلية وأهميتها في تكوين من يُنسَب إلى الأزهر، وما يجب أن يكون عليه، فقال لي: ليتك تكتب لي هذا الكلام، أو خلاصته في بضع صفحات، لأستفيد به، ففعلتُ ذلك، وذهبت إليه بعد يومين أو ثلاثة، فوجدتُ عنده أستاذًا قدَّم لي نفسه، وقال: أنا سآتي عندكم إلى قطر في العام القادم. قلت له: من حضرتك؟ قال: أنا الدكتور محمد إبراهيم كاظم، عميد تربية الأزهر، وقد اخترت عميدًا لكليتكم الناشئة. قلت له: أهلًا بك في قطر، وقد سمعتُ عنك قبل أن أراك.

وسرعان ما أَنِسَ كلانا بالآخر، كأنما تعارفنا من قديم، وقال لي: إذا لم يكن لديك مانع، فتعالَ نترافق في بعض المشاوير معًا. وركبت معه سيارته، وذهب بي إلى مكتبه في كلية التربية بجامعة الأزهر في مدينة نصر، وأخذ منه بعض الأوراق، ثم ذهبت معه لزيارة وزير الأزهر فضيلة الشيخ عبد العزيز عيسى، وكان الشيخ يعرفني، فرحَّب بي كثيرًا. بعد ذلك استأذنت من الدكتور كاظم في الانصراف، على أن نلتقي كلما سنحت الفرصة، لأحدثه عن قطر وأوضاعها، ليستكمل فكرته النظرية عنها.

وكان الذي رشح الدكتور كاظم لعمادة كلية التربية في قطر، أو قل: الكليتين، كلية البنين وكلية البنات، كان الذي رشَّحه لذلك هو الدكتور كمال الحاجي مدير المعارف في قطر، بناء على تزكية من الدكتور عبد العزيز كامل، الذي يعرفه معرفة جيدة.

وعملت مع الدكتور كاظم في كلية التربية، فقد نصحني كثيرون أن أنتقل للعمل في الكلية الناشئة، ففي ذلك فرصة لتحسين وضعي المادي والأدبي، وبخاصة أن الكلية سيكون فيها قسم للدراسات الإسلامية، وكلمت الشيخ حليفة في الأمر، فأصدر قراره فورًا بتعييني في الكلية رئيسًا لقسم الدراسات

الإسلامية بدرجة أستاذ مساعد (أستاذ مشارك في مصطلح بعض الجامعات)، هذا مع بقائي مديرًا للمعهد الديني ـ الذي كنت مديره منذ مجيئي إلى قطر ـ إلى جوار عملي الجديد، وكان رقم وظيفتي في الكلية هو (٦) بعد التعاقد مع الدكتور كاظم وأربعة آخرين معه.

وبعد قدوم الدكتور كاظم إلى قطر عميدًا لكليتي التربية (كلية البنين وكلية البنات)، وزوجته الدكتورة صفاء الأعسر أستاذة علم النفس، كنت قريبًا منه، وكان قريبًا مني، ويحاول دائمًا أن يتعرف مني على الأوضاع في قطر، وكان يحب التحدث مع الطلاب والطالبات، ويتقرب من الجميع. وكان الطلاب في أول الأمر قليلين. ثم بعد أربع سنوات، أصدر الشيخ خليفة بن حمد أمير البلاد قانون جامعة قطر التي بدأت بأربع كليات وهي: كلية التربية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، كلية العلوم، كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، وكان الدكتور كاظم هو المؤسس الأول لهذه الجامعة والعميد الأول لها. وقد توليت عمادة كلية الشريعة.

- **تنظيمه رحلة لي إلى دول الشرق الأقصى:**

ومما أذكره للدكتور كاظم أنه في أثناء إدارته لجامعة قطر، أراد أن ينظم لي رحلة إلى بلاد الشرق الأقصى، ألتقي فيها برجالات الإسلام، وبالجمعيات الدينية، والحركات الإسلامية، والجامعات المعتبرة، في كل من: ماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة والفلبين وهونج كونج وكوريا واليابان.

وقد كتبت الجامعة إلى هذه البلدان كلها، وإلى أهم الشخصيات التي سألقاها، محددة بتواريخها، فكانت رحلة منظمة غاية في التنظيم. وكان لسكرتيرة د. كاظم السيدة (إيفون) دور أساسي في حسن ترتيبها، بالبرقيات المتتابعة، وبالاتصال الهاتفي عند اللزوم، ولم تكن الفاكسات قد ظهرت بعد، حتى انتظمت الرحلة من بدايتها إلى نهايتها بحمد الله. وكانت رحلة موفقة،

قد ذهبت إلى ماليزيا، ألقيت فيها عدة محاضرات، وزرنا فيها بعض الولايات، والتقيت لأول مرة أخانا أنور إبراهيم.

وذهبنا بعدها إلى إندونيسيا، ونزلنا في مطار جاكرتا، ووجدنا من ينتظرنا في المطار، وكان هذا من ثمرات حسن تنظيم الرحلة: أننا نجد في كل مطار من ينتظرنا، ومن حجز لنا في الفندق، ويسر لنا أمورنا، وهذا من فضل الله، ومن بركات الترتيب والإعداد الجيد.

وكان أهم من لقيناه: الدكتور محمد ناصر رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في إندونيسيا، وقد أعد لي برنامجًا حافلًا لزيارة الجامعات والمدارس الإسلامية، ومراكز النشاط الإسلامي المختلفة، فزرنا (جامعة ابن خلدون)، وزرنا المدرسة الشافعية، والمدرسة الطاهرية، وزرنا مجلس العلماء. وغادرنا إندونيسيا إلى سنغافورة، ثم الفلبين، ثم اليابان، ثم كوريا الجنوبية، ثم كانت هونج كونج المحطة الأخيرة.

• سعيه في أن أحصل على درجة الأستاذية:

بعد سنتين في الكلية أحسست بفارق الدرجات في الكادر الجامعي، فدرجة المدرس غير درجة الأستاذ المساعد، وهي غير درجة الأستاذ، لا في الناحية المادية فقط، ولكن في القيمة الأدبية. وكلمت الدكتور كاظمًا في ذلك، وقلت له: إن الجامعات السعودية تعطي الدرجات بالأهلية والشهرة العلمية، وليس بالشهادات ولا بالأقدمية، لما للشخص من تميز وعطاء علمي، وإذا كانوا في الجامعة محتاجين إلى أبحاث للترقية، فعندي أبحاث جاهزة، وأكثر من المطلوب.

وتجاوب معي الدكتور كاظم، وقال: نزور معًا الشيخ قاسم بن حمد وزير التربية، ونكلّمه في هذا الأمر، فكانت استجابة الرجل أسرع مما توقعنا، وقال له: يا دكتور، الشيخ يوسف عندنا شيخ الأساتذة! وما هي إلا أيام حتى صدر القرار من الشيخ خليفة بن حمد أمير البلاد بتعييني في درجة أستاذ.

ثم اتسعت الجامعة الناشئة إلى عدة كليات، وأصبح الدكتور كاظم مديرها، وأصبحت عميد كلية الشريعة.

• **حسن اختياره للرجال:**

كان الدكتور كاظم عميد الكلية ـ أو قل: عميد الكليتين ـ يحسن اختيار الرجال، فاختار عددًا من الأساتذة الأقوياء الأمناء في التخصصات العلمية والأدبية، مثل: الدكتور محمد فتحي سعود في الأحياء، والدكتور كمال البتانوني في النبات، والدكتور حسين أبو ليلة في الفيزياء، والدكتور عمر عبد الرحمٰن في الكيمياء، والدكتور ماهر حسن فهمي، والدكتور عبد العزيز مطر في اللغة العربية، وغير هؤلاء ممن قامت على كواهلهم جامعة قطر.

• **موقف طريف:**

من الطرائف التي أذكرها للدكتور إبراهيم كاظم أيام عمادته لكلية التربية أنه كان يقول في اجتماعاته مع الأساتذة: إن الامتحان لا يخصص له وقت معين، إنما يكون في المحاضرة الأخيرة؛ يقصد في وقت المحاضرة الأخيرة. لكن زميلي في قسم الدراسات الإسلامية الدكتور أحمد سُكَّر فهم أن الامتحان في آخر محاضرة فقط؛ يعني أن الطلبة لا يمتحنون ولا يسألون في كل ما أخذوه مدة الفصل الدراسي، ولكن في المحاضرة الأخيرة، وأبلغ الطلبة ذلك، ووضع الأسئلة على هذا الأساس، وأخذ جميع الطلبة درجة «أ» أي امتياز!.

• **مؤتمر (الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد):**

ومن الطرائف التي أذكرها أيضًا له: أنه قد دعت الجامعة اللبنانية في بيروت إلى مؤتمر كبير، يدور حول موضوع أساسي ومهم، هو: (الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد)، وقد فوجئ الدكتور كاظم عميد الكلية بأني أعددت بحثًا للمؤتمر، وكأنه أحرج بأنه لم يرشحني، فقلت له: لا عليك، فإني أستطيع أن أذهب على حسابي. قال: بل تذهب على حساب الجامعة، ويذهب

د. ماهر على حساب الدولة. وسافرت أنا والدكتور ماهر، وحضرنا المؤتمر الذي استمر عدة أيام، ثم عدنا إلى الدوحة، وإن كنت لم أحصل من الجامعة على ثمن التذكرة، كما وعد د. كاظم، ولكن ما كسبته من المؤتمر كان أغلى وأعظم من ذلك.

• د. كاظم ومعرفته بالرجال وبالمجتمع:

كان الدكتور كاظم حسن الصلة بالناس، ويعرف أقدار الرجال، العالم يعرف علمه، والمالي يعرف ماله، والرئيس يعرف رئاسته، ويعطي لكل واحد منهم ما يستحقه.

وقد حاول أن يعرف معادن الناس في قطر ما أمكنه، وأن يعامل الجميع بما يستحقون، ومنهم الشباب القطري الناهض، الذي تخرج في الجامعات الأمريكية والأوربية، وأحيانًا العربية، وفتح لهم الأبواب، ووضع أمامهم الآمال، ولم يقف ضد طموح طامح.

هذا مع حرصه على أن يقدم الرجال الذين يعرفهم، ويعرف مقدرتهم العلمية والعملية، مثل: الدكتور جابر عبد الحميد، الذي اختاره وكيلًا للجامعة، ومثل: د. خيري كاظم أستاذ التربية المخضرم والمعروف للدارسين، الذي كلفه بعمادة كلية التربية.

وكذلك معرفته بالإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود، ودعوته لزيارة كلية التربية، ومحاضرة الأساتذة والطلاب والطالبات في الجامعة، ومعرفته بالكثيرين من الأساتذة والمفكرين المتخصصين في جميع العلوم العربية والغربية، ودعوة كثير من هؤلاء إلى قطر للإسهام في موسم محاضراتها.

وقد ظل د. كاظم يعمل في هذا الجو المعبأ بالنسائم والعطور، وتغريدات الطيور، حتى رأى بثاقب فكره، وبُعد نظره: أن يودع هو جامعة قطر، قبل أن تودعه هي، وأن يسافر منها، وهي تحضنه وتعانقه، وتمتدحه في

كافة كلياتها، فقرر أن يستجيب لما كان معروضًا عليه من الأمم المتحدة، ومن مجالسها العليا.

وقد قررت الجامعة بكل كلياتها وإداراتها إقامة احتفالات مناسبة بتكريم الدكتور كاظم، وتقديم الهدايا الملائمة له، وعمل ولائم كاظمية بهذه المناسبات الرائعة. وودعناه ـ والحمد لله ـ خير ما يودع الصديق صديقه، ونحن نقول ما قال الشاعر:

ولستُ أقول: صديقي الوداع ولكنْ أقولُ: إلى الملتقى

- **مؤلفاته:**

وضع د. كاظم أكثر من (١٠٠) دراسة متنوعة في مجالات التعليم والتربية والأصول الاجتماعية والتكنولوجيا واستخداماتها والسياسات العلمية والأكاديمية والتنظيمية، من هذه الدراسات والمؤلفات: (العقوبات المدرسية بحث ميداني). و(تطورات في قيم الطلبة). و(اتجاهات في التعليم الشعبي). و(مرشد تمرين المدرس). و(اعتبارات في سياسات قبول طلاب الجامعات في دول الخليج العربي في ضوء سياسات التنمية) بالاشتراك مع نبيل أحمد صبيح. و(دراسات في التربية الإسلامية وأصولها: النظرية والفلسفية). و(اعتبارات ومعالم برنامج لمسيرة التعليم في مصر) دراسة.

* * *



٣٠ الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري

شاعر الإنسانية المؤمنة

(حوالي ١٣٣٤ ـ ١٤١٢هـ = ١٩١٦ ـ ١٩٩٢م)

• **بداية تعرفي على الأميري:**

عرفت الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري أول ما عرفته، وأنا طالب في المرحلة الثانوية، عن طريق مجلة (الشهاب) التي كان يصدرها الإمام حسن البنا، ويديرها الداعية المحبوب سعيد رمضان، وذلك سنة (١٩٤٨م)، والتي لم يقدر أن يصدر منها غير خمسة أعداد، ثم اختار الله صاحب امتيازها، ورئيس تحريرها شهيدًا إلى جواره سبحانه، وقد سنت المجلة سنة حسنة: أن تختم كل عدد بما أسمته (سجل التعارف الإسلامي).

كان سجل التعارف يحوي في كل عدد صور مجموعة من العلماء والمفكرين والدعاة من مصر، ومن سائر أقطار العالم الإسلامي، وفي مقابل كل صورة: تعريف موجز مركَّز بشخصية صاحب الصورة وإشارات إلى مجمل سيرته. وهدف المجلة: أن توجد رباطًا عاطفيًّا بين القراء وهؤلاء الأعلام، حين يطلعون على صورهم وسيرهم.

وقد عُني سجل التعارف الإسلامي بالتعارف بعدد من الشخصيات الإسلامية السورية المرموقة، مثل: الداعية الفقيه الدكتور مصطفى السباعي، والفقيه العلَّامة الشيخ مصطفى أحمد الزرقا، والكاتب المفكر الأستاذ محمد المبارك، والسياسي الفقيه الدكتور معروف الدواليبي، والكاتب الداعية الأستاذ أحمد مظهر العظمة أمين التمدن الإسلامي، والعلَّامة الشيخ محمد نجت البيطار.

وكان من الصور التي نشـــرت في العدد الثالث: صـــورة عمر بهاء الدين الأميري، وهو شاب في مقتبل العمر، وكتبت المجلة تحته: المحامي بحلب، ووكيل الدعوة الإسلامية. ثم ذكرت نبذة عنه في الصفحة المقابلة فقالت:

ســـوري من صفوة أبناء حلب، ولد ســـنة (١٩١٦م)، وقضـــى بعض عمره المبارك في الدراســـة بفرنسا، وتخرج من (الحقوق الســـورية) سنة (١٩٤٠م). وكان نجاحه منقطع النظير، واشتغل بالمحاماة، مشترطًا على موكليه أن يتخلى عن دعاويهم، إذا ظهر وجه الحق في غير جانبها! واشتغل بالحركة الإسلامية منذ نعومة أظفاره، وأســـس مركزًا للدعوة الإســـلامية في باريس، وهو شاعر مطبوع، ومجاهد مؤمن.

هذه السطور الموجزة المضيئة فتحت قلبي الفتي البكر في ذلك الوقت للأميري، صاحب المثل والمبادئ، الذي يتخلى عن قضية موكله إذا تبين له أن الحق مع خصمه، ولا يبالي بما سيخســـر من مال في مقابل تنازله عن القضية.

كما أن وصف المجلة له بـ(الشاعر المطبوع) فتح قلبي له أكثر، فقد كنت معنيًا بالشعر، مشغولًا به في تلك المرحلة من عمري.

- **أول ما قرأت للأميري:**

وأذكر أني في ذلك العدد نفســـه من مجلة (الشـــهاب) وفي باب (روضة الأدب) قرأت له ـ أول ما قرأت ـ شعرًا ربانيًا عذبًا رقراقًا، لم يكن لنا به عهد في ذلك الوقت، تحت عنوان: (خماســـيات الأميري) وفيها مناجاة لله تعالى، كأنما تســـمع فيها رفيف أجنحة الملائكة، وكأنما هي ترتيلة أو صلاة مجسدة في شعر مؤمن، أو إيمان شاعر، يقول الأميري:

كلَّما أمعـــنَ الدُّجـــى وتَحَالَكْ ... شممتُ في غورِه الرهيبِ جلالَكْ!

وتـــراءتْ لعيـــنِ قلبـــي بَرَايا ... مِنْ جُمَلٍ آنســـتُ فيها جَمَالَكْ!

وتراءى لمسمعِ العقلِ همسٌ ... من شفاءِ النجومِ يتلُو الثَّنا لَكْ
واعْتَرَاني تولُّهٌ وخشوعٌ ... واحتواني الشعورُ: أنِّي حيالَكْ
ما تمالكتُ أن يخرَّ كياني ... ساجدًا عابدًا، ومن يتمالَكْ!

هكذا بدأت معرفتي بالأميري شاعرًا، وهو لا شك في المقام الأول شاعر: شاعر بموهبته، وشاعر بممارسته، ولكنه ليس شاعرًا سائبًا، إنه شاعر ذو رسالة، فليس الشعر عنده آلة لمديح الأمراء أو الكبراء، ولا لهجاء الخصوم والأعداء، ولا أداة للتعبير عن الغرائز الهابطة، إنه (شاعر الإنسانية المؤمنة) كما يحلو له أن يعبر عن نفسه، أو يعبر عنه عارفوه ومن يكتب عنه.

• **قصيدة (أب):**

ومن قصائده الجميلة الرائعة التي قرأتها له قبل أن ألقاه: قصيدة (أب) التي نشرتها مجلة (المسلمون) الشهرية التي كان يصدرها الأستاذ سعيد رمضان، وتصدر من خارج مصر. وهي في الحق من روائع الشعر العربي الحديث، كتبها وهو في مصيف (قرنايل) بلبنان، وقد سعد بأسرته وأولاده خلال الصيف، ثم انتهت العطلة، ورحل الأولاد عنه، وعادوا إلى حلب، وبقي الشاعر وحده في البيت الذي أصبح اليوم موحشًا كالقبر، بعد أن كان بالأمس وارف الظلال، بما فيه من حياة وحركة، وبركة وسعادة.

يقول الأميري في قصيدته:

أين الضجيجُ العذبُ والشَّغَبُ ... أين التدارسُ شابَهُ اللعبُ؟
أين الطفولةُ في توقُّدها ... أين الدُّمى في الأرض، والكتبُ؟
أين التَّشَاكسُ دونما غَرَضٍ ... أين التشاكي ما له سببُ؟
أين التَّباكي والتَّضاحُكُ في ... وقتٍ معًا، والحُزْنُ والطَّربُ؟
أين التسابق في مجاورتي ... شغفًا إذا أكلوا وإن شربوا؟

يتزاحمـونَ علـى مُجالسـتي والقـربِ منِّـي حيثمـا انقلبُوا
فنشـيدُهم: (بابـا) إذا فرحوا ووعيدهـم: (بابـا) إذا غضبوا
وهتافُهـم: (بابـا) إذا ابتعدوا ونجيهـم: (بابـا) إذا اقتربـوا

* * *

بالأمـسِ كانـوا مـلءَ منزلنا واليومَ ـ ويـح اليومِ ـ قد ذهبوا
ذهبوا، أَجَلْ ذهبوا، ومسـكنهم في القلب، ما شطّوا وما قربُوا
إنِّـي أراهـم أينمـا التفتَـتْ نفسي، وقد سكنوا، وقد وثبوا
وأُحِسُّ فـي خَلَـدِي تلاعُبَهم في الدَّارِ، ليـس ينالُهم نَصَبُ
وبريـقُ أعينهـم إذا ظَفَـرُوا ودمـوعُ حُرْقَتِهـم إذا غُلِبُـوا
فـي كلِّ ركـنٍ منهـمُ أثـرٌ وبـكلِّ زاويـةٍ لهـمْ صَخَبُ
في النَّافـذاتِ، زُجَاجُها حَطَمُوا في الحائطِ المَدْهون، قد ثقبوا
في الباب، قد كسـروا مزالِجَه وعليه قد رَسَـمُوا وقـد كتبوا
في الصَّحْنِ، فيه بعضُ ما أكلوا في علبـةِ الحلوى الَّتـي نَهَبُوا
في الشَّـطْرِ من تفّاحـةٍ قَضَمُوا في فضلـةِ الماء الَّتي سـكبوا
إنّـي أراهـم حيثمـا اتَّجهتْ عيني، كأسـرابِ القَطا، سربُوا
بالأمس فـي (قرنايـلٍ) نزلوا واليـومَ قـد ضمتهـمُ (حلبُ)
دمعـي الـذي كَتَّمْتُـه جَلَـدًا لمَّـا تباكَـوا عندمـا ركبـوا
حتَّـى إذا سـاروا وقـد نزعوا من أضلعـي قلبًا بهـمْ يَجِبُ
ألفيتُنـي كالطفـلِ عاطفـةً فـإذا بـه كالغيـثِ ينسـكبُ
قد يَعجـبُ العُذَّالُ مـن رَجُلٍ يبكي، ولو لم أبـكِ فالعَجَبُ
هيهـاتَ مـا كلُّ البُـكا خَوَرٌ إنِّي ـ وبي عـزمُ الرِّجالِ ـ أبُ

* * *

لقد هزتني هذه القصيـــدة الفريدة، لما احتوته من قـــوة التصوير، وروعة التعبير، عن مشاعر الأبوة الحانية، وعواطف الطفولة اللاهية، ودقائق الخلجات النفســـية، التي قد تراها متناقضة الظاهر، منسجمة الباطن، وما فيها من صور حية رسمها الحرف الناطق، والحس الصادق، والشعر الرائق، المعبر بسلاسة منقطعة النظير، عن أعمق أعماق المشـــاعر، وأحنى حنايا العواطف، في لغة جزلة، وجمل عذبة، وعبارات رشيقة، وأسلوب أخاذ، متدفق كالعذب الزلال، والسحر الحلال.

وعرفت بعد ذلك أن الشاعر والأديب الكبير الأستاذ عباس العقاد، كان من أشـــد المعجبين بهذه القصيدة، حتى قال عنها في ندوة من ندواته المعروفة، التي كان يعقدها في منزله بمصر الجديدة، في صباح كل جمعة، وكان ذلك في رمضان ســـنة (١٣٨١هـ)، قال: لو كان للأدب العالمـــي ديوان من جزء واحد، لكانت هذه القصيدة في طليعته!.

كما عرفت أنها ترجمت إلى الفرنسية، وقورنت بقصائد الشاعر الفرنسي الكبير (فكتور هوجو) في الأطفال.

وقد نشرها الشـــاعر بعد ذلك في ديوانه (ألوان طيف)، كما نشرها كذلك في ديوان (أب) مع تسع قصائد أخرى حول الأبوة والبنوة، وقد كتبه بخط يده، ونشر مصورًا كما هو بخطه الجميل، وقال في تقديمها: عشر قصائد من وحي الأبوة.. لوحات، فيها مكابدة ومعاناة.. صور وجدانية.. متعددة متحولة، يعيش ألوانها وأكوانها: كل إنسان أب، وكل أب إنسان!.

• **ديوان (مع الله):**

وقرأت للأســـتاذ الأميري ديوانه الرائع (مع الله) في طبعتـــه الثانية، وقد تفضل بإهدائه إلي في عبارات ثناء لا أستحقها: «هدية إخاء صادق في الله، إلى الأستاذ الكبير المؤمن الشيخ يوسف القرضاوي، مع المودة والتقدير، والدعاء

إلى الله أن يجعلنا دائمًا معه، ويجمعنا على إعلاء كلمته» بيروت في غرة شعبان سنة (١٣٩٩هـ).

ومن حسناته: أنه كان يصر على استخدام التاريخ الهجري وحده، فكل دواوينه، وكل كتبه، وكل رسائله إلى أصدقائه، وكل إصدارته: مدون بالتاريخ الهجري، ولا شيء غيره. إنه ينطلق من الاعتزاز بالإسلام، ومَنِ التمس العزة بغيره أذله الله.

وقد رغب إليّ أن أكتب كلمة عن هذا الديوان، فهو يعتد ويعتز بها، ليضمها إلى كلمات الأدباء والكتاب في الطبعة اللاحقة، ووعدته بتحقيق ذلك، وكنت أرغب بالفعل أن أكتب كلمة ضافية عن ديوان (مع الله) وعن شعر الأميري عامة، ولكن لم يسعفني القدر بتحقيق ما وعدت به ورغبت فيه، فعسى أن يسامحني الأستاذ وقد لقي ربه، عليه رحمة الله ورضوانه، عسى أن يكون في هذه الكلمة بعض الوفاء له.

كان ديوان (مع الله) صلوات وابتهالات، وترنيمات إلٰهية، كأنها من مزامير داود، إنه شعر يحلق في آفاق السماء، ويغوص في أعماق النفس، ويسيح في جنبات الوجود، ويستحضر معية الله في كل مكان، وفي كل حين، وفي كل حال: في ابتسام السحر.. في التماع القمر.. في تموج الغيوم.. في احتباك النجوم.. في الربيع الطلق.. في الخريف الحزين.. هو (مع الله) في سجوده.. في شروده.. في وضوح.. في غموض.. في نزوة.. في نشوة.. في حزن شديد.. في جو سعيد.. في الأفق المديد.. في الغور البعيد.. (مع الله).

وقد قدم الشاعر لديوانه بكلمات هي شعر منثور، أو نثر (مشعور)، أو قبسات من نور، تخاطب العقل والوجدان، وكل الكيان في الإنسان.

كما بدأ الديوان برائعته (مع الله):

مع اللهِ في سَبَحَاتِ الفِكَرْ ... مع الله في لَمَحَاتِ البَصَرْ

مع الله في مضمراتِ الكرى ... مع الله عندَ امتدادِ السَّهَرْ

مـــع الله والقلـــبُ فـــي نَشْـــوَةٍ مع الله والنفسُ تشـــكو الضَّجَرْ
مع الله فـــي أمْسِـــيَ المنقضي مـــع الله فـــي غَـــدِيَ المنتظَـــرْ
مـــع الله فـــي عنفـــوانِ الصِّبَـــا مع الله في الضَّعْـــفِ عند الكِبَرْ
مـــع الله قبـــل حياتـــي وفيهـــا وما بعدها، عند سُـــكنى الحُفَرْ
مع الله فـــي الجِـــدِّ فـــي أمْرِنا مـــع الله في جَلَسَـــاتِ السَّـــمَرْ
مـــع الله في حُـــبِّ أهـــلِ التُّقى مع الله فـــي ذِكْرِهِ مَنْ قـــد فَجَرْ
مـــع الله فيمـــا بـــدا وانتشَـــرْ مـــع الله فيمـــا انْطَوَى واســـتَتَرْ

إلى آخر ما ذكره من ألـــوان ومجالات معيته فـــي الله، وهي معية ملأت المكان والزمان، والحس والفكر، والضمير والوجدان.

وقد استقبل الأدباء والشعراء والدعاة والمفكرون ديوان (مع الله) بما يليق به من ترحيب وتنويه وثناء، حرص الشاعر، وحرص الناشر على أن يسجله أو يسجل لبابه في ملحق كبير مع الديوان نفسه.

وحسبنا من هؤلاء ما كتبه الأستاذ العقاد إلى شاعرنا من رسالة يقول له فيها: «ديوانكم (مع الله) آيات من الترتيل والصلاة، يطالعها القارئ، فيسعد بسحر البيان، كما يســعد بصدق الإيمان. وقد قرأت طائفة صالحة من قصائده، وسأقرأ بقيتها، وأعيد ما قرأته، لأنه دعاء يتكرر ويتجدد ولا يتغير. وثوابكم من الله عليه يغنيكم عن ثناء الناس، وإنه ـ على هذا ـ لثناء موفور، وعمل مشكور، فتقبلوا مني شكره، واغتنموا من الله أجره، وعليكم سلام الله، ورضوان الله. في (١٩٦٠/٢/٤م).

لا أستطيع أن أتخير من هذا الديوان بعض قصائده، فكلها خيار من خيار، ولكني أنتقي خماسيتين: إحداهما كنت قد قرأتها في مجلة (المسلمون) التي كانت تنشـــر بين الحين والحين بعضًا مما تنتقيه من قصائد الشـــاعر، أو مما يرسل به إليها، فكان منه هذه القصيدة عن (الكعبة) يقول:

الكعبــةُ الشَّــمَّاء فــي مذهبي قيمتُهــا ليســتْ بأحجارِهــا
والقــربُ من خالقِهــا ليس في تشــبُّثِ المــرءِ بأســتارِها
قدســيةُ الكعبــةِ فــي جَمْعِها أُمَّتَنَــا مــن كلِّ أقطارِهــا
وأنَّهــا محــورُ أمجادِهــا وأنَّهــا مصــدرُ أنوارِهــا
وكعبــةُ المؤمــنِ فــي قلبِــهِ يطــوفُ أنَّــى كان فــي دارِها

وهي في الديوان، وقد كتب تحتها: مكــة المكرمة (١ رمضان ١٣٧٣هـ).

يعني: أنه كتبها بجوار الكعبة البيت الحرام، وفي ظلال شهر رمضان، فاجتمع عليه بركات المكان والزمان، ونفحات الإيمان والقرآن.

والأخرى: خماسية (سبحان ربي الأعلى) وفيها يقول:

أيُّ ســرٍّ يودي بدنيــا حدودي كلما هِمْتُ في تجلِّي سُجُودي
كيف تذرو (سبحان ربي) قيودي كيف تجتازُ بي وراء السُّــدودِ
كيف تسمو بفطرتي ووجودي عن مفاهيــمِ كونــيَ المعهودِ
كيف ترقــى بطينتي وجمودي في ســماواتِ عالَمٍ مــن خلودِ
أتراهــا روحًــا مــن المعبــود قد جَلَّتْ ذاتها لعين شــهودي!

وهي في الديوان، وكتب تحتها: كراتشي (٢٤ من رمضان سنة ١٣٧١هـ).

وهكذا نجد النماذج الأخرى من شــعر الأميــري، وكلها تمضي في هذا الاتجاه الإيماني الرقراق، تعلو بالإنسان درجات، بدل أن تهبط به دركات.

- **الشعر الإنساني:**

وله ـ بجوار الشعر الرباني ـ سبحات ونفحات في الشعر الإنساني، الذي تتجلى فيه عواطف الإنسان من حيث هو إنسان، ومن حيث هو أب، كما في ديوان (أب)، ومن حيث هو ابن، كما في ديوان (أمي)، ومن حيث هو إنسان ذو قلب، كما في ديوان (ألوان طيف). ومن جميل شعره في ديوان (أب):

ما لكَ يا قلبي.. على الدُّروبِ!
تبحثُ.. عن كلِّ حشا منكوبِ!
تصنع من أنَّاتِهِ وجيبي!
هل أنتَ يا قلبي.. أبو القلوب؟!

ومن أبياته المؤثرة في ديوان (أب):

ويذود عن عيني الكرى هَمٌّ.. وهَمٌّ.. ذو رنين!
هَمُّ الثمانيةِ الصِّغَا رِ، وبعد.. تاسعهم جنين!

ومن المشاعر الإنسانية التي تحسها وتلمسها في شعر الأميري: الشعور بالغربة عن بلده وأهله وولده سنين طالت، فهو في الغرب، وهم في الشرق، يقول في إحدى قصائده:

أنا في امتدادات الأذان كأن في نسبي رباح
أنا في الرباط وفي الرياض وليس عن حلبي براح!

واقرأ معي هذه الأبيات، وقد هلّ عيد الفطر عليه، وهو في غربته من بلده وولده، وهو في جهاده، فبعث إلى أولاده بهذه الأبيات، لتنوب عن تحية العيد:

يا فرعَ قلبي وراءَ البحارْ في القلبِ نورٌ من هواكم ونارْ
ذكرتُكم في العيد، وفي غربتي والعبءُ مُضْنٍ، وهُمومي كبار
فأظلمَ القلبُ، وضجَّ الهوى في كلِّ ذرات كياني وثارْ
ثم ذكرتُ الله في حبنا وافتراقنا، وهو لنا خيرُ جارْ
تهشُّ روحي، واطمأنَّ الرضا في غورِ إيماني، وقلبي استنارْ

وبجوار الشعر الإيماني، والشعر الإنساني للأميري، نجد الشعر الجهادي وكله أو جله يصب في قضية الأمة المركزية والمحورية، وهي قضية

الأقصى، قضية أرض الإسراء والمعراج، قضية فلسطين، وقد أصدر عدة دواوين في ذلك، مثل: ملحمة الجهاد، ملحمة النصر (شعر من وحي معركة العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ)، من وحي فلسطين (شعر وفكر)، حجارة من سجيل، وقد صدر بعد انتفاضة أطفال الحجارة، الانتفاضة الأولى، التي انطلقت أول ما انطلقت من مساجد غزة، وأطلق عليها في أول الأمر: اسم (ثورة المساجد)!.

• **وقفة مع شعر الأميري:**

وإذا كان بعض الشعراء يخلد إلى الأرض، وينزع إلى الطين والحمأ المسنون، فإن الأميري يحلق بشعره على أجنحة ملائكية، إلى آفاق علوية.

وإذا كان منهم من استغرقه الحس، وسجنه الجسد في قفصه، فإن الأميري قد سما بشعره إلى فردوس الروح، وسماء الربانية، وتحرر من قبضة الجسد الحديدية، بفضل ما منحه الله من رحيق الإيمان، وفيض الروح المشرق بنور اليقين.

لقد جعل الأميري للعرب (إقبالًا) كما للهنود (إقبالهم)، وأحيا شعر (الحب الإلٰهي) في لغة جزلة عذبة معاصرة، تخاطب الكينونة الإنسانية كلها عقلًا وروحًا، وعاطفة وضميرًا، ولا تخاطب (الإنسان الجسد) وحده، كما يفعل بعض الشعراء المعاصرين، الذين اختصروا الإنسان في المرأة، واختصروا المرأة في الجسد، واختصروا الحياة في اقتناص اللذات، واتباع الشهوات.

لهذا كان أحب الأوصاف والألقاب إلى شاعرنا: لقب (شاعر الإنسانية المؤمنة)، فهو شاعر الإيمان، وشاعر الإنسان.

لقد قارن بعض النقاد بين الأميري وابن الفارض، ولكن لابن الفارض نهجًا آخر غير نهج الأميري، وهو أنه يستخدم لغة الغزل الصريح، وقاموس العشاق، وينزلها على الذات الإلٰهية، وهذا قد يجيزه من يجيزه، ويرفضه من

يرفضه، كما أن شعره يطفح بإشارات إلى (وحدة الوجود) كما نراه في (تائيته) الشهيرة، أما الأميري فهو يسلك إلى الله طريق التأمل في النفس وفي الآفاق، والتجاوب مع الوجود المسبح بحمد الله.

على أن شعر الأميري ـ كغيره من الشعراء ـ ليس كله في مستوى واحد، فهو أحيانًا يحلق ويعلو، فيسبق سبقًا بعيدًا، ولا يلحق بغباره أحد، وأحيانًا ينزل عن هذا الأفق الرفيع.

وهذا طبيعي عند كل الشعراء، فمن الشعراء من يبدع ويتفوق في قصيدة واحدة، ثم لا تجد له شعرًا في مستواها، ومنهم من يكون أكثر شعره عاليًا، ومنهم الأميري، وحتى القصيدة يكون بعض أبياتها أميز من بعض، حتى إن العرب تعودوا أن يقولوا عن بيت معين من قصيدة تألق وعلا: إنه بيت القصيد!.

- **بدايات لقائي بالأميري:**

أما أول ما عرفت الأميري وجهًا لوجه، فكان في سنة (١٩٦٠م)، حين دعاه الأستاذ محمد البهي المدير العام لإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر لإلقاء محاضرة بالموسم الثقافي للأزهر، في قاعة الشيخ محمد عبده، وكان الدكتور البهي قد سن هذه السنة الحسنة، وعَمَرَ قاعة الشيخ محمد عبده التي كانت شبه مهجورة، وحفلت المواسم بعدد من رجال العلم والفكر، والأدب والدعوة من مصر، ومن غيرها من أقطار العروبة والإسلام.

ووكل إليَّ الدكتور البهي أن أقوم بتقديم الأستاذ الأميري، فقد كان مسافرًا في مهمة لا أتذكرها، وكان موضوع المحاضرة عن (العروبة والإسلام). وقد قدمته بما يليق به، كما علقت على محاضرته بما يناسب المقام، ولم يكن الأستاذ الأميري يعرفني، ولكنه فوجئ بتقديمي وتعقيبي على محاضرته، فشد انتباهه، وصافحني بحرارة ومودة. وأذكر مما قلته في التعقيب: «إننا وجدنا في هذه المحاضرة مزيجًا من تحليق الشاعر، ودقة القانوني، وحصافة الدبلوماسي،

وعمق الباحث، وحـرارة الداعية، تتلاحـم جنبًا إلى جنـب»، فأعجبته هذه العبارات، التي لخصت كل فضائل المحاضر وصفاته، فهو قانوني وسـفير، وشاعر وباحث، وداعية حقًّا.

ومنذ ذلك اليوم انعقدت بيني وبين الأميري مودة صافية، وأخوة عميقة، لم تزدها الأيام إلا قوة، وإن كنت لا ألقاه إلا في مناسبات معينة.

• **لقاءات في بيروت:**

وحين أعرت من مصر إلى قطر سـنة (١٩٦١م)، وطُلب هو بعد ذلك إلى المغرب، ليعمل أستاذًا لكرسي (الإسلام والتيارات المعاصرة) في دار الحديث الحسنية بالرباط، وقسم الدراسات الإسلامية العليا في جامعة القرويين، كما درس الحضارة الإسـلامية في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس في فاس، ولكن كثيرًا ما كنا نجتمع في بيروت، وخاصة عندما ساءت الأحوال في مصر، وجر الإخوان إلى محنة قاسية، على الرغم من أنوفهم سنة (١٩٦٥م)، فانقطعتُ عن مصر تسع سـنوات كاملة، وكنت أذهب في الإجازات السنوية غالبًا إلى لبنان، نسـتمتع بجبالها ومصايفها الجميلة، وحرية الحركة فيها، وكانت هذه فرصة لألتقي بالشـاعر الكبير، فهو أيضًا لم يكن يستطيع الذهاب إلى سورية ومدينته حلب الشـهباء، كما نلتقي بكثير من الإخوة السوريين الذين يعانون مثل ما يعانـي الأميري، مثل: الأسـتاذ عصـام العطار حفظه الله، والشـيخ عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ اللَّهُ، والأستاذ محمد المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ.

• **الأميري في قطر:**

وحين أنشـئت كليتا التربية للبنيـن والبنات ـ نواة لجامعة قطر ـ سـنة (١٩٧٣م)، وكلفت برئاسـة قسم الدراسات الإسـلامية، وكان عميد الكلية أو الكليتين: الأسـتاذ الدكتور محمد إبراهيم كاظم، الذي كان صديقًا للأسـتاذ الأميري، كما كان صديقًا لي، اقترحت عليه أن ندعو الأميري أسـتاذًا زائرًا

ليحاضر طلابنا وطالباتنا في مقرر نطرحه عليهم، وهو: (المجتمع الإسلامي) وكانت مدة الزيارة عادة شهرين، فكانت هذه فرصة للتلاقي، وتوثيق الأواصر بيننا. وقد كان الرجل محببًا لطلابه وطالباته، لما يحمله بين جنبيه من رقة طبع، ودماثة خلق، وسعة أفق، وتجربة واسعة في الحياة، وما يحمله في جعبته من طرائف أدبية، ونوادر اجتماعية وسياسية، وفي هذه المحاضرات شرع يدعو إلى فكرته حول (الفقه الحضاري) الذي يفتقر إليه المسلمون في هذا العصر، بجوار الفقه التقليدي الذي يعنى بمعرفة الأحكام الشرعية المستنبطة من أدلتها التفصيلية، وهو الذي تعنى به كليات الشريعة والحقوق، وتقوم عليه مجامع الفقه الإسلامي المعروفة.

ومن اللطائف التي تذكر هنا: أنه اتصل مرة بهاتفي في المنزل، وكان رقمه سهلًا حفظه الناس، حتى إنهم كانوا يتصلون بي في النهار والليل، والصباح والمساء، وهو (٢٢٥٢٢) وقد ردت عليه ابنتي الصغرى، وسأل عني، فلم يجدني، فأملى عليها هذه الشطرات:

يا خمسة تحفُّها المثاني ... ويا خليلًا ما له مِنْ ثانِ
يبعد عنِّي وهو منِّي دانِ ... وكلَّما واصلْتُه جَفَاني!

فلما عدت إلى البيت ذكرت لي ابنتي ما أملاه عليها، فطلبته، وقلت له: وهل أستطيع أن أجفوك؟ وهل يجفو الخليل خليله؟!.

- **لقاءات في مؤتمرات وندوات:**

وبعد ذلك التقينا مرارًا وتكرارًا، في مؤتمرات وندوات عامة، ولقاءات خاصة، في الرياض، وفي مكة المكرمة، وفي المدينة المنورة، وفي جدة، وفي عمان، وفي الإمارات، وفي الكويت، وفي المغرب، وفي الجزائر، وغيرها. وإن كان هو قد اختار (المغرب) مقامًا له، وأنس بأهله، وأنسوا به، حتى إننا كثيرًا ما رأيناه بالزي المغربي التقليدي، وربما ظن من لم يعرفه أنه مغربي قح،

وإن كان لا يزال يحن إلى (حلب) مرتع صباه وشبابه، ومجمع ألفائه وأحبائه، ويذكرها في شعره كلما جاءت مناسبة.

وقد التقينا على مائدة غداء في عمَّان دعانا إليها بلديه وصديقه الأستاذ ناظم القدسي رئيس جمهورية سورية الأسبق، وكان معنا الأستاذ مصطفى الزرقا، والشيخ محمد الغزالي رحم الله الجميع.

وكثيرًا ما كان يحدثنا الأميري عن ذكرياته الغزيرة والحافلة بالمواقف، في البلاد التي زارها، والبلاد التي عمل فيها سفيرًا لسورية، مثل: الباكستان، والمملكة العربية السعودية.

والذين يعرفون الأميري يعلمون أنه لم يكن مجرد سفير لسورية، بل كان سفير الأمة الإسلامية، أو قل: كان سفير الإسلام، الذي يحمل هموم دعوته، وآلام أمته، وآمال صحوته.

- **معًا في الجزائر:**

وقد التقينا معًا في الجزائر سنة (١٩٨٩ ـ ١٩٩٠م) حينما أعرت من قطر إلى جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، وإلى وزارة الشؤون الدينية بالعاصمة، وكان هو في زيارة خاصة للجزائر في ذلك الوقت.

وكم حاولنا معًا التقريب بين جبهة الإنقاذ والجماعات الإسلامية الأخرى، من أجل المصلحة الإسلامية الكبرى، مثل: جماعة (حماس)، وجماعة (النهضة)، ولكنا لم نفلح للأسف الشديد، وغلب الحمق على الحكمة، والمراهقة على الرشد.

وأعتقد أن المسؤول الأول عن الإخفاق هو (تصلُّب) إخوتنا في جبهة الإنقاذ، الذين لم (يلينوا) بأيدي إخوانهم، ليستوي الصف، ويتلاحم، ويقف جميع الإسلاميين كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضًا.

• **مذكرات الأميري:**

وطالما طالبت الأستاذ الأميري: أن يهيئ مذكراته للنشر، فقد كان له مواقف عدة، وتجارب شتى، ولقاءات جمة بكثير من الشخصيات المهمة، من لقاءات بالملوك والرؤساء، والأمراء والوزراء، وكبار الدعاة والمجاهدين من الخليج إلى المحيط، بل من المحيط إلى المحيط، أعتقد أن فيها دروسًا وعبرًا، فقد كان (رجل علاقات) من الطراز الأول، كأنما خلق ليكون سفيرًا، وكان يحسن الحديث مع الزعماء والكبراء، كما يحسنه مع عامة الناس، وكان في بعض الأحيان يتحمس لذلك، وفي أحيان أخرى تخمد الجذوة، وتفتر الهمة، ثم اشتد عليه المرض، فناء به الجسد، ووافاه الأجل المحتوم في الرياض، ولقي ربه راضيًا مرضيًا إن شاء الله.

• **الكتابات النثرية للأميري:**

وللأستاذ الأميري كتابات نثرية غطت عليها دواوينه الشعرية، فله عدد من المحاضرات والرسائل، والكتب الصغيرة في الحجم، التي كتبها في مناسبات شتى، وأودعها رؤيته وأفكاره في إصلاح أمة العرب والإسلام، والرقي بها.

وكان يركز في سنواته الأخيرة على ما سماه (الفقه الحضاري) وهو من الفقه الغائب عن الأمة، وقد أنصف الأميري وأحسن في الدعوة إليه، والتركيز عليه، وإن لم يبين لنا معالمه وملامحه، وقد حاولت في كتابي (السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة) إلقاء شعاع على هذه المعالم لهذا الفقه المنشود، مع ألوان الفقه الأخرى: فقه السنن، وفقه المقاصد، وفقه الموازنات، وفقه الأولويات، وفقه الاختلاف، وفقه الواقع.

وترك وراءه ذكرًا طيبًا وعلمًا نافعًا، وذرية صالحة تدعو له، وتلاميذ في أقطار شتى في المغرب والمشرق، تترحم عليه، وشعرًا عذبًا يتحدث عنه، تمثل في عدة دواوين، منها الكبير ومنها الصغير، أعظمها: ديوانه (مع الله).

وقد ترك من الآثار النثرية:

ـ الإسلام في المعترك الحضاري.

ـ المجتمع الإسلامي والتيارات المعاصرة.

ـ في رحاب القرآن (الحلقة الأولى: في غار حراء).

ـ في رحاب القرآن (الحلقة الثانية: عروبة الإسلام).

كما ذكر في بعض كتبه أن لديه آثارًا مخطوطة، منها دواوين شعرية، ومنها بحوث ومذكرات:

ـ في الفقه الحضاري.

ـ الخصائص الحضارية في الإسلام.

ـ صفحات للتاريخ ـ من الذاكرة والمذكرات.

ـ أحاديث في المغرب.

ـ حوار عن فلسطين.

ونرجو من الابن الأكبر للأميري: البراء وإخوته أن يعدوها للنشر، عسى أن يجد فيها القراء ـ وسيجدون إن شاء الله ـ ما ينفعهم.

رحم الله الأميري وغفر له، وأسكنه الفردوس الأعلى، وجزاه عن دينه وأمته خير ما يجزي العاملين الصادقين.

* * *



الأخ الحبيب الشيخ عبد اللطيف زايد

العلَّامة الداعية المعلم المجاهد

(ت: ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م)

في (١٩٩٢/١٢/١٤م) ودَّعتُ وودع معي أهل العلم والدين في قطر: أخًا حبيبًا، وعالمًا عاملًا، وداعية مخلصًا، ومربيًا كريمًا، هو الشيخ عبد اللطيف زايد.

- **في معسكر التدريب:**

وقد عرفت الأخ الشيخ عبد اللطيف أول ما عرفته حين كان طالبًا في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وكان ذلك في معسكر التدريب، الذي أقمناه في رحاب كليات الأزهر بالدرَّاسة، بجوار الجامع الأزهر العريق. وكان هذا المعسكر يستقبل الطلاب الراغبين في السفر إلى منطقة القناة لمقاومة الاحتلال البريطاني. وهم في هذا المعسكر يتلقون التدريبات الأولية التي لا بدّ منها، ومعظمها نظري؛ لأننا نعيش في منطقة سكنية، لا تتحمَّل تجربة إطلاق النار من بندقية أو رشاش، أو إلقاء قنبلة، أو تفجير ديناميت.. أو نحو ذلك.

- **الشباب المتعطِّشون للجهاد:**

وفي هذا المعسكر بالدرَّاسة، التقى عدد من الشباب المتعطِّشين إلى الجهاد في سبيل الله، وتحرير الأوطان من كل سلطان استعماري، وكان جُلّ هؤلاء الطلاب من أبناء الكليات، وبعضهم من طلاب معهد القاهرة الثانوي. أذكر منهم: الأخ حسن عبد اللطيف الشافعي (أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم فيما بعد، ورئيس مجمع اللغة العربية الآن)، والأخ الصالح الطاهر

عبد الرحمٰن الديب ابن قرية (العَمَار) قليوبيـــة. وكان معنا طلاب من كليات الأزهر الثـــلاث: اللغـــة العربية، وأصـــول الديـــن، والشـــريعة، ومنا طلاب فلسطينيون.

وكان الذي لفت نظري إلى عبد اللطيف زايد أحد رفاقه من بلدته (أويش الحَجَر) مركز المنصورة، وقد ســـألوني عنه، وأعينهم تذرف، فقلت لهم: إنه بخير. فقالوا لي: إنك لا تعرفه، إنه شهيد حي. فهو رجل نقي السريرة، طاهر السيرة، مستقيم السلوك، صوَّام قوَّام، غيور على الإسلام، مُحبٌّ لله ورسوله، مُتَفَانٍ في خدمة إخوانه... إلى آخر ما وصفوه لي، وقالوا: إن مثله أهلٌ للشهادة، ولذا نريد أن نلقاه قبل سفره، فقد يكون هذا اللقاء الأخير!.

هذه الكلمات من قوم عرفوا الرجل معرفة معايشة ومرافقة طويلة، حبَّبَتْ إليَّ الرجلَ، وجعلتني أقترب منه، وأجد في حب مثله شفاعة لي يوم القيامة. فأنا كما قال القائل: أحبُّ الصالحين ولست منهم!.

ولما ســـافرت كتيبةُ الأزهر من القاهرة إلى القناة، أو إلى منطقة الشرقية، أخذنا نســـتكمل تدريبنا، ونتهيـــأ للذهاب إلى القناة للقيـــام بعمليات ضرب الإنكليز في معســـكراتهم، وإصابتهم بما يمكن من الخســـائر، أو على الأقل إدخال الرعب في قلوبهم. وفي هذه المنطقة الخلوية، التقينا شـــباب الأزهر، وشباب الجامعات المصرية المختلفة.

وبعد مدة من الزمن ـ لا أذكر كم استغرقت ـ عدنا إلى دراستنا في كلياتنا. وعاد عبد اللطيف زايد الذي زاد حبي له.

وبعد ذلك تخرجت، وتخرج هو بعدي، وتفرّقت بنا الأيام، حتى شاء الله أن نلتقي مرة أخرى في قطر، فقد سافر إلى قطر قبلي متعاقدًا لتدريس العلوم الشرعية في مدارسها. وذهبت إلى قطر مُعارًا من الأزهر، لأعمل مديرًا للمعهد الديني الثانوي.

• **تحويل الشيخ عبد اللطيف إلى التدريس بالمعهد الديني:**

وقد كان من أوائل ما طلبته من فضيلة الشيخ عبد الله بن تركي المسؤول الأول عن العلوم الشرعية وتدريسها ومدرِّسيها، هو تحويل الشيخ عبد اللطيف زايد إلى التدريس بالمعهد الديني. فقال: أنا لا أمانع في ذلك، ولكن هو يعمل في أم صلال علِي، وأرى أن من المناسب أن تزور شيخ القرية الشيخ عليَّ بن جاسم آل ثاني، وتستأذنه في نقل الشيخ عبد اللطيف إلى المعهد، وأعتقد أنه سيلبِّي طلبك. وهو ما حدث بالفعل. فقد وسطت الأستاذ أحمد رجب عبد المجيد، وزرنا الشيخ عليًا في مجلسه، واحتفى بي، وتحادثنا في شؤون العلم والأدب، وكان مهتمًا بذلك، وكان مالكِيَّ المذهب، وكانت جلسة طيبة. ثم فاتحته في حاجتي إلى الشيخ عبد اللطيف، ليعاونني في المعهد الديني. فوافق الرجل، ولم يتردَّد. رحمه الله وغفر له.

وقد كان الشيخ عبد اللطيف نِعْم العون لي، طوال فترة إدارتي للمعهد، في توجيه الشباب بالمعهد، وخصوصًا في الرحلات التي نقضيها مع الشباب يوم الجمعة، أو يوم الجمعة وليلتها، وكان عضدي الأيمن في العمل التربوي مع الطلاب، وقد كان مربيًا بالفطرة والأسوة، ونموذجًا مجسدًا للإخلاص والبذل والعطاء دون منٍّ ولا أذى.

وأذكر أنه في إجازة نصف السنة الدراسية من سنة (١٩٦٣م) قمت برحلة مع طلاب المعهد الديني إلى المملكة العربية السعودية، فقد كانت وزارة المعارف في قطر توسع على الطلاب في إجازة نصف العام من كل سنة دراسية، وتبعث بالطلاب في رحلات علمية تخدم دراستهم، إلى البلاد المجاورة، وتختار من كل مدرسة عددًا يشاركون في هذه الرحلة، وقد كانت الجهات التي يذهبون إليها تستضيفهم، في حين تعطيهم الوزارة (مصاريف جيب) في يد كل واحد منهم.

وقد كنت مخيرًا بين دول الخليج، فاخترت المملكة العربية السعودية، فهي أليق بالمعهد الديني وطلابه، وطلبت من الوزارة أن يشترك أكبر عدد من طلاب المعهد في هذه الرحلة، باعتبار أن عددهم محدود، وباعتبار هذه الرحلة لونًا من التربية العملية المطلوبة؛ لما تشتمل عليه من أداء العمرة، ووافقت الوزارة مشكورة على ذلك.

واخترت معي الأخ الكريم الشيخ عبد اللطيف زايد مرافقًا ومشاركًا في الإشراف على الطلاب.

وكان حسن الصلة بهم، محببًا إليهم، يتعامل معهم بالرفق وبالحزم معًا، وهذا هو المطلوب. ثم هو قريب مني كما أني قريب منه، فهو ابن الدعوة، وابن القرية، وابن الغربة، وهو من الناس الذين يؤثرون على أنفسهم.

ومثل هذا يُريح في السفر، وقد قال الأقدمون: الرفيق قبل الطريق والجار قبل الدار.

وقد تولى إدارة المعهد بعدي فترة من الزمن، ثم عمل مفتشًا للعلوم الشرعية مع فضيلة شيخنا الشيخ عبد المعز عبد الستار.

وقد ظلت الصلة بيننا أبدًا طيبة وثيقة، لا تشوبها شائبة؛ لأنها بدأت لله، واستمرت لله، إلى أن اشتكى وجعًا باطنيًّا، دخل بعده المستشفى، ولم يكن يبدو أن ثمة شيئًا خطيرًا يُخاف منه، وإنما قالوا: هناك شيء قديم في القلب، يُرجى تداركه.

- **نبأ وفاة الأستاذ عبد اللطيف زايد:**

ولقد قُدِّر لي أن أسافر لحضور ندوة في البحرين لمدة يومين، وأعود، لأكون بجوار الأخ العزيز، سافرت صباحًا، وعدت مساء اليوم التالي، وقد استقبلني ابني أسامة واجمًا، وأحسست أنَّ وراءه شيئًا، ولكن خطر ببالي كل شيء، إلا أن يكون أمرًا يتصل بالأخ عبد اللطيف.

فقلت: هل حدث شيء؟.

قال: نعم.

قلت: وما هو؟

قال: توفي الشـــيخ عبد اللطيـــف اليوم، وهم الآن يذهبـــون إلى دفنه في المقبرة؟.

قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون. ولماذا لم تتّصلوا بي؟.

قال: فوجئ الجميـــع بالخبر، وارتبكوا، ولم تكن هنـــاك طائرة يمكن أن تحضر فيها قبل هذه الطائرة.

قلت: فلنسرع إلى المقبرة، عسى أن ندرك الصلاة عليه. وأسرعنا ما أمكننا، ولكن وجدناهم يوارونـــه التراب. فصلَّيت عليه على قبـــره، مع من لم يُدرك الصلاة عليه.

يا عجبًا لما يصنع القدر! لقد عاش الرجل قريبًا مني، وأنا قريبٌ منه، ثم يأتي الموت بغتة، فيختطفـــه اختطافًا، حتى يحرمني تشـــييعه والصلاة على جثمانه.

- **الرجال قليل والصادقون عملة نادرة:**

لقد كان عبد اللطيف رجلًا، والرجال قليل، وكان أخًا وفيًّا، وقد قال الإمام علي رضي الله عنه:

فما أكثرَ الإخـــوانَ حين تعُدُّهُمْ ولكنَّهم فـــي النائبـــاتِ قليلُ!

كان صادقًا، والصادقون في هذه الدنيا عُملة نادرة، إذا ظفرت بواحد منهم، فقد ظفرت بكنز عظيم. كما قال الشاعر لصديق له:

حسبي مِنَ الدنيا صديقٌ صادقٌ فَـــرْدٌ، فكُنْهُ ولا احتيـــاجَ لِثَانِ!

• **عبرات في العين وزفرات في الصدر:**

لقد ترك فراق عبد اللطيف: عبرات في العين، وزفرات في الصدر، وأحزانًا في القلب. وأحيانًا إذا فقد المرء حبيبًا، ذكّره بآخرين من الأحبة ماتوا قبله، فهو إذا بكى فإنما يبكي على الجميع، ولهذا بكيت بموت عبد اللطيف: موت أخي مصباح محمد عبده الذي وافاه المنون في قطر، ودُفن في قريته محلة أبو علي، وبكيت بموته موت أخي محمد الدمرداش مراد، وبكيت أحبَّة شتَّى.

رحم الله أخانـــا عبد اللطيف زايد، وغفر له، وأســـكنه الفردوس الأعلى، وتقبله في عباده الصالحين، وجزاه عن دينه وأمته خيـــر ما يجزي به العلماء العاملين والدعاة المخلصين، وخلفه في أبنائه وبناته، وأحفاده وذريته، بخير ما يخلف الصالحين.

* * *



الدكتور محمود أبو السعود
العالم المجاهد والباحث المجدّد في الاقتصاد الإسلامي
(١٣٣١ ـ ١٤١٣هـ = ١٩١٢م ـ ١٩٩٣م)

في أفراد المسلمين، وفي الجماعات الإسلامية المتعددة، وفي جماعة الإخوان المسلمين: أعلام كُثُر، منهم أعلام في الفقه والتشريع، ومنهم في الاقتصاد والإدارة، ومنهم في التربية والثقافة، ومنهم في شتى العلوم والرياضيات، ومنهم في مناحي الحياة المختلفة، وبعضهم تفوق في اختصاصه، وغلب على المنافسين، وكان له شأن ودور في مجاله، وهم كثيرون، أدعو الله تعالى أن ينفع بهم حيثما حلُّوا، وأن يوجههم إلى نفع أوطانهم ومجتمعاتهم حيثما توجهوا.

في مجال الفقه والتشريع أعرف الأستاذ عبد القادر عودة، والأستاذ توفيق الشاوي، والأستاذ محمد سليم العوا، والأستاذ عبد العظيم الديب، والأستاذ صلاح سلطان، والأستاذ عجيل النشمي، وبعدهم: الشيخ شلتوت، وأبو زهرة، والخفيف، وخلاف، وشلبي، والزحيلي.

وأعرف في الاقتصاد الإسلامي: د. محمود أبو السعود، ود. عبده عيسى، ود. محمد عبد الله العربي، وأبو زهرة، ومحمد حامد عثمان، وسيد قطب، ود. منذر قحف، وأحمد النجار، ود. عبد الستار أبو غدة، ود. عبد الحميد الغزالي، ونظام يعقوبي، ومختار السلامي، وعبد الله بن منيع، وتقي الدين العثماني، ود. علي القره داغي.

وعرفت في اختصاص العلوم والرياضيات أمثال الأستاذ: د. زغلول النجار أستاذ العلوم الجيولوجيَّة، ود. عبد الحافظ حلمي أستاذ العلوم البيولوجية.

وهناك أسماء كثيرة أعرفها، ولكنها لا تحضرني الآن، وخصوصًا أني في هذه السن أصبحَت بعض الأسماء تغيب عني حينًا وتحضر أحيانًا، وبالعكس.

وهناك أسماء كثيرة من أبنائنا: أبناء العالم العربي والإسلامي، وأحيانًا أجد من أبنائنا المسلمين المتفوقين على من هو في سنهم وظروفهم في بلاد أخرى.

وها أنا أقدِّم للإخوة الأحبَّة رجلًا أعرفه من السابقين والمجدِّين علمًا وعملًا في الاقتصاد الإسلامي، عمل مديرًا في أوساطه، وكتب فيه بحوثًا، وقدَّم أعمالًا، ولكن للأسف لم تتصل حلقته بحلقة غيره، ولم تتكوَّن من المجموعة كتيبة مجهَّزة تعمل في انتظام، وتسلم عملها لغيرها فتكمله إن كان ناقصًا، وتحسِّنه إن كان يحتاج إلى تحسين، وتضيف إليه ما يزيده قوة وبهجة. فالأعمال العلمية لا تولد كاملة، بل كل باحث يدلي فيها بدلوه، ويضع فيها بذرة أو حبة، وكثيرًا ما تنبت الحبة ورقة، وكثيرًا ما تتطور الورقة إلى جذع، ثم إلى غصن، فأغصان، فشجرة، لها فروع وثمار، تتطور حتى تنضج وتؤتي أكلها.

غيرنا من الأمم الحية الناهضة يستفيد من كل جهد جاد، حتى يتكامل ويصبح شجرة ذات ثمار، وهذه الشجرة تتكامل مع أشجار أخرى، فتصبح حديقة، وهذه الحديقة تتكامل مع جملة من الحدائق جنات من جنان الأرض: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

هذا الرجل الذي أقدمه في أعلام الإسلام اليوم هو الدكتور محمود أبو السعود، أحد المصريين الحقوقيين، الذين حصلوا على الحقوق من جامعة القاهرة في الثلاثينيات.

«تعرف على دعوة الإخوان مبكرًا، وتعرف على مؤسس الدعوة الأستاذ حسن البنا، فانضم إلى الجماعة، وكان له فيها نشاط بارز، فقد كان من قادة جوالة الإخوان المسلمين، وعضوًا في المجلس الأعلى للجوالة، وكان له نشاطه مع الطلبة، ثم مع الشباب والمهنيين، وكان عضوًا للهيئة التأسيسية.

وبعد محنة الإخوان الأولى التي انتهت بمقتل حسن البنا، واعتقال الآخرين، غادر مصر إلى ليبيا أيام الملك الراحل السنوسي، حيث عمل مستشارًا له، وظل في ليبيا إلى أن وقع انقلاب القذافي سنة (١٩٦٩م)، فغادر ليبيا إلى باكستان، ليعمل في الجانب الاقتصادي، ثم غادرها إلى بريطانيا وأمريكا، حيث استقر بها حتى وفاته، وكان له نشاط كبير في مجال الاقتصاد الإسلامي، بدأه بالكتابة بالمجلات وإلقاء المحاضرات وعقد الندوات، أبرز في ذلك كله وجه الاقتصاد الإسلامي وتميُّزه على الاقتصاد المعاصر الذي قام على الربا والاحتكار وسطوة رأس المال، ثم أصبح مستشارًا لكثير من البنوك التي كان له إسهام في تأسيسها، ووضع معالم الاقتصاد الإسلامي في معاملاتها، وأصبح لها عنوان خاص بها، فسميت: البنوك والمصارف الإسلامية، وهي البنوك التي لا تقوم على الفائدة، ولا تتعامل بها بيعًا ولا شراء.

حصل على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من كلية الاقتصاد بجامعة لندن، وعمل بعد ذلك في التدريس، ثم عُيِّن مستشارًا لجامعة الدول العربية، وتولَّى عدة مناصب لتطوير الأنظمة المصرفية في كل من: أفغانستان، ومصر، وليبيا، وماليزيا، وباكستان، والكويت.

درس الاقتصاد في جامعة ميسوري، وبعض الجامعات الأمريكية الأخرى، وأمضى جل حياته في تحصيل العلم والكتابة حول الأنظمة الاقتصادية والسياسة الإسلامية، وله العديد من المساهمات الصحفية.

وكان مقيمًا في مدينة (بانامـا)، حيث ترأَّس المجلس الإسلامي منذ

تأسيسه عام (١٩٩٠م)، ودأب خلال إقامته في باناما على إلقاء الخطب والدروس والمواعظ»[١].

ولما أتيح لي زيارة أمريكا وكندا في أوائل أو أواسط السبعينيات (١٩٧٤م) من القرن العشرين، استجابة لطلبات أعضاء اتحاد الطلبة المسلمين المعروف باسم: (M.S.A)، وكثر ترددي على تلك البلاد وعلى منتدياتها هناك، ومنها: رابطة الطلبة العرب، كانت فرصة لقائي بالدكتور أبو السعود وإخوانه من أهل العلم الاجتماعيين وغيرهم أكثر، وكانت المناقشة في موضوعات الدعوة أكثر حرية.

ومن المناقشات الكبيرة التي حضرناها: ما دعانا إليه الإخوة في لوجانو بسويسرا: يوسف ندا، وغالب همت، ومن معهما من الأحبة، وحضرت مجموعة كبيرة من مصر والمغرب وبلاد الخليج، وبلاد العرب، للمناقشة في موضوعات كبيرة وجديدة، وتحتاج إلى مباحثة حرة، وآراء شجاعة، وعلاقات متينة، وكان من المشاركين د. محمود، وعدد من الإخوة في أمريكا، مثل: د. جمال برزنجي، ود. هشام الطالبي، ود. إسماعيل الفاروقي، ود. عبد الحميد أبو سليمان، والأخ أحمد العسال، وعرفت الدكتور طه جابر العلواني لأول مرة، وكان للأخ محمود أبو السعود رأيه المحترم دائمًا، وافقناه أم خالفناه، وتعرف عليَّ أكثر في هذه اللقاءات.

وكان أبو السعود يُظهر ما عنده من فكر اقتصادي فيما يطرحه علميًّا على المؤسسات الاقتصادية التي تستجيب لدعوة الإسلام، وفيما يصدره من كتب قيمة، مثل: (خطوة رئيسية في الاقتصاد الإسلامي)، وهو من الكتب الأساسية التي بينت المعالم الرئيسية لما ينادي به الإسلام من أصول ومقاصد وأحكام تحدد اتجاه الاقتصاد الإسلامي، وتفرُّده عن غيره من الاتجاهات والنظم العالمية، كالرأسمالية والاشتراكية أو الشيوعية.

---

(١) انظر: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية (٣/٧٠، وما بعدها).

وكذلك كتابه عن الزكاة (فقه الزكاة المعاصر)، وفيه ناقش بعض الأفكار والموضوعات التي له فيها فقه خاص.

وكما ترجم كتاب (ريتشارد ميتشل) (الإخوان المسلمون) ـ وهي دراسة نال ميتشل بها شهادة الدكتوراه من جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية في عام (١٩٦٠م) ـ من الإنجليزية، ولصديقينا الأخ الكريم الأصيل الأستاذ صالح أبو رقيق تعليق عليها، يعلق فيه على أحداث الإخوان الكبيرة، بما يلقي عليها الضوء، ويصوّب الاتجاه، ويعدل أحيانًا المسار، ويقول ما يعتقد أنه الحق.

وقد كتب الأستاذ أبو السعود في مجلة (المسلمون) التي كان يصدرها الداعية المعروف الدكتور سعيد رمضان في القاهرة ثم في دمشق: عدة مقالات علمية، عن استغلال الأرض في الإسلام، ورأي فقيه الظاهرية الإمام أبي محمد بن حزم في استغلال هذه الأرض، وتحريمه لتجارة الأرض البيضاء بالنقود، إلى آخر ما ذكره ونشره، وبينه في كتاباته.

وقد اجتمعنا في مؤتمر (الاقتصاد الإسلامي)، الذي جمع عددًا كبيرًا من الشخصيات والفئات العاملة من أجل الوجود الإسلامي، والكيان الإسلامي، والأمة الإسلامية، وكان هذا اللقاء في البلاد المقدسة، بالقرب من الحرمين الشريفين: مكة والمدينة، وفي رحاب جامعة الملك عبد العزيز، التي تضم جامعة جدة، وكلية الشريعة، وكلية التربية في مكة، اللتين تطورتا وأصبحتا مع ما أنشئ من كليات: جامعة أم القرى.

وممن اجتمع في هذا المؤتمر وحوله نفر من قادة الإخوان المسلمين، ومن روادها الأوائل:

أولهم: الدكتور محمود أبو السعود، الاقتصادي الإسلامي المعروف.

والثاني: هو الأستاذ هارون المجددي، ابن الأستاذ صادق المجددي، السفير الأفغاني لدى جمهورية مصر العربية، والـــذي طال بقاؤه في مصر، وكان معه فيها ابنه وبكره هارون، الذي عرف دعـــوة الإخوان في وقت مبكر في حياته، واندمج في نشاطهم، فغدا كأنه واحد منهم، نحسبه مصريًا، وما هو بمصري.

ولقد كان معي وأنا طالب في كلية أصـــول الدين بالأزهر، طالب زميل من أفغانستان، ابن عم لهذا السفير وأبنائه، هو صبغة الله المجددي، الذي ودعته حين سافر إلى أفغانستان، وقد أصبح أحد الأعضاء المؤسسين للقيادة الأفغانية العامة.

كان هارون رجلًا مثقفًا ثقافة إسلامية عامة، ويعرف ماذا ينبغي أن يكون عليه العامة، وخصوصًا في أيام المحن وأيام الأزمات، وهو رجل رابط الجأش، شجاع القلب، حصيف، سلس، غير معقد ولا مضطرب، ولهذا قبله الإخوان خارج مصر، وهم متناثرون في العالم، وولَّوْه رئاستهم في تلك الفترة.

والثالث: الأستاذ صالح أبو رقيق، وهو أخ قديم له صلة بالإمام البنا، وهو من عرب الصحراء الذين لهـــم صلة بليبيا وغيرها، وهـــو يعمل في الجامعة العربية من زمن بعيد، وقد حوكم ووضع في السجن، حتى هيأ الله له الخروج، وعاد إلى مكانه في الجامعة. وقد هيأ الله لي الظروف لألقاه في مقره بالجامعة، وكان يعرف الدكتور أبو السعود، والأستاذ هارون المجددي.

وكانت هذه المجموعة التي تجتمع في ذلك المكان، وذلك الزمان:

الأســـتاذ صالح أبو رقيق، ومجددي، وأبو الســـعود. وقد اتفق الأســـتاذان أبو السعود والمجددي على أن يترجم أبو السعود كتاب ميتشل عن الإخوان إلى العربية، ويعقب الأستاذ أبو رقيق على النواحي الحساسة، التي يعرف أبو رقيق من خباياها وحقائقها ما لا يعرفه الكاتـــب، فاتفقا على أن يملأها أبو رقيق من معلوماتـــه المحفوظة والمكتوبة، التي لم يطلع عليهـــا المؤلف، وبذلك كانت ترجمة الكتاب بهذه الطريقة نافعة لمن يقرؤه ليعرف: أين هي الحقيقة؟.

ولا بد لي أن أرجع إلى ما كتبت في مذكراتي (ابن القرية والكتاب: ملامح سيرة ومسيرة) عن هؤلاء الإخوة الثلاثة وما طلبوه مني، وما انتهى إليه الوضع، فأعتقد أن فيه خلاصة كافية. قلت:

• **اجتماع تاريخي للإخوان معي:**

«وكان من أهم الأحداث التي وقعت لي خلال هذا المؤتمر: أن التقى بي ثلاثة من كبار الإخوان، هم: الأستاذ هارون المجددي، الذي كان مسؤولًا عن الإخوان المصريين في الخارج أيام محنة (١٩٦٥م) وأعقابها، والأستاذ صالح أبو رُقَيِّق عضو مكتب الإرشاد، وأحد القيادات التاريخية في الإخوان، والذي كان قريبًا من الأستاذ الهضيبي، والأستاذ محمود أبو السعود عضو الهيئة التأسيسية، وأحد الإخوان القدامى، والاقتصادي الإسلامي البارز، وقد عرضوا عليَّ أمرًا في غاية الأهمية، قالوا: إن الأستاذ الهضيبي المرشد الثاني قد انتقل إلى رحمة الله تعالى، وأصبحت الجماعة في فراغ من القيادة، والإخوان في هذه المرحلة في حاجة إلى قيادة شابة واعية مؤمنة، تجمع بين فقه الشرع، وفقه العصر، والإخلاص للدعوة، وتجتمع عليها كلمة الإخوان، ولم نجد أحدًا تجتمع فيه هذه الصفات غيرك، ونحن نتحدث بلسان مَن وراءنا من الإخوان، وهم كثيرون، فإن كنت حريصًا على مصلحة الدعوة التي نشأت فيها، وأفنيت زهرة شبابك في إعزازها ونشرها والذود عنها، حريصًا على جمع كلمة أبنائها، حريصًا على أن تستمر الدعوة وتتقدم إلى الأمام بوعي وبصيرة وثبات وقوة، فتوكل على الله، واقبل هذا الأمر، محتسبًا عند الله، مبتغيًا الأجر منه، لتكمل الطريق الذي بدأه حسن البنا، وخلفه حسن الهضيبي!.

واستمر الإخوة يتحدثون بعضهم وراء بعض، ليقنعوني بقبول ما عرضوه عليَّ، وأن في ذلك الخير للإسلام ودعوته وأمته إن شاء الله، وإنما لكل امرئ ما نوى.

قلت للإخوة: إن ما عرضتمـــوه علي ليس بالأمر الهين، بل هو أمر جلل، وهو قيادة دعوة عالمية في ظروف غيـــر مواتية، وقد فاجأتموني بهذا الطلب، الذي ما فكرت فيه قط، فما كنت في الجماعة إلا جنديًّا من جنودها، لم أتطلع يومًا إلى زمام القيادة، لتكون في يدي، وهذه منة من الله عليَّ، أني لست من الذين يجرون خلف سراب الزعامة، وكأنها طبيعة فيَّ لا متكلفة ولا مفتعلة.

قال الإخوة: وهذا مما يزيدنا تمســكًا بك، وإصرارًا عليك، وأنت تعرف الحديث الذي يقول ما معناه: «إن أعطيتها بغير سؤال أعنت عليها، وإن أخذتها بسؤال وكلت إليها»[1].

قلت لهـــم: أعطوني مهلة أفكر فيها على مهل، أشـــاور نفســـي، وأراجع حساباتي، وأستخير ربي، وأستشـــير بعض إخواني، ثم أرد عليكم. وإن كنت مبدئيًا لا أراني أهلًا لهذا الأمر.

قالوا: نعطيك شهرين للتفكير والمراجعة.

قلت: لا بأس بذلك.

قالوا: وليكن ردك على الأستاذ أبو السعود؛ لأنه يعيش في أمريكا، فالرد عليه أضمن وأحوط من الرد على من يعيشون داخل مصر.

- **اعتذار عن عدم قبولي منصب المرشد العام:**

وبعد طول تفكير، واستخارة، واستشارة، على ما جاء في الأثر: «**ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار**»[2]، وإن كنت لم أستشر إلا قليلين جدًّا، لأن

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «**يا عبد الرحمٰن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مســـألة أعنت عليها**» رواه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٢)، ومسلم في الأيمان (١٦٥٢).

(٢) رواه الطبراني في الصغير (١٧٥/٢)، وفي الأوســـط (٣٦٥/٦)، عن أنـــس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوســـط والصغير من طريق عبد السلام بن عبد القدوس وكلاهما ضعيف جدًّا (١٨١/٨)، وقال في الفتح: أخرجه الطبراني في الصغير بسند واه جدًّا

جُل من أستشيرهم يحثونني على القبول، ولكني لم ينشرح صدري لهذا الأمر وكتبت إلى الدكتور أبو السعود الرسالة التالية:

أخي الدكتور محمود أبو السعود حفظه الله..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

(وبعد):

فلقد كانت فرصة طيبة تلك التي جمعتنا في ظل المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي في رحاب مكة المكرمة، وبجوار بيت الله الحرام، وكانت أيامًا مباركة تلك التي سعدت فيها بلقائكم بعد غيبة أكثر من عشرين عامًا، افترقت فيها الأبدان، ولم تفترق القلوب.

وأسأل الله تعالى أن يديم هذه الأخوة التي انعقدت أواصرها على دينه وفي سبيله، حتى يظلنا بها في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

هذا وقد فكرتُ طويلًا فيما عرضتم عليَّ عند لقائنا ذاك، وقلبت الأمر على وجوهه، كما استخرت الله تعالى في الأمر، وتبين لي بعد ذلك ما سبق أن أبديته لكم لأول وهلة، وهو أني لست الرجل المنتظر للمسؤولية التي تحدثتَ عنها، ولا أرى نفسي أهلًا للقيام بها. ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

أخي، إن الله تعالى قد وزع المواهب والقدرات على عباده، فمنهم من فتح له في مجال العلم، ومنهم من فتح له في مجال السياسة، ومنهم من فتح له في مجال الإدارة، ومنهم من جمع له أكثر من موهبة، وهو سبحانه يختص برحمته من يشاء، وأحسب أني ـ إن كان لي موهبة ـ فهي في المجال الأول، والحمد

= (٢٨٢/١٤)، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة: موضوع (٧٨/٢)، والأولى اعتبار هذا القول حكمة مأثورة عن سلف الأمة، فإن فضل الاستخارة والاستشارة ثابت بالنصوص الصحيحة الصريحة من القرآن والسنة. ولهذا لم أقل: قال رسول الله، ولا قلت: في الحديث، وإنما قلت: في الأثر.

لله على ذلك أولًا وآخرًا، وقد قيل: من بورك له في شيء فليلزمه، وذلك ليكون أقدر على إتقانه والتفوق فيه.

وقد عرف النبي ﷺ خصائص أصحابه، فوضع كلًّا في المكان اللائق به، فلم يضع حسَّانًا ولا أبا هريرة في مكان خالد أو زيد بن حارثة، ولم يضع أبا ذر في مكان عمرو بن العاص، وإن كان أبو ذر أحبَّ إليه، وأعزَّ عليه، وآثر لديه.

ولما سأله أبو ذر أن يوليه على بعض أعماله، قال له بصراحة: «**إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها خزي وندامة يوم القيامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها**»[1].

فهذا توجيهه ﷺ لأبي ذر، وهو الذي قال فيه: «**ما أقلَّت الغبراء، ولا أظلت الخضراء، أصدق لهجة من أبي ذر**»[2].

إن دعوتنا ـ وان كانت دينية المصدر والغاية ـ فهي سياسية من حيث الوسيلة والمواجهة، ولذا تحتاج إلى رجل يعرف السياسة وألاعيبها وأغوارها، بجوار معرفته للدين ومصادره، وأنا لا أحسن هذا الفن، إلا في خطوطه العامة، ولم أتمرس به، ولا أظن طبيعتي تصلح له. ولا أرضى لنفسي ـ ولا ترضى لي أنت أيضًا ـ أن أكون جهازًا في أيدي آخرين، يحركونه فيتحرك، ويوقفونه فيتوقف!.

وفضلًا عن هذا كله، فإن هذه الدعوة الربانية التي جعلت شعارها من أول يوم (الله غايتنا) تحتاج أن يكون على قمتها رجل غامر الروحانية، عامر القلب بالخشية والتقوى، متألق الجوانح بمعاني اليقين والإنابة، ليستطيع أن يفيض من قلبه على قلوب من حوله، وأراني دون هذا الأفق بمراحل، وفاقد الشيء لا يعطيه.

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٥).

(٢) رواه أحمد (٦٤٨٣)، والترمذي (٣٨٠١) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١٥٦)، عن عبد الله بن عمرو.

لا تظن يا أخي أن ما أقوله لك من باب التواضع أو هضم النفس، فإنما هو من باب تقرير الحقائق، ووصف الأشياء بما هي عليه، وقديما قالوا: من سعادة جَدِّك، وقوفك عند حدك.

وقد تقول: إن تقدير كفايتك وأهليتك لعمل ما ليس من شأنك أنت، وإنما هو شأن أهل الحل والعقد الذين وكل إليهم الاختيار، وهم الذين يقولون: هذا يصلح، وهذا لا يصلح، فإذا رشَّحُوك فهم أعرف بك، وأقدر على تقويمك، وأقول: إن كل إنسان أدرى بعيوب نفسه، ونقاط ضعفه، والناس تحكم بما يطفو على السطح لا بما يرسب في الأعماق.

ومن النعم التي أحمد الله عليها أنه رزقني السلامة من الانتفاخ الكاذب، والغرور بالباطل، ولعل هذا هو فضلي الوحيد: أن مرآتي لم تصدأ ولم تتغير حتى أرى فيها وجهًا غير وجهي، أو شخصًا غير شخصي، ولهذا أرى نفسي على حقيقتها بضعفها وغفلاتها وبمواهبها المحدودة، دون تضخيم أو تزييف.

وقد قال ابن عطاء في حِكَمه: الناس يمدحونك لما يظنونه فيك، فكن أنت ذامًّا لنفسك لما تستيقنه منها. أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس!.

إني أعتقد أن من مصلحة الدعوة التي أنتمي إليها، ومصلحة الإسلام عامة الذي نذرت نفسي لخدمته: أن أظل مشتغلًا بالعلم وبالبحث، لإتمام ما عندي من مشروعات علمية أراها مهمة ونافعة إن شاء الله.

وقد أتيح لي الآن ـ من خلال موقعي ومعرفة الناس بي ـ أن أتصل بالجمعيات العلمية في مؤتمرات عربية وإسلامية وعالمية شتى، ومن الخير أن يستمر هذا الاتصال بعد أن فرضت عليَّ العزلة مدة طويلة في مكان قصيٍّ منعزل.

إن جماعتنا لم تخل ـ ولن تخلو إن شـاء الله ـ من الكفايات القادرة على قيادة السفينة بقوة وأمانة، ولن تعدموا (القوي الأمين) أو (الحفيظ العليم) في صفوف الحركة، بعون الله.

والله يتولى الجماعة ويرعاها بعينه التي لا تنام، وهو ولي الصالحين.

أخوكم يوسف القرضاوي

وقد علق الأستاذ محمود أبو السعود برسالة، جاء فيها:

الأخ الكريم فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي..

وعليكم من الله السلام والرحمة والبركات، أعزك الله، ونفعك ونفع بك، وأعانك على ما فرغت له نفسك من خير وعلم، وجعلك أبدًا مهوَى القلوب، ومقصد الحق، وواسطة عقد الأخلاء.

يا أخي «لقد أسـكتَتْ جهيزةُ قـولَ كل خطيب» ولم يعد لـي ما أقول، وما حدثتك فيه أمر تمنَّاه غيري كما تمنيته، أمَا وقد قطعتَ فيه برأي، فالخيرة ما اختـاره الله. وإني لأعلم ـ كمـا تعلم أنت ـ أن ليس لمـا دعوناك إليه من يرتضيه الخاص والعام، ولا من أوتي ما أوتيته من تجرد وفضل، وعلم وخلق، لا أمتدحك سعيًا وراء مغنم، وإنما هكذا عهدناك وخبرناك. والأغلب أن يظل الوضع الراهن كما هو، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا. على كل حال يا أخي شكر الله لك، وجزاك بنيتك أضعاف ما يجزيك بحسن عملك.

الفقير إلى ربه

محمود أبو السعود

٢٠ ربيع أول سنة ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦/٤/٢٠م»[1]

---

(١) ابن القرية والكتاب (٣/٣٧٩ ـ ٣٨١).

• **ما كتبت في مذكراتي عن اجتماع لوجانو[١]:**

ولقد رجعت إلى مذكراتي (ابن القرية والكتاب) لأطالع ما كتبته عن اجتماع لوجانو، فوجدت فيه هذه الكلمات:

«في صيف سنة (١٩٧٧م): تنادت مجموعة من المثقفين الإسلاميين المعنيين بأمر الدعوة والفكر، في ضوء مقتضيات العصر وتطوراته التي لا تتوقف ولا تتناهى، وفي إطار الثوابت الشرعية، التي لا يجوز الخروج عليها وإن تغير الزمان والمكان والإنسان.. تنادت هذه المجموعة بضرورة التلاقي لعدة أيام للحوار والمراجعة حول قضايا حية وجوهرية يدور حولها الجدل في كثير من الأقطار، ولدى كثير من الناس، وتستحق من أهل العلم والفكر والدعوة: البحث الدقيق، والفقه العميق، والنقاش الطويل، حتى تنضج حولها رؤية مستبصرة، وفكرة جلية، يمكن أن تنبثق منها أحكام شرعية اجتهادية لها اعتبارها وفق الأصول المتبعة، والقواعد المرعية، في الاستنباط والاجتهاد، تتحدد على ضوئها مواقف عملية، وتنشأ على أساسها هياكل ومؤسسات فكرية ودعوية وتربوية.

وكان من أهم هذه القضايا: (أسلمة[٢] المعرفة) أو (إسلامية المعرفة) ولا سيما بالنسبة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، وأهمية هذا الموضوع وضرورة الإعداد له، وبذل الجهود العلمية من أهل الاختصاص، لإيجاد علوم إنسانية مؤسَّسة على منظور إسلامي.

---

(١) **لوجانو**: بالجيم القاهرية غير المعطشة، ولا يوجد في الحروف الهجائية المعروفة حرف يعبر عنها، ولذا يكتبها بعض العرب (غينًا)، ويضع آخرون تحتها ثلاث نقط، ولكن هذه النقط ليست في حروف طباعة الكمبيوتر.

(٢) يراد بـ(أسلمة الشيء) أي: جعله إسلاميًا. وإن كانت كلمة (أسلم) في الأصل فعلًا لازمًا، يقال: أسلم الرجل: أي دخل الإسلام. أما (أسلم) التي مصدرها (أسلمة) فتستعمل متعدية، ومضارعها (يؤسلم) ولذا لم يقرها اللغويون، أو كثير منهم. فاستُخدمَتْ بدلها كلمة (إسلامية المعرفة).

كما بحثنا قضية (الوجود الإسلامي) في الغرب، في أوربة وأمريكة، وضرورة توطينه، وأهمية الربط بين المسلمين، وإزالة الخلافات والفجوات القائمة بينهم، ووجوب إدماجهم في المجتمعات التي يعيشون فيها، وخروجهم من صومعة العزلة والتقوقع إلى باحة التفاعل والتأثير والتأثر، مع الاحتفاظ بالعقيدة والهوية الإسلامية، وضرورة تبني رؤية وسطية مستنيرة للإسلام، تقوم على التسامح لا التعصب، والانفتاح لا الانغلاق، والحوار لا الرفض، والاعتدال لا الغلو والتسيُّب.

وكان الذين فكروا في هذه اللقاء، ودعوا إليه، هم الإخوة في أمريكة، الذين كانوا في حالة نمو وتطور تسمح لهم بهذا النوع من التفكير (الاستراتيجي) والرؤية المستقبلية، وبخاصة (الجمعية الثقافية) التي كان يرأسها في ذلك الوقت ـ على ما أذكر ـ الدكتور محمود أبو السعود، ومن حوله الإخوة الذين قادوا أو يقودون (اتحاد الطلبة المسلمين) الذي انبثق عنه عدد من المؤسسات المهمة، مثل: الجمعية الطبية الإسلامية، وجمعية العلماء الاجتماعيين، وجمعية العلماء والمهندسين، ومؤسسة الوقف الإسلامي وغيرها.

وكانت (لوجانو) في سويسرا ـ المنطقة الإيطالية منها ـ هي المكان المختار للقاء، حيث يسكن في هذه المنطقة الأخوان الكريمان: يوسف ندا، وغالب همَّت، اللذان وفرا للمجموعة المنتقاة: المكان الملائم، والعون الملائم، والجو الملائم.

وقد حضر هذه الندوة أو هذا اللقاء عدد من الإخوة لم أعد أذكرهم كلهم، فاختلاف النهار والليل ينسي، كما قال شوقي رَحِمَهُ اللَّهُ. ولا أذكر أيضًا كم كانوا. ولكني أذكر منهم: الدكتور الشهيد إسماعيل الفاروقي العالم الاجتماعي رَحِمَهُ اللَّهُ، والدكتور محمود أبو السعود العالم الاقتصادي رَحِمَهُ اللَّهُ، والدكتور خورشيد أحمد، والدكتور أحمد العسال، والدكتور التيجاني

أبو غديري، والدكتور عبد الحميد أبو سليمان، والدكتور أحمد التوتنجي، والدكتور أحد القاضي، والدكتور جمال برزنجي، والدكتور هشام الطالب، والدكتور منذر قحف، والدكتور محمود رشدان، والدكتور رشيد بن عيسى تلميذ مالك بن نبي بالجزائر، والدكتور طه جابر العلواني، وكانت هذه أول مرة ألقاه فيها وأتعرف عليه. وأحسب أنه كان معنا المفكر السوري المعروف الأستاذ محمد المبارك.

وقد بقينا نحو ثلاثة أيام على ما أذكر في (لوجانو) انتهينا فيها إلى توصيات التقت عليها المجموعة المشتركة في الندوة، كان لها أثرها وصداها في العمل الدعوي والفكري فيما بعد.

وكان من ثمار هذا اللقاء: التفكير في إنشـــاء (المعهـــد العالمي للفكر الإسلامي) الذي أسس في واشنطن برئاسة د. عبد الحميد أبو سليمان، ثم د. العلواني، وكان له فرع ناشـــط في القاهرة، قام عليه الدكتور جمال عطية لعدة سنوات»[1].

• **وفاته:**

توفي الدكتور محمود أبو الســـعود يوم الجمعة (١٩٩٣/٤/٢٣م) في أحد مستشفيات بريطانيا، فرحمه الله وغفر له، وتقبل جهده وجهاده.

* * *

(١) ابن القرية والكتاب (٣/٤١٤ ـ ٤١٦).



الدكتور علي جمّاز
العالم الداعية المعلّم
(ت: ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م)

• **تعرفي على الأخ الشيخ جماز:**

عرفت أخانا الشيخ علي جمّاز في قطر، وكان من المجموعة التي سبقتنا متعاقدة مع وزارة التربية ـ أو وزارة المعارف ـ لتدريس العلوم الشرعية. وكان الشيخ عبد الله بن تركي مفتش العلوم الشرعية والمسؤول الأول عنها، حريصًا على استحضار علماء الأزهر لتدريس هذه العلوم، وكان يفخر بذلك.

وكان لهذه العلوم أهميتها ويترتَّب عليها نجاح ورسوب. وكان من حُسن حظ الإخوان المسلمين الذين رفضت الحكومة المصرية تعيينهم في مدارسها: أن يجدوا باب قطر ودول الخليج مفتوحًا لهم، فولجوه بقوة، مع من ولجه من أبناء الأزهر.

كان الشيخ علي عالمًا وداعية، يتميَّز بحضوره وحُسن فهمه، وحسن تلاوته للقرآن الكريم، ولذا كنت أقدِّمه أحيانًا ليصلي بالناس بعض صلاة التراويح نيابةً عني، وقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ يحسن عرض حقائق الإسلام في خطبه في المساجد وغيرها.

وقد ظل واضح الصوت، مسموع الكلمة، طوال الفترة التي قضاها معي في المعهد، مع إخوانه الآخرين من علماء الأزهر النابهين.

• **ترشيحي الجماز لإدارة المعهد الديني:**

وبعد انتقالي من المعهد الديني إلى العمل بجامعة قطر، ظللت سنة كاملة محتفظًا بإدارة المعهد، مع العمل في الجامعة، ثم استعفيت من المعهد،

لأتفرغ للجامعة، ورشَّحْت الأخ الشيخ علي جمّاز، ليقوم بإدارة المعهد. وقد قام بها، فأحسن القيام، كما قام بها من بعده الشيخ عبد اللطيف زايد.

والتحق الشيخ علي بتفتيش العلوم الشـرعية بالوزارة، فعمل مع شيخنا الشيخ عبد المعز عبد الستار، ثم سعى للحصول على الدكتوراه في الحديث من الأزهر، وحصل عليها، وعُيِّن معي بكلية الشريعة، مدرسًا للحديث، وبقي بها حتى وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ.

• **ابتلاؤه بالفشل الكلوي:**

ابتلي الشيخ علي بالفشل الكلوي، أعاذنا الله وإياكم منه، فتكلَّف فترةً عناء الغسيل في مستشفى حمد، الذي يأخذ ساعات كل مرة. وهو يحتاج مرتين أو ثلاثًا في الأسبوع، حتى هيأ الله له السفر إلى أمريكا لزرع كلية هناك.

• **زراعة الكلية وفشلها:**

وزراعة الكُلى مشوارها طويل، فلا بدّ من الانتظار حتى يأتيك الدور، ثم تختار لك الكلية المناسـبة، ثم تجرى العملية، وبعدها تحتاج إلى فترة حتى تستقر، فالجسـم بطبيعته يطردها؛ لأنها شـيء غريب عنه، ومن هناك تكون الأدوية المضادة للطرد. ولا بدَّ من التحفُّظ من مخالطة الناس؛ لأنَّ أدنى عدوى قد تحبط العملية كلها، ويضيع تعب المرء بلا فائدة.

وقد أجرى أخونا علي هذه الأمور كلها، وعاد بحمد الله، واحتفلنا بعودته، ومارس عمله كالمعتاد، وما هي إلا مدة قليلة، حتى انعكس الأمر عليه، ورفض الجسم الكلية الغريبة، وعاد لما كان عليه من الغسل في المستشفى، على ما فيه من عنت وإرهاق.

• **سفره إلى أمريكا لزراعة الكلية مرة ثانية:**

ثم سافر الدكتور الجمَّاز إلى أمريكا مرة ثانية، ليبحث عن فرصة أخرى، لعلها تكون أفضل من الأولـى، فما ينبغي لمؤمن أن يقنط من رحمة الله؛ فهو

سبحانه يكشف الضر، ويجيب المضطر إذا دعاه، كما كشف الضر عن أيوب، وكما ردّ البصر على يعقوب.

وسافر هو وأهله إلى أمريكا، يرتقب الفرصة، وقد طالت هذه المرة، ولم يأت دوره لكثرة الطالبين من ناحية، ولتشديد أمريكا نفسها من ناحية أخرى.

- **السعي لمنحه مهلة مفتوحة للعلاج:**

ووفقًا للنظام، ليس الباب مفتوحًا على مصراعيه، بالنسبة لموظّفي الدولة، فله مدة معيَّنة، ثم يكون بقاؤه وعلاجه على حساب نفسه. وقد طلبت من الدكتور كاظم مدير الجامعة الكلام مع ولي العهد بشأن استثناء د. الجماز من المدة المعتادة لضرورته إلى العلاج، فرجاني د. كاظم أن أصحبه في ذلك، وقال: إنهم يحترمونك ويستحيون منك، ولا يردون لك طلبًا، فتعالَ معي لتطلب أنت لصاحبك ما تريد. وقد فعلتُ، وبينت عجزه عن نفقاته. وكان ولي العهد هو الشيخ حمد بن خليفة ـ أمير قطر فيما بعد ـ وكان حفظه الله حريصًا على أن لا يرد لي طلبًا ـ فلم يُخيِّب الرجل رجاءنا، وأعطاه مهلة مفتوحة. جزاه الله خيرًا.

- **معاناته وعيادته:**

وطالت مدة وجود د. الجماز في أمريكا، وأنجب ابنته مريم هناك، وعاد بعد ذلك، يمارس نشاطه، مع غسل الكلى المعتاد، حتى اشتدّ عليه المرض، ودخل المستشفى في مرضه الأخير، الذي عانى فيه معاناة، أسأل الله تعالى أن يجعلها كفارة له، وأن يزيد بها من حسناته، ويرفع بها من درجاته.

لقد كنت أذهب لعيادته، فأسمع آهات من بعيد، فيتزلزل بها قلبي، وتذرف لها عيني، وأحيانًا لا أجد لي قدرة على أن أدخل عليه، فأعود من حيث جئت.

• **وفاته ودفنه:**

أتاه أجلـــه رَحِمَهُ اللَّهُ يوم الجمعـــة (١٩٩٣/٨/٢٠م)، وللأســـف لم أكن في الدوحة يومئذ، وصلى عليه وشـــيعه إخوانه وتلامذتـــه ومحبوه إلى مثواه الأخير، حيث دفن في الدوحة، قريبًا من قبر أخيه الشيخ عبد اللطيف زايد. رحمهما الله.

* * *



الدكتور سعيد رمضان
(حوالي ١٣٤٤ ـ ١٤١٦هـ = ١٩٢٦ ـ ١٩٩٥م)

وفي صيف (٥ أغسطس ١٩٩٥م) تُوفي الداعية الإسلامي الكبير، الدكتور سعيد رمضان عن عمر يناهز (٦٩) تسعة وستين عامًا.

توفي في سويسرا، التي يعيش فيها هو وأسرته منذ عقود من السنين، وأنشأ فيها في مدينة جنيف مركزه الإسلامي، ثم نُقل جثمانه إلى القاهرة، ليدفن بجوار شيخه وإمامه وحَمِيه حسن البنا، كما أوصى بذلك.

• **وصول جثمانه إلى القاهرة:**

كنت في إجازتي السنوية، واتصل بي بعض الإخوة في القاهرة ليبلِّغني بوفاة الأخ الكبير سعيد ووصول جثمانه، وأنَّ الصلاة عليه ستكون في جامع رابعة العدوية في مدينة نصر، حيث أقيم، وقال لي: إن الإخوة يشدِّدون على حضورك، لتقوم بالصلاة عليه. قلت للأخ: الأمر لا يحتاج إلى تشديد، فلا يسع مثلي أن يتأخَّر عن شهود جنازة مثل جنازة سعيد رمضان، والحمد لله، أني موجود في القاهرة، ومن حقّ الأخ على أخيه أن يشهد جنازته، فكيف إذا كان مثل سعيد رمضان، بما له من ماضٍ مشرق وحافل في خدمة الدعوة، وما له من صلة وقربى بإمامنا الشهيد، وما له من حقّ خاص عليّ، باعتباره ابن طنطا أو الغربية مثلي، وقد تتلمذ على أستاذنا البهي الخولي، كما تتلمذت عليه، وما لأبنائه ـ الذين تعرَّفت عليهم في أوربة في مجال الدعوة ـ من حق عليّ، وخصوصًا طارقًا وهانيًا. كل هذا يحتِّم عليَّ أن أحضر ولا أغيب.

• **صلاتي على جنازته في مسجد رابعة العدوية:**

وفعلًا ذهبت إلى مسجد رابعة قبيل صلاة الظهر، وبعد دقائق جاء النعش، وقد حضر جمّ غفير من الإخـوان، وقدَّموني للصلاة عليه، وجاء مع الجثمان ابنه هاني، الذي أعرفه، وكان معه شقيقه الأكبر الدكتور أيمن فسألت هانيًا: ألم يكن في استطاعة طارق أن يحضر معك؟ فقال: لم يكن ذلك في استطاعته. إن موقف السلطات المصرية منه سـيِّئ، ولا يُؤمَن أن يأخذوه ويحقِّقوا معه، ولا يُدرى مـاذا تكون النتائج. قلت لـه: البركة فيك، وكل الإخـوان هنا، إما أخ لسعيد، وإما ابن له.

وبعد الصلاة حُملت الجنازة إلى مقابر الإمام الشـافعي، التي أزورها لأول مرة. وكان الجو حارًّا، والسـائق الذي معـي لا يعرف المكان، وقد تفرَّقت السيارات بعضها عن بعض. المهم أننا وصلنا بعد تعب ومعاناة إلى المقبرة، التي دُفن فيها الإمام الشـهيد، ودُفن سعيد بجوار أستاذه وصهره وحبيبه.

• **كلمتي في تأبينه:**

وبعد الدفن، ألقيتُ كلمة رثاء أودع بها أخانا الحبيب سعيدًا، لا أذكر الآن مضمونها، ولكن أذكر أني بكيت فيها سـعيدًا، وبكيتُ معه شـيخَه وشيخَنا الإمام البنا رحمهما الله. ومن طبيعة توديع الأحبة أن يذكِّر بعضهم ببعض، وأن الحزن الجديد يوقظ الحزن القديم، كما قال الشاعر:

وقالـوا: أتبكي كل قبـرٍ رأيتَهُ لِقَبْرٍ ثوى بين اللّوى والدّكادِكِ
فقلت لهم: إنَّ الأسى يبعث الأسى دعوني، فهذا كله قبرُ مالك![1]

لقد مات سعيد رمضان، وكلُّ نفس ذائقة الموت، ولكن من الناس من إذا

---

(١) البيتان لمتمم بن نُوَيْرة يرثي أخاه مالكًا.

مات، مات معه كل شيء، فلا يبقى له أثر ولا خبر ولا ذكر.. ومن الناس من يحيا بعد موته، أعمـــارًا بعد عمره، بما خلَّف مما ينفع الناس. وأحســـب أن سعيدًا من هؤلاء.

• **نبوغه المبكّر:**

لقد ولد سعيد في نفس السنة التي ولدت فيها، وُلِدَ في أوائلها، ووُلِدْتُ في أواخرها، ولكنه حصل على الثانوية مبكِّرًا، في نفس السنة التي دخلت فيها معهد طنطا، وهو تخرج في مدرســـة طنطا الثانوية، ولكنه ظهر ونبغ وهو في المرحلة الثانوية، واشـــتغل بالدعوة مبكِّرًا، وذهب إلى عدد من القرى القريبة من طنطا، ومنها قريتنا (صفط تراب)، التي زارها بُعَيْد حصوله على الثانوية، وألقى فيها خطبة الجمعة، التي لقيت استحســـانًا من الناس، ولكني لم أكن موجودًا في القرية في ذلك اليوم. ولا أذكر السبب.

• **لقاءاتي به:**

انتقل سعيد من طنطا إلى القاهرة، ليلتحق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة، أو جامعة فؤاد الأول، كما كانت تُسمَّى في ذلك الوقت. ولم يقدَّر لي أن ألقاه أو أســـتمع إليه إلا مرتين، المرة التي أذكرها جيدًا، حين كان مصاحبًا للإمام الشهيد في زيارة مدينة (دسوق). وقد ذهبنا إليها لنستمع إلى الإمام الشهيد، أنا والأخ أحمد العســـال، والأخ محمد الدمرداش مـــراد. وذلك عن طريق قطار الدلتا. وكانت المناسبة مناسبة المولد النبوي، فألقى سعيد كلمة ضافية أخذت بمجامع القلوب، في هذه الذكرى العاطرة.

• **جواب مفحم:**

والمرة الأخرى أظنها كانت في المركز العام، وســـمعت منه كلمة حكيمة موفَّقة، لا أذكر في أيِّ الأعوام كانت؟ وهي أنه كان يخطب مرة، فأراد بعض

المستمعين أن يحرجه، فسأله هذا السؤال: أنتم صار لكم عشرون سنة تتكلمون، فماذا فعلتم؟.

وكان جوابه: وأنتم أيضًا صار لكم عشرون سنة تسمعون، فماذا فعلتم؟!.

فكان جوابًا مفحمًا ومقنعًا؛ فبعض الناس يجعل كل التبعة على المتكلِّم، ولا يحمِّل المستمع شيئًا. والواقع أن على المتكلِّم أن يدعو ويشرح ويبيِّن، وعلى المستمع أن يفهم ويعمل وينفذ، وقد سمعت كلمة سعيد رمضان في الحفل، ولكني لم ألتقِ به. ولم ألتقه مدة دراسته في الجامعة حتى تخرَّج.

• **ثقة الإمام الشهيد به:**

كان سعيد رمضان بموهبته وذكائه وحيويته وخبرته في الدعوة منذ باكورة شبابه، موضع ثقة الإمام الشهيد، فقد بعث به إلى الصعيد، وبعث به إلى بعض البلاد العربية، وكان قريبًا من أسرة الإمام البنا، ومعروفًا لديهم، كما أنهم قريبون منه، ومعروفون لديه.

• **مجلة الشهاب:**

وحين أصدر الإمام مجلته الشهرية العلمية الشهيرة التي سماها (الشهاب)، على اسم مجلة المصلح الجزائري (عبد الحميد بن باديس)، وكان يريد أن تخلُف هذه المجلة مجلة (المنار) العلمية الإصلاحية الشهيرة، التي كان يصدرها الإمام المجدد السيد محمد رشيد رضا. هنا عيَّن حسن البنا سعيد رمضان مديرًا لهذه المجلة.

وقد تزوَّج سعيد رمضان كبرى بنات الإمام الشهيد (وفاء حسن البنا) أم أيمن حفظها الله، ومنها أنجب أولاده جميعًا.

• **خروجه من مصر:**

وخلال هذه المدة لم يقدَّر لي أن ألتقي سعيد رمضان، حتى حُلَّت الجماعة، واعتقل الإخوان، واعتُقلت مع بعض زملائي في معهد طنطا، وقُدِّر

لي أن ألقى كثيرًا من الإخوة من زملاء سعيد، مثل: مصطفى مؤمن، وحسان حتحوت، ومحمد عاكف، ومن هو أكبر منهم سنًّا مثل: الشيخ محمد الغزالي، وعبد العزيز كامل، وعبد المعز عبد الستار، وعبد الحكيم عابدين، وعبد البديع صقر.. وغيرهم، ولكن لم يقدَّر لي أن ألقى سعيدًا، فقد كان خارج مصر عند حلِّ الإخوان، وظل بعيدًا عن مصر، حتى انزاحت الغمَّة، وانفرجت الأزمة، وعادت الأمور إلى طبيعتها، فرجع إلى مصر سنة (١٩٥٠م).

وكتب سعيد في مجلة الإخوان: (مذكرات شهيد يجوب الآفاق في سبيل الله).

- **نشاطه ومقابلاته:**

ولكننا كنا نتابع نشاط سعيد مما ينشر في الصحف، من مقابلاته مع المراسلين الأجانب، ولباقته في الردِّ على أسئلتهم.

وقرأنا لقاءه بالملك عبد الله بن الحسين ملك الأردن، الذي رحَّب به، وقرَّبه منه، وكان سعيد يثني عليه، ويقول: هو أذكى ملوك العرب، وأعلم ملوك العرب، وأتقى ملوك العرب. وقد عيَّنه حاكمًا عسكريًّا لمدينة القدس.

- **مجلة (المسلمون):**

وبعد عودته إلى مصر، وانتخاب الأستاذ الهضيبي مرشدًا عامًّا للإخوان، كان قريبًا منه، وقد فكَّر في إنشاء مجلة تخلف مجلة (الشهاب) التي كان يُديرها، فأسَّس مجلة (المسلمون) التي ظلَّت تصدر مدة من القاهرة، وكان يكتب فيها كبار العلماء والدعاة والمفكرين المسلمين. وقد كتبت فيها مرة أو مرتين.

- **في عنبر الإدارة:**

وبعد أن قامت الثورة في (٢٣ يوليو ١٩٥٢م)، كان له صلة ببعض ضُبَّاطها، وظلت علاقته بهم طيبة، فترة من الزمن، حتى اصطدمت الثورة بالإخوان، وكان الحل الأول، وفي (١١ يناير ١٩٥٤م) اعتُقل سعيد مع المعتقلين، واعتقلت

أنا من أول يوم مع مجموعة من إخواني. وهناك لقيته وجهًا لوجه لأول مرة، ولكن لم يقع بيننا حديث أو حوار. وقد قدَّمني الأستاذ المرشد لأصلِّي بالإخوان إمامًا، فكان يصلي ورائي مع سائر الإخوان، واستمرَّ ذلك عدة أيام، ثم نُقِل مع أعضاء مكتب الإرشاد وقادة الجماعة، في عنبر خاص يسمى (عنبر الإدارة) تمييزًا لهم. أو لتيسير الاتصال بهم.

• **الصراع مع عبد الناصر:**

وبعد ذلك خرج الإخوان من معتقلاتهم، وذهب عبد الناصر، ومعه عدد من إخوانه القادة، إلى منزل الأستاذ الهضيبي، واعتذر له عمَّا حدث، واتُّفِق على بدء صفحة جديدة بين الجماعة والثورة، على إقامة البناء على الحق والقوة والحرية، وتبايعوا على ذلك. وكانت فرحة عامة بين الإخوان في مصر وفي البلاد العربية والإسلامية.

ولكن سرعان ما قلبت الثورة ظهر المِجَنِّ للإخوان، وظهر بسرعة جوٌّ مشحون بالتوتر والصراع، مما جعل الأستاذ الهضيبي يسارع بالسفر إلى سورية، والجو يزداد تلبدًا بالغيوم، يومًا بعد يوم، وينذر برعد قاصف، وبرق خاطف، وسيل جارف.

• **تجريده مع جماعة من الإخوان من جنسيتهم المصرية:**

وفي هذا الوقت كان سعيد في الخارج مع جماعة من الإخوان، فاتهمهم رجال الثورة بأنهم يعملون ضد وطنهم، ويقومون بأعمال مضادَّة للثورة، فجرَّدوا هؤلاء من جنسيتهم المصرية، وهم: عبد الحكيم عابدين، وسعيد رمضان، وكامل الشريف، وسعد الوليلي.

والعرب يقولون: رُبَّ ضارة نافعة. والصوفية يقولون: كم من محنة في طيِّها منحة. والله تعالى يقول: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

فإنَّ هذا القرار الظالم قد أعفى هؤلاء الإخوة جميعًا من الدخول في محنة (١٩٥٤م) الثانية والقاسية، واقتضى بقاءهم في الخارج، نشيطين، عاملين للإسلام.

وظلَّ سعيد في الخارج، كما ظل يصدر من سورية مجلته الشهيرة (المسلمون)، وقد جعل رئاسة تحريرها للدكتور مصطفى السباعي، الداعية والفقيه الشهير، والمراقب العام للإخوان في سورية، ثم تولَّى هو رئاستها بعد ذلك، إلى أن توقَّفت.

وكان سعيد يعتبر هذه المجلة مجلة المسلمين؛ لم يكن يرى أن يجعل الفرد أكبر همها، ولا مبلغ علمها، بل تهتم بالمسلمين في العالم، أي الأمة الإسلامية في المشارق والمغارب، وقد ساعده على ذلك معرفته ببلاد المسلمين، وسعتها، وتنوع مشكلاتها، وكثرة العلماء والأدباء والمفكرين فيها، وقدرته على مخاطبتهم، وقد جرب معهم حين كان مديرًا لمجلة (الشهاب) في عهد مؤسسها الإمام حسن البنا، وكان هو يكتب افتتاحياتها، وكثيرًا ما تكون عرضًا لفكرة جديدة أو مناقشة لموضوع مهم، أو تبيينًا لحدث كبير، كما يكتب هو بعنوان (خاطرة) في كل مرة من بنات أفكاره وخواطره الحية النابهة.

وأحيانًا يدرس بعض الموضوعات التي تستحق أن تدرس وأن تأخذ حقها في المجلة، وأحيانًا يشارك في الكتابة عن بعض العلماء والدعاة والرجال الصالحين الذين بدأهم شيخه البهي الخولي بالإمام أحمد بن حنبل في باب مع العارفين، واستمر فيها بعض الوقت وتركها بعد ذلك لسعيد.

- **إنشاء المركز الإسلامي بسويسرا:**

ثم أنشأ (المركز الإسلامي) في جنيف بسويسرا، بمعاونة من السعودية وغيرها.

وفي هذه الفترة اتَّهمت السلطات المصريّة سعيد رمضان ومعه مجموعة

بتهمة إعداد مؤامرة ضد مصر، وإعلان الانقلاب عليهـا. وكانت هذه التهمة الملفقة (حبل النجاة) من الاعتقال والتعذيب، ومعاناة محنة (١٩٥٤م).

• **مزايا سعيد رمضان:**

كان سعيد رمضان يتمتع بجملة مزايا قلَّما تتوفَّر لكثير من الدعاة، بعضها هبات من الله تعالى يمنحها من شاء من عباده، وبعضها مكتسبة يحصِّلها المرء بالسعي وجهاد النفس وبذل الجهد، ومن جد وجد، ومن زرع حصد.

من هذه المزايا:

أولًا: بشاشة وجهه، وابتسامته الدائمة، وشخصيته الجاذبة، بلا تكلف ولا افتعال. وهو ما جعله قريبًا محببًا إلى الناس، ولا سيما الشباب.

ثانيًا: لباقته وحضور بديهتـه في الحوار والرد على الأسـئلة المحرجة، والإجابة المقنعة، أو حسن التخلص منها.

ثالثًا: فصاحة لسانه، وقوة تأثيره في خطابته، وشد الجماهير إليه.

رابعًا: قوة عاطفته، وحيوية مشاعره، التي تنتقل منه إلى سامعيه، فتجعله يَبكي ويُبكـي، ويتأثَّر ويؤثر، وخصوصًا إذا تحدث عـن الجانب الرباني في الإسلام، أو عن شخصية الرسـول ﷺ، أو تحدث عن الشخصيات الإسلامية المؤثرة.

خامسًا: قربه من الإمام الشهيد، وثقة الإمام به، حتى إنه كلَّفه بمهام كبيرة على صغر سنه.

سادسًـا: اتصاله بالدعوة ورجالها، ونشاطه فيها منذ عهد مبكر من عمره. فكان تلميذ الأستاذ البهي الخولي، قبل أن نتتلمذ نحن عليه.

سـابعًا: رحلته إلى أقطار شـتَّى، وتعرُّفه على كثير مـن رجالات العالم الإسلامي، وخصوصًا العاملين للدعوة الإسلامية والبعث الإسلامي.

ثامنًا: قدرته على الاتصال بالشخصيات الكبيرة في العالم العربي والإسلامي، وتأثيره فيهم، واستفادته من ذلك لصالح الدعوة. كاتصاله بالمملكة العربية السعودية، وبرجالها وعلمائها، وبرابطة العالم الإسلامي الذي كان له دور في تأسيسها.

- **انكماشه في العقود الأخيرة من عمره:**

غير أن الذي يعجب له المراقب لحياة سعيد ومسيرته ـ ويأسف له أيضًا ـ أنَّ هذه الحيوية الهائلة، لم تستمر في فَيْضها وعطائها بقوة كما كانت، فقد قلَّ نشاطه المعهود والمرتجى فيه، إلى حد كبير. لقد ظلت هذه الشخصية الثرية تدعو وتعطي، ولكن ليس بالقدر الذي كان يُتَوَقَّع منها، والذي يكافئ ما لديه من مواهب، ويتلاءم مع تاريخه الحافل والدافق بالخير والعطاء.

وربما كان لإقامته في أوربة أثرٌ في ذلك، ولكنْ هناك كثيرون أقاموا في أوربة، وفي أمريكة، ولم يمنعهم ذلك من مواصلة الفيض، واستمرار العطاء.

وقد فسَّر بعضنا بأنَّ الرجل قد تفرَّغ للتأمُّل والكتابة، فلم يعد يهمه الكلمة المرتجلة، بل همه الكلمة المكتوبة. وهذا يمكن أن يكون عذرًا مقبولًا، لو أننا قرأنا للرجل كتبًا ذات بال، أصدرها خلال تلك المدة.

حتى قال بعض إخواننا: كأنَّ عينًا أصابت الرجل، فلم يعد تلك الشعلة المتوهِّجة التي كانت تشعُّ نورًا، وتقذف نارًا.

على كلٍّ حال، حَسْبُه ما قدَّمه في شبابه، ممَّا يندر أن يقدِّمَه مثله، وعسى أن يعوِّض ذلك أبناؤه في شبابهم، فينهضوا بما لم ينهض به أبوهم في شيخوخته. ونحن نجد في ابنه الداعية المثقف النشيط الذي يجيد التحدث والكتابة بالعربية والإنجليزية، ويحضر المؤتمرات، ويشارك في الندوات، ويؤلف الكتب، ويشارك معنا في قطر في رئاسة مركز (الأخلاق) الذي شاركناه في تأسيسه، واختيار رجاله، وأهدافه وموضوعاته.

وقد سـعدت بلقاء أخيه البكر الأكبر في قطر، وعرفني أنه التقى بي في مصر في وداع والده، وسلم علي، وكان مثل والده في الظرف واللطف.

رحم الله سـعيد رمضان، وغفر له، وتقبَّله في الصالحين، وجزاه عن دينه ودعوته وأمته، خير ما يجزي به الدعاة العاملين، والمجاهدين الصادقين. وأن يحشره مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

* * *



الأستاذ عبد الحليم أبو شقة

راهب العلم والفكر والدعوة

رجل فقدناه، والرجال قليل

(١٣٤٣ ـ ١٤١٦هـ = ١٩٢٤ ـ ١٩٩٥م)

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] صدق الله العظيم.

فقدت الحركة الإسلامية، والصحوة الإسلامية، بل الأمة الإسلامية: أحد الرجال الأفذاذ، الذين عاشوا حياتهم لله، ونذروا أنفسهم ومواهبهم وملكاتهم لله تعالى، ولنصرة دينه، والنهوض بأمته. من الذين آثروا أن يعملوا في صمت، يبنون في هدوء، ويشاركون في صنع التاريخ، بعيدًا عن الصخب الذي يصك الأسماع، والبريق الذي يخطف الأبصار، ونصب أعينهم قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٣ ـ ١٦٢].

إنه أبو عبد الرحمٰن الأستاذ عبد الحليم أبو شقة، الذي وافاه أجله صباح الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر (١٤١٦هـ)، الثامن عشر من سبتمبر (أيلول) (١٩٩٥م).

لقد عرفته عن قرب، فعرفت فيه مجموعة من المكارم والفضائل، قل أن تجتمع في إنسان.

لقد عرفت فيه رجلًا سلفي العقيدة، نقي الإيمان، لا تعرف الخرافة ولا الشركيات إلى عقله سبيلًا.

عرفته ربانيَّ الأخلاق والسلوك، فهو قوي المراقبة لربه، شديد المحاسبة لنفسه، طويل الوقوف بين يدي مولاه، يطيل الركوع والسجود تلذذًا بالمناجاة.

ومع هذا يرى أن الإسـلام ينكر الرهبانية المبتدعة، والصوفية المنحرفة، ويقرر أن ليس هناك تعارض بين الطموح إلى السمو الروحي وبين تناول متع الحياة الدنيا المشروعة، بل هناك تكامل وتوازن.

عرفته عن قرب واتصال وثيق بين أسـرتي وأسـرته، فعرفت فيه الزوج الكريم مـع أهله، والأب البار بـأولاده، والقريب الوصـول لقرابته، والجار المحسن لجيرانه، والأخ المؤثر لإخوانه، والوطني الغيور على وطنه، والعربي الحريص على عروبته، والمسـلم الصادق في إسـلامه، والإنسان الكريم في إنسانيته.

عرفته رجلًا سـليم الصدر لا يحقد على أحد، ولا يضمر لأحد غلًّا ولا شـرًّا.. عف اللسـان، لا ينطق بكلمة فحش لا جدًّا ولا هزلًا، ولا يذكر أحدًا بسـوء لا حضورًا ولا غيبةً.. سـخي النفس لا يضن بجهد ولا مال في سبيل الحق الذي يؤمن به، حييًا يخجل مـن أي نكتة خارجة، ويحمر وجهه خجلًا من أي كلمة منكرة، يهوى النقاش العلمي ويسعى إليه ويحرض عليه، ولكنه لا يطيق جو المراء والجدال ولدد الخصومة، وإذا سخن الجو في معركة جدلية آثر الانسحاب.

عرفته مربيًا بالفطرة والدراسـة والخبرة، يحمل أبدًا روح الأبوة الحانية، والإيجابية البانية، والأستاذية الهادية، مجاهدًا في سبيل الحق والخير والهدى، لا يدخر وسـعًا، ولا يبخل بجهد ولا بنفس ولا مال لنصرتها، ذا ملكة نقدية تكتشف العوج بيسر، وتلاحظ الخطأ بسهولة، ولكنها تحاول العلاج، وتجتهد في التقويم.

عرفته متسامحًا سـهلًا، هينًا لينًا، يكره العنف، وينكر الغلظة والفظاظة، ويدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل بالتي هي أحسن، ويؤمن بالتفاهم والحوار مع الآخر، أيًّا كان خلافه، في السياسـة أو الفكر أو العقيدة، ويعجبه

أسلوب الجماعة الإسـلامية في باكستان في رفضها الاستراتيجي للعنف بأي طريقة.

وهو ـ مع هذه السـماحة والسهولة ـ يحمل قلبًا يشـتعل غيرة على دينه ووطنه وأمته، وعقلًا يتوهج تفكيرًا في مخارج لها من أزمتها، وإرادة صلبة لا تلين في مواجهة الباطل.

لقد عرفت الأستاذ عبد الحليم اسـمًا منذ ما يقارب نحو نصف قرن، ثم رأيته وجهًا من أكثر من أربعين سـنة[1] في منزل العلَّامة المعروف الأسـتاذ محمود محمد شـاكر، وقد كان يلقي بعض الدروس على نخبة من شـباب الحركة الإسلامية، ولم يكن إلا اللقاء والمصافحة.

ثم عرفته عن كثب منذ أعرت إلى قطر سنة (١٩٦١م)، وكان قد سبقني إليها بسنوات، فهو من الرعيل الأول الذين أسهموا في تأسيس النهضة التعليمية في قطر، في رحاب الدوحة الفيحاء، تعارفنا وتآلفنا نحن وزوجاتنا وأولادنا، وكلما مضى الزمن ازدادت صلتنا توثقًا، كنا نلتقي باستمرار هو رَحِمَهُ اللَّهُ والإخوة: أحمد العسال، وحسن المعايرجي، ومصطفى الأعظمي، وانضم إلى المجموعة بعد عودته من لنـدن: الدكتور عز الديـن إبراهيم، نلتقي لنتشـاكى هموم الأمة، ونتدارس شؤون الفكر، وشجون الدعوة، ومسائل الساعة، وقضايا المصير.

وكان عبد الحليم أبدًا الرجل الهادئ الحكيم الذي يحمل الأمل في ساعة اليأس، ويبشر بالفجر في حلكة الليل، ولا ييئس من رَوْح الله أبدًا، وهو الرجل المتمسك بالحق لا يحيد عنه، ولا يبيعه بالباطل، بفتوى يفتيها لنفسه، بل كان ـ مع تسامحه مع الناس ـ شديدًا على نفسه.

زارنا في أوائل السـتينيات في الدوحة الداعية الكبير السـيد أبو الحسن الندوي، وجلسنا معه جلسة روحية دعوية شفافة، وكان فيما قاله لنا: إنه نصح

---

(١) وقت كتابة هذه الترجمة.

أحد الدعاة المشـــاهير في ذلك الوقت أن يتجنب الطريق التي يســـلكها فإنها خطرة، وقال الشـــيخ: لقد قلت له: ابتعد عن هذه السفينة، فإنها ستغرق! وهنا قال الأخ عبد الحليم: وهل ستنجو هذه السفينة ولن تغرق؟ هل ركوبها صحيح ومشروع في الأصل أو لا؟.

وهنا عرفت أن هذا الرجل رجل مبادئ وقيم، وليس رجل مكاسب ومصالح.

ولقد كان مديرًا لمدرسة الدوحة الثانوية، وكان معه أحد إخواننا المعلمين الأكفياء، فكان تقريره عنه أنه رجل بناء، لا يجد فكرة تبني وتنشئ إلا تبناها وتعهدها، واجتهد بعقله وعزمه أن يحولها إلى عمل مشهود، وواقع ملموس.

وأشهد أن هذه الكلمة التي شهد بها هذا الأســـتاذ أصابت كبد الحقيقة، وأنها (توصيف) لشخصية الرجل، الذي عاش عمره يحاول أن يبني ولا يهدم، وأن يجمع ولا يفرق، وأن يقوي ولا يضعف.

لقد نشـــأ في قلب الحركة الإســـلامية الأم ـ حركة الإخوان المسلمين ـ وتتلمذ مباشرة على إمامها ومؤسسها الشهيد حسن البنا، جلس إليه، واستمع منه، وصحبه وسأله وأجابه، واقترب من كبار الإخوان، ودخل النظام الخاص، واتهم في بعض قضاياه، ودخل الســـجن، وأصابه ما أصابه من التعذيب. ولا غرو أن كان لديـــه رصيد غير قليل من التجربة فـــي العمل الحركي، وأهميته وثماره، ونواقصه أيضًا. وقد شـــكا إلى مرشده الأســـتاذ حسن البنا في أواخر حياته ما يشـــعر به من أن التنظيم الخاص يشـــكو الجفاف الروحي، وأنه في حاجة إلى دفقات روحية لترطيـــب هذا الجفاف، وأقره الأســـتاذ على قوله، ووعده خيرًا، ولكن الأحداث كانت أسرع، والقدر كان أعجل، ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

كان الفقيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعيش في دولة قطر، طيب العيش، هادئ البال، مســـتقر الحال، في مركز جيد، وبمرتب جيد، فقد كان مديرًا للمدرسة الثانوية الوحيدة

في ذلك الوقت، وكان موضع التجلة والتقدير من الجميع، ولكنه عزم وصمم على الاستقالة من عمله، وتغيير مسار حياته! فالعمل الوظيفي يستهلك وقته وجهده، وهو في حاجة إلى هذا الوقت، وهذا الجهد، للعمل العلمي، إنه يريد أن يتحرر من أعباء الوظيفة ليتفرغ لأعباء الفكر. وما ادخره من مال في تلك السنوات التي عملها في قطر يمكن توظيفه في عمل حر مناسب يشرف عليه، ولكن يكله إلى من يقوم بإدارته. وكان هذا العمل الذي اختاره قريبًا مما يشغل به نفسه، هو (النشر)، فأنشأ (الدار الكويتية) للنشر، ثم رأى أن يسميها (دار القلم)، واختار الكويت مقرًا له في أول الأمر، لما فيها من الانفتاح والتحرر والنشاط الثقافي، ثم لما تنفست مصر أنسام الحرية في أوائل عهد الرئيس السادات، رأى أن الأولى به المقام بمصر، فهي مصدر التأثير في العالم العربي، بل العالم الإسلامي كله.

كان الناس يستغربون من تصرف هذا الرجل، الذي ترك الوظيفة المرموقة، والمرتب المغري في الخليج، في حين يلهث الكثيرون هنا وهناك في سبيل الحصول على موضع ما، في تلك البلاد!..

ولكن صاحب الرسالة يفكر في غير ما يفكر فيه العامة من الناس، على أن الله قد عوضه بالعمل الحر خيرًا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

كان أعظم ما يشغله تقويم الفكر، وتصحيح المفاهيم، وتكوين حركة عقلية واعية ناقدة داخل الحركة الإسلامية، وكان هذا ما يثيره مع إخوانه المقربين منه كلما جلس إليهم أو جلسوا إليه. وكان ما يهمه أكثر هو الآليات التي يحقق بها هذا الهدف الكبير.

وكان من الوسائل التي انتهى إليها تفكيره مع مجموعة من خاصة إخوانه: إخراج مجلة فكرية عصرية ذات مستوى رفيع، تهتم بمشكلات الأمة،

وقضاياها الكبرى، وأزمة الفكر الإسلامي والحركة الإسلامية، من منطلق الشريعة والنظرة الإسلامية الأصيلة، وفي ضوء اجتهاد عصري، لا يتعصب لقديم، ولا يتعبد لجديد.

كانت هذه هي المجلة التي تمثلت في (المسلم المعاصر) فهو في الحقيقة الأب الأول لفكرتها، والذي لم يزل يدعو إلى اجتماع بعد اجتماع في بيروت، وفي الكويت، وفي غيرهما، حتى خرجت إلى حيز الوجود.

وكان له في أعدادها الأولى إسهام قوي مباشر، عرفه الناس من خلالها صاحب قلم حر وفكر مستقل وعقل نقاد، كما يتجلى ذلك في مقالتيه عن (أزمة العقل المسلم المعاصر) وعن (أزمة الخلق المسلم المعاصر).

ولخلاف في سياسة التحرير مع رئيس التحرير ترك المجلة لأخيه وصديقه الدكتور جمال الدين عطية، لأن من طبيعته ألا يعمل إلا في جو صاف من كل خلاف.

قد بدأ يكتب في عدة اتجاهات أفكارًا وخواطر متناثرة، حول (التربية) وحول (الحركة الإسلامية) وحول (العمل الفكري) من منظوره الإسلامي، ومن منطلق المعاناة والشعور بالنواقص والعوائق، والتطلع إلى الكمال.

ثم بدا له موضوع (المرأة)، وما آل إليه أمرها من الإفراط والتفريط، أو بين الجاهليتين؛ جاهلية التقليد الأعمى للآباء، وخصوصًا في عصور التخلف الحضاري، والانحراف عن الإسلام. وجاهلية التقليد الأعمى للغرب، التي تريد أن تذيب الحدود بين الرجل والمرأة، وبين الحلال والحرام، وحاجة المرأة إلى التحرر من ربقة الجاهليتين معًا، والعودة إلى الإسلام الصحيح، وإلى الكتاب والسنة لمعرفة هدي الله، ثم تنزيل هذا الهدي على الواقع المعاصر، حتى يستقيم على أمر الله، وهذا هو التجديد المنشود في قضايا المرأة.

ولقد استغرق هذا الموضوع جل جهده وفكره ووقته، وطفق يراجع في

كتب السنة جميعها فوجدها بحرًا زاخرًا، فاكتفى بالصحيحين، ووجد فيهما ـ مع القرآن الكريم ـ ضالته التي ينشد، لا يأخذ من غيرهما إلا أحيانًا.

وقد عاش لهذا الكتاب ما يقرب من عشرين عامًا، يقرأ ويبحث ويلاحظ ويسجل، ولا يكتب فصلًا من فصوله إلا عرضه عليّ، لأبدي ملاحظاتي عليه، وفي الغالب كان يأخذ بها أو يناقشني فيها. ولم أكن أنا وحدي الذي يشاوره في ذلك، فهناك أكثر من واحد، ولكنه كان يقول: مراجعتهم مستحبة، ومراجعتك واجبة.

وخرج الكتاب بأجزائه الستة، موسوعة إسلامية معاصرة في قضايا المرأة، وسماه (تحرير المرأة في عصر الرسالة) يرد بذلك على مؤلف (تحرير المرأة)، وهو قاسم أمين، كأنما يقول له: إن المرأة قد حررتها رسالة الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا.

وكان للكتاب صدًى واسعٌ في الأوساط العلمية والإسلامية المختلفة في مصر، وفي العالم العربي كله، بل وفي العالم الإسلامي على امتداده، وكتبت عنه المجلات والصحف، وعقدت ندوات بشأنه شاركت في بعضها، وكان الكتاب مفاجأة للكثيرين ممن لم يعرفوا مؤلفه من قبل عن كثب. أما الذين عرفوه فقد علموا أن الشيء من معدنه لا يستغرب ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وبعد صدور الكتاب لم يأل الأستاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يستمع إلى ملاحظات القراء والدارسين، وأن يسعى بنفسه إلى كل من عنده ملاحظة على الكتاب ليناقشه فيها، وهو مستعد ـ إن ظهر له الحق ـ أن يرجع عن رأيه وهو راض كل الرضا، وهو صادق في ذلك فيما علمتُه عنه.

وكم أسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإخوة السلفيين رفضوا كتابه رفضًا كليًّا، وحاول أن يلقى بعضهم ليحاورهم في المسائل التي يخالفونه فيها، فأبوا أن يلقوه مجرد

اللقاء، وأن يسمحوا بمجرد قراءة الكتاب، وقد علق على ذلك الشيخ الجليل علي الطنطاوي بأنهم بهذا يرفضون القرآن والبخاري ومسلمًا، فليس في الكتاب أكثر من هذا!.

وبلغه أن أحد الإخوة من العلماء الدعاة المعروفين لديه ملاحظات على الكتاب فأرسل إليه يطلب لقاءه أين شاء، ومتى شاء، ليستمع منه إلى ملاحظاته، وكان ذلك في هذا الصيف، ويبدو أن هذا اللقاء لم يتم.

واقترح عليه كثيرون أيضًا أن يختصر الكتاب، حتى يسهل على الكثيرين اقتناؤه، وتسهل قراءته أيضًا، ففعل ذلك، وأخرج منه ثلاثة أجزاء، وأحسب أن الأجزاء الباقية مهيأة للطباعة والله أعلم.

ولكنه في لقاء قريب معي قال: إن هذا الاختصار في حاجة إلى اختصار أيضًا، ليخرج كل جزء في رسالة صغيرة.

ولعل بعض أحبائه وتلاميذه ومنهم هبة رؤوف عزت تقوم بهذا الأمر، وتحقق للفقيد أمله في قبره رَحِمَهُ اللَّهُ.

كان يقول: أريد أن أنهي موضوع المرأة وأغلق ملفه إن أمكن، لأتفرغ للقضايا المهمة الأخرى. وخصوصًا قضايا الدعوة الإسلامية، والحركة الإسلامية. وعنده فيها أشياء وأفكار وأطروحات، بعضها مكتوب في صورة مسودات، وبعضها خواطر قد تكون مرتبة أو متناثرة في القرطاس، أو أفكار مركوزة في الرأس.

وقد عرض بعض هذه المسودات على عدد من إخوانه، وأنا منهم، كما عرض بعض الأفكار في (مركز الدراسات الحضارية) وقد ناقشناه في أفكاره، وطلبنا إليه أن يعرضها بصورة أوسع، وبعد دراسة المحقق، في ندوة أكبر، فوعد بذلك.

ومن هذه الأفكار أن شمول الفكرة لا يستلزم شمول الحركة، وأن الخير للحركة الإسلامية أن تتفرغ للعمل الدعوي والتربوي وتحسينه، وتعمل على إنشاء الجيل المؤمن المنشود حقًّا، وأن يقوم بالسياسة حزب ولاؤه للإسلام، تؤيده الحركة، ولكنها ليست مسؤولة عنه، فإن للسياسة رجالها، وللدعوة والتربية رجالها، وكل ميسر لما خلقه الله.

المهم أن الرجل كان رجل إصلاح وبناء، وكان عقله ولودًا، يلد الأفكار الإيجابية البناءة، وكان عنده من الإرادة والصبر والمتابعة ما يجعله يجتهد في نقل الأفكار إلى أعمال.

وكان لا يسمع بفكرة جيدة إلا شجع صاحبها، ولا يقرأ مقالة أصيلة في مجلة، إلا كتب لصاحبها، يشد على يديه، وربما ذهب لزيارته في بيته وهنأه على مقالته، وسأله المزيد والاستمرار في هذا الاتجاه.

ولا يسمع بشاب نابه ذي فكر ورأي، إلا فتح له بيته ومكتبته، وفتح له صدره وقلبه، وقد يساعده ماديًّا إن احتاج إلى مساعدة، دون منٍّ ولا أذى، بل دون أن يعلم أحد.

وكان جهده ـ غير المنظور ـ وراء البيان الذي أصدره الدكتور أحمد كمال أبو المجد، معلنًا فيه عن ميلاد تيار إسلامي جديد، له توجهاته وخصائصه، وقد ترك بصماته عليه في أكثر من موضع، وأشار إلى ذلك صاحب البيان حفظه الله وإن لم يذكر أسماء.

وكان من مظاهر اهتمامه بالعمل الفكري العمل على تكوين جمعية رسمية تتفرغ لهذا الأمر، وتعطيه حقه من الوقت والجهد، والتأمل والدراسة، وتجمع صفوة المهتمين بهذا الأمر. وهي التي تقوم ببحث القضايا الكبيرة، التي تفتقر إليها الحركة الإسلامية في مسارها، فهي تأخذها منها مدروسة مبلورة مصفاة، وعليها تبني سياساتها وقراراتها، وتعد مناهجها وأنظمتها.

كما أنها تبصر الأمة في قضاياها المصيرية، وتعمل على توحيد المفاهيم الكبرى ما استطاعت، وقد جمع لهذه الجمعية عددًا من المؤسسين من رجال العلم والفكر المشغولين بهموم هذه الأمة، ومسيرة الدعوة، واجتهد أن يحصل على تصريح بإقامتها في مصر، فلم يوفق، فذهب إلى أمريكا وأوربة، حتى استطاع أن يسجلها في باريس باسم (جمعية تجديد الفكر الإسلامي) على ما أذكر. وكان يبذل لهذه الجمعية من ماله وجهده، دون أن يذكر ذلك لأحد.

وقد كان يشغله أمر هذه الجمعية وتنشيطها إلى حد كبير، وتحدث معي في ذلك، ومع الأخ الدكتور أحمد العسال، ومع الأستاذ فهمي هويدي، والدكتور سيد دسوقي، وكثير من مؤسسي الجمعية، وقد زارني قبل رحلتي الأخيرة إلى أمريكا في أول سبتمبر (أيلول) من أجل هذه القضية خاصة.

قال: لا بدَّ أن تضع يدك في يدي لنعمل على تنشيط الجمعية، حتى تقوم بواجبها، وتحقق ما نرجوه منها، ولا بدَّ أن يفرغ لها بعض الرجال القادرين تفريغًا كاملًا، وبعضهم نصف تفريغ، وبعضهم قابل، وبعضهم يحتاج إلى سعي لإقناعه. وأشار إلى بعض الأسماء المرشحة، وقال: بدون التفريغ لن تنهض الجمعية بالعبء المنوط بها، ووعدته أن نتابع الموضوع بعد العودة من رحلة أمريكا.

ولقد كان ينتهز فرصة الإجازة الصيفية وحضوري وأمثالي إلى القاهرة لنلتقي باستمرار، ونتحدث في مشروعات المستقبل، وخاصة ما يتعلق بالفكر والتربية والثقافة.

وفي هذه الإجازة كانت عنده مشروعات طموحة، وآمال كبيرة، وأفكار حية، وجلسنا عدة مرات نتجاذب أطراف الحديث حولها، وإن كانت المتاعب الصحية قد بدأت تقلقه أكثر من ذي قبل.

وكان أهم ما يميزه هو روح التفاؤل والأمل التي لا تفارقه، وبالرغم من جؤارنا وصراخنا من الضربات الهائلة التي تكال للصحوة الإسلامية، ورغم

المكايد الجهنمية التي تكاد للحركة الإسلامية، وبالرغم من الهجمة الشرسة التي هُجم بها على الأمة الإسلامية من شمال وجنوب، ومشرق ومغرب، وبالرغم مما يعانيه الإسلام من جهل أبنائه، وغياب علمائه، وكيد أعدائه، وفساد أمرائه، وشح أغنيائه، وبالرغم من هذا كله، كان يقول: لا تحزن ولا تقنط، إن الصحوة غدت حقيقة واقعة، وإن أحدًا لن يستطيع أن يطفئ الشمس، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢]، يقول ذلك بثقة الموقن، ويقين الواثق، فتنتقل إليك الطمأنينة، وتحل في قلبك السكينة.

ومع هذا كان يحس بأن المنطقة كلها مقبلة على مرحلة من أخطر مراحل التاريخ، وأن الأمة الإسلامية في حاجة إلى أن تجمع كل قواها لتواجه الخطر، وأن الخلافات الإيديولوجية لا ينبغي أن تنسينا الوقوف في وجه هذا الخطر الزاحف بل الماحق، وأن كل عمل لتقريب (القوى الوطنية) بعضها مع بعض مطلوب شرعًا في هذه المرحلة، قال: وأنا أستخدم تعبيرك هنا (فريضة وضرورة)، قلت له: أنا أؤيد هذا، وقد شاركت في المؤتمر القومي الإسلامي الذي عقد في بيروت في أكتوبر (تشرين الأول) الماضي (١٩٩٤م) كما شاركت في بيان لجنته التحضيرية من الجانب الإسلامي.

وكان من الأفكار التي طرحها رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عقد ندوة أو (صالون ثقافي) يجمع بين الإسلاميين والقوميين والليبراليين وغيرهم من كل حريص على مصلحة الوطن ومصير الأمة.. وكان قد اقترح على الدكتور أحمد كمال أبو المجد أن يتبنى هذه الفكرة، وأن يكون ذلك في بيته. ولكنه قال: إن مشكلة الدكتور أبو المجد هي مشاغله وأسفاره التي لا تكاد تنتهي. واقترحت عليه أن تعرض الفكرة على الدكتور محمد سليم العوا فبيته مناسب، ولقد استقبل مثل هذا اللقاء قريبًا فيه. فقال: إنه عرضها على الأستاذ فهمي هويدي، ورحب بها، ومن دقته المعهودة زار بيت الأستاذ فهمي وأراه المكان ومدى سعته، ورآه مناسبًا، ولم يبق إلا التنفيذ، وهذا عرفته من الأستاذ فهمي.

وبعد عودتي من أمريكا زارني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المنـــزل، فوجدني متوعكًا، فقد أصبت بنزلة برد في أمريكا ما زلت أعاني من أثرها، فلم يطل المكث معي، وخرج على أن نلتقي بعد، فلم يقدر لنا لقاء.

ولكنه بعد يومين كلمني من منزله، وقال: إنه قرأ فصل (اللهو والفنون) في كتابي (ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده) ولم يكن يحسبه بهذا المستوى من النصح والرشد والتأصيل، وأنه يوافق كل الموافقة الإخوة الذين اقترحوا أن ينشر في رسالة مفردة، فهو نفسه لم يلتفت إليه ضمن الكتاب الذي يبلغ أربع مئة صفحة، بل إنه يرى اتباع هذا الأسلوب مع كل القضايا المهمة في الكتب الكبيرة، بحيث تفصل في رسالة صغيرة الحجم، رخيصة الثمن.

كانت آخر وصاياه لي في هـــذه المكالمة: لا تدع الكلمة الرشـــيدة التي تكتبهـــا، ولا الكلمة التي تلقيها. فمن الناس من يقرأ ولا يســـمع، ومنهم من يسمع ولا يقرأ، ولا بدَّ أن تصل الكلمة الرشيدة إلى الفريقين، هذه رسالتك، أعانك الله عليها.

* * *



الشيخ محمد الغزالي
وأخيرًا هوى النجم
(١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ = ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م)

وأخيرًا هوى النجم الساطع، واندك الجبل الأشم، وطوي العلم المنشور، وغابت الشمس المشرقة، وترجل الفارس المعلم.. ومات الشيخ الغزالي.

أخيرًا فقدت الأمة الإسلامية علم الأعلام، وشيخ الإسلام، وإمام البيان ورجل القرآن.

أخيرًا أُغمد قلم كان سيفًا على أعداء الله، لم يفل له حد، طالما أرعب الملاحدة والمنافقين، وسكت لسان ظل يجلجل ويدوي خلال ستين عامًا، بالدعوة إلى الله، يحشد الناس ألوفًا ألوفًا في ساحته، ويجمعهم صفوفًا صفوفًا على دعوته.

مات الشيخ الغزالي، وهو في قلب المعركة لم يلق السلاح، ولم يطو الشراع، بل ظل يصارع الأمواج، ويواجه العواصف التي هبت من يمين وشمال على سفينة الإسلام، تريد أن يبتلعها اليم، وأن تغرقها الرياح الهوج.

فقد نشرت وكالات الأنباء أن الشيخ أصيب بأزمةٍ قلبيةٍ حادَّة، وهو يحاضر في ندوة: (الإسلام والغرب) التي عقدت في الرياض، لقد سقط الفارس والسيف مسلط في يده! وأحسبه من (الشهداء) إن شاء الله، فقد مات وهو يدعو ويدافع عن الإسلام، كما مات غريبًا.

كنت أعلم أن الشيخ الغزالي مصاب بجلطة منذ سنوات، وأن أطباءه نصحوه وأكدوا عليه ألا يسافر، لأن صحته لا تحتمل متاعب السفر، ولكن

الشيخ لم يكن يسعه إذا دعي إلى عمل إسلامي أن يرفض، ويقول: إن الكريم لو دعي إلى طعنة لأجاب!.

ولهذا سافر منذ عدة أشهر إلى أمريكا ممثلًا لمجمع البحوث الإسلامية.

وفوجئت حين قرأت في الأسبوع الماضي حضوره مهرجان الجنادرية الثقافي بالرياض، ليشارك في ندوة عن (الإسلام والغرب)، مع أن الشيخ أرسلت إليه دعوات كثيرة من عدة أقطار ـ خصوصًا من الخليج ـ تلح عليه أن يساهم ببعض المحاضرات في ليالي رمضان، ولكنه اعتذر بلطف للجميع.

ويبدو أن الله تعالى قدر له هذا السفر لأمر يعلمه سبحانه، وهو أمر يحبه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ ذلك أن يكون مثواه الأخير بالقرب من مثوى رسول الله ﷺ ومسجده الشريف، بمدافن البقيع بالمدينة المنورة، التي ألف فيها كتابه القيم (فقه السيرة) ودمعه يختلط بالمداد تأثرًا وحبًّا للرسول الكريم، وما كان يتاح له هذا إلا بمثل ما حدث، والله غالب على أمره.

وقد أخبرني صديقه وصديقي الأستاذ الدكتور محمد عمر زبير الذي حضر جنازته ودفنه بالمدينة: أن قبره في موضع متميز، قريب جدًّا من قبر الإمام مالك، وقبر الإمام نافع أحد القراء السبعة، رضي الله عنهم جميعًا.

لقد عرفت الشيخ الإمام منذ نحو نصف قرن؛ فعرفت فيه العقل الذكي، والقلب النقي، والخلق الرضي، والعزم الأبي، والأنف الحمي، عرفت الغزالي فما عرفت فيه إلا الصدق في الإيمان، والسداد في القول، والإخلاص في العمل، والرشد في الفكر، والطهارة في الخلق، والشجاعة في الحق، والمعاداة للباطل، والثبات في الدعوة، والمحبة للخير، والغيرة على الدين، والحرص على العدل، والبغض للظلم، والوقوف مع المستضعفين، والمنازلة للجبابرة والمستكبرين، مهما أوتوا من قوة.

عرفت الشيخ الغزالي فعرفت رجلًا يعيش للإسلام وللإسلام وحده،

لا يشرك فيه شـيئًا ولا يشـرك به أحدًا، والإسلام لحمته وسـداه، ومصبحه وممساه، ومبدؤه ومنتهاه. عاش له جنديًا، وحارسًا يقظًا، شاهر السلاح، فأيما عـدو اقترب من قلعة الإسـلام يريـد اختراقها، صرخ بأعلـى صوته، يوقظ النائمين، وينبه الغافلين، أحسبه كذلك والله حسيبه ولا أزكيه على الله تعالى.

قد تختلف مع الشـيخ الغزالي في قضية أو أكثر، وقد تنقده في بعض ما ذهب إليه من آراء، ولكنك لا تستطيع أن تشك في صدقه وإخلاصه وغيرته، وهو على كل حال مجتهد في فهم دينه وفي خدمته بالطريقة التي يراها أصلح وأصوب، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد.

لقد ترك الشيخ الغزالي بصمات واضحة على العقل الإسلامي، لا يمحوها اختلاف الليـل والنهار: بما ألف من عشـرات الكتب، وما أنشـأ من مئات المقالات، وما أقام من آلاف الدروس والخطب والمحاضرات، وما أذيع له من أحاديث لا تحصر في الإذاعات والتلفازات.

كما كان للشيخ تلاميذ وطلاب تلقوا عنه العلم في الجامعات التي عمل فيها: في الأزهر في مصر، وفي أم القرى في مكة، وفي كلية الشريعة في قطر حيث سعدنا به فيها لمدة ثلاث سنوات، وفي جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في الجزائر، التي بقي فيها خمس سنوات متصلة.

لقد لقن الشيخ طلابه الموازنة بين العقل والنقل، وبين الأصول والفروع، وبين الدين والدنيا، ولم ينسـق وراء الذين يريدون أن يبطلوا النصوص باسم المصالح، ولا الذين يريدون أن يرفضوا المنقول باسـم المعقول، ولا الذين يريدون أن يقيموا حربًا بين الإسـلام والعصر، أو بين الإسـلام والتطور، إنه يقول للذين يطالبون الإسلام أن يتطور: لماذا لا تطالبون التطور أن يسلم؟!..

قد يأخذ الناس على الشيخ الغزالي بعض آرائه وفتاويه، لأنها ليست على مشربهم، ولكن الذي أعلمه أن الشيخ الغزالي لم يخرج في فتوى أو رأي على

إجماع الأمة المستيقن. وقد بينت ذلك في كتابي عنه، وقد اتهم شيخ الإسلام ابن تيمية قديمًا بأنه خرق الإجماع في قضايا الطلاق وما يتعلق به. وهي التي قال فيها تلميذه الحافظ الذهبي: وله فتاوى نيل من عرضه بسببها، وهي مغمورة في بحر علمه.

وأنا أقول: إن هذه الفتاوى التي أوذي من أجلها ابن تيمية وأدخل فيها السجن ومات فيه، هي المعتمدة الآن لدى كثير من أهل الفتوى، وهي التي أنقذت الأسرة المسلمة من الانهيار.

لقد صدع الشيخ الغزالي بما يرى أنه الحق، ولا يسع عالمًا يخشى الله ألا يفعل ذلك، ما دام من ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

ربما كان في عباراته ـ في أحيان قليلة ـ بعض الحدة، وما ذلك إلا أثر من آثار الحرارة التي تتوقد في صدره، فهو لا يطيق العوج، لا من المسلمين ولا من غيرهم، فإذا رأى عوجًا تأجج قلبه نارًا، يظهر على ثمرات قلمه ولسانه.

قد عاش الشيخ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عمره كله محاربًا للقوى المعادية للإسلام في الداخل والخارج، والتصدي لتياراتها، والعمل على هدم أوكارها، وهتك أستارها، وكشف عملائها، وهو هنا مقاتل عنيد، لا يستسلم ولا يطأطئ، ولا يلين يومًا.

وقف في وجه الاستعمار، وكشف عن حقيقته ودوافعه، وأنها (أحقاد وأطماع).

وفي وجه الصهيونية، التي اغتصبت الأرض المقدسة وشردت الأهل، وخططت لهدم المسجد الأقصى وإقامة هيكل سليمان على أنقاضه.

وفي وجه التنصير، الذي يريد أن يسلخ المسلمين من عقيدتهم، ليصبح المسلمون عبيدًا للصليبية الغربية.

وفي وجه الشيوعية التي سماها (الزحف الأحمر) ونبه على خطرها من قديم، واكتساحها للجمهوريات الإسلامية في آسية.

وفي وجه الحضارة المادية وإباحتها الجنسية، وعصبيتها العنصرية، ومحاولتها للسيطرة الإمبريالية، وإن لم ينكر ما فيها من عناصر إيجابية يمكن الاستفادة منها.

وفي وجه العلمانية اللادينية، التي تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض، تريد الإسلام عقيدة بلا شريعة، وسلامًا بلا جهاد، ودينًا بلا دولة، واتباعًا أعمى للغرب «**شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع**».

وقد بدأ الشيخ هذه المعركة من قديم، حين رد على صديقه الشيخ خالد محمد خالد في كتابه (من هنا نعلم) ولكنه لم يَقْسُ عليه، وكان يظن به خيرًا، وأنكر على الأزهر حين فكر بعضهم أن يجرد الشيخ خالدًا من شهادة العالمية، وقد صدقت الأيام ظن الغزالي، وعاد خالد إلى رحاب الإسلام الذي نشأ في ظله، وتربى في أحضانه.

وبقدر لين الشيخ الغزالي مع الأستاذ خالد، كان نارًا تكوي وتحرق، على العلمانيين المعادين علنًا لشريعة الإسلام، وهو يقول: لماذا لا نسمي هؤلاء باسمهم الحقيقي؟! إنهم المرتدون!.

لقد عرفت الشيخ الغزالي عن كثب، عرفته في معتقل الطور، وعرفته بعد المعتقل، وعايشته وصحبته في السفر والحضر.

وقد وجدت الشيخ الذي يشتد ويحتد في نزاله الفكري، فيهدر كالموج، ويقصف كالرعد، ويزأر كالليث، حتى إنك لتحسبه في بعض ما يكتب مقاتلًا في معركة، لا مجادلًا في قضية، وتحسب القلم الذي في يده، كأنما السيف أو الرمح في يد ابن الوليد: وجدته ـ عن كثب ـ إنسانًا رقيق القلب، قريب الدمعة، نقي السريرة، صافي الروح، حلو المعشر، كريم الخلق، باسم الثغر، موطأ

الأكناف، عذب الحديث، سريع النكتة، بسيطًا متواضعًا، هينًا ليِّنًا، بعيدًا عن التكلف والتعقيد والتظاهر والادعاء، تسبق العبرة إلى عينيه إذا سمع أو رأى موقفًا إنسانيًا، ويهتز خشوعًا وتأثرًا إذا ذكر الله والدار الآخرة، ولا يأنف أن يتعلم حتى من تلاميذه، يعترف لكل ذي موهبة بموهبته، لا يحسد ولا يحقد، يكره الظلم والتسلط على عباد الله؛ يقول بصراحة: لا أحب أن أتسلط على أحد، ولا أن يتسلط عليّ أحد.

لقد عاش الشيخ الغزالي حياته كلها حر الفكر والضمير، حر القلم واللسان، لم يعبد نفسه لأحد إلا لربه الذي خلقه فسواه، لم يبع ضميره ولا قلمه لمخلوق كان. وكم حاول أصحاب السلطان أن يشتروه، ولكنهم لم يقدروا على ثمنه، وكيف يمكن أن يُشترى من يريد الله والجنة؟! ولقد لُوِّح له بالمناصب التي يسيل لها لعاب الكثيرين من عبيد الدنيا، ولكن الشيخ لم تلن له قناة، ولم يغره وعد، كما لم يثنه وعيد. لقد كان يتمثل بالشافعي رضي الله عنه وهو يقول:

أنا إن عشتُ لستُ أعدمُ قُوتًا ... وإذا متُّ لستُ أعدمُ قبرا

هِمَّتي هِمَّةُ الملوكِ ونَفْسِي ... نفسُ حرٍّ ترى المذلَّةَ كفرا

ومما يذكر للشيخ الغزالي هنا: أنه رفض الخضوع لأهواء العوام، كما رفض الخضوع لسلطة الحكام. وكتب مرة مقالة يقول فيها: أهواء العامة لا تهادن. ولم يحاول أن يزايد بإرضاء الجماهير، على حساب ما يراه حقًّا في دينه، كما يفعل ذلك بعض (الأدعياء) الذين يحسبهم الناس (دعاة)، وما أعظم الفرق بين الدعاة والأدعياء!.

لقد مات الشيخ الغزالي، ولكن أفكاره لم تمت، إن الأفكار لا تموت بموت أصحابها، إنها لم تزل حية ناطقة في كتبه الأصيلة المتميزة، التي انتشرت في المشارق والمغارب، وطبعت مرات ومرات، وترجم كثير منها إلى

عدد من اللغات، وفي تلاميذه المنتشـــرين في أنحـــاء العالم، الذين يحملون دعوته، ويتبنون رسالته.

لقد ألفت كتابًا عن شيخنا الغزالي كما عرفته، خلال نصف قرن في (٢٨٦) صفحة، وقد نشـــرته صحيفة الشـــرق القطرية، على ثلاثين حلقة، خلال شهر رمضـــان (١٤١٥هـ)، ثم نشـــرته دار الوفاء في مصر، وقـــد ظهر خلال معرض الكتاب الدولي في القاهرة، ولا أدري هل قدر للشيخ أن يراه بعد صدوره أو لا؟[1] وهو بعض ما للشـــيخ من حق علي وعلى أمثالـــي ممن انتفعوا بعلمه، واقتبسوا من ضيائه.

ليس هذا الكتاب تاريخًا للغزالي، فلا أزعم أني أملك كل أدوات المؤرخ، ولا أملك المعلومات الكافية لمثل هذا العمل، وأنا أعلم أن الشـــيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قد كتب قصة حياته، وكنت أدعو الله أن يمد فـــي عمره في عافية وتوفيق وبركة، حتى يضيف إلى كتابه فصولًا وفصولًا، ولكن أجل الله إذا جاء لا يُؤخَّر.

كما أرجو أن يوفق الله بعض أبنائنا الدارسين في أقسام الدعوة وغيرها أن يقدموا في أطروحاتهم العلمية دراســـات إضافية عن الشـــيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وعطاءاته الخصبة والمتنوعة، بما يليق بمكانة الشيخ العلمية والدعوية والإصلاحية.

وقد قلت في مقدمة ذلك الكتاب:

ما أقدمه اليوم إنما هو ذكريات وخواطـــر وأفكار، تحاول أن تقدم صورة للشيخ الإمام، صادرة من معرفتي به، ومعايشتي له، وقراءتي وسماعي له، نحو نصف قرن من الزمان.

---

(١) عرفت من سكرتير الشيخ الخاص: أن الشيخ كان حفيًا بالكتاب، وأنه سر به غاية السرور، وكان قبل سفره الأخير إلى الســـعودية يطلب منه أن يقرأ عليه كل يوم عدة صفحات، فقرأنا نحو نصفه، واصطحبه الشيخ معه في رحلته إلى الرياض، وكان من متعلقاته والأشياء التي وجدت معه بعد وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ.

أجل لســت أؤرخ للغزالي فما أنا بالمؤرخ، ولكني أشير إلى ملامح من حياته وسيرته، عرفتها عن معايشة وقرب، ولا أزعم أني رسمت له صورة بينة الملامح، فما أنا من يحسن الرسم.

وربما قيل: إنك تكتب بقلم المحب لا بقلم الناقد، وأنا أشهد أني أحب الغزالي وأتقرب إلى الله بحبه، ولكني لم أعْدُ الحق فيما خط قلمي، ولا ينبغي أن يغمط الإنســان من يحب، فرارًا أن يتهم بالتحيز، فالعدل يحكم القريب والبعيــد، والصديــق والعــدو ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وإني لأنكر على الإسلاميين أنهم لا يعطون مفكريهم وعلماءهم وأدباءهم ما يستحقون من تكريم وتقدير، ينزلونهم منازلهم، في حين يصنع العلمانيون والماركسيون هالات مكبرة حول رجالاتهم، حتى يجعلوا من الحبة قبة، ومن القط جملًا! وصدق قول الشاعر:

وبقيتُ في خلفٍ يزيِّنُ بعضُهم بعضًــا ليدفعَ معــورٌ عن معورِ

وإذا قيل: إنك تنظر إلى الشيخ بعين الرضا، وعين الرضا لا تبصر العيوب، فحســبي أن أقول: إني لا أزعم أن الغزالي مبرأٌ من العيوب، فما هو بالملك المطهر، ولا بالنبي المعصوم، وإنما هو بشر يخطئ كما يخطئ البشر، ويصيب كما يصيب البشر، ولكن أخطاءه وزلاته مغمورة في محيط حسناته وميزاته.

و«إذا بلغ الماء القلتين لم يحمل الخبث»، فكيف إذا كان بحرًا لا تكدره الدلاء؟!.

والحــق أن هــذا الكتاب أو هــذه الدراســة التــي قدَّمتها عن الشــيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: أثبتت أننا أمام قائد كبير من قادة الفكر والتوجيه، وإمام فذٍّ من أئمة الدعوة والتجديد، بل نحن أمام مدرسة متكاملة متميِّزة من مدارس الدعوة والفكر والإصلاح، لها طابعها، ولها أســلوبها، ولها مذاقها الخاص، وتحتاج

إلى دراسات عدَّة لإبراز خصائصها ومواقفها وآثارها. فليس الغزالي ملك نفسه، ولا ملك جماعة أو حركة، ولا ملك قُطر ولا شعب، بل هو ملك الأمة الإسلامية جمعاء.

لقد عاش الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بشعور يغمره ويملأ فؤاده ووجدانه أبدًا: أنه حارس من حراس هذا الدين الأيقاظ، ولا ينبغي أن يُؤتي الدين من قِبَله وتفريطه، بل يجب أن يتنبه دائمًا لأعدائه في الداخل والخارج، وأن يقف لهم بالمرصاد مدافعًا ذائدًا، بل مقاتلًا مهاجمًا، فخير وسيلة للدفاع الهجوم، لا يلقي السلاح، ولا ينشد الراحة، ومعركة المصحف في العالم الإسلامي قائمة، والحرب على الإسلام وأمته دائرة، لم ينطفئ لها أُوار، والدم الإسلامي مستباح، وأكثر الموكَّلين بالحراسة يغطُّون في نوم عميق، أو مشغولون بالجدل حول فروع المسائل، وصغائر الأمور!.

لقد كتبت الأقدار على الشيخ أن يحارب في جبهتين واسعتين:

الأولى: جبهة الخصوم الكائدين للإسلام، المتربِّصين به الشرَّ، الكارهين لانتشار النور وعودته إلى قيد الحياة من جديد.

بعض هؤلاء من خارج الإسلام، وخارج أرضه، من القوى العالمية التي تخافه أو تبغضه: من اليهودية، والصليبية، والشيوعية، والوثنية، الذين اختلفت دياناتهم، واختلفت طرائقهم، ولكن اتَّحدت أهدافهم على ضرب الإسلام، ووقف مسيرته، ووضع الأحجار والعثرات في طريقه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٣]، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الجاثية: ١٩].

وبعض آخر ـ للأسف الشديد ـ من داخل أرض الإسلام، بل من أبناء المسلمين أنفسهم، وممَّن يحملون أسماء المسلمين: محمد وأحمد وحسن وحسين وعمر وعلي.. ولكنهم لا يضمرون للإسلام إلا شرًّا، ولا لدعاته إلا

عداوة، ولا لشريعته إلا تنكُّرًا.. وربما عادوه لأنه ضد شهواتهم المحرمة، وضد مظالمهم المفترسة، وضد مصالحهم الآثمة، وضد مطامعهم الفاجرة.

والجبهة الثانية: جبهة (الأصدقاء الجهلة) للإسلام، الذين يضرُّون الإسلام أبلغ الضرر، من حيث يريدون أن ينفعوه، ويهشِّمون وجهه من حيث يظنون أنهم يدفعون ذبابة عنه! هؤلاء الذين سمَّاهم الشيخ (الدعاة الفتانين)، الذين يشغلون الناس بالفروع عن الأصول، وبالجزئيات عن الكليات، وبالمختلف فيه عن المتفق عليه، وبأعمال الجوارح عن أعمال القلوب.

لقد كان يشكو من دعاة أغلبهم نكبة على الإسلام، وقذى في عينه! إنهم لا يقرؤون ولا يعانون، والقليل من الحقائق لديهم لا يضعونه في موضعه الصحيح، وعلل الأمة لا تلقى منهم أساة ولا بكاة، لأنهم مشدودون إلى جدليات الماضي السحيق، ولا يدركون ما جدَّ حولنا، ولا الطفرات الهائلة التي قفزت بها الحياة على أرضنا.

وإذا كان الجسم المصاب بفقر الدم يسقط في أول مراحل الطريق، فالعقل المصاب بفقر المعرفة أعجز من أن يلاحق مطالب الجهاد، أو يلبي حاجات الحقّ.

إن مكمن الخطر على مستقبل الإسلام ومستقبل أمته وصحوته، تكمن في هؤلاء الذين وجَّه إليهم الشيخ جلَّ كتبه في المرحلة الأخيرة، عساهم أن يتعلَّموا من جهل، وينتبهوا من غفلة، وينتهوا من الإعجاب بالرأي والازدراء للغير، وأن يتعلَّموا الذلة على المؤمنين، والتوقير للكبار، والرحمة للصغار.

يقول الشيخ: «والخطورة تجيء من أنصاف متعلمين أو أنصاف متدينين، يعلو الآن نقيقهم في الليل المخيم على العالم الإسلامي، ويعتمد أعداء الإسلام ـ في أوربة وأمريكة ـ على ضحالة فكرهم في إخماد صحوة جديدة لديننا المكافح المثخن بالجراح.

إن الحضارة التي تحكم العالم مشحونة بالأخطاء والخطايا، بيد أنها ستبقى حاكمة ما دام لا يوجد بديل أفضل!.

هل البديل الأفضل جلباب قصير ولحية كثة؟ أو عقل أذكى، وقلب أنقى، وخلق أزكى، وفطرة أسلم، وسيرة أحكم؟.

لقد نجح بعض الفتيان في قلب شجرة التعاليم الإسلامية، فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعًا أو جذورًا، وجعلوا الأصول المهمة أوراقًا تتساقط مع الرياح.

وشرف الإسلام أن يبني النفس على قاعدة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

وأنه يربط الاستخلاف في الأرض بمبدأ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١]»[1].

وهذا يخيف الشيخ الإمام ويثير فزعه على غد الأمة.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد خامرني الخوف على مستقبل أمتنا، لما رأيتُ مشتغلين بالحديث ـ ينقصهم الفقه ـ يتحوَّلون إلى أصحاب فقه، ثم إلى أصحاب سياسة تبغي تغيير المجتمع والدولة على نحو ما رووا وما رأوا!..

إن أعجب ما يشين هذا التفكير الديني الهابط: هو أنه لا يدري قليلًا ولا كثيرًا عن دساتير الحكم، وأساليب الشورى، وتداول المال، وتظالم الطبقات، ومشكلات الشباب، ومتاعب الأسرة، وتربية الأخلاق.. ثم هو لا يدري قليلًا ولا كثيرًا عن تطويع الحياة المدنية، وأطوار العمران لخدمة المُثُل الرفيعة، والأهداف الكبرى التي جاء بها الإسلام.

إن العقول الكليلة لا تعرف إلا القضايا التافهة، لها تهيج، وبها تنفعل، وعليها تصالح وتخاصم! هززتُ رأسي أسفًا وأنا أرمق مسار الدعوة الإسلامية!.

---

(١) السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث، مقدمة الطبعة السادسة، ص ٨، دار الشروق.

إن الرسالة التي استقبلها العالم قديمًا: استقبلها المقرور للدفء، واستقبلها المعلول للشفاء، هانت على الناس فلم يروا ما يستحق التناول، وهانت على أهلها فلم يدروا منها ما يرفع خسيستهم ويحمي محارمهم»[١].

وفي مقدمه كتابه: (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) كتب الشيخ يقول:

«رأيت أن أكتب هذه الصحائف الحافلة بالحقائق العلمية والتاريخية، وأودعتها صرخات قلب غيور على دينه، شفيق على أمته، وأعرف أنني بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة! ولكن بئست الحياة أن نبقى ويفنى الإسلام»[٢]!.

وفي مقدمه كتابه: (قذائف الحق) قال الشيخ:

«أعداء الإسلام يريدون الانتهاء منه، ويريدون استغلال المصائب التي نزلت بأمته، كي يبنوا أنفسهم على أنقاضها.

يريدون بإيجاز القضاء على أمة ودين.

وقد قررنا نحن أن نبقى، وأن تبقى معنا رسالتنا الخالدة، أو قررنا أن تبقى هذه الرسالة، ولو اقتضى الأمر أن نذهب في سبيلها، لترثها الأجيال اللاحقة!».

إلى أن يقول في نهاية المقدمة: «إن الله أخذ على حملة الوحي أن يعالنوا به، ويكشفوا للناس حقائقه، وأكَّد عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فما بد من البيان وعدم الكتمان.

وأعلم أن ذلك قد يعرِّض لمتاعب جسام، ولكني أقول ما قال صديقنا عمر بهاء الدين الأميري:

---

(١) هموم داعية، ص ٥٥.

(٢) ص٢، مكتبة الأمل ـ السالمية، الكويت

الهولُ فـــي دربي وفـــي هَدَفي وأظـــلُّ أمضي غيـــر مضطربِ!
ما كنتُ من نفســـي على خَوَرٍ أو كنتُ مِنْ ربِّـــي على رِيَبِ!
مـــا فـــي المنايا مـــا أحـــاذِرُه الله مـــلءُ القصـــدِ والأرَبِ!

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]»[1].

شيخنا الحبيب:

لقد فقدتك الأمـــة أحوج ما تكون إليك، فقدتك والمعركة بين الإســـلام وأعدائه حامية الوطيس، والأعداء جاؤوا الأمة من فوقها ومن أسفل منها، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وظـــنَّ الناس بالله الظنون، ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١].

كنا في حاجة إلى قلمك السيف، أو سيفك القلم، ليصول ويجول، مدافعًا عن الحق فـــي مواجهة الباطل، عـــن الإيمان في مواجهة الكفر، عن الإســـلام المحاصر مـــن اليهودية العالميـــة، والصليبية الغربية، والوثنية الشـــرقية، ومن عملائهم في ديار الإسلام، ممن ينتسبون إلى الإسلام وهو منهم براء.

فقدناك يا شـــيخنا، والمؤامرة تُبيَّت، والمؤتمـــرات تُعقد لضرب صحوة الإســـلام ـ بيد أبنائـــه ـ تحت أســـماء خدَّاعـــة وعناوين كاذبة، تحت اســـم (الإرهاب)، وهم أكبر الإرهابييـــن، وتحت عنوان (العنـــف)، وهم أول مَن استخدمه، وتحت اسم (التطرف) وهم صانعو المتطرفين.

يريدون ألا يبقـــوا للجهاد جذوة تتقـــد، ولا للدعوة شـــمعة تضيء، ولا للصحوة صوتًا يجلجل، ولكنا تعلَّمنا منك أن كيد الله أقوى من كيدهم، ومكره سبحانه أسرع من مكرهم، ويده أشدُّ من أيديهم.

---

(١) ص٧ ـ ١٣، ط: الخامسة، منشورات ذات السلاسل.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

شيخنا الحبيب:

لا نجد كلمات في روعة بيانك نودِّعك بهـا، كل ما نقوله لك: إن العين لتدمع، وإن القلـب ليحزن، ولا نقـول إلا ما يرضي ربنا، وإنـا لله وإنا إليه راجعون.

اللهم اغفر لشيخنا الغزالي، وارحمه، وأسكنه الفردوس الأعلى، وتقبَّلْه في عبادك المخلصين، واجْزِه خير ما تجزي به الأئمة الصادقين، واحشره مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشـهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، وأْجُرْنا في مصيبتنا فيـه، واخلفنا فيه خيرًا، اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، واغفر لنا وله، آمين.

* * *



الشيخ جاد الحق علي جاد الحق
وأفل نجم آخر
(١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ = ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م)

ودَّعت الأمة الإسلامية في أسبوع واحد عالمين كبيرين: أولهما: الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد الغزالي. وثانيهما: الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الجامع الأزهر. وكلاهما في التاسعة والسبعين من عمره، فقد ولد الأول في سبتمبر سنة (١٩١٧م)، وولد الثاني في أبريل من السنة نفسها.

وموت العلماء كما جاء عن السلف: مصيبة كبيرة، حتى قال بعضهم: لموت قبيلة أيسر عند الله من موت عالم!.

وقال آخر: إذا مات العالم ثُلمت في الإسلام ثُلمة لا يسدُّها إلا عالم غيره.

ومن أشـــدِّ الأخطار على الأمة أن يموت العلماء، فيخلفهم الجهلاء، الذين فرغت رؤوسهم من العلم، وقلوبهم من التقوى، فيفتون الناس بغير علم، فيَضِلون ويُضِلون!.

وهذا ما نبَّه عليه الحديث الصحيح المتفق عليه، الذي رواه عبد الله بن عمرو، عن النبـــي ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًـــا ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتـــى إذا لم يُبْقِ عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جهَّالًا، فســـئلوا، فأفتَوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا**»[1]. وهذا مؤذن بقرب خراب الدنيا، واقتراب الساعة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، كلاهما في العلم.

ولا غرو إن حزن المسلمون في أنحاء العالم على وفاة الشيخين الجليلين رحمها الله، وغفر لهما، وأسكنهما فسيح جناته.

أما الشيخ الغزالي، فقد كتبت عنه كلمة، بل كتبت عنه كتابًا كاملًا.

وأما الشيخ جاد الحق فلا أعرفه كما عرفت الشيخ الغزالي وصحبته واقتربت منه نصف قرن من الزمان. وإنما لقيتُه مرات قليلة في بعض المؤتمرات والندوات، في مصر، وفي الكويت، وفي المملكة السعودية، فما علمتُ عنه إلا خيرًا. وعرفتُ بعض أخباره ومواقفه من الصحف وأجهزة الإعلام، ومن بعض مَن عاشروه.

أول ما عرفتُ الشيخ جاد الحق وسمعتُ به، حين عُيِّن مفتيًا لجمهورية مصر العربية في عهد الرئيس السادات، ولا أنكر أني لم أكن راضيًا عنه في تلك الفترة، لأنه كان أحد المشايخ الثلاثة الكبار الذين اشتركوا في صنع (قانون الأحوال الشخصية)، الذي كان فيه تجاوزات، أنكرتُها، وأنكرها كثير من العلماء، وعلى رأسهم شيخنا الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق، وشيخنا الشيخ محمد الغزالي، رحم الله الجميع.

ثم عُيِّن الشيخ وزيرًا للأوقاف، ثم شيخًا للأزهر. والحقُّ أن الرجل قدَّر جلالة المنصب الذي تبوَّأه من قبله رجال كبار، أمثال: المراغي، وعبد المجيد سليم، والخضر حسين، وشلتوت.. فلم ينزلق بالأزهر إلى الفتاوى التي زلَّت فيها أقدام آخرين، وحافظ على كرامة الأزهر، ومجمع بحوثه، الذي يمثل السلطة العليا للفتوى في الشؤون الإسلامية في مصر.

وكان متعاونًا مع العاملين في الحقل الإسلامي، واقفًا كالصخرة الصماء في وجه العلمانيين والمتغرِّبين، الذين يريدون أن يسلخوا الأمة من جلدها، وأن يبعدوها عن شريعة ربها، فلم تلن قناته في مواجهتهم، وتحدي أباطيلهم.

رأينا ذلك بجلاء في موقفه من محاولات (مؤتمر السكان)، الذي عُقد بالقاهرة، فقد رفض باسم الأزهر ما فيه من اتجاه إلى الإباحية الجنسية، وشرعية الإجهاض، وإباحة الشذوذ للرجال والنساء، وانتزاع حقّ الآباء في الإشراف على تربية أولادهم، إلى آخره.

وكذلك (مؤتمر المرأة)، الذي عقد في بكين، فقد شكَّل لجنة للردِّ على وثيقة هذا المؤتمر، وشارك النقابات التي عُنيت بهذا الأمر، مثل: نقابة الأطباء. وقد حضرتُ اجتماعًا في (دار الحكمة) في صيف (١٩٩٥م) حول هذا الموضوع، شارك فيه مندوب شيخ الأزهر، وتكلَّم كلامًا طيبًا.

ولا يكاد يخلو مؤتمر مهم من وجود مندوب عن الأزهر وشيخه، لاحظت ذلك في الكويت، وفي السعودية، وفي موسكو، وفي مؤتمر الأديان والتفاهم بين الشعوب، وقد ألقى فيه مندوب الشيخ كلمة حازت القبول.

وفي الأيام الأخيرة أفتى بعدم السفر إلى الصلاة في القدس، حتى تتحرَّر وتعود إلى أهلها، وهم العرب والمسلمون، وهو نفس ما أفتيتُ به والحمد لله.

وقد ردَّ على اليهود في قولهم: إن القدس عاصمة أبدية لهم. وقال: إنها عاصمة أبدية للمسلمين. وما دامت للمسلمين فهي لكلِّ الأديان، كما كانت طوال التاريخ، لمدة ثلاثة عشر قرنًا أو تزيد.

وفي قضية (فيلم المهاجر)، الذي يمثِّل قصه سيدنا يوسف عليه السلام، وقف ضدَّه بصراحة، وحكمت محكمة النقض بمصادرته ومنعه.

ولا ننسى موقفه الصلب في قضية فوائد البنوك، والمجاهرة بأنها هي الربا المحرم، بنصِّ القرآن والسنة وإجماع مذاهب الأمة. وهو ما قرَّره مجمع البحوث الإسلامية منذ عهد الشيخ محمود شلتوت رحمه الله؛ فهو لم يوافق مفتي مصر في ذلك الوقت الشيخ الطنطاوي، بل فتح مجلَّة الأزهر للردِّ عليه، ولتنشر ملحقًا بقلم زميلنا: د. علي السالوس، يرد على توجُّه الشيخ الطنطاوي.

ربما عابه بعض الناس بأن نزعته تقليدية في الفقه، ولهذا وقف في قضية (ختان البنات) وقفة شـــديدة، تبنَّى أشـــدَّ الآراء فيها، والأمر أهون من ذلك. ولذلك اختلف فيها المسلمون فقهًا وعملًا، فالبنات في بلاد الخليج، وفي بلاد الشمال الإفريقي، وبلاد شتى لا يعرفن هذا الختان.

غير أني أقول: إن الرجل في فتواه لم يخرج عن دائرة الفقه، وأفتى بما يراه صوابًا، ولا يُلام المرء على ذلك، وهو لم يَدَّعِ يومًا أنه مجدِّد أو مجتهد.

ورأيـــي أن صاحب النزعـــة التقليدية في الفقه، أفضل مـــن أولئك الذين يدَّعون الاجتهاد والتجديد وهم ليسوا له بأهل! فيحلُّون ما حرَّم الله، ويسقطون ما أوجب الله، ويشرعون في الدين ما لم يأذن به الله.

لقد كان الشيخ جاد الحق صادقًا مع نفسه، صادقًا مع أمته، صادقًا ـ قبل ذلك كله ـ مع ربه، فلم يبالِ برضا الناس فيما يعتقد أنه الحقُّ.

وقد كان رجـــلًا مهذَّبًا، صاحب خلق وفضل، تطـــاول عليه بعض الناس وهاجموه، فقابلهم بالصمت والتعفُّف، ودفع السيئة بالحسنة؛ فالحياة أغلى من أن تضيع في المهاترات.

وكان كلُّ الذين يتعاملون معه من الرجال العاملين في الساحة الإسلامية، يحترمونه، ويعترفون بفضله، ومكارم أخلاقه؛ أذكر من هؤلاء: الدكتور يوسف الحجي، والأستاذ كامل الشريف.

ولقد قدَّرت مؤسسة الملك فيصل الخيرية مواقفه، فمنحته (جائزة الملك فيصل العالمية) لخدمة الإسلام. وأظنُّه تبرع بها لجهات خيرية.

وكانت عقليته عقلية القاضي، الذي ينظر إلى الأمور بهدوء واتزان، دون غضب وانفعال، ثم يحكم بما يراه أدنى إلى الصواب.

ولقد اتســـع الأزهر في عهده، معاهد وكليات، إتمامًا وامتدادًا لما قام به الرجل الصالح الشيخ عبد الحليم محمود غفر الله له.

كما رأس الشيخ جاد الحق المجلس الإسلامي الأعلى للدعوة والإغاثة، وهو مجلس عالمي يمثِّل المسلمين في أنحاء العالم، ويضمُّ عشرات من الجمعيات والمؤسسات الخيرية والدعوية في العالم الإسلامي، وبين الأقليات الإسلامية في المغرب والمشرق. ويقوم على أمانته رجل من رجال الدعوة والغيرة وحسن الفَهم، وهو الأستاذ كامل الشريف. وقد أُسِّس في عهده رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا جعله يتصل بالجمعيات والمؤسسات العاملة في هذه الساحة المهمة، وقد رأوا فيه رجلًا خيِّرًا غيورًا على الإسلام، لا يدَّخر وسعًا في مساعدة الذين يعملون لخدمته.

رحم الله عَلَمَنا الكبير الشيخ جاد الحق، وجزاه عن الأزهر ومصر والإسلام خير ما يجزي العلماء العاملين، والرجال الصالحين.

اللهم اؤجرنا في مصيبتنا، واخلفنا فيها خيرًا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *



الشيخ الفقيه عبد الله بن زيد المحمود
ورحل علّامة قطر
(١٣٢٥ ـ ١٤١٧هـ = ١٩٠٧ ـ ١٩٩٧م)

وأخيرًا وبعد مرض طال على الشيخ أرجو أن يكون طهورًا وكفارة لجميع سيئاته، وزيادة في حسناته ورفعة لدرجاته، رحل عن دنيانا علامة قطر وقاضي قضاتها وفقيهها الأكبر وخطيب مسجدها الأعظم، وأول رئيس لمحاكمها الشرعية وشؤونها الدينية.. فقدت قطر وبلاد الخليج بل الأمة الإسلامية بفقده أحد العلماء الأعلام، والقضاة الأثبات، والفقهاء الميسرين، والدعاة المبشرين، إنه العالم الجليل الشيخ عبد الله بن زيد المحمود رحمه الله رحمة واسعة وتقبله في عباده الصالحين، وجزاه عن دينه وأمته خير ما يجزي به العلماء العاملين والأئمة الصادقين.

لقد لقي ربه راضيًا مرضيًا إن شاء الله في يوم من أيام شهر رمضان المبارك وفي العشر الأواخر المرجوة منه، هذا الشهر الذي طالما خطب ودرس فيه وأَمَّ الناس في صلاة التراويح يقرأ كل ليلة جزءًا من القرآن الذي منّ الله عليه بحفظه في زمن كان حفاظ القرآن فيه في بلاد الخليج قليلين بل نادرين.

وأشهد أن هذا الرجل كان صوامًا قوامًا، كثير التلاوة لكتاب الله ﷻ، مشغولًا بالعلم دراسةً وتعليمًا وتأليفًا وقضاءً، وكنت كلما زرته في مجلسه وجدته مشغولًا بقراءة كتاب مهم من كتب التفسير أو الحديث أو الفقه يقرؤه عليه أحد أبنائه أو أحد تلاميذه، وهو يستمع ويعلق، فهكذا كان يقضي وقته بين العلم (قراءةً وكتابةً) والعبادة والإفتاء والقضاء وشؤون المساجد وأموال

القُصَّر والأوقاف وحاجات الناس، ولم يكن عنده مجال للهو ولا لهزل، فقد كان عنده من الحق والجد ما يصرفه عن كل هزل وباطل.

كان الشيخ يذهب إلى عمله مبكرًا في المحكمة، فهو يعلم أن البركة في البكور، وربما سبق الموظفين جميعًا، وهناك يجلس إلى عمله يستمع إلى المتقاضين ويقضي بينهم في القضايا المعضلة بسرعة وحسم، إلا ما احتاج منه إلى مراجعة أو مشاورة، وقد يرى الإصلاح بين الخصوم فيجتهد في ذلك ويوفق فيه.

وهو يساهم في قضاء حاجات المحتاجين وفي نصرة قضايا المسلمين بماله وجاهه ومنصبه، ويخطب الجمعة في الجامع الكبير ـ جامع الشيوخ ـ في موضوعات حية تتصل بحياة الناس. وهو يحضّر خطبته تحضيرًا جيدًا بحيث يكاد يحفظها، وهو يغذيها بآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، ويزودها بحكم الحكماء، وشعر الشعراء، مشتملة أحيانًا على بعض السجع المقبول الذي لا يحمل التكلف المرذول، وقد صدرت خطبه في مجلد كبير سماه (الحكم الجامعة لشتى العلوم النافعة).

لقد عرفت الشيخ ابن محمود منذ قدومي إلى قطر من نحو ستة وثلاثين عامًا، وبعد يومين من تسلمي العمل في إدارة المعهد الديني أخبرني الأخ الكريم الشيخ علي شحاتة ـ وهو من قدامى المصريين الرواد الذين قدموا إلى قطر وامتزجوا بأهلها وشيوخها ـ أن الشيخ ابن محمود يقرأ كتابك (العبادة في الإسلام) في مجلسه ويثني عليك خيرًا، وقال لمن حوله بعد فقرة قرأها من الكتاب: هذا الشيخ عالم محقق، وأرى أن نزوره في بيته. قلت له: هذا واجب علي أن أزور مثل هذا العالم الذي سمعت عنه من قبل أن أراه وأتعرف عليه، فالعلم رحم بين أهله.

وفعلًا في يومها زرت الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في مجلسه، ورحب بنا ترحيبًا بالغًا

وتحدثنا في مسائل علمية مهمة، رأى الشيخ أننا متوافقان فيها؛ ممَّا شجعه أن يعطيني رسالته القيمة (يسر الإسلام) التي ألفها في شأن الحج، وهي الرسالة التي ذهب فيها الشيخ إلى جواز (رمي الجمار قبل الزوال) في أيام التشريق معتمدًا على أدلة شرعية قوية؛ منها: قيام الدين على اليسر، وقيام شعيرة الحج خاصة على التيسير، ورفع الحرج، حتى إن النبي ﷺ «ما سُئل عن شيء قدم أو أخر من أمر الحج إلا قال: «**افعل ولا حرج**»[1]، وأن الرمي أمر يفعل بعد التحلل التام من الإحرام، وأن الحنابلة أجازوا تأخير الرمي كله إلى اليوم الأخير، فضلًا عن ضرورات الزحام وهلاك الناس تحت الأقدام، إلى آخر ما ذكر الشيخ الفقيه، وقد أثار هذا الرأي المشايخ وردوا عليه بعنف وخطؤوه مع أنه رَحِمَهُ اللَّهُ لم ينفرد به، فقد قال به ثلاثة من الأئمة الكبار من فقهاء التابعين: عطاء بن أبي رباح فقيه مكة وفقيه المناسك، وطاووس بن كيسان فقيه اليمن، وأبو جعفر الباقر من أئمة آل البيت، كما قال به الرافعي من علماء الشافعية، هذا ولم يشهدوا في زمانهم ما شهدنا في زماننا، وقرر الإمام ابن القيم وغيره من المحققين في سائر المذاهب أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال.

أصر الشيخ على رأيه وثبت في موقفه رغم شدة الضغط عليه.

- **خصائص فقه الشيخ:**

كانت هذه الرسالة أول ما أنتج الشيخ في مجال الفقه والعلم، وهي باكورة تدل على ما بعدها، فقد دلت على منهج فقهه ووجهته في الاجتهاد، وذلك في عناصر أو خصائص خمس:

١ ـ تحرره من التقليد:

تحرره من التقليد والعصبية المذهبية التي ابتلي بها كثير من العلماء في العصور الأخيرة، فكلهم أسرى مذاهبهم لا يملكون الخروج عنها، أو التحرر منها،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٠٦)، عن عبد الله بن عمرو.

بل لا يستطيعون الخروج عن المشهور في المذهب والمفتى به من أقوال إلى قول آخر في المذهب نفسه، لأن هذا يحتاج إلى عقل حر مستقل، وإلى نفس قوية قادرة على المواجهة، لهذا رضي العامة بالتمذهب وتعصبوا له حتى قال بعضهم:

أنا حنبليٌّ ما حييــتُ فإنْ أمُتْ فوصيَّتــي للنَّــاس أَنْ يتحنبلوا

٢ ـ النزعة الواقعية:

معرفته بالواقع المعيش وما يعانيه الناس فيه، والفقيه الحق هو من يزاوج بين الواجب والواقع، فلا يجعل كل اهتمامه فيما يجب أن يكون، بل فيما هو كائن أيضًا، ومن هنا كان اهتمامه؛ فلا يستطيع أن يغمض عينيه عما يحدث من زحام عند رمي الجمرات متنبئًا بما ســيحدث في مســتقبل الأيام حين تيسر المواصلات وتتضاعف أعداد الحجاج.

٣ ـ النزعة التجديدية:

نزعته إلى التجديد وتمرده على كثير من القضايا المسلمة عند علماء زمنه ومذهبه، وبالتجديد يحيا الدين وتحيا العلوم الشرعية وتتجدد الحياة كلها.

ولا غرو إن لمسنا هذه النزعة في كثير مما كتبه مخالفًا المألوف والسائد، مثل ما كتبه عن (الأضحية عن الميت) مخالفًا المتــوارث في كتب الحنابلة المتأخرين، مؤكدًا أن الأضحية إنما شرعت للحي لا للميت.

ومنه ما كتبه عن المهدي المنتظر، وفاجأ به الحضور في المؤتمر العالمي للسيرة والسنة النبوية الذي عقد في قطر، واستقبل المسلمون به القرن الخامس عشر الهجري، فقد أعلن أن عقيدة المهدي ليســت من عقائد أهل السنة، ولم يكن المؤلفون الأقدمون يذكرونها في كتب التوحيد، وإنما فعل ذلك المتأخرون، وأن الأحاديث التي جاءت فيها ليست من الصحة بحيث تكون عقيدة، بل هي أحاديث ضعيفة واهنة، وهو ما ذهب إليه العلَّامة ابن خلدون قديمًا.

وقد تناقش مع الشيخ ابن محمود ناصر الدين الألباني في منزل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، ولم يستطع الشيخ المحدث أن يقنع الشيخ الفقيه، وكان ذلك في حضوري مع الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤ ـ ميله إلى التيسير:

ميله إلى التيسير على الخلق ورفع الحرج عنهم، مؤمنًا بأن هذا هو نهج القرآن وهدي النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقد كان الرسول الكريم ﷺ أعظم الناس تيسيرًا على أمته في تعليمه إذا علَّم، وفي فتواه إذا أفتى، كما قال: «**إن الله بعثني معلمًا ميسرًا**»[١].

وقال: «**إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**»[٢].

وأمر الأمة بالتيسير فقال: «**يسروا ولا تعسروا**»[٣].

والتيسير في الفتوى يحبب الدين إلى الناس وهم في حاجة إليه، وخصوصًا في عصرنا الذي كثرت فيه مشاغل الناس، وضعفت هممهم، ووهنت عزائمهم، فما أحوجهم إلى التيسير.

ومن هنا تبنى الشيخ منهج التيسير في فقهه وفي فتاواه وأحكامه، كما في فتواه بإخراج صدقة الفطر بقيمتها من النقود، لما فيها من منفعة الفقراء في عصرنا، كما هو مشاهد، مخالفًا بذلك جمهور الحنابلة الذين يشددون في ذلك، ولا يجيزون إخراج القيمة بحال، على خلاف ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو مذهب إمام الهدى عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة وأصحابه والثوري وغيرهم.

---

(١) رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٨)، وأحمد (١٤٥١٥)، عن جابر.

(٢) رواه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، وأحمد (٧٢٥٥)، وأبو داود (٣٨٠)، والترمذي (١٤٧)، والنسائي (٥٦)، ثلاثتهم في الطهارة، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤)، عن أنس.

وكذلك في فتواه جواز الإحرام للحاج والمعتمر من ركاب الطائرة إذا نزلوا في جدة، وأن الميقات المعروف إنما هو للواصلين عن طريق البر، وهو بهذا يوافق ما ذهب إليه المالكية من جواز إحرام المسافرين في البحر إذا وصلوا بسفينتهم إلى البر، وركاب الطائرات أولى بالتيسير من ركاب السفينة.

ومثل ذلك فتواه بالانتفاع بالمقابر القديمة إذا أصبحت في وسط البنيان وانتهى الدّفن فيها من زمن، وغدا الناس في حاجة إليها.

وكذلك فتواه في حِجْر ثمود[1]، وقد كتب رسالة في ذلك اسمها (حجر ثمود ليس حجرًا محجورًا) إلى غير ذلك من الفتاوى التي تتجه إلى التيسير على خلق الله.

٥ ـ الشجاعة الأدبية:

فقد يوجد علماء متحررون في فكرهم مشتغلون في علمهم يسيرون وراء الدليل لا وراء فلان ولا علان من البشر، ينظرون إلى ما قيل لا إلى من قال، وقد يصلون باجتهادهم إلى آراء لها قيمتها في ميزان العلم، ولكنهم يحتفظون بها في صدورهم، أو يفتون بها لخاصة خاصتهم، ولا يجرؤون أن يعلنوها في الناس خشية من هياج العامة أو سخط الخاصة، وخوفًا من أن تتعرض سمعتهم للتشويش بل للتشويه من الحرفيين الجامدين الذين يقفون عند الظواهر ولا يغوصون إلى المقاصد.

أما الشيخ ابن محمود رَحِمَهُ اللَّهُ فقد كان يصدع برأيه إذا اعتقد أنه الحق الذي وصل إليه بالدليل، لا يخاف لومة لائم ولا ثورة ثائر، فأحسبه من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، ولهذا رأيناه يعلن رأيه الصريح في رمي الجمار، ولم يكن

---

(١) حجر ثمود يقع في وادي القرى بين المدينة والشام، وانظر رأي الشيخ في حكم سكناها وزراعتها في: مجموعة رسائل وخطب الشيخ عبد الله بن زيد (٥/٢٣١ ـ ٢٦٢)، ط: الثانية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

له من الشـــهرة العلمية ما صار له بعد ذلك، كما أعلـــن رأيه في إحرام ركاب الطائرات، وفي الأضحية عن الميت، وغيرها.

إن من العلماء صنفًا يراعون رضا الســـلاطين والأمراء ويتبعون أهواءهم فيفرخون لهم من الفتاوى والتخريجات والحيل، ما يسهل لهم ما يريدون من قرارات وقوانين، قد تحلل الحرام وتحرم الحلال، أو تسقط الفرائض، أو تشرع في الدين ما لم يأذن به الله، وهؤلاء هم الذين يســـمونهم (علماء السلطة) أو (عملاء الشرطة) أعاذنا الله من شرهم.

وهناك صنف آخر لا يراعون الأمـــراء، وإنما يراعون رضا عوام المتدينين وجماهيرهم ويتبعون أهواءهـــم، وخصوصًا فيما يتعلق بالتشـــديد في الدين والتعسير في الفتوى، فإن كثيرًا من هؤلاء يعجبهم العالم المحافظ المتشدد ولا يعجبهم العالم الميسر المجدد، فهم يخلون سوق المزايدة في الدين لاكتساب رضا هؤلاء المتزمتين وإعجابهم، وهذا ينافي التجرد للحق والإخلاص لله، بل هو الرياء المهلك والعياذ بالله.

ولم يكن ابن محمود من هـــؤلاء ولا أولئك، وإنمـــا كان يراعي ضميره ويرضي ربه قبل كل شـــيء، وأود أن أشـــير هنا إلى قضية في غاية الأهمية، تلبس فيها الأمر على الكثيرين من أهل الدين، وهي اعتقادهم أن التيسير على الناس في الفتوى والأحكام من الأدلة على قلة دين الفقيه والمفتي وتهاونه في أمر الله، وأن المعسر المشدد أكثر ورعًا وأتم تقوى لله من الميسر، وهذا خطأ كبير، فإن العالم الذي يفتي بالتيسير يتبع المنهج القرآني والنبوي في التيسير، ويتبع منهج الخلفاء الراشدين خاصة والصحابة عامة، ولا سيما علماؤهم مثل حبر الأمة وترجمان القرآن: ابن عباس الذي اشتهر برخصه، وهو كذلك يريد أن يربط الناس بالدين عن طريق التيسير.

• خُطَب مطعَّمة بالفقه:

لقد أوتي الشـــيخ ابن محمود ملكة الفقيه البصير بدين الله، وبرزت هذه الملكة في إفتائه إذا أفتى، وفي قضائه إذا قضى، وفي خطبه إذا خطب.

أجل تراه في خطبه المنبرية يطعّمها ببعض الأحكام الفقهية التي يحتاج إليها الناس، كما يضمنها بعض آرائه الخاصة مشيرًا إلى ما يسنده من نصوص الشرع الجزئية ومقاصده الكلية، وأضرب لذلك بعض الأدلة:

في خطبته التي جعل عنوانها (الصدقة على المضطرين أفضل من حج التطوع) ذكر فيها أن الفرائض بمثابة رأس المال، والنوافل بمثابة الربح، ولا ربح إذا لم يصح رأس المال، ثم قال: «إن الصدقة بما سينفقه في حج النفل هي أفضل من حج التطوع، لكون الصدقة من العمل المتعدي بنفعه إلى الغير فتصادف الصدقة من الفقير موضع حاجة وشدة فاقة لما يتطلبه العيد من اللبس والكسوة له ولعياله، فصدقته تقع بالموقع الذي يحبه الله، وتكون أفضل من تطوعه بحجه وعمرته... وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يأمر أهل مكة بأن يخلوا المطاف للحجاج الغرباء، فاحتساب التوسعة على الناس في هذا الزمان فيه فضل، ولفاعله أجر، ونيته تبلغ مبلغ علمه.

وإنني أنصح كبار الأسنان وضعاف الأجسام من رجال ونساء الذين يشق عليهم الزحام، ويخشى من سقوطهم تحت الأقدام متى قضوا فرضهم أن يلزموا أرضهم، ويكثروا من عبادة ربهم في بلدهم، فإن أبواب الخير كثيرة، وليس الحج من أفضلها، وليحافظوا على حياتهم وصحتهم، فلا يتعرضوا للقارص ولا للحر القاتل»[1].

وفي خطبته (التذكير الثاني بعيد الأضحى) تعرض لحديث أم سلمة الذي رواه مسلم مرفوعًا: «**من أراد أن يضحي ودخل العشر فلا يأخذ من شعره ولا من أظافره شيئًا**»[2]، وعقب عليه بقوله: فهذا حديث اختلف العلماء فيه، فمنهم من أنكر صحته، منهم عائشة أم المؤمنين، ومنهم من حمل النهي على الكراهية، كما هو الظاهر من مذهب الشافعي ومالك، ورواية عن الإمام أحمد

---

(١) انظر: مجموعة الرسائل والخطب (٣٥/٧ ـ ٤١).

(٢) رواه مسلم (١٩٧٧)، والنسائي (٤٣٦١)، كلاهما في الضحايا، عن أم سلمة.

وجهًا في الإنصاف. وأبعد الأقوال عن الصواب من قال: إنه حرام، ومتى قلنا: إن النهي للكراهية، فإن الكراهية تزول بأدنى حاجة، وعلى كل الأقوال فإنه لو حلق الشخص رأسه أو أخذ شيئًا من لحيته أو قلَّم أظافره في عشر ذي الحجة، ثم لو أراد أن يضحي فإن أضحيته صحيحة بإجماع أهل العلم، ومثله المرأة لو نقضت شعرها أو نسلته بالمشط، فتساقط منه شعر، وأرادت أن تضحي، فإنها تضحي وأضحيتها صحيحة، كما يباح مباشرة النساء والطيب وغيرهما[1].

ومثل هذه اللقطات الفقهية المضيئة كثيرة في خطبه، وهي تدل على ما قلناه: إن الشيخ فقيه في المقام الأول.

هذا هو ابن محمود لم يكن ملكًا مطهرًا ولا نبيًّا معصومًا، بل هو إنسان مجتهد في خدمة دينه يصيب ويخطئ، وهفواته التي لا يسلم منها بشر مغمورة في بحر حسناته ومحيط مزاياه.

ولقد كان الشيخ ممن طال عمره وحسن عمله إن شاء الله، وكانت حياته حافلة بالعطاء، مؤثرة فيمن حوله من حكام ومحكومين موافقين ومخالفين.

وأشهد لقد كان بيني وبينه صلة وثيقة ومودة ومحبة، بالرغم من أني قد اختلفت معه في أحيان قليلة كما في فتواه في حل ذبائح الشيوعيين والمرتدين، وعدم جواز نقل زكاة الفطر إلى خارج بلاده، ولكن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية؛ فأفضل العلماء تختلف آراؤهم ولا تختلف قلوبهم.

رحم الله الشيخ ابن محمود وغفر له، وكتبه في المحسنين، وجعله من عتقاء هذا الشهر الكريم، وحشره مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، وعوض الأمة الإسلامية عنه خيرًا.

* * *

(١) مجموعة الرسائل والخطب (٥٤/٧).



الشيخ عبد الفتاح أبو غدة
علامة الحديث والفقه واللغة والدعوة
(١٣٣٥ ـ ١٤١٧هـ = ١٩١٧ ـ ١٩٩٧م)

• **بداية التعرف على الشيخ أبي غدة:**

عرفت الشيخ الجليل عبد الفتاح أبو غُدَّة قبل أن ألقاه بسنين، من خلال ما كنت أسمعه عنه من الإخوة السوريين عامة، والحلبيِّين خاصة، مثل: العلَّامة مصطفى الزرقا، والشاعر المفكر عمر بهاء الدين الأميري، والشيخ عبد الله علوان، والشيخ عدنان سرميني. وقد حببوه إليَّ بما وصفوه به من تمكُّن في العلم، وحرص على التعبُّد، وورع في التعامل، وغيرة على الدين، وحمل للدعوة، ووعي بهموم الأمة، فهو من رجال العلم المحقِّقين، ورجال الدعوة العاملين. ولا غرو أن أحببته قبل أن أراه، والأذن تعشق قبل العين أحيانًا.

عرفت ذلك من الإخوة السوريين الذين كانوا يدرسون في مصر في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين، وقد كنتُ مكلَّفًا باللقاء معهم من قبل قسم الاتصال بالعالم الإسلامي في المركز العام للإخوان المسلمين، الذي كان يرأسه الأستاذ عبد الحفيظ الصيفي رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثم عرفتُ عنه أكثر من الإخوة السوريين في قطر، أوائل ذهابي إليها في أوائل الستينيات، وبعد وصولي بقليل، أمثال الإخوة الأساتذة: عادل كنعان، ومصطفى الصيرفي، وعدنان سعد الدين، وهاني طايع، وسعيد المبيض وغيرهم.

• **معرفتي له عن طريق القراءة لكتبه:**

ثم عرفتُه قارئًا له فيما بدأ بنشره من كتب بتحقيقه، فوجدت نفَسًا جديدًا، وروحًا جديدة، في التحقيق والشرح والتعليق، ووجدت الرجل يتمتع بفهم دقيق، وحِسٍّ رقيق، وإيمان عميق، وعلم وثيق، ينمُّ عن سعة اطلاع على علوم الحديث ومصادره، رواية ودراية، وعلى علم بالفقه ـ وبخاصة الفقه الحنفي ـ وعلم بكتب اللغة وعلومها من فقه اللغة والنحو والصرف والبلاغة، وكتب الأدب والتاريخ.

كما أنه يتصف بالأناة والتثبُّت والتحري فيما يصدره من أحكام، معتمدًا في الغالب على أئمة هذا الشأن، وقد يناقشهم، ويضيفُ إليهم، ولكن هيهاتَ أن يخالفهم.

وقد بدأ نشـــاطه التأليفي ببعض ما كلفه به مشـــايخه وإخوانه من علماء الشام، مثل: الإسهام في عمل موسوعة لفقه الإمام ابن حزم الظاهري، مستنبطة من كتاب (المُحَلَّى) المطبوع في أحد عشر جزءًا.

كما بدأ يمارس بعض الأنشـــطة مثل: عمل معجم لأحاديث النسائي في كتابه (المجتبى) أو (سنن النسائي الصغرى). وقد اهتم بعض العلماء بـ(سنن أبي داود)، وبعضهم بـ(سنن الترمذي)، وبقي النســـائي مع أهميته، فانتدب الشيخ ليقدم له خدمة بهذه الفهرسة، التي يسرت الانتفاع به للعلماء والباحثين.

• **العناية بنشر تراث العلَّامة اللكنوي الهندي:**

ثم كان أول ما بدأ به الشيخ: العناية بتراث العلَّامة الهندي المحدِّث الشيخ محمد عبد الحي الحســـني اللكنوي، القريب العهد، الـــذي خلَّف جملة من الكتب في الحديـــث وعلومه، فريدة فـــي بابها، ثرية فـــي مضمونها، موثقة بمصادرها، متينة في بنيانهـــا، وكانت هذه الكتب قد طُبعـــت طباعة قديمة، بأعداد محدودة، فأصبحتْ شِـــبْه مهجورة، أو مقبورة، فأراد الشـــيخ أن يعيد

طباعتها وإحياءها ونشـــرها، محققة معلقة الحواشي، مفهرسة فهرسة حديثة، تعين على استيعابها وفهمها، والاستفادة منها، على أكمل وجه ممكن، وبذلك تحيا من موات وتستيقظ من سبات.

ومما يجمع بين العلَّامة اللكنـــوي والعلَّامة أبو غدة: أن كلًّا منهما حنفي المذهب، وأن كلًّا منهما معنيٌّ بالحديث النبـــوي، ويأخذه من أصوله، على المنهج الذي اعتمده أئمة السُّنَّة الربانيون.

والإمام عبد الحي اللكنوي الهندي نادرة المحققين المتأخرين، عاش (٣٩) سنة وأربعة أشهر، وترك من المؤلفات أكثر من (١١٥) مؤلَّفًا في علوم متعددة، وفـــي دقائق العلم ومباحثـــه العصيبة، وُلد ســـنة (١٢٦٤هـ)، وتوفي أول ســـنة (١٣٠٤هـ). وكلُّ كتبه ورســـائله تتميز بالتحقيق والإفادات الغالية، وهكذا قدر لهذا الرجل العبقري أن يموت شابًّا، لم يكد يكمل الأربعين بالسنين الهجرية.

• **كتب الإمام اللكنوي التي حققها الشيخ أبو غدة:**

١ ـ كتاب (**الرفع والتكميل في الجرح والتعديل**): وهو أول كتاب أُلِّف في موضوعه الهام، وأدَّى خدمة عظيمة لدارسي الحديث الشريف ورجاله، وبخاصة معرفة قواعد الجرح والتعديل، فكان هذا الكتاب رائدًا فريدًا في بابه، وكانت حاشـــيته الضافية الوافية المتنوعة؛ مجمـــع النفائس والفرائد والتحقيقات، وقد كان أصله في نحو (٢٠) صفحة، فخرج بعد خدمة الشيخ أبو غدة له وتعليقه عليه في طبعتـــه الأولى في (٢٧٢) صفحة، وفي طبعته الثانيـــة (٣٩٤) صفحة، وفي طبعتـــه الثالثة والرابعـــة (٥٦٤) صفحة، وهو المرجع الرائد في موضوعـــه على كثرة ما تلاحق مـــن التآليف بعده في موضوعه.

٢ ـ كتاب (**الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشـــرة الكاملة**): تضمن هذا الكتاب النفيس مباحث شائكة ومسائل صعبة، تقدم بالسؤال عنها أحد كبار علماء الهند

المعاصرين للكنوي، فأجاب عنها الشيخ اللكنوي بما شفى وكفى، وزاد على الغاية، وكان أصل هذا الكتاب صغيرًا في نحو (٢٠) صفحة، فغدا بعد تعليق الشيخ أبي غدة رَحِمَهُ اللَّهُ عليه في (٣٠٢) صفحة، وطبع خمس طبعات في حلب والقاهرة وبيروت، وللشيخ عليه زيادات وتنقيحات وتصحيحات تصدر لاحقًا (بإشراف ابنه سلمان وفقه الله) في طبعة سادسة مزيدة.

٣ ـ ومن كتب اللكنوي التي حققها أيضًا: كتاب (**إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة**): أورد فيه اللكنوي جملة كبيرة من الأحاديث، وخرج ـ بعد تخريج أحاديثه وآثاره والإضافة إليه ـ في (١٩٥) صفحة.

٤ ـ كتاب (**سباحة الفِكْر في الجهر بالذِّكْر**): وتضمَّن عددًا من الأحاديث النبوية للاستدلال على موضوعه، فحقَّقه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وخرَّج أحاديثه باختصار.

• **كتب حديثية أخرى للشيخ أبو غدة:**

٥ ـ (**السنة النبوية وبيان مدلولها الشرعي، والتعريف بحال سنن الدارقطني**): وهي رسالة في نحو (٥٠) صفحة، نبَّه فيها الشيخ إلى أخطاء سارية في فهم لفظ السنة الوارد في الأحاديث والآثار، وقع فيها بعض العلماء، كما عرَّف فيها بحال (سنن الدارقطني)، وبيَّن المفارقات بينها وبين السنن الأربعة: سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجَهْ.

٦ ـ (**صفحة مشرقة من تاريخ سماع المحدثين عند المحدثين**): درَس الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فيها نموذجًا من الأسانيد الحديثية للحافظ ابن الصلاح، واستوعب فيها كلَّ ما يتصل بهذا الموضوع، مع التراجم والفهارس، حتى غَدَتْ كتابًا يعرِّف الخلف بعناية السلف، في نقل الكلمة العلمية وحفظها وضبطها واحتياطها من التصحيف والتحريف. وطبع في (١٤٥) صفحة.

٧ ـ (**تحقيق اسمي الصحيحين واسم جامع الترمذي**): وهو موضوع له أهميته البالغة في كشف معالم هذه الكتب العظيمة والمصادر المعتبرة في رواية الحديث، وما أُسست عليه في تدوينها وتأليفها ومقاصدها، ودفع عنها أوهامًا تسربت إلى بعض العلماء بسبب الغَفْلة عن أسمائها الكاملة الدقيقة وما اشتملت عليه. وطبع في بيروت.

٨ ـ (**الإسناد من الدين**): بيَّن فيه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فضل الإسناد واهتمام العلماء به في تلقي الحديث الشريف وغيره من العلوم. وهذا الكتاب في حقيقته منافحةٌ وذبٌّ عن حياض الإسلام، فإن الدين الإسلامي شُرِّف وامتاز دون سائر الأديان بخصيصة الإسناد. وقد طبع في (٨١) صفحة.

• **كتب أخرى لعلماء الحديث بالهند عني بها الشيخ:**

وقد كان للشيخ اهتمام إلى جانب ما تقدم بعلم رجال الحديث وكتب رجال الحديث، فأخرج:

٩ ـ كتاب (**قواعد في علوم الحديث**) للعلامة الجليل الشيخ ظَفَر أحمد التهانوي الهندي ثم الباكستاني (ت: ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م)، وهو مقدمة لكتابه (إعلاء السنن) في عشرين جزءًا من القطع الكبير، تكفَّل فيه بجمع أدلة المذهب الحنفي في كافة أبواب الفقه، ردًّا على بعض المتعصبين الهنود الرامين المذهب الحنفي بالفقر من أدلة الكتاب والسنة، وجاء الكتاب بعد طبعه بتحقيق الشيخ أبو غدة غفر الله له وتعليقاته في (٥٥٣) صفحة.

١٠ ـ كتاب (**خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال**) للحافظ الخزرجي اليمني، وهذا الكتاب من أفضل الكتب المختصرة في معرفة الرجال، كما بيَّن ذلك الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمته له التي بلغت (٤٠) صفحة، وبيَّن مزاياه على مزايا (التقريب) للحافظ ابن حجر، سوى ذكر الحُكْم على الراوي بتعيين حاله ضعفًا وقوة.

وكان هذا الكتاب مجهولَ تاريخ مؤلِّفه، وتاريخ مُحشِّيه، فاهتدى الشيخ إلى ترجمة المؤلف بالإجمال، وإلى تعيين بلده، وإلى ترجمة مُحشِّيه والمعلِّق عليه باستيفاء، وترجم لهما في مقدمته للكتاب، وأتحف القراء بتصحيح أغلاط وتحريفات كثيرة وقعت في طبعة الكتاب البولاقية، فذكر صفحات طوالًا في بيانها، وكشف تحريفها دون قصد استيفائها. وطبع الكتب أربع مرات في بيروت.

• **الاهتمام بعلوم الحديث:**

كما قد خدم الشيخ طيَّب الله ثراه علم مصطلح الحديث خدمة جُلَّى، فنشر وحقق جملة واسعة من كتبه الهامة المتميزة، مع تحقيقات وتعليقات وحواشٍ محرِّرة مبصِّرة، ومنها:

١١ ـ كتاب (**الموقظة**) في علم مصطلح الحديث، للحافظ الذهبي، حقَّقه رَحِمَهُ اللَّهُ اعتمادًا على مخطوطتين، وعلَّق عليه، وضبطه، وأوفاه حقه، وألحق بآخره خمس تتمَّات تتصل بمباحثه، جاء فيها بالنافع المبارك المفيد، وبخاصة ما يتعلق بكتاب (صحيح مسلم) وشَرْط مسلم فيه، وردِّ مسلم على مَنْ خالفه في شرطه، وبيان اسمه، وأثر هذا الاختلاف، وبيان وجاهة مذهب مسلم، وبخاصة مسألة تكفير أهل البدع والأهواء، وخرج الكتاب في (٢٢٠) صفحة. وطبع في بيروت أربع مرات.

١٢ ـ كتاب (**قفو الأثر في صفو علوم الأثر**) للإمام العلَّامة ابن الحنبلي الحلبي الحنفي، في (١٤٠) صفحة، وهو كتاب استخلص فيه مؤلفه كتب المصطلح التي دوِّنت قبله، وحرَّرها باختصار غير مُخِلٍّ، وباستيعاب غير مُمِلٍّ.

١٣ ـ كتاب (**بُلْغة الأريب في مصطلح آثار الحبيب**) للإمام الحافظ المرتضى الزَّبيدي شارح (القاموس) و(الإحياء)، ترجم فيه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ للمؤلف ترجمة وافية، وضَبَط نصوص الكتاب، وخدمه بعناية كاملة وإخراج

جميل، وطبعه مع كتاب (قَفْو الأثر) في مجلد واحد. وطبع في بيروت في نحو (١٠٠) صفحة.

١٤ ـ (**جواب الحافظ المنذري عن أسئلة في الجرح والتعديل**)، وهي أسئلة مُشْكِلة، وجَّهها بعض كبار المحدِّثين من معاصري الحافظ المنذري له، ورغب في إجابته عنها، فأجاب عنها بأوفى بيان. وقد اعتنى الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الأجوبة، ووشَّاها بتعليقات نافعة، وطبع في (١٠٠) صفحة. ومعه:

١٥ ـ (**رسالة أمراء المؤمنين في الحديث**)، جمع فيها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أسماء من لُقِّبوا بلقب أمير المؤمنين في الحديث، من أول القرن الثاني إلى ما بعد القرن العاشر، فبلغوا (٢٦) عالمًا، وذكر فيه أيضًا أمراء المؤمنين في الفقه والعربية، فكان تحفة طريفة. طبع في بيروت في أكثر من (٥٠) صفحة.

١٦ ـ كتاب (**لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث**)، من تأليف الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو كتاب من (٢٥٢) صفحة، حوى مباحث من علوم الحديث في تاريخ بدء وضع الحديث، وأسبابه، ونتائجه، وكيف عالجه العلماء المحدِّثون، ونبه إلى ما بذلوا في مقاومته من جهود.

- **الاهتمام بالأحاديث الموضوعة:**

١٧ ـ كتاب (**المصنوع في معرفة الحديث الموضوع**) للعلامة الشيخ المُلَّا علي القاري الهروي ثم المكي (ت: ١٠١٤هـ = ١٦٠٦م)، وقد تولى الشيخ تحقيق أحاديثه وبيان درجتها، وذكر ما يغني من الحديث الصحيح عن الحديث الموضوع فيها، وقدَّم له بمقدِّمة واسعة حافلة بلغت (٤٢) صفحة، قرر فيها ضوابط وقواعد، ونبَّه في تعليقاته على أغاليط وأوهام وقعت لبعض العلماء، من الاعتماد في تصحيح الأحاديث على الكشف الذي يقول به بعض الصوفية. وطُبع الكتاب عدة مرات في أكثر من (٣٤٠) صفحة.

• **العناية بالحديث الضعيف وبمكانة ابن القيم في الحديث:**

١٨ ـ كتاب (**المنار المنيف في الصحيح والضعيف**) للإمام ابن القيم، وهو كتاب أراد مؤلفه حياطة السنة المطهرة من الأحاديث الموضوعة، وأكاذيب القصاص والوعاظ، وقد تميَّز هذا الكتاب بذكر قواعد وضوابط ترشد العالم إلى معرفة الحديث الموضوع والخبر المكذوب والأساطير المفتعلة. ويظهر في هذا الكتاب ـ كما في غيره ـ منزلة ابن القيم في خدمة السُّنَّة النبوية والدفاع عنها، كما بدا ذلك في كتب عدة؛ منها تعليقه على سنن أبي داود. وقد طبع أربع مرات في (٢٢٤) صفحة.

• **التوسع في معرفة كل ما يتعلق بالحديث:**

١٩ ـ كتاب (**ظَفَر الأماني في شرح مختصر السيد الشريف الجرجاني**) للإمام عبد الحي اللكنوي، وهذا الكتاب تميَّز في علم مصطلح الحديث بالنقاش والمراجحة بين الأقوال في المسائل المعضِلة؛ كمسألة (العمل بالحديث الضعيف)، و(الحديث الحسن)، و(الحديث المرسل)، و(الحديث المنكر)، وسواها من أبحاث المصطلح، التي لها صلة بأصول الفقه، والتي جرى فيها خلاف بين المحدثين والفقهاء، كما أن فيه تعقُّباتٍ دقيقة للحفاظ الجهابذة الكبار، كالعراقي وابن حجر والسخاوي وغيرهم. اعتنى الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بخدمته وتحقيقه، وضبط نصوصه، وتقويم تحريفاته الواقعة في الأصل، وعلَّق عليه، وبلغ هذا الكتاب بفهارسه العامة (٦٢٠) صفحة.

٢٠ ـ كتاب (**توجيه النظر إلى أصول الأثر**) للعلامة الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي، عُنِي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بخدمته، واعتنى به، ففصَّل مقاطعَه وجُمَله، وضبط ألفاظه وعباراته، وعلَّق عليه، وربط بين نصوصه وإحالاته، ووضع له الفهارس العامة، وألحق به رسالة الحافظ ابن الصلاح في وصل البلاغات الأربعة في موطأ الإمام مالك، فخرج في مجلدين كبيرين، بأكثر من ألف صفحة بفهارسه العامة.

٢١ ـ رسالة الحافظ الذهبي: (**ذِكر من يُعتمد قولُه في الجرح والتعديل**)، ذكر فيها ما يزيد على (٧١٥) عالمًا تكلموا في جرح الرواة وتعديلهم، من صدر الإسلام إلى عصر الذهبي، وقد اعتنى بها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وضبط الأسماء والألقاب والكنى فيها. وطبعت في (١٥٠) صفحة.

٢٢ ـ كتاب (**المتكلمون في الرجال**) للحافظ السخاوي، وهو في موضوع رسالة الحافظ الذهبي (ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل)، اقتصر فيه السخاوي على أشهر علماء الجرح والتعديل من صدر الإسلام إلى عصره، فبلغوا نحو (٢١٠) عالم. فترجم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لهؤلاء العلماء بتراجم متوسطة عرَّفت بهم وبآثارهم الحديثية. وطبع في (٧٠) صفحة.

٢٣ ـ (**قاعدة في الجرح والتعديل، وقاعدة في المؤرخين**) للحافظ تاج الدين السبكي، شرح فيهما شروط الجرح والتعديل وما يُقبل منهما وما لا يُقبل، حقَّقها الشيخ، وعلَّق عليها. وطبعت في (٨٠) صفحة.

٢٤ ـ (**شروط الأئمة الخمسة**) للحازمي، وهو من المراجع الهامة لمعرفة شروط البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي والترمذي.

٢٥ ـ (**شروط الأئمة الستة**) للحافظ ابن طاهر المقدسي، وهو من باب الكتاب السابق، وعلى منواله، وكلاهما خدمهما الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بالتحقيق والتعليق والمقابلة بأصول موثقة، وصدرا في نحو (١٥٠) صفحة.

٢٦ ـ (**رسالة الإمام أبي داود إلى أهل مكة في وصف سننه**)، وهي رسالة مهمة لا يستغني عنها قارئ السنن، قابلها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بأكثر من أصل مخطوط، وعلَّق عليها.

وقد صدرت هذه الرسائل الثلاث الأخيرة بعد وفاة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، في مجلد واحد بعنوان: **ثلاث رسائل في علم مصطلح الحديث.**

كما صدر بعد وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٧ ـ كتاب (**الإمام ابن ماجَهْ وكتابه السنن**) للشيخ العلَّامة المحدِّث محمد عبد الرشـــيد النعماني الهندي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ١٤٢٠هـ)، قدَّم له مؤلفه مقدمة هامة حول تدوين الحديث وتاريخه في القرون الثلاثة الأول، مع تعرضه لشـــروط الأئمة الأربعة المجتهدين والأئمة الحفاظ أصحاب الكتب الستة، وأبرز عناية العلماء بســـنن ابن ماجه، ومؤلفاتهم فيه، وأضاف عليه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تحقيقات وتعليقات نافعة جدًّا، وقد طبع في (٢٩٠) صفحة.

٢٨ ـ (**مبادئ علم الحديث وأصوله**) للعلامة المحقق شَبِّير أحمد العثماني الهندي ثم الباكســـتاني (ت: ١٣٦٩هـ = ١٩٤٩م)، مؤلف الكتاب الممتع الغني بالتحقيق (فتح المُلْهِم بشرح صحيح مسلم) وهذا الكتاب مقدمة هذا الشرح الجليل، اعتنى به الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عناية بالغة، وصدر في أكثر من (٥٠٠) صفحة. وقد أكمله شـــرحًا مع العناية بالأحـــكام والحياة المعاصـــرة: أخونا وصديقنا العلَّامة الشيخ محمد تقي عثماني، نفع الله به.

٢٩ ـ (**مقدمة كتـــاب التمهيد**) للحافظ ابن عبد البر الأندلســـي، قام عليها الشـــيخ بتعليق وافٍ على موضوعاته ومسائله، وهو من أقدم ما كُتِب في علم مصطلح الحديث، وطبع في (١٢٠) صفحة.

ومن الكتب التي حققها وعُني بها أيضًا:

٣٠ ـ كتاب (**التصريح بما تواتر في نزول المســـيح**) لمحدث العصر في الهند الكبرى الشيخ محمد أنور شاه الكشـــميري، الذي سد بالتواتر الطريق على من يريدون باســـم العقل الحر أن يردوا على مـــا ورد في موضوع نزول المسيح من أحاديث، بحجة أنها أحاديث آحاد، فبين الشيخ تواترها، بما أورد من أربعين حديثًا صحيحة أو حسنة.

وكان أصل هـذا الكتاب في نحو (٢٠) صفحة، فخـرج بعد خدمته الوافية وتخريج أحاديثه وآثاره في نحو (٣٧٣) صفحة، وأدَّى هذا الكتاب خدمة جُلَّى في تجلية حقيقة هذا الموضوع ـ وبخاصة زمن طبعته الأولى ـ، في الوقت الذي كان ينكره أو يتردد فيه طائفة من كبار العلمـاء، وخرج الكتاب نافعًا للخواصّ والعوام، ومصحِّحًا لأفكار الواهمين والمنكرين. وطبع أكثر من خمس مرات.

• **ترشيحي للشيخ أبي غدة لجائزة سلطان بروناي في الحديث:**

ومما أذكره هنا في كلامي عن الشيخ أبي غدة: رسالتي التي أرسلتُ بها إلى الأخ الكريم الدكتور/ فرحان أحمد نظامي مدير (مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية)، بمناسبة ترشيحي للشيخ أبي غدة لجائزة سلطان بروناي في علم الحديث، وكان مما كتبته في هذه الرسالة:

بالإشارة إلى رسالتكم المؤرخة في (١٤١٥/٤/٢٨هـ) والخاصة بالإعلان عن جائزة السلطان حسن البلقية ـ سلطان بروناي ـ العالمية، والتي يقوم بتنسيقها أمانة في مركزكم الموقر.

وبما أنكم أعلنتم عن موضـوع الجائزة لعـام (١٩٩٥م)، وهو: (الحديث النبوي الشريف وعلومه).

فيسرُّني باسم مركز دراسات السنة والسـيرة بجامعة قطر أن أرشِّح لهذه الجائزة أحد أعلام الحديث النبوي وعلومه في عصرنا، الذي خدمه طوالَ عمره المبارك بالتدريس والتأليف والتحقيق والمشاركة في وضع المناهج وغيرها، وهو العلَّامة المعروف في العالم الإسلامي: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، حفظه الله ونفع المسلمين بعلمه.

لهذا العلَّامة أكثر من (٥٠) خمسين كتابًا في الدراسات المختلفة، ما بين علوم قـرآن، وعلوم حديث، وفقـه، وتربية، وتاريخ، جُلُّها في خدمة السـنة المشرفة.

ومن قرأ هذه الكتب ـ سواء كانت محقَّقة أو مؤلفة ـ وأمعن فيها النظر، عرف منها بوضوح مكانة التكوين العلمي للشيخ حفظه الله، وسعة أفقه، ورسوخ قدمه في علوم المقاصد، وهي علوم الشريعة المعروفة، من القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلوم العقيدة والسلوك، وفي علوم الوسائل كذلك، وهي علوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب. كما دلت على ذلك تعليقاته العلمية الضافية، وحواشيه الرائقة الصافية.

ورغم أنه يختار للتحقيق الكتبَ القيمة النافعة، فإن تحقيقاته وتعليقاته الأنيقة الممتعة أضافت إليها قيمة مضاعفة.

هذا مع اعتدال في التوجه، وإنصاف للمخالِف، وتقدير للرأي الآخر، ومراعاة لأدب الخلاف والحوار، وعفة اللسان والقلم، في تناول الأشخاص والمذاهب والفرق والجماعات، شأن العلماء الراسخين المربِّين أبدًا.

وكما أن الشيخ معروف بعلمه وفقهه وحسن درايته، في الأوساط العلمية والإسلامية، فهو معروف كذلك بورعه وتقواه وحسن خلقه، يشهد بذلك كل من اقترب منه، ويلمسه لمسَ اليدِ كلُّ من عايشه وعاشره، زميلًا أو تلميذًا، فهو من الربانيين القلائل، أو (الخَلَف العُدُول) الذين يحملون علم النبوة للأجيال، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، نحسبه كذلك والله حسيبه، ولا نزكِّيه على الله تعالى.

وهذه الخصال المعروفة عنه، من الورع والتحرّي والمراقبة، لم تحجب ما في شخصيته المُحبَّبة من الظُّرف واللطف وحسن المعشر، والدعابة المهذَّبة، والمشاركة في المُلَح والطُّرَف، التي تسمعها العذراء فلا تخجل منها.

هذا ما حفل به تاريخه المشرق من غيرة على الإسلام، ومشاركة إيجابية في بعث أمته، ونشر دعوته، وتحكيم شريعته، وإن جرَّ عليه ذلك ما جرَّ من

أذًى ومحنة وهجرة في سبيل الله، فهو أحد الدعاة الصادقين، والعاملين لنصرة هذا الدين، نسأل الله أن يتقبل جهاده وجهوده. اهـ.

• **تقويمنا للشيخ أبي غدة:**

الشيخ عبد الفتاح رجل صالح، قوي الإيمان، مستقيم الخلق، راسخ القدم، يأوي إلى ركن وثيق من العلوم الشرعية الإسلامية، متمكِّن من علوم الحديث، دارس لها في مصادرها وكتبها الأصلية والفرعية، والقديمة والحديثة، دارس في الفقه على مذهب أبي حنيفة النعمان، كمعظم علماء أهل بلده، ولذا تتلمذ على علامة زمانه الشيخ مصطفى الزرقا، وعلى غيره من العلماء، ملم بمعرفة بعض المذاهب الأخرى، كمذهب الشافعي، والمذهب الحنبلي.

• **حنفي غير متعصب لمذهبه:**

ولكنه مع هذا لم يكن متعصِّبًا للمذهب الحنفي، حتى إن خالف الحديث الصحيح، ككثير من الأحناف من مشايخه ومن زملائه، ومن تلاميذه.

وهو وإن كان حنفيًّا ملتزمًا بمذهبه، لم يذم المذاهب الثلاثة السنية الأخرى: مذهب مالك، والشافعي، وابن حنبل، ويرى أن جميعهم يمضون على منهج واحد، هو الأخذ بالمعايير الأربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والرأي، أو القياس.

وكلُّهم مِنْ رسولِ الله مُلْتَمِسٌ غرفًا مِنَ البحرِ أو رشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

ولذلك أثنى على هؤلاء الأئمة المتبوعين المقلَّدين، كما أثنى على أئمة مجتهدين آخرين، ظلوا مقلَّدين مدة من الزمن، ثم اختفوا؛ مثل: الإمام الأوزاعي (١٥٧هـ)، والإمام سفيان الثوري (١٦١هـ)، والإمام الطبري (٣١٠هـ)، وهذا موقف أتباع المذاهب كلهم من المذاهب السُّنِّية المتبوعة، وكذلك كان موقف الشيخ أبي غدة من المذهب الحنبلي وأئمته؛ مثل: ابن الجوزي، وابن قدامة، والقاضي أبي يعلى، وابن عقيل، وآل تيمية؛ الجد والأب والحفيد شيخ

الإسلام ابن تيمية الحبر البحر الزخار، الذي لا يدرك له قرار، ولا تُسبر له أغوار، وتلميذه الكبير الإمام ابن القيم، ومَن بعدَهم من أئمة الحنابلة، مثل: ابن رجب، وابن مفلح، وغيرهما.

• **أبو غدة محب لابن تيمية:**

كان أبو غدة من المحبِّين لابن تيمية، ومن المطَّلِعين على سعة علمه وتنوعه، وأن عنده من أنواع العلم ومفاتيحه ما ليس عند غيره، ولذلك كان موقفه من المذهب الحنبلي موقف كل المتَّبعين للمذاهب المالكية والشافعية والحنفية، بل كثيرًا ما أثنى على هذا المذهب وعلى أدلته، وعلى الأئمة الكبار فيه مثل الذين ذكرناهم من قبل.

وكان موقفه من ابن تيمية في غاية الوضوح، فهو رأس وإمام، وعَلَم من كبار الأعلام، وشيخ الإسلام، وأحيانًا يذكره بلفظ شيخ الإسلام، وأحيانًا يقول: الشيخ ابن تيمية، وهذه لا تعد تنقصًا من الإمام، ولا تقليلًا من قيمته، بل هو ما يقتضيه المقام من الاختصار والاقتصار.

ولكن لأن الشيخ تحيط به أشواك وضعها من حوله الوضَّاعون، وُضعت فيه أقاويل بثَّها فيه المتقولون على الناس بالباطل، والمزايدون والمتملقون والكائدون والمخاصمون، والآخذون بالظنون البعيدة، والدعاوى المردودة، وكل ما ليس بحق، وقد قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

• **تتلمذ أبو غدة على الكوثري، وعدم تعصبه له:**

كان الشيخ عبد الفتاح أبو غدة من علماء الأحناف، ومن علماء الأشعرية أو الماتريدية، ومن المحدِّثين على طريقة الإمام الطحاوي، والزيلعي صاحب (نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية)، ومثله في ذلك مثل الكثيرين من العلماء الأحناف في الهند وباكستان وأفغانستان وغيرها، ولكنه كان تلميذًا نجيبًا للشيخ التركي الكبير العلَّامة محمد زاهد الكوثري، وهو من رجال

الحديث، والعلماء الكبار عند الأتراك ومن عارفيهم، بل كان الشيخ أبو غدة هو أعظم تلاميذ الكوثري، وأغزرهم علمًا، وأوثقهم حجة.

وكان للكوثري مواقف من الحنابلة ـ أو قل: من السلفيين أو من الوهابيين ـ وله كلام فيهم، وفي أهل الحديث عامة، لا يرضاه أهل العدل والإنصاف، كرده على كتاب العلَّامة الشيخ أحمد محمد شاكر (نظام الطلاق في الإسلام) الذي رد فيه على المتمسكين بالمذاهب، الذين يوقعون الطلاق لأدنى شيء، ولو في حالة الغضب والمزاح والإكراه، فينشئ الكوثري كتابًا في الرد على شاكر سمَّاه: (الإشفاق على أحكام الطلاق).

وللشيخ الكوثري رد عنيف على ابن تيمية، واتهام له في دينه، وهو يرفض كل اجتهادات ابن تيمية الرائعة، والمحرِّرة للمسلمين من الالتزام والتقيد بالفقه المذهبي في كل شيء، وإن أدى إلى هدم الأسر وخراب البيوت، وضياع الأبناء والبنات، فالكوثري يرجح مذهبه في كل هذه الاجتهادات، مهما تكن نتائجه، وابن تيمية ومدرسته يحاولون من خلال الفقه الإسلامي نفسه، والرجوع إلى المصادر الأصلية، وإلى تراث الأمة، ومناقشة الأدلة والترجيح بين الآراء: إنقاذ الأسرة المسلمة مما انتهت إليه من مهاوي الطلاق، الذي أدى إلى كوارث أسرية واجتماعية ودينية.

وكان للشيخ الكوثري موقف من الذهبي، واتهمه بالتعصب ضد الأشاعرة، وعدم إعطائهم حقوقهم كما ينبغي من التوقير والاحترام والدفاع في الترجمة لهم في كتبه، وخصوصًا: (سير أعلام النبلاء)، وأنه إذا جاء واحد من الحنابلة ممن يهش له الذهبي رحب به وأطيب وبشَّر وكبَّر، وزاد وأفاض، على حين يقبض يده، ويغلق فمه عندما يتحدث عن الأشاعرة وغير الحنابلة.

وأنا أقول بصراحة: إن هذا كله ظلم للحنابلة وللسلفيين ـ أو الوهابيين ـ وخروج عن حد الإنصاف والعدل في الخصومة، وقد سألت شيخنا الشيخ

عبد الفتاح أبو غدة بصراحة: هـل تتبنى هذه الأقاويل التي يقولها شـيخك الكوثري؟ قال لي: لا والله، لا أتبناها، ولا أروِّجها، ولا أدعو إليها. هذا ما قاله الشيخ أبو غدة بصريح كلامه، وأنا أسـجِّل هذا للشيخ، وأبرئه من أن يتحمَّل كل ما قاله شيخُه في هذه الأمور.

• **الحنابلة من أعظم أتباع المذاهب:**

وأنا أقول: إن الحنابلة هم من أعظم أهل المذاهب الذين نفعوا الإسلام، ونفعوا المسـلمين، ولهم في فقه مذهبهم وعرضه والتدليل عليه، ومناقشـة خصومه، من روائع المؤلفات والشروح والحواشي ما لا مزيد عليه، وها نحن نرى كتبهم، ونطَّلع فيها على الروائع والعجائب والكنوز، ما قد يفوق كثيرًا من المذاهب الأخرى، وأحيانًا عليها كلها، وخصوصًا اجتهادات شـيخ الإسلام وتلميذه العلامة ابن القيم، التي شرَّقت في عصرنا وغرَّبت، ووجد الناس فيها خلاصًا للأسـرة المسـلمة من تعقيدات المذاهب السـابقة، ومنها المذهب الحنبلي نفسه، ولهذا قال الشـاعر العراقي معروف الرصافي حين أفتاه مفت تيمي (أي ينتمي إلى مذهب ابن تيميـة) بجواز عودة زوجته إليه، وقد طلقها أهل مذهبه الحنفية ثلاثًا لا رجعة فيها، حتى تنكح زوجًا غيره. فقال الشـاعر يمدح هذا الرأي، ويمـدح الإمام ابن القيم الذي انتصر لهـذا الرأي، وقواه، وساق الأدلة عليه، خاصة في كتابه (إعلام الموقعين):

ألَا قُلْ فـي الطَّـلاق لمُوقِعِيه ... بما في الشَّـرعِ ليس له وجوبُ
غَلَوْتُـم فـي ديانتكـم غُلُـوًّا ... يضيقُ ببعضِه الشـرعُ الرحيبُ
أرادَ اللهُ تـيسـيـرًا وأنـتُـم ... مِنَ التعسـيرِ عِنْدَكُـمُ ضُروبُ
وقـد حلَّـتْ بأمتكـم كروبٌ ... لكـم فيهـنَّ لا لهـمُ الذنوبُ
وَهَى حبلُ الـزَّواجِ ورقَّ حتَّى ... يـكاد إذا نَفَخْـتَ لـه يذوبُ
كخيطٍ من لعابِ الشمسِ أدْلَتْ ... بـه في الجـوِّ هاجـرةٌ حلوبُ

يمزِّقــه مــن الأفــواهِ نَفْــثٌ ... ويقطعُــهُ مِــنَ النَّشــمِ الهبوبُ
فدى (ابنَ القيم) الفقهاءُ كم قَدْ ... دعاهــم للصوابِ فلــم يُجيبوا
ففــي (إعلامــه) للنَّاس رشــدٌ ... ومزدجــرٌ لمــن هو مســتريبُ

ولقد رأيت الإمام الذهبي ينصف كل الفئــات المختلفة، حتى المعتزلة، يقول عن الزمخشــري، وعن القاضي عبد الجبار، وعــن الجاحظ والعلَّاف والنظَّام، بل عن اليهود والنصارى، بل عن الملاحدة من الفلاســفة وأمثالهم، من الكلمات ما لا يقوله إلا رجل عالم منصف، يعطي كل إنسان ما يستحقه، مهما يكن له من الآراء ما لا يقبله.

ربما يعيب الشــيخَ أبو غدة بعضُ الإخوة من السعوديين المتشددين، ومن كان على مذهبهم ومنهجهم؛ لأنه لم يكتب ضد شيخه فيما كتبه! فهل يلزمه أن يكتب ضد ما كتبه، أم يلزمه ألا يتبعــه، وألا يحبذه، وألا يدعو الشباب إليه؟!.

وقد قالوا لــي: إن أخانا وصديقنا العالم الســلفي الفقيه الأديب الدكتور الشــيخ بكر أبو زيد، رئيس مجمع الفقه الدولي، كتب رســالة ضد الشــيخ عبد الفتاح وهاجمه هجومًا قويًا في رسالته، ولم يُتَح لي أن أطلع عليها[1].

• رد الشيخ أبو غدة على من ادعى عليه تكفيره لأئمة السلفية:

اتهم بعض الشانئين للشيخ من المتعصبين أنه ألف بعض الكتب والرسائل بأســماء مســتعارة ينال فيها من الإمامين الجليلين ابن تيمية وابن القيم ومن الإمام محمد بن عبد الوهاب، فألف الشيخ رسالته (كلمات في كشف أباطيل وافتراءات) وكان مما قال فيها:

«رَمَتْنِيْ بدائها...:

---

(١) قد اطلعت عليها أخيرًا، وأقول: غفر الله للشيخ بكر أبو زيد.

قد نسبوا إليَّ في المقدمة المنحولة لكتاب (المقابلة بين الهدى والضلال) باسم المحقِّق الموهوم، فزعموا في (ص ٤ و ٥) منها: (أني ألَّفتُ كتبًا بأسماءٍ مستعارة، مثل (أبي حامد) و(أرشد) و(الدكتور)، أو غيرِ اسم أصلًا مثل (التعقيب المفيد) و(براءَة الأشعريين)... إلى آخر ما قالوه من البهتان.

وبيانًا للحقيقة: أُعلِمُ كلَّ من ينشد الحقَّ: أَني لستُ من أَهل هذا الخُلُق، والحمد لله، والكائدون يعرفون ذلك عني حقَّ المعرفة، ولا داعي بي أن أَختفي ـ على طريقتهم وصنيعهم ـ وراءَ أسماءٍ مستعارة، وكتبٍ لمجهولين، فهذا صنيعُ أمثالهم الذين استمرؤوا التزويرَ في كتب الناس، فسهُل عليهم نَحْلُ الكتب لغير أهلها، وتحت يدي الوثائقُ الناطقة بذلك عليهم، وهم إنما يفعلون ذلك لفِتَنٍ ومآرب، لا تَخفى على كل ذي بصيرة، ولا تغيب عن كل عامل في ميدان الدعوة الإسلامية.

• **اتهام الشيخ بتكفير ابن عبد الوهاب وابن تيمية وابن القيم:**

ونسبوا إليَّ في تلك المقدمة المنحولة في (ص ٥ و ٨) أني قلت بكفر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ ابن تيمية، والشيخ ابن القيم. هذا قولهم.

وهو من أكذب الكذب، وأرخص الدس والتزوير، فليس تكفير الناس ـ فضلًا عن العلماءِ ـ من شيمتي، ولا خُلقي، والحمد لله، فقد حفظني الله تعالى بما أَكرمني به من عقل، وما أدَّبني به من أَدب الإسلام: أَن أَقع في هذه المكفِّرات والموبقات، فإنه من كفَّر مؤمنًا فقد كفر.

وهؤلاءِ أَئمة أَعلام، من خيار المؤمنين العالمين العاملين الداعين إلى الله تعالى، ومن أَراد أن يُحكم عليه بالسَّفَه والعَتَه، فليكفر أَئمةَ الإسلام، وهؤلاءِ السادة الأعلام.

وهَبْني قُلت: هذا الصُّبْح ليلٌ أَيَعمى العالَمون عن الضياءِ؟!

وأَرى من المفيد جدًّا أن أَنقل نَصَّ عبارتهم في المقدمة المنحولة للكتاب المذكور، ليَشهد القارئ الكريم: الدَّسَّ الذي سلكوه، والافتراءَ الذي صنعوه، وليكون ذلك نموذجًا ساذجًا من الافتعالات والأكاذيب.

قالوا في المقدمة المذكورة في (ص٤ ـ ٥) ما نصه بالحرف الواحد أَضعه بين هلالين: «لقد قام عبد الفتاح أَبو غدة بحملات باسمه الصريح فيما يَطبع من الكتب حينًا، وأَحيانًا تحت أَسماءٍ مستعارة، مثل (أَبي حامد) و(أرشد) و(الدكتور)، أَو غيرِ اسم أَصلًا، كما فعل أَبو غدة نفسه فيما سماه (التعقيب المفيد) و(براءَة الأشعريين)، وغيرِ ذلك من نشرات ورسائل، وتقاريرَ إلى مختلِفِ الجهات[1]، وإليك مطلع كتابه الأول، قال أَبو غدة متسترًا: فهذه

---

(١) قال الشيخ هنا معلقًا: أقول: لقد انكشف بُهتانُهم واختلاقُهم عليَّ في هذا، فقد طَبَعَتْ دار الشباب للطباعة والنشر ١٥ شارع العباسية بالقاهرة سنة ١٩٨٤م كتابًا عنوانُه (تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع)، جَمْع أبي سليمان محمود سعيد بن محمد ممدوح الشافعي، جاء في الصفحة ٣٧٥ منه، في ترجمة (الشيخ محمد العربي بن التُّبَّاني المغربي ثم المكي) المتوفى بمكة المكرمة سنة ١٣٩٠هـ ما يلي:

«ومما انفَرَد به في هذا العصر ردُّهُ على العلَّامة ابن القيم ـ المسمى: التعقيب المفيد على هَدْي الزُّرَعي الشديد ـ في بعض مسائل ذكرها في (زاد المعاد)، وكتابٌ آخر كبيرٌ اسمُهُ (براءة الأشعريين من عقائد المعتزلة والمخالفين)، وهما من كتبه التي طُبِعَتْ ونَفِدَتْ». انتهى ما في كتاب (تشنيف الأسماع)، وبهذا النَّصّ على اسم مؤلِّف الكتابينِ المذكورينِ تزدادُ الشواهدُ والأدلَّةُ على كذبهم وافترائهم ودَسِّهم عليَّ، فالله حَسِيبُهم وهاتِكُ سِترهم فيما يفترون.

وهذان الكتابان: (التعقيب المفيد) و(براءة الأشعريين) مطبوعان بمطبعة العَلَم بدمشق سنة ١٣٨٧هـ =١٩٦٧م، ومكتوبٌ عليهما (تأليف أبي حامد بن مرزوق ﷺ).

وأما (أرشد) فانكشف كذبُهم وبُهتانُهم فيه أيضًا، فقد طَبَعَتْ مكتبة دار العربية للنشر والتوزيع في الكويت سنة ١٤٠٣هـ كتابًا بعنوان (الألباني: شُذوذُه وأخطاؤه، بقلم محدِّثِ الديارِ الهنديةِ والعالَم الإسلامي حبيب الرحمن الأعظمي)، جاء في الصفحة ٥ و٨ من تقدمة الناشر ما يلي: «طُبع هذا الكتاب أولَ طبعة بالهند، ثم طُبع في بيروت، قام بطبعه بعض الناشرين الغيورين هناك، ووزَّعه مجانًا حِسبةً لله تعالى، لكشفِ أضاليل الألباني، فأعطى =

خلاصة علمية في عقائد محمد بـــن عبد الوهاب ومقلِّديه، جمعت أكثر دررها المنقولة والمعقولة من تحقيق علماءِ الإسلام، وقد رَدَّ بعض أَتباع الأئمة الأربعة عليه (محمد بن عبد الوهاب) وعلى مقلِّديه، بتآليف كثيرة جيدة ـ كذا ـ.

وتنحصر أمهات عقائد محمد بن عبد الوهاب ومقلِّديه في أربع:

١ ـ في تشبيه الله بخلقه.

٢ ـ وتوحيد الألوهية والربوبية.

٣ ـ وعدم توقيرهم النبي.

٤ ـ وتكفير المسلمين ـ كذا ـ.

وهو مقلِّدٌ فيها ابنَ تيمية، وهو مخترع توحيـــد الألوهية والربوبية، الذي تفرَّعَ عنه عدَمُ توقيرهم للنبي، وتكفيرُهم المسلمين.. إلخ ما كَذَبَ به.

وهكذا استمر بهذه الأباطيل والأكاذيب.

تســـميته: الإمام ابن تيمية بـ(الكافر، المفتون، الشاذ، الضال...)، وتسمية العلَّامة ابن القيـــم بـ(المتعصب، الشـــاذّ، المعتوه، الوَقِح، المـــزوِّر...)، انظر (التعقيب المفيد)، وتهجمه على الشـــيخ محمد بن عبد الوهاب بأكثر من هذه الألفاظ، وأخفُّها: الجهلُ، والكفرُ، وأَتبعَ ذلك على كل من سَبَق هؤلاءِ من الأئمة ممن قال بما قالوا، وعلى من جاءَ بعدهم كذلك». انتهى كلامهم بالحرف تمامًا.

= أفضلَ الأثر، وأنقَذَ الله تعالى به أناسًا كانوا مُغَرَّرين ومَغْرُورين بالألباني وفِرقتِه، وعادوا إلى احترام السلف، واتِّباع الأئمة المتبوعين.

وإنما نُشِر هذا الردُّ قبلَ هذه الطبعة باسم (أرشد السلفي)، وهو اسمُ الكاتب الذي كان الشيخ حبيب الرحمـــن أملاه عليه. ولمَّا رُوجِعَ الشـــيخُ في ذلك، وأُخبِرَ أنَّ لاســـمِه أثرًا في قبول الكتاب وتنزيلِهِ المنزلةَ العلميةَ اللائقة، ســـمَحَ بأن يُذكَر اسمُهُ على الكتاب، ليكون أقضَى على شَغَبِ الألباني وأباطيلِهِ وشذوذِه وأخطائِه...». انتهى. وهذا شاهد آخر من شواهد كذبهم وافترائهم. وأما (الدكتور) فلا أعلم من يَعنون به؟! (هذه التعليقة لم تكن في الطبعة الأولى من رسالتي هذه في طبعة سنة ١٣٩٤هـ).

وهذا ـ والله ـ هو البهتان الصريح بعينه، يُساق بأسلوب ملفوف مُلفَّق محشُوٌّ بالكذب والافتراء، لإثارة علماءِ هذه الديار المقدسة وتأليبهم عليَّ؛ إذ من المعلوم أَن لهؤلاءِ الأعلام الثلاثة الشيخ ابن تيمية والشيخ ابن القيم والشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى مكانةً عظيمة في قلوب علماءِ هذه البلاد، فافتعل أولئك: هذا البهتان عليَّ ليثيروهم نحوي، رجاءَ أَن يبلغوا تحقيق مآربهم. والله يشهد أَنهم يعلمون من أَنفسهم أَني بريءٌ من هذا وأَنهم مفترون.

• **الحق لا يُخفى:**

ولستُ بحاجة إلى أن أَرد هذه التهم، وأَدفع هذه الأباطيل، فهي تكشف عن نفسها بنفسها، على أَني أتحدَّى أَيَّ إنسانٍ أن يُثبِتَ أَني قلتُ شيئًا ـ من هذا الذي ادَّعوه عليَّ زورًا وبهتانًا ـ في كتبي أَو دروسي، أَو فيما حقَّقتُ أو أَلَّفتُ، ولقد مضى عليَّ في هذه المملكة الكريمة نحوُ عشرِ سنوات، سمعني المئات من الطلاب، وعاشرني عشرات من الزملاءِ والأساتذة، وخالطت الكثيرين من العلماءِ والناس وخالطوني، فأين من سمع مني شيئًا من هذه الدعاوى الباطلة؟ ولو كنتُ أُضمر شيئًا من هذا لظهر واستبان، وتبدَّى لِلعِيان، وقديمًا قالوا: ما فِيك، ظهر على فِيك، فالحقُّ أَبلج، والباطل لجلج، وسُلوكي مكشوف، وخُلُقي معروف، والحمد لله.

• **قل: هاتوا برهانكم:**

أَما قولُ الناحلين تلك الكتب إليَّ في المقدمة المذكورة: «وإليك مطلع كتابه الأول، قال أبو غدة متسترًا...» إلى آخر ما نقلته من كلامهم قريبًا، فهذا بهتان واضح، واتهام ساقط، فأين الكتاب الذي قلتُ فيه هذه الافتراءات، ويَحمل اسمي ومسؤوليتي عما فيه؟ أَمَّا أَن يَنحلوا اسمي كتابًا أو كتبًا مزوَّرة بأسماءٍ يقولون: إني صاحبها، فما أَهونَ هذه الدعوى! وأَهونُ منها: سُقوطها

وإسقاطُها إلى الأرض! «**ولو يُعطَى الناس بدعواهم، لادَّعى رجالٌ دِماءَ قوم وأموالَهم...**».

وقد رَسَمَ الله تعالى طريقَ ثبوت الدعوى فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. فليتبصَّر القراءُ الذين يقرؤون تلك الأباطيل: هذه الطريقَ التي رسمها الله تعالى لقبول الادِّعاءَات والتَّقوُّلات، ولْيعلموا أَنَّ وراءَ ذلك الدّسّ والتزويرِ غاياتٍ سيئةً معروفة.

• **كشف الأباطيل:**

وفوق هذا السقوط المكشوف لدعاويهم الباطلة، أَسوق بعض الدليل على كذبهم وافترائهم، مع أَنه أَمر مكشوف لكل من يقرأُ كلامهم بتمهل وأَناة، فأَقول:

أما دعواهم أَني مؤلف هذه الكتب، فأَقول في وجهها: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]. وهذا البهتان العظيم ينخرط في رقابهم حتى يقيموا الدليل على مُدَّعاهم الباطل، وما هم ببالغين ذلك إلا بحبْلٍ جديد من أكاذيب جديدة، يُلقون بها للقراءِ على طريقتهم التي عُرفت بالدس والتزوير، وأصبحتْ لا تسري على الناس العارفين بهم. وهم الذين أَلِفوا بأَسماءٍ مستعارة، ودَسُّوا في كتب الناس ما لا يعلمون ولا يرضون، كما تقدمت الإشارة إلى بعضه في أَوائل هذه (الكلمات)، فليعُد القارئ الكريم إليه.

وأَما دعواهم أَني كفرت الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ ابن تيمية، والشيخ ابن القيم. فهي دعوى باطلة لا تحتاج إلى دليل.

• **ابن عبد الوهَّاب إمام الدعوة:**

فأَما الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، فهو إمام الدعوة غيرَ منازَع، وقد كان داعيةً إلى الله تعالى، وقام بالدعوة بحاله ومقاله وعلمه وقلمه، وما كنتُ

في كل حين إلا مقدِّرًا فضله وعلمه، وقيامه بالدعوة إلى الله تعالى، تلك الدعوة التي أَعطت أَطيب الثمـــرات في إِعلاء كلمة الله تعالـــى، وتصفية العقيدة من الشوائب والخرافات، والتي تتجلَّى آثارها في نشر العلم وكثرة العلماء، وانتشار المعاهد العلمية التـــي هي أَثر من آثار دعوته الخيِّرة، كمـــا تتجلَّى آثارها في مؤازرةِ الإسلام في كل بلد.

وأَتحدَّى أَن يُثبِتَ أحدٌ أَني ذكرته في كتاب من كتبي بإساءَة أَو انتقاص. ودعوى أولئك التي زعموا فيها أَني كفَّرتُه: ساقطة إلى الأرض، ولم تَصْدر إلا منهم، يَكذبون على الناس، ويَنحلون الكتبَ لغير أصحابها، ثم يَرمون غيرَهم بالبهتان والأباطيل، ويَنْسَوْن: أَنَّ لعنة الله على الكاذبين.

- **ابن تيمية شيخ الإسلام:**

وأَما الشـــيخ ابن تيمية رحمه الله، فهو شيخ الإســـلام، وإمام من كبار أَئمة الدين. ودعـــوى أُولئك الكائديـــن أَيضًا أَني كفَّرتُـــه، يَرُدُّها علـــى كاذبيها ومُصدِّريها: ما شَحَنْتُ به كتبي وتعليقاتي من النقول الكثيرة عنه، مع وصفي له بالإمامة والتكريم والإجلال، والاعتداد بأقوالـــه وآرائِه، مع الترحُّم عليه عند ذكره، ودِفاعي عنه عند من أَخطأَ في التعبير عن مقامه العلمي، وإيرادي لذكره في بعض كتبي على أَنه النموذج الذي جدَّدَ سِـــيرَة الســـلف الصالح بسيرته الفذَّة. وكلُّ هذا موجود في كتبي المطبوعة المنتشرة، بين أَيدي القراءِ في داخل المملكة وخارجها، قبلَ شَنّ أولئك الكائدين هذه الحملةَ المدخولة عليّ بسنوات.

وأَنا أحيل القارئ الكريم إِلى بعض كتبي، لينظر فيها ذكري لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بما ذكرتُـــه آنفًا، فلينظر القارئ تعليقـــي على كتاب (الأجوبة الفاضلة عن الأسئلة العشرة الكاملة) للشيخ محمد عبد الحي اللكنوي الهندي، وهو مطبوع بحلب من عشـــر سنوات ســـنة (١٣٨٤هـ)، فلينظر منه الصفحات

التالية، وفيها تعليقاتي واستشهاداتي بكلام شيخ الإسلام، مع الإجلال والتوقير والترحم عليه كما هو الشأن في الأدب مع كل عالم وإمام، وتلك الصفحات هي: (٤٧، ٩٢، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٩، ١١١، ١١٣، ١٢٠).

ولينظر القارئ الكريم أيضًا تعليقاتي على كتاب (المنار المنيف في الصحيح والضعيف) للإمام ابن القيم تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى، وقد حقَّقتُه وخدمتُه وفَرَغْتُ منه في (١٢ من رجب سنة ١٣٨٩هـ)، وتمَّ طبعه سنة (١٣٩٠هـ) في بيروت، وهو في أَيدي طلاب العلم في مكة والمدينة والرياض وغيرها من مدن المملكة يباع ويُوزَّع، فلينظر القارئ الكريم منه ما ذكرته عن شيخ الإسلام ابن تيمية في ترجمةِ مؤلفه الإمام ابن القيم، ولينظر منه أيضًا الصفحات التالية: (٥٨، ٥٩، ١٠٥، ١٢٤، ١٣٥).

ولينظر القارئ الكريم أيضًا تعليقاتي على كتاب (قواعد في علوم الحديث) للعلامة الشيخ ظَفَر أحمد التَّهَانَوِي، وهو مطبوع في بيروت، وقد بُدئ بطبعه سنة (١٣٩٠هـ) وفُرغ منه أوائل سنة (١٣٩٢هـ)، فلينظر القارئ فيه المواطن التالية: (١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٨، ١١٣، ١٤١، ١٦٨، ٢٢٣، ٣٥٤، ٤٤٠، ٤٤١).

وأَكتفي بهذه الإحالات إلى مواطِن ذكرِ شيخ الإسلام ابن تيمية مُبَجَّلًا معظمًا مقتدًى به، في الكتب الثلاثة السابقة الذكر من كتبي الكثيرة دفعًا للإطالة».

- **نص من تعليقات الشيخ وثباته على ابن تيمية:**

وقد ذكر الشيخ هنا نصين من انتصاره لابن تيمية ودفاعًا عنه، نكتفي هنا بذكر ثانيهما. قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«النص الثاني من تعليقاتي وثنائي على شيخ الإسلام ابن تيمية، أَنقلُه من كتابي المطبوع المتداول أيضًا من سنوات عديدة، وهو (رسالة المسترشدين) للمحاسبي في طبعته الثانية سنة (١٣٩١هـ) في بيروت، فقد قال المحاسبي في رسالته المذكورة في (ص١٠٢ ـ ١٠٣)، وهو يتحدث عن

صفات المؤمن العالم العاقل المخلِص، المختشي من الله تعالى، الصادقِ مع الله تعالى في السَّلَف المتقين، ما يلي:

«وعلامة ذَلِكَ فِي الصادق: إِذَا نَظَر اعتَبَـر، وإِذَا صَمَتَ تَفَكَّر، وإِذَا تَكلم ذَكَر، وإِذَا مُنِع صَبَر، وإِذَا أُعطِيَ شَكَر، وإِذَا ابتُلِيَ اسـتَرْجَع، وإِذَا جُهِلَ عَلَيْهِ حلُم، وإِذَا عَلِم تواضع، وإِذَا علَّم رَفَق، وإِذَا سُـئِل بَذَل، شِفاءٌ للقاصد، وعَوْنٌ للمسترشِد، حليفُ صِدق، وكهفُ بِرٍّ، قريبُ الرِّضَا فِي حق نَفْسه، بعيد الهمة فِي حق الله تعالى.

نيتُه أفضلُ من عمله، وعمَلُه أبلغُ من قوله، موطِنُه الحق، ومَعقِلُه الحياء، ومعلومُه الورع، وشاهِدُه الثِّقَة، لَهُ بصائرُ من النور يُبصِرُ بِهَا، وحقائقُ من العلم يَنْطِق منها، ودلائل من اليقين يُعبِّر عنها». انتهى كلام الحارث المحاسبي في (رسالة المسترشدين). وقد علَّقتُ عليها ما يلي بالحرف:

«ما أجملَ هذه الصفات وأَجلَّها! وما أعظمهـا مجتمعةً متحققة في العبد المسلم! وقد كان في سلفنا الصالح من هذا النوع النفيس أَعدادٌ لا تُحصى.

ورحم الله تعالى شـيخَ الإسـلام ابنَ تيمية، إذ جَدَّد بعظيم سيرته تاريخ الأَسلاف في هذه الصفات، فإنه لما نَزَلَتْ به المِحنة، وحُبِس في قلعة دمشق، وقُطِع عن الناس، وسُـجن معه تلميذه ابن القيم منفردًا عنه حتى مات الشيخ في السـجن: كانت حالُه فـي ارتياح وسُـرور، ورضًا غامـر، وكان كما قال المؤلف رحمه الله: «... له بصائر من النور يُبْصِرُ بها، وحقائقُ من العلم يَنْطِق منها، ودلائلُ من اليقين يُعبِّر عنها»، فكان السجن له خلوة، وكان يشكر الله على ذلك شكرًا عظيمًا...

يصف ابنُ القيم في كتابه (الوابل الصيب، ص٦٦ ـ ٦٧) حالَ الشيخ وحالَ نفسه آنذاك فيقول: «قال لي مرة: ما يَصنَعُ أعدائي بي؟ أَنا جَنَّتي وبُستاني في صدري ـ يعني بذلـك إيمانَه وعِلمَه ـ، أين رُحتُ فهـي معي لا تفارقني. إنَّ

حَبْسي خلوة، وقَتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سِياحة. وكان يقول في مَحْبِسه في القلعة: لو بَذَلْتُ مِلءَ هذه القلعة ذهبًا ما عَدَل عندي شُكرَ هذه النعمة، أَو قال: ما جزيتُهم على ما تَسبَّبوا لي فيه من الخير.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أَعِنِّي على ذكرك وشكرك وحُسنِ عبادتك ما شاء الله ـ أي: كثيرًا جدًّا ـ.

وقال لي مرة: المحبوسُ من حُبِس قلبُه عن ربه تعالى، والمأسورُ من أَسَرَه هواه. ولما دخل القلعة وصار من داخل سُورها، نَظَر إليه فقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وعَلِم الله: ما رأيتُ أحدًا أطيبَ عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخِلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدهما، ومع ما كان فيه من الحَبْس والتهديد والإرْجَاف، وهو مع ذلك من أَطيب الناس عيشًا، وأَشرحهم صدرًا، وأَقواهم قلبًا، وأَسَرّهم نفسًا، تلوحُ نَضرةُ النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءَت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أَتيناه، فما هو إلا أَن نراه ونَسمَع كلامه، فَيَذهَب عنا ذلك كُلُّه، وينقلبَ انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينة، وكان يقول: إنَّ في الدنيا جنة من لم يَدخلها لا يَدخل جنة الآخرة.

فسبحان من أَشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أَبوابها في دار العمل، فأَتاهم من رَوْحِها ونسيمها وطيبها ما استَفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها». انتهى النص الثاني الذي أَشرت إليه وعلقته على (رسالة المسترشدين) للمحاسبي المطبوعة من أَربع سنوات، وقد سُقْت هذا النص لبيان صفات السلف التي تحدث عنها المحاسبي، وجدَّدها شيخ الإسلام ابن تيمية في سيرته رحمه الله تعالى. فأَين دعوى أولئك الكائدين أني أكفِّره؟! حاشاه من هذا ورحمه الله تعالى، ورزقنا التأسِّيَ به فيما يُلِمُّ من مِحَن وابتلاءٍ واعتداء وافتراء.

• **الإمام ابن القيم:**

وأَما الشـــيخ ابن القيم رحمه الله تعالى، فهو إمام من أَجلَّةِ أَئمة المسلمين، ودعوى أُولئك الحانقين أَني كفَّرتُه، يَرُدُّها عليهم أَســوأَ ردٍّ: نُقُولــي الكثيرةُ عنه في تعليقاتي وكتبي، وقيامي بخدمة كتابه (المنار المنيف في الصحيح والضعيف)، وإبرازُه بالمظهر اللائق به، وترجمتي لــه الترجمة الكريمة الطافحة بالإجلال والتقدير والمحبة والاحترام. وسأشير إلى مواطِن تلك التعليقات التي نقلتُها عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في بعض كتبي، بعد أَن أَنقل هنا نصَّ الترجمة التي كتبتُها وقدمت بهــا لكتابه (المنــار المنيف)، وهو مطبوع في بيروت ســنة (١٣٩٠هـ)، فقد قلت في (ص ٧، ٨، ٩)، ما يلي بالحرف الواحد:

• **أقوال أبو غدة في ابن القيم:**

«ترجمةُ المؤلف: هو الإمام المحقِّق البارع الفَذُّ المُتْقِن المتفنِّن، ذو الذهن الوقاد، والقريحة السيالة، والقلم العذب البليغ المِطواع، والبيانِ المشرق الحيِّ الأخَّاذ، والروحانيةِ الفياضة؛ الشيخُ شــمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، المشهور بابن قيم الجوزية، الدمشقي الحنبلي رحمه الله تعالى ورضي عنه. واشــتهر بابن قيم الجوزية، لِمَــا أنَّ والده ـ وهو عالم مشــهور بعلم الفرائض ـ كان قَيِّمًا للمدرســة الجَوْزية الكائنة اليوم في سُوق البُزُورية بدمشق، فعُرف الشيخ (بابن قيم الجوزية).

وترجمة هذا الإمام باســتيفاءٍ تَخرج في مجلَّد كبير، وهو جدير أَن تُخرَج عنه دراســة شــاملة: في حياته وإمامته وآرائــه وفتاواه وانفراداتــه وتلامذته ومؤلفاته، وأَثره الفكري الحيِّ في صفوف أَهل العلم من زمنه إلى يومنا هذا، فلقد كان أَبو عبد الله مقتدًى به على الأجيال المتعاقبة، وقَبَسًــا من نور شيخه الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى.

وأنا سأجتزئ بسطور من ترجمته، بقدر ما يتسع المقام فأقول: وُلِد هذا

الإمامُ سنة (٦٩١هـ) في قرية زُرَع، من قرى حَوْران قرب دمشق، وتلقَّى العلمَ عن مشـايخ تلك الديار في عصره، فسَـمِع الحديث من الشهاب النابلسي العابر، والقاضي تقي الدين بن سـليمان، وعيسـى المُطعِم، وأَبي بكر بن عبد الدائم، وإسماعيل بن مكتوم، وفاطمة بنت جوهر، وغيرهم. وقرأ العربية على أبي الفتح والمجد التونسـي، وقرأَ الفقه علـى المجد الحَرَّاني، وأَخذ الأُصول عن الصفيِّ الهنـدي، وأَخذ علم الفرائض عن أَبيـه، وكانت له يَدٌ باسطةٌ في هذا العلم.

وقرأَ على الشـيخ تقي الدين ابن تيمية شيخِ الإسلام، ولازَمَه ستَّ عشرةَ سنة، منذ عاد الشيخ من مصر سـنة (٧١٢هـ) إلى وفاته سنة (٧٢٨هـ)، وكان الشيخ ابن القيم إذ ذاك في ريعان شبابه، وذِروة قوَّته ونشاطِهِ، واكتمالِ مَداركه، فقد كانت سِنُّهُ حينَ عودة الشـيخ إلى الديار الشامية (٢١) سنة، مع الاستعداد الفِطري العلمي الكامِل الذي مَنَحَهُ الله إياه، والحافظةِ القوية العجيبة، والقُدرةِ الباهرة على هَضْمِ المشكلات العلمية وتذليلها، وتحرير مواضعِ النزاع منها، وحُسْنِ الفَصل فيها.

ولا ريب أَنه ازداد من ذلك وتَقوَّى فيه من ملازمته للشيخ ملازمةَ الظل الشاخص مُدة (١٦) سـنة، يَنْهَلُ ويَعُلُّ من غزير علومه، ويتضلَّع ويَتروَّى من عظيم مَداركه وفهومه، حتى صار لسانَ حاله، والمعروفَ بالتلمذة عليه من بين العديد الكثير من سائر تلامذته، وهو الذي هذَّب كتبه، ونَشَر علمه. ولمَّا حُبِسَ الشيخ في المرة الأخيرة في قلعة دمشق، حُبِس معه، منفردًا عنه، ولقي من الشدائد والمِحَن الشيء الكثير، ولم يُفرَج عنه إلا بعد وفاة شيخه رحمهما الله تعالى.

وقد تلقَّى العلمَ عن ابن القيم ناسٌ كثيرون في حياة شيخه، وإلى أَن مات، وانتفعوا به، وغَدَا من شيوخ مِصْرِه وعَصْرِه، وممن تلقَّى عنه الحافظُ ابنُ رجب

الحنبلي، وقد ترجم له في كتابه (ذيل طبقات الحنابلة) ترجمة واسعة كريمة (٤٤٧/٢ ـ ٤٥٢)، وحكى من فنون فضائله وعظيم إمامته وكثير عبادته: الشيءَ الكثير، وعدَّد من مؤلَّفاته قرابة خمسين مؤلَّفًا ـ بل قد قاربت مؤلفاته المئةَ في التفسير والحديث، والفقه والأصول، والعقائد والديانات، والطب والنحو والعربية والأدب والتصوف، والأخلاق والقضاءِ والفروسية، وغيرها من العلوم والفنون.

وقد طُبع كثير من مؤلَّفاته، وكلُّها شاهدُ صدق بِسعة باعه، وعظيم اطلاعه، ورسوخِ إمامته في العلوم التي أَلَّف فيها، وما تَرَى له كتابًا في علم، إلا وتجد له فيه مزيَّةً بارزة على من أَلَّف في ذلك العلم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

هذا ما ترجمت به للإمام ابن القيم رحمه الله، في أَول كتابه (المنار المنيف) على سبيل الاختصار، وهذا الكتاب قد فرغتُ من خدمته وتحقيقه في يوم الأحد (١٢ من رجب سنة ١٣٨٩هـ) بالرياض، كما هو مطبوع في آخر مقدمتي له في (ص١٨)، وهو مطبوع في بيروت سنة (١٣٩٠هـ) كما أسلفت.

فأَين دعوى أُولئك أَني كفَّرته رحمه الله؟! وكيف يُجمع بين التكفير لمثل هذا الإمام والترحُّم عليه والترضِّي عنه، وذكر مَحاسنه ومزاياه واحترامه وإجلالِه؟! وحُقَّ لكل قارئ بصير عندما يقرأُ افتراءَهم بأَني كفَّرتُه أَن يقول: ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

وهذا الكلام الذي سُقته الآن في ترجمة الشيخ الإمام ابن القيم رحمه الله، صَدَر مني قبل نحو ست سنوات كما يدل على ذلك تاريخ الفراغ للمقدمة كما سلف ذكره آنفًا، ولم أُنشئه الآن حديثًا ليمكن أَن يقال من قِبَلهم أو قِبَل غيرهم: إني قلتُه تصنُّعًا أو تكلُّفًا، فهذا تاريخُ كتابته وطبعه ينطق عليهم بالحق.

بقي عليَّ بعد هذا أَن أُشير إلى مواطن نُقُولي الكثيرة عن الشيخ ابن القيم

في كتبي التي خدمتها وحققتها أو أَلَّفتها، ونظرًا لطول ذلك وكثرته، فإني أَرى أَن أقتصر على الإشارة إلى ذلك في ثلاثة كتب من كتبي:

أحدها: (رسالة المسترشدين) للمحاسبي، فأَرجو القارئ الكريم أَن ينظر تعليقاتي الطويلة العديدة على هذا الكتاب في طبعتِهِ الأُولى بحلب سنة (١٣٨٤هـ)، أَو طبعتِهِ الثانية في بيروت سنة (١٣٩١هـ)، ليشهد منها منزلة الإمام ابن القيم في نفس كاتب هذه (الكلمات)، وأَكتفي بالإحالة هنا إلى الطبعة الثانية لوجودها وشيوعها في المملكة، فلينظر القارئ منها المواطن التالية: (ص٤٥، ٤٦، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٦٢، ٦٤، ٦٥، ٨١، ٨٢، ١٠١، ١٠٣، ١١١، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٦، ١٣٩، ١٥٥، ١٥٨، ١٨١).

وأَذكر من تعليقاتي ونُقُولي عن الشيخ ابن القيم في (رسالة المسترشدين) نموذجين اثنين، فقد قلت في تعليقي عليها من عشر سنوات، في (ص٤٦) من الطبعة الثانية ما يلي بالحرف الواحد:

«وللشيخ الإمام ابن القيم رحمه الله كلامٌ في الخَطْرة والفِكرة وما إِليهما، في غاية الدقة والنفاسة، وما أَصدقه وما أَحقَّه! كأَنه خَرج من مِشكاة النُّبوَّة، وأَنا ناقله لك ـ على طوله ـ راجيًا منك أن تتدبَّره، ففيه الخيرُ لك في دينك ودنياك، قال رحمه الله في كتابه (الفوائد،ص٣١ و١٧٣ ـ ١٧٤): «دافِع الخَطْرة، فإن لم تفعل صارت شهوة...» إلى آخر ما نقلته هناك نحو صفحتين.

وقلتُ في تعليقي عليها أيضًا من عشر سنوات، في (ص٥٢) من الطبعة الثانية: قال الشيخ ابن القيم رحمه الله في (الفوائد، ص٣٢): «من خلقه الله للجنة، لم تَزل هداياها تأتيه من المكاره، ومن خلقه الله للنار، لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات». ثم نقلتُ عن كتابه (إعلام الموقعين) أكثر من صفحتين. وهكذا سائر تعليقاتي عنه رحمه الله»[1].

---

(١) كلمات في كشف أباطيل وافتراءات، ص١٩ ـ ٣٤، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مطبوع مع كل من (جواب الحافظ أبي محمد عبد العظيم المنذري المصري عن أسئلة في الجرح والتعديل)، و(أمراء المؤمنين في الحديث).

• **مكتب الشيخ في بيروت هو مكتبة الشيخ زهير الشاويش:**

كان الشيخ أبو غدة في السنوات التي لا يستطيع فيها العودة إلى سورية وإلى حلب، يذهب إلى بيروت، كما كنا كلنا نذهب إليها، وخصوصًا إخواننا السوريين، الذين حُرِّمَت عليهم العودة إلى أوطانهم، ما دام ذلك الحكم النصيري البعثي (الأسد وأولاده وعصابته البعثية).

كان الشيخ الزرقا والأساتذة علي الطنطاوي والمبارك والأميري، يذهبون كلهم إلى بيروت، حتى من سكن في سوق الغرب أو بحمدون أو حمانا وقرنايل، حتى من ذهب إلى طرابلس وما حولها، وكان كثيرٌ من هؤلاء يلتقون في مكتب الشيخ زهير الشاويش، صاحب المكتب الإسلامي، الذي كان أولًا في سورية، ثم لما تغيرت سورية من الداخل، وأصبح كل من فيها مضيَّقًا عليهم، رحل أخونا زهير رَحِمَهُ اللَّهُ إلى بيروت، واختار منزله وحديقته ومكتبه في حي الحازمية، وكان يأوي إليه كل إخواننا المغضوب عليهم من النظام السوري أو من النظام المصري، وخصوصًا الذين يعملون مع الكتب التي يحتاج إليها من يعمل في التأليف أو الشرح أو التحقيق، مثل: الشيخ عبد الفتاح والشيخ الألباني ومثلي، وكانت مكتبة الشيخ الشاويش تضم كل الذين لا يشبعون من الكتب، مهما توسعوا فيها، ولهذا كثيرًا ما اجتمعنا في مكتب الشيخ زهير، أو قل: في منزله، فمكتبه ما هو إلا جزء من منزله الكبير والجميل الواقع على الشارع الذي يوصل الراكب إلى سوق الغرب وإلى عاليه وبحمدون.

• **لقاء الشيخين الألباني وأبو غدة في منزل الشاويش:**

وقد راجعت ما كتبت في مذكراتي عن الشيخين: الألباني وأبو غدة، فكان مما ذكرته عن الشيخ أبو غدة:

«مما أذكره من أيام بيروت: أني لقيتُ فيها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المحدث الشهير للمرة الثانية. فقد كنتُ لقِيتُه أولَ مرة في المدينة

المنورة، في حجتي الثانية في صيف سنة (١٩٦٤م)، وتناقشنا في قضية التصوير الفوتوغرافي، حيث أخذ عليَّ أني أبيحه، كما أباحه العلَّامة الشيخ محمد بخيت المطيعي، مفتي الديار المصرية في عصره، وغيره من العلماء، والشيخ الألباني يحرمه تحريمًا قاطعًا، وقد ذكرت له الأحاديث الصحيحة التي استثنت من الصور «ما كان رقمًا في ثوب»[١]. وبيان العلة في التصوير: أنه «مضاهاة خلق الله»[٢]. وهذا التصوير لا يضاهي خلق الله، بل هو خلق الله نفسه، انعكس على الورق، كما تنعكس الصورة في المرآة، ولا غرو أن يسميه أهل الخليج (عكسًا)، ويسمون المصوِّر (العكَّاس)، والصور (العُكُوس). ولكن الشيخ أصرَّ على رأيه، ولم يتزحزح قِيدَ شعرة.

واليوم ألقى الشيخ مرة أخرى، أظن ذلك كان سنة (١٩٦٩م)، وكان ذلك في منزل صديقنا وصديقه الشيخ زهير الشاويش، المحقق المعروف، وصاحب المكتب الإسلامي في دمشق وبيروت. وأظنه كان قد انتهى من تخريج أحاديث كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) و(مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام). وقد حييتُه على جهوده في خدمة السُّنَّة، ولا سيما في مجال التخريج والتصحيح والتضعيف، وتحقيق المصادر، ثم شكرته على عنايته بتخريج أحاديث كتبي. وقلت له: إنني ممن يدعون إلى ضرورة إيجاد قنطرة بين أهل الفقه وأهل الحديث، ليكونا معًا في خدمة العلم ونصرة الشريعة بالحق، وقد كان بعض السلف يقولون: لو كان الأمر بأيدينا لضربنا بالجريد كل فقيه لا يشتغل بالحديث، وكل محدِّث لا يشتغل بالفقه.

وكان من تفضُّله ولطفه: أن رحب بالتعاون بينه وبيني، باعتباره محدِّثًا مشهورًا، وباعتباري من المشتغلين بالفقه، ومن الدارسين للحديث.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في اللباس (٥٩٥٨)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٠٦)، عن أبي طلحة الأنصاري.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧)، كلاهما في اللباس، عن عائشة.

كما تعرفت في منزل الشيخ الشاويش على علَّامة حلب الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، الذي سمعت عنه قبل أن أراه، بوصفه من العلماء المضطلعين في الفقه والحديث واللغة، وغير ذلك من علوم الشرع واللغة.

ولكل من الشيخين مشربٌ يخالف مشربَ الآخر، فالألبانيُّ سلفيٌّ قُحٌّ متعصِّب لسلفيَّته، لا يجيز التأويل في العقيدة، ولا التمذهب في الفقه، إلى غير ذلك مما يتميز به الاتجاه السلفي، الذي يطلق عليه بعض الناس (الوهَّابي) نسبة إلى مجدد التوحيد في الجزيرة العربية الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وأبو غدة حنفيٌّ معروف بانتسابه إلى مذهب أبي حنيفة، أشعريٌّ معروف بانتمائه إلى مذهب أبي الحسن الأشعري، معتزٌّ بتتلمذه على علامة الأتراك الشيخ محمد زاهد الكوثري، وكيل مشيخة الإسلام في تركيَّة في عصر الخلافة، قبل أن يلغيها أتاتورك.

وقد قال لي الأخ الشيخ زهير الشاويش: إن أبو غدة أعلم تلاميذ الكوثري، وأرسخهم قدمًا.

ومن المعروف: أن الكوثريَّ عدوُّ السلفية، وعدوُّ ابنِ تيمية، وله كلامٌ شديد في ابن تيمية، تجاوز فيه الحد، ولا يوافقه عليه منصِف.

اجتمع الشيخان في منزل الشيخ زهير بمنطقة الحازمية في لبنان، أو قل: في مكتبته العامرة. وبدأ بينهما نقاشٌ خفيف حول مسألة حديثية، لكنه يُخفي وراءه مخزونًا من المرارة والحِدَّة، لم تظهر في ذلك الوقت، لكنها ظهرت واشتدت واحتدت وتطورت بعد ذلك.

كان البادئ هو الشيخ أبو غدة، إذ قال للشيخ الألباني: نرى في كتب فضيلتك بعضَ أشياء لا نعرف وجهها؟.

قال الألباني: مثل ماذا؟.

قال أبو غدة: مثل تعقيبك على حديث رواه البخاري بقولك: صحيح، أولَا يكفي أن يكـــون رواه البخاري في صحيحه الذي تلقتـــه الأمة بالقبول، حتى تعقِّب عليه بالتصحيح؟.

وهنا تدخلت أنا محاولًا أن ألتمس وجهًا لتصحيح الشيخ، وقلت: لعله يريد بقوله: صحيح: أن الحديث ليس من الأحاديث التي انتُقِدت على البخاري!.

وهنا قال الألبانـــي: لا، ليس هذا ما أقصده. بل هـــذا منهج لي، التزمته، ومضيتُ عليه: أن أعقِّبَ على كل حديث بالتصحيح أو التحسين أو التضعيف.

قال أبو غدة: تعقِّب على البخاري أصح كتاب بعد كتاب الله؟! ألا تخشى أن يفهم القارئ من ذلك: أن جامع البخاري فيه الصحيح والضعيف، ولا بد من التمييز بينهما، كما في سائر الكتب التي جمعت بين الصحيح والضعيف؟!.

إلى هنا توقفت المناقشة على ما أذكر، ولكنها احتدمت، بل اشتعلت بعد ذلك في تقريـــرٍ كَتَبَه الشـــيخ أبو غدة علـــى تخريج الألباني لشـــرح عقيدة الطحاوي، ورُفِعَ إلى جامعة الإمام محمد بن سعود.

ثم في رد الشيخ الألباني الشديد على هذا التقرير.

ثم في رد الشيخ أبو غدة على الرد.

ثم في التعليق على هذه المعركة من الشـــيخ الشـــاويش بـ(كلمات) من عنده، وقد كان هواه مع الألباني، باعتبارهما من مشرب واحد، ولا سيما قبل أن يختلفا، ويشتد بينهما الخلاف في أمور غير فكرية ولا علمية.

لقد كانت معركة بين أهل العلم بعضهم وبعض، لا لزوم لها، أثارت غُبارًا ودُخانًا زكم أنوفَ الفريقَيْـــن، وأصاب كلًّا منهما بأضرار وآثار، كان بالإمكان تفاديها، لو كان حســـن الظن، والتســـامح، والجدال بالتي هي أحسن: شعار الفريقين.

وإذا كان الله تعالى قد نهانا أن لا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، وهم لا يؤمنون بديننا ولا بكتابنا، ولا بنبينا، فكيف بجدالنا مع أهل الإسلام، وكيف إذا كانوا من أهل العلم وحملة كتاب الله، وخدام سنة رسول الله ﷺ؟!..

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]»[1].

- **أثر زيارته لمركز بحوث السنة والسيرة:**

وقد وجهت إلى الشيخ أبو غدة الدعوة بوصفي مديرًا لمركز بحوث السنة والسيرة، لنسعد به بيننا فصلًا أو أكثر، فرحب الشيخ، ففرحنا به، كما يفرح المؤمن بلقاء أخيه المؤمن.

وقد كان لوجود الشيخ أثر في أبنائنا وبناتنا الموظفين والموظفات في المركز، فقد أعطاهم دروسًا منهجية في الحديث وعلومه، ولا سيما في تخريج الحديث، وفي اللغة والنحو، وقد أحبَّه طلابه، وانتفعوا بعلمه الغزير، وبتجربته الثرية، وبأدبه الرفيع، ولا سيما أننا لم نُوَفَّق في توظيف أساتذة للمركز، كما طلبنا وتمنَّينا، ووقف الروتين عائقًا دون ذلك، وظلَّ أخونا العالم الأزهري الجليل الشيخ الدكتور موسى شاهين لاشين، هو الأستاذ والخبير الوحيد في المركز، لم يهيئ لنا الروتين الإداري الصارم أن نُعزِّزه بثانٍ، فضلًا عن ثالث ورابع، ولم يستطع وحده أن يفعل شيئًا ذا بال، ومن هنا انتدب لتدريس الحديث في كلية الشريعة.

- **استجازتي من الشيخ عبد الفتاح أبو غدة:**

وقد انتهزت وجود الشيخ أبو غدة في الدوحة، فطلبت منه أن يجيزني في علم الحديث، على طريقة أسلافنا في ذلك، وكنت قد أخذت إجازة قديمة من

---

(١) ابن القرية والكتاب (٢/١٨٣ ـ ١٨٦).

المحدِّث المغربي المعروف الشيخ أحمد بن الصدِّيق الغُماري، حين زار مصر أيام عبد الناصر حوالي سنة (١٩٥٧م)[١].

والحقيقة أني لم أُعْنَ من قبل بطلب الإجازات من العلماء، وإلا لكنت أخذتُ من عدد من المحدِّثين الكبار الذين لقيتهم، مثل: الشيخ أحمد عبد الرحمٰن البنا (الساعاتي)، والشيخ أحمد محمد شاكر، والشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، وغيرهم.

ولكنِّي رأيت في إجازة الشيخ أبو غدة شرفًا وبركةً، لما أعتقده فيه من فضل وخير وصدق، وقد رفض أول الأمر، وقال: مثلُك يُجيز ولا يُجاز، أنا الذي أطلب منك..

وهذا من تواضعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكني أصررت على طلبي، وقلت: أنا أتبرَّك وأتشرَّف بهذه الإجازة، فلا تحرمني منها، فكتب لي هذه الإجازة بخطه، تقبَّله الله في العلماء الربانيين الصادقين:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى تابعيهم بإحسان من العلماء العاملين، من الفقهاء والمحدثين، وسائر أهل العلم المتقين.

أما بعد، فيقول العبد الضعيف عبد الفتاح بن محمد أبو غدة، الحلبي منشأً ودارًا، تاب الله عليه، وغفر له ولوالديه: قد طلب مني الإجازة في الحديث الشريف وعلومه أخي وصديقي العلَّامة الدرَّاكة الداعية الجليل، والمحدِّث

---

(١) وقد أصدر لي تلميذي المحب المحدث المحقق محمد أكرم الندوي ثبتًا سماه: (كفاية الراوي في إجازة الشيخ يوسف القرضاوي). وقد طلبت ـ لكثرة المستجيزين ـ من أنجب تلاميذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة العالم المحقق المحدث الشيخ محمد عوامة أن يجيزني، وألححت عليه في الطلب، فأجازني إجازة موسَّعة.

الفقيه الحاذق النبيل، الأستاذ المفضال الشيخ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن عبد الله القَرَضاوي، الغني عن التعريف، حفظه الله تعالى ورعاه، ونفع به العباد والبلاد وأولاه، وهو صاحب التصانيف المفيدة الرائقة، والآثار النافعة الفائقة، الشاعر المفكر الإسلامي، الموهوب المحبوب، وهو غني عما طلب، بما آتاه الله تعالى من العلوم الواسعة، والمواهب العالية الساطعة، فامتنعت أول الأمر من تلبيته، إجلالًا وتقديرًا لفضله ومنزلته، متى استقت البحار من الركايا؟ ولكنه أصر واستمر، فأجبته إلى طِلْبته، فأقول:

أجزت أخي العلَّامة الجليل الشيخ يوسف القرضاوي، بما أجازني به شيوخي الأجلة رحماتُ الله عليهم، في بلاد الشام ومصر والحرمين الشريفين والهند وباكستان والمغرب واليمن والعراق وغيرها من البلدان، ليكون ذلك اتصالًا منه بساداتنا المحدثين الكبار، وعلمائنا الأفاضل الأخيار، والإجازةُ لمستحقيها وأهليها سنة أولئك الأئمة الأبرار.

فأجيزه بما أجازوني به، وبكل ما صح لي وعنِّي روايته وكتابته، ليتصل سنده بسندهم، ويكون في سلك قافلتهم، وتنالني دعواته الصالحة، وأوصيه ونفسي ـ كما أوصاني به شيوخي وأساتذتي ـ بتقوى الله تعالى في السر والعلن، والتوقير لأهل العلم والدين، والسلف الصالحين، وأن يكون خير معلِّم لمن يتعلم من العلم والدين، رحمةً وشفقةً، وأمانة وورعًا، وإتقانًا في التوقيع عن رب العالمين، والله ولي المتقين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه الفقير إلى الله تعالى عبد الفتاح أبو غدة

في الدوحة من قطر يوم الثلاثاء (٤ من ذي الحجة سنة ١٤١٣هـ).

* * *



الأستاذ محمود محمد شاكر

العالم اللغوي الأديب المحقق الكبير

(١٣٢٧ ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٠٩ ـ ١٩٩٧م)

في مساء يوم الخميس (٣ ربيع الآخر ١٤١٨هـ، الموافق ٧ أغسطس ١٩٩٧م)، توفي العالم الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر، أحد علماء الأمة الأفذاذ، وأحد علماء اللغة الأثبات، وأحد كبار المحققين الثقات، الذي يشكّل مع أخيه الشيخ المحدث العلّامة أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ، مدرسة متميزة في تحقيق نصوص التراث.

وأحد الأدباء الكبار المعتبرين، وأحد الأقلام التي نصّبت نفسها للدفاع عن الإسلام، وأمّة الإسلام، وحضارة الإسلام، وثقافة الإسلام والعربية، وقف ضدَّ دعاة التغريب والتبعيّة.

وترك وراءه تراثًا أدبيًا علميًا، له أثره وأهميته، في صياغة العقل المسلم المستقل، مثل: (المتنبي)، و(الطريق إلى ثقافتنا)، الذي أشار فيه إلى جوانب النهضة الكبيرة في مصر، قبل اللجوء والإقبال على أوربة، على مستويات شتى، وفي أكثر من مجال، في العلم، واللغة، والأدب، والصناعة، وأن أعداء الأمة هم الذين أجهضوها، وكتابه (أباطيل وأسمار)، الذي كشف عن الاتجاهات المشبوهة التي تغذي الدعوة إلى العامية، على مستوى الممارسة والكتابة، ونشر بالأسماء المبشرين والمستشرقين والمنصّرين الذين يقفون وراء هذه الدعوات. وتحقيق عدة أجزاء من (تفسير الطبري)، وغير ذلك من الكتب.

هذا الرجل الذي تتلمذ على يديه كثير من الأدباء وكبار الرجال، منهم من إخواننا: عبد العظيم الديب، وعبد الحليم أبو شقة، لم يمنعهم من ذلك

انتقاداته العنيفة للإخوان، لثقتهم بإخلاص الرجل، وغزارة علمه، وكان ينقدهم وينقد مرشدهم الأول حسن البنا بلسان حاد.

وقد دعوني لأحضر معهم بعض هذه الـدروس في بيته بمصر الجديدة، واستجبت لهم، واستفدت منها.

وكان رجلًا حرًّا جريئًا، يقول ما يعتقد أنه حق، معروف بأنه لا يبالي من أصاب بلسانه، لا يخاف لومة لائم، ولا نقمة ظالم، وقد تسببت جرأته بخروج الباقوري من الوزارة، إذ أطلق الشيخ محمود شاكر لسانه في نقد عبد الناصر ولم يبال، ولم يدافع الشـيخ الباقوري عن رئيسـه، ونقل ذلك لعبد الناصر، فأخرج من الوزارة.

مات الرجل ولم يكد أحد يتحدث عنه، صحافتنا وإذاعاتنا وتلفازاتنا التي أخذت الساعات الطوال بل الأيام، تتحدث عن (ديانا) و(دودي)[1]، لم تتحدث بشيء عن علامة الشعب الشيخ محمود شاكر!..

مَن مِن الناس يعرف الشيخ محمود شاكر؟ الناس لا يعرفونه، لأن الإعلام مشغول بتوافه الأمور، وتوافه الشـخصيات، من رجالات الفن وفساقه، ومن خدم السـلاطين، وأتباع الشـياطين، لا يتحدث عن مثلـه، فليس رجلًا من رجالات الإعلام، وليس ممن تُسلط عليه أضواء الصحافة.

- **محمود محمد شاكر المحامي المنافح عن العربية والإسلام:**

نذر الشيخ محمود محمد شـاكر حياته لينافح ويحامي ويدافع عن الدين واللغة ضد المستشرقين والمستغربين.

نشأ في بيت له ماضٍ في الدعوة إلى الإسلام، والدفاع عنه، والذود عن حرماته، فوالده الشيخ محمد شاكر، عالم أزهري جليل، كان وكيلًا لمشيخة

---

(١) الأميرة ديانا أميرة ويلز البريطانية ومحمد الفايد، وقصتهما المشهورة التي لا تحتاج إلى تفصيل.

الأزهر، وأخوه هو العلَّامة الشيخ أحمد محمد شاكر صاحب التصانيف الحديثية والفقهية.

وكان محمود شاكر الشاب يستطيع أن يعيش في ظل وارف، ونعمة سابغة، لكنه اختار النمط الصعب، وهو نمط الجدية والإخلاص الذي يلقي على صاحبه مسؤوليات كبيرة، وجمع بين الأدب والتحقيق العلمي، وهما موهبتان قلما اجتمعتا في واحد، حتى قال عنه العقاد: هو رأس المحققين؛ لأنه أديب فنان[1].

يصف الدكتور محمد رجب البيومي شاكرًا فيقول: «لم يكن شاكر أديبًا عالمًا محقِّقًا فحسب، ولكنه كان زعيم اتجاه أدبي علمي، تتدافع حوله الأمواج الهائجة لتزيل أعمدته الراسخة؛ ولها القوة كل القوة فيما يمدها به العصر من نفوذ في المناصب والإعلام والوظائف التي تنفع الأشرار وتعصف بالأخيار، بل فيما يسيطرون عليه من أدوات النشر، إذ يعملون على ترويج كتب سيئة مغرضة، تحاول أن تهدم تاريخ الأمة هدمًا لا بقاء لها بعده.

كان الأستاذ محمود محمد شاكر بماضيه الحافل، وثقافته الواسعة، وشجاعته العاصفة، ودراسته العميقة بأهواء المتربصين؛ شجًا في حلوق هؤلاء، يحاولون هدمه، فلا يستطيعون؛ لأنهم يرون من صلابة فكره، ونفاذ رأيه، والتفاف الشرفاء من حوله ما يجعله لواءً خفاقًا، وقد حاول بعض زعمائهم حين تهدت له أسباب الذيوع الكاسح أن يفتري على العربية في سِيَر أعلامها وأبطالها وقوادها، مموهًا حديثه ببعض البراهين المصطنعة التي لا تثبت التمحيص، حاول ذلك ووجد من أشياعه من يُقعدونه في الصدارة، ويُسبّحون بحمده؛ حتى لا يعلُو صوت كاتبٍ ما على صوته.

ثم فوجئ القراء بمحمود شاكر يزأر زئيره المرعب، في وجوه الطرائد المنتشرة في شتّى البقاع، دون أن تقدر على ردِّ الهجوم الزائر، فيكشفُ عورات

---

(١) ينظر: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة (١١٩/٣، وما بعدها).

كثيرة، ويردّ الاعتبار لأعلام من القمم، مثل: أبي العلاء، وابن خلدون، ويكشف عن المرض المعضل في نفوس يزعجها أن ينتشر فضلٌ لهذين العَلَمين في ربوع الغرب، فترددد آفاق الشرق، ومحمود شاكر لا يعبأ برأي الغرب، ولكنّه يرى من ضعاف النفوس طوائف تقــرأ، فتعتقــد، فتصفّق، فبادر يكشــف النقاب عن الأباطيل أولًا، وعن دوافعها ثانيًا، فإذا السر مكشوف مفضوح.

لم يكن محمود شاكر رجل ثقافةٍ أدبية على المتعالم المتعارف عند الأدباء المعاصرين وحده، ولكنّه كان يجمع ثقافة الأمة الإســلامية جميعها كأحســن ما يكون الجمع الواعي، وكان يعرف علوم الفقه والأصول والتوحيد والتفسير والحديث والتاريخ والمنطق معرفة الدارس المتعمــق، كما يعلم علوم النحو والصرف والبيان والمعاني والبديع واللغة سواءً بسواء، وقد تكوّن له من ذلك كله منطق عُرف به وحده، فهو رجل الثقافة الإسلامية في عصره بشعبيتها الدينية والعربية معًا، فإذا انضمّ إلى ذلك روايته المتسعة الممتدة لدواوين الشعر العربي في شتى عصوره، رواية الناقد المتذوق المتعمّق، فهو بذلك كله صاحب القول الفصل، والمنطق المفحم الصريح.. في كل ما خاضه من جدال»[1].

- **شاكر يلخص القضية التي عاش لها:**

وأود هنا أن أنقل شيئًا مما كتبه الأستاذ شاكر متحدثًا عن الدافع وراء كتابه (أباطيل وأســمار) الذي ألفه فــي الدفاع عن أبي العلاء المعــري، ففيه بيان للقضية التي عاش الرجل لها، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ولهذه الفصول غرض واحد، وإن تشعبت إليه الطرق، وهذا الغرض هو الدفاع عن أمة برُمَّتها، هي أمتي العربية الإسلامية.

وجعلت طريقي أن أهتك الأستار المســدلة التي عمل وراءها رجال فيما خلا من الزمان، ورجــال آخـرون قد ورثوهم في زماننــا، وهمُّهم جميعًا أن

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين (٣٣٧/٥ ـ ٣٣٨).

يحقّقوا للثقافة الغربيـة الوثنيـة كل الغلبة على عقولنا، وعلى مجتمعنا، وعلى حياتنا، وعلى ثقافتنا، وبهذه الغلبة يتم انهيار الكيان العظيم الذي بناه آباؤنا في قرون متطاولة، وصححوا به فساد الحياة البشرية في نواحيها الإنسانية والأدبية والأخلاقية والعملية والفكرية، وردُّوها إلى طريق مستقيم. علم ذلك من علمه، وجهله من جهله...

صار حقًّا علـيَّ واجبًا أن لا أتلجلج، أو أحجـم، أو أجمجم، أو أداري، ما دمت قد نصبت نفسي للدفاع عن أمتي ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وصار حقًّا عليَّ واجبًا أن أسـتخلص تجارب خمسين سـنة من عمري، قضيتها قلقًا حائرًا، أصارع في نفسـي آثار عدو خفي شـديد النكاية، لم يلفتني عن هول الصراع شـيء، منذ استجمعت قوتي، واسـتنارت بصيرتي، منذ استطعت أن أهتك الستر عن هذا العدو الماكر الخبيث، ثم صار حقًّا عليَّ واجبًا أن لا أعرج على بُنَيَّات الطريق، إلا بعد أن أجعل الطريق الأعظم الذي تشعبت منه واضحًا مسـتبينًا، ثم صار حقًّا عليَّ واجبًا أن لا آلو جهدًا في الكشف عن حقيقة هذا العدو، وعن حقيقة الصراع الذي عانيته وحدي على وجه من الوجوه، والذي عانيته مع أمتي العربية والإسلامية على وجوه أخر...

فهذه الفصول التي كتبتها، ترفع اللثام عن شيء من هذه القصة التي تجري أحداثها في أخطر ميدان من ميادين هـذا الصراع، وهو ميدان الثقافة والأدب والفكر جميعًا»[1].

• رحم الله الشيخ محمود محمد شاكر، وتقبّله في الصالحين، وجزاه عن دينه وعن أمته خير ما يجزي به العلماء العاملين، والدعاة الصادقين.

* * *

(١) أباطيل وأسمار، ص٧ ـ ١٠.



الشيخ عنتر حشَّاد
علامة القرآن والعربية
(حوالي ١٣٣٨ ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٢٠ ـ ١٩٩٧م)

ومات أيضًا بعد الشيخ شـــاكر، الشيخ عنتر حشّاد ســـنة (١٩٩٧م)، رجل القرآن، رجل التوحيد، رجل العربية، رجـــل العلم المتمكِّن، ورجل الصدق، ورجل الدعوة، الذي عرفه أهل قطر في مسجد عمر بن الخطاب، وفي غيره، الذي طالما تتلمذ عليه المتتلمذون، وأوى إلى التعلم منه الكثيرون: يتعلمون القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب.

مات الشيخ عنتر حشَّاد في مصر، وكنت فيها فما علمت بموته، إلا بعد أن رجعت إلى قطر، وقالوا: هل سمعت بموت الشيخ عنتر؟ قلتُ: لا، والله ما ســـمعت. كنتُ في مصر، وفي مدينة نصر التي يسكن فيها الشيخ عنتر، وما سمعت به!.

أهكذا يمـــوت العلماء والدعاة، ولا يكاد أحد يســـمع لهـــم ذكرًا؟! ولكن الآخرين من أهل الفن، وأهل الطرب، وأهل الغنـــاء، وأهل التمثيل، هم نجوم المجتمع! هؤلاء هم الكواكب اللامعة في سماء المجتمعات، إذا حدث لأحدهم أن شاكته شوكة، تحدَّثت الصحف عن الشـــوكة التي أصابت ذلك الفنان! فإذا مات، قامت الدنيا ولم تقعد.

حتى إنه من أثر هذه الضجَّة الإعلامية التي تصاحب موت مشاهير الفنانين، تحدث بعض حالات الانتحار، فترى فتاة ترمي نفسها من الطوابق العليا، فتندقُّ عنقها، كما حدث عند وفاة عبد الحليم حافظ، وغيـــره من الفنانين. أما العلماء والدعاة، فيعيشون في هدوء، ويموتون في صمت. ولا حول ولا قوة إلا بالله.



الشيخ محمد متولي الشعراوي

الإمام العالم الرباني المعلم المفسر

(١٣٢٩ ـ ١٤١٩هـ ـ ١٩١١ ـ ١٩٩٨م)

وفي (٢٢ صفر ١٤١٩هـ، الموافق ١٧ يونيو ١٩٩٨م) توفي أستاذنا وشيخنا (رجل القرآن) وأحد المفسرين الكبار، الإمام الراحل الشيخ محمد متولي الشعراوي، العالم الرباني، والذواقة الإيماني، وأحد المربين الأفذاذ، الذين نوروا العقول والقلوب برحيق الإيمان، وعِلْم الإسلام، وأحد أعمدة الدعوة، وأحد الرجال الذين حملوا لواء الهداية لهذه الأمة في العصر الحديث.

هو أحد الأئمة الذين أخرجهم الأزهر وخرجهم وأنبتهم، وكان له في الحياة المصرية والعربية والإسلامية أثر لا ينسى، ولا يكاد يوجد عربي أو مسلم يعرف العربية إلا والتقى الشيخ الشعراوي في درس من دروسه التفسيرية المتميزة، التي كان الرجل فيها نسيج وحده، في فهم القرآن، وفي اكتشاف جوانبه وجواهره، والاطلاع على حقائقه ودقائقه وإعجازه، بحاسة روحية لا يشاركه فيها أحد.

لقد فقدت الأمة الإسلامية بموت الشيخ محمد متولي الشعراوي عَلَمًا من أبرز أعلامها، وقطبًا من أشهر أقطابها، ونجمًا من نجوم الهداية في سمائها، ورجلًا من رجالات العلم والدعوة الأفذاذ، فقدت رجلًا عاش عمره في خدمة العلم، وخدمة اللغة والأدب، وخدمة القرآن، وخدمة الإسلام، وتوجيه الأمة إلى الخير، وأحد الرموز الذين كان لهم تأثيرهم، لا سيما في السنوات الثلاثين الأخيرة.

وموت العلماء لا شك مصيبة على الأمة، خصوصًا إذا تكرر فقدهم واحدًا بعد الآخر، وقد فقدنا في هذه الفترة عددًا من هؤلاء النجوم، فقدنا الشيخ

الغزالي، والشـــيخ خالد محمد خالد، والشـــيخ جاد الحق علـــي جاد الحق، والشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

أخشى ما أخشاه: أن يذهب هؤلاء ولا نجد من يسد الثغرة بعدهم، وهو ما جاء في الصحيحين: عن عبد الله بن عمرو: أن النبـــي ﷺ قال: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبـــض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسُئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»[1].

وهذه هي الكارثة، الرؤوس الجهـــال الذين يظهرون هنا وهناك، يتبوؤون المناصب، وتكبِّرهم أجهزة الإعلام، وتُضخم من شخصيتهم، ويسألون فيفتون بغير علم، يقولون ما لا يعلمون، لا يلجؤون إلى ركن شديد، ولا إلى حصن حصين، فهم يفتون بغير علم، فيَضِلُّون ويُضِلُّون. وقد قال الشاعر قديمًا بعد أن مات أحد الرجال الأتقياء:

لعمركَ مـــا الرزيـــةُ فَقْـــد مال ... ولا فـــرس يمـــوتُ ولا بعيـــر
ولكـــنَّ الرزيـــةَ فَقْـــد حـــرّ ... يمـــوتُ بموتِـــه خلـــقٌ كثيـــر

فكيف إذا كان هـــذا المفقود أحد العلماء الربانييـــن الذين تركوا وراءهم الكثير من العلم الزاخر، وتراثًا من التفسير الباهر للقرآن الكريم، لقد رحل عنا رجل القرآن، وهو الشـــيخ الشعراوي، فلا شـــك أنه كان أحد مفسري القرآن الكبـــار، وليس كل مَن قرأ القـــرآن فهمه، ولا كل مَن فهـــم القرآن غاص في بحاره، وعثر على لآلئه وجواهره، ولا كل من وجد هذه الجواهر اســـتطاع أن يعبر عنها بعبارة بليغة، تقنع العقول، وتحرك القلوب.. ولكن الشيخ الشعراوي كان من الذين أوتوا فهم القرآن، ورزقهم الله تعالى من المعرفة بأسراره وأعماقه ما لم يـــرزق غيره، فله فيه لطائـــف ولمحات وإشـــارات، ووقفات ونظرات، استطاع أن يؤثر بها في المجتمع من حوله.

---

(١) سبق تخريجه ص ١٩٧ في كتابنا هذا.

وقد عُرِف الشيخ الشعراوي أول ما عرف من خلال برنامج (نور على نور) الذي كان يذاع على التليفزيون المصري، والذي كان يقدمه الإعلامي المتميز الأستاذ أحمد فراج، ويعتبر هو مكتشف الشيخ الشعراوي، الذي لفت الناس إليه، ونبَّه الناس عليه، وعرَّف بقيمة الشعراوي بطريقته المتميزة، وأسئلته المدروسة العميقة والمتنوعة.

وقد رزق اللهُ الشيخَ الشعراوي القبول في نفوس الناس، فلا تكاد تفتح تلفازًا إلا وجدت الشيخ الشعراوي يفسر القرآن الكريم، ووجدت الناس ينصتون إليه، واستطاع بأسلوبه المتميز، الذي يستخدم الصوت والإشارة والحركة، أن يؤثر في العقول والقلوب، وفي الخاصة والعامة، في المثقفين والمتخصصين وفي الأميين، والقدرة على إقناع الخاصة وإفهام العامة، قلما يؤتاها إلا الرجال الأفذاذ، وقلما يوفق إليها إلا القليلون الذين منحهم الله تعالى من المواهب ما لم يمنح غيرهم.

ترك الشيخ الشعراوي القرآن مفسرًا في أشرطة في التليفزيونات العربية، وقد فسر أكثر القرآن. عندما لقيته في شهر رمضان في دبي، في جائزة دبي الدولية لشخصية العام، قال: إنه بقي عليه نحو ثلاثة أجزاء وأقل. وسألت الله تبارك وتعالى أن يمدَّ في عمره حتى ينتهي من هذا التفسير، ويبدو أن القدر لم يمهله حتى ينهيه، وقد كُتب هذا التفسير أيضًا، فمن تلاميذ الشيخ من يقومون بإعداد هذا التفسير، يحذفون المكررات، والكلمات العامية، وبعض ما قد يرى الشيخ حذفه، ثم ينشر جزءًا بعد آخر.

كما ترك الشيخ الشعراوي كتبًا أخرى في موضوعات إسلامية، وفتاوى في موضوعات شتى.

اتفق الناس مع الشيخ الشعراوي واختلفوا معه، وهذه طبيعة العلم والعلماء لا يمكن أن يوجد عالم يتفق عليه الناس، كل الناس. كما قال الشاعر:

ومَن في النَّاسِ يُرضي كلَّ نفسٍ وبينَ هَوَى النفوسِ مدًى بعيدُ؟

وقديمًا قالوا: رضا الناس غاية لا تدرك، والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، قال كثير من المفسرين: ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ أي: للاختلاف خلقهم؛ لأنه حين خلقهم منح كلًّا منهم حرية العقل، وحرية الإرادة، وما دام لكل منهم عقله الحر، وإرادته الحرة، فلا بد أن يختلفوا، ولقد اختلف الناس من قبل على الرسل والأنبياء، واختلفوا على المصلحين والعظماء.

وقال عليّ ﷺ: «هلك فيَّ اثنان: محبٌّ غالٍ، ومبغضٌ قالٍ» من القلى وهو الكره، كما قال تعالى لرسوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣]، وهذه طبيعة الحياة والناس.

كان للشيخ نزعته الروحية الصوفية الظاهرة، وهناك مَن يعادون التصوف. وكان للشيخ آراء معينة في الفقه وفي غيره لا يوافقه عليها الآخرون، مثل: رأيه في التبرع بالأعضاء، فكان لا يوافق عليها ولا يجيزها، ويقول: إن الإنسان وجسمه ملك لله، فلا يجوز له أن يتبرع به! وقد شنع بعض الناس على الشيخ في حياته من أجل هذا، ورددت عليهم في كتابي (فتاوى معاصرة) وقلت: إنه لا يجوز الحجر على أي عالم في أن يبدي رأيه، سواء وافقناه أو خالفناه، وأنا أخالف الشيخ ولكن من حقه أن يقول رأيه[1].

وكذلك كان له موقفه الرافض لتحليل فوائد البنوك، وقد كتب الشيخ الشعراوي تصديرًا لكتابي (فوائد البنوك هي الربا الحرام)، قال فيه: «جزى الله خيرًا بقية علماء المسلمين، الذين يغارون على فقه دينهم ويحاولون جاهدين أن يوظفوا الإسلام المعطل في البلاد التي تنسب إلى الإسلام».

---

(١) فتاوى معاصرة (٢/٥٨٣ ـ ٥٩٤)، طبعة المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م. وكتابنا: زراعة الأعضاء، ص٤١ ـ ٤٥، طبعة دار الشروق ـ القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

وكان الشيخ مسالمًا لا يرضى بمواجهة الحكام، ويأخذ الأمور بالأناة والتدرج، وهناك أناس يريدون أن يأخذوا كل شيء بالقوة وبالمواجهة، فلا بدّ أن يخالفوا الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ. ولكن مهما اختلف الناس مع الشيخ الشعراوي، فلا يمكن أن يختلفوا في قيمته، وفي قدره، وفي دوره في الدعوة إلى الله، وفي مخاطبة الناس بلغة عصرهم، باللغة التي يفهمونها. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

ومما أغضب الناس على الشيخ الشعراوي تلك الفترة التي ولي فيها وزارة الأوقاف، وكما قال الشاعر قديمًا:

إنَّ نصفَ النَّاس أعداءٌ لِمَنْ وَلِيَ الأحكامَ هذا إنْ عَدَل

والناس حساسون في هذه القضايا، خصوصًا في عصرنا الذي استبدَّ فيه المستبدون، فمَن عمل مع هؤلاء حمل معهم أوزارهم.

ومما أختلف فيه مع الشيخ الشعراوي رَحِمَهُ اللَّهُ، رأيه بأن الشورى معلمة وليست ملزمة، وقد رددت على هذا الرأي في أكثر من كتاب لي[1].

ومما اختلفت معه فيه أيضًا وكذلك مع شيخنا الشيخ عبد المعز عبد الستار وغيرهما، تفسيره لبدايات سورة الإسراء، وأن المرة الأولى في إفساد بني إسرائيل كانت في عصر النبوة بعد البعثة المحمدية، وهي ما قام به بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة وأهل خيبر، وكان العباد المسلطون عليهم هم النبي ﷺ والصحابة، وأما إفسادتهم الثانية فهي ما يقومون به اليوم من علو كبير وطغيان عظيم، وانتهاك للحرمات، وإهدار للحقوق، وسفك للدماء، وغيرها. ورأيي أن هذا التفسير ضعيف لأوجه ذكرتها، وأن الإفسادتين وقعتا،

---

(١) مثل: كتابنا (الحل الإسلامي فريضة وضرورة)، ص١٩٦ ـ ١٩٨، وكتابنا (الإسلام والعلمانية)، ص١٢٠ ـ ١٢٣، وكتابنا (من فقه الدولة في الإسلام)، ص١٤٦.

كما أجمع على ذلك المفسرون، وأن إفساد بني إسرائيل الحالي يصدق فيه قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨].

ومن المواقف المذكورة للشيخ الشعراوي، موقفه من النكبة، فقد اعتبرها منحة من الله تستحق السجود شكرًا، لأن الناس فتنوا بالطغاة، وكادوا يعبدونهم ويقدسونهم، فأراد الله أن يريهم أن هؤلاء ليسوا شيئًا، وأن يعيد الأمة إلى ربها، وترجع إلى دينها، فهذا أفضل من أي انتصار مؤقت!.

• **الشعراوي أستاذي:**

ولقد عَرفتَ الشيخ الشعراوي وأنا طالب في المرحلة الثانوية، فقد درّسنا حينما جاءنا مدرسًا للبلاغة في المعهد الأحمدي بطنطا، وهو معهده الذي تخرج فيه، وتسامعنا نحن الطلاب أن قد جاء الشيخ الشعراوي، وهو مدرس عظيم، وشاعر عظيم، أما تدريسه، فقد كان فعلًا مدرسًا جذابًا، وكان يدرس البلاغة والأدب، كان يستطيع أن يوصل المعلومة إلى طلابه، بطريقته بالإشارة والحركة وضرب الأمثلة وغير ذلك.

كان الشيخ الشعراوي يُبَسّط المفاهيم الكبيرة لعموم الناس، سمعته ذات مرة في محاضرة وقد سُئل سؤالًا معقدًا عن نظرية التربية في الإسلام؟ فقال: لا توجد نظرية، ما هو مطلوب منك: أن تكون قدوة لابنك، قد تعلمه عشرين درسًا ألا يكذب، ثم تكذب أمامه ذات مرة، فتنسف كل ما علّمته، فالقدوة مسألة ضرورية في التربية.

درسني الشيخ الشعراوي البلاغة وأنا في الرابعة الثانوية، وكان يدرسنا علم البيان في مادة البلاغة، فقد كان طلاب السنة الثالثة يدرسون علم المعاني، ونحن ندرس علم البيان، من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية، وكنا مقبلين عليه بشغف، ولكن يبدو أن الشيخ كان معبأ ضدي أنا والعسال، وبعض طلاب الإخوان. كنا نعرف أن الشيخ متحمس لحزب الوفد، وكان معظم طلاب

المعهد ضد الوفد، وكان الشيخ أُفهم أن طلاب الإخوان يعملون ضده، ولذلك حين سألته سؤالًا في المجاز المرسل، وظن الشيخ أني أتحداه قال لي: اسمع يا يوسف، إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصارًا! قلت له: سامحك الله يا شيخنا، والله ما أردت إلا الاستفهام.

ولكن الشيخ حين صحح ورقتي آخر العام أعطاني العلامة الكاملة.

وفي السنة التالية اعتقلنا وغبنا عنه، ولم يرني إلا بعد عدة سنوات، كان هو نازلًا من ـ الأتوبيس ـ الحافلة وكنت أتهيأ لركوبه، فرأيته، فسلمت عليه وحييته، وعانقته وعانقني، وأظهر لي شوقه، وقال: أنا أسأل عنك، وأتتبع أخبارك، وعلمت أنك سافرت إلى قطر، وأنك محبوب هناك، والله يفتح عليك. ودعا لي كثيرًا، وكان هو في الجزائر في ذلك الوقت.

وأما شعره فكان شعرًا مطبوعًا، وكان شاعرًا مبدعًا، وأذكر له قصيدة لا أذكر مطلعها، وإنما أذكر آخرها وكانت قصيدة رائعة، قالها في ذكرى الهجرة النبوية في معهد طنطا، قال:

كلُّ دنيا تُبنى على غيرِ دين ... فبناءٌ على شفيرٍ هارِ

وقد ذكَّرته بهذا البيت عندما لقيته في شهر رمضان في دبي، وقد حضرت الاحتفال بتكريمه في دبي، حينما دعتني لجنة الجائزة الدولية لجائزة الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم ولي عهد دبي للقرآن الكريم ولتكريم الشخصيات الإسلامية، وكان الشيخ الشعراوي هو الشخصية الإسلامية الأولى، وذلك لعام (١٤١٨هـ)، ولما دعوني لحفل التكريم قلت لهم: إن من حقّ الشيخ الشعراوي عليَّ أن أحضر الاحتفال بتكريمه. وقد ألقيت كلمة في تكريمه، وسُر الشيخ حينما رآني أبلغ السرور، وفرح وارتاح لمجيئي، ودعا لي كثيرًا حين عرف أني جئتُ لأشارك في تكريمه، وهو أهل أن يكرَّم، والمفروض فينا نحن المسلمين أن نكرم علماءنا الأفذاذ، من أمثال الشعراوي والغزالي وغيرهما.

جلست مع الشيخ الشعراوي جلسة طويلة، كانت حبيبة إلى قلبي، بثثته فيها حبي له، وإعزازي لعلمه، وتقديري لفضله، وأني حين سألته في معهد طنطا لم أكن والله أتحداه، بل أتعلم منه. وقد أخبرني أن مشايخ طنطا المعروفين من أمثال فلان وفلان، قد أخبروني أن طلاب الإخوان يتربصون بك، ومنهم القرضاوي والعسال ومن معهما، فاحذرهم. وصدقنا هذا الكلام، وكان غلطًا والله يسامحنا، ولقد سألت عنك من بعدها وتثبت أخبارك، وسرني ما وصلت إليه في أنحاء العالم، والحمد لله.

أُعطي الشيخ الشعراوي أوسمة وجوائز شتى، من مصر، ومن دبي، ومن غيرهما، ولكن أعظم وسام على صدره، وأعظم جائزة له: هي حب الناس وقبولهم.

- **ضرورة احترام العلماء:**

وأنا أعيب على الإسلاميين أنهم لا يكرمون علماءهم ومفكريهم وأدباءهم، كما يفعل ذلك العلمانيون والماركسيون الذين يضعون هالات كبيرة على رجالهم، ولكننا لا نفعل ذلك مع رجالنا حتى نفقدهم.

ولا أستطيع إلا أن أنشد ـ ونحن نودع الشيخ الشعراوي ـ قول الشاعر:

ذهبَ الرجالُ المقتدَى بِفِعَالهم والمنكرونَ لكلِّ فعلٍ مُنْكَرِ
وبقيتُ في خَلَفٍ يُزَيِّنُ بعضُهم بعضًا ليدفعَ مُعْورٍ عن معورِ

إن من حق علمائنا أن نكرمهم ونقدرهم ونقتبس من ضيائهم، ونأخذ العلم عنهم، وننتهز هذه الفرصة لنتربى على أيديهم. ولكن أجيالنا الجديدة للأسف لا تفعل ذلك، ولا تعرف قيمة العالم إلا حينما تفقده، وليس أمثال الشيخ الشعراوي بالكثيرين، بل هم القليل والأقل من القليل.

إنِّي أفتحُ عيني حينَ أفتحُها على كثيرٍ ولكنْ لا أرَى أحدا

• **لا أرى في الساحة من يعوّض الشعراوي والغزالي:**

علينا نحن المسلمين أن نهيئ من شبابنا مَن يسدُّ الثغرة ويلبي حاجة الأمة، ويقف أمام الموجات التي تريد أن تسلخ الأمة من جلدها، وأن تقطعها عن جذورها، وأن تهدمها من أساسها، وإلا فإن الأمة كلها آثمة إذا خلت ساحتها من أمثال هؤلاء الرجال الذين يعلّمون الناس الخير، كما قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى، وملائكته، وأهل السماوات، وأهل الأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، ليصلُّون على معلِّم الناس الخير**»[1].

لقد كان الشيخ الشعراوي من معلمي الخير للناس، وأعظم الخيرات هو القرآن. وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري من طريق عثمان رضي الله عنه: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[2].

وقد رحل الشيخ الشعراوي في وقت كانت الأمة أحوج ما تكون إليه من أجل إنقاذ الأزهر، مما يراد به من إضعاف التعليم الديني، والجور عليه، وكان رحمه الله يقف على رأس جبهة معارضة قوية للحيلولة دون ذلك.

وقد وعده المسؤولون في مصر أن يحققوا له طلبه، في تطوير القسم العلمي، والعناية بالقسم الأدبي الذي يخرج علماء أصول الدين، وهم خلاصة الأزهر، الذي يُعِد لتخريج الأجيال المرجوة للأمة، والتي تتفقه في الدين، وتنذر قومها إذا رجعوا إليهم. وإننا لنرجو أن يفي المسؤولون للشيخ بعد وفاته بما وعدوه في حياته.

إننا ونحن نقف مودعين لهذا الرجل العالم الرباني، والذواقة الإيماني،

---

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٥)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، والطبراني في الكبير (٢٣٤/٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٨)، عن أبي أمامة.

(٢) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٧)، وأحمد (٥٠٠)، وأبو داود في الصلاة (١٤٥٢)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٧)، وابن ماجه في المقدمة (٢١١)، عن عثمان بن عفان.

وأحد المربين الذين نوروا القلوب بعلم الإسلام، وبهدي رسول الله ﷺ، وربط الناس بالله وحشدهم في ساحة هذا الدين، إننا حينما نقف هذه الوقفة لا نبكي عليه، وإنما نبكي على أنفسنا، حينما نودع علماءنا، ولا نجد في الساحة من يملؤها من الرجال الأفذاذ، نبكي على الأزهر، وهو يغيّر ويُنْتَقَص من أطرافه، وتنتقص العلوم الدينية واللغوية من مناهجه.

ولا يسعنا إلا أن ندعو الله تبارك وتعالى أن يغفر للشيخ الشعراوي، وأن يجعله راضيًا مرضيًّا، وأن يتقبله في الصالحين، ويجزيه عن الأزهر، وعن العلم، وعن القرآن، وعن الإسلام وأمته خير ما يجزي به العلماء العاملين، والدعاة الصادقين، والأئمة المجاهدين، ونسأله أن يعوضنا عنه خيرًا، وأن يجعل في هذا الجيل مَن يخلفه في علمه وعمله، ويقوم بواجبات الدعوة إلى الله.

وقد خصصت الخطبة الثانية من أول خطبة خطبتها بعد وفاته، للحديث عنه وعن مآثره وجهوده في خدمة القرآن وتفسيره، والدعاء له، وصلينا عليه صلاة الغائب بعد صلاة الجمعة.

* * *



الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
ورحل علّامة الجزيرة
(١٣٢٨ ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩١٠ ـ ١٩٩٩م)

ودعت الأمة الإسلامية اليوم علمًا من أعلامها الأفذاذ، ونجمًا من نجومها الساطعة في سماء العلم، علامة الجزيرة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الذي كان جبلًا من جبال العلم، وبحرًا من بحور الفقه، وإمامًا من أئمة الهدى، ولسانًا من ألسنة التوحيد، وعمادًا من أعمدة الدين، وركنًا من أركان الأمة، طالما استفاد من علمه المسلمون في الجزيرة والخليج، وفي شتى بقاع الأرض، عن طريق اللقاء والمشافهة، وعن طريق الكتاب والمراسلة، وعن طريق الهواتف والإذاعة، وعن طريق الكتابة والصحافة، وعن طريق الرسائل والكتب، وعن طريق الشريط المسموع.

عاش الشيخ عمره المبارك للعلم والدين، يعلم ويدرس، ويجيب ويفتي، وينصح ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، مع حكمة بالغة، ورفق وبصيرة، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه.

كان أكبر همّ الشيخ الدعوة إلى التوحيد الخالص، وتصفية العقيدة من الشرك، واتّباع ما جاء عن السّلف، وفي وصف الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ ولا تمثيل، وكان لا يدع فرصةً ولا مناسبةً إلا أكّد فيها هذه المعاني، لا يمالئ ولا يجامل.

وكان الشيخ في الفقه حنبليًا، ولكنه لم يكن مقلدًا يأخذ القول في مذهبه ولو كان ضعيف الحجة، بل كان رَحِمَهُ اللَّهُ يعتمد الدليل ويستند إلى الكتاب والسنة

ويعرض عن مذهبه إذا كان الحق مع غيره، لا يخشى لومة لائم، وقد كان فوق أن يلومه أحد.

ولذا رأيناه يفتي بآراء شيخ الإسلام ابن تيمية في الطلاق وإن كان علماء المملكة لا يفتون بها وإنما يأخذون بالمعتمد في المذهب الحنبلي.

وكان الشيخ يرأس إدارات الفتوى والبحوث والدعوة، ويرأس هيئة كبار العلماء، ويرأس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، ويرأس المجلس العالمي الأعلى للمساجد، ويرأس مجلس المجمع الفقهي للرابطة، وظل سنين رئيسًا للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكان مُقرَّبًا من أولي الأمر في المملكة، فكان ذا مكانة محفوظة عندهم جميعًا يجلس عن يمين الملك إذا حضر.

ولم تضعه مكانته في برج عاجي أو في صومعة منعزلة، بل ظل بيته مفتوحًا، ومكتبه مفتوحًا، وقلبه مفتوحًا لكل ذي حاجة من أبناء المسلمين، مادية أو علمية، ولا يدخر جهده في مساعدة أحد.

لم يكن العلم الغزير وحده هو الذي ميَّز ابن باز، بل ميَّزته كذلك قوة إيمانه، وغيرته على دينه واهتمامه بأمر أمته، وتحرقه على مآسي المسلمين، وحسن خلقه في معاملة الناس، ورحمته بالصغير، وتوقيره للكبير، ومعرفته بحق أهل العلم من إخوانه وإن اختلفوا معه.

أرسل إليَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ منذ أكثر من ربع قرنٍ كتابًا يخبرني فيه أن وزارة الإعلام عرضت عليه كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) هل يفسح له في دخول المملكة أو لا يفسح، وأنه يود ألا يحرم القراء في المملكة من كتبي التي «لها ثقلها في العالم الإسلامي» على حد تعبير الشيخ، وأن المشايخ لهم ملاحظات على الكتاب تتحدد في ثماني نقاط ذكرها، وأنه يرجوني أن أعيد النظر فيها، فإن اجتهاد الإنسان قد يتغير من وقت لآخر.

ورددت يومها على الشيخ برسالة رقيقة قلت له فيها: إن أحب علماء الأمة

عليّ ألا أخالفه في رأي هو الشـيخ ابن باز، ولكن قضت سـنة الله ألا يتفق العلماء على رأي واحد في كل المسـائل، وقد اختلف الصحابة بعضهم مع بعض، واختلفت الأئمة بعضهم مع بعض، فما ضرَّهم ذلك شـيئًا، اختلفت آراؤهم ولم تختلف قلوبهم، وبعض هذه المسائل الثمانية اختلف الناس فيها من قديم؛ مثل: قضية وجه المرأة: أهو عورة أم ليس بعورة؟ وقضية الغناء بآلة وبغير آلة: ما حكمه؟ وسيظل الناس يختلفون فيها إلى ما شاء الله، ويرد بعضهم على بعض، ولا حرج في ذلك ولا إنكار في مسائل الخلاف، وهذا من سعة هذا الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان، وهناك قضايا فهمت مني خطأ، فقد قيل: إني أبحت التدخين، أو ترددت في الحكم عليه؛ مع أني معروف بالتشدد في هذا الأمر، ومن قرأ كتابي أو غيره تبين له ذلك بجلاء، ومثل ذلك: قضية جواز المودة مع الكافر، وأنا لم أجز المـودة مع كل كافر ولو كان محاربًا لله ولرسوله وللمؤمنين، إنما المودة مع المسـالم الذي له حق على المسلمين، ولهذا أجاز الشرع للمسلم أن يتزوج كتابية، مع ما افترض أن يكون بينه وبين زوجه من سكينة ومودة ورحمة.

وقلت في نهاية رسالتي للشـيخ: أرجو ألا يكون خلافي مع المشايخ في بعض المسائل سببًا في منع كتابي من دخول المملكة.

وقد استجاب الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فيما ظهر لي إلى رغبتي، وسمح لكتابي وغيره بدخول سوق المملكة.

واتصل حبل الـود بيني وبين العلَّامـة ابن باز في مناسـبات كثيرة في مؤتمرات رابطة العالم الإسـلامي، وفي المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكنت عضوًا فيه، وكان الشيخ نائبًا لرئيسه؛ إذ كان رئيسه هو ولي عهد المملكة الأمير فهد بن عبد العزيز حفظه الله في ذلك الوقت، وفي مجلس المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي الذي أتشرف بعضويته ويرأسه

الشيخ، وفي المؤتمرات العلمية والدعوية العالمية التي أقيمت في المملكة، مثل: المؤتمر العالمي للاقتصاد الإسلامي في مكة المكرمة، والمؤتمر العالمي للدعوة والدعاة في المدينة المنورة، ومؤتمر مكافحة المسكرات والمخدرات والتدخين في المدينة أيضًا.

آلى الشيخ على نفسه ألا يغادر المملكة، وكم دُعِي من أقطار وجهات شتى، ولكنه اعتذر، وعندما أقيم المؤتمر العالمي للسنة والسيرة في دولة قطر في افتتاح القرن الخامس عشر الهجري وجهنا إليه الدعوة وألححنا عليه، ولكنه قال: إنّه كان يود الاستجابة للدعوة، ولكن هذا سيفتح عليه أبوابًا لا يستطيع سدها، وأصر على موقفه ونهجه في الاعتذار.

لم أر مثل الشيخ ابن باز في ودِّه وحفاوته بإخوانه من أهل العلم، ولا في برّه وإكرامه لأبنائه من طلبة العلم، ولا في لطفه ورفقه بطالبي الحاجات من أبناء وطنه أو أبناء المسلمين عمومًا، فقد كان من أحاسن الناس أخلاقًا، الموطئين أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون.

ولقد رأيته في المجمع الفقهي يستمع وينصت إلى الآراء كلها: ما يوافقه منها وما يخالفه، ويتلقاها جميعًا باهتمام، ويعلق عليها بأدب جم، ويعارض ما يعارض منها برفق وسماحة، دون استعلاء ولا تطاول على أحد، متأدبًا بأدب النبوة، متخلقًا بأخلاق القرآن.

لا أعرف أحدًا يكره الشيخ ابن باز من أبناء الإسلام، إلا أن يكون مدخولًا في دينه، أو مطعونًا في عقيدته، أو ملبوسًا عليه، فقد كان الرجل من الصادقين الذين يعلمون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيصدقون، أحسبه كذلك والله حسيبه، ولا أزكيه على الله تعالى.

ليس معنىذلك: أن الشيخ كان معصومًا من الخطأ، فما ادعى ذلك لنفسه، وما ادَّعاه له أحد من محبيه، ولكن خطأه مغمور في جنب صوابه، وهو مأجور

على خطئه هذا أجرًا واحدًا إن شاء الله؛ لأنه بعد تحرٍّ واجتهاد منه، والمعصوم من عصمه الله.

ولقد اختلفت مع الشيخ العلَّامة في بعض المسائل، نتيجة لاختلاف الزوايا التي ينظر منها كل منا، ومدى تأثر كل منا بزمانه ومكانه، إيجابًا وسلبًا، ولم أر هذا الاختلاف غيَّر نظرتي إليه أو نظرته إليَّ، وظللت ـ والله ـ أكنُّ له المحبة والتقدير، وأدعو له بطول العمر في خدمة العلم والإسلام، وظل كذلك يعاملني بود وحب كلما التقينا، وكلما لقيه أحد من أبناء قطر حمَّله السلام إليّ رحمه الله وأكرم مثواه.

الحديث عن العلَّامة ابن باز ذو شجون، ومجال القول ذو سعة، ولا نستطيع أن نوفي الشيخ ما يستحقه في هذه العجالة، إنما هي كلمات سريعة، كتبتها على عجل أودّع بها الشيخ الجليل، وفاء لبعض حقه، ومعرفة بقدره، وتقديرًا لمكانته وفضله.

إن موت العلماء الأفذاذ مصيبة كبيرة، فإن الأمة تفقد بفقدهم الدليل الذي يهدي، والنور الذي يضيء الطريق، يقول علي كرَّم الله وجهه: «إذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه»[(١)].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «ما قبض الله عالمًا إلا كان ثغرة في الإسلام لا تسد»[(٢)].

يؤكد هذا حديث عبد الله بن عمرو المتفق عليه: «**إن الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعًا من صدور الناس، ولكنه يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جُهّالًا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»[(٣)].

* * *

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٧/١).

(٢) عزاه العجلوني في كشف الخفاء (١١٣/١) للديلمي.

(٣) سبق تخريجه ص ١٩٧ في كتابنا هذا.



الشيخ علي الطنطاوي

أديب الفقهاء وفقيه الأدباء

(١٣٢٧ ـ ١٤٢٠هـ = ١٩٠٩ ـ ١٩٩٩م)

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقـرة: ١٥٥ ـ ١٥٦] وأي مصيبة أكبر من فقد العلماء الأعلام المتميزين، الذين إذا أفتوا كان إفتاؤهم بعلم، وإذا قضوا كان قضاؤهم بحق، وإذا دعوا كانت دعوتهم على بصيرة؟!..

وقد قال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه: «إذا مات العالم، انثلمت في الإسلام ثلمة، لا يسدها إلا خلف منه»[1].

ولكن الذي يحز من القلب: أن مَنْ نفقد من الأعلام، لا نجد من يملأ مكانه، ويسد فراغه من بعده إلا ما شاء ربك.

ولقد قدر علينا في هذه السـنوات أن نفقد في مجال العلم الإسـلامي، والدعوة الإسلامية، والفكر الإسلامي ـ عددًا من جيل العمالقة والأفذاذ واحدًا بعد الآخر.

مِنَ الرجالِ المصابيحِ الذين هُمُ ... كأنهـمْ من نجومٍ حيـةٍ صُنِعُوا

أخلاقُهم نورُهم، مِنْ أيِّ ناحيةٍ ... أقبلتَ تنظرُ في أخلاقِهم سَطَعوا

ودعنا في سنوات قليلة: العلَّامة الداعية الشيخ محمد الغزالي، والعلَّامة الفقيه الشـيخ عبد الله بن زيد المحمود، والعلَّامة المحدث عبد الفتاح أبو غدة، والعلَّامة المفسر الشيخ محمد متولي الشعراوي، والعلَّامة الذي جمع

---

(١) سبق تخريجه: ص ٤٣٧ في كتابنا هذا.

بين الفقه والحديث الشيخ عبد العزيز بن باز، واليوم نودع العلَّامة الأديب الشيخ علي الطنطاوي.

كان الإمام أبو محمد ابن قتيبة من أئمة القرن الثالث الهجري، وكان موسوعي الثقافة، كما يدل على ذلك إنتاجه الغزير والمتميز في اللغة والأدب، والتاريخ، وعلوم القرآن والحديث. وكانوا يعدونه خطيب أهل السنة المدافع عنهم، كما كان الجاحظ يعد خطيب المعتزلة، كما أطلقوا عليه لقبًا معبرًا عنه بحق، هو: أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء!.

وإني أرى هذا اللقب أو هذا الوصف جديرًا أن يطلق على علامتنا الشيخ علي الطنطاوي، الذي كان نحو سبعين سنة من عمره المبارك الذي بلغ التسعين، مشعلًا من مشاعل الهداية، ونجمًا من نجوم التنوير، ولسانًا من ألسنة الصدق، وداعية من دعاة الحق والخير والجمال، وكان يجمع في عظاته بين العلم والأدب، أو بين الإقناع والإمتاع.

يتجلى هذا فيما سطره يراعه من كتب ومقالات، وما فاض به لسانه من خطب ومحاضرات أو دروس وإفتاءات، كان يرتجلها لتوه، ولا يكتبها أو يحضّرها.

عرفت الشيخ علي الطنطاوي في بواكير شبابي، حين كنت مشغوفًا بالأدب والشعر، منهومًا بقراءة كتب الأدب، وتتبع المجلات الأدبية، وعلى رأسها مجلة (الرسالة) التي كان يصدرها الأديب المعروف أحمد حسن الزيات، ويكتب فيها عمالقة الأدب، أمثال: الرافعي والعقاد والمازني، وغيرهم من أدباء العرب.

وكان علي الطنطاوي أحد كتاب الرسالة، المحببين لدي، لنزعته الإسلامية، وسلاسته وعذوبة منطقه، وبراعة تصويره، فيما يصف به الأشياء والمعاني والشخصيات، كأنما هو مصور يسجل بـ(الكاميرا) لا أديب يسجل بالقلم.

وقد وقَّع في يوم من الأيام على مقالة: علي الطنطاوي القاضي الشرعي، فزاد ذلك من حبي إياه، وتقديري له، لما ربط بيني وبينه من وشائج العلم

الإســـلامي، والعلم رحم بين أهله، كما قال أســـلافنا، وعرفت أن الرجل من علماء الإسلام الذين جمعوا بين العلم والأدب، وربطوا الفقه بالحياة.

وقد أشرف في ســـنة (١٩٤٧م) على تحرير (الرسالة)، حين مرض الأستاذ الزيات أو تمارض، وكلف الأستاذ الطنطاوي القيام على تحريرها.

وعرفت الأستاذ الطنطاوي بعد ذلك مؤلفًا خصوصًا في التاريخ، وقرأت كتابه عن عمر بن الخطاب في جزأين وغيره من الكتب.

ولما جاء إلى المملكة العربية السعودية، وتولى التدريس في كلية التربية، كان يدرِّس الثقافة الإســـلامية، فاختار كتابي (الحلال والحرام في الإســـلام) مرجعًا للطلاب في هذا المقرر، دون أن يلقاني، ولكنه سمع بي من زملائه من أهل الشام؛ مثل: الشيخ مصطفى الزرقا، والشيخ محمد المبارك.

وحين أصدرت كتابي (فقه الزكاة) أرسلت إليه نسخة هدية له، فكتب لي رســـالة بليغة، ينوه بما بذلت في الكتـــاب من جهد، وينـــوه بمادته ومنهجه وبالنتائج التي انتهيت إليها، وبروح الاجتهاد التي تسري فيه.

وكذلك حين صدر كتابي (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) نوَّه به، وحث الشباب على قراءته، وذلك في برنامجه الأسبوعي الشهير في إذاعة المملكة، الذي استمر نحو ربع قرن، أعني: برنامج (نور وهداية).

بل كثيرًا ما نوه بعدد من كتبي في هذا البرنامـــج، والله يعلم أنه لم يكن يقصد مدحي، إنما كان يريد أن يدل المثقفين ـ والشـــباب منهم خاصة ـ إلى الكتب التي تتبنى خط الوسطية والاعتدال، والكتب المعبرة عن هذه الوجهة.

- **ثلاث مرات لقيت فيها الشيخ:**

ولقد سعدت بلقاء الشيخ الطنطاوي ثلاث مرات في حياتي:

ـ مرة حين زرته في منزله بمكة المكرمة بالقرب من الحرم الشـــريف في

عمارة الكعكي التي كان يسكن بها بجوار فندق شبرا، وذلك في أوائل السبعينيات على ما أذكر، وقد قيل لي: إنه يؤثر العزلة، ولا يكاد يستقبل أحدًا، فقلت: إني لا أريد شيئًا إلا السلام عليه.

والحق أن الرجل حينما ذكر له اسمي، رحب بالزيارة، واستقبلني استقبالًا كريمًا، ولم أطل المكث عنده، رعاية لمشاعره، وشكرته على موقفه من كتبي، وقد أثنى ثناء طيبًا على ما قرأه منها. وهو قليل فيما أذكر.

ـ ولقيته مرة أخرى في بيروت، مع الأستاذ محمد المبارك، والأستاذ الشاعر عمر بهاء الدين الأميري، في إحدى إجازات الصيف.

ـ ولقيته مرة ثالثة في بيته بجدة، حين قعدت به السن، ولزم المنزل، ولم يعد يشارك في نشاط، وكان الذي صحبني إليه ابننا الشاب العالم النابه، المحب لي وله: الشيخ مجد مكي، وكانت جلسة طيبة نافعة، وددنا أن تتكرر، ولكنها كانت الأخيرة، كما قدر الله.

• **نشأة الشيخ:**

نشأ الشيخ الطنطاوي في أسرة علمية، فجده الشيخ أحمد الطنطاوي من العلماء، وكان إمامًا في الجيش العثماني، وقد حدثنا عنه في مذكراته أو ذكرياته، وكان والده الشيخ مصطفى إمام مسجد، وكان يعمل أمينًا للفتوى مع الشيخ أبي الخير ابن عابدين مفتي الشام، وكان عمه أكبر عالم في علم الفلك الإسلامي، وكان خاله العلَّامة المحقق محب الدين الخطيب، صاحب مجلتي (الزهراء) و(الفتح) اللتين كان لهما دور كبير في إيقاظ المشاعر الإسلامية، وتصحيح المفاهيم الإسلامية، وربط المسلمين بالقضايا الإسلامية.

وقد تقلبت به الأيام في دراسته، وأخذ الثانوية من الشام، ثم جاء إلى مصر ليدرس فيها، وسجَّل في مدرسة دار العلوم العليا، دخلها في السنة التي تخرج

منها حسن البنا، ولكنه زامل سـيد قطب في الدراسـة، وكان معه في فصل واحد، وإن كان سيد يكبره بثلاث سنوات.

لم يستمر في دراسته بدار العلوم، وألح عليه خاطر لم يستطع له دفعًا، أن يعود إلى دمشـق، وعاد إليها، والتحق بكلية الحقـوق، وكان رفيقه فيها فقيه الأمة الشيخ مصطفى الزرقا حفظه الله.

وتقلبت به الأيام ما بين التعليم والقضاء، حتى وصل إلى درجة مستشار بمحكمة النقض العليا.

حفظ الشيخ عشرات ـ بل مئات ـ القصائد من الشـعر الجاهلي والشعر الإسـلامي والأموي، باعتباره الحجة في اللغة، كما حفظ من الشعر العباسي أيضًا، وقرأ الكثير من كتب الأدب والتاريخ، وعلوم الدين، والثقافة العامة، كما تعلم من مدرسة الحياة وكتاب الواقع، من خلال معايشته ورحلاته إلى مصر والعراق وإستانبول وأوربة وآسية وإفريقية، وقد وهب بصيرة نيرة، وحسًا نقديًا عاليًا، بدا ذلك في نقده الأدبي، ونقده الديني، ونقده الاجتماعي.

- **مشاركته في القضايا الوطنية:**

شارك الشيخ ـ وهو طالب ـ في مقاومة الاحتلال الفرنسي لسورية، وكان يحرض الطلاب، ويحرك الجماهير، ويسـير المظاهرات، ويلهب الحماس بخطبه النارية، وبيانه الساحر، وأصابه في ذلك ما أصابه، حيث اعتقل وأودع السجن.

أيد الشيخ الوحدة الاندماجية مع مصر، مثل كل السوريين، وعلى رأسهم رئيس الجمهورية شـكري القوتلي، الذي تنازل عن رئاسته، ليصبح المواطن العربي الأول في (الجمهورية العربية المتحدة).

ولكن حينما أصبحت الوحدة في عهـد عبد الناصر خطرًا على الحريات وعلى حقوق الإنسان، وانتشر التجسس، وعاش الناس في رعب من السلطة،

وغدا المكتب الثاني (المخابرات) هو الذي يحكم البلد.. وقف ـ مثل جمهور السوريين ـ مع الانفصال، وأيده بقوة، وخطب خطبة تاريخية مشهورة، كان لها صداها الواسع، وتأثيرها البالغ على جماهير الناس، ومن بعد ضياع أول وحدة عربية حقيقية تقع على كاهل الحكم الاستبدادي المتسلط الذي كان له ـ كما قال القوتلي ـ ألف عين، ولكنه لا يرى، وألف أذن، ولكنه لا يسمع.

• **دفاع عن الإسلام في مواجهة القومية والاشتراكية:**

جند الشيخ طوال عمره قلمه ولسانه للذود عن حياض الإسلام، وحراسة قلاعه من المغيرين عليه، سواء من أعدائه الصرحاء المكشوفين، من الصهاينة والصليبيين والشيوعيين، وأمثالهم، أم من المقنعين الذين يلبسون لبوس المسلمين، ويتسمون بأسماء المسلمين، وليسوا على شيء من هذا الدين، وهؤلاء هم الأشد خطرًا.

حينما ظهرت فتنة (القومية العربية) لتكون بديلًا للمسلمين عن الإسلام، وتكون مصدر ولائهم وانتمائهم، بدل الولاء للإسلام، والانتماء للإسلام، وقال من قال: إن العروبة أسبق من الإسلام ويجب أن تقدم عليه، وإن محمدًا لم يكن أكثر من عبقرية عربية، وإن العربي المسيحي أو اليهودي أقرب إلينا من المسلم الباكستاني، وحُرف التاريخ ليخدم هذه الأفكار، بل حرفت نصوص الدين ذاتها لتسير في هذا الركب.

حينئذ وقف الشيخ الطنطاوي في وجه هذه الدعوة المضلة، وكشف زيفها وباطلها، وسجل في ذكرياته موقفه من هذه الدعوة، وخصوصًا بعد أن ارتبطت بدعوة أخرى، هي دعوة الاشتراكية الثورية.

ومن المعلوم أن القومية ليس لها في نفسها مضمون عقدي أو فكري (إيديولوجي)؛ فيمكن أن تملأ بالفكرة الليبرالية، أو بالفكرة الماركسية، أو بالفكرة الإسلامية، ولكن دعاة القومية العربية في مصر، كدعاة البعث

العربي في الشام والعراق: جعلوا مضمون القومية هو الاشتراكية اليسارية، التي ناصبها الشيخ العداء الصريح. يقول في ذكرياته:

كان عندنا في الشَّام ـ ونحن صغار ـ مدرِّسون من فلسطين ومن تونس ومن المغرب، ومدرِّسون من الترك، ومن الأكراد، سرَدْتُ أسماء بعضهم فيما مضى من هذه الذِّكريات، فما كنَّا نسأل، ولا نفكِّر أن نسأل عن أجناسهم، ولا عن أقوامهم، ولا عن مواطنهم، كانوا مسلمين ويكفينا أنَّهم كانوا مسلمين، فنشَأَتْ ونحن صغار فتنة القوميَّات، فقال التُّرك: ترك، وقال العرب: عرب، وقال الأكراد: أكراد، فتفرَّق الشَّمل الجميع، وتعدَّدت الأمَّة الواحدة، فصارت أممًا.

كانت فتنة القوميَّة، وتَعِبْنا في جدال هؤلاء القوميين، نتبع في ذلك الأمير شكيبًا (شكيب أرسلان) وإخوانه، ويتبعنا من جاء بعدنا، كتبتُ في ذلك عشرات (عشرات حقًّا) من الخطب والمحاضرات؛ لنبيِّن للنَّاس أنَّنا لا نعادي العربيَّة، وإنَّما ندافع عن الإسلام، وأنَّنا نعرف للعروبة قدرها، ولكن تحت راية الإسلام.

ثم كانت فتنة الاشتراكية، وخدع ناس من أفاضلنا، فقالوا: (اشتراكية الإسلام) ألف في ذلك صديقنا الداعية إلى الله الرجل الصالح الدكتور الشيخ مصطفى السباعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولقد حضرت محاضرته في الجامعة السورية عن هذه الاشتراكية التي سماها إسلامية، على ندرة ما أحضر من المحاضرات، وكان إلى جنبي في الصف الأول أخي ورفيقي في كلية الحقوق وأحد أصدقاء عمري، الشيخ مصطفى الزرقا، فكنت أعترض أخانا الشيخ السباعي كلما اختار حكمًا فقهيًّا ضعيفًا يراه أقرب إلى الاشتراكية، وأقاطعه وأنا في مكاني، وكان بيني وبينه مناقشة بعد ذلك في الصحف، قلت له فيها، وقال لي، وأنا أشهد له وقد مضى إلى لقاء ربه، أنه ما أراد بما كتب إلا الخير، وأن يقرب الاشتراكيين إلى

الإسلام، والشيخ السباعي أمتن دينًا، وأكثر علمًا، من أن يكتب أو يقول ما يخالف الإسلام، ولكن الاشتراكيين كانوا أوسع حيلة، وأقوى أداة، وأكثر وسائل؛ فاتخذوا كتابه ذريعة لتقرب المسلمين من الاشتراكية، وما أراد إلا أن يقرب الاشتراكيين إلى الإسلام[1].

وقد أخالف الشيخ الطنطاوي في موقفه من الدكتور الشيخ السباعي، وأرى أن كتابه لا يؤخذ عليه إلا الإسلام، أما مضمونه فهو اجتهادات، تنبع من صميم الفقه الإسلامي، وإن كنت أوافق الشيخ الطنطاوي في استغلال الاشتراكية الناصرية للكتاب التي طبعت ووزعت منه عشرات الألوف.

وإذا كان الشيخ قد وقف حياته وقلمه ولسانه وفكره للذود عن الإسلام، فلا غرو أن رشحته الجامعات والمؤسسات العلمية الإسلامية، لجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، وقد حصل عليها، وهو لها أهل.

- **العربية لسان الإسلام:**

يعتبر الشيخ الاعتزاز باللغة العربية ـ التي هي لسان الإسلام ـ جزءًا من الاعتزاز بالدين، وبالذاتية الثقافية، والهوية الحضارية للأمة، ويرفض استخدام الكلمات الدخيلة المنقولة من اللغات الأجنبية، إلا بعد تعريبها أو إيجاد البديل لها، كوضعة كلمة (الرائي) بدل كلمة (التلفزيون)، وكلمة (الراد) بدل الراديو، كما عرب كلمة (الكيلو) بـ(الكيل) وغيرها.

ومن هنا دافع الشيخ عن الفصحى دفاعه عن الإسلام، ودافع عن الأدب الراقي، وقاوم الأدب السوقي، ودافع عن الشعر العمودي، شعر العرب ذي الوزن والقافية، مما يسمى الشعر الحديث.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: بدأت في أيامنا فتنة (الشعر المنثور) الذي سئل عنه الأستاذ المازني يومًا، فقال (على عادته في السخرية والتهكم): بل هو النثر المشعور! أما

---

(١) «ذكريات» علي الطنطاوي (١٣٨/٨).

هذا الـكلام المصفوف صفًّا الذي ينشـر في الجرائد على أنه شـعر، وعلى أن أصحابه شعراء، ما فيه من الشعر إلا أنه طبع على هيئة أبيات القصيدة، فهو شعر المسطرة، أما موسيقا الشعر، وطرب الشعر، وسمو الشعر، فما فيه منه شيء.

ولقد قُدم شيء من هذا الشعر إلى الأستاذ العقاد، وهو رئيس لجنة الشعر في المجلس الأعلى للفنـون والآداب، فكتب: يُحَوَّل إلى لجنة النثر، أي: إنه أراد أن يدخل دولة الشعر بجواز مزور، فرفضه ورده إلى موطنه[1].

• **صراحة متميزة:**

ومما امتاز به الشـيخ علي الطنطـاوي: الصراحة، فهو يقـول الحق كما يعتقده، لا يخاف لومة لائم، ونقمة ظالم، وإن كان في الفترة الأخيرة من حياته المباركة أقلَّ حدة مما كان عليه من قبل، فللسنين حكمها، وللزمن (بصمته) على الإنسان.

فلذلك نقد كثيرين، وهاجم كثيرين، وهاجم قومًا، ثم عاد فمدحهم، كما فعل مع الشاعر الأديب السوري الأستاذ شـفيق جبري، فقد هاجمه حين كان مديرًا لديوان المعارف (وكيل وزارة)، ثم عاد فمدحه بعد تركه للمنصب، واستشـهد بقول ابن هبيرة: ما رأيت مثل الفرزدق: هجاني أميرًا، ومدحني معزولًا!.

وذكر أنه أخطأ أحد طلابه مرة، فوبَّخه أمام زملائه وقسا عليه، فلما عاد إلى البيت، وراجع المسألة، عرف أن الطالب كان على صواب، وأنه هو المخطئ، وعندما رجع إلى طلابه في اليوم التالي أعلن أمامهم صراحة أن الطالب كان على حق، وأنه أخطأ في حقه مرتين؛ أنه خطَّأه وهو مصيب، وأنه قسـا عليه، على غير ما يليق بالعلماء مع تلاميذهم!.

ومن الطريف أن نجد هذه الصراحة في مواقف كثيرة للشـيخ مع نفسه، ومنها ما سجله في مذكراته في مناجاته أو محاسـبته لنفسه، فقد كان الشيخ

---

(١) ذكريات (١٢٩/٨، ٣٧٢).

يكتب مقالاته بأجر، وهذا معروف عنه، ويهمني أن أنقل هنا هذه المحاسبة الصريحة من الشيخ نفسه حول هذه القضية، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في مذكراته أو ذكرياته:

لقد أمضيت حقبة من عمري في حلبة النضال أقاتل وحدي على ضعف يدي، وقلة عزمي، حاربت على جبهتين: جبهة الجهلة الجامدين الذين يحرفون الدين ويغشون المسلمين، وجبهة الفاسدين المفسدين.

وما حدت بحمد الله عن هذا الطريق، وما كتبت بقلمي متعمدًا ما لا يرضي ربي، وإن كنت لا أبرئ نفسي من الخطأ.

وأنا أكتب من ستين سنة كاملة، وآخذ على ما أكتبه أجرًا، لأنني كاتب محترف، كتبت آلافًا وآلافًا من المقالات، وأنا أحاسب نفسي الآن، وطالما حاسبتها قبل الآن، فأتساءل: هل هذه الأجرة من الناس تذهب ما آمل من الثواب عند الله؟ وأخشى أن أكون قد قضيت لنفسي، وأنا أعرض قضائي على القراء، لأسمع ما لهم فيه من آراء.

وأنا أولًا أسأل نفسي فأقول: يا نفس هل كنت تكتبين ما يخالف الدين ولو أعطيت على كتابته الملايين؟ فأجد الجواب اليقيني الصادق، أن: لا.

وأسألها: إن لم يكن في الساحة من ينكر المنكر غيرك يا نفس، وكان الإنكار واجبًا شرعًا، هل كنت تمتنعين عن إنكاره، لأنك لم تُعْطَي أجرة الكتابة؟ فأجد الجواب اليقيني الصادق، أن: لا. وأنا أقول الآن ما كنت أقوله من قبل، هو أني ما بدلت بحمد الله ولا غيرت، وما قلت يومًا كلمة الباطل وأنا أعرف بطلانه، وإن صرت أعجز أحيانًا عن أن أعلن كلمة الحق.

إن أول كتاب صغير نُشر لي سنة (١٣٤٨هـ)، ما قلته فيه هو الذي قلته في آخر كتاب أعيد طبعه لي سنة (١٤٠٦هـ)، وإن تبدل مني شيء فهو الأسلوب، كنت فتى فيه شدة، وفيه حدة، فألانتني الأيام قليلًا، وهدأت حدتي، وإن كانت لم تستطع أن تمحوها نفسي.

والشـــيخُ لا يتـــركُ أخلاقَـــهُ حتَّى يُـــوارى في ثَرَى رَمْسِـــه
وذو الشـــوقِ القديمِ وإنْ تعزَّى مشـــوقٌ حينَ يَلقى العاشقينا[1]

• **تراث ضخم:**

ترك الشـــيخ الطنطاوي تراثًا ضخمًا يتمثل في عشرات الكتب في الدين والفكر، والأدب والتاريخ، والتربية والإصلاح، ومنها (ذكرياته) التي نشـــرت في ثمانية أجزاء.

كما يتمثل في مئات أو آلاف المقالات، لم يـــودع أكثرها في الكتب، وأعرف أن الشيخ مجد مكي يحاول جمعها من مظانها، وقد جمع مقدمات الشيخ لنحو خمسين كتابًا فأخرجها في كتاب مع (مقدمة المقدمات) بقلم الشيخ.

كما ترك الشيخ مئات الأشرطة المسموعة ـ إن لم يكن آلافها ـ من دروس الشيخ ومحاضراته، وفتاواه في تلفزيون المملكة، وقد كان هو حريصًا على أن يسجل لنفسه كل ما يقدمه من أحاديث أو فتاوى.

وكـــم أتمنى أن تقوم (دور النشـــر) التي تنشـــر كتب الشـــيخ، أن تصدر مجموعة أعماله كاملة، ما نشر منها وما لم ينشر، لتستفيد الأجيال منها بصورة غير منقوصة.

• **الشيخ لم ينجب أبناء من صلبه:**

لم ينجب الشيخ ذكورًا، إنما أنجب خمس بنات، يعتزُّ بهن ـ كما يعتززن به ـ كل الاعتزاز، إحداهن (بنان) زوجة الداعية الإســـلامي المعروف عصام العطار، التي اغتيلت بداية الثمانينيات في مدينة آخن بألمانية، وحين بلغ نبأ اغتيالها لوالدها احتسبها شهيدة عند الله.

---

(١) ذكريات (١٢٧/٨ ـ ١٢٨).

وله من بناته أحفاد وحفيدات يباهون بانتسابهم إلى الشيخ الطنطاوي، وكتبت إحداهن كتابًا عنوانه (هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي)[1].

وإذا كان الشيخ لم ينجب أبناء من صلبه، فإن له أبناء كثيرين منتشرين في أنحاء العالم الإسلامي وخارجه، لا ينتمون إليه بالنسب والرحم، ولكن بالفكر والروح.

رحم الله شيخنا الطنطاوي، وغفر له، وتقبله في الصالحين من عباده، وأسكنه الفردوس الأعلى مع المقربين، وجزاه عن دينه وأمته، وعن العلم والأدب، والثقافة والدعوة؛ خير ما يجزي به الدعاة الصادقين، والعلماء العاملين، والأئمة الهادين المهديين، اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، واغفر لنا وله، آمين.

* * *

(١) لحفيدته عابدة المؤيد العظم



العلَّامة مصطفى الزرقا

فقيه الأمة

(١٣٢٢ ـ ١٤٢٠هـ = ١٩٠٤ ـ ١٩٩٩م)

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] فقد كتب عليّ أن أودع أعلام الإسلام، وأن أرثي عمالقة الأمة، واحدًا بعد الآخر.

ففي مدة وجيزة، أي: قبل نحو شهرين رثيت علامة الجزيرة الشيخ عبد العزيز بن باز، وقبل أسابيع ثلاثة رثيت علامة الشام الشيخ علي الطنطاوي.

واليوم أنعي إلى الأمة: فقيه العصر العلَّامة الشيخ مصطفى الزرقا، الذي لقي ربه مساء السبت (١٩ من ربيع الأولى ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩/٧/٣م) في بيته بمدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، عن عمر بلغ خمسة وتسعين عامًا مباركة، قضاها في رحاب العلم الشرعي، والفقه الإسلامي، والدعوة إلى الله تعالى.

• عطاء إلى آخر لحظة:

ولقد ظل الشيخ طوال عمره المديد الميمون معطاء، لم يتوقف عن العمل، ولم تَخْبُ شعلته، أو تنطفئ شمعته، حتى توفاه الله. وما كان يشكو إلا من وجع المفاصل، وضعف السمع، الذي استعان عليه بسماعة يضعها في أذنيه، أما ذهنه فقد كان حاضرًا لم يغب، وأما ذاكرته فظلت قوية لم تضعف، وأما عزيمته فلم تزل صلبة لم تهن.

أخبرني ابننا العزيز النجيب العالم النابه الشيخ مجد مكي: أنه قبيل وفاته بقليل، عرضت عليه فتوى من شركة الراجحي للاستثمار ـ وقد كان مستشارًا

لها ومشـــرفًا على بحوثها في ســـنواته الأخيرة ـ فنظر فيها ونقحها وراجعها وصاغها الصياغة التي يرضى عنها.

وبقي بعدها ينتظر صلاة العصر، ويســـأل عن دخـــول الوقت، حتى وافاه الأجل، وانتقل إلى رحمة ربِّه ﷻ.

• **طلبه للعلم:**

ولد الشيخ الزرقا في مدينة حلب الشهباء في سنة (١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م) من أسرة علمية دينية عريقة، اشتغلت بالفقه الحنفي، وبرزت فيه.

فجده العلَّامة الشيخ محمد الزرقا (ت: ١٣٤٣هـ) كان فقيه زمانه، وكان العلماء يأخذون عنه ويقرؤون عليه حاشـــية ابن عابدين الشهيرة في الفقه الحنفي.

وأما والده فهو العلَّامة الشيخ أحمد الزرقا (ت: ١٣٥٧هـ) الذي درس الفقه الحنفي درسًـــا، بل حرثه حرثًا وترك لنا فيه أثرًا ملموسًا هو (شرح قواعد المجلة) وقد نشرها شيخنا مصطفى الزرقا بتقديمه منذ سنوات، فهو غصن باسق من شجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٤].

وهذا النســـب العريق هو الذي سماه أديب الشـــام الشيخ علي الطنطاوي (سلسلة الذهب)! وهو الذي يستطيع الشيخ الزرقا أن يزهو به ويقول: أولئك آبائي فجئني بمثلهم!.

فـــإنْ كانَ من فضلٍ أَتَـــوْهُ فإنما ... توارَثَـــهُ آبـــاءُ آبائِهِـــم قبـــلُ!
وهل ينبتُ الخطيُّ إلا وشيجة ... وتنبتُ إلَّا في مغارسِـــها النخلُ

هذه النشأة الطيبة المتميزة الخصبة، كان لها أثرها في تكوين الشيخ فكرًا وســـلوكًا، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعـــراف: ٥٨]، وقـــد آتاه الله

البصيرة النيرة، والعقلية المتفتحة، والذهن اللماح، والذاكرة اللاقطة، والقدرة على الاستنباط والتعليل، والتحليل والموازنة والنقد، مع أناة عرف بها، وغاية في التدقيق، وبراعة في التمحيص والتحقيق، ونفس سمحة تميل إلى التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والتسهيل لا التعقيد، كل هذه كانت مؤهلات لنبوغ الشيخ منذ صباه.

وإذا رأيتُ مـن الهـلالِ نُمُوَّه أيقنتُ أن سيصيرُ بدرًا كاملا!

قرأ الشـيخ على علماء بلده في حلب، وأولهم والده، وتلقى العلم عنهم على الطريقة القديمة ـ على الحُصُر والبُسُط ـ تلقى عنهم التفسير والحديث، والتوحيد والفقه، والأصول والنحو، والصـرف والبلاغة، والأدب، وكان من أبرزهم تأثيرًا فـي تكوينه العلمي: والده الشـيخ أحمـد، والعلَّامة المؤرخ المحدث العلَّامة الشيخ محمد راغب الطباخ (ت: ١٣٧٠هـ)، والعلَّامة المفسر المتكلم النظار الشيخ محمد الحنفي (ت: ١٣٤٢هـ)، وكان من الذين تعلموا في الأزهر، وقرأ على الشـيخ محمـد بخيـت المطيعي مفتي مصـر: التوحيد والأصول، كما قرأ للإمام محمد عبده: رسالة التوحيد وكثيرًا من التفسير.

ثم أضاف إلى الدراسة التقليدية: الدراسة النظامية في المدرسة الخسروية الشرعية في حلب، كما درس اللغة الفرنسية في مدارس (الفرير) ليتخذ منها سلاحًا لمعرفة ثقافة العصر.

وقد وطن نفسـه ـ بعد ذلك ـ على دراسـة المقررات المطلوبة لامتحان شـهادة الثانوية هو وصديقه ورفيقه محمد معروف الدواليبي، ودخل الثانوية (شعبة العلوم والآداب) وحصل على الترتيب الأول فيها. كما قدم في دمشق للثانوية: (شعبة الفلسـفة) وكان أول الناجحين فيها كذلك، فجمع بذلك بين الدراسة الشرعية والدراسة العصرية.

والتحق بعد ذلك بالجامعة السورية ـ جامعة دمشق بعد ذلك ـ في كليتين

معًا: الحقوق والآداب، فكان يحضر الأولى في النهار، والثانية في المساء، حتى تخرج منهما بتفوق ملحوظ، فقد حصل على الترتيب الأول كذلك، وبهذا اجتمعت له الثقافات الثلاث: الشرعية والقانونية والأدبية.

• **أعماله الوظيفية:**

تولى الشيخ التدريس في المدرسة الخسروية التي تخرج منها، كان يدرس فيها الفقه والأصول والآداب، كما شغل مكان والده في المدارس النظامية، وفي درس الجامع الأموي بحلب.

واشتغل نحو عشر سنوات بالمحاماة بعد تخرجه من الحقوق ـ أمام المحاكم الوطنية، والمحاكم المختلطة (بالفرنسية)، وأكسبه ذلك خبرة بالحياة ومشكلات الناس.

وفي سنة (١٩٤٤م) عين مدرسًا للحقوق المدنية والشريعة في كلية الحقوق بدمشق، وظل أستاذًا بها إلى أن بلغ سن التقاعد (١٩٦٦م)، وهو رئيس لقسم الشريعة.

وحين أنشئت كلية الشريعة سنة (١٩٥٤م)، وكان عميدها الفقيه الداعية الكبير الدكتور مصطفى السباعي كلفه بإلقاء عدد من المحاضرات فيها، كما ولّي رئاسة لجنة (موسوعة الفقه الإسلامي) التي عزمت الكلية على تبني مشروعها.

وقد شارك في وضع خطة العمل، وتحديد الهدف، والبدء في الخطوات التمهيدية، واستقراء المصطلحات العنوانية المطلوبة في الموسوعة، وأشرف على إصدار (معجم فقه ابن حزم) وغيره.

وفي سنة (١٩٦٦م) اختارته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت ليكون أول خبير لإنشاء الموسوعة الفقهية، وقد بقي خمس سنوات، وضع فيها

اللمسات الأولى لعمل الموسوعة، وإصدار بعض الأعمال التجريبية، عن (الأطعمة) و(الحوالة) وغيرها، وكان التخطيط الأولي: أن تجمع فقه المذاهب الثمانية، ثم رأت الوزارة بعد ذلك الاقتصار على المذاهب الأربعة.

وفي سنة (١٩٧١م)، دعته الجامعة الأردنية ليدرس في كلية الشريعة، المدخل الفقهي العام، وغيره من المواد، وظل يدرس بها ثمانية عشر عامًا.

لقد تخرجت أجيال على يديه، خلال ثلاثة أرباع قرن من الزمان، نهلت من معينه، واغترفت من بحره، وتعلمت من نهجه، وتأثرت بمشربه، واقتبست من روحه، وسارت في خطه، الذي ينقاد للنقل، ولا يعطل العقل، ويعمل النص، ولا يغفل الواقع، ويستفيد من التراث، ولا يهمل الحاضر، ويوازن بين النص الجزئي والمقصد الكلي.

- **متى عرفتُ الشيخ الزرقا؟:**

عرفت العلَّامة الشيخ مصطفى الزرقا أول ما عرفته في صورة له في مجلة (الشهاب) المصرية، التي أصدرها في أواخر حياته الإمام حسن البنا رَحِمَهُ اللَّهُ، لينشئ بها ثقافة إسلامية معمقة تخلف مجلة (المنار) التي كان يصدرها العلَّامة محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكانت المجلة تصدر في آخر كل عدد من صفحة أو أكثر، سمَّتْها: سجل التعارف الإسلامي، تشتمل على صور لعدة شخصيات إسلامية، من بلاد شتى، ونبذة مركزة عن كل منها، وكان من صور هذا السجل في العدد الأول: صورة للأستاذ الزرقا، وهو شاب وسيم وقور، يرتدي عمامة بيضاء، وكتبت المجلة عنه: الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا: من كرام أبناء سورية، ولد سنة (١٣٢٢هـ)، وطلب العلم في حلب، وتخرج من كليتها الشرعية، وحصل على الإجازة من كلية الحقوق بالجامعة السورية، وهو الآن أستاذ الشريعة الإسلامية فيها، وهو باحث قانوني ممتاز، وقد صاغ الفقه الإسلامي بأسلوب عصري، ورتب نظرية

الالتزامات في القانون الوضعي في مؤلفه (الحقوق المدنية)، وله كذلك كتاب (أحكام الأوقاف) ويدرس الآن في قسم الدكتوراه بجامعة فؤاد الأول، وقد حصل على دبلوم الشريعة الإسلامية بامتياز.

وفي هذا العدد من مجلة (الشهاب) كان للأستاذ الزرقا مقال بعنوان: العقل العلمي والعقل العامي، كما كتب مقالًا في عدد آخر من أعداد المجلة الخمسة عن العصبية المذهبية.

وقد وجدت فيما كتبه الشيخ الزرقا حينئذ ـ وأنا طالب في المرحلة الثانوية ـ أفكارًا علمية وروحًا تجديدية مع بلاغة وبيان مشرق.

وبعد ذلك قرأت للشيخ الزرقا بعض مقالات في مجلة (المسلمون) التي كان يصدرها الداعية المعروف الأستاذ سعيد رمضان، مثل: مقالة (العبادة، جوهرها وآفاقها).

كما قرأت للفقيه الضليع، الشهيد عبد القادر عودة، صاحب كتاب (التشريع الجنائي الإسلامي) تعريفًا بكتاب الشيخ الزرقا (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد) أثنى فيه ثناءً عاطرًا على الكتاب مما شوقني إليه، وشدني للاطلاع عليه.

وعندما أتيح لي الاطلاع على عمل الشيخ الزرقا، وجدته جديرًا بما قال عنه الأستاذ عودة رحمة الله عليهما.

- **لقاءاتي مع الشيخ الزرقا:**

وأذكر أن أول لقاء لي مع الشيخ الزرقا كان في مصر، في عهد الوحدة مع سورية، وعرفني به الدكتور محمد البهي المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر حينئذ، وكنت أعمل معه في ذلك الوقت، وكان الشيخ الزرقا يشارك مع رفقائه الثلاثة في وضع مناهج كلية الشريعة وكلية أصول الدين في الأزهر، وأعني

بهم: شيخ الدعاة الدكتور مصطفى السباعي، والمفكر المربي الأستاذ محمد المبارك، والمفكر السياسي الدكتور الدواليبي.

وكان كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) قد ظهر في طبعته الأولى سنة (١٩٥٩م)، وكنت أرسلت إليه نسخة هدية مني، فقرأه وسر به، وأثنى عليه، وقال كلمته الشهيرة: إن اقتناء هذا الكتاب واجب على كل أسرة مسلمة.

ومنذ ذلك الوقت ـ من أربعين سنة ـ والمودة بيني وبين شيخنا موصولة، وكلما ظهر لي شيء من الإنتاج العلمي هش له، ورحب به، وحث طلابه على قراءته، مثل: (فقه الزكاة) وغيره من الكتب.

ولقد التقينا بعد ذلك في مناسبات مختلفة، وفي بلاد شتى: في الكويت، وفي لبنان، وفي تركية، وفي ليبيا، وفي الأردن، وفي المملكة العربية السعودية، وفي أمريكة وأوربة، وفي غيرها في ندوات ومؤتمرات، وكلما لقيته ازددت منه قربًا، وازددت له حبًّا، وهو يبادلني الشعور نفسه.

لقد كنا نلتقي في (المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي) في مكة المكرمة، وأنا أشترك معه في عضويته، وفي دورات (مجمع الفقه الإسلامي) في جدة، وهو عضو أساسي فيه، وأنا خبير فيه، وفي المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمان، وأنا عضو معه فيه، وفي غير ذلك من المناسبات في أقطار عدة، فكنت أحس أنه يفرح بلقائي، كما يفرح الظمآن بالماء العذب، يترقبه ثم يجده، وأشهد أني كنت كذلك إذا رأيته، والأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف.

وقد كان من أدبه وفضله يبعث إلي ببعض الأسئلة في بعض القضايا المهمة التي عرضت عليه، وأجاب فيها، ليعرف رأيي فيها، وهل أقره على إجابته أو لا؟ فهو يطمئن إلى رأيي ويثق به، وهذا تواضع كبير من مثله، وأنا لا أعدو أن أكون من تلاميذه.

وحين جمع أخونا مجد مكي فتاواه لتصدر في كتاب، طلب إليه أن يرسلها إليَّ لأكتب لها مقدمة، والحق أنه شـــرفني بذلك، فما كان مثلي ليقدم فقيهًا كبيرًا في حجم الزرقا، الذي غدا في هذا العصر فقيه الأمة بحق.

وكان الأخ مجد حفظه الله هو همزة الوصل في المدة الأخيرة بيني وبينه، كما كان ابنه العالم الجليل، والاقتصادي الفقيـــه، صديقي الحبيب، الدكتور محمد أنس الزرقا، واســـطة بيننا ينقل إليَّ آخر إنجازاته، وآخر تعليقاته فيما يصدر لي.

وكان آخر ما وصلني من الشـــيخ نســـخة من فتاواه أهداهـــا إلي بخطه، وطوقني بعبارات لا أستحقها، تفضلًا منه، وكان ذلك في ذي الحجة (١٤١٩هـ= آذار/ مارس ١٩٩٩م).

• **آثار الأستاذ الزرقاء العلمية:**

خلف الأستاذ الزرقا ذكرًا حســـنًا، يملأ الآفاق، وخلف تلاميذ في بلدان شتى يشيدون بذكره، ويدعون له، وخلف أصدقاء كلهم يُكِنُّ له أصدق الود، وأعمق الحب.

وخلف قبل ذلك كله: آثارًا علمية أصيلـــة ثمينة، لا تقدر بكنوز الأرض: جملة من الكتب النافعة، لا يقدرها قدرها إلا العلماء الراسخون، كلها تنبئ عن فقه مكين، وعلم رصين، ودين متين، وأدب مبين.

من هذه الكتب:

ـ الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد: وهي سلســـلة ذهبية حقًّا، صدر منها: المدخل الفقهي العام، وهو دراسة فقهية لا نظير لها فيما صنَّف السابقون، أو ألَّف اللاحقون.

ـ المدخل للنظرية العامة للالتزامات في الفقه الإسلامي: وهو الذي رُشِّح به لجائزة الملك فيصل العالمية، وحصل عليها في عام (١٤٠٤هـ).

ـ أحكام الأوقاف.

ـ العقود المسماة في الفقه الإسلامي: عقد البيع.

ـ عقد الاستصناع وأثره في نشاط البنوك الإسلامية.

ـ الفعل الضار والضمان فيه.

ـ صياغة شرعية لنظرية التعسف في استعمال الحق.

ـ عظمة محمد مجمع العظمات البشرية.

ـ نظام التأمين.

ـ الاستصلاح والمصلحة المرسلة في الفقه الإسلامي.

ـ في الحديث النبوي.

ـ الفقه الإسلامي ومدارسه (بتكليف من اليونسكو).

ـ العقل والفهم في السنة النبوية.

ـ فتاوى مصطفى الزرقا.

تلك هي الثروة النفيسة من الكتب النافعة الماتعة، التي جمعت بين أصالة القديم، ونصاعة الجديد، والتي شرقت وغربت، واستفاد منها القاصي والداني في العالم الإسلامي على امتداده، استفاد منها رجال الفقه، ورجال القانون، ورجال الاقتصاد، ورجال السياسة، ورجال الدعوة.

وحسبي هنا أن أنقل سطورًا مما كتبه القاضي الفقيه الشهيد عبد القادر عودة؛ عن كتابه (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد).

قال: «كان هذا العنوان أمنية فأصبح حقيقة، كان أمنية تهوي إليها النفوس وتهفو إليها القلوب، فأصبح حقيقةً ماثلة بين دفتي كتاب يستطيع كل قارئ أن ينالها وأن يستمتع بجمالها.

وقبل هذا الكتاب كان عشاق الفقه الإسلامي يحاولون أن ينالوه فلا يستطيع أن يناله منهم إلا البعض وقليل ما هم؛ لأن الفقه اعتصم من طالبيه في المتون وتحصن في الشروح، واستعصى على طلابه في اللغة المغلقة والأسلوب العقيم.

ولقد وقع في يدي كتاب (المدخل الفقهي العام) فوجدت شيئًا جديدًا وعملًا جليلًا. فأما أنه شيء جديد، فإن الفقه الإسلامي لم يجر رجاله على هذه الطريقة الحديثة التي جرى عليها المؤلف، ولم يأخذوا بذلك التقسيم العصري الذي أخذ به، حيث تؤصل المسائل، وتعرض الكليات، وتبسط النظريات، وتشرح المصطلحات، ثم تستخرج الفروع من أصولها، أو ترد الجزئيات إلى كلياتها، أو تطبق النظريات على موضوعاتها، فيخرج الدارس من دراسته وقد ألمَّ بالكليات والنظريات، وتماسكت في ذهنه المسائل وارتبطت الفروع بالأصول، واستفاد القدرة على حل المشاكل، والتمييز بين المتشابه.

وأما أنه عمل جليل فلأنه عمل غير مسبوق، ولأنه يقتضي من صاحبه فهمًا وعقلًا وجهدًا حتى يصل إلى ما وصل إليه المؤلف من مستوى رفيع، لا يصل إليه عادة إلا النابهون، بعد أن تمهد لهم الطرق ويسبقهم الرواد، فإذا ما وصل المؤلف إلى ما وصل إليه بعد أن شق طريقه في الصخر، وكان الرائد لنفسه ولغيره، فتلك هي العبقرية الفذة، أو هو ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

ولقد ساعد المؤلف على الوصول إلى ما وصل إليه، أنه رجل ذو هدف في الحياة، وأنه من أصحاب المثل العليا الذين يعملون ويقولون لوجه الله، فأمده الله جل شأنه بعونه، ورزقه الفقه لطلابه، ثم رأى الفقه الإسلامي في ترتيبه وتبويبه، وربط فروعه بأصوله، متأخرًا قرونًا عن الفقه الحديث، فأخذ على نفسه أن ينقل الفقه الإسلامي عبر هذه القرون الطويلة نقلة واحدة ليلحقه

بالفقه الحديث، فوفقه الله إلى ما أراد، فوطَّأ الفقه الإسلامي لكل طالب، ونقله بخطوة واحدة جبارة من العصر العباسي إلى عصرنا الحديث.

فإذا هذا الفقه الغني القوي الذي كان ملتفًّا في ثوبه العتيق القديم يخرج على الناس في ثوبه الجديد فتيًّا مشرقًا، يزاحم الفقه كله بمنكبيه، ويعلن للناس أنه هو الخير كل الخير للناس لو كانوا يعلمون.

والمؤلف الجليل يعلم وهو يقدم على هذا العمل الجليل، أنه يقدم على عمل أجل وأعظم من أن يقوم به فرد، وأن هذا العمل يقتضي أن تتعاون عليه جهود جماعة من الأساتذة العلماء المطلعين على الفقه الإسلامي، والحقوق الحديثة في مصادرها وأساليبها الأجنبية، ولكن الحاجة الملحة إلى السرعة ومسابقة الزمن قضت بأن يقدم وحده على حمل هذا العبء الثقيل الذي ينوء بالعصبة أولي القوة مستمدًّا من الله العون.

ولقد أمده الله بعونه فوفقه إلى أن يخرج كتابًا جامعًا لأصول الفقه الإسلامي، والنظريات العامة التي تبنى عليها الأحكام، في لغة قوية تسيل عذوبة ورقة، وفي تنسيق دقيق وترتيب بديع، وربط للفروع بالأصول، وسلسلة منطقية للنظريات والأحكام، ولقد كان هذا الكتاب أو الكتب التي تنقص المكتبة الإسلامية، وهو بعد وجوده أول الكتب التي ستبنى عليه النهضة الفقهية الإسلامية، فدارس الفقه الإسلامي في حاجة شديدة إلى هذا الكتاب ليعرف الأسس التي يقوم عليها الفقه، ولترتبط في ذهنه بعض هذه الأسس بالبعض الآخر، ويتوجه بعد ذلك في دراسته توجهًا سليمًا.

وأهم ما في الكتاب أن طلبة كلية الحقوق في العالم الإسلامي يستطيعون أن يقرؤوه، فلا يشعرون أنهم يقرؤون شيئًا غريبًا عليهم، ولا بعيدًا عنهم، بل لعلهم سيجدون في قراءته من اللذة العلمية، والتعمق الفقهي، ودقة التعبير اللغوي والاصطلاحي، ما يجعلهم يفضلونه على غيره من كتب القانون التي

تترجم لهم ولا تؤلف، بل لعلهم يجدون فيه من الفن والروح ما لم يجدوه في كتاب آخر.

وقد استطاع المؤلف في سهولة ويسر ـ بما وهبه الله من قوة الفهم وعمق الفقه ـ أن يعرض النظريات الإسلامية العامة، كما تعرض النظريات القانونية، وأن يصل كل كلية بفروعها، وأن يستخرج من الفروع كلياتها معتمدًا في عمله على المذهب الحنفي، وإن كان يوازن بين حكم الشريعة والقوانين السورية.

ولعل هذا التوفيق الذي لازم المؤلف الجليل الشيخ الزرقا في إخراج كتابه يرجع أولًا إلى حسن صلة الشيخ بالله، فما يوفق هذا التوفيق إلا رجل يسدِّد الله خطاه، ويرجع ثانيًا إلى ما أفاء الله على الشيخ مصطفى الزرقا من فضل الجمع بين دراسة الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، وكل ذلك ساعد الشيخ الزرقا على أن يحلق في هذا الأفق العالي، وأن يقدم للإسلام والمسلمين أجل الخدمات بهذا الكتاب القيم.

جزى الله الشيخ عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ونفعنا بعلمه وأمده بالقوة، وكتب له التوفيق إنه سميع مجيب».

- **فتاوى الزرقا ومزاياها:**

وقد تجلى فقه الزرقا التطبيقي في ثلاثة مجالات: التأليف والإفتاء والتقنين. فأما التأليف فقد تحدثنا عنه، وأما الفتاوى فقد جمعت في مجلد سعدت بكتابة مقدمته، وظهر فيه كيف يرتبط الفقه بحياة الفرد المسلم، والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم.

هذه الفتاوى الزرقاوية، إنما هي في حقيقتها بحوث ودراسات فقهية أصيلة وعميقة، تقصر أو تطول، ليست مجرد قول المفتي: يجوز أو لا يجوز، أو يجوز على مذهب فلان، ولا يجوز على مذهب آخر. بل هو يغوص في المسألة، ويحلل عناصرها، ويعرضها على نصوص الشريعة الثابتة، وقواعدها

الضابطة، ومقاصدها الكلية، ويقلب النظر فيها بأناة وروية ـ كالعهد به دائمًا ـ حتى ينتهي إلى ما يراه من حكم شـرعي لها، مدخلًا في اعتباره تغير الزمان والمكان والإنسان، لا يدعي أن رأيه الذي كونه في المسألة هو حكم الله، ولا أن الصواب الذي لا يحتمل الخطأ، بل كما قال الأولون: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

قد يختلف بعض العلماء مع الشيخ فيما انتهى إليه من نتائج وأحكام، ولكن لا يمكن أحدهم أن يشـكك في أصالة ملكته الفقهيـة، وقدرته على التأصيل والتفريع، وبراعته في المناقشـة والاستدلال، فهو لا شـك فقيه الأمة في هذه المرحلة: فقيه في فهم النصوص، فقيه في فهم المقاصد، فقيه في فهم الواقع.

والحقيقة أني رأيته نسيج وحده في فقه الواقع ـ ولا سيما في المعاملات ـ وله بصيـرة نيرة في التمييز بين المتشـابهات، وإدراك الفـوارق الدقيقة بين الأشياء، التي يغفل عنها الكثير من العلماء.

أذكر هنا مثالين من فتاواه للتوضيح:

ـ أحدهما: تفريقه بين القرض الفردي والقرض الجماعي، فالقرض الفردي (الشخصي) لم يجز أن يزاد عليه ولو فلسًا واحدًا.

أما القرض الجماعي فينظر إلى المقصـد الكبير، وهو إدامة وجود رأس مال يسـتفيد منه أكبر قدر ممكن من المنتفعين، وهنا لا بدَّ من الحفاظ على رأس المال، وذلك بإيجاد جهاز إداري يقوم بمتابعة استرداد المبلغ، ولا بدَّ من الإنفاق على هذا الجهاز الإداري، ولما كان أحق الناس بدفع قيمة المصروفات هذه للحفاظ على رأس المال هم المنتفعين من الصندوق، فلا بأس من اقتطاع نسبة معينة فوق المال المقترض لتغطية نفقات هذا الجهاز، شريطة أن تغطي هذه النسبة كلفة تشغيل الجهاز فعليًا بشريًا وماديًا من أجور ونفقات، ولا يجوز أن تصبح فائدة باسم جديد[1].

---

(١) فتاوى الزرقا، ص٦٨٠.

ـ ومثل ذلك رأيه في التفريق فـــي الهدايا التي يدفعها التجار لعملائهم عن طريق القرعة ـ بين الهدايا البسيطة التي هي من عادة التجار وعرفهم لمن يشتري كمية كبيرة من بضائعهم.. وبين الهدايا الخارجة عن ذلك المعروف، ذات القيمة الكبيرة مثل السيارة ونحوها، فالأولى جائزة والثانية محرمة شرعًا[١].

وهذا هو الفقه النيِّر السليم.

وهو في هذه الفتاوى يطبق فقهه على واقع الحياة، فيطب لها من صيدلية الشريعة، ويجد فيها لكل داءٍ دواءً، ولكل مشكلة حلًّا، يحقق اليسر، ولا يوجب العســـر، فهذا هو الذي يريده الله لهذه الأمة التي لم يجعل عليها في الدين من حرج، وأنزل عليها في كتابه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

وقال لها رسولها الكريم: «**إنما بُعثتم ميسرين، ولم تُبعثوا معسرين**»[٢].

ولقد رأيت بعض الناس ـ سامحهم الله ـ يتهمون الشيخ بالتساهل في الدين، ونسي هؤلاء أن هذا الذي يسمونه (التساهل) هو (التيسير) الذي أمرنا به نبينا ﷺ فقال فيما رواه أنس رضي الله عنه: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**»[٣].

وقد قال ﷺ لأبي موســـى ومعاذ رضي الله عنهما حين أرسلهما إلى اليمن: «**يسِّرا ولا تعسرا، وبشِّرا ولا تنفرا**»[٤].

وكأن شـــيخنا رحمه الله قد جعل نصب عينيه تلك الكلمة المضيئة التي قالها الإمام سفيان بن سعيد الثوري ـ الذي انعقدت له الإمامة في الفقه والحديث والورع ـ رضي الله عنه، ونقلها عنه الأئمة مثل: أبي نعيم في (الحلية)، وابن عبد البر

---

(١) فتاوى الزرقا، ص٥١.

(٢) سبق تخريجه: ص ٣٧٥ في كتابنا هذا.

(٣) سبق تخريجه: ص ٣٧٥ في كتابنا هذا.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣)، كلاهما في الجهاد، عن أبي موسى الأشعري.

في (العلم)، والنووي في مقدمات (المجموع): «إنما الفقه رخصة من ثقة، فأما التشديد فيحسنه كل أحد»[١].

ومن الناس في عصرنا من يحسب المتشدد في الفتوى، والمعسِّر في الفقه: أورع وأتقى عند الله من الميسِّر على عباد الله، وكأنهم ـ وللأسف ـ يتوهمون أن التيسير على الخلق ناشئ من قلة الدين، وضعف اليقين.

مع أنَّ الميسِّـــر إنما أطاع الأمر النبوي بالتيسير لا التعسير، والمشدد أقرب إلى الدخول في قوله ﷺ: «**هلك المتنطعون**» قالها ثلاثًا[٢].

وهو ﷺ كان أكثر الناس تيســيرًا على أمته، كما يتجلى ذلك في موافقته وفتاويه، وتعامله مع النــاس، ومن صفاته: «أنه ما خير بيــن أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا»[٣].

ولو كان ما يظنه هؤلاء صحيحًا، لكان حبر الأمــة وترجمان القرآن (ابن عباس): أول من يتَّهم بضعف الدين، لكثرة ما روي عنه من التيسير والترخيص، حتى اشتهر في تراثنا: رخص ابن عباس في مقابلة شدائد ابن عمر، رضي الله عنهم جميعًا.

والشيخ الزرقا أقرب إلى مدرسة ابن عباس منه إلى مدرسة ابن عمر، وأنا مثله في ذلك، ولعل هذا من الأشياء التي تقربني منه، وتقربه مني.

وأود أن أنبــه على أن هنــاك فرقًا كبيرًا بين التيســير لدى بعــض العلماء المعتبرين، والتســيب لدى بعض الدخلاء على العلم، فالتيســير له أسبابه، وله

---

(١) رواه أبو نعيم في الحليــة (٣٦٧/٦)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٦/٢)، وابن طاهر في السماع، ص٩٠، والنووي في مقدمة المجموع (٤٢/١).

(٢) رواه مسلم في العلم (٢٦٧٠)، عن ابن مسعود.

(٣) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها» رواه البخاري في المناقب (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، عن عائشة.

أصوله وقواعده، وله شروطه وضوابطه، أما التسيب، فليس له أصول وضوابط، إلا اتباع الهوى، ومجاراة العصر، والعمل على إرضاء الخلق ولو بسخط الخالق.

ولا غرو أن نجد الشيخ الزرقا في بعض القضايا ميسرًا، كما في موقفه من (التأمين) و(الخلو)، واستخدام الموسيقا لبعض المقاصد في وسائل الإعلام، والتسهيل في بعض المعاملات خارج دار الإسلام كما هو مذهب أبي حنيفة، مثل: شـــراء بيت في أمريكا عن طريق أخذ القرض من البنك الربوي هناك، ومثل: فتوى الشيخ للبنك الإســـلامي للتنمية منذ عشرين سنة بجواز أخذ ما تجمع له من فوائـــد لدى البنوك الأجنبية، وقد بلغت أكثر من ســـتين مليونًا، وصرفها على البلاد الإسلامية الفقيرة والمنظمات الإسلامية المحتاجة، وغير ذلك من الفتاوى التي أوافق شيخنا فيها كل الموافقة.

وفي بعض القضايا يقف كالصخرة الصماء، لا يتزحزح ولا يلين، حتى يكاد يحســـبه بعض الناس من الجامدين، وما هو من الجامدين، ولكنها محكمات النصوص هـــي التي تحدد موقفه، وذلـــك مثل: فتواه في زواج المســـلمة بغير المسلم، فقد ســـد الباب إلى ذلك بقوة، ومثل ذلك: جوابه عن محاولة بعض البلديات ضم المقابر الدارسة إلى ملكيتها، وهي أوقاف إسلامية، فأفتى بأنه لا يجوز لأية ســـلطة وهيئة في دولة إســـلامية أن تصدر قانونًا ينقل ملكية المقابر الدوارس إلى البلديات، فصدور قانون من هذا القبيل لا يصلح لتبرير مثل هذا الغصب الحرام لمال جماعة المســـلمين، لأن القانـــون الزمني لا يقلب الحرام حلالًا في نظر الشريعة الإسلامية، وشرط قبول أي قانون أن يكون منسجمًا مع قواعد الشريعة ومقاصدها، وغير مصادم لشيء من نصوصها الخاصة والعامة.

ولقد نبهت في بعض ما كتبته: أني وجدت فقهاء الصحابة ﷺ أكثر الناس تيسيرًا على المســـلمين، وتلاميذهم من التابعين لهم بإحسان قريبون منهم، وأتباع التابعين قريبون من التابعين وإن لم يبلغوا مبلغهم بالأحوط على الأخذ بالأيسر، وخصوصًا مع رسوخ التقليد، وقلة الاجتهاد والتجديد.

فإذا كان الشيخ ينهج منهج التيسير، فهو يعود إلى الأصل، ويحيي منهج الأئمة المتقدمين، وسلف الأمة من الصحابة والتابعين.

ولقد رأينا من بعض زملائنا من المشتغلين بالفقه: مَنْ يجمد على ظواهر النصوص، ويفهمها فهمًا حرفيًّا، ولا ينفذ إلى مقصدها وهدفها، كالذين يوجبون إخراج زكاة الفطر من الحبوب في المدن الحديثة، برغم أن الفقراء لا ينتفعون بها، فلم يعودوا يطحنون أو يخبزون، وكالذين يمنعون رمي الجمرات قبل الزوال في ثاني وثالث أيام النحر، بالرغم من شدة الزحام، الذي أدى أحيانًا إلى موت الناس تحت الأقدام، وبالرغم من أن ذلك ليس خلاف الإجماع، بل قال به ثلاثة من الأئمة الكبار: عطاء فقيه مكة، وطاووس فقيه اليمن، وأبو جعفر الباقر فقيه أهل البيت.

بل رأيت من هؤلاء ـ على فضلهم وإخلاصهم ـ من يجمد على أقوال الفقهاء السابقين، وعلى ما قعَّدوه من قواعد، وإن بدا ذلك بوضوح معارضًا لمقاصد الشرع، وروح الدين، وعدل الله في خلقه.

الشيخ الزرقا ـ وإن كان حنفيًّا أبًا عن جد ـ لا يتعصب لمذهبه، بل كثيرًا ما يخرج عنه إذا رأى غيره أرجح من ناحية الدليل، لمراعاته للنص، أو لتحقيقه مقاصد الشرع، ومصالح العباد.

وهو يرى أن الشريعة لا يمثِّلها مذهب واحد، وإنما يمثلها مجموع المذاهب والمدارس الفقهية على اختلاف مشاربها، وتعدد مسالكها، كما يتجلى ذلك بوضوح في عدد من الفتاوى، وهو يرى أن العصبية المذهبية سجن ضيِّق في جنة الشريعة الفيحاء!.

وحين سئل عن قضية تتعلق بهدم مسجد وإعادة بنائه وتوسعته، وجعله في الطابق الثاني: اختار مذهب الحنابلة باعتباره أوسع المذاهب الأربعة في ذلك قائلًا: لا يخفى على أحد من أهل العلم أن الأمة غير مكلفة باتباع مذهب بخصوصه من مذاهب الأئمة المجتهدين رضي الله عنهم.

كما اختار مذهب الحنابلة في العقود والشروط، لسعته ومرونته في ذلك.

بل يأخذ أحيانًا بآراء بعض الصحابة والتابعين الذين نقلت آراءَهم كتبُ الآثار والفقه العام، واختلاف الفقهاء.

وللشيخ الزرقا آراء فقهية سبق بها عصره، عرضها على المجامع الفقهية، ولم تأخذ بها، مثل: رأيه في اعتبار الحساب الفلكي في إثبات الأهلَّة والشهور، وخصوصًا: هلال رمضان، وهلال شوال، وهلال ذي الحجة.

ولقد سمعت رئيس المجمع الفقهي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي يقول له في عمان، وقد رفض المجمع رأيه: هذه المرة الثانية التي يرفض فيها رأي الشيخ الزرقا بإجماع الأعضاء، وقبل ذلك رفضه مجمع رابطة العالم الإسلامي: فأنت يا شيخ وحيد المَجْمَعَيْن!.

وهذه والله مأثرة للشيخ، تُكتب له في سجل مفاخره، فليس الفقيه هو الذي يسـاير الناس ويردد ما قاله من سـبقوه، فما بهذا يحيا الفقه، وتزدهر أحكام الشريعة، بل الفقيه الحق هو الذي يبدع ويجتهد، وإن انفرد وحده بالرأي، وقد كان للإمام أحمد آراء انفرد بها عن الأئمة المتبوعين، نظمت في كتب وشرحت، وعرفت بـ(مفردات المذهب)، ولكل إمام مسائل انفرد بها عن غيره.

على أن رأي الشيخ في الأخذ بالحساب قد وافق فيه رأي المحدث الفقيه العلَّامة الشيخ أحمد محمد شـاكر رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي رجح ذلك في رسالته (أوائل الشهور العربية) كما نقلنا عنه ذلك في كتابنا (كيف نتعامل مع السنة النبوية).

- **إسهامات الشيخ في تقنين الفقه:**

ومما كان للشيخ الزرقا فيه جهد مذكور ومشكور: وضع القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية، والفقه الإسلامي.

فقد كان عضـوًا في اللجنـة التي وضعـت القانون السـوري للأحوال الشـخصية، والذي لا يزال يعمل به إلى اليوم، وهو يشـتمل على اجتهادات مهمة، وخطوات إصلاحية.

كمـا كان رئيس اللجنة التـي كلفت ـ أيام الوحدة مـع مصر ـ وكان من أعضائها: الشيخ حسن مأمون، وشيخ الأزهر بعد ذلك، ووكيل مجلس الدولة في مصر، وكانت مهمتها وضع قانون موحد لفقه الأسرة.

وقد أنجزت هذه اللجنة بالفعل قانونًا متطورًا، يتضمن كثيرًا من الاجتهادات التي تعالج مشـكلات الناس، التي تعج بها المحاكم الشـرعية، وقد اسـتقت أحكامها من المذاهب المتبوعة، ومن فقه الصحابة والتابعين والأتباع ممن ليس لهم مذهب مدون، ويعتبرون هذا القانون من أمثل القوانين التي وضعت في فقه الأسرة، إن لم يكن أمثلها، وإن كان مما يؤسف له: أنه لم يوضع موضع التنفيذ، لانهيار الوحدة، وقيام الانفصال. وقد وفق الشـيخ في طباعته ونشـره أخيرًا، ليمكن الانتفاع به لمن يريد الإصلاح والترشيد والتجديد[1].

وكان للشـيخ إسـهام آخر في اللجنة التي اختارتها الدائرة القانونية في جامعة الدول العربية، لوضع مشروع قانون مدني موحد للدول العربية، مستمد من الشـريعة الإسـلامية، وبذلك تثبت الأمة أصالتها وتميزها واسـتقلالها الحقيقي، بدل أن تعيش عالة على الآخرين، تستورد ولا تنشئ، وتستهلك ولا تنتج. وكان ذلك في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، وكان الشيخ عضوًا مهمًّا فيها، ومتحمسًا لها، وقد وضعت مشروعًا للنظرية العامة كاملة، نصوصًا وتأصيلًا، ومما قدمه الشيخ فيها:

١ ـ الباب التمهيدي عن الحق والالتزام والأشخاص، ويتضمن نظرية التعسف في استعمال الحق.

٢ ـ الفعل الضار من مصادر الالتزام.

وقد نشرت في آخره نصوص النظرية العامة كاملة.

---

(١) مشروع قانون الأحوال الشـخصية الموحد للإقليمين المصري والسوري، نشر: دار القلم ـ دمشق، والدار الشامية ـ بيروت.

ثم توقفت الدائرة القانونية عن استكمال هذا المشروع الرائد، كشأننا في معظم أعمالنا الكبيرة، وهذا ما جعل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ينشر نصوص النظرية العامة في آخر كتابه (الفعل الضار) كيلا تضيع ثمرات هذا العمل المجيد.

• **لغة الشيخ:**

من مميزات الشيخ الزرقا أنه جمع بين العلم والأدب، فقد كان تكوينه الأدبي منذ نشأته تكوينًا عميقًا، فقد قرأ الكتب الأدبية الأصيلة مع والده: من (الأغاني) للأصفهاني، إلى (العقد الفريد) لابن عبد ربه، إلى (الحيوان) و(البيان والتبيين) للجاحظ، إلى (دواوين) أبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري وغيرهم، وحفظ الكثير الكثير من الشعر الجاهلي والإسلامي.

ولهذا رأينا الشيخ (أدَّب الفقه) أعني أنه أعطاه لغة الأدب، وعذوبة البيان، فخلت كتبه عن (الوعورة) التي يشعر بها من يخوض لجة الفقه، وعن (الجفاف) الذي يحس به من يجتاز قفار مراجعه، ولا سيما كتب المتأخرين ومتونهم، التي بالغت في الإيجاز، إلى حد الإلغاز.

لقد رأينا الزرقا الأديب يؤثر على الزرقا الفقيه، أو يتعانقان ويأتلفان، فلا تفرق بينهما، فهو الفقيه الأديب، أو الأديب الفقيه. كما أنه حجة في اللغة، متمكن من نحوها وصرفها ومفرداتها، كما تشهد بذلك ملاحظاته وتعليقاته.

ولا غرو أن تجد في كتاباته الفقهية من روائع التشبيه، ومن ضرب الأمثلة، ومن استخدام الأمثال، وسوق العبارات الرائقة، والجمل الرقيقة، ما لا تجده في مؤلف فقهي.

وقد قال عنه الأستاذ عبد القادر عودة عن كتاب (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد): إنَّ لغته قوية تسيل عذوبة ورقة.

وقال الدكتور منير العجلاني في التعريف به: كتاب قوي بمادته، وصاحبه رجل متوقد الذكاء جمع بين الثقافتين: الدينية والقانونية.. قوي

بلغته، فالأستاذ الزرقا فقيه أديب، وأسلوبه في الكتاب يكاد ينسيك صعوبة المادة وجفافها.

وقديمًا قالوا: من ذاق عرف، فلا يعرف سلاسة هذه الكتب وعذوبتها إلا من قرأها، وعاش فيها، وخصوصًا إذا كان ممن قرأ الكتب القديمة، وعانى من تعقيدها ووعورتها ما عانى.

• **الشيخ الزرقا شاعرًا:**

كرمه الوجيه الأديب السعودي المعروف عبد المقصود خوجه في إحدى (اثنينياته) المشهورة، التي يقيمها بدارته بجدة، ويكرم فيها أهل العلم والأدب، والإبداع والفضل، في حضور جمهور حاشد من المعنيين بالثقافة والأدب.

وقد اكتشف الأستاذ خوجه، كما اكتشف الجمهور معه في تلك الليلة الحافلة: أن الشيخ الزرقا له باع طويل في الشعر، وإن غطى عليه الفقه، لهذا عمد الخوجه إلى أن ينشر شعر الشيخ في (ديوان) سماه الشاعر (قوس قزح) لما فيه من ألوان الشعر المتنوعة، وأغراضه المختلفة، أشبه بألوان الطيف التي يحتويها قوس قزح.

وقال الناشر في تقديمه للديوان: وبالرغم من أن الأستاذ الزرقا بحر في العلوم الشرعية والفقهية والقانونية، إلا أن شعره يتكون من مزيج رائع من مختلف أغراض الشعر.

وقد قسم الديوان إلى عدة أقسام بحيث يشتمل كل قسم على غرض معين، ولا يخلو شعره من طرافة وملاحة وظرف نابع من أصالته، وحبه للناس، ومشاركته لهم في أفراحهم وأتراحهم، بالإضافة إلى شاعريته، التي وظفها لخدمة القضايا الوطنية، التي كانت تشغل الشباب، إبان بواكير حياته الحافلة بجلائل الأعمال.

ويقول الدكتور محمد علي الهاشمي أستاذ الأدب العربي في الرياض: لم يطغَ الشعر على قريحة الأستاذ الزرقا، ولم يستحوذ على اهتماماته العليا إلا بمقدار، ذلك أن الفقه الإسلامي بمسائله الشائكة العويصة، وبحوثه المهمة

المتشعبة، كان يمثل بؤرة شعوره، ويملأ بياض أيامه، وسواد لياليه، ويصرفه عن قرض الشعر كما قال لصديقه الأديب الشاعر إبراهيم العظم:

أخَــذَ التفقُّهُ من فؤادي شِــعرَه نغمًا ألذَّ لديَّ من قَطْــر النَّدَى
وأعاضَنِــي بثقافــةِ الحقِّ الذي نــادى الإلٰــهُ بحكمِــهِ وتوعَّدا
لا تبغِ منِّــي أن أُجِيــبَ فإنني مهما جريتَ وجدتَني دون المدى
دُمْ فــي فضائلك العُــلا متفرِّدًا مني الطروبُ ومنك غِرِّيدٌ شَدَا

ومن قرأ شعر الزرقا لمس فيه عاطفة حية، ووجدانًا دافقًا، يتجلى في شعره الوطني إذا تحمس، وفي شــعره الديني إذا تحنث، وفي مدحه إذا مدح، وفي رثائه إذا رثى. وقد قدر الله عليه أن يُبتلى بمصائب لا يصبر عليها إلا المؤمنون: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

لقد فقد زوجتيه ورثاهما، وفقد ابنه الأكبر (نوفل) وهو يتهيأ للسفر ليلقاه في ماليزيا، حتى كان عنوان رثائه (يتّمتني يــا نوفل) إن التيتم أن يفقد الابن أباه، ولكنه هنا: أن يفقد الأب ابنه!.

لقد كان الشيخ الزرقا جبلًا من جبال العلم، وبحرًا من بحور الفقه، ولسانًا من ألسنة الصدق، وقبسًا من مشكاة النبوة، وستظل الأجيال تنتفع بعلمه الغزير، وعمله الكبير، وتدعو له. وإني أدعو شبابنا الصاعد من طلاب الدراسات العليا: أن يجعلوا تراثه العلمي الرحب والأصيل مجالًا لأطروحاتهم في كليات الشريعة والحقوق، وفاء ببعض حقه، واستفادة من فقهه، وسيرًا على نهجه.

رحم الله شيخنا مصطفى الزرقا، وتقبله في الصالحين من عباده، وجزاه عن دينه وأمته خير ما يجزي الفقهاء الراسخين، والعلماء الربانيين، الذين يعلمون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيُقْبَلون، وعوَّض الله أمتنا فيه وفي أمثاله خيرًا، و﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

* * *



الشيخ مناع القطان

العالم الباحث الداعية المؤلف

(١٣٤٤ ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٢٥ ـ ١٩٩٩م)

في يوم الاثنين (٦ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ، الموافق ١٩ يوليو ١٩٩٩م)، توفي أخونا وصديقنا وحبيبنا الشيخ مناع خليل القطان، الذي هاجر من مصر إلى السعودية بأوائل الخمسينيات، واستوطن السعودية، وحمل جنسيتها، وربى أجيالًا، وألَّف كتبًا، وكان له تلاميذ ومريدون طوال هذه السنين، وترك وراءه آثارًا علمية يشهد بها الكثيرون، وكان رجلًا من رجال الاعتدال والتوازن في أفكاره، ومفاهيمه، وأحكامه، وفتاويه، إلى حد كبير.

أعرف الشيخ مناع معرفة جيدة، منذ كنا طلابًا جامعيين، وقد سكنت معه، ومع عدد من القريبين منه، وكان سكننا في شارع راتب باشا بشبرا، في شقة استمرت سكنانا بها ثلاث سنوات، حتى اعتقلنا منها سنة (١٩٥٤م).

وقد تغير رفقاء السكن بها، ولا سيما بعد تخرج الشيخ مناع، الذي كان يسبقني في كلية أصول الدين بسنتين، فكان يسكنها معي: الحسيني أبو فرحة، وفهمي شاهين، ومحمد بسيوني قنديل، وكلهم من الغربية، وإبراهيم بهنساوي سعيد من البحيرة وزميلنا في معهد طنطا، ومحمود نعمان الأنصاري من أسيوط.

وقد اجتهدنا ـ نحن طلاب كلية أصول الدين ـ وأنا في السنة الثانية: أن ننشئ اتحادًا لطلاب الكلية، اخترنا لرئاسته الأخ الشيخ مناع القطان في سنته الأولى بانتخاب من الطلاب، وكان هو في السنة الرابعة بالكلية، فلما تخرج الشيخ مناع بعد أشهر، اختارني الطلبة لرئاسته.

وكان الشيخ مناع القطان قبل ذلك من طلاب معهد شبين الكوم الديني، الذي كان أحد معاهد الأزهر الثانوية المعـدودة في عواصم المديريات (أي: المحافظات) الشهيرة، مثل: معهد القاهرة، ومعهد الإسكندرية، ومعهد طنطا، ومعهد الزقازيق، ومعهد أسيوط.

وكنا نحن الطلاب المتزعمين للنشـاط الطلابي فـي المعاهد، نلتقي في أحدها في بعض الأيام، وكان هو أحد الطلبة المتميزين في معهد شـبين، مع مجموعة أخرى، منهم: عبد المنعم الدغيدي، ولاشين أبو شنب، وسيد ورد، رحمهم الله جميعًا.

وبعد ذلـك أُخِذ هـو ومجموعة من شـباب الإخوان فـي المديريات المختلفة، وفي القاهرة أساسًا إلى السجن، حيث اتهموهم بأنهم أعضاء في شبكة سرية تعمل على التخريب والتدمير، وإفساد البلاد، وإرهاب العباد، في قضية سـموها (قضية الأوكار)، وظل الشيخ مناع محبوسًا حتى خرج بريئًا، وليس عليه أدنى شيء.

بدأ الشـيخ مناع بعدها يمارس نشـاطه في قسـم الطلاب، وبين طلاب الأزهر، وفي صحافة الإخـوان بدأ يكتب مقالات حـول (الأزهر في معترك الحياة)، وبدأنا نلتقي به في جلساتنا ومؤتمراتنا.

- **زيارة الأستاذ أبي الحسن الندوي لنا في شقتنا في شبرا:**

اتصل بي بعض الإخوة من الطلاب الهنود النشيطين الذين يدرسون في مصر، وقالوا لي: هل تعرف الأستاذ أبا الحسـن الندوي؟ قلت لهم: أليس هو صاحب كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) قالوا: بلى. قلت: وما شأنه؟ قالوا: سيصل إلى القاهرة يوم كذا. قلت: أرجوكم أن توصلوني إليه عند حضوره.

وما هي إلا أيام حتى حضر الشيخ، ومعه اثنان من إخوانه ورفقائه الندويين أحدهما: الشيخ معين الندوي، والثاني نسيت اسمه.

وكان الشيخ ومن معه يسكنون في شقة متواضعة في زقاق من أزقة شارع الموسكي بحي الأزهر؛ فالشيخ لا يقدر على سكنى الفنادق ولا يحبها إن قدر عليها ـ وفي اجتماعات مجلس رابطة العالم الإسلامي بالمملكة العربية السعودية يَدَع الفنادق التي ينزل فيها الضيوف ـ وهي من فنادق الدرجة الأولى ـ وينزل عند بعض إخوانه.

كما أنه يرفض النزول ضيفًا على بعض الكبراء من الأغنياء والموسرين؛ لعل ذلك للشبهة في أموالهم، أو لئلَّا يكون أسيرًا لإحسانهم.

ذهبت لزيارة الشيخ في مسكنه المتواضع أنا وأخي وصديقي محمد الدمرداش مراد رَحِمَهُ اللَّهُ ـ رفيقي في الدراسة، ورفيقي في الدعوة، ورفيقي في المحنة، ورفيقي في السكن ـ ودعوناه إلى بيتنا في شبرا؛ ليلتقي ببعض إخواننا من شباب الأزهر الملتزمين بالدعوة في صورة ما يسميه الإخوان (كتيبة)، وهو تعبير عن ليلة جماعية تُقضى في العلم والعبادة والرياضة، وقليل من النوم، وكان الشيخ حريصًا على أن يستمع منا، كما نستمع إليه، فكان يسأل عن حسن البنا، وكلامه وطريقته، ومواقفه وتصرفاته في الأمور المختلفة، كبيرة كانت أو صغيرة؛ مما كوَّن معه فكرة عن الشيخ البنا، وأنه كان (إمامًا ربانيًا) بحق، ولم يكن مجرد زعيم يطالب بحكم إسلامي، بل كان قبل كل شيء (مربيًا) يريد أن ينشئ للإسلام (جيلًا جديدًا) يحسن الفهم له، والإيمان به، والالتزام بتعاليمه، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله.

وتكرر لقاؤنا معه، ولقاؤه معنا، نحن شباب الدعوة الإسلامية (أنا والأخ أحمد العسال والأخ الدمرداش والأخ مناع القطان، والأخ عبد الله العقيل وآخرون).

- **الشيخ مناع القطان إلى السعودية:**

وكان الشيخ مناع من الإخوان الذين وصلوا إلى المملكة العربية السعودية مبكرين، وعمل في سلك التدريس، باعتباره خريج كلية أصول الدين، وقد

أعير إلى المملكة سنة (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤م) الدراسية، أي: قبل محنة الإخوان مع عبد الناصر بقليل، فنجاه الله منها، واختير للتدريس بالمعاهد والكليات الشرعية بالقصيم ثم بالرياض، قبل أن تُنشَأ جامعة الإمام محمد بن سعود، وتُضَم هذه الكليات إليها.

وقد حاز الشيخ مناع ثقة المشايخ وطلبة العلم بالرياض، لأصالته العلمية، التي تكونت في رحاب الأزهر، وإيمانه بالعقيدة السلفية، وتعوده على سلوك السلفيين، وعدم تحجر شخصيته، وتمتعه بالأناة والحكمة في مواجهة الأمور، وثقة الإخوان به، ممن يعملون في المملكة من أمثال الشيخ فتحي الخولي، والشيخ مصطفى العالم، والشيخ عشماوي مصطفى.. وغيرهم ممن يعملون في مُدن المملكة المختلفة في نجد والحجاز والمنطقة الشرقية.. وغيرها.

كان مما ساعد فضيلة الشيخ مناع على احتلال مكانته: وجود عالم كبير من قريته نفسها (شنشور منوفية) سبق إلى المملكة، ونال الاحترام والتقدير من كبار مشايخها، وأمسى مقدمًا فيهم، وبخاصة أنه سلفي العقيدة، ومن رجال أنصار السنة في مصر، ولكنه كان رجلًا ضليعًا في العلم، حكيمًا في الرأي، قويًا في الدين، متينًا في الخُلُق، يتميز بالاعتدال والتوسط في النظر إلى القضايا، ومعالجة المواقف، هذا العالم الجليل هو الشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي تتلمذت عليه أجيال من أبناء المملكة، وكان عضوًا في هيئة كبار علمائها، ولجنة الإفتاء، وكانت مرتبته تلي مرتبة الشيخ ابن باز، وكان مهيبًا محترمًا محبوبًا، مسموع الكلمة من الجميع. لذا كانت معرفة الشيخ عبد الرزاق بالشيخ مناع، وقربه منه، وحسن رأيه في الإخوان، مما مهد السبيل له لينال وضعه.

ولا غرو أن أصبح الشيخ مناع هو وجه الإخوان، والممثل لهم أمام الجهات الرسمية السعودية، وأضحت له ثقة عندهم، فإذا أراد الإخوان شيئًا من الحكومة السعودية نقلها إليهم الشيخ مناع، عن طريق لقائه بالأمير نايف بن

عبد العزيز وزير الداخلية، أو الأمير سـلمان بن عبد العزيز أمير الرياض، أو الأمير أحمد بن عبد العزيز نائب وزيـر الداخلية. وكذلك إذا أرادت المملكة أمرًا من الإخوان استدعت الشيخ مناعًا، وأبلغته بما يريدون، أو فاوضوه فيما يطلب منهم، وقد يرجئ الإجابة حتى يشاور إخوانه، ثم يرجع إليهم.

- **زيارتي مع طلبة المعهد الديني للشيخ القطان:**

في إجازة نصف السنة الدراسية من سنة (١٩٦٣م) قمت برحلة مع طلاب المعهد الديني إلى المملكة العربية السعودية، فقد كانت وزارة المعارف في قطر توسع على الطلاب في إجازة نصف العام من كل سنة دراسية، وتبعث بالطلاب في رحلات علمية تخدم دراستهم، إلى البلاد المجاورة، وتختار من كل مدرسـة عددًا يشـاركون في هذه الرحلة، وقد كانت الجهات التي يذهبون إليها تستضيفهم، في حين تعطيهم الوزارة (مصاريف جيب) في يد كل واحد منهم.

وقد كنت مخيرًا بين دول الخليج، فاخترت المملكة العربية السـعودية، فهي أليق بالمعهد الديني وطلابه، وطلبت من الوزارة أن يشترك أكبر عدد من طلاب المعهد في هذه الرحلة، باعتبار أن عددهم محدود، وباعتبار هذه الرحلة لونًا من التربية العملية المطلوبة؛ لما تشـتمل عليه مـن أداء العمرة، وزيارة المؤسسات العلمية.

ومن أهم المؤسسـات التي زرناها: إدارة الكليات والمعاهد، فلم تكن (جامعة الإمام محمد بن سعود) قد أنشئت بعد، وقد كان مدير هذه الكليات هو فضيلة الشيخ عبد العزيز المسند، الذي تحدث إلينا وتحدثنا إليه حديثًا وديًا، ثم هيأ لنا زيارة الشـيخ مناع القطان المدرس بكلية الشريعة، والذي أضحى له فيها قدم راسـخة، وتلاميذ ومريدون، وقد أعير إلى الرياض منذ سنة (١٩٥٤م).

وكانت فرصة اللقاء بالشيخ مناع لتجديد الذكريات، فقد كنا نسكن معًا في شقة واحدة أيام الكلية، وهي شقة راتب باشا الشهيرة، وكنا نعمل معًا في قسم الطلاب بالإخوان، وفي اتحاد كلية أصول الدين، كما ذكرت.

• **مؤتمرات وندوات جمعتني بأخي مناع:**

جمعتني أنا وأخي مناع القطان عدة مؤتمرات وندوات عالمية؛ منها: ندوة فقهية علمية في فرنسا عن الوجود الإسلامي في بلاد الغرب، والمؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي في مكة المكرمة، ومؤتمر العلماء بمكة المكرمة، الذي كان موضوعه الغزو العراقي للكويت، وكيف ننقذ الكويت؟ وما الواجب على الأمة؟ وما الواجب على العلماء؟ وكانت جماعة الإخوان المسلمين منقسمة في هذا الأمر، فمنهم من حضر هذا المؤتمر، وإن كان له بعض التحفظ على بعض قراراته، بينهم الشيخ مناع القطان، والشيخ عبد المجيد الزنداني، والدكتور الحبر نور الدايم، والشيخ عبد الله المطوع، والفقير إليه تعالى. كما أذكر من المشاركين الدكتور نجم الدين أربكان.

وأغلب الإخوان كانوا معارضين بشدة للاستعانة بالأمريكان، وأن هذا شر على العرب والمسلمين، وإن كان الجميع يعارض غزو الكويت ويندد به، ويطالب صدام بالجلاء الفوري عن الكويت.

• **وفاة الشيخ مناع:**

ظل الشيخ مناع بالمملكة هو وأولاده، في قبول ورضا ممن حولهم من الحكام والمحكومين، ولم نر أحدًا شكا منه، أو قال عنه ما لا يسره، إلا في المدة الأخيرة قبل موته، ذكر الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية، وقد صار وليًا للعهد بعد ذلك، أن الإخوان هم سبب المشاكل التي حلت بالمملكة في الجانب الفكري والدعوي، وأن الشيخ مناعًا الذي رعته المملكة وأعطته جنسيتها ورعايتها لم يقم بما ينبغي أن يوفره لها من التوقير والرعاية... إلخ ما قال.

وقد ذكر الأمير نايف هذا الكلام في حضـــرة جمهور من العلماء، وكنت موجودًا، واضطررت أن أستســـمحه لأصحح بعض الأشـــياء التي ذُكرت أو فهمت غلطًا. وقال الأمير في النهاية من أدبه: أنت أعلم.

والذي أعلمه عن الشـــيخ مناع أنه كان يحب المملكة بصدق، كما يحب الإخوان. ولا تناقض في ذلك.

وكلنا ذاك الرجل، وقد استعان الملك المحبوب فيصل بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالإخوان، وكانوا له نعم الأعوان.

وما زال عند بعض الرجال في المملكة غبش في هذه القضية، وهو الذي انتهى بهم إلى دخول الملك عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الإمارات في إمداد السيسي بكل ما يحتاج إليه، وفوق ذلك، لضرب الإخوان، وإخراجهم من إمكانية السيطرة على المجتمع المصري المسلم.

أصيب الشيخ مناع في أواخر حياته بداء في الكبد، واضطر أن يسافر على حساب المملكة إلى الولايات المتحدة للعلاج، وزرعت له بعض الفصوص الكبدية، ولكن قضاء الله كان أغلب، وكانت وفاة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ذهب الشيخ مناع إلى ربه راضيًا مرضيًّا ـ إن شاء الله ـ نحسبه كذلك، والله حسيبه، ونســـأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألا يحرمنا أجره، وألا يفتننا بعده، وأن يغفر لنا وله، وأن يخلفه في أهله وذريته بخير ما يخلف به عباده الصالحين.

* * *



الشيخ محمد ناصر الدين الألباني

المحدث الكبير

(١٣٣٣ ـ ١٤٢٠هـ = ١٩١٤ ـ ١٩٩٩م)

في (٢٢ جُمادى الآخِرة ١٤٢٠هـ، الموافق ٢ أكتوبر ١٩٩٩م)، توفي المحدث الكبير الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. ويبدو أن هذه السنة هي سنة رحيل العلماء ـ علماء الشرع والدين ـ عن هذا العالم، فقد ودعنا فيها عددًا منهم، ابتداء من العلَّامة الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ علي الطنطاوي، والشيخ مصطفى الزرقا، والشيخ مناع القطَّان، والشيخ عطية سالم، والشيخ محمد المجذوب، وأخيرًا الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المحدِّث الشهير، صاحب الكتب الحديثية التي شرَّقت وغرَّبت.

كان الشيخ الألباني أحد كبار علماء الحديث في عصرنا، الذين اشتغلوا بتحقيق عدد من كتب الأحاديث وأخرجوها للناس، وألَّف كتبًا شتى، مثل: (سلسلة الأحاديث الصحيحة)، و(سلسلة الأحاديث الضعيفة)، و(صحيح الجامع الصغير وزيادته)، و(ضعيف الجامع الصغير وزيادته)، وكذلك صحيح كتب السنن الأربعة: (صحيح أبي داود) و(ضعيفه)، و(صحيح الترمذي) و(ضعيفه)، و(صحيح النسائي) و(ضعيفه)، و(صحيح ابن ماجه) و(ضعيفه). و(صحيح الترغيب والترهيب)، وإن كان لم يكمله نشرًا، ولعله عنده مخطوط.

وخدم المذهب الحنبلي بكتابه (إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل)، فقد رأى أن المذهب الحنبلي ـ وهو مذهب أقرب ما يكون إلى الحديث ـ ليس فيه كتاب تخريج للأحاديث المذكورة في كتب فقهه، فالحنفية عندهم (نصب الراية لأحاديث الهداية)، والشافعية عندهم (تلخيص الحبير

لتخريج حديث شرح الرافعي الكبير)، والمالكية عندهم تخريجات (الموطأ)، والحنابلة ليس عندهم، فاعتمد أن يخرّج كتاب (منار السبيل)، وأخرجه في ثمانية أجزاء.

وكذا أخرج (مختصر صحيح مسلم)، و(مشكاة المصابيح)، و(السنة لابن أبي عاصم).. وغيرها من الكتب.

التقيت الشيخ ناصر الدين الألباني عدة مرات في حياتي، التقيت به أول مرة في المدينة المنورة، في حجتي الثانية في صيف سنة (١٩٦٤م)، وتناقشنا في قضية التصوير الفوتوغرافي، حيث أخذ علي أني أبيحه، كما أباحه العلَّامة الشيخ محمد بخيت المطيعي وغيره من العلماء، والشيخ الألباني يحرمه تحريمًا قاطعًا، وقد ذكرت له الأحاديث الصحيحة التي استثنت من الصور «ما كان رقمًا في ثوب»[1]. وبيان العلة في التصوير: أنه «مضاهاة خلق الله». وهذا التصوير لا يضاهي خلق الله، بل هو خلق الله نفسه، انعكس على الورق، كما تنعكس الصورة في المرآة، ولا غرو أن يسميه أهل الخليج (عكسًا) ويسمون المصوِّر (العكَّاس) والصور (العكوس). ولكن الشيخ أصرَّ على رأيه، ولم يتزحزح قِيدَ شعرة.

والتقيت به بعد ذلك في بيت الشيخ زهير الشاويش ـ في لبنان ـ صديقي وصديقه، وناشر كتبه، وإن اختلفا فيما بعد، وأظنه كان قد انتهى من تخريج أحاديث كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) و(مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام). وقد حييتُه على جهوده في خدمة السُّنَّة، ولا سيما في مجال التخريج والتصحيح والتضعيف، وتحقيق المصادر، ثم شكرته على عنايته بتخريج أحاديث كتبي. وقلت له: إنني ممن يدعون إلى ضرورة إيجاد قنطرة بين أهل الفقه وأهل الحديث، ليكونا معًا في خدمة العلم ونصرة الشريعة بالحق، وقد

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه الذي رواه البخاري في اللباس (٥٩٥٨)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٠٦)، عن زيد بن خالد، عن أبي طلحة الأنصاري.

كان بعض السلف يقولون: لو كان الأمر بأيدينا لضربنا بالجريد كل فقيه لا يشتغل بالحديث، وكل محدِّث لا يشتغل بالفقه.

وكان من تفضُّله ولطفه: أن رحب بالتعاون بينه وبيني، باعتباره محدِّثًا مشهورًا، وباعتباري من المشتغلين بالفقه، ومن الدارسين للحديث. وشهدت في هذه اللقيا شيئًا من المعركة التي دارت بينه وبين العلَّامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

والتقيت به في الدوحة، وشهدت سجالًا علميًّا دار بينه وبين الشيخ عبد الله بن زيد المحمود، رئيس المحاكم الشرعية في قطر، حول رأي الشيخ المحمود في المهدي، وكان هذا السجال في بيت الشيخ ابن محمود، وحضرها الشيخ محمد الغزالي، والشيخ عبد الله الأنصاري، بطلب من الألباني، ليُقنعه بصحة الأحاديث الواردة في شأن المهدي، أو بعضها، وكانت مساجلة بين الشيخين: الشيخ الفقيه والشيخ المحدِّث، وانتهت الجلسة بأن بقي كل منهما متمسِّكًا برأيه.

والتقيت به في أكثر من مكان، وخصوصًا في المدينة المنورة، وكنا معًا عضوين في (المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة) فكنا نلتقي في الجامعة، وفي منازل بعض من يدعوننا من المشايخ الكبار، كما كان لقاؤنا الطبيعي في المسجد النبوي الكريم.

- **تخريجه لأحاديث بعض كتبي:**

خرج الشيخ الألباني أحاديث بعض كتبي ككتاب (الحلال والحرام)، وكتاب (مشكلة الفقر)، ولا شك أن تخريج العلَّامة الألباني لأحاديث كتبي، هو نوع من التكريم للكتاب وصاحبه، فعلماء الحديث من قديم لا يخرجون أحاديث الكتب التافهة أو المغمورة، إنما يخرجون الكتب التي لها قيمة ووزن علمي، وشهرة عند أهل العلم وجماهير الناس.

وقد رأيت كتاب الشيخ الألباني: (غاية المرام) ورأيت ما حكم عليه بالضعف من الأحاديث.

وأعترف للرجل بسعة اطلاعه وتبحره في علوم الحديث، ووصوله إلى الدرجة الرفيعة فيه، حتى أصبح بكثرة إنتاجه المحدث الأول. وإن كنتُ أختلف معه في بعض الأحيان في بعض ما يصحِّحه، وأختلف معه في بعض ما يصل إليه من اجتهادات فقهية، كقوله بتحريم الذهب المحلق على النساء، وقوله بعدم وجوب الزكاة في عروض التجارة، ونحو ذلك. وهو ليس معصومًا.

والشيخ له أنصار كثيرون، وله خصوم أكثر، وخطأ العالم في بعض المسائل لا يسقط منزلته، فالعالم كما قيل في الحديث: «**إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث**»[1]. فالعالم المشهور إذا كان له بعض الأخطاء في فتاواه، فهذه الأخطاء لا تسقط منزلته.

لقد ودعت الأمة الشيخ الألباني، ونسأل الله ﷻ أن يعوضها عنه خيرًا، وأن يغفر له، ويتقبله في الصالحين، ويجزيه عن خدمة السنة، وعن خدمة العلم والدين خير ما يجزي به العلماء العاملين، والدعاة الصالحين. آمين.

* * *

(١) رواه أحمد (٤٦٠٥) وقال مخرجوه: صحيح، وأبو داود (٦٣)، والترمذي (٦٧)، والنسائي (٥٢)، وابن ماجه (٥١٧)، جميعهم في الطهارة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١٦)، عن ابن عمر.



العلَّامة أبو الحسن الندوي

رجل الأمة في الدعوة والتربية والثقافة والتاريخ

(١٣٣٣ ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩١٤ ـ ١٩٩٩م)

في يوم الجمعة (٢٣ رمضان ١٤٢٠هـ، الموافق ٣١ ديسمبر ١٩٩٩م)، توفِّي إلى رحمة الله تعالى، الشيخ الإمام أبو الحسن علي الحسني الندوي رَحِمَهُ اللَّهُ، في يوم الجمعة، وفي رمضان، وفي العشر الأواخر منه، وفي آخر يوم من أيام السنة الميلادية ـ التي يعتبر بعضهم هذه السنة آخر القرن، وإن كان آخر القرن في الحقيقة بعد سنة ـ في هذا اليوم ودعنا الشيخ أبو الحسن الندوي، ولقي ربه راضيًا مرضيًّا، إن شاء الله تبارك وتعالى.

وقد كتبت عنه كتابًا بعنوان (العلَّامة أبو الحسن الندوي كما عرفته)، قلتُ في مقدمته: «لم أكن أنوي في هذه الآونة خاصة أن أخرج كتابًا عنه، مكتفيًا بما كتبته عنه في مناسبات مختلفة.

ذلك لأني في شغل شاغل، ووقت مزدحم بكثرة الأعمال والواجبات التي ضاقت بها الأوقات، وما كنت أحب أن أكتب عن شيخنا الحبيب، وأنا في هذه الزحمة، حتى أفرغ له، وأعطيه حقه، كما ينبغي له من مثلي.

ولكنَّ أقدارًا دفعتني، لأصدر هذه الدراسة عن شيخنا الكبير رحمة الله عليه، وأن أعجِّل بها، لتسد ثغرة في هذا الجانب، وتفتح الباب لمن يزيد، فمجال القول ذو سعة.

ولا سيما أني قد كتبت عن (ركائز فقه الدعوة) عند الشيخ، وحصرتها في عشرين عدًّا، ولم أتحدث بالتفصيل إلا عن واحدة منها فقط، وتركت لمن بعدي من تلاميذ الشيخ وتلاميذي أن يكملوا ما بدأته.

إن مهمة العلماء في الأرض كمهمة النجوم في السماء، هي هداية للسائرين، وشهب تنقض على الشياطين، وخصوصًا العلماء الربانيين المتميزين منهم الذين يعلمون ويعملون ويُعَلِّمُون، فهم ورثة الأنبياء حقًّا، يدعون إلى الله على بصيرة، ويقودون الناس إلى الحق عن بينة، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ولقد كان الشيخ الندوي واحدًا من هؤلاء الأفذاذ، الذين بعثهم الله لهذه الأمة ليجددوا لها دينها، ويعيدوا إليها يقينها، وينهضوا بها لتؤدي رسالتها، ومن حق الشيخ أبي الحسن على من يعرفه من علماء الأمة ودعاتها وأدبائها، أن يكتبوا عن الشيخ، ويجلوا مآثره وفضائله، لتعرفه أجيال الأمة الصاعدة، وتتخذ منه أسوة وإمامًا. وبهذا يتواصل الأبناء والآباء، والأحفاد والأجداد، والخلف والسلف».

الشيخ العلَّامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي، أحد العلماء الربانيين، الذين يعْلَمُون ويَعْمَلُون ويُعلِّمون، ويدعون إلى الله على بصيرة، من بقية السلف، كأنما أُخِذ من عصور السلف الصالحين الماضين، وجيء به إلى هذا العصر.

كان الشيخ الندوي أحد العلماء والدعاة الأفذاذ في هذا العصر، تلقى العالم الإسلامي كتبه بالقبول، ابتداء من كتابة الفريد الشهير (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟)، وهذا الكتاب أول ما عرفه به العالم العربي، فيه نظرة تاريخية حضارية شمولية إلى الإسلام وأمته وحضارته وثقافته وتاريخه.

نظرة جديدة للتاريخ من خلال رؤية إسلامية، فهو يرى أن العالم خسر خسارة كبيرة بتخلف المسلمين عن قيادة ركب الحضارة. حينما قاد المسلمون ركب الحضارة الإسلامية قدموا للإنسانية رسالة حضارية متوازنة، تجمع بين العلم والإيمان، بين الرقي المادي والسمو الروحي والأخلاقي. رسالة وصلت

الأرض بالسماء، وجمعت بين العقل والقلب، ومزجت الروح بالمادة، ووازنت بين حق الفرد ومصلحة المجموع.

ووضَّح فيه كيف كانت حال أوربة، عندما كان المسلمون في القمة كانت أوربة في الحضيض.

وبيّن كيف كانت الحالة الدينية، حالة الرهبان، فذكر من قساوة الرهبان في تلك العصور، الذين كانوا ينفرون من المرأة، ولو كانت المرأة أمًّا أو أختًا، بل من ظلها، حتى قالوا: ظلها من الشيطان. وكانوا يعتبرون أن القذارة مما يقرب إلى الله، والنظافة من عمل الشيطان، وذكر فيه معلومات هائلة.

كما ذكر أن الذي أضاع المسلمين، هو تضييعهم الجهاد والاجتهاد، كانوا أقوياء في الجهاد، وقادرين على الاجتهاد، ثم ضعفوا في الاجتهاد، ثم قعدوا عن الجهاد، فأضاعوا القوة المادية والقوة العقلية، واحتلتهم القوى الأخرى.

وأكد الشيخ من خلال كتابه أنه لا خلاص للمسلمين إلا بالرجعة إلى الإسلام، رجعة صحيحة، ولا بد للعالم العربي أن يأخذ مكانه في قيادة الأمة الإسلامية.

قال: إن محمدًا رسول الله هو رُوح العالم العربي، وإن العالم العربي إذا تخلى عن محمد رسول الله، فلن تكون له قيادة. وهذه هي خلاصة هذا الكتاب الجليل، الذي يُعْتَبَرُ أول ما قرأناه للشيخ الندوي.

- **لقاءاتي بالشيخ أبي الحسن الندوي:**

في يناير سنة (١٩٥١م)، قام العلَّامة أبو الحسن الندوي بزيارة إلى مصر، وكنت طالبًا حينها في كلية أصول الدين، وكنت قد قرأت كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟)، وقد أعجبت بالكتاب، ودللت عليه بعض الأصدقاء ليقرؤوه، وإن كنت لا أعرف عن صاحبه شيئًا إلا أنه عالم هندي مسلم، والكتاب فيه نظرة جديدة إلى التاريخ الإسلامي، وإلى التاريخ العالمي

من منظور إسلامي، وهو منظور عالم مؤرخ مصلح داعية، يعرف التاريخ جيدًا، ويعرف كيف يستخدمه لهدفه ورسالته، وقد ساعده على ذلك معرفته باللغة الإنجليزية، كما ساعده الحس النقدي، والحس الحضاري، والحس الدعوي، والحس الإصلاحي ـ وكلها من مواهبه ـ على تقديم هذه النظرة الجيدة من خلال كتابه الفريد.

اتصل بي بعض الإخوة من الطلاب الهنود الذين يدرسون في مصر، وقالوا لي: هل تعرف الأستاذ أبا الحسن الندوي؟ قلت لهم: أليس هو صاحب كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)؟ قالوا: بلى، قلت: وما شأنه؟ قالوا: سيصل إلى القاهرة يوم كذا. قلت: أرجوكم أن توصلوني إليه عند حضوره.

كان الشيخ ومن معه يسكنون في شقة متواضعة في زقاق من أزقَّة شارع الموسكي بحي الأزهر؛ فالشيخ لا يقدر على سُكنى الفنادق، ولا يحبها إن قدر عليها، وفي اجتماعات مجلس رابطة العالم الإسلامي بالمملكة العربية السعودية يَدَع الفنادق التي ينزل فيها الضيوف، وهي من فنادق الدرجة الأولى، وينزل عند بعض إخوانه.

كما أنه يرفض النزول ضيفًا على بعض الكبراء من الأغنياء والموسرين؛ لعل ذلك للشبهة في أموالهم، أو لئلا يكون أسيرًا لإحسانهم.

كان الشيخ حين زار مصر في شَرْخ الشباب؛ لحيته سوداء، ووجهه نضر، وعزمه فتيٌّ، وروحه وثَّابة، وغيرته متوقدة.. كان يحمل حماس الشباب، وحكمة الشيوخ، يحمل فكر العالم الموفق، وقلب المؤمن الغيور في آنٍ واحد.

وما هي إلا أيام حتى حضر الشيخ، ومعه اثنان من إخوانه ورفقائه الندويين.

ذهبت لزيارة الشيخ في مسكنه المتواضع أنا وأخي وصديقي محمد الدمرداش مراد رَحِمَهُ اللَّهُ رفيقي في الدراسة، ورفيقي في الدعوة، ورفيقي في

المحنة، ورفيقي في السكن، ودعوناه إلى بيتنا في شبرا[1]؛ ليلتقي ببعض إخواننا من شباب الأزهر الملتزمين بالدعوة في صورة ما يسميه الإخوان (كتيبة)، وهو تعبير عن ليلة جماعية تقضى في العلم والعبادة والرياضة، وقليل من النوم، وكان الشيخ حريصًا على أن يستمع منا كما نستمع إليه؛ فكان يسأل عن حسن البنا وكلامه وطريقته، ومواقفه وتصرفاته في الأمور المختلفة، كبيرة كانت أو صغيرة؛ وهو ما كوَّن معه فكرة عن الشيخ البنا، وأنه كان (إمامًا ربانيًا) بحق، ولم يكن مجرد زعيم يطالب بحكم إسلامي، بل كان قبل كل شيء (مربيًا) يريد أن ينشئ للإسلام (جيلًا جديدًا) يحسن الفهم له، والإيمان به، والالتزام بتعاليمه، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله.

وتكرر لقاؤنا معه، ولقاؤه معنا، نحن شباب الدعوة الإسلامية (أنا، والأخ أحمد العسال، والأخ الدمرداش، والأخ مناع القطان، والأخ عبد الله العقيل... وآخرون).

كانت أيام الشيخ أبي الحسن في مصر أيامًا خصبة مباركة، لا يكاد يخلو يوم منها عن محاضرة عامة يُدعى إليها، أو درس خاص يُرتَّب له، أو لقاء خاص يُعد له. ألقى محاضرة تحت عنوان (المسلمون على مفترق الطرق) في دار الشبان المسلمين ـ على ما أذكر ـ، وعقّب عليها الشيخ عبد المتعال الصعيدي، والشيخ الغزالي. كما ألقى محاضرة عن (محمد إقبال شاعر الإسلام في الهند) في كلية دار العلوم، كان لها تأثيرها ودويُّها، والشيخ من المعجبين بشعر إقبال، ويحفظ منه الكثير الكثير، وقد أخرج كتابًا عنه بعنوان (روائع إقبال).

---

(١) قال الشيخ الندوي في (مذكرات سائح في الشرق) ص٤٠ عن هذه الدعوة أو الزيارة: تقدم طالب ذكي من طلبة كلية أصول الدين وهو الأخ يوسف القرضاوي، فألقى كلمة طيبة مفعمة بالإخلاص والحماسة، ورحب بخطيب الليلة وقدمه إلى زملائه ورفاقه.

والتقى الشيخ في القاهرة بكثير من العلماء والدعاة والمفكرين، وسجَّل عنهم ملاحظاته الدقيقة في كتابه الذي أصدره بعد رجوعه (مذكرات سائح في الشرق العربي).

التقى بالأديب الكبير الناقد الشهيد سيد قطب، وأعجب به الشهيد، وكتب مقدمة أخرى لكتابه (ماذا خسر العالم...؟) أنصف فيها الكتاب وصاحبه، وقدره حق قدره.

والتقى كثيرًا بالشيخ محمد الغزالي، ورافقه في بعض رحلاته الدعوية، وأعجب كل منهما بصاحبه، وكتب عنه الشيخ في (مذكراته) تلك.

وأذكر أن الشيخ الندوي كان قد اصطحب معه عدة رسائل من أوائل كتاباته الإسلامية الدعوية، وهي جملة رسائل تعبر عن حس رقيق، وفكر عميق، وبيان أنيق، وعن رهافة الحاسة الأدبية، وعمق الحاسة الروحية عند الشيخ.

وأذكر أن الشيخ الغزالي قرأها ومنها رسالتان؛ إحداهما: (من العالَم إلى جزيرة العرب)، والأخرى: (من جزيرة العرب إلى العالَم). وفيهما يستنطق الشيخ ما يريده العالَم من الجزيرة من الهدى ودين الحق، وهو ما قدمته الجزيرة قديمًا للعالَم، وردُّ الجزيرة على هذا.

قال الغزالي معقبًا: «هذا الإسلام لا يخدمه إلا نفس شاعرة محلقة، أما النفوس البليدة المطموسة فلا حظ لها فيه!.

لقد وجدنا في رسائل الشيخ لغة جديدة، وروحًا جديدة، والتفاتًا إلى أشياء لم نكن نلتفت إليها. إن رسائل الشيخ هي التي لفتت النظر إلى موقف ربعي بن عامر ﷺ أمام رستم قائد الفرس وكلماته البليغة له، التي لخصت فلسفة الإسلام في كلمات قلائل، وعبرت عن أهدافه بوضوح بليغ، وإيجاز رائع: إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

أبو الحسن الندوي ـ فيما أعلم ـ هو أول من نبهنا إلى قيمة هذا الموقف وهذه الكلمات، ثم تناقلها الكاتبون بعد ذلك وانتشرت».

وقد لقي الشيخ أستاذنا البهي الخولي، وقد أعجب به الأستاذ البهي غاية الإعجاب، وسجّل ذلك في رسالة سطرها إليه، كما لقي الأستاذ صالح عشماوي وغيره من قادة الإخوان، وجلس إليهم وتحدث معهم حديثًا نشره في رسالة بعد ذلك، عنوانها: (أريد أن أتحدث إلى الإخوان المسلمين).

ولقي كذلك أستاذنا العلَّامة الدكتور محمد يوسف موسى، وقد كتب له مقدمة لكتابه (ماذا خسر العالم...؟).

كما لقي الأديب الداعية الشيخ أحمد الشرباصي، الذي سجل معه مقابلة عن سيرته نشرت في مقدمة (ماذا خسر العالم...؟).

ومما ذكره في هذه المقابلة: أنه سُئل عن أغرب ما رآه في مصر؟ فكان جوابه: إني وجدت العلماء حليقي اللحى!.

ولا ريب أن هذه صدمة شديدة لعالم لم يرَ في حياته في وطنه عالمًا واحدًا حليقًا، وحلق اللحى عندهم من شأن المتفرنجين، والبعيدين عن الدين، أما أن يكون هذا هو الطابع العام للعلماء في بلد، فهو الشيء الغريب! ومن العجب أن بعض شيوخ الأزهر المتحمسين لإعادة الأزهر إلى مكانته القديمة يحاولون أن يفرضوا على الطلبة لبس العمامة، وهي مجرد تقليد! ولا يفكرون أن يفرضوا عليهم إطلاق اللحية، وهي سنة إسلامية بلا ريب!.

- **رحلات الندوي في ريف مصر:**

ولم يكتف شيخنا بالنشاط والحركة في مدينة القاهرة على سعتها، بل امتد إلى مدن أخرى، سمعت بالشيخ، فدعته إلى زيارتها ولقاء الجمهور المسلم فيها.

ومن ذلك: مدينة (المحلة الكبرى) التي كنت أخطب في أحد مساجدها، وقد دون ذلك الشيخ أبو الحسن في كتابه (مذكرات سائح)، فقال: «الأخ يوسف القرضاوي، والأخ محمد الدمرداش، من طلبة الأزهر ومن الإخوان المسلمين، يتوقدان حماسة وغيرة وذكاء، وهما من الشباب الذين تقر بهم العين، ويقوى الأمل في مستقبل الإسلام في هذه البلاد، وكم في الإخوان من أمثال هؤلاء الشباب، ولو لم تكن للإخوان حسنة غير بعث الحياة الدينية، وإشعال العاطفة الإسلامية في الشباب الإسلامي وتوجيههم إلى الدين لكفاها فخرًا وغبطة»[1].

وقد دعاه إلى المحلة الدكتور محمد سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ رئيس الجمعية الشرعية بمدينة المحلة، وقد عرف الشيخ أن بينه وبين الإخوان شيئًا؛ فهو يأخذ عليهم أنهم لا يلتزمون بالآداب التي يلتزمونها هم من إعفاء اللحية، وإحفاء الشارب، وإرخاء العذبة (إطالة طرف العمامة)، وإطالة الصلاة. وقال الشيخ للدكتور: إن دعوة الإخوان دعوة عامة، مهمتها أن تجمع الجماهير على الأصول الكلية للإسلام، ثم تربيهم بالتدريج على الآداب الخاصة. ولا بد أن يكون في الأمة النهجان: النهج العام للإخوان، والنهج الخاص للجمعية. واستراح الدكتور سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ لكلام الشيخ، ودعاني معه على الغداء عنده.

ولكن سرعان ما كاد هذا يذهب هباءً، عندما ذهبنا مع الشيخ إلى بلدة (نبروه) وتكلمت كلمة أغضبت الدكتور سعيد غفر الله لنا وله، ولا أدري لماذا؟ ولكن الشيخ تدارك الموقف بهدوئه وحكمته، وبات الناس تلك الليلة في المسجد سُجَّدًا وقيامًا، بدعوة من الشيخ، واستجابة كثيرين من الحضور.

كانت زيارة الشيخ لمصر هي بداية لقائي به، ومعرفتي به، ثم زادت الأيام تلك المعرفة قوة على قوة.

---

(١) مذكرات سائح، ص٣٠ ـ ٣١، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.

وقد تواصلت لقاءاتي بالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في مناسبات شتى، وفي أقطار شتى، التقينا به في قطر في زيارة له، أول ما أُنشئت الجامعة، وأَسعدنا الشيخ بمحاضرة عن (دور الجامعة في تكوين الأجيال).

ثم سعدنا به مرَّة أخرى في المؤتمر العالمي للسيرة والسنة الذي عقد في قطر، في بداية سنة (١٤٠١هـ)، وكان مقدمة لاحتفال الأمة الإسلامية بالقرن الخامس عشر الهجري، فقد أجمع المؤتمرون على اختيار الشيخ الندوي نائبًا لرئيس المؤتمر.

والتقيت به في (ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر).

ولقد قُدِّر لي أن أسعدَ بزيارة دار العلوم ندوة العلماء ثلاثَ مرات بعد ذلك:

مرّةً عندما دعاني الشيخ لمؤتمر (المستشرقون والإسلام) في مدينة (أعظم جره) التي تضمّ (دار المصنفين) وكان معي الأخوان الكريمان: الدكتور (عبد العظيم الديب) والدكتور (علي المحمدي) من جامعة قطر، وقد أبى الشيخ وإخوانه إلا أن يشرِّفوني برئاسة هذا المؤتمر، الذي استمرَّ ثلاثة أيام، وقد كانت فرصةً لزيارة محدِّث الهند العلَّامة الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، الذي زرناه في قريته التابعة لأعظم جره، ولهذا نُسِب إليها الشيخ وقيل: الأعظمي. وفي العودة مررنا بـ(لكنو) وجددنا فيها الذكريات.

والمرة الثانية عندما ذهبت بدعوة من الشيخ لزيارة (ندوة العلماء) لمدَّة أسبوعين، وكانت فرصةً ذهبية للعيش في هذا الجو العلمي الإيماني المحبب، الذي يعيش المرء فيه بالله ولله ومع الله، ويتنفّس علمًا وإيمانًا ودعوة.

ومن سوءِ حظِّي أنَّ الشيخ أبا الحسن كان غائبًا عن لكنو وعن الهند في تلك الفترة في إحدى رحلاته المباركة، ولم ألتقِ به إلا في آخر الزيارة في طريقي إلى (ديوبند) لحضور احتفالها المئوي المشهود، وقال لي الشيخ: أخبرَني الإخوانُ أنك سحرتَ العقول، وأسرتَ النفوس، قلت له: إنَّما أستمدُّ من الله أولًا ثم منكم.

والمرة الثالثة: منذ نحو ثلاث سنوات[1] حين دعاني الشيخ لزيارة الندوة ودار علومها، وإلقاء محاضرات على أساتذتها وطلبتها. وقد قضيتُ في رحاب الندوة أيامًا أعتبرها من أفضل أيام عمري، وألقيتُ فيها عددًا من المحاضرات في أصول العلوم الشرعية، أحمدُ الله ﷻ أنْ وفّقني فيها، وكان مما أسعدني وشدّ من عزمي وجودُ شيخنا أبي الحسن، وحضورُه كلَّ هذه المحاضرات.

وكُنَّا نلتقي عادة في (مجلس المجمع الفقهي) برابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، حيث نشترك معًا في عضويته.

ونلتقي كذلك في مجلس أمناء (مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية) حيث نسعدُ برئاسة الشيخ لهذا المجلس.

أما قلوبُنا وأرواحُنا فكانت تلتقي دائمًا وأبدًا مع الشيخ الجليل، في ظِلِّ الحب في الله، وفي رحاب الإسلام العظيم، الذي أكرمنا الله به، وشرّفنا بحمل رسالته، وأعباء دعوته، وهموم أمته.

وكان للشيخ الندوي اهتمامه بالجانب التربوي، خصوصًا التربية الفكرية، والتربية الروحية التي سماها (ربانية لا رهبانية)، عبر عن التصوف بهذه الكلمة، فقد وجد أن كلمة (التصوف) عليها اعتراضات من كثير من الناس، فترك المصطلح المختلف فيه، وتمسَّك بالمتَّفق عليه، وكلمة (الربانية) متَّفَقٌ عليها، فاعتمدها للتعبير عن التربية في جانبها الروحي.

وكان للشيخ أبي الحسن صلة كبيرة بالعالم العربي، فهو يجيد العربية كأحد أبنائها، ويكتب بها مؤلفاته، يعني هو في العربية كالأردية ـ التي هي لغته الأساسية ـ سواء.

وقد اختير عضوًا في عدد من المجامع العربية، منها: (المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي)، و(المجلس الأعلى العالمي للمساجد)، و(مجلس

---

(١) من وفاة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي)، وكنا زملاء في عضويته، وكذلك في (المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية) بالأردن.

وكان الشيخ قد أسّس (رابطة الأدب الإسلامي)، وكان هو رئيسها، وكنت عضوًا معه، وأسس كذلك (مركز الدراسات الإسلامية) بأكسفورد، ليكون منطلقًا للتعريف بالإسلام والدفاع عنه، من مركز ثقافي أوربي عريق، كجامعة أكسفورد، وكنت عضوًا معه في مجلس الأمناء.

وكان الشيخ مقبولًا من القدماء والعصريين، ومن السلفيين، ومن الصوفية، رزقه الله القبول؛ لأنه كان رجلًا سمحًا معتدلًا وسطيًا، حتى إنه كان مقبولًا من الهندوس أنفسهم، أعني: كانت له منزلة عندهم، وحينما يتعرض المسلمون لشيء يتعلق بشريعتهم، يقف كالطود الشامخ، ويجاهد من أجل مصلحة المسلمين. كما حاول الهندوس في الهند ذات مرة، أن يعتدوا على بعض حقوق المسلمين في الأحوال الشخصية، فوقف الشيخ، ومن ورائه علماء الهند جميعًا، حتى استطاعوا أن يردوا الأمور إلى نصابها.

وقد حصل الشيخ على عدد من الجوائز العالمية، منها مثلًا: (جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام)، وكان هو ثاني من حصل عليها، أما الأول فكان الشيخ أبو الأعلى المودودي، وقد تبرع الشيخ أبو الحسن الندوي بقيمة الجائزة، نصفها لحُفّاظ القرآن في مكة، والنصف الآخر لحفاظ القرآن في الهند.

وكذلك حصل على (جائزة سلطان بروناي في الدراسات التاريخية الإسلامية).

وكذلك حصل على (جائزة الشخصية الإسلامية) من جائزة دبي الدولية للقرآن لعام (١٩٩٩م).

فهو موضع الرضا والقبول من المسلمين، وقد ترك وراءه تراثًا هائلًا.

رحمه الله رحمة واسعة، وغفر له، وجزاه عن الإسلام خيرًا.

* * *



الشيخ سيد سابق
العالم الكبير الداعية الفقيه
(١٣٣٣ ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩١٥ ـ ٢٠٠٠م)

انضم إلى موكب الراحلين من كبار العلماء عن دنيانا العالم الكبير الفقيه الداعية المُربِّي الشيخ سيد سابق رَحِمَهُ اللَّهُ الذي انتقل إلى جوار ربه مساء يوم الأحد (٢٣ من ذي القعدة ١٤٢٠هـ، الموافق ٢٠٠٠/٢/٢٧م) عن عمر يناهز (٨٥) سنة.

• كان الشيخ سيد سابق أحد علماء الأزهر الذين تخرجوا في كلية الشريعة، وقد اتصل بالإمام الشهيد حسن البنا وبايعه على العمل للإسلام ونشر دعوته، وجمع الأمة على كلمته، وتفقيهها في شريعته، وأصبح عضوًا في جماعة (الإخوان المسلمين) منذ كان طالبًا.

كان معاصرًا لإخوانه من أبناء الأزهر النابهين الذين انضموا إلى قافلة الإخوان المسلمين من أمثال الشيخ محمد الغزالي السقا، والشيخ عبد المعز عبد الستار، وغيرهما، وإن كانوا هم في كلية أصول الدين، وهو في كلية الشريعة.

• اشتغل الشيخ سيد سابق بالفقه أكثر مما اشتغل إخوانه من الدعاة الأزهريين؛ لأنه الأليق بتخصصه في كلية الشريعة، وقد بدأ يكتب في مجلة الإخوان الأسبوعية مقالة مختصرة في فقه الطهارة، معتمدًا على كتب (فقه الحديث) وهي التي تعنى بالأحكام، مثل: (سبل السلام) للصنعاني، وشرح (بلوغ المرام) للحافظ ابن حجر، ومثل: (نيل الأوطار) للشوكاني، وشرح (منتقى الأخيار من أحاديث سيد الأخيار) لابن تيمية الجد.

ومستفيدًا من كتاب (الدين الخالص) للعلامة الشيخ محمود خطاب السبكي، مؤسس (الجمعية الشرعية) في مصر، وأول رئيس لها، الذي ظهر منه تسعة أجزاء في فقه العبادات، وغير ذلك من المصادر المختلفة، مثل: (المغني) لابن قدامة، و(زاد المعاد) لابن القيم، وغيرهما.

وقد اعتمد الشيخ سيد رَحِمَهُ اللَّهُ منهجًا يقوم على طرح التعصب للمذاهب مع عدم تجريحها، والاستناد إلى أدلة الكتاب والسنة والإجماع، وتبسيط العبارة للقارئ بعيدًا عن تعقيد المصطلحات، وعمق التعليلات، والميل إلى التسهيل والتيسير على الناس، والترخيص لهم فيما يقبل الترخيص، فإن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه، وكما يكره أن تؤتى معصيته، وحتى يحب الناس الدين، ويقبلوا عليه، كما يحرص على بيان الحكمة من التكليف، اقتداء بالقرآن في تعليل الأحكام.

وكان من التسهيل الذي اتبعه الشيخ في منهجه الذي ارتضاه في كتابة الفقه هو البعد عن ذكر الخلاف إلا ما لا بدَّ منه، فيذكر الأقوال في المسألة، ويختار الراجح أو الأرجح في الغالب، وأحيانًا يترك الأمر دون أن يرجح رأيًا، حيث لم يتضح له الراجح، أو تكافأت عنده الأقوال والأدلة، فيرى من الأمانة أن يدع الأمر للقارئ يتحمل مسؤولية اختياره، أو يسأل عالمًا آخر، وهذا ما لا يسع العالم غيره.

أصدر الشيخ سيد الجزء الأول من كتابه الذي سماه (فقه السنة) في أواسط الأربعينيات من القرن العشرين الميلادي، أو في سنة (١٣٦٥هـ) وهو رسالة صغيرة الحجم، من القطع الصغير، وكان في (فقه الطهارة). وقد صدره بمقدمة من المرشد العام للإخوان المسلمين الشيخ الإمام حسن البنا، تنوّه بمنهج الشيخ في الكتابة، وحسن طريقته في عرض الفقه، وتحبيبه إلى الناس، ومما جاء في هذه المقدمة قوله ـ عليه رحمة الله ـ:

أما بعد.. فإن من أعظم القربات إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ نشر الدعوة الإسلامية، وبث الأحكام الدينية، وبخاصة ما يتصل منها بهذه النواحي الفقهية، حتى يكون الناس على بينة من أمرهم في عبادتهم وأعمالهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما العلم بالتعلم، وإن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[1].

وإن من ألطف الأساليب وأنفعها، وأقربها إلى القلوب والعقول في دراسة الفقه الإسلامي ـ وبخاصة في أحكام العبادات، وفي الدراسات العامة التي تقدم لجمهور الأمة ـ البعد به عن المصطلحات الفنية، والتفريعات الكثيرة الفرضية، ووصله ـ ما أمكن ذلك ـ بمآخذ الأدلة من الكتاب والسنة في سهولة ويسر، والتنبيه على الحكم والفوائد ما أتيحت لذلك الفرصة، حتى يشعر القارئون المتفقهون بأنهم موصولون بالله ورسوله، مستفيدون في الآخرة والأولى، وفي ذلك أكبر حافز لهم على الاستزادة من المعرفة، والإقبال على العلم.

وقد وفق الله الأخ الفاضل الأستاذ الشيخ السيد سابق، إلى سلوك هذه السبيل، فوضع هذه الرسالة السهلة المأخذ، الجمة الفائدة، وأوضح فيها الأحكام الفقهية بهذا الأسلوب الجميل؛ فاستحق بذلك مثوبة الله إن شاء الله، وإعجاب الغيورين على هذا الدين، فجزاه الله عن دينه وأمته ودعوته خير الجزاء، ونفع به، وأجرى على يديه الخير لنفسه وللناس، آمين. اهـ.

وقال الشيخ سابق في مقدمته القصيرة المختصرة التي قدم بها كتابه:

هذا الكتاب يتناول مسائل من الفقه الإسلامي مقرونة بأدلتها من صريح الكتاب وصحيح السنة، ومما أجمعت عليه الأمة.

---

(١) رواه أبو داود في العلم (٣٦٤١)، والترمذي في العلم (٢٦٨٢)، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٢)، عن أبي الدرداء.

وقد عرضت في يسر وسهولة، وبسط واستيعاب لكثير مما يحتاج إليه المسلم، مع تجنب ذكر الخلاف إلا إذا وجد ما يسوغ ذكره فنشير إليه.

والكتاب يعطي صورة صحيحة للفقه الإسلامي الذي بعث الله به محمدًا ﷺ، ويفتح للناس باب الفهم عن الله ورسوله، ويجمعهم على الكتاب والسنة، ويقضي على الخلاف وبدعة التعصب للمذاهب، كما يقضي على الخرافة القائلة: بأن باب الاجتهاد قد سُدّ.

ظل الشيخ سيد يوالي الكتابة في الفقه بعد ذلك، ويخرج في كل فترة جزءًا من هذا القطع الصغير حتى اكتمل أربعة عشر جزءًا، ثم صدر بعد ذلك في ثلاثة أجزاء كبيرة. واستمر تأليفه نحو عشرين سنة على ما أظن.

سَدَّ كتاب الشيخ سيد سابق فراغًا في المكتبة الإسلامية في مجال فقه السنة، الذي لا يرتبط بمذهب من المذاهب، ولهذا أقبل عليه عامة المثقفين الذين لم ينشؤوا على الالتزام بمذهب معين أو التعصب له، وكان مصدرًا سهلًا لهم يرجعون إليه كلما احتاجوا إلى مراجعة مسألة من المسائل.

وقد انتشر الكتاب انتشارًا واسعًا، وطبعه بعض الناس بدون إذن مؤلفه مرات ومرات، كما يفعلون مع غيره من الكتب التي يطلبها الناس.

ربما انتقد (فقه السنة) بعض المذهبيين المتشددين في اتباع المذاهب، والذين اعتبروا الكتاب داعية إلى ما سموه (اللامذهبية)، وهي ـ كما قالوا ـ قنطرة إلى (اللادينية)!.

وأنا اعتقد أن مؤلف الكتاب ـ وإن لم يلتزم مذهبًا بعينه ـ لا يُعَدُّ من دعاة (اللامذهبية) لأنه لم يذم المذاهب، ولم ينكر عليها.

كما أعتقد أن مثل هذا النوع من التأليف ضرورة للمسلم الجديد، الذي يدخل في الإسلام الواسع دون التزام بمدرسة أو مذهب، وكذلك المسلم العصري الذي لا يريد أن يربط نفسه بمذهب معين في كل المسائل، بل يأخذ بما صح دليله، ووضح سبيله.

كما انتقد الكتاب بعض العلماء الذين يرون أن الشيخ ـ وقد تحرر من المذاهب ـ لم يعطِ فقه المقارنة والموازنة حقها، في مناقشة الأدلة النقلية والعقلية، والموازنة العلمية بينها، واختيار الأرجح بعد ذلك على بينة وبصيرة.

والجواب عن ذلك: أن الشيخ لم يكتب كتابه للعلماء، بل لجمهور المتعلمين، الذين يحتاجون إلى التسهيل والتيسير، سواء في الشكل أم المضمون، وتوخي طريقة التسهيل والتبسيط، وكل ميسر لما خُلق له.

وممن انتقد الكتاب المحدث المعروف الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد ألف في ذلك كتابًا أسماه (تمام المنة بالتعليق على فقه السنة) يتضمن جملة تعقيبات وانتقادات على الكتاب. ونقده يتمثل في أمرين أساسيين:

الأول: فيما يتعلق بالحديث الذي يستدل به (فقه السنة) وهو ضعيف في نظر الشيخ، وربما يكون هناك خلل في عزوه إلى من عزاه إليه، أو نحو ذلك، وعذر الشيخ سيد أنه ينقل هذه الأحاديث عن كتب السابقين، ولم يبذل جهدًا في تحقيقها وتمحيصها، عملًا بالقاعدة التي تقول: كل علم يؤخذ مسلمًا من أهله.

والثاني: خلاف في المشرب الفقهي بين الشيخ ناصر والشيخ سيد، فالشيخ ناصر أَمْيل إلى اتباع ظاهر النص، والشيخ سيد أقرب إلى اتباع مقصد النص.

والشيخ ناصر لا يبالي بمخالفة جمهور الأئمة المتقدمين، كما في تحريمه الذهب على النساء، والشيخ سيد يحترم غالبًا رأي الجمهور.

وقد ظهر هذا في التعليق الطويل الذي علق به الشيخ ناصر على (زكاة عروض التجارة) في فقه السنة، فهو لم يصح عنده الحديث في زكاتها، ولم يأخذ بقول من قال من الصحابة بزكاتها، ولا بقول جمهور التابعين والأئمة

الذي هو كالإجماع على وجوب زكاة التجارة، ولم يأخذ بمقاصد الشريعة التي يستحيل أن توجب الزكاة على الزارع الذي تثمر أرضه خمسة أوسق، وربما كان مستأجرًا لهذه الأرض، ولا يوجب على التاجر الذي يملك الملايين شيئًا، إلا أن (تنضّ) أي: تسيل بلغة عصرها، ويحول عليها الحول.

وقد رددنا على الشيخ ناصر قوله بالأدلة الناصعة في كتابنا (المرجعية العليا للقرآن والسنة).

• عرفت فضيلة الشيخ سيد سابق أول ما عرفته قارئًا لبعض مقالاته الفقهية في مجلة الإخوان الأسبوعية، ثم للجزء الأول من كتابه في فقه الطهارة، ثم سمعنا أنه قدم للمحاكمة في قضية مقتل النقراشي باشا، حيث زعموا في ذلك الوقت أنه هو الذي أفتى الشاب القاتل ـ عبد المجيد حسن ـ بجواز قتله، عقوبة على حل دم جماعة الإخوان، وكانت الصحف تلقب الشيخ في ذلك الوقت بـ(مفتي الدماء).

والحمد لله، قد برأته المحكمة، وأخلت سبيله، ولكنه اعتقل مع من اعتقل من الإخوان في سنة (١٩٤٩م)، واقتيد إلى معتقل الطور.

وقد عرفت الشيخ وجهًا لوجه في المعتقل، وفي حذاء رقم (٢) الذي كان إمامه الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان الشيخ سيد يعقد حلقات في الفقه بعد صلاة الفجر وقراءة الأدعية المأثورات، كما كان الشيخ الغزالي يعقد حلقات أخرى في الدعوة إلى الله. ثم عرفته بعد أن خرجنا من المعتقل في ساحة الدعوة إلى الله، وكثيرًا ما زرته في بيته حيث كان يسكن في حارة ضيقة في سوق السلاح، ثم مَنَّ الله عليه فسكن في شقة بجاردن ستي، أظنها كانت ملكًا لبعض اليهود الذين خرجوا من مصر، وذهبوا إلى دولة الكيان الصهيوني.

وقد عملت معه حين كان مديرًا لإدارة الثقافة في وزارة الأوقاف، وكان الشيخ الغزالي مديرًا للمساجد، وكان الشيخ البهي الخولي مراقبًا للشؤون

الدينية، وذلك في عهد وزير الأوقاف المعروف الشيخ أحمد حسن الباقوري، وذلك في عهد الثورة.

وظل الشـــيخ مرموق المكانة في وزارة الأوقاف، حتى جاء عهد وزيرها المعروف الدكتور محمد البهي، فساءت علاقته بالشـــيخين الغزالي وسابق، رغم أنها كانت من قبل علاقة متينة، وسبحان مغير الأحوال.

وقد نُقل الشـــيخان إلى الأزهر، لإبعادهما عن نشاطهما المعهود، وإطفاء لجذوتهما، وقد بقيا على هذه الحال، حتى تغير وزير الأوقاف، ودوام الحال من المحال.

• كان الشيخ سيد سابق رجلًا مشرق الوجه، مبتسم الثغر، فكه المجلس، حاضر النكتـــة، ومما يحكى عنـــه أنهم حيـــن قبضوا عليه فـــي قضية مقتل النقراشي، وسألوه عن (محمد مالك) الذي ضخمت الصحافة دوره، واعتبروه أكبر إرهابي، وقد اختفى ولم يعثروا عليه، فلما سألوا الشيخ: هل تعرف شيئًا عن مالك؟ قـــال: كيف لا أعرفه وهو إمام من أئمة المســـلمين، وهو إمام دار الهجرة ﷺ؟!.

قالوا: يا خبيث، نحن لا نسألك عن الإمام مالك، بل عن مالك الإرهابي.

قال: أنا رجل فقه أعرف الفقهاء ولا أعرف الإرهابيين.

كان الشـــيخ الغزالي ونحن في المعتقل، إذا سئل عن مسألة فقهية يحيلها إلى الشيخ سيد سابق، فقد كان هو المعتمد لدى الإخوان في الفقه.

ومع هذا كتب الشيخ ســـيد في العقيدة (العقائد الإسلامية)، وفي الدعوة (إسلامنا) وغيره من الكتب.

• انتقل الشيخ في السنين الأخيرة من عمره إلى (جامعة أم القرى) بمكة المكرمة، ســـعيدًا بمجاورة البيت الحرام، مع نخبة من أجلاء علماء الأزهر،

الذين كان لهم دور يذكر ويشكر في ترسيخ جامعة أم القرى، ورفع دعائمها، وتعليم أبنائها، وبقى فيها إلى ما قبل سنتين.

وفي سنة (١٤١٣هـ) حصل الشيخ على جائزة الملك فيصل في الفقه الإسلامي، وسعدت بمشاركته فيها.

• واليوم يودعنا الشيخ، راحلًا من دار الفناء إلى دار البقاء، تاركًا وراءه علمًا نافعًا، وتلاميذ بررة يدعون له بالمغفرة والرحمة، وذكرًا طيبًا هو عمر آخر للإنسان بعد عمره القصير.

ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له ... إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثوانِ

فارفعْ لنفسِكَ بعد موتِكَ ذِكْرَها ... فالذِّكْرُ للإنسانِ عمرٌ ثانِ

رحم الله شيخنا الشيخ سيد سابق، وتقبله في الصالحين من عباده، وجزاه عن العلم والإسلام والأمة ما يجزي العلماء العاملين، والدعاة الصادقين، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

* * *



الشيخ محمد بن صالح العثيمين
وهوى نجم آخر
(١٣٤٧ ـ ١٤٢١هـ ـ ١٩٢٩ ـ ٢٠٠١م)

رحل عن عالمنا العلَّامة الشـيخ محمد بن صالح العثيمين، وقد شيعتُ جنازته مع الوفد الذي أوفدته دولـة قطر، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ من كبار علماء المملكة العربية السعودية، وكان له دوره في الإفتاء والتعليم، والدعوة والإرشاد، وكان منهجه رَحِمَهُ اللَّهُ اتباع الدليل من الكتاب والسـنة، وفقًا لمنهج السـلف الصالح، سواء في أمور العقيدة، أم في أمور الشريعة، ولم يكن يبالي أوافق رأيه أهواء الناس أم خالفهم، ولمن يكن يعبأ بمخالفة أحد من العلماء، إذا لاح له دليل على صحة رأيه.

كما أود أن أنبه على نقطة مهمة في فتاوى الشـيخ، وهي أنه لم يكن من المتشددين دائمًا، كما يظن بعض الناس، بل كثيرًا ما كان ييسر في فتاواه، حتى إنه كان يفتي للطلبة الذين يدرسـون في أوربة وأمريـكا وغيرها من الأقطار الأجنبية بجـواز قصر الصـلاة والجمع بيـن بعضها وبعـض، باعتبار أنهم مسافرون، وإن طالت مدة الدراسة إلى سنوات.

ومنذ ثماني سنوات منح الشيخ ابن عثيمين جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، وأقيم احتفال كبير للذين حصلوا على الجوائز، ولكن الشيخ لم يحضر الاحتفال، ولم يتسـلم الجائزة، ولم يلقِ كلمته بهذه المناسبة، بل أناب عنه من ألقى الكلمة.

وهذا من دلائل تحرره عن المظاهر، وبعده عن طلب الجاه والظهور.

ولم يقدر لي أن أرى الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر من مرتين، فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يخرج إلى المؤتمرات والندوات خارج المملكة، رأيته في المرة الأولى في المؤتمر العالمي لمكافحة المسكرات والمخدرات والتدخين الذي انعقد في المدينة المنورة، بالتعاون بين الجامعة الإسلامية ووزارة الداخلية السعودية، وقد تعاونَّا بالعمل معًا في لجنة واحدة من لجان المؤتمر، وعرفت فيه حسن الخلق، وسماحة النفس، وتواضع أهل العلم.

ولم ألقه بعد ذلك إلا مرة أخرى في مكة المكرمة حينما دعينا على مائدة خادم الحرمين الملك فهد بن عبد العزيز في شهر رمضان المبارك منذ سنتين، وتصافحنا في لقاء عابر لم يطل، جرى فيه حديث عن بعض قضايا المرأة.

ثم بعد ذلك كنت منذ فترة وجيزة في المملكة في مؤتمر مجمع الفقه الإسلامي، فطلبت من أحد رفقائي وهو من علماء المملكة، أن نزور الشيخ وقلت له: نريد أن نزور الشيخ العثيمين فإن هذا من حقه علينا، فقد سمعت بمرضه، وفعلًا اتصلنا به، فعلمنا أنه ليس في بيته، فقد كان الاتصال يوم الأربعاء، وهو في العادة يخرج في هذا اليوم.

إن وفاة الشيخ العثيمين يمثل خسارة كبيرة للعلم والعلماء في هذه المرحلة التي فقدت فيها الأمة عددًا من الأعلام، ابتداء بالعلَّامة الشيخ عبد العزيز بن باز، وقد ختمت اليوم بالشيخ محمد بن صالح العثيمين، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يعوض هذه الأمة الإسلامية عامة، والمملكة العربية السعودية خاصة عن هذا العالم الكبير، الذي نسأل الله له المغفرة والرحمة والرضوان، وأن يجزيه عن العلم والإسلام والمسلمين خير ما يجزي به العلماء العاملين والدعاة الصادقين.

* * *



الدكتور محمد قُطْبَة

الشاعر الداعية المربي المجاهد

(١٣٧٤ ـ ١٤٢٢هـ = ١٩٥٥ ـ ٢٠٠١م)

في الأيام الكريمة المفضلة عند الله تعالى: أيام عشر ذي الحجة، وفي يوم التروية (الثامن من ذي الحجة)، الذي يُحرم فيه حجاج بيت الله الحرام، للذهاب إلى منى استعدادًا للوقوف بعرفات، ودَّعت قطر ابنًا من أبنائها البررة، ورجلًا من خيرة الرجال الذين عرفتهم وخبرتهم وأحببتهم: صفاء نفس، ونقاء سريرة، وطهارة سلوك، وغيرة على دين الله، وصونًا لحرمات الناس، وتفانيًا في نصرة الحق، واستماتة في حبِّ الخير، وبذل المعروف للناس كل الناس. ذلك الرجل هو الأخ الحبيب الشاعر الداعية المجاهد الدكتور محمد قطبة، رحمه الله وغفر له، الذي لقي ربه راضيًا مرضيًّا، ولا نزكيه على الله، مودَّعًا بدموع المحبين، ودعوات الصالحين، وزفرات المحزونين.

لقد عرفتُ محمد قطبة منذ صباه ومقتبل شبابه، وإلى أن وافته المنية، فما عرفت فيه إلا الصدق في القول، والإخلاص في العمل، والتضحية في أداء الواجب، والعمل الدؤوب الصبور في سبيل الله، مع الحبِّ لإخوانه والعاملين معه، والرفقِ بهم، والصبر عليهم، والتواضع لهم، لا يقسو على صغير، ولا يستكبر على ضعيف، ولا يشغل نفسه بالتوافه، ولا يتكلَّم عن أحد بسوء، شغله عيبه عن عيوب الناس.

ما وكل إليه عمل إلا اجتهد أن يَرْقَى به، ويصل به إلى أبعد مدى، وأحسن مستوى ممكن، لا يألو في ذلك جهدًا، ولا يدَّخر وقتًا ولا وُسعًا، بل يجهد نفسه إلى حدٍّ يلومه عليه من حوله، وهو لا يبالي بما يصيبه في سبيل الله.

لقد ذهب لدراسة الدكتوراه في اللغة الإنجليزية في بريطانيا، واشتغل هناك بالعمل الإسلامي، وبالدعوة الإسلامية بين الطلاب العرب والمسلمين، فأحبَّه إخوانه، كما أحبَّهم، واجتمعت كلمتهم على أن يحمِّلوه رئاسة جمعية الطلبة المسلمين هناك، فنهض بالعبء، وقام بالواجب على الوجه المرضي، بما عُرف عنه من تجرُّد وحرقة وإخلاص.

وعاد إلى قطر فاشتغل بالتدريس في الجامعة، وكان نِعم المدرِّس، ونعم المربِّي لطلابه وطالباته، وكان نعم الزميل لإخوانه ورفقائه من هيئة التدريس، وكان نعم العون والمساعد للمسؤولين في قيادة الجامعة.

اختير ليكون وكيلًا مساعدًا لوزارة التربية والتعليم؛ فأعطى الوزارة من جهده ووقته، وعقله وقلبه ما لا يعطيه غيره، حتى كان يسهر معظم الليالي يراجع الأوراق، ويدرس المشاكل، وينظر في الطلبات، وعاتبه بعض أهل بيته وإخوانه على هذا الجهد الخارق، وطلبوا منه أن يخفِّف عنه ويرفق بنفسه، وأن يؤجِّل بعض الأشياء إلى الغد، ويأخذ حظَّه من النوم حتى يستطيع أن يواصل المسيرة، فكان جوابه الحاسم لهم: كيف يمكنني أن أنام ملء جفني، وفي هذه الأوراق حقوق يجب أن تدفع، ومظالم يجب أن تُزَال، ومشاكل يجب أن تُحَل، ولا شيء فيها يحتمل التأجيل؟! وكأنما كان يتمثَّل عمر بن عبد العزيز حين نصحه من حوله أن يؤجِّل بعض الأعمال إلى الغد، فقال لهم: لقد أعياني عمل يوم واحد، فكيف إذا اجتمع علي عمل يومين؟!.

وكانت نتيجة هذا الجهد الدائب المتواصل: أن سقط الرجل طريح الفراش، بعد أن أصابته جلطة حادة، دخل فيها الإنعاش مدَّة من الزمن، وكادت هذه النازلة أن تُودي بحياته لولا لطف الله تعالى به. وقد قال ابن عطاء: مَن ظنَّ انفِكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وبعد أن تماثل للشفاء ـ بفضل من الله تعالى ورحمة ـ عاد إلى الجامعة، يمارس عمله الأساسي في التربية والتدريس.

ومع هذا لم يَدَع العمل العام، فهو يساهم في العمل الدعوي، ويساهم في العمل الأدبي، ويساهم في العمل الاجتماعي، ويشارك في أنشطة شتَّى: ثقافية وتربوية وخيرية وإدارية.

وفي مشروعنا الإسلامي الكبير (إسلام أون لاين)، عُرِضَ اسمُه على مجلس الإدارة ليدير الموقع في الفتـــرة الحالية، فلم يختلف عليه اثنان، وذلك لما آتاه الله من حسن الخلق، وطلاقة الوجه، وفضيلة التواضع والحلم والرفق، التي تَسَع الناس جميعًا؛ ففيه قبس من خلق النبوة الذي وصف الله به رسوله الكريم بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبـة: ١٢٨]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولقد عرض مجلس إدارة جمعية البلاغ الثقافية، المشرفة على (إسلام أون لاين)، على محمد قطبة أن يخصِّص له مكافأة في مقابل عمله مديرًا للموقع، فرفض بإصرار، وأبى إلا أن يعمل محتسبًا، وقال: إن راتبي جيد، وهو يكفيني، ولا أحتاج إلى شيء آخر.

وظل يجمع بين العملين: عمله الرسمي في الجامعة، وعمله في الموقع، رغم وضعه الصحي. وقبل يومين من وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أرســل إلي رسالة يدعوني لحضور مجلس الإدارة الذي سيعقد إن شاء الله يوم الثلاثاء المقبل، ويوصيني بالحرص علــى الحضور. ولكن قبل أن يأتي الثلاثاء كان الأجل أســرع منه، وهكذا العبد يفكِّر، والله يقدِّر، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

إن محمد قطبة نموذج نادر من الرجال العاملين في الساحة الإسلامية، قَلَّ أن يجود القدر بمثله إلا بين الحين والحيــن. ولا غرو أن أحبَّه كلُّ مَن عرَفه، وكلُّ

من صحبه، أحبه الرؤساء والمرؤوسون، أحبَّه الزملاء والطلاب، أحبَّه الشيوخ والشباب، أحبَّه الرجال والنساء. فقد كان في تعامله مع الأقارب والأباعد أرقَّ من نسمات الفجر، وأنعم من ورقات الزهر، وأطيب من أريج الورد، وأحبَّ من الماء العذب البارد لدى الظمآن. ومَن كان هذا خلقه فلا بدَّ للناس أن يحبوه.

ورحم الله حافظ إبراهيم الذي قال:

والنـاسُ هـذا حظُّه مـالٌ وذا ... علـمٌ وذاك مـكارمُ الأخـلاقِ
والمـالُ إنْ لم تدَّخِـرْه محصَّنًا ... بالعلـمِ كان نهايـةَ الإمـلاقِ
والعلـمُ إن لم تكتنفْهُ شـمائلٌ ... تُعليـه كان مطيـةَ الإخفـاقِ
فـإذا رُزِقـتَ خليقـةً محمودةً ... فقدِ اصطفـاكَ مقسِّـمُ الأرزاقِ

فكيف بمَن رزقه الله جملة من الخلائق المحمودة، لا خليقة واحدة؟ وفي الحديث: «**إن الله قسـم بينكم أخلاقكم، كما قسـم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا مَن يحبُّ ومَن لا يحبُّ، ولكنه لا يعطي الدين إلا مَن يحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه**».

وقد أعطى الله تعالى محمد قطبة الدين والخلق، وهما أفضل ما يُعْطى الإنسان.

كان محمد قطبة شاعرًا مطبوعًا، لا يتكلَّف الشعر كأنما ينحته من صخر، بل يصدر عنه الشـعر كما يصدر الشـذا عن الزهر، وكما يصدر العسـل عن النحل، مختلفًا ألوانه، فيه غذاء وشفاء للناس.

وقد رصد شعره لهموم الإسلام والمسلمين، يغني لهم إذا فرحوا، ويبكي معهم إذا حزنوا، ويصرخ فيهم إذا استناموا، ويحمِّسهم إذا استيقظوا، ويشدُّ من أزرهم إذا أقدموا، ويرثي أبطالهم إذا رحلوا؛ فمَن يرثيه اليوم من شعرائنا؟ إن من حقِّ محمد قطبة على الشـعراء ـ وخصوصًا الإسلاميين منهم ـ أن يبكوه ويرثوه، ويعرفوا به الشباب الواعد، والجيل الصاعد.

هكذا رأينا شاعرنا الرقيق في ديوانه (مشاعر ومشاعل)، الذي أسعدني بتقديمه للقرَّاء، ورأيناه في غيره من القصائد التي يواكب بها آلام الأمة وآهاتها، وآمالها وطموحاتها. ولا سيما قضية المسلمين الأولى، قضية فلسطين، وصراعها مع الصهيونية العالمية، والصليبية الغربية، فقد خصَّص لها جانبًا كبيرًا من شعره.

أخي الحبيب محمد، لقد فاجأتنا بالرحيل، وفجعتنا بالفراق على غير توقُّع، حتى إني غبتُ عن الدوحة ضحوة من نهار، فعدتُ لأجدك قد وُوريت الثرى، وودَّعت الدنيا، وحُرمت من تشييع جنازتك، والصلاة على جثمانك أيها الحبيب.

وعزاؤنا أن الموت أمر مقدَّر، وأن أجل الله إذا جاء لا يؤخَّر، وأن الموت عند المؤمنين ليس عدمًا محضًا، ولا فناء صرفًا، كما يتوهَّم الماديون، إنما هو فناء للجسد، وانطلاق للروح من قفصه، لتحيا في دار أخرى، وكما قال عمر بن عبد العزيز: إنكم خلقتم للأبد، وإنما تنقلون من دار إلى دار[1]. وقال الشاعر:

وما الموتُ إلا رحلة غيرَ أنَّها من المنزلِ الفاني إلى المنزلِ الباقي!

وقال يحيى بن معاذ: لا يكره الموت إلا مريب[2]، فهو الذي يقرِّب الحبيب من الحبيب.

وحين صرخت امرأة أحد الصحابة ـ وهو يحتضر ـ قائلة: واكرباه. فقال لها: بل قولي: وافرحاه. غدا ألقى الأحبة، محمدًا وصحبه![3].

وعزاؤنا كذلك أنك حيٌّ في قلوبنا التي تحبُّك، وفي ألسنتنا التي بالخير تذكرك. حيٌّ بأعمالك المشكورة، وبسيرتك الطيبة، وبمآثرك المحمودة،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٣٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٨/٥) مطولًا.

(٢) إحياء علوم الدين (٣٣٠/٤).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في (المحتضرين) (٢٩٤)، ومن طريقه ابن عساكر في (تاريخه) (٤٧٥/١٠).

وبذكرك الجميل الذي يعطِّر المجالس، وهذا هو الذي يمنح الإنسان عمرًا بعد عمره، وحياة ممتدة بعد حياته القصيرة.

ولله درُّ شوقي حين قال في رثاء مصطفى كامل:

دقـاتُ قلبِ المـرءِ قائلـةٌ له: إنَّ الـحـيـاةَ دقـائـقٌ وثـوانِ
فارفعْ لنفسكَ بعدَ موتِك ذِكْرَها فالذِّكْـرُ للإنسـانِ عمـرٌ ثـانِ

وعزاؤنا أيضًا، ما رواه أحمد وأبو يعلى وابن حبان: عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يموت، فيشهد له أربعة أهل أبيات من جيرانه الأدنين: أنهم لا يعلمون عنه إلا خيرًا، إلا قال الله: قد قبلتُ علمكم فيه، وغفرتُ له ما لا تعلمون**»[1].

فكيف بمَن شهد له المئات والآلاف من جيرانه الأدنين والأبعدين، ومن كلِّ من عرفه وخالطه؟!.

أخي الحبيب المفارق، إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا محمد لمحزونون، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

اللهم تقبل عبدك ابن عبـدك محمد قطبة في الصالحين، واخلفه في أهله وذريته بخير ما تخلف به عبـادك المؤمنين، واجزه خيرًا عما قدم للإسـلام والمسلمين، واغفر له ما تعلم ولا نعلم فأنت خير الغافرين، وأسكنه الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، واغفر لنا وله يا رب العالمين. آمين.

* * *

---

(١) رواه أحمد (١٣٥٤١) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، والحاكم في الجنائز (٣٧٨/١) وصحح إسناده على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأبو يعلى (٣٤٨١)، وابن حبان في الجنائز (٣٠٢٦) وقال الأرناؤوط: حديث صحيح بشـواهده، وقال الألباني فـي صحيح الترغيب والترهيب (٣٥١٥): حسن لغيره.



الأستاذ عادل حسين
وأخيرًا ترجل فارس الكلمة
(ت: ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م)

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

لا عزاء لنا غير هذه الكلمة الربانية إزاء فواجع الدهر، التي تلاحقنا يومًا بعد يوم، فنفقد عزيزًا، ونودِّع حبيبًا، وننشد بعده قول الشاعر:

أفي كلِّ يــومٍ لي حبيبٌ أودِّعُ؟ فلا أنــا أفقوهُ ولا هــو يرجعُ!

لقد اتصل بي الإخوة في (إسلام أون لاين) بعد ظهر الخميس (١٥ مارس ٢٠٠١م)، وأبلغوني بالنبأ الفاجع الــذي وصلهم في الحال: أن الكاتب المفكِّر المجاهد المعروف عادل حســين، قد ودع الحياة، ولقــي ربه، بعد أن أصابه نزيف حاد، دخل على أثره مستشفى مصطفى كامل بالإسكندرية، ولكن أجل الله إذا جاء لم ينفع دواء، ولم يُغنِ طبُّ الأطباء.

إنَّ الطبيــبَ لَــهُ علمٌ يــدلُّ به ما دامَ في أجلِ الإنســانِ تأخيرُ
حتَّى إذا ما انتهتْ أيــامُ مهلتِهِ حارَ الطبيبُ وخانَتْــهُ العقاقيرُ

وهكذا قُدِّر للفارس المغوار أن يترجَّل، بعد أن عاش سنواته الأخيرة ممتطيًا جواده، حاملًا رمحه، شاهرًا سيفه، متنكبًا قوسه، مالئًا جعبته بما قدر عليه من النبال، يرمي بها عن يمين وشمال، في أكثر من عدو، وأكثر من جبهة معاديــة، وقف لها بالمرصــاد: الجبهة الصهيونيــة وعملائها، والجبهة الصليبية وفروخها، والجبهة الإلحادية ودعاتها، والجبهة العلمانية ورعاتها، وجبهة اللصوصية وحماتها، وجبهة النفاق وحراسها.. وقد فتح

النار على هؤلاء وأولئك، لم يخشَ في الله لومة لائم، ولم يخَف في الحقّ نقمة ظالم.

وقد اتَّخذ من جريدة (الشعب) منبره الذي يطلُّ منه على القرَّاء، واتَّخذ من قلمه سلاحه الذي لم يفل ولم يغمد، وظلَّ يتابع معاركه المتواصلة في سبيل الله والمستضعفين، لا يكاد يخرج من معركة وينفض غباره منها، إلا رأيناه يدخل في معركة أخرى، وكأنه يحمل سيف خالد بن الوليد، أو سيف صلاح الدين الأيوبي!.

ولم يفتَّ في عضده، أو يثنِ من عزمه، أن بعض خصومه الذين ينازلهم، كانوا من رجال السلطة الكبار، ممن يعلم أن ظهره مسنود، وأن أزره مشدود، وأن قلاعه محروسة، ولكنه لم يعبأ بالقلاع ولا بحراسها، ولا بالظهر وحماته، وخاض معركته متوكِّلا على الله، يردِّد بقلبه ولسانه ما كان يردده الخليل إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار: (حسبي الله ونعم الوكيل).

ولقد نصره الله في مواطن كثيرة، لعل أشهرها معركته مع وزير الداخلية الأسبق زكي بدر، الذي استطاع أن يفاجئه ويفاجئ الجميع بنشر خطابه الخطير، الذي تطاول فيه بلسانه البذيء على عدد من أعلام الوطن من كلِّ الفئات، وأحرج الدولة، حتى إنها لم تجد بدًّا من إعفائه من منصبه، وكان ذلك نصرًا لجريدة (الشعب)، ورئيس تحريرها يومئذ عادل حسين.

وكانت آخر معاركه الفاصلة: معركة الرواية الشهيرة (وليمة لأعشاب البحر)، التي هيَّجت الرأي العام المصري من الإسكندرية إلى أسوان، وثار لها طلاب الأزهر وطالباته، ووقف معهم شيخ الأزهر ومدير جامعته ومجمع بحوثه، فقد تجاوزت هذه الرواية الحدود في الطعن في المقدَّسات، وفي قدس الأقداس، الله جل جلاله، والقرآن ومحمد ﷺ، كما خرجت على كلِّ مألوف في رعاية الآداب والأخلاق.

وكانت وقفة جريدة (الشـــعب) ورئيس تحريرها مجدي حســـين، وأشهر محرّريها عادل حســـين، الأمين العام لحزب العمل الاشتراكي وقفة تاريخية، وهي التي ألهبت الشعور المصري العام ضدَّ الرواية وكاتبها، ولا سيما أن الذي تولَّى نشـــرها هو (وزارة الثقافة المصرية)، التي يفترض فيها ألا تنشـــر على الشعب المصري إلا ما يتَّفق مع عقيدته ومسلَّماته الدينية والوطنية.

وقد اعتقل عادل حســـين، وابن أخيه مجدي حســـين، إثر هذه المعركة، وجُمِّد الحزب، وأغلقت الصحيفة، وحُكم على عادل حســـين بغرامة عشرين ألف جنيه، وهو رجل يعيش على الكفاف.

ورغم إنصاف القضاء المصري للحزب وللجريدة، لم تلتزم السلطة بتنفيذ حكم القضاء. والعجيب أن (وزارة الثقافة المصرية) في مرحلتها الراهنة، أمست تتبنَّى ما كانت تنكره على عادل حســـين وإخوانه من قبـــل، وهو ما يُحمد لها ويحسب في ميزانها، وأصبحت تُهاجَم من قبل الكتاب اليساريين والعلمانيين، الذين طالما كالوا لها المديح والإطراء من قبل!.

لقد كان عادل حسين من رجال الفكر والقلم، وقد نذر حياته وقلمه لنصرة الحقّ، والدفاع عن الشعب، وعن الحرية، وإعلاء كلمة الإسلام، والوقوف في وجه القوى المعادية له، المتربصة به. ووفَّى بما وعد، لم ينكص، ولم يهن، ولم يستكن لما أصابه في سبيل الله.

وهو من أسرة اشـــتهرت بالكفاح والجهاد ضدَّ الاســـتعمار والطغيان من قديم، فشقيقه هو الزعيم الوطني الشـــهير أحمد حسين مؤسس (مصر الفتاة) وصاحب المواقف المشهورة في عهد الملكية وعهد الثورة. والشيء من معدنه لا يستغرب، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨].

لقد عرفتُ عادل حسين منذ بضعة عشـــر عامًا، حين زارني لأول مرَّة في منزلي بمدينة نصر بالقاهرة، ومعه صديق عمره ورفيق دربه المستشار والمفكر

المعروف الأستاذ طارق البشـــري، وقد صحبهما إليَّ ليعرفني بهما صديق ثلاثتنا الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي كان من أحرص الناس على التعرُّف إلى كلِّ ذي عقل حـــرٍّ، وكلِّ ذي ضمير حيٍّ، وكلِّ مَن يلمح فيه أن لديه قدرة على خدمة الفكر الإسلامي، والعمل الإسلامي، وتطويره إلى ما هو خير وأمثل.

وعرفت من تاريخ عادل حسين أنه كان ماركسيًّا ملتزمًا، مناضلًا جلدًا عن مبادئها لســـنين عدة، وقد دخل الســـجن وذاق مرارته مع زمـــلاء له في عهد عبد الناصر من أجل الشـــيوعية، التي كان يراها مدافعة عن المستضعفين من العمـــال والفلاحين والطبقات المســـحوقة فـــي المجتمع، وأنهـــا تقف ضد الاستعمار والإمبريالية المستكبرة في الأرض.

فلما أنار الله بصيرته، وشرح صدره، ليقرأ الإسلام من جديد، فيما أنتجته أقلام المجدِّدين الحقيقيين للإسلام: عرَف أن في الإسلام غنية عن الماركسية اليسارية، وعن الليبرالية اليمنية، وأن في تعاليمه القرآنية والنبوية علاجًا لكلِّ مشكلة، ودواء لكلِّ داء، وأن الدفاع الحقَّ عن المستضعفين لا يوجد إلا في الإسلام، الذي يأمر قرآنه بإعلان الجهاد من أجل إنقاذ المستضعفين، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء٧٥].

كما علم أن الاتحاد الســـوفييتي ليس إلا إمبريالية أخرى، لعلها أسوأ من إمبريالية أمريكا ومَن دار في فلكها، وأن الاســـتعمار الشـــرقي الشيوعي أشدُّ خطرًا من الاستعمار الغربي، إذا احتلَّ بلدًا وسيطر عليها.

وكانت عودة عادل حسين إلى فطرته، وإلى جذوره، مما غاظ الماركسيين وآلمهم إيلامًا شديدًا، لأنه أعرف بعيوبهم، وأقدر على الردِّ عليهم بمنطقهم.

لقد حدَّد عادل حسين هدفه، وعرف طريقه، واختار أمَّته التي ينتمي إليها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

وعاش بارًا بهدفه، وفيًا لمنهجه، ذائدًا عن أمَّته، حتَّى اختاره الله تعالى إلى جواره، وأرجو أن يكون قد لقي ربَّه راضيًا مرضيًا.

منذ التقيتُ مع عادل حسين انعقدت بيني وبينه آصرة متينة، وصلة وثيقة، وصداقة حميمة، لم تزدها الأيام إلا قوة وتوثُّقًا، وكلما التقيتُ به في مصر أو خارج مصر، أطلعني على آخر أحواله، من سرَّاء وضرَّاء، وكان كالعهد بأهل الإيمان: في السرَّاء شاكرًا، وفي الضرَّاء صابرًا، لا يجزع ولا يهلع، كما جاء في حديث ثوبان، الذي رواه مسلم في صحيحه: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له**»[1].

وآخر مرة لقيتُه فيها كانت في بيروت، في شهر يناير (٢٠٠١م)، حين جمعنا (مؤتمر القدس العالمي)، الذي ضمَّ المئات من خيرة أبناء العرب والمسلمين، من أجل القدس والمسجد الأقصى. وحرص رَحِمَهُ اللَّهُ - برغم زحمة الأوقات - على أن يلقاني، ويُفضي إليَّ بآخر ما عنده، وكان في غاية الحيوية والحماس والنشاط، وتواعدنا أن نلتقي في أقرب فرصة، فإن لم تتهيَّأ قريبًا، ففي العطلة الصيفية إن شاء الله، ولم أكن أدري، ولا هو يدري: أن هذا هو آخر لقاء في هذه الدنيا، ولعل الله تعالى يجمعنا بفضله ورحمته في دار النعيم.

لقد كان عادل حسين طرازًا نادرًا من الرجال الواعين لرسالتهم وموقفهم، العارفين بأعداء دينهم ووطنهم، المرابطين على الثغور، ولا يولون الأدبار،

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٧٦٩٢)، وأحمد (١٨٩٣٤)، عن صهيب.

الذين جمعـــوا بين العقل الحـــرِّ، والقلب الحـــيِّ، والإرادة الصادقة، والخلق المستقيم، والصبر على مرارة الكفاح في سبيل عقيدته، وكأنما كان شعاره قول شوقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قفْ دونَ رأيِكَ في الحياةِ مجاهدًا إنَّ الحيـــاةَ عقيـــدةٌ وجهـــادُ

رحم الله أخي وصديقي عادل حسين، وغفر له، وأسكنه الفردوس الأعلى، وتقبَّلـــه في المتقين من عباده، وحشـــره مـــع الذين أنعم عليهم مـــن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

وعوض الله الأمة عنه خيرًا، وخلفـــه في أهله وذويه بخير ما يخلف عباده الصالحين.

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *



الأستاذ أنور الجندي

راهب الثقافة والفكر

(١٣٣٥ ـ ١٤٢٢هـ =١٩١٧ ـ ٢٠٠٢م)

علمت بالأمس أن الكاتب الإسلامي المرموق الأستاذ أنور الجندي قد وافاه الأجل المحتوم، وانتقل إلى جوار ربه، منذ يوم الاثنين الماضي (٢٠٠٢/١/٢٨م)، بلَّغني ذلك أحد إخواني، فقلت: يا سبحان الله، يموت مثل هذا الكاتب الكبير، المعروف بغزارة الإنتاج، وبالتفرغ الكامل للكتابة والعلم، والذي سخَّر قلمه لخدمة الإسلام وثقافته وحضارته ودعوته وأمته أكثر من نصف قرن، ولا يعرف موته إلا بعد عدة أيام، لا تكتب عنه صحيفة، ولا تتحدث عنه إذاعة، ولا يعرِّف به تلفاز، كأن الرجل لم يخلف وراءه ثروة طائلة من الكتب والموسوعات، في مختلف آفاق الثقافة العربية والإسلامية، وقد كان عضوًا عاملًا بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، ومن أوائل الأعضاء في نقابة الصحفيين، وقد حصل على جائزة الدولة التقديرية سنة (١٩٦٠م).

لو كان أنور الجندي مطربًا أو ممثلًا لامتلأت أنهار الصحف بالحديث عنه، والتنويه بشأنه، والثناء على منجزاته الفنية.

ولو كان لاعب كرة لتحدثت عنه الأوساط الرياضية وغير الرياضية، وكيف خسرت الرياضة بموته فارسًا من فرسانها، بل كيف خسرت الأمة كلها بموته نجمًا من نجومها؛ ذلك أن أمتنا تؤمن بعبقرية (القدم) ولا تؤمن بعبقرية (القلم).

مسكين أنور الجندي! لقد ظلمته أمته ميتًا، كما ظلمته حيًّا، فلم يكن الرجل ممن يسعون للظهور وتسليط الأضواء عليه، كما يفعل الكثيرون من عشاق الأضواء الباهرة، بل عاش الرجل عمره راهبًا في صومعة العلم والثقافة،

يقرأ ويكتب ولا يبتغي من أحد جزاء ولا شكورًا، كأنما يقول ما قال رسل الله الكرام: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

منذ كنت طالبًا في القسم الثانوي بالأزهر، وأنا أقرأ لأنور الجندي في القضايا الإسلامية المختلفة، ومن أوائل ما قرأت له: كتاب بعنوان (كفاح الذبيحين فلسطين والمغرب) وكتاب (عن قائد الدعوة) يعني: حسن البنا الذي طوره فيما بعد وأمسى كتابًا كبيرًا في حوالي ستمئة صفحة، سماه: (حسن البنا: الداعية المجدد والإمام الشهيد)، وقد طبعته دار القلم بدمشق عدة طبعات، في سلسلتها (أعلام المسلمين) وافتتحت به سلسلتها. وكان حسن البنا هو الذي دفعه إلى الكتابة، فقد كان في رحلة حج معه، وطلب منه أن يكتب خاطرة، فقرأها، فأعجبته فشجعه، وأثنى على قلمه، وحرضه على الاستمرار في الكتابة.

وكان من كتبه الأولى (اخرجوا من بلادنا) يخاطب الإنكليز المحتلين، وقد علمت أن الكتاب كان سببًا في سجنه واعتقاله لعدة أيام في عهد الملك فاروق، ثم أفرج عنه.

وللأستاذ أنور الجندي كتب كثيرة تقارب المئة كتاب، بعضها موسوعات، مثل كتابه: (مقدمات المناهج والعلوم)، الذي نشرته دار الأنصار بالقاهرة، بلغت مجلداته عشرة من القطع الكبير. وموسوعته (في دائرة الضوء) قالوا: إنها من خمسين جزءًا. ومن أهم كتبه: (أسلمة المعرفة)، (نقد مناهج الغرب)، (أخطاء المنهج الغربي الوافد)، (الضربات التي وجهت للأمة الإسلامية)، (اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار)، (تاريخ الصحافة الإسلامية).

وكان آخر ما نشره كتاب (نجم الإسلام لا يزال يصعد).

كان الأستاذ أنور الجندي يميل في كتاباته إلى التسهيل والتبسيط، وتقريب الثقافة العامة لجمهور المتعلمين دون تقعر أو تفيهق أو جنوح إلى الإغراب والتعقيد، فكان أسلوبه سهلًا واضحًا مشرقًا.

وكان الأستاذ الجندي لا يميل إلى التحقيق والتوثيق العلمي، فلم تكن هذه مهمته، ولم يكن هذا شأنه، ولذلك لا ينبغي أن يؤخذ عليه أنه لا يذكر مراجع ما ينقله من معلومات، ولا يوثقها أدنى توثيق، فإنه لم يلتزم بذلك ولم يدعه، وكل إنسان يحاسب على المنهج الذي ارتضاه لنفسه، هل وفى به وأعطاه حقه أو لا؟.

أما لماذا لم يأخذ بالمنهج العلمي؟ ألعجز منه أو لكسل، أو لرؤية خاصة تبناها وسار على نهجها؟.

يبدو أن هذا الاحتمال الأخير هو الأقرب، وذلك أنه لم يكن يكتب للعلماء والمتخصصين، بل كان أكثر ما يكتبه للشباب، حتى إنه حين كتب موسوعته الإسلامية التي سماها (معلمة الإسلام) وجمع فيها (٩٩) مصطلحًا في مختلف أبواب الثقافة والحضارة، والعلوم والفنون، والآداب والشرائع، جعل عنوان مقدمة هذه المعلمة: (إلى شباب الإسلام) وقال في بدايتها: «الحديث في هذه المعلمة موجه إلى شباب الإسلام والعرب، فهم عدة الوطن الكبير، وجيل الغد الحافل بمسؤولياته وتبعاته، وهم الذين سوف يحملون أمانة الدفاع عن هذه العقيدة في مواجهة الأخطار التي تحيط بها من كل جانب، فمن حقهم على جيلنا أن يقدم لهم خلاصة ما وصل إليه من فكر وتجربة.. وأن نعبد لهم الطريق إلى الغاية المرتجاة.. هذه مسؤوليتنا إزاءهم، فإذا لم نقم بها كنا آثمين، وكان علينا تبعة التقصير».

وأعتقد أن كتبه قد آتت أكلها في تثقيف الشباب المسلم، وتحصينهم من الهجمات الثقافية الغربية المادية والعلمانية التي لا ترضى إلا بأن تقتلعهم من جذورهم وأصالتهم.

كان الأستاذ الجندي زاهدًا في الدنيا وزخرفها، قانعًا بالقليل من الرزق، راضيًا بما قسم الله له، لا يطمع أن يكون له قصر ولا سيارة، حسبه أن

يعيش مكتفيًا مستورًا، وكان بهذا من أغنى الناس، كان كما قال علي كرم الله وجهه:

يعزُّ غنـــيُّ النفسِ إن قـــلَّ مالُه ويغنـــى غنيُّ المـــالِ وهو ذليلُ

وكما قال أبو فراس:

إنَّ الغنـــيَّ هـــو الغنيُّ بنفسِـــهِ ولو أنه عـــاري المناكبِ حافِ
مـــا كلُّ ما فوقَ البســـيطةِ كافيًا وإذا قنعتَ فبعضُ شـــيءٍ كافِ

وكان أربه من الدنيا محدودًا، فليس له من الأولاد إلا ابنة واحدة، تعلمت في الأزهر، وحصلت على إجازة (ليسانس) في الدراسات الإسلامية من جامعة الأزهر، وكانت رغباته تنحصر في أن يقرأ ويكتب وينشر ما يكتب، كما سئل أحد علماء الســـلف: فيم ســـعادتك؟ قال: في حُجَّة تتبختر اتضاحًا، وشـــبهة تتضاءل افتضاحًا.

حكى الأخ الأديب الداعية الشيخ عبد السلام البسيوني أنه ذهب إلى القاهـــرة مع فريق من تليفزيـــون قطر ليجري حوارًا مع عـــدد من العلماء والدعاة، كان الأستاذ أنور منهم أو في طليعتهم، ولم يجد في منزله الذي يسكنه مكانًا يصلح للتصوير فيه، فقد كان في حي شعبي مليء بالضجيج، وكان المنزل ضيقًا مشغولًا بالكتب في كل مكان، فاقترح عليه أن يجري الحوار معه في الفندق، وبعـــد أن انتهى الحوار، تقدم مدير الإنتاج بمبلغ من المال يقول له: نرجو يا أستاذ أن تقبل هذا المبلغ الرمزي مكافأة منا، وان كان دون ما تســـتحق. فإذا بالرجل يرفض رفضًا حاســـمًا ويقول: أنا قابلتكم، وليس في نيتي أن آخذ مكافأة، ولست مستعدًّا أن أغير نيتي، ولم أقدم شيئًا يستحق المكافأة.

قالوا له: هذا ليس من جيوبنا إنه مـــن الدولة.. وأصر الرجل على موقفه، وأبى أن يأخذ فلسًا!.

وكان الأستاذ الجندي يكتب مقالات في مجلة (منار الإسلام) في أبو ظبي، وفوجئ القراء يومًا بإعلان في المجلة يناشد الأستاذ أنور الجندي أن يبعث إلى إدارة المجلة بعنوانه لترسل إليه مستحقات له تأخرت لديها، ومعنى هذا أنه لا يطلب ما يستحق، ناهيك أن يلح في الطلب كالآخرين.

كان رجلًا ربانيًا، ومن دلائل ربانيته ما ذكرته ابنته عنه أنه كان يحب أن يكون متوضئًا دائمًا فيأكل وهو متوضئ، ويكتب وهو متوضئ، وكان ينام بعد العشاء، ثم يستيقظ قبل الفجر ليصلي التهجد، ويصلي الفجر، ثم ينام ساعتين بعد الفجر، ويقوم ليقضي بعض حاجات البيت بنفسه.

وكان يخدم الجيران، ويملأ لهم (جرادل) الماء إذا انقطع الماء، ويضعها أمام شققهم.

وكان للأستاذ أنور الجندي من اسمه نصيب أي نصيب، فكانت حياته وعطاؤه وإنتاجه تدور حول محورين: النور ـ أو التنوير ـ والجندية.

فقد ظل منذ أمسك بالقلم يحمل مشعل (النور) أو (التنوير) للأمة، وأنا أقصد هنا: التنوير الحقيقي، لا (التزوير) الذي يسمونه (التنوير).

فالتنوير الحقيقي هو الذي يرد الأمة إلى النور الحق الذي هو أصل كل نور، وهو نور الله تعالى ممد الكون كله بالنور، وممد قلوب المؤمنين بالنور: نور الفطرة والعقل، ونور الإيمان والوحي: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

وكان أهم معالم هذا التنوير: مقاومة التغريب والغزو الفكري، الذي يسلخ الأمة من جلدها ويحاول تغيير وجهتها، وتبديل هويتها، وإلغاء صبغتها الربانية: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

وكان واقفًا بالمرصاد لكل دعاة التغريب، يكشف زيفهم، ويهتك سترهم، وإن بلغوا من المكانة ما بلغوا، حتى رد على طه حسين، وغيره من أصحاب السلطان الأدبي والسياسي.

وقال الجندي يومًا عن نفسه: أنا محام في قضية الحكم بكتاب الله، ما زلت موكلًا فيها منذ بضع وأربعين سنة، حيث أعدُّ لها الدفوع، وأقدم المذكرات، بتكليف بعقد وبيعة إلى الحق تبارك وتعالى، وعهد على بيع النفس لله، والجنة ـ سلعة الله الغالية ـ هي الثمن لهذا التكليف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

كان النور والتنوير غايته ورسالته، وكانت الجندية وظيفته ووسيلته، لقد عاش في هذه الحياة (جنديًا) لفكرته ورسالته، فلم يكن جندي منفعة وغنيمة، بل كان جندي عقيدة وفكرة. لم يجر خلف بريق الشهرة، ولم يسع لكسب المال والثروة أو الجاه والمنزلة، وإنما كان أكبر همه أن يعمل في هدوء، وأن ينتج في صمت، وألا يبحث عن الضجيج والفرقعات، تاركًا هذه لمن يريدونها ويلهثون وراءها.

كان الأستاذ أنور الجندي يحرص على أن يكون جنديًا يعمل في الصفوف الخلفية، لا يسعى لأن يكون قائدًا يشار إليه بالبنان، وكان همه أن يكون (جنديًا مجهولًا) يعمل حيث لا يراه الناس، بل حيث يراه الله، فهو وليه ونصيره، وكفى بالله وليًا، وكفى بالله نصيرًا.

كان الأستاذ الجندي من الإخوان المسلمين من قديم، وممن رافق الإمام البنا مبكرًا، وممن كتبوا في مجلات الإخوان في الأربعينيات من القرن العشرين، ولكن الله تبارك وتعالى نجاه من كروب المحن التي حاقت بالإخوان قبل ثورة تموز/ يوليو وما بعدها، فلم يدخل معتقل الطور أيام النقراشي وعبد الهادي، ولم يدخل السجن الحربي أيام عبد الناصر، بل حصل على جائزة الدولة التقديرية في عهده، على حين لم ينلها أحد ممن كانت له صلة بالإخوان.

وربما كانت طبيعته الهادئة، وعمله الصامت، وأدبه الجم، وتواضعه العجيب، وبعده عن النشاط العلني في تنظيم الإخوان: سببًا في نجاته من هذه المعتقلات، خصوصًا في عهد الثورة.

كتب الأستاذ أنور الجندي في فترة المحنة في عهد عبد الناصر في بعض المجلات غير الإسلامية تراجم لقادة التحرر والثورة من ذوي التوجه الديني، أمثال: عمر المختار في ليبيا، وعبد الكريم الخطابي في المغرب، وذلك في مجلة (المجتمع العربي) المصرية في فترة الخمسينيات والستينيات. ويقول عن هذه الفترة: «لقد كان إيماني أن يكون هناك صوت متصل ـ وان لم يكن مرتفعًا بالقدر الكافي ـ ليقول كلمة الإسلام ولو تحت أي اسم آخر، ولم يكن مطلوبًا من أصحاب الدعوات أن يصمتوا جميعًا وراء الأسوار»[1].

في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، سعدت بلقاء الأستاذ الجندي في الجزائر العاصمة، في أحد ملتقيات الفكر الإسلامي، وهي أول مرة ألقاه وجهًا لوجه ـ بعد أن كنت رأيته مرة بالمركز العام للإخوان مع الأستاذ البنا، سنة (١٩٤٧م) على ما أذكر ـ فوجدته رجلًا مخلصًا متواضعًا، خافض الجناح، ظاهر الصلاح، نير الإصباح.

وقد أرسلنا منظمو الملتقى إلى أحد المساجد في ضواحي العاصمة هو وأنا، وأردت أن أقدمه ليتحدث أولًا، فأبى بشدة، وألقيت كلمتي ثم قدمته للناس بما يليق به، فسر بذلك سرورًا بالغًا.

وبعد حديثه في هذه الضاحية تحدثت معه: لماذا لا يظهر للناس، ويتحدث إليهم بما أفاء الله عليه من علم وثقافة؟ فقال: أنا رجل صنعتي القلم، ولا أحسن الخطابة والحديث إلى الناس، فأنا لم أتعود مواجهة الجمهور، وإنما عشت أواجه الكتب والمكتبة، وليس كل الناس مثلك ومثل الشيخ الغزالي ممن آتاهم الله موهبة الكتابة، وموهبة الخطابة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) شهادة العصر والتاريخ، ص ٦٧.

فقلت له: ولكن من حق جمهور المسلمين أن ينتفعوا بثمرات قلمك، وقراءاتك المتنوعة، فتضيف إليهم جديدًا، وتعطيهم مزيدًا.

فقال: كل مُيَسَّر لما خُلق له.

وفي السنوات الأخيرة حين وهن العظم منه، وتراكمت عليه متاعب السنين وزاد من متاعبه وآلامه في شيخوخته ما رآه من صدود ونسيان من المجتمع من حوله، كأنما لم يقضِ حياته في خدمة أمته، ولم يُذِبْ شموع عمره في إحيائها، وتجديد شبابها، وكأنما لم يجعل من نفسه حارسًا لهويتها وثقافتها، مدافعًا عن أصالتها أمام هجمات القوى المعادية غربية وشرقية، ليبرالية وماركسية.

عاش الأستاذ الجندي سنواته الأخيرة جليس بيته، وطريح فراشه، يشكو بثه وحزنه إلى الله كما شكا يعقوب عليه السلام، يشكو من سقم جسمه، ويشكو أكثر من صنيع قومه معه، الذين كثيرًا ما قدموا النكرات، ومنحوا العطايا للإمعات، كما يشكو من إعراض إخوانه الذين نسوه في ساعة العسرة، وأيام الأزمة والشدة، والذين حُرم ودهم وبرهم أحوج ما كان إليه، مرددًا قول الإمام علي رضي الله عنه، فيما نسب إليه من شعر:

ولا خيرَ في ودِّ امرئٍ متلوِّنٍ ... إذا الريحُ مالتْ مالَ حيث تميلُ

جوادٌ إذا استغْنَيْتَ عن أخذِ مالِهِ ... وعند زوالِ المالِ عنك بخيلُ

فما أكثرَ الإخوانَ حين تعدُّهم ... ولكنَّهم في النائباتِ قليلُ

ومنذ أشهر قلائل اتصلت بي ابنته الوحيدة من القاهرة، وأبلغتني تحيات والدها الذي أقعده المرض عن الحركة، وهو يعيش وحيدًا لا يكاد يراه أحد، أو يسأل عنه أحد بالرغم من عطائه الموصول طول عمره لدينه ووطنه وأمته العربية والإسلامية. وكانت كلماتها كأنها سهام حادة، اخترقت صدري، وأصابت صميم قلبي، وطلبت منها أن تبلغه أعطر تحياتي، وأبلغ تمنياتي،

وأخلص دعواتي له بالصحة والعافية، وعزمت زيارته في أول فرصة أنزل فيها إلى مصر بإذن الله.

وقد بعثت إليه في أول فرصة سكرتيري الخاص الأخ عصام تليمة يحمل إليه رسالة مني، أحييه، وأواسيه، وأشد من أزره في محنته التي يعانيها وحده.

وقد اتصلت بي ابنته بعدها هاتفيًا من القاهرة، وقالت لي: إن والدي يشكرك كل الشكر على هذه الرسالة الأخوية الرقيقة، وإننا قرأناها، وأعيننا تفيض من الدمع، تأثرًا بما جاء فيها ومعها. وقلت لها: إني لم أفعل شيئًا سوى بعض الواجب علي وعلى غيري نحو الأستاذ، وحقه على الأمة أكبر.. وعسى أن تتاح لي الفرصة لأعوده في مرضه، وأزوره في بيته. وشاء الله جلت حكمته أن يتوفاه إليه قبل أن تتحقق هذه الزيارة، وأن يلقى ربه ـ إن شاء الله ـ راضيًا مرضيًا.

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

رحم الله أنور الجندي، وغفر له، وتقبله في الصالحين، وجزاه عن دينه وأمته خير ما يجزي به العلماء والدعاة الصادقين، الذين أخلصهم الله لدينه، وأخلصوا دينهم لله.

* * *

نص رسالتي الأخيرة التي أرسلتها للأستاذ أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الكبير الأستاذ أنور الجندي حفظه الله ورعاه.

أحمد إليك الله ﷻ، وأصلي وأسلم على رسوله الكريم، وأحييك بتحية الإسلام، تحية من عند الله مباركة طيبة، فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وأرجو الله تعالى أن تكون بخير في دينك ودنياك.

أما بعد:

فأنتهز هذه الفرصة لأهنئكم بعيد الفطر المبارك، سائلًا الله سبحانه أن يُهلَّه عليكم وعلينا وعلى أمتنا الكبرى بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما يحب ويرضى، وأن يكشف الغمة عن هذه الأمة التي تكالب عليها الأعداء من كل جانب، وتداعت عليها الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، من الصهيونية وحلفائها، من الصليبيين والوثنيين والشيوعيين، فلا نملك إلا أن ندعو الله ربنا أن يفتح لهذه الأمة فتحًا مبينًا، ويهديها صراطًا مستقيمًا، وينصرها نصرًا عزيزًا.

أخي الكبير، لا أريد أن أزيدك همًّا على همك، وأنت في فراشك، ولكني أعتذر إليك لتقصيرنا معك، وأنت رجل لك حق على الأمة كلها، وعلى علمائها ودعاتها خاصة، بما بذلت لها من فكرك وقلمك وجهدك، طوال حياة حافلة بالعطاء الثري، لتنوير العقول، وإحياء القلوب، وإيقاظ الهمم، وكنت كالفرسان الأُصلاء، تغشى الوغى وتعف عند المغنم، تعطي أبدًا، ولا تأخذ، وتضحي، ولا تستفيد،

بمعزل عن المكاسب المادية، وبعيدًا عن الأضواء، بل حرصت على أن تبقى في الظل مترهبًا في صومعتك، عاكفًا على مراجعك، مخلصًا في وجهتك، مكبًا على عملك، لتخرج للأمة بين الحين والحين ما ينفع الناس ويمكث في الأرض.

وأحب أن أطمئنك يا أخي أن هذه الجهود التي قدمتها لن تضيع عند الله تعالى، ولا عند أولي الألباب من هذه الأمة وذوي الفضل فيها، كما قال الشاعر العربي:

وليسَ يعرفُ لي فَضْلي ولا أَدَبي إلَّا امرؤٌ كان ذا فضلٍ وذا أدبِ!

وأود أن أبلغك تحيات الكثيرين هنا من حولي، ممن يعرفون قدرك، ويذكرون فضلك، من إخوانك وأبنائك الأوفياء، وهم كثر والحمد لله، على قلة الوفاء في هذا الزمان.

لا أملك في ختام هذه الرسالة إلا أن أدعو الله تعالى أن يتم عليك نعمته، وينزل في قلبك سكينته، وينشر عليكم فضله ورحمته، ويمتعكم بعافية الدين والدنيا.

وتحياتي الخاصة إلى ابنتكم العزيزة، وإلى كل من تحب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٢٠ رمضان ١٤٢٢هـ

أخوكم

يوسف القرضاوي

٢٠٠١/١٢/٥م



العلَّامة أحمد بن حجر آل بوطامي

القاضي الفقيه الداعية المعلم

(حوالي ١٣٣٣ ـ ١٤٢٣هـ = ١٩١٥ ـ ٢٠٠٢م)

الشيخ أحمد بن حجر أحد العلماء العاملين، والدعاة الصادقين في دعوتهم إلى الله، عاش عمره للعلم وللدعوة، وللقضاء وللتعليم وللإفتاء، وكان سلفي العقيدة، عالمًا بالشريعة، قاضيًا بالحق، هكذا عرفه كل من عاشره واتصل به.

وهو أحد المؤسسين للقضاء الشرعي في قطر بعد العلَّامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود (رئيس المحاكم الشرعية وقاضي قطر الأول).

عرَفتُ العالم العامل، والقاضيَ الفاضل، الشيخَ أحمد بن حجر منذ قدم إلى قطر، منذ نحو سبع وثلاثين سنة، وعرَفه كذلك الخاصَّة والعامَّة، من علماء المسلمين المشـــهود لهم بالعلم والعمل، والغيرة على الإسلام، والدفاع عن عقيدته وشريعته، وعن قرآنه وسنَّة نبيِّه ﷺ.

كما عرَفتُ من مزاياه: أنه رجل طُلَعة، يحبُّ القراءة، ويحرص على الاطِّلاع، ولا يدَّعي أنه عرَف كلَّ شيء، بل يطبِّق ما قاله السلف: اطلب العلم من المهد إلى اللحد. ولا يزال المرء عالمًا ما طلب العلم، فإذا ظنَّ أنه علم فقد جهل.

لا يســـمع بكتاب علميٍّ له قيمة ظهر في السوق إلا سارع إلى اقتنائه، ولذا تجد مكتبته عامرةً بالكتب، حافلةً بالمراجع القيِّمة، في كلِّ جوانب المعرفة الإسلامية.

وقد عاش العلَّامةُ الشيخُ ابن حجر طوال عمره في خدمة الإسلام، قاضيًا يحكم بالشـــرع، وخطيبًا يصْدَعُ بالحقّ، ومصنِّفًا يطارد الباطل، فقد جنّد قلمه

كما جنَّد لسانه لبيان المعارف الشرعية الصحيحة، والردِّ على أباطيل خصوم العقيدةِ والشريعة، يفنِّد الشبهات، ويدحض المفتريات، ويتعقَّب المنحرفين، يكشف سِترهم ويفضح زيفهم.

هكذا رأيناه يردُّ على مَنْ تطاول على عقيدة السلف.

يردُّ على القاديانية ونِحلتها الضالَّة.

ويردُّ على مَن زعم أن الرسول ﷺ كان يقرأ ويكتب في أواخر حياته.

ويردُّ على مَن دعا إلى التمذهب والتعصب والتقليد.

ويردُّ على مَن لعن الصحابة والتابعين.

وبلغت مؤلفاته ثمانية وعشرين مؤلفًا، بعضها في تصحيح العقيدة، وبعضها في فقه الشريعة، وبعضها في الدعوة، منها: الدُّرر السنية في عقد أهل السنة المرضية (منظومة)، جوهرة الفرائض (منظومة)، اللآلئ السَّنِيَّة في التوحيد والنهضة والأخلاق المَرْضِية (منظومة)، شرح العقائد السلفية بأدلتها العقلية والنقلية، تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران، الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب، الرد الشافي الوافر على من نفى أُمِّيَّة سيد الأوائل والأواخر... وغيرها. وقد قدمت له كتاب (القول المجتبى في تحريم الربا).

شاء الله للشيخ ابن حجر أن يقضي السنوات الأخيرة من عمره على فراش المرض، وافته المنية صباح الثلاثاء الخامس من جمادى الأولى سنة (١٤٢٣هـ) الموافق (٢٠٠٢/٦/١٤م) عن عمر ناهز ثمانية وثمانين عامًا، والألسنة تثني عليه، وتدعو له، وتترحم عليه، والكل يقول: رحمه الله رحمة واسعة، وتقبله في الصادقين الصالحين، والعلماء العاملين، والدعاة الربانيين، وجزاه الله عن العلم، وعن الإسلام، وعن قطر، خير ما يجزي به المؤمنين الصادقين.

* * *



الدكتور عبد الله شحاتة

العالم الرباني

(حوالي ١٣٤٩ ـ ١٤٢٣ ـ ١٩٣٠ ـ ٢٠٠٢م)

وفي (٢٠ يونيو ٢٠٠٢م)، ودعنا أحد إخواننا الأحبة، كان ملء السمع والبصر والفؤاد، وطالما أطل على الناس في الفضائية المصرية في برنامجه المحبب (دنيا ودين)، ذلكم هو العالم العامل الرباني الداعية الأخ الحبيب الشيخ الدكتور عبد الله شحاتة.

كان الدكتور عبد الله شحاتة أستاذًا للتفسير، وأستاذًا في الدراسات الإسلامية بصفة عامة في كلية دار العلوم، وأُعير إلى عدد من البلاد العربية، وكان له إسهامه الواضح في الدعوة إلى الله.

كان يخطب في مسجد الإمام الشافعي لمدة طويلة من الزمن، ثم صار يخطب في مساجد أخرى، وفي آخر حياته كان يخطب في المقطم إلى أن توفاه الله تبارك وتعالى.

شارك في العديد من الأنشطة الدعوية والثقافية والعلمية، ومنها مشاركته في برنامج (تفسير القرآن) الذي سعدتُ بالمشاركة فيه أيضًا.

وكان الدكتور عبد الله شحاتة في سنواته الأخيرة يطل على الناس من برنامجه الشهير المحبب (دنيا ودين)، وقد عرَف الناس في هذا الرجل الطيبة، والدماثة، وحسن الخلق، فكان رجلًا هَيْنًا لَيْنًا سمحًا، كريمًا مُيسَّرًا مُيسِّرًا. هكذا عرفه الناس من خلال برنامجه، وعرفه أكثر مَن عاشروه، فلم يجدوا فيه إلا الفضل وحسن الخلق.

وهكذا عرفته من لقاءاتي القليلة معه، عرفتُه رجلًا محبَّبًا إلى الناس، وإذا أراد الله بامرئ خيرًا جعله محببًا إلى خلقــه، ينادي جبريل في الناس: «**إن الله أحبَّ فلانًا فأحبوه**»[1]. وكان هذا الرجل محبَّبًا عند خلق الله.

نســأل الله تبارك وتعالى أن يرحمه رحمة واسعة، وأن يتقبله في عباده الصالحين، وأن يسكنه الفردوس الأعلى، وأن يخلفه في أهله وذريته بخير، وأن يجزيه خير ما يجزي العلماء العاملين والدعاة الصادقين، وأن يحشره في زمرة النبيين والصديقين والشــهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، وأن يعوِّض الأمة خيرًا. آمين.

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٨٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٣٧)، عن أبي هريرة.



الأستاذ مصطفى مشهور
المرشد الخامس لجماعة الإخوان المسلمين
(١٣٤٠ ـ ١٤٢٣هـ ـ ١٩٢١ ـ ٢٠٠٢م)

الأخ الفاضل، والأستاذ المربّي مصطفى مشهور، من مواليد محافظة الشرقية، من عائلة عريقة، كان والده الحاج مشهور يحرص كل الحرص على تحفيظ ابنه مصطفى وإخوانه القرآن الكريم، وملازمة المسجد.

بعد أن أتم مصطفى دراسته الابتدائية، انتقل إلى مدرسة العباسية الثانوية بالقاهرة، ثم التحق بكلية العلوم بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليًا)، وتخرج فيها بدرجة جيد جدًا سنة (١٩٤٣م)، وتخصَّص في العلوم الفلكية، والتحق بمصلحة الأرصاد الجوية، وفي سنة (١٩٤٥م) تزوج من ابنة عمه، التي فاجأها بقوله: «إن زوجتي الأولى هي (الدعوة) وأنت الزوجة الثانية، فلا تغاري منها إذا تأخرت أو شغلتُ بسببها عنك». فكان جوابها: «وأنا خادمتها».

- **تعرفه على جماعة بالإخوان:**

رأى الأستاذ مصطفى أحد المصلين يوزع مجلة (التعارف)، في الحي الذي كان يسكن فيه في القاهرة، وسمعه يدعو الناس إلى درس في الحي، فحضر ذلك الدرس، وسمع أحد الإخوان يتحدث عن الإسلام حديثًا أعجبه، وبعد الدرس أعلن المتحدث أن الأستاذ حسن البنا سيعطي دروسًا كل يوم ثلاثاء في المركز العام للإخوان المسلمين في منطقة الحلمية، فذهب إلى هناك، وحضر درس الثلاثاء للبنا، فأعجب بحديثه، وحرص على المداومة على حضور الدرس كل أسبوع، التحق مشهور بدعوة الإخوان سنة (١٩٣٦م)، وكان عمره آنذاك خمسة عشر عامًا، ومنذئذ التحم كيانه كله في جسم

الجماعة فما فارقها لحظة واحدة في عسر ولا في يسر، وعاش بجسمه وروحه سراءها وضراءها.

• **حادث سيارة الجيب:**

وقع هذا الحادث عندما تم ضبط سيارة جيب فيها أوراق خطيرة تتعلق بالنظام الخاص في الإخوان، وما يخطط له من تدبير انقلاب لنظام الحكم الملكي المصري، وتحويله إلى نظام شورى إسلامي، وقد هرب الذي كان يقود السيارة، ولكن الأوراق كشفت كل شيء.

وقد طنطنت الصحف ـ على عادتها ـ بهذه الواقعة، وشنعت على الإخوان باعتبارهم إرهابيين يعملون على قلب نظام الحكم بالقوة، ولو أنهم نجحوا في تدبيرهم لأصبحوا أبطالًا، ونثرت لهم الزهور، ووضعت على رؤوسهم التيجان، واعتبروا محرِّرين للوطن، ومنقذين للأمة، وتسابق رجال القانون الدستوري يبررون عملهم هذا في ضوء (الفقه الثوري) كما حدث لرجال ثورة يوليو من بعد.

ولكن لأنهم لم ينجحوا، صوبت لهم السهام من كل جانب، وسمي عملهم هذا تخريبًا وإرهابًا وعنفًا، وجريمة يعاقب عليها القانون. وصدق الشاعر الجاهلي حين قال:

والناسُ من يلقَ خيرًا قائلون له ما يشتهي، ولأمِّ المخطئ الهَبَلُ!

وقد اتهم فيها عدد من الأفراد، أكثر من ثلاثين شخصًا، سيقوا إلى السجن، ثم إلى محاكمة مدنية برئاسة المستشار أحمد بك كامل، وكان من بين المتهمين فيها الأستاذ مصطفى مشهور، وقد أصدرت المحكمة فيها حكمًا تاريخيًّا، برأ أكثرية المتهمين، وحكم على أفراد قليلين منهم بأحكام مخففة، ما بين سنة وثلاث سنوات، وكان من بين المحكوم بثلاث سنوات الأستاذ مشهور، ولكن الشيء المهم في الحكم: أنه أنصف الإخوان بوصفهم جماعة

إسلامية وطنية. وأبرز دورهم الوطني والجهادي في مصر وفلسطين، ودورهم الثقافي والاجتماعي في خدمة مصر، كما جاء في حيثيات الحكم.

ثم كانت المفاجأة أن انضم رئيس المحكمة المستشار الكبير أحمد كامل بعد ذلك إلى الإخوان، ونشـرت ذلك الصحف بالخط العريض: حاكمهم ثم انضم إليهم!.

وكان هذا أول اعتقال للأسـتاذ مصطفى، واعتقل مرة ثانية سنة (١٩٥٤م)، بعد حادثة المنشية المفتعلة، ثم أفرج عنه سنة (١٩٦٤م) بعد قضاء فترة السجن عشر سنوات، وبعد أقل من سـنة أعيد اعتقاله مرة ثانية سنة (١٩٦٥م)، وأفرج عنه سنة (١٩٧١م).

يقول الأسـتاذ مصطفى مشـهور: «في يونيو (١٩٥٤م) أُبعدت عن العمل المهني إلى (مرسى مطروح)، ثم وقع حادث المنشية المفتعل، فاعتُقلتُ بعدَ أسبوعين، وأُحضرت من (مرسى مطروح) إلى السجن الحربي، وكان التعذيب شديدًا بمجرد الدخول من باب السجن.

عُذبتُ كثيرًا في السجن الحربي، وشكَّلوا محكمة لمحاكمتي لم تستغرق أكثر من ثلاث دقائق، وحكموا عليَّ بعشر سـنوات أشغال شاقة. بعد الحكم نقلوني إلى (ليمان طـرة) ثم أبعدوا عن الليمان عـددًا من الإخوان ـ وكنت منهم ـ إلى سجن (الواحات) الخارجية، وكان السجن عبارة عن خيام محاطة بالحرس، وبسـلك شـائك، ومفتوحة طول الليل والنهار، وكان الجو صعبًا، فتأقلمنا معه، وكان ذلك سنة (١٩٥٥م).

وقبل انتهاء مدتي بسـتة أشـهر، أخلوا السـجن، فرحلوني إلى أسيوط فقضيت بها المدة المتبقية، وخرجت سنة (١٩٦٤م).

وفي سـنة (١٩٦٥م) افتعل عبد الناصر محنة سـيد قطب ومحمد يوسف هواش وعبد الفتاح إسماعيل، وأصدر مرسومًا باعتقال كلِّ من سبق اعتقاله،

وأذاعه من موسكو، حيث كان في زيارة لروسيا، وأقام المحاكم العسكرية، وحُكم بالإعدام على سيد قطب، ومحمد يوسف هواش، وعبد الفتاح إسماعيل، وعلى الآخرين بأحكام المؤبد والسنوات، وكنت ممن اعتُقلوا في يوليو سنة (١٩٦٥م)، وبقيت في السجن إلى ما بعد موت عبد الناصر.

وفي سنة (١٩٥٧م) ونحن في السجن، كان عبد الناصر يخطط لخلع الملك حسين، ولكن ضباط الإخوان في الأردن كشفوا هذا المخطط وأفشلوه، فاغتاظ منهم عبد الناصر، وأراد أن ينتقم منهم ومن الإخوان المسجونين في سجن طرة، حيث دخلت مجموعة من الجنود يحملون الرشاشات، والإخوان في الزنازين والعنابر، فصوَّبوا الرشاشات نحوهم بعشوائية وهمجية، فاستشهد منهم واحد وعشرون شهيدًا، فضلًا عن الأعداد الكبيرة من المصابين والجرحى، وسميت هذه المذبحة بـ(مذبحة طرة)»[1].

• **أنا والأستاذ مصطفى مشهور:**

لم ألتق الأستاذ مصطفى مشهور في حياتي الأولى في مصر وجهًا لوجه، لا في السجن، ولا في خارجه، ولكن جمعتني وإياه بعد ذلك لقاءات كلها كانت في سبيل الله وخدمة دينه، جمعتني وإياه عدة لقاءات: في مصر، وفي البلاد العربية، وفي تركية، وفي أوربة، وفي لقاءات مجلس الشورى العام للإخوان، كانت هذه لقاءات مع الإخوان، للعمل على حسن سير الجماعة، وتجميع صفوفها، والتخطيط العملي لمستقبلها. وكان هناك لقاءات مع المجاهدين الأفغان، نحاول أن نرأب الصدع الذي حدث بينهم بعد خروج الروس، وتقريب وجهات النظر، وكانت المشكلة الكبرى لدى إخواننا المجاهدين الأفغان، الذين قاوموا الروس بقلوب الأسود، ولم تُحْنِ رؤوسَهم

---

(١) من كتاب: أعلام الدعوة والحركة الإسلامية، للمستشار عبد الله العقيل (١١٦٩/٢ ـ ١١٧٠)، طبعة: دار البشير، الطبعة الثامنة، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

ولم تُلِن قناتَهم: دباباتُهم على الأرض، ولا طائراتهم في السماء؛ مشكلتهم هي الاختلاف. وللأسف لم تثمر جهودنا هذه ثمرتها المنشودة في توحيد كلمة المجاهدين، وجمع صفهم أمام عدوهم، ليكونوا كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]. ولكن عزاءنا أن الله لا يضيع عنده عمل عامل، ولا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا.

ومما أذكره للأستاذ مصطفى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قد عرض علي تولي مكتب الإرشاد بعد وفاة المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني، واعتذرت له، ورأيت ورأى الكثيرون من إخواني المقربين أن بقائي مرشدًا وموجهًا للأمة كلها: أكثر نفعًا وبركة من تولي منصب المرشد العام للجماعة.

• **وفاته:**

توفي فضيلة الأستاذ مصطفى مشهور المرشد الخامس للإخوان المسلمين يوم الخميس ليلة الجمعة (١٢ رمضان سنة ١٤٢٣هـ، الموافق ١٥ نوفمبر ٢٠٠٢م) بعد غيبوبة دامت ثمانية عشر يومًا، وصلى عليه ما يقرب من نصف مليون فرد بعد صلاة الجمعة.

أسأل الله أن يتغمده بواسع رحمته، ويسكنه فسيح جناته، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

* * *



الشيخ محفوظ نحناح

الداعية ورئيس حركة مجتمع السلم

(١٣٦١ ـ ١٤٢٤هـ ـ ١٩٤٢ ـ ٢٠٠٣م)

في (١٩ يونيو ٢٠٠٣م)، ودعنا أخانـــا وصديقنا العزيز علينا، الحبيب إلينا، الشـــيخ محفوظ نحناح رحمه الله رحمة واســـعة، هذا الرجل الذي عرفته في الجزائر، وعرفته خارج الجزائر، وعرفته منذ زمـــن طويل: داعيًا إلى الله على بصيرة، جنَّد نفسه منذ أدرك لخدمة الإســـلام، والدفاع عن حياض الإسلام، والذود عن حرمات أمة الإسلام.

عاش حياته كلَّها داعيًا إلـــى الله، داعيًا إلى هذا الدين بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحســـن، متبنيًا تيار الوسطية والاعتدال، والرفق والرحمة، والحكمة والتدرج.

الشيخ محفوظ نحناح (رئيس حركة مجتمع الســـلم) في الجزائر، وأحد الدعاة الجزائريين، مهما اختلف مع الناس هناك، ومهما اختلف مع إخوان له هناك، فسيظل الشيخ محفوظ نحناح علامة من العلامات، ورمزًا من الرموز، وشيخًا من الشيوخ الذين نذروا شبابهم وشيخوختهم للدعوة إلى هذا الدين، وترك وراءه آثارًا طيبة وصالحة.

وقد شاء له ربُّه أن يعيش أواخر حياته مريضًا، ليكفر من سيئاته، ويزيد من حسناته، ويرفع من درجاته، حتى توفاه الله منذ أيام.

وقد قدمنا عزاءنا فيه لإخوتنا في الجزائر، لآل نحناح، ولإخوتنا في حركة مجتمع السلم، وللإخوة العاملين للإسلام هناك، وللجزائر كلها، وللداعين إلى الله في أنحاء الأرض، وعزينا أنفسنا، وعزينا الأمة، بفقد رجل من رجالاتها.

ولا نملك إلا أن ندعو الله تبارك وتعالى، أن يتغمده برحمته وبمغفرته، وأن يسكنه الفردوس الأعلى، وأن يخلفه في ذريته وإخوانه بخير ما يخلف به عباده الصالحين، وأن يتقبله في عباده المؤمنين، ويجزيه عن الدين والوطن والأمة خير ما يجزي به الأئمة والعلماء العاملين والدعاة الصادقين، ونسأل الله ﷻ أن يغفر له ويرحمه، وأن يعوضنا فيه خيرًا. آمين.

* * *



الدكتور أحمد صدقي الدجاني

رجل الفكر والنضال، داعية العروبة والإسلام

(١٣٥٥ ـ ١٤٢٤هـ = ١٩٣٦ ـ ٢٠٠٣م)

قبل أن نودع العام الميلادي (٢٠٠٣م)، ويودعنا بما حملت أمواجه المتلاطمة من أهوال وكروب ومفاجآت لأمة العروبة والإسلام، أبى أن يختم أيامه إلا بتوديع رجل من رجالات الأمة المعدودين، ظل يحمل همومها، ويعاني آلامها، ويجسد آمالها: مجاهدًا في سبيل الله، مناضلًا عن حقوق الأمة، ذائدًا عن حماها، يرفع اللواء، ويلبي النداء، ويقاوم الأعداء، بشجاعة الفارس النبيل، الذي لا يستسلم ولا يرفع الراية البيضاء، وإن رأى من حوله يستأسرون ويُسلِّمون، مستمسكًا بالحق الذي آمن به، وإن رأى من حوله يتنازلون عنه واحدًا بعد الآخر.

إنه الأخ المفكر المناضل الدكتور أحمد صدقي الدجاني، الذي انتقل إلى رحمة الله مساء الاثنين السادس من ذي القعدة (١٤٢٤هـ) التاسع والعشرين من ديسمبر (٢٠٠٣م).

- **ابن يافا وفلسطين البار:**

إنه ابن فلسطين، ابن يافا، ولد في أرضها، ونشأ وترعرع بين ربوعها، واستنشق شذاها، وشاهد بياراتها، وأكل من برتقالها وفواكهها، وصلى في جوامعها، واستمع إلى الأذان والتكبير من مآذنها، وتعلم في مدرسة (النهضة الإسلامية) بها، ورآها تسقط أمام عينيه، وهو ابن الثانية عشرة، وتركها مجبورًا مقهورًا، وعينه تذرف العبرات، وصدره يصعد الزفرات.

رأى الفتى الصهيونية الغازية، تقتحم عليه مدينته، وتغتصب منه داره، وتسرق مرتع صباه، ومهوى فؤاده، وملتقى أحبائه، وتشرده وأهله في الآفاق

من سنة (١٩٤٨م) إلى اليوم. ترك منزله في (يافا) الذي لا يزال يحتفظ بمفتاحه داخل منزله بالقاهرة حتى اليوم، ليذكر أبناءه وأحفاده بالوطن المسلوب، وكان حريصًا على أن يبرزه أمام أعين الإعلاميين، والأصدقاء كل حين، ليؤكد لهم بأن العودة قضية لا تموت.

وعائلة الدجاني عائلة يافوية معروفة، دينية صوفية؛ فقد كان جد أحمد صدقي ـ الشيخ محمود ـ قاضيًا شرعيًّا في الدولة العثمانية، وقد مات قبل ولادته بعامين، وهو الذي أوصى أمه إذا جاءها ابن أن تسميه أحمد صدقي. عيّن الشيخ محمود الدجاني قاضيًا في ليبيا في أوائل القرن العشرين، قبل الانقلاب على السلطان عبد الحميد (١٩٠٨م) وكانت إقامته بين طرابلس وزليطن والخمس، وقد كانت ليبيا كما كانت فلسطين جزءًا من دولة واحدة هي دولة الخلافة العثمانية، وقد غرس هذا في نفسية الطفل أحمد صدقي وحدة بلاد العروبة والإسلام، التي كانت تمثل دولة واحدة يحكمها الخليفة، وكان جده ينتقل بين ربوعها بحرية واطمئنان، وقد أورثه هذا النزعة العروبية الإسلامية، التي لا ترى تعارضًا بين الإسلام والعروبة، على غرار ما سبقه به الإصلاحيون العرب في أواخر عهد الدولة العثمانية من أمثال الشيخ رشيد رضا والشيخ طاهر الجزائري، وأمثالهما من دعاة التجديد والإصلاح في ظل الدولة الإسلامية والخلافة الإسلامية التي تجمع العرب والأتراك تحت راية القرآن.

وهذا أيضًا ما شده إلى الاهتمام بأمر ليبيا وتاريخها وجهادها، وخصوصًا بعد أن تعاقد مع وزارة التربية والتعليم في ليبيا للعمل بها من سنة (١٩٥٨م) إلى سنة (١٩٦٥م)، وهو يعتبر هذه السنوات من أغنى سنوات عمره وأهمها في تكوينه العلمي. وكان من رواد الدراسات الليبية، وألّف عدة كتب عنها؛ منها: كتابه عن (الحركة السنوسية)، كما تأثر باستشهاد البطل العربي المسلم عمر المختار الذي لم تلن قناته في جهاد الإيطاليين، حتى أسر وحكموا عليه

بالإعدام، وسجل ذلك شـــعراء مرموقون مثل إبراهيم طوقان من فلسطين، وأحمد شوقي في مصر.

• **في معمعة النضال الفلسطيني:**

كان أحمد صدقي أحد المؤسسين لمنظمة التحرير منذ عهد رئيسها الأول أحمد الشـــقيري، وقد اتجهت الأنظار إليه، وهو في ريعان الشـــباب، لتُحمِّله المسؤولية، وهي واثقة بأنه أهل لها، فلا غرو أن كان عضوًا بالمجلس الوطني الفلسطيني، وعضوًا بالمجلس المركزي، وعضوًا باللجنة التنفيذية في منظمة التحرير، كما كان رئيسًـــا للمجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم بها، ولم يتركه إلا منذ ســـنة (٢٠٠٢م) بعد أن ازدادت متاعبـــه الصحية رَحِمَهُ اللَّهُ. كما مثل فلسطين في مؤتمرات الحوار العربي الأوروبي. وقد قدر الرئيس الفلسطيني عطاءه في مجال الفكر والثقافة والنضال، فمنحه وسام فلسطين.

• **معارضته خطة أوسلو:**

ظل الدجاني يعمل في المجال النضالي الفلسطيني الرسمي بجهده وفكره وقلمه ولسانه، حتى تغير مسار القضية الفلسطينية من بعد نكبة يونيو (١٩٦٧م)، شيئًا فشـــيئًا، حتى انتهت إلى مسيرة أوســـلو وما تحمله من تنازلات أساسية لا يقبلها، فرأى أن الميدان لم يعد ميدانه، وأن لكل زمان دولة ورجالًا، وهو ليس من رجال هذا الدور، والحمد لله الذي عافاه من ذلك، فقدم استقالته من اللجنة التنفيذية احتجاجًـــا، ومعه اثنان مـــن المناضلين المعروفين، شـــفيق الحوت، ومحمود درويش الشاعر المعروف. وظل يعمل وحده في معركة سلاحها القلم، وحلبتها الفكر، وجنودها الأحرار الذين يجمعون بين الصلابة والإخلاص والصبر وإن طال المدى. ومع معارضته لمهندســـي أوسلو، ظل يدعو إلى وحدة الصف الفلسطيني، ويتعامل مع الفصائل الفلسطينية كلها بروح الأبوة والأخوة للجميع، ولا يرضى بأي شق للصف، فليس يؤذي العدو شيء مثل التوحد والتلاحم.

وأعتقد أن البعد عن مجال النضال الرسمي كان من ناحية أخرى خيرًا وبركة، فقد كسبه ميدان العلم والفكر الذي تفرغ له، فنما إنتاجه، وازداد عطاؤه، واتسعت دائرة اتصالاته على المستوى العربي، والمستوى الإسلامي، والمستوى العالمي، وأصبح عضوًا في أكثر من مجمع لغوي، ومن مؤسسة علمية، ومن مركز ثقافي.

وكان من ثمرات ذلك: خمسون كتابًا في مختلف جوانب الثقافة، تلقاها أهل الفكر بالقبول والثناء.

كان الدجاني فارسًا من فرسان الكلمة، وعلمًا من أعلام الفكر، ورائدًا من رواد النضال الفلسطيني، وبطلًا من أبطال العروبة والإسلام، رحمه الله رحمة واسعة وتقبله في الصالحين من عباده الأبرار.

• **كيف عرفت الدجاني؟:**

عرفت الدكتور الدجاني منذ أكثر من عشرين سنة قارئًا لكتبه ومقالاته، فوجدته رجلًا يجمع بين عقلانية العالم، وعاطفية الفنان، وشفافية الأديب، وروحانية المتصوف، وجندية المجاهد.

ثم اقتربت منه أكثر، حين لقيته في المؤتمرات والندوات، فعرفت فيه العقل النافذ، والنَّفَس الهادئ، والبصيرة النافذة، والرؤية المتوازنة والمتكاملة للأحداث والتاريخ والواقع، كما لمست فيه الخلق الكريم، والأدب العالي، والذوق الرفيع والحس الرهيف، والسلوك القويم، إنه في كلمة واحدة رجل مثقف مهذب.

وإذا كان النابغة الذبياني يقول في شعره:

ولستَ بمستبْقٍ أخًا لا تلُمُّه على شَعَثٍ أي الرجال المهذب؟!

فأنا أقول: أحمد صدقي الدجاني كان أنموذج (الرجل المهذب) الذي افتقده الذبياني وافتقده الكثيرون.

وقد قال حافظ:

فـإذا رُزِقْـتَ خليقـةً محمودةً فقد اصطفاكَ مُقسِّـمُ الأرزاقِ!

فكيف بمن رزق جملة من الخلائق المحمودة، والفضائل المشهودة، قربته إلى الناس، وحببته إلى الناس، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

كان رجلًا يتميز بالعذوبة في شخصيته: في لقائه، في حديثه، في خلقه، في علاقاته، وكأنما خلق من نسـمات الفجر، أو من نفحات الزهر، أو من رشحات العطر!.

• **رجل جدير بالحب والاحترام:**

أجل إنه رجل يملك من المواهب والقدرات والفضائل ما يرغمك على أن تحترمه وأن تحبه معًا، وقلَّ من الناس من تجمع له بين الحب والاحترام.

إنه رجل يحبه العلماء والباحثون، لأنه عالم بحاثة يحترم نفسـه، وقُرَّاءه، بفكر يجعله العالم الذي يعيش في عصره.

ويحبه الأدباء، لأنه أديب، يكتب بأسلوب الأديب، وبيان الأديب، ولغة الأديب.

ويحبه المناضلون، لأنه مناضل أصيل، لم يهن عزمه، ولم يستسـلم كما استسلم غيره من المناضلين القدامى.

ويحبه العروبيون لأنه عربي مخلص، يعتز بعروبيته، وبقومه، وبلغته فلا يتكلم إلا بالعربية الفصحى، ولا تعرف العامية إلى لسانه سبيلًا.

ويحبه الإسلاميون، لأنه مسلم مستنير، يحسن الفهم للإسلام، كما يحسن الالتزام به، والدعوة إليه على بصيرة، والحماس لقضايا أمته.

• **دوره في تلاقي العروبيين والإسلاميين:**

وحين رأى القوميـون المخلصون مـن دعاة العروبة والإسـلاميون المخلصون من دعاة الإسلام، أن لا معنى للقطيعة القائمة بينهما، وأن هناك

قضايا مهمة تجمع بين التيارين، وتفرض عليهما التفاهم والتضامن لمواجهة الخطر الذي يهدد الأمة، وأنه لا بدّ من عقد مؤتمر يضم المعتدلين من الإسلاميين والقوميين الذين يرون التلاقي بينهم فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة تحتمها مصلحة الأمة.

وعندئذ تقرر عقد المؤتمر القومي الإسلامي الأول في بيروت، وكان المطلوب أن تعد ورقتان: ورقة تمثل القوميين وأهدافهم وتوجهاتهم وطموحاتهم، وأخرى تمثل الإسلاميين وأهدافهم وتوجهاتهم وطموحاتهم، وتجسد كلتاهما القاسم المشترك بين الفريقين، كان الدجاني عضوًا في كل من اللجنتين التحضيريتين للإسلاميين والقوميين جميعًا.

وحين التقى الفريقان وبحثوا عن منسق عام يقوم على هذا المؤتمر يرضى عنه الطرفان، ويصلح همزة وصل بينهما: لم يجدوا أفضل من الدكتور الدجاني الذي كان موضع إجماع من الحضور، لم يختلف عليه اثنان، ولم تنتطح فيه عنزتان كما يقال.

والحق أن الرجل بذل من جهده ووقته وفكره الكثير، في سبيل إنجاح هذه الفكرة واستمرارها وإمدادها بالزاد والوقود، حتى لا تتوقف مسيرتها أو تخمد جذوتها، وخصوصًا في هذا الوقت الذي يسعى فيه أناس للتطبيع مع إسرائيل!.

- **لقاءاتنا في الصيف وعلاقته الحميمة بعبد الرحمن:**

وكنت حريصًا على لقائه كل عام في إجازة الصيف حين أنزل إلى مصر، وكان هو دومًا صاحب الفضل، فهو الذي يسعى إلى زيارتي في منزلنا بمدينة نصر، باعتباري ضيفًا على القاهرة، وهو مقيم بها، حاملًا من ثمار قلمه آخر ما تنتجه حول قضيته الأولى (فلسطين) أو قضايا (العروبة والإسلام) ـ ولا انفصال بينهما عنده ـ أو قضايا العالم الذي نحيا فيه.

وكنت أهدي إليه من بضاعتي المزجاة آخر إنتاجي، وكله يدخل في أفق اهتمامه.

ومن خلال زياراته ولقاءاته بي: تعرف عليه ابني الشاعر الأديب عبد الرحمٰن فأعجب به، ودعاه إلى زيارته، فانعقدت بينهما مودة وثيقة، وصلة عميقة، استمرت سنين، في لقاء وتفاهم وحوار، يسمعه عبد الرحمٰن من شعره ما لا يقوله للآخرين، من شعر السياسة، أو شعر الغزل، الذي عبر عنه عبد الرحمٰن بأن نصف شعره يُدْخل السجن، والنصف الآخر يدخل النار! ويحاوره في قضايا الدين، وقضايا الثقافة، وقضايا السياسة، بحرية وصراحة.

وقد قال لي الدكتور الدجاني في لقاء قريب: إن عبد الرحمٰن كنز ثمين لم يستفد منه بعد.

وقد أهدى عبد الرحمٰن إليه ديوانه الثاني (أمام المرآة) وقال في إهدائه: إلى أستاذي ووالدي وصديقي، الدكتور أحمد صدقي الدجاني أطال الله عمره، ثمرة سنوات من اللقاءات الطويلة. حوار بين جيلين!.

- **مناسبات فكرية ونضالية تجمعنا:**

كانت هناك مناسبات مختلفة تجمعنا؛ منها: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، أو مؤسسة الفكر الإسلامي لآل البيت، وقد كان كلانا عضوين فيها. كما تضمنا جلسات المؤتمر القومي الإسلامي، الذي كان أحد مؤسسيه والداعين إليه.

وكذلك (مجلس أمناء مؤسسة القدس) الذي التقى مؤسسوها في بيروت في نحو خمسمئة شخصية من العرب مسلمهم ومسيحيهم، ومن المسلمين عربهم وعجمهم، من كل من يهمه أمر القدس وأمر فلسطين، وما القدس إلا رمزًا لفلسطين، وقد اتجه جمع من صفوة المشاركين في المؤتمر إلى أن يرشحوني لرئاسة مجلس أمناء هذه المؤسسة الوليدة والمرجوة، وقد اعتذرت

لهم أول الأمر لما أحمله من أعباء أنوء بها، فكيف أضيف إليها عبئًا جديدًا؟ وكان رأيه رَحِمَهُ اللَّهُ مع عدد من الأحبة: أنك الوحيد الذي يمكن أن يوافق عليه من المسلمين: العرب والعجم، ويوافق عليه من العرب المسلمون والمسيحيون، ويوافق عليه من المسلمين السنيون والشيعيون، ويوافق عليه من العرب القوميون والإسلاميون. نرجوك أن تقبل هذه المهمة مستعينًا بالله، لتجتمع عليك الكلمة!.

وقد سافرت قبل انفضاض المؤتمر، واختيار مجلس الأمناء ورئيسه، وقد اختاروني في غيابي، والخيرة فيما اختاره الله لنا.

وقد التقينا بعد ذلك في مؤتمرات لمؤسسة القدس هذه، أولها كان في اليمن، وكان لقاء خصبًا مباركًا، والثاني كان في بيروت، وكان له أثره ودوره في مد المسيرة بالوفود، والدكتور الدجاني في كل ذلك يعطي بغير كلل ولا ملل، ولا منّ ولا أذى.

وما من مرة ألقاه فيها في ندوة أو مؤتمر أو لقاء خاص إلا أجده متألقًا لم ينطفئ له سَنَا، ومسمعًا لم يخفض له صوت.

وآخر مرة سعدت بلقائه فيها كانت في مملكة البحرين، في مؤتمر التقريب بين المذاهب الإسلامية، وعلى العهد به كان معطاء كالنبع الدافق لا يملك إلا أن يسقي ويحيي، وإن كنت لحظت عليه شيئًا من الجهد والتعب. كان يغذي الحوار بالجديد من الأفكار، وكان يسدد الحوار إذا شط عن سواء الصراط.

ولقد قرأ بحثي عن (التقريب بين المذاهب) وأبدى إعجابه به، لأنه تعرض لنقاط حساسة، عالجها بصراحة واستنارة ورفق.

وحين اختمرت عندي فكرة إنشاء اتحاد علماء المسلمين، كان هو في مقدمة الشخصيات التي دعوتها للانضمام إلى هذا الاتحاد، فقد رأيت أن أوسع مفهوم (العلماء) بحيث لا يقتصر على خريجي الكليات الشرعية، والجامعات

الدينية، بل تشمل كل من له عطاء يتصل بالثقافة الإسلامية، وإن لم يكن من المشايخ، وقد استجاب بسرعة لندائي، وإن كان قد اقترح أن نعرف العالم المسلم: بأنه كل من يمارس اختصاصه برؤية مؤمنة مسلمة.

• **خسارة الأمة بفقد الدجاني:**

إن فقد الرجال خسارة كبيرة، ونكبة عظيمة، فإنما الأمة برجالها، والرجال قليل، فكيف إذا كان هذا الرجل عالمًا، وقد قال ابن مسعود: سيأتي على الناس زمان كثير خطباؤه قليل علماؤه[1]. فإذا كان الرجال قليلين، فالعلماء قليل من قليل.

وكيف إذا كان هذا العالم مفكرًا له رؤيته الخاصة، ونظرته المستقلة، إلى العالم من حوله، وإلى قضايا الأمة؟ فليس هو مقلدًا لأحد، ولا ذيلًا لأحد، فإذا كان العالم قليلًا من قليل، فالعالم المفكر قليل من قليل من قليل.

ثم كيف إذا كان هذا المفكر مناضلًا؟ فهو لم يعش لفكره في برج عاجي، أو في صومعة منعزلة، مستغرقًا في تأملاته الصوفية، محلقًا في أحلامه الطوباوية، بل نزل إلى معترك الحياة كما هي، بوردها وشوكها، وحلوها ومرها، وبهذا يكون هذا النوع قليلًا من قليل من قليل من قليل.

ولا عجب أن يُختار هذا الرجل في كل منتدى للحوار الداخلي والخارجي، فهو يملك من المواهب والقدرات الفكرية والنفسية والخلقية ما حرم منه الأكثرون ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

• **إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر:**

ومنذ أسابيع اتصل ابني عبد الرحمٰن ـ وهو حبيبه الأثير لديه ـ وطلب مني وأنا مسافر إلى مكة، أن أخص الدكتور الدجاني بالدعاء، فقد اشتد

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٨٩)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب (٦٠٩).

عليه المرض، وأدخل المستشفى، ويحتاج إلى دعاء المحبين: أن يمن الله عليه بالشـــفاء، ويتم عليه العافية، وكم والله دعوت لـــه من أعماق قلبي، وتضرعت إلى ربي: أن يكشف عنه الضر كما كشفه عن أيوب، ولكن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، وإذا كان الداء من السماء، بطل الدواء، وعجز الأطباء، حتى ينفذ القضاء.

إنَّ الطبيـــبَ لـــه علمٌ يُـــدلُّ به ما دامَ في أجلِ الإنســـانِ تأخيرُ

حتَّى إذا ما انقضـــتْ أيامُ مُهْلَتِهِ حارَ الطبيبُ وخانَتْـــهُ العقاقيرُ!

وفي مساء الاثنين (١٢/٢٩) اتصل ابني عبد الرحمٰن هاتفيًا، وحين سمعت صوته يحمل رنة الحـــزن، عرفت أن قدر الله نفـــذ، وأخبرني وهو بجواره في المستشفى وهو يجهش بالبكاء: أن أســـتاذه الحبيب قد فارق الدنيا، وما أشد مرارة فراق الإنســـان لمن يحب، وخصوصًا إذا كان فراقًا سيطول، وكما تقول الخنساء:

نَأْي الحبيبينِ كونُ الأرضِ بينهما هذا عليها وهذا تحتها سَـــكَنا!

رحمة الله عليك أبا الطيب، وطبت حيًّـــا وميتًا، وغفر الله لك، ورحمك، ورفع درجاتك في الصالحين من عباده، وجـــزاك عن دينك ووطنك وأمتك خير ما يجزي به العاملين الصادقين الموفين بعهدهم إذا عاهدوا ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* * *



٥٩ المستشار مأمون الهضيبي

المرشد العام السادس

(١٣٣٩ ـ ١٤٢٤هـ = ١٩٢١ ـ ٢٠٠٤هـ)

في ليلة (٩ يناير ٢٠٠٤م)، نقلت إلينا وكالات الأنباء وفاة المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ مأمون حسن الهضيبي، الذي وافته المنية، وصُلي عليه بعد صلاة الجمعة في هذا اليوم.

كان الأستاذ مأمون الهضيبي قد بويع مرشدًا للإخوان منذ رمضان قبل الماضي، وتولى قيادة الدعوة الإسلامية في مصر، ولكن لم يمهله القدر، هذا الرجل الذي عُذِّب في الله، وأُوذي في الله، هو وأسرته جميعًا، هو ووالده وإخوانه، كلُّهم أوذوا في الله سنة (١٩٥٤م) وما بعدها، وفي سنة (١٩٦٥م) وما بعدها.

عرفت هذه الأسرة المؤمنة بالصبر والجلاد والثبات، على رغم ما أصابهم في سبيل الله ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

كان والده الأستاذ حسن الهضيبي المرشد الثاني للإخوان بعد مؤسس الجماعة حسن البنا، قد لاقى ما لاقى في سجنه رغم شيخوخته وكبر سنه، ورغم أنه ممن نشأ بعيدًا عن هذا الجو، وعن هذه العقبات والمصائب، كان قاضيًا في محكمة النقض والإبرام، ومن كبار الشخصيات، ويحمل لقب البكوية بحكم منصبه، ولكنه حينما تحمَّل الدعوة، تحمَّلها مستعدًّا لما يلقاه من أجلها، صابرًا مصابرًا مرابطًا متقيًا لله. وكذلك حملها ابنه رَحِمَهُ اللَّهُ، عاش لهذه الدعوة، ومات عليها، وقدَّم لها أغلى ما يملك الإنسان.

رغم أن حمل هذه الدعوة في هذه الظروف ليس مغنمًا ولكنه مغرم، ليست

استفادة ولكنها تضحية، الذي يحمل هذه الدعوة في هذه الأجواء، والعالم كله يقف ضد الإسلام، العالم الغربي والقوى الكبرى تصادر حقَّ هذا الدين في الدعوة، وحتى في بلادنا للأسف، يقف الإسلام محرومًا من حقِّه في التعبير عن نفسه في كثير من البلاد، وفي بعض البلاد يحارب، حتى المسلمة التي تعبر عن نفسها بلبس خمار على رأسها تُمنع، بهذا احتج علينا الفرنسيون، قالوا: إذا كان عندكم في بلاد المسلمين من يمنع هذا، فلماذا تنكرون علينا؟!.

مَن حمل لواء الدعوة ومنصب المرشد العام في هذه الظروف، فإنه يحمل مغرمًا لا مغنمًا، ويتعرض لبلاء لا يصبر عليه إلا ذو حظٍّ عظيم.

إن الأستاذ مأمون الهضيبي، وقد بايعه الإخوان في أنحاء العالم على أن يكون مرشدًا عامًّا للإخوان، كان يمكنه أن يحرص على ما انتهى إليه، ويدع الأمور تجري في أعنتها، ولكنه رَحِمَهُ اللَّهُ لم يكفه كل ما وصل إليه، بل حاول جاهدًا أن يصل في رأيه إلى وضع أفضل من ذلك.

إننا نتمنَّى للإخوان المسلمين أن يوفَّقوا في مسيرتهم القادمة، وأن يختاروا قيادة من جيل الوسط، الجيل الذي يحمل حماسة الشباب وحكمة الشيوخ، القيادات التاريخية الكبيرة أعتقد أنها انتهت بوفاة الأستاذ مأمون الهضيبي، وأملنا في الشباب الذي قرب من الكهولة أيضًا، هؤلاء الذين عليهم أن يحملوا الراية، ويحملوا اللواء، ويتقدموا بالسفينة بين هذه الأمواج المتلاطمة من هنا وهناك، من شرق وغرب، ومن شمال وجنوب.

نسأل الله لهم الهداية، وأن يسدد خطاهم، وينور الطريق لكل العاملين للإسلام.

وقد صلينا صلاة الغائب على روح الأستاذ الهضيبي بعد صلاة الجمعة، في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة.

* * *



الشيخ أحمد ياسين

شيخ الانتفاضة وأبو المقاومة وشهيد الفجر

(١٣٥٥ ـ ١٤٢٥هـ = ١٩٣٦ ـ ٢٠٠٤م)

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

لقد ودّعت اليوم حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، وودعت فلسطين كلها: سلطة ومقاومة، بل ودعت الأمة العربية، والأمة الإسلامية: رجلًا من رجالاتها، والرجال قليل، إنه الشيخ أحمد ياسين، الذي عاش عمره للدعوة والجهاد، ونذر حياته للنضال من أجل تحرير وطنه من الاحتلال الصهيوني الغاشم. وأسس حركة (حماس) لتقوم بدورها في الجهاد، وقضى في السجن ما قضى من سنوات وهو صابر مرابط، لا يهن ولا يستكين، وكان قد حدد غايته بوضوح، وهي: ضرب الاحتلال ودحره بكل ما يمكن من قوة، وعدم الخروج بهذه العمليات عن دائرة فلسطين كلها، وتحريم توجيه السلاح إلى صدر فلسطيني؛ فالدم الفلسطيني حرام حرام حرام. وكان هذا الرجل القعيد الأشل يزلزل الكيان الصهيوني، ويرعب قادته العسكريين والسياسيين وهو جالس على كرسيه لا يستطيع أن يفارقه إلا بمعين.

إن رجولة الرجال لا تقاس بقوة أجسامها، بل بقوة إيمانها وفضائلها، وقد قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال العرب في أمثالهم: «ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الدخل؟».

• **دروس من استشهاد الشيخ:**

إن استشهاد الشيخ أحمد ياسين بهذه الصورة المروعة، وهو خارج من مسجده بعد أداء صلاة الفجر، ومعه ثمانية آخرون استشهدوا، وآخرون جرحوا، إن هذا الحادث الجلل ليحمل إلينا وإلى الأمة دروسًا يجب أن نعيها:

١ ـ تحقق أمنية الشهادة:

أولها: أن الرجل باستشهاده قد حقق أمنية كان يطلبها لنفسه من ربه، كما يطلبها كل مجاهد مخلص: أن تختم حياته بالشهادة، وهل هناك ختام أغلى وأعظم من هذا الختام؟!.

سمع النبي ﷺ رجلًا يقول: اللهم آتني أفضل ما آتيت عبادك الصالحين! فقال له: «**إذن يعقر جوادك، ويهراق دمك!**»[1] (رواه الحاكم).

فهذا أفضل ما يؤتيه الله عباده الصالحين.

ولو كان أحمد ياسين ينشد السلامة، ويحرص على الحياة، لاستطاع أن يتجنب الصلاة في المساجد، ولا سيما صلاة الفجر، وأن يغير مكانه من بيت إلى بيت، ولكنه أصر على أن يؤدي الصلوات في الجماعة، فجاء مقتله بعد أن أدى فرضه، وأرضى ربه، ولقيه متوضئًا مصليًا راكعًا ساجدًا، راضيًا مرضيًا.. وقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

وإنا لنتمنى وندعو ربنا أن يختم لنا بما ختمه لأحمد ياسين.

٢ ـ شهادة الشيخ ياسين وقود للمقاومة:

وثاني الدروس: أن موت أحمد ياسين لن يضعف من المقاومة، ولن يطفئ شعلتها، كما يتوهم (شارون) وعصابته في دولة الكيان الصهيوني، بل سيرون

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، عن أبي موسى الأشعري.

بأعينهم: أن النار ستزداد اشتعالًا، وأن أحمد ياسين ترك وراءه رجالًا، وأن كل الفصائل ستثأر لأحمد ياسين، وكلها توعدت إسرائيل: كتائب القسام، وسرايا القدس، وكتائب شهداء الأقصى، وكتائب الشهيد أبو علي مصطفى، ومناضلو الجبهة الشعبية. وكل أبناء فلسطين وحدتهم المحنة، ووقفوا صفًّا واحدًا ضد المجرمين السفاحين. إن دم الشيخ ياسين لن يذهب هدرًا، بل سيكون نارًا ولعنة على إسرائيل، وحلفاء إسرائيل ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ولقد جربت إسرائيل القتل والاغتيال للقادة من قديم: جربته في لبنان (أبو يوسف النجار ورفاقه)، وجربته في تونس (أبو جهاد وأبو إياد)، وجربته في فلسطين: قتلت يحيى عياش، وفتحي الشقاقي، وأبو علي مصطفى، وصلاح شحادة، وإسماعيل أبو شنب، وغيرهم وغيرهم، فلم تتوقف المقاومة، ولم تسكن ريح الجهاد، بل حمي الوطيس أكثر مما كان.

وكيف لا وقد علَّمنا القرآن أن المسلم لا يقاتل من أجل شخص، ولو كان هو رسول الله ﷺ، بل يقاتل من أجل مبدأ ورسالة، ولهذا حين أشيع نبأ قتل الرسول الكريم في غزوة (أحد) وفتَّ ذلك في عضد كثير من المسلمين نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وضرب لهم مثلًا بما حدث لأصحاب الدعوات قبلهم ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

إن الشعب الفلسطيني البطل شعب ولود، كلما فقد بطلًا، ولد بطلًا آخر، بل أبطالًا يخلفونه ويحملون رايته، ولن تسقط الراية أبدًا، وما أصدق ما قاله الشاعر العربي قديمًا:

إذا مات منَّا سيدٌ قام سيدٌ قؤولٌ لما قالَ الكرامُ فعولُ!

٣ ـ طغيان إسرائيل مبشِّر بهلاكها:

وثالث الدروس: أن إسرائيل قد طغت واستكبرت في الأرض بغير الحق، وأمست تقترف الجرائم البشعة، كأنما تشرب الماء، فهي في كل صباح ومساء، تعيث في الأرض فسادًا، وتهلك الحرث والنسل، تسفك الدماء، وتقتل الأبرياء، وتغتال النجباء، وتذبح الأطفال والنساء، وتدمر المنازل، وتجرّف المزارع، وتقتلع الأشجار، وتنتزع الأرض من أصحابها بالحديد والنار، وتقيم الجدار العازل على الأرض الفلسطينية عنوة، جهارًا نهارًا، وقد توجت جرائمها المستمرة بهذه الجريمة النكراء، أم الجرائم، اغتيال الرجل القعيد المتطهر المصلي بتخطيط من شارون وإشراف منه. فهي تجسد إرهاب الدولة بأجلى صوره.

وهذا نذير ببداية النهاية للطغاة، فإن ساعتهم قد اقتربت، فإن الطغيان إذا تفاقم، والظلم إذا تعاظم: يسوق أصحابه إلى الهلاك وهم لا يشعرون ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥ ـ ٤٤].

٤ ـ ضلوع أمريكا في اغتيال الشيخ:

ورابع الدروس: أن أمريكا شريكة في المسؤولية عن هذه الجريمة وما سبقها من جرائم، فإسرائيل ترتكب مجازرها بسلاح أمريكا، ومال أمريكا، وتأييد أمريكا. وهي لا تقبل أن تؤدَّب إسرائيل، أو تدان أو توجه إليها كلمة لوم، وإلا فإن (الفيتو) الأمريكي بالمرصاد.

ولو كنت قاضيًا يحكم في هذه الجريمة، ويحاكم القتلة والجناة فيها، لكان المتهم الأول عندي فيها هو الرئيس (بوش)؛ فهو المحرض الأول على الجريمة، وهو الذي أعطى المجرم السلاح، وهو الذي يَعتبرُ المجرمَ القاتلَ مدافعًا عن نفسه.

بوش هو الذي أفتى شارون وعصابته بأن المقاومة الفلسطينية إرهابية وفي مقدمتها حماس والجهاد، ومعنى أنها إرهابية: أنها تستحق القتل، وأن لا عقوبة

على من قتل الإرهابيين! وهكـذا قال نائب وزير الدفاع الإسـرائيلي: «إن أحمد ياسين كان ممن يستحق القتل».

هذا هو منطق أمريكا وإسـرائيل، أو منطق بوش وشـارون: أحمد ياسين إرهابي مجرم يسـتحق القتل، لأنه يدافع عن وطنـه، عن أرضه وعرضه، عن منزله ومزرعته وشـجرة زيتونه، عن حرماته ومقدسـاته. أما شـارون القاتل السفاح، فهو ضحية مسـكين، لا يمكنه الفلسطينيون الأشرار أن يلتهم كل ما يريد من أراضيهم!.

٥ ـ سقوط خيار الإسلام:

وخامس الدروس: أن لا أمل فيما سموه (مسيرة السلام) و(مفاوضات السلام) فإن كل راصد للأحداث بحياد وإنصاف يسـتيقن أن إسرائيل لا تريد سلامًا حقيقيًا، سلامًا عادلًا شـاملًا، يرد الحق إلى أهله، ويقف كل امرئ عند حده. إنها لا تعترف إلا بمنطق القوة، ولا تفهم إلا لغة الحديد، ولا تتكلم إلا بلسان النار. وإنما تلهي الفلسطينيين والحكام العرب بهذه الوعود الكاذبة، والأماني الزائفة، والسراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

لقد عرفنا بالممارسة والتجربة: أن ما أخذ بالقوة لا يرد إلا بالقوة، وأن الخيار الوحيد للفلسـطينيين هو خيار المقاومة، والبديل عن المقاومة هو الاستسلام الخاضع لإسرائيل، ولا حد لأطماع إسرائيل. البديل للمقاومة هو الموت.

٦ ـ الاتحاد سبيل النصر:

وسـادس الدروس: أن على الفلسـطينيين جميعًا أن يتحـدوا: وطنيين وإسلاميين، سـلطة ومقاومة، فإن عدوهم يضرب الجميع، ويتحدى الجميع، ولا تدري الضربة القادمة إلى من توجه؟ قـد يكون الضحية القادمة عرفات،

وقد يكون غيره من القادة، فليضع كل منهم يده في يد أخيه، وليكن شعارهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

٧ ـ آن لنا أن نفيق:

وسابع الدروس: أن على العرب أن يصحوا من سكرتهم، وأن يخرجوا من كهفهم الذي ناموا فيه طويلًا، ليؤدوا ما عليهم نحو إخوانهم، بل نحو أنفسهم، فقضية فلسطين قضية الأمة كلها. وللأسف الشديد، لم يعد الصراع عربيًا إسرائيليًا كما كان، بل أصبح فلسطينيًا إسرائيليًا، أما العرب فغائبون ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. دافع العرب عن فلسطين سنة (١٩٤٨م) وكانت الجامعة العربية وليدة عمرها ثلاث سنوات، مكونة من سبع دول، فلما قارب عمرها السنين، وزاد عددها على العشرين دولة، تخلت عن دورها، ونكصت على عقبها، وتركت الفلسطينيين وحدهم يقاومون بصدورهم وأيديهم أكثر ترسانة عسكرية في الشرق الأوسط، مؤيدة بالإمكانات الهائلة القاتلة.

٨ ـ واجبنا نحو فلسطين:

وثامن الدروس: يتعلق بالأمة الإسلامية حينما ارتفعت المآذن معلنة بالتهليل والتكبير: أن على الأمة الإسلامية واجبًا نحو أرض الإسراء والمعراج، نحو القدس الشريف، ونحو المسجد الأقصى، الذي بارك الله حوله، أن الأقصى ليس ملك الفلسطينيين وحدهم، حتى يكلفوا بالدفاع عنه دون سائر الأمة.

لقد اغتصب المسجد الأقصى قديمًا أمام الصليبيين، وبقي أسيرًا في أيديهم نحو تسعين عامًا، وكان الذين هبوا لنجدته وتحريره من أجناس وألوان شتى من المسلمين: عماد الدين زنكي التركي، وابنه نور الدين محمود،

وتلميذه صلاح الدين الأيوبي الكردي، والظاهر بيبرس المملوكي، وغيرهم. والمسلمون أمة واحدة يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم. وفرض عليهم أن يتضامنوا ويتلاحموا حتى يحرروا أرض الإسلام، ومقدسات الإسلام، ويدافعوا عن حرمات الإسلام.

وإن استشهاد الشيخ أحمد ياسين لهو نذير لهم: أن يعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا، وأن يُسمعوا صوتهم واحتجاجهم بالبرقيات والمسيرات وصلاة الغائب.

إننا ننادي العرب والمسلمين جميعًا: أن يقفوا بجانب إخوانهم في أرض النبوات، يمدونهم بكل ما يُمَكِّنهم من الدفاع عن أنفسهم وذراريهم، وما يقدرهم على العيش بالحد الأدنى، فحرام على العربي، وعلى المسلم: أن يأكل ملء بطنه، وينام ملء جفنه، وإخوانه لا يجدون ما يمسك الرمق. إن الصهاينة وحلفاءهم الأمريكيين أرادوا أن يجففوا كل المنابع التي تمدهم بالقليل من المال، وعلينا أن نفشل خططهم، ونحبط كيدهم، ونوصل إليهم ما يعينهم على البقاء والجهاد.

٩ ـ إلى الأحرار والشرفاء في العالم:

وتاسع الدروس وآخرها: يتصل بالأحرار والشرفاء في أنحاء العالم، هؤلاء الذين خرجوا بالملايين في مسيرات غاضبة من أجل الحرب على العراق، يتحدون أمريكا وحلفاءها، هؤلاء الشرفاء مطالبون أن يعلنوا سخطهم على الجرائم الصهيونية الشنيعة، التي تصابح الفلسطينيين وتماسيهم، ولا تدع لها زرعًا ولا ضرعًا، وآخرها اغتيال الشيخ القعيد على كرسيه بلا رحمة ولا شفقة.

كما ننادي المؤسسات والهيئات العالمية وعلى رأسها مجلس الأمن أن يقوموا بواجبهم في فرض الشرعية الدولية على الصهاينة الذين يضربون عرض الحائط بكل بالأخلاق والأعراف والقيم والقوانين.

• **نذير وبشرى:**

وختامًا نقول للصهاينة: لقد ارتكبتم الفعلة التي لا يغفرها أحد لكم، وإن في ذلك لبشـــرى لنا، وتدميرًا لكم، ورب ضارة نافعة. وعلـــى الباغي تدور الدوائر، وإن مع اليوم غدًا، وإن غدًا لناظره قريب.

«**وإن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣)، عن أبي موسى.



الدكتور عبد العزيز الرنتيسي

شهيد المقاومة وفلسطين والدعوة

(١٣٦٦ ـ ١٤٢٥هـ = ١٩٤٧ ـ ٢٠٠٤م)

وفي (١٧ إبريل ٢٠٠٤م) ودعنا فقيد أمتنا، وفقيد قضيتنا، وفقيد جهادنا، أخانا البطل المجاهد الصابر المصابر المرابط الدكتور عبد العزيز الرنتيسي، وقد أصبح مقدرًا علينا أن نودع ما بين الحين والحين قائدًا من القواد الذين حملوا الراية؛ ليذودوا عن حمى هذه الأمة، وعن حياضها، ويدافعوا عن مقدساتها، وعن هُويَّتها أمام هذه الهجمة الشرسة من أعدائها. ما بين الحين والحين نودع واحدًا، وقد ودعنا قبله بأسابيع الشيخ أحمد ياسين رحمة الله عليه، وخلفه الدكتور عبد العزيز الرنتيسي في القيادة والشهادة.

سُجِن عبد العزيز الرنتيسي في سجون الاحتلال أكثر من مرة، وأُبعد إلى مرج الزهور، وسجن في سجون السلطة الفلسطينية، وأرادت إسرائيل اغتياله أكثر من مرة، ونجى الله الرنتيسي، ولكن ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]. وقد قال الشاعر:

من لم يمتْ بالسيفِ ماتَ بغيره ... تعددتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ

لقي الدكتور الرنتيسي ربَّه راضيًا مرضيًّا ـ إن شاء الله ـ فألسنة الخلق أقلام الحق، كما يقول النبي ﷺ: «**ما من مسلم يموت، فيشهد له أربعة من جيرانه الأدنين: أنهم لا يعلمون عنه إلا خيرًا؛ إلا قال الله تعالى: قد قبلتُ قولكم فيما تعلمون، وغفرت له ما لا تعلمون**»[1]. أربعة فقط، فكيف بمن

---

(١) سبق تخريجه: ص٥٠٩ في كتابنا هذا.

شهدت له الآلاف من جيرانه وغير جيرانه، والأقارب والأباعد، شهد له هذا الجمع بأنه إلى خير.

وقد أثنى عدد من الصحابة أمام النبي ﷺ على رجل أثنوا عليه خيرًا فقال: «**وجبت**» ورجل آخر أثنوا عليه شـرًّا فقال: «**وجبت**» فقال عمر بن الخطاب: ما وجبت، يا رسـول الله؟ قال: «**الأول أثنيتم عليه خيـرًا، فوجبت له الجنة، والثاني أثنيتم عليه شرًّا، فوجبت له النار؛ أنتم شهداء الله في الأرض**»[1].

فشـهداء الله في الأرض جميعًا من الخيار الصالحين، شهدوا لعبد العزيز الرنتيسـي: أنه كان رجل صِدق، صدق مع ربه، صدق مع نفسـه، صدق مع إخوانه، صدق مع أعدائه. وظلَّ على هذا الصدق، حتى اختار الله له الشهادة.

وقد أصدر بوش قبل وفاة الرنتيسي بيانًا سلب الفلسطينيين فيه كل حق لهم، رفض فيه حق العودة لملايين الفلسطينيين، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، وشردوا في آفاق الأرض، ليس لهم حق العودة إلى أرضهم، التي اغتصبها من اغتصبها، ممن جاؤوا من روسـيا وأمريـكا ومن بلاد العالم، أصبحوا هم أصحاب الأرض! وزعم بوش أن إسرائيل دولة يهودية، ومعنى ذلك أنه لا حق لغير اليهود في البقاء فيها، وأن المستوطنات التي أقيمت في الضفة الغربية وفي غيرها يجب أن تبقى، وأنه ليس من الضروري الرجوع إلى حدود يونيو (١٩٦٧م)، ولو كنت قاضيًا لجعلت (بوش) المتهم الأول في قتل الشيخ أحمد ياسـين والدكتور عبد العزيز الرنتيسي، فهو الذي ألصق بـ(حماس) و(الجهـاد) وفصائل المقاومة الأخرى تهمـة الإرهاب، وأباح دماءهم، فهو شريك شارون في هذه الجريمة.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩)، عن أنس.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

أســأل الله تبارك وتعالى أن يرحمه رحمة واسعة، وأن يتقبله في عباده الصالحين، مع الصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقًا.

وقد صلينا عليه صلاة الغائب بمسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، عقب صلاة الجمعة.

* * *



الإعلامي ماهر عبد الله
(١٣٧٩ ـ ١٤٢٥هـ ـ ١٩٥٩ ـ ٢٠٠٤م)

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾

[آل عمران: ١٨٥].

في (١١ سبتمبر ٢٠٠٤م)، توفي الأخ العزيز ماهر عبد الله، وقد قلت في أول حلقة من حلقات الشريعة والحياة بعد وفاته: لا يسعني في أول حلقة آتي إليها بعد غيبة أخي العزيز ماهر رَحِمَهُ اللَّهُ، إلا أن أعزِّي أسرته الصغيرة، زوجته وأولاده، وأعزِّي أسرته الكبيرة، أسرة الجزيرة، وأعزي إخوانه، وأعزِّي أصدقاءه وأحبَّاءه في بلاد شتى، وأعزِّي نفسي فيه أيضًا، فأنا أول من يُعزَّى فيه، فالإنسان يُسأل يوم القيامة عن صحبة ساعة، فكيف بصحبة دامت سنين، كان فيها هذا الأخ العزيز يحاورني وأحاوره على هذه المنصة؟![1].

كان له من اسمه نصيب، كان في بعض الحلقات لا يُحضِّر لحلقته، ومع هذا كان يديرها بمهارة، يُديرها بذكائه ومخزون قراءاته، التي يستطيع بها أن يولِّد الأسئلة، وأن يطرح الأفكار؛ ولذلك كان له معجبون ومحبون في أنحاء العالم، من تقديم هذا البرنامج الذي كتب الله له القبول في قلوب المسلمين، خصوصًا الناطقين بالعربية في أنحاء العالم.

---

(١) أي: برنامج (الشريعة والحياة) على قناة الجزيرة القطرية.

كان آخر عهدي بالعزيز ماهر يوم الخميس قبل وفاته، التقينا على غداء دعانا إليه السفير اليمني في الدوحة، ودعا عددًا من الإخوة من ضيوف قطر في المؤتمر القومي العربي، وتحدثنا عن الحلقة التي ستُذاع يوم الأحد، وعن موضوعها، واتفقنا عليه، وقال لي: سأتصل بك في يوم السبت؛ لنتحدث عن التفاصيل.

ولم يتَّصل يوم السبت، فقد كان مشغولًا بالضيوف، يقوم بخدمتهم، وإنجاز مهام كثيرة لهم رَحِمَهُ اللَّهُ. ومضى ذلك اليوم، وفي اليوم التالي يوم الأحد جاءتني زوجتي أم محمد، قابلتني باكية، ففزعت وقلت لها: ماذا؟ قالت: أحسن الله عزاءك في ماهر عبد الله، لقد توفي في حادثة! لم يسعني إلا أن أقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. كما علمنا الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

مات ماهر في حادثة، وهو ملء السمع والبصر، وكان ذاهبًا في حاجة من حاجات أحد إخوانه، لم يكن ذاهبًا في مصلحة شخصية، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**مَن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**»[(١)].

وقد شاء الله له أن ينال هذا النوع من الشهادة، والنبي عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه: «**ما تعدون الشهيد فيكم؟**» قالوا: مَن قتل في سبيل الله، فهو شهيد. قال: «**إن شهداء أمتي إذًا لقليل!**»[(٢)] ثم عَدَّ المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله.

حتى المرأة التي تموت وهي تلد، عدَّها النبي ﷺ في الشهداء. فكل مَن مات في حادثة من هذه الحوادث فهو شهيد، ويسمى شهيد الدنيا، والذي يموت في المعركة مع الأعداء في سبيل الله هو شهيد الدنيا والآخرة، وهناك

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٥)، عن أبي هريرة.

شهيد الآخرة، وهو من نوى الشهادة ولم تتح له: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»[1].

وقد كان في وفاة أخينا ماهر عبرة، بهذا الموت المفاجئ، فالناس يستبعدون الموت، ويُخططون لحياتهم سنين تطول أو تكثر، ولا يخطر في بالهم ما قاله الشاعر:

كلُّ امرئٍ مصبَّحٌ في أهلِهِ والموتُ أدنى مِنْ شِراكِ نَعْلِهِ

وقول الآخر:

تزوَّدْ من التقوى فإنَّك لا تدرِي إذا جنَّ ليلٌ هل تعيشُ إلى الفجرِ

هذه عبرة، والعبرة الثانية: أن يدخر الإنسان لنفسه ما يستطيع أن يلقى الله به وهو مطمئن القلب، منشرح الصدر، يقول الشاعر:

وما مِنْ كاتبٍ إلَّا سيَبْلى ويبقى الدهرَ ما كتبتْ يداه
فلا تكتبْ بخطِّكَ غيرَ شيءٍ يسرُّكَ في القيامةِ أن تَراه

فكلُّ منتج ثقافي، مما يُقرأ أو يُسمع أو يُشاهد، لا تقدم شيئًا من هذا إلا ما يسرُّك في القيامة أن تراه، وإلا كان وبالًا عليك.

نسأل الله ﷻ لأخينا العزيز ماهر: أن يغفر له، ويرحمه، ويُسكنه الفردوس الأعلى، ويتقبله في الصالحين، ويجزيه بالحسنات إحسانًا، وبالسيئات عفوًا وغفرانًا، ويحشرنا معه، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقًا. آمين.

* * *

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٩)، وأبو داود في الصلاة (١٥٢٠)، والنسائي في الجهاد (٣١٦٢)، عن سهل بن حنيف.



عبد الله علي المطوع

رجل الدعوة والمواقف والفضائل

(١٣٤٥ ـ ١٤٢٧هـ = ١٩٢٦ ـ ٢٠٠٦م)

من الناس مَن يعيش ويموت، ولا يحسُّ بعيشه أحد، ولا يبكي على موته أحد، فهو حي كالأموات، حاضر كالغائبين، وهو الذي قال في مثله الشاعر:

فذاكَ الذي إن عاشَ لم يُنتَفعْ به وإن ماتَ لا تَبْكي عليه أقاربُه!

ومن الناس مَن يموت، فتستريح الأرض من شره، ويتنفس الناس الصُّعَداء بموته، لما عانَوْه من ظلمه وعسفه، وطغيانه على الخلق، واعتدائه على الحق، وانتهاكه للحرمات. فلا غـــرو أن يتمنى الناس هلاكه، وأن يدعوا عليه ســرًّا وعلانية: أن يريحهم الله منه، فإذا هلك قرؤوا قول الله تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

وهذا شأن الفراعنة والجبابرة المستكبرين في الأرض بغير الحق، والذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٩].

وهناك مَن يموت فيترك فراغًا هائلًا بموته، تبكي عليه الأعين، وتأسى له الأفئدة، وتهتف الألسنة بالترحُّم عليه.

وهذا ما أحسســنا حين رحل عن عالمنا رجل الدعوة والخير والإصلاح، رجل المواقف والفضائل: أبو بدر عبد الله علي المطوع، الذي غادر دنيانا صبيحة الأحد (١٠ شعبان ١٤٢٧هـ، الموافق ٣ سبتمبر ٢٠٠٦م)، عن ثمانين عامًا حافلة بصالح الأعمال.

وهكذا غاض النبع الفياض الذي طالما ظلَّ يتدفق بالخير والبذل والعطاء نحو ستين عامًا، يبذل من نفسه ووقته، وجهده وماله، في سبيل قضايا الإسلام وأمته، ومطالب دعوته، ونصرة شريعته، وتوحيد أمته، وإحياء حضارته.

وانطفأت الشعلة المُتَّقدة، التي ظلت متوهِّجة، ترسل أشعتها نورًا ونارًا: نورًا لطالبي الهداية، ونارًا على دعاة الغواية.

ونفد زيت السراج، الذي ظل يبعث نوره، ليضيء الطريق للحائرين، وذبلت فتيلته.

إنه (أبو بدر)، رئيس جمعية الإصلاح الاجتماعي بالكويت، ورئيس مجلس إدارة مجلة (المجتمع)، المعروفة بمواقفها الشجاعة، وصراحتها في نصرة الحق، ومقارعة الباطل.

إنه القاسم المشترك وراء كل عمل خير يسعى لمعونة أولي الفقر والحاجة من المسلمين، أو لسدِّ الثغرات التي يحتاج إلى سدِّها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، فهو أبو الفقراء، وملاذ أصحاب المشروعات الإسلامية والإنسانية.

وهو قِبلة كل مَن يأتي إلى الكويت، لطلب المساعدة في المشروعات الخيرية والإسلامية من كل أقطار العالم. ولقد عَرَفته منذ نحو (٤٥) خمسة وأربعين عامًا تقريبًا، فما عَرَفت فيه إلا الصدق في القول، والإخلاص في العمل، والبذل في سبيل الله، والمشاركة في كل عمل نافع، لنصرة الإسلام، ونشر رسالته، والنهوض بأمته.

رأيته في (بيشاور) في (باكستان) في محاولات الإصلاح بين الإخوة المجاهدين في أفغانستان، ورأيته في فرنسا في افتتاح الكلية العلمية الإسلامية، ورأيته في مؤتمرات شتَّى تعمل للإسلام، ولدعوة الإسلام، وحضارة الإسلام.

وحَسْب أبي بدر عندي فخرًا: أنه كان أول من ساند دعوتي لإقامة مؤسسة تحافظ على الوجود الإسلامي للأمة في مواجهة خطة التنصير التي قرَّرها المنصرون الأمريكان، الذين اجتمعوا في ولاية كولورادو سنة (١٩٧٨م) في مؤتمر قرروا فيه: تنصير المسلمين في العالم، ورصدوا لذلك ألف مليون دولار، جمعوها في الحال، وأنشؤوا لذلك معهدًا سموه معهد (زويمر)، لتخريج مبشرين متخصصين في تنصير المسلمين.

وحين ناديت ـ في الجلسة الختامية لمؤتمر المصارف الإسلامية الذي انعقد في الكويت ـ بضرورة تأسيس هذه المؤسسة أو الهيئة، ورَشَّحتُ أمينًا عامًّا لها: الشيخ يوسف جاسم الحجي، وطلبت من الحضور أن يكونوا أول المساهمين في إنشاء هذا الكيان المنشود؛ وهنا لا أنسى موقف أبي بدر رَحِمَهُ اللَّهُ، وغفر له، وجعل الجنة مثواه، الذي أقبل عليَّ، وهمس في أذني قائلًا: إني أتبرع لهذا المشروع بمليون دولار، أودعها لحسابه في بيت التمويل الكويتي، وأرجوك ألَّا تعلن عن اسمي، ولقد وُفِّقْتَ كل التوفيق في اختيار يوسف الحجي لهذا الأمر، فهو الرجل الذي يُجمع الكويتيون على صدقه واستقامته، وإخلاصه والرضا عنه. وهذا من بشائر الخير لفكرتك.

وكانت هذه الخطوة بشرى بنجاح دعوتي، وقد بادرت بالإعلان عن التبرع بمليون دولار، دون أن أذكر اسم المتبرع كما طلب، ثم لم تمضِ مدة حتى عرف الناس من هو صاحب المليون.

ولم يكتفِ أبو بدر بذلك، بل ضمَّ إلى المليون عمارتين من عماراته أوقفها لصالح المشروع.

وكان أبو بدر عضو اللجنة التحضيرية التي قامت بالإعداد للمشروع الكبير، مع يوسف الحجي، وسليمان الراجحي، وعبد الله العقيل، والفقير إليه

تعالى، حتى تأسست الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، وقامت بدورها الخيري والإنساني في العالم الإسلامي والعالمي.

وكان أبو بدر ضمن الوفد الـذي قرَّر مجلـس الإدارة أن يمرَّ على دول الخليج وعلى أمرائها، وأن يعرض عليهم الفكرة، ويشرح لهم أهدافها، وأنها لا تتدخل في السياسـة، وإنما تحاول حماية المسـلمين ممـن يحاول تغيير عقيدتهم، واستلاب هُويتهم.

وتكون الوفد من الشيخ الحجي وأبي بدر من الكويت، والشيخ عبد الله الأنصاري والفقير إليه تعالى من قطر، والشيخ عيسى بن محمد آل خليفة من البحرين. وقد مررنا على أمير قطر السـابق الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، ورحَّب بنا كل الترحيب، وأذن لنا بفتح حسـاب فـي قطر لجمع التبرعات لحساب الهيئة.

وكذلك التقينا بأمير البحرين الراحل الشيخ عيسى بن سليمان آل خليفة، فاحتفى بنا غاية الاحتفاء، ووعدنا بأن يُذلِّل الصعاب أمامنا. ولم يُفتح الباب لنا في الإمارات ولا في المملكة ولا في عُمَان.

وكان أبو بدر منذ نشأت الهيئة ـ وحتى لقي ربه ـ من أعمدتها الراسخة، ودعائمها الشامخة، كان عضو مجلس إدارتها، وعضو لجنتها التنفيذية، وأمين المال لها، والساعد الأيمن لرئيسها، وسند العاملين فيها.

وكان هذا شأنه مع كل مؤسسة خيرية، وكل جمعية إسلامية، يشدُّ أزرها، ويسند ظهرها، وينهض بها إذا تعثرت، ويقويها إذا ضعُفت، ويزيدها قوة إذا اشـتدَّت، ويمدها بالغذاء والوقـود، حتى تنطلق إلى الأمام، وتسـتمر في انطلاقها وحركتها.

كان كذلك مع الهيئات العاملة في الكويت؛ (لجنة مسلمي إفريقية)، و(لجنة مسلمي آسية)، و(لجنة المناصرة للقضية الفلسطينية).

وأشهد أني ما قصدتُه في عمل خيري أو دعوي، إلا كان عند حسن الظن، ما تلكَّأ ولا تردَّد مرة من المرات، وكأنما قصده الشاعر بقوله:

ما قالَ لا قــطُّ إلَّا في تشــهُّدِهِ لولا التشهُّدُ كانت لاؤُه (نعمُ)!

حينما دعوت إلى تأسيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، قلت له: لن نستغني عن مساعدتك، عندما ندعو إلى أول جمعية عمومية. قال: أنا حاضر، وأنا معك بقلبي وما أملك، وثق أننا جنود لك في مشروعاتك الكبرى، كما كنا معك عند دعوتك لتأسيس (الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية)، وكما كنا معك عندما دعوت إلى تأسيس موقع (إسلام أون لاين).

وكان الرجل عند وعده، فأرســل إليَّ مبلغًا طيبًا مع الأخ الجليل الدكتور عجيل النشمي حفظه الله، وقال: متى احتجتم إلى زيادة فأنا حاضر. وذلك في أول اجتماع عقدناه في لندن في صيف سنة (٢٠٠٤م).

وفي آخر جلسة أقمناها في إستانبول في شــهر يوليو (٢٠٠٦م)، لم يبخل علينا بما نحتاج إليه، ووعد بالمزيد.

وكنت أبعث إليه ببعض رسائل التوصية لبعض طالبي المعونات، وأصحاب المشروعات، من قارات الدنيا المختلفة، فلا يخرج أحد من عنده إلا مرضيًّا، رغم كثرة الطالبين، كما قال الشاعر:

يزدحــمُ النــاسُ علــى بابِــهِ والمنهلُ العذبُ كثيــرُ الزِّحام

وقد بارك الله له في ماله، ما ورثه، وما كســبه، ومــا تركه والده له من وصية، فكان كما جاء فــي الحديث الذي رواه الإمام أحمــد: «**نِعِمَّا المال الصالح للمرء الصالح**»[1].

---

(١) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وابن حبان في الزكاة (٣٢١٠)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق (٢٩٩)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٧٥٦)، عن عمرو بن العاص.

وكما قال الشاعر:

هو البحرُ من أيِّ النواحي أتيتَه ... فلُجَّتُه المعروفُ والجُودُ ساحلُه
تــراهُ إذا مــا جئتَــه متهلِّــلًا ... كأنَّك تعطيه الذي أنتَ ســائلُه
ولو لم يكنْ في كفِّه غيرُ رُوحه ... لجــادَ بهــا، فليتَّقِ اللهَ ســائلُه

وكان كل زائر للكويت من طلاب الخيــر، يبدأ بزيارة أبي بدر، وكان هو على رأس قائمة من أهل البر والخير والإحســان في الكويت، فإذا وجدوا أبا بدر قد بدأ، كانوا على إثره، فهو أيضًا يتحرَّى حين يعطي، ولا يبذل لكل من هبَّ ودبَّ، فما أكثر الدجَّالين في هذا المجال، وقد بلوتُهم بنفسي، وتبين أن هناك محترفين في استخراج الأموال، وهم لا يستحقونها.

لم يكن عبــد الله المطوع مجرد رجل مــن ذوي الثــراء، أو كما يقولون (ملياردير)؛ فقد عاش عُمُرَه صاحبَ دعوة، وحامل فكرة، وجندي رسالة، نذر لها عمره، ووهب لها وقته وماله وفكره. فلم يشــغله ماله عن دينه، ولم تُلهه ثروته عن دعوته، بل كان كما وصف الله روَّاد بيوته، حين قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٨].

لقد آمن بدعوة الإخوان المسلمين، منذ فجر شبابه، وأخلص لها، وعاش فيها، وعاشــت فيه، وكان من قياداتها المحلية والإقليمية والعالمية، ومع هذا عاش في الدعوة، بروح الجندي المتواضع، لا بعقلية القائد المتعالي؛ فهو مع إخوانه كواحد منهم، بل لا يرى نفسه إلا دونهم.

لقد عَرَف مرشديها جميعًا وعَرَفوه، بدءًا من الإمام حسن البنا، الذي لقيه في موســم الحج (١٩٤٦م)، وكان عمره عشرين ســنة، ثم تعرَّف على الأستاذ

الهضيبي، والأساتذة التلمساني وأبي النصر ومشهور والهضيبي الثاني، إلى الأستاذ المهدي عاكف، وكان نِعمَ المُعين لهم.

ولقد اشتركت معه لعدة سنوات في التنظيم العالمي للإخوان ـ قبل أن أستعفي منه ـ بل قبل أن ينشأ التنظيم بصفة رسمية، فكان يمثل القلب المتحرِّق، والوجدان الحي، والإرادة الصادقة، لتجاوز المشكلات، والبحث عن الحلول، والتطلُّع إلى الأفق الأعلى، يظل الساعات الطوال معنا، بل الأيام والليالي، ولا يقول ما يقوله رجال الأعمال عادة: إن الوقت عنده من ذهب، وكل دقيقة تمضي يستطيع أن يكسب فيها ألوفًا من الدراهم أو الدنانير! بل يرى أن وقته يجب أن يكون لله قبل أن يكون للتجارة والمال؛ شعارُه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وكنا كثيرًا ما نختلف فكريًّا حول بعض المواقف، فهو رجل مسلم محافظ، يمثل المحافظة، ولا يحب الخروج عليها. وقد تأثر إلى حد ما بتشدد إخواننا السلفيين في عدد من القضايا.

ومن ذلك: موقفه من قضايا المرأة، فقد كان موقفه مع المتشددين، حتى إنه وقف ضد توجه أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد، وأيَّد الذين منعوا المرأة أن يكون لها صوت في الانتخاب، ناهيك أن ترشِّح نفسها لمجلس الأمة.

وقد اتصلتُ به هاتفيًّا من قطر، وحاولتُ أن أقنعه ليعدِّل من رأيه، وأن هذا ما تدل عليه النصوص الصحيحة الثبوت الصريحة الدلالة، وما تهدي إليه مقاصد الشريعة، وما يردُّ عن الإسلام تهمة إهمال شأن المرأة والاستهانة بها، على أن الأمور الاجتهادية والخلافية إذا رأى فيها ولي الأمر رأيًا رفع الخلاف، فلماذا تخالفون أمير البلاد في أمر خلافي؟.

وسكتَ أبو بدر حينما كلَّمْتُه، ولكنه لم ينثنِ عن رأيه، وظلَّ مخالفًا لأمير بلاده؛ لأنه يؤمن بأن موقفه حق.

وعندما أنشأنا (إسلام أون لاين) دعونا أكثر من مئة شخصية معروفة من أبناء العالم الإسلامي، ومن أوربة وأمريكة وغيرها، وكان فيها عدد من النساء من قطر والسعودية والخليج.

وحين اختار المجتمعون مجلس إدارة لهذه المؤسسة العالمية الوليدة كان منه امرأتان، وكان أبو بدر من الرافضين لذلك، وحاول بما له من وزن ومنزلة التأثير ضد هذا الرأي، ولكن التيار كان أقوى منه.

وبعد عودته إلى الكويت أرسل كتابًا يرجوني فيه ألا أقع في هذا الشَّرَك: إدخال المرأة في مجلس الإدارة، فما لهذا خُلِقَتِ المرأة، ويلتمس مني مراجعة الأمر والتأنِّي فيه!.

ومع هذا الخلاف في مثل هذا الأمر، فلم يكن لينال من المودة والأخوة الوثيقة التي بيننا مثقال ذرة، ما تغيَّر حبي له، ولا حبه لي.

وقد حضرتُ ندوة في القاهرة حول (فقه الإعلام) في بداية تأسيس قناة (اقرأ)، وكان لي في هذه الندوة كلمة في الافتتاح، ومحاضرة حول هذا الفقه المنشود، ورأيتُ أن هذا الفقه لا يمكن أن يتمَّ ويترسَّخ إلا إذا انبنى على قاعدتين أساسيتين:

١ ـ **قاعدة التيسير**: وهي قاعدة مُجمع عليها في الجملة، ثابتة بالقرآن والسنة، وإذا كانت لازمة في كل عصر، فهي ألزم ما تكون في عصرنا، وإذا كانت مطلوبة في كل شيء، فهي أكثر ما تكون طلبًا في مجال الإعلام.

٢ ـ **والقاعدة الثانية**: قاعدة التدرُّج، فهو سنة كونية وسنة شرعية، ولا بدّ لمَن يريد إنشاء إعلام إسلامي من التدرُّج.

وبهاتيـــن القاعدتين يجب أن نقبل الأعمال الدراميـــة، وإن كان لنا عليها بعض التحفظات، وأن نقبل وجـــود المرأة في التمثيـــل، وإن لم تكن كاملة الحجاب، وإلا تركنا الإعـــلام لغيرنا، وبقي إعلامنا مقصـــورًا على المواعظ والأحاديث والحوارات الدينية والفتاوى الشرعية.

وتولَّتْ مجلة (المجتمع) الهجوم على ما قلتُـــه، وكتب الكاتبون يردُّون عليَّ من المتشـــددين والظاهرية الجدد، وفســـحت لهم المجلة المجال، وردَّ آخرون يؤيدون وجهة نظري، فلم تسمح لهم المجلة بنشر ردودهم. وكان هذا بتوجيه من أخي وحبيبـــي (أبي بدر)، ثقة منه بأن هذا هو الشـــرع، وما عداه خروج عنه. ومع هذا عذرته فيما فعل، وعاتبته حين لقيته بعد ذلك، واعتذر لي بلطف، وقال: إني أخشـــى مِن فتحِ هذا الباب، ألا يقف عند حد، ولا ينضبط بضابط من كتاب أو سنة.

كان الذي يجعلني أقبل مثل هذه المواقف المتشددة من أبي بدر: أنه كان رجل صدق، لا يحابي فـــي دين الله، ويقف بالمرصاد لـــكل موقف باطل، ولكل طاغية مســـتكبر، وأصبحت مجلتـــه (المجتمع) لســـان الحق المر، والصدق الخالص.

كان صاحب مُثُل وفضائل، كلها تَنبُع من شـــعب الإيمان، فهو إذا حدَّث صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا اؤتمن أدَّى، وإذا عاهد وفَّى، وإذا خاصم أنصف، وإذا أعطي شكر، وإذا أُوذي صبر، وإذا أُسيء إليه غفر.

كان محبَّبًا ومحترمًا بين مواطنيه جميعًا، فقد كان في الكويت: السلفيون، والصوفيون، والمذهبيون، واللامذهبيون، والقوميون، والعلمانيون، والليبراليون، والماركسيون، وكانوا يخالفونه ويخالفهم، ولكنهم جميعًا يحترمونه ويعرفون له فضله، ويقدِرونه قدره.

وكان كذلك في بلاد الخليج كلها، وهو عضو المجلس التأسيسي لرابطة

العالم الإسلامي، وعضو المجلس العالمي الأعلى للمساجد، وكان أثيرًا عند العلَّامة الشيخ عبد العزيز بن باز مفتي المملكة العام.

عندما وقعت الواقعة، وغزا صدام حسين الكويت، وخرج أكثر أهلها منها، وكان هو بالخارج، وقد أمسى أغلب الكويتيين الذين كانوا يملكون الملايين ما بين عشية وضحاها (أبناء سبيل)، فقد تركوا أملاكهم في وطنهم، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق، وأصبح دينارهم الذي كان من أقوى العملات العالمية لا يكاد يساوي شيئًا في دنيا الصرف وسوق العملات.

وكان لدى أبي بـــدر فضل مال في الخارج، رصـــده لمعونة المحتاجين، وإيواء المشردين، والعمل على تنبيه الرأي العام العربي والإسلامي لمساندة قضية بلده، وكم ســـافر من بلد إلى آخر، لشـــرح القضيـــة الكويتية، ويتصل بالإسلاميين في سائر الأقطار ليحشدهم لنصرة الكويت.

ولم يبال بما قد يسببه له هذا من أضرار على ممتلكاته في الكويت، من الجيش العراقي الذي يملك ناصية كل شيء داخل الكويت.

وفعلًا تعرضـــت محلاته ومتاجـــره ومعارضه ومخازنـــه للنهب المنظم، فحملت عشرات السيارات ومئاتها كل ما استطاعوا من بضائع، والرجل يتاجر في كل شيء.

ولم يفتَّ ذلك في عضده، ولم يوهن من عزمـــه، بل قابله بصبر جميل، وثقة بأن الله سيعوضه خيرًا مما أخذ منه، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٧٠].

وقد ســـمعت أبا بدر بعد حوالي ســـنة من انتهاء الغزو ودخول الكويت ودوران دولاب العمل من جديد، سمعته يقول: لقد عوَّضني الله في هذه المدة اليسيرة عن كل ما خسرته في تلك الغزوة الشريرة.

كان من يرى أبا بدر يدقّق في البيع والشراء، ويحرص على ألا يضيع حقًّا له، ربما يتوهمه رجلًا بخيلًا، وهو وهم خاطئ؛ فقد كنا معًا في أحد الفنادق، وطلب لنا فطورًا مشتركًا، وكان من بين مواد الإفطار أحقاق من العسل، وقد بقي منها أربعة لم يمسسها أحد، فقال: نحن دفعنا ثمنها، فلا نتركها!.

ومع هذا: فهو الذي يبذل الملايين في سبيل الله، ويقف الأوقاف الكبيرة لله.

مما أعرفه عنه: أنه كان حريصًا على إخراج الزكاة، لا يؤخرها عن وقتها، بل قد يُعجِّلها أحيانا لسدِّ حاجات لا بد منها، وهو أمر مشروع. وكان يحسب زكاة العمارات التي يؤجرها، وفقًا لما رجَّحتُه في كتابي (فقه الزكاة) وهو (١٠٪) عشرة في المئة، أو العشر من غلتها بعد خصم النفقات، من الضرائب والصيانة ونحوها.

لقد مات أبو بدر ولم يمت، ورحل عن دنيانا ولم يرحل، فهو حي باق بآثاره ومآثره، وبالباقيات الصالحات من أعماله في مساندة المشروعات العلمية والفكرية والتعليمية والدعوية والاجتماعية والاقتصادية في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، وفي الأقليات الإسلامية حيثما كانت؛ فهذه الباقيات الصالحات تخلِّد في الناس ذكره، وتجعل له لسان صدق في الآخرين، وتضيف له أعمارًا أخرى بعد عمره الرسمي المحدود، كما قال شوقي:

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له ... إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثوانِ
فارفعْ لنفسِكَ قبلَ موتِك ذِكْرَها ... فالذِّكْرُ للإنسانِ عمرٌ ثانِ

كان أبو بدر من الرجال الأفذاذ الذين يجود بهم القدر ما بين الحين والحين، ليسدُّوا الثغرات، ويؤدوا الأمانات، وينصروا رسالات الله، لذا أراه للحركة الإسلامية، كأنما هو ابن عوف أو ابن عفان للدعوة المحمدية.

ولهذا لا نعجب إذا ذرفت عليه العيون عبرات، وذهبت النفوس حسرات، وتوقدت القلوب جمرات.

لعمرُك مـا الرَّزيـةُ فَقْـدُ مالٍ ولا فـرسٌ يمـوتُ ولا بعيـرُ
ولكـنَّ الرَّزيـةَ فَقْـدُ حـرٍّ يمـوتُ بموتِـه خلـقٌ كثيـرُ

وحسبك دلالة على حسن خاتمة هذا الرجل، الذي لا نزكيه على الله: أنك لا تجد رجلًا من أهل الدين والصلاح إلا أثنى عليه خيرًا، وألسنة الخلق أقلام الحق، والناس شهداء الله في الأرض.

روى الشيخان: عن أنس ﷺ قال: مَرُّوا بجنازة، فأثنوا عليها خيرًا، فقال النبي ﷺ: «**وجبت**» ثـم مرُّوا بأخرى فأثنوا عليها شـرًّا، فقال: «**وجبت**» فقال عمر بن الخطـاب ﷺ: ما وجبت؟ قال: «**هذا أثنيتم عليـه خيرًا، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًّا، فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض**»[1].

وفي حديث آخر: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يموت، فيشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الأدنين: أنهم لا يعلمون منه إلا خيرًا، إلا قال الله تعالى وتبارك: قد قبلت قولكم ـ أو قال: شهادتكم ـ وغفرت له ما لا تعلمون**»[2].

فكيف بمن شهد له الألوف من عباد الله الأخيار؟!.

رحم الله أخانا وحبيبنا رجل الدعوة، ورجل البر، ورجل الإصلاح، رجل الكويت، ورجل الخليج، ورجل العرب، ورجل الإسلام، وغفر الله له، وأسكنه الفردوس الأعلى، وتقبله في عباده الصالحين، وفي السابقين المقربين، وجزاه عن دينه ودعوتـه وأمته خير ما يجـزي العاملين، الذين أخلصـوا دينهم لله، وأخلصهم الله لدينه، وإنا لله، وإنا إليه راجعون.

* * *

---

(١) سبق تخريجه: ص٥٥٩ في كتابنا هذا.

(٢) سبق تخريجه: ص٥٠٩ في كتابنا هذا.



الأستاذ محمد عبد الرحمٰن خليفة

المراقب العام الثاني للإخوان المسلمين في الأردن

(١٣٣٨ ـ ١٤٢٧هـ = ١٩١٩ ـ ٢٠٠٦م)

الداعية المجاهد والمحامي الجريء: محمد عبد الرحمٰن خليفة النسور، وُلد في مدينة السلط عام (١٩١٩م)، وهو ينتمي إلى عشيرة النسور السلطية.

بدأ حياته العملية معلمًا في مدرسة حوارة الابتدائية، ثم في مدرسة الرمثا، ثم ترك التعليم ليلتحق بمعهد الحقوق في القدس؛ حيث حصل منها على شهادة بكالوريوس في المحاماة.

وقد عمل بعد تخرجه في معهد الحقوق محاميًا لمدة سنتين، ثم اختاره المجلس القضائي في عمان ليكون قاضيَ صلحٍ في معان، ثم نقل بالوظيفة نفسها إلى إربد، ثم الكرك، ثم مادبا ليشغل وظيفة قاض فيها؛ حيث استقال سنة (١٩٥٣م) بناءً على طلب مجلس الشورى في جماعة الإخوان، الذي انتخبه مراقبًا عامًّا للإخوان المسلمين في الأردن، وهو صاحب أطول مدة في رئاسة حركة الإخوان المسلمين في الأردن من (١٩٥٣ ـ ١٩٩٤م)، كما ترشح نائبًا بالبرلمان الأردني بين أعوام (١٩٥٦ ـ ١٩٦١م).

- **معرفتي به:**

كان أول لقاء لي به في عام (١٩٥٢م) في الأردن، ففي أوائل شهر أغسطس سنة (١٩٥٢م)، بعد حوالي أسبوعين من قيام ثورة (٢٣) يوليو، جاءني أمر من الأستاذ الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين بأن أتهيأ لرحلة إلى بلاد الشام: لبنان وسورية والأردن، أنا والأخ الفاضل الأستاذ محمد علي سليم من إخوان الشرقية، توثيقًا للصلة بالإخوة هناك، وتعميقًا للمعاني التربوية عندهم.

وكانت رحلة مباركة زرت فيها عددًا من مدن سورية ولبنان، وفي النهاية وصلت إلى (عمّان) واستقبلني الإخوة بها استقبالًا طيبًا، ورتبوا لي عددًا من المحاضرات في عمّان، وفي عدد من مدن المملكة الأردنية في الضفة الشرقية، مثل: الصلت، وتعرفت على الأستاذ عبد الرحمٰن في إحدى هذه المحاضرات، وكان وقتها نائبًا للأحكام (مـن الوظائف القضائية في الدولة)، وقال لي الأخ الذي عرفني بـه فيما بيني وبينه: إنه من الإخـوان المهمّين، الذين يُرجى أن يكون لهم شأن.

• **علاقته بالإخوان:**

تعرف الأسـتاذ خليفة رَحِمَهُ اللَّهُ على دعوة الإخوان المسلمين مبكرًا، عندما كان طالبًا في كلية خضوري بفلسـطين، من خلال النشرات الإسلامية التي كانت تصل فلسطين، يقول الأسـتاذ خليفة: «وللعلاقة الطيبة والأخوة المتينة التي كانت تجمعنا بالحاج عبد اللطيف أبي قورة، والتي كان لها أثرها الكبير في إقبال عدد كبير من الشـباب المسـلم المثقف على دعوة الإخوان، فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ يدعوني وبعض الإخوة لاستقبال الدعاة والعلماء الذين كان يرسلهم الإمام الشهيد حسن البنا رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الأردن، لنشـر الدعوة وأفكارها، وشرح خصائصها وسماتها.

ومن أبرز هؤلاء الدعاة الأسـتاذ سـعيد رمضـان، والشـيخ عبد المعز عبد السـتار، والأسـتاذ عبد الحكيم عابدين، وكان لمحاضراتهم القيمة في المساجد وفي شُعَب الإخوان أثرها البالغ في إقبال الكثيرين من أبناء الأردن ـ خاصة المتعلمين والموظفين ـ على هذه الدعوة المباركة، فكنت أحد هؤلاء الذين ملأت الدعوة عقولهم وقلوبهم ووجدانهم».

وقد تعرض للنفي إلى دمشـق في عام (١٩٥٥م)، بقرار من (كلوب باشا)، ومُنع من دخول الأردن ما يقارب سـتة أشـهر، كما أنه سُجن أكثر من مرة في

الخمسينيات وبداية الستينيات، وكان قرار سجنه يأتي من رؤساء الحكومات، ولكن ما يلبث أن يتـم الإفراج عنه، حتى قال له ولبعض إخوانه أحد رؤسـاء الوزارات: والله، لن تخرج وأنا حي. فقال لـه: الحياة بيد الله. كما أن له مواقفه المميزة تحت قبة البرلمان لما أصبح نائبًا للأمة بعد فوزه في انتخابات (١٩٥٦م).

• **اهتمامه بالقضية الفلسطينية:**

بعد أن سمحت الحكومة الأردنية لجماعة الإخوان المسلمين، بممارسة نشـاطاتها، على اعتبار أنها هيئة إسلامية عامة شـاملة، لا جمعية خيرية، تم التركيز على تحقيق غايتين: أولاهما: التربية للمسـتقبل. وثانيتهما: الاهتمام بقضايا الأمة المصيرية كقضية فلسطين، وفي ذلك يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ركزت على القضية الفلسـطينية كقضية سياسـية عاجلة، تنذر بأسـوأ العواقب على الأمة الإسلامية كاملة إذا لم تُسَدَّ هذه الثغرة، لكن مع الأسف ما كان يصل إلى الحكم إلا من اسـترضى دائرة الاعتماد (المعتمد البريطاني)، وهؤلاء الذين يسترضون المعتمد البريطاني وعملاءه يجب ألا يعملوا أي عمل يغضب الإنجليز. وأهم شـيء أنهم كانوا يرضون هـؤلاء الإنجليز من خلال حصر الإسلام في الصلاة والصوم والحج وغير ذلك من الأمور التعبدية، وهذا المعنى شـب وأثّر في نفسـي منذ صغري عندمـا كنت في الصـف الرابع الابتدائـي، فقد دخل علينا الأسـتاذ عبد الرازق أدهم ـ وهو خريج مدرسـة الزراعة في (سـلمية) بسـورية ـ وأخذ يتكلم معنا بلهجة أبوية متعاطفة، في ثلاثين دقيقة. وقال: فـإذا وعيتم هذا الدرس، فسـأخصّص لكم ما تبقى من الحصة لشيء يهمكم جدًّا، وليس له علاقة بالزراعة.. تشوقنا جدًّا لما سيقوله لنا، فكنا آذانًا صاغية، وامتحنّا في دقائق، ثم قال بصوت منخفض: إني أريد أن أشرح لكم أهمية الإسلام كدين للدنيا والآخرة، لأن الإسلام هو الحياة. ثم قال: إن الدين عند الله الإسـلام، ولا يقبل من أي إنسـان إلا الإسلام، لذلك أطلب منكم أن تغلقوا الشـبابيك، حتى لا يسمعنا من يتجسّس على درسي،

فإنهم إن عرفوا أني أشرح لكم عن الإسلام وأهميته في الحياة، فسوف يكون عقابي الفصل من عملي. قفزنا بسرعة إلى الشبابيك لنغلقها، ومن ثمَّ جلسنا وكلنا آذان صاغية نتلقف من فمه كل كلمة يقولها، فكان الأستاذ عبد الرازق أدهم أول معلم في حياتي زرع حب الإسلام بصورته النقية الواضحة في قلبي.

وتعلمت في حياتي الدعوية أن الجلوس مع عدد من التلاميذ ـ وإن كانوا قلة ـ فيه نفع وبركة، وخير للدعوة وللإسلام من إلقاء المحاضرات في حشود كبيرة من الناس، ولاحظت أن معلِّمَ الدين محارَب في رزقه، فكان المختصُّ في الشريعة يأخذ اختصاصه من الأزهر، بعد اثنتي عشرة سنة من الدراسة، بينما المختص في العلوم الأخرى لا تزيد دراسته في أغلب الأحيان على أربع سنوات، سواء في الجامعة الأمريكية في بيروت أو غيرها، فيعيَّن معلم الدين في الدرجة العاشرة، ويبقى فيها حتى يحال على المعاش، بينما خريج الأمريكية أو اليسوعية أو غيرهما من أصحاب الاختصاص في الزراعة أو العلوم أو الرياضيات أو الاجتماعيات... إلخ، يترقى في السلم الوظيفي حتى يصل إلى مدير مدرسة، أو مفتش، أو مدير دائرة.

كان مجال الدعوة الخطب والدروس في المساجد، وإلقاء المحاضرات القصيرة التي كنا نقيمها للطلاب في دور الإخوان، وننتخب المحاضر الشاب الذي يحسن مخاطبة أبناء جيله، فنحبِّب إليهم الإسلام، حتى نجعله هدفًا يجب أن يعمل من أجل تحقيقه، كضرورة لنجاته في الدنيا والآخرة، ولتخليص بلاده من الأحكام الفاسدة، التي تمهد لوقوعها فريسة سهلة للاستعمار بكل أشكاله، فكنا نحرص على كشف عيوب الحضارة الغربية الغازية لبلادنا عن طريق الجيل الجديد بلباسه وعاداته وتقاليده وتفكيره وآماله، فكانت الألبسة الأجنبية تفرضها المدرسة على طلابنا وطالباتنا، دون مراعاة لديننا وتقاليدنا الإسلامية، فصارت هذه الألبسة ـ وهي المظهر الدال على الجوهر ـ علامة الشاب المتعلم المتحضِّر المتقدم المقلد للغربي كما يظن نفسه، بينما بقية

الألبسة التي تستخدمها الأمة من آباء وأمهات لباسًا عربيًّا إسلاميًّا، هُجرت على اعتبار أنها مؤشر على التخلف لارتباطها بالماضي، وهذا ما زرعه المستعمر في أذهان هؤلاء الشبيبة.

ضربتُ مثالًا على خطر غزو الحضارة الغربية لعقول شبابنا، بما تقذفه مصانعه من جميع أنواع (الموضة)، التي كان يتلقفها منها لا لشيء، إلا لأنها جاءت من هناك، من لندن، أو باريس، أو واشنطن، لأقول: إن الذي كان يقلد الغربي بلباسه، يقلده أيضًا في سلوكه وتصرفاته وعاداته وتقاليده، لذلك فإن جهود الإخوان المسلمين انصبت على إنقاذ هؤلاء الشباب بداية، ليتم بهم إنقاذ الأمة، فبهم تنتصر الشعوب والأمم»[1].

• **وفاته:**

توفي رحمه الله يوم الخميس (٢ من ذي القعدة ١٤٢٧هـ، الموافق ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٦م)، ودُفن في مدينة (السلط) مسقط رأسه، حيث شهدت جنازتُه المهيبة حشدًا من القيادات الرسمية، وقيادات الحركة الإسلامية والشخصيات الوطنية، وحضورًا شعبيًّا من مختلف مناطق الأردن.

* * *

(١) من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية (٣/٣٠٩ ـ ٣١٢).



الدكتور حسن المعايرجي

عاشق القرآن

(ت: ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م)

انتقل إلى جوار ربه في الأربعاء (٢٩ محرم ١٤٢٩هـ، الموافق ٦ فبراير ٢٠٠٨م)، رجل العلم والتربية والدعوة والعمل في سبيل الله، والغيرة على القرآن، الدكتور حسن المعايرجي رحمه الله رحمة واسعة، وتقبله في الصالحين، وأسكنه الفردوس الأعلى، مع الذين أنعم الله عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، وهو اليوم نفسه الذي مات فيه العالم الجليل الدكتور بكر أبو زيد، عضو هيئة كبار العلماء السعودية، وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

وقد جاء المعايرجي ـ وهو مصري الجنسية ـ إلى قطر منذ أكثر من نصف قرن، وعمل بوزارة التربية، ثم بالجامعة، ثم أصيب بالشلل، وفقد الاتصال بما حوله، ومن حوله، منذ سنوات، حتى وافاه الأجل، أسأل الله أن يجعل ذلك في ميزانه.

سمعت عن حسن المعايرجي في مدينة الزقازيق، عاصمة محافظة الشرقية بمصر، في أوائل الخمسينيات، وأنه من الشباب الناشطين في جماعة الإخوان المسلمين بالشرقية، ولكن لم أسعد بلقائه إلا في قطر، بعد وصولي إليها سنة (١٩٦١م).

كان حسن المعايرجي من المجموعة المصرية التي وصلت إلى قطر مبكرًا، في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، حين كانت قطر تخطو خطواتها الأولى في طريق النهضة التعليمية والعمرانية، فقد جاء هو

وعبد الحليم أبو شـــقة وعز الدين إبراهيم من الشام، ومعهم محمد الشافعي، وعبد اللطيف مكي، وقد تزوج عز الدين من سورية، كما تزوج هو من لبنان، كما جاء كمال ناجي وعلي شحاتة من السودان.

وعمل الجميع في وزارة المعارف، التي كان يحمل مســؤوليتها في عهد الشيخ علي بن عبد الله آل ثان: الشيخ قاسم درويش، كما حمل منصب مدير المعارف الداعية المعروف الأستاذ عبد البديع صقر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد أصبح المعايرجي بعد ذلك مديرًا لمدرسة الدوحة الإعدادية والثانوية، وكان وكيله الأستاذ عبد الحليم أبو شقة. وقد وقع معه في تلك الفترة حادث معروف وهو: أنه حطم صورة جمال عبد الناصـــر، التي كانت معلَّقة في أحد الصفوف، وكان عبد الناصر موضع الإعجاب والحماس من أبناء قطر في ذلك الزمن، وكان لهذه الحادثة دويُّهـــا بقطر في ذلك الوقت، كاد المعايرجي يفقد فيها عمله، ثم سويت الأمور، وسار المركب كما كان.

وبعد ذلـــك تغير الوضع فـــي وزارة المعـــارف، وتولى الوزارة الشـــيخ خليفة بن حمد آل ثاني، الذي سلمها لشقيقه الشيخ قاسم بن حمد، وفي ذلك الوقت عزلت الفئة السابقة من مناصبها، فتولى عبد البديع صقر مدير المعارف إدارة مكتبات حاكم قطر، التي طُوِّرت بعد ذلك وسميت (دار الكتب القطرية)، وعمل البعض في مناصب إدارية، والبعض الآخر مدرِّسين. وبعضهم ـ مثل عز الدين إبراهيم ـ سافر إلى لندن للحصول على الدكتوراه.

ومن هذه الفئة المعزولة: مـــن كان قويّ الارتباط بحاكـــم قطر في ذلك الوقت، وهو الشيخ أحمد بن علي آل ثاني، مثل: حسن المعايرجي، الذي قرَّبه الحاكم منه؛ ليقوم بتدريس أولاده العلوم واللغة الإنجليزية وغيرها.

وكان حســـن المعايرجي شـــخصية محببة مثقفة، يتقن اللغة الإنجليزية، ويطَّلع على معظم المجلات العلمية العالمية التـــي تكتب بها، ويلمّ بالثقافة

الإسلامية، بحكم انتمائه إلى الإخوان المسلمين، لهذا كان مدرسًا محببًا إلى تلاميذه لانفتاح شخصيته واتساع أفقه، وتنوع معلوماته، وقوة تأثيره، فلم يكن يكتفي بتعليم المادة العلمية المقررة، بل يعلمهم فن الحياة أيضًا.

وكنت ألتقي بالمعايرجي أنا والعسّال وعبد الحليم أبو شقة ومحمد مصطفى الأعظمي، الذي كان يعمل أمينًا عامًا لمكتبات الحاكم، ورغم أنه هندي، فإن الدعوة إلى الإسلام كانت هي النسب الذي يضم الجميع، كما أن سجن عبد الناصر له في مصر قرَّب ما بيننا، ولما عاد عز الدين إبراهيم من لندن بعد أن حصل على الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة كامبريدج: انضم إلى المجموعة التي كانت تلتقي كل أسبوع مرة، وفي الغالب كنا نطرح كل مرة موضوعًا علميًا أو تربويًا أو إسلاميًا أو من واقع الحياة.

ثم سافر المعايرجي إلى ألمانيا للحصول على الدكتوراه، وهو يحمل بكالوريوس من كلية الزراعة، وقد حصل على الدكتوراه في علم البكتيريا، ولكن الذي يحتك به يدرك أن ثقافته العلمية أوسع من تخصصه؛ لأنه لم يحبس نفسه في دائرة تخصصه، كما يفعل كثير من الأكاديميين العلميين، الذين إذا أخرجت أحدهم من تخصصه، حسبته في عداد الأميين، وهذا نتيجة التقوقع في التخصص.

ولكن المعايرجي كان يقرأ دائمًا خارج تخصصه، وخصوصًا ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، فهو مركز الدائرة بالنسبة لقراءاته واهتماماته، وعلى الأخص: ما يتعلق بالقرآن الكريم، وترجمة معانيه إلى اللغات الأجنبية، فقد أمسى هذا الموضوع أكبر همّه، في المراحل الأخيرة من حياته، فقد اهتم به، وتفرَّغ له، وأعطاه من وقته وجهده ما يستحق في نظره.

ولما رجع من ألمانيا في عهد الشيخ خليفة بن حمد، وكان هو من المحسوبين على الشيخ أحمد بن علي، الذي عُزِل عن الحكم بعد الحركة

التصحيحية التي قام بها الشيخ خليفة في (٢٢ فبراير ١٩٧٢م)، لم يجد المعايرجي الباب مغلقًا في وجهه، فقد كانت علاقته بالشيخ حمد بن خليفة طيبة؛ إذ كان ممن درَّسه مع أبناء الشـيخ أحمد بن علي، فلا غرو أن سهَّل له الشيخ حمد الرجوع إلى البلاد، كما أوصى أن يفسح له المجال في جامعة قطر.

وكان الأستاذ الدكتور إبراهيم كاظم مدير الجامعة يعرفه من قبل، وهذا ما مكَّنه من العمل أمينًا عامًّا لمركز البحـوث العلمية التطبيقية، الذي أصبح له وضعه ومكانته في جامعة قطر.

وكان المعايرجي مع عمله الرسمي، يرى أن عليه واجبًا آخر هو مسؤول عنه أمام الله وأمام الأمة، وهو العمل للإسـلام والقرآن الـذي يرى أن الأمة الإسلامية قد فرطت كثيرًا في حقه، ولم تعطِه من العناية ما هو أهل له، وهو كتاب الله الذي أحكمت آياته ثم فُصِّلَتْ من لدن حكيم خبير.. ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

جعله الله منهاجًا للفرد، ودستورًا للأمة، وقانونًا للدولة، وضمن له الخلود والبقاء، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ويجب على الأمة الآن أن تنقله إلى العالم، حتى تتحقق عالمية الإسلام الذي خاطب فيه رسوله فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

وقال عن هذا القـرآن: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يوسـف: ١٠٤]. فكيف يكون للعالمين، وقد نزل بلسان عربي مبين؟ لا يكون ذلك إلا بترجمة معانيه إلى لغات العالم.

وقد فعل ذلك النصارى، فترجمـوا الإنجيل إلى لغـات العالم الأصلية والتابعة، بل إلى لهجات العالم، مع أن دينهم فـي الأصل ليس دينًا عالميًّا، فإنما أرسل الله الرسل قبل محمد ﷺ إلى أقوامهم، ومنهم المسيح عيسى الذي

أرسل إلى بني إسرائيل، وهو قال في الإنجيل: إنما بعثت إلى خراف بني إسرائيل الضالة!.

فكيف بدين أعلن من أول يوم، ومنذ العهد المكي: أنه أرسل إلى الناس كافة؟ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

عُنِي الدكتور المعايرجي بترجمات القرآن إلى لغات العالم المختلفة، فتتبع تاريخها، وعرف قيمة كل منها من الدقة والأمانة والموضوعية، وجمع من الترجمات المتنوعة من شتى اللغات ما كوَّن مكتبة علمية منقطعة النظير، ومن واجب الأمة أن تحافظ على هذه المكتبة وتنتفع بها، وأولى الناس بذلك هو دولة قطر التي عاش فيها المعايرجي، إلى أن لقي ربه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كان القرآن وخدمة القرآن، وتبليغ دعوة القرآن إلى العالم، هو الشغل الشاغل للدكتور المعايرجي في سنينه الأخيرة، وكان لا يلقى عالمًا كبيرًا، أو مفكرًا مرموقًا، أو مسؤولًا ذا بال، إلا وحدَّثه عن القرآن، وواجبه نحو القرآن، ومسؤولية الأمة عن القرآن.

وكان هناك أمر يفكر فيه باستمرار، وبات يشغله بالنهار، ويحلم به بالليل، وهو ما سماه (الهيئة العالمية للقرآن الكريم).

وكان يتعجب ويقول: إن هناك أمورًا ليس لها أهمية القرآن، ولا عشر معشاره، ومع هذا أنشئت لها مؤسسات وهيئات عالمية، أفلا يبلغ القرآن ـ وهو الآية الكبرى والمعجزة العظمى للإسلام ونبيه ـ مبلغ هذه الأمور؟!.

وكيف لأمة يبلغ عددها مليارًا وستمئة مليون من المسلمين أو أكثر، لا تعطي الاهتمام الكافي اللائق لكتابها المقدس، الذي ختم الله به كتب السماء، وحفظه من كل تغيير وتحريف؟!.

وقد كتب الدكتور المعايرجي كتابه عن القرآن وترجماته المتعددة، وواجب الأمة نحوه، وحلمه في إنشاء الهيئة العالمية لخدمته والدعوة إليه، والمحافظة عليه، وجعل عنوانه (الهيئة العالمية للقرآن الكريم)، وطلب إليّ أن أكتب له مقدمة، فكتبتها، استجابة لطلبه، ووفاء بحقه، وتحقيقًا لأمله، وتنويهًا بمكانة هذه الهيئة التي يطلبها ويُلِحُّ في طلبها، وهي ليست بالأمر المستحيل، ولا الأمر الذي يشق تحقيقه مشقة بالغة، بل هو يسير على من يسّره الله عليه.

ولقد ظل المعايرجي يسعى حثيثًا لدى المسؤولين المعنيين في قطر، حول هذا الهدف المنشود، حتى تكونت لجنة برئاستي، تضم عددًا من المهتمين من الديوان الأميري، ومن الجامعة، ومن الأوقاف، وقد اجتمعنا مرات عدة، وناقشنا الأمر من وجوهه المختلفة، العلمية والتقنية والمالية، وما يتطلبه من قوى بشرية، ومن مقدرات مالية، وكتبنا بذلك تقريرًا موقعًا عليه من أعضاء اللجنة، قُدِّم إلى الديوان الأميري.

ولكن للأسف لم تظهر نتيجة لهذا التقرير، وجُمد في الأدراج، برغم متابعة الدكتور له؛ إذ لم يجد أذنًا صاغية من المسؤولين عن هذا الشأن في الديوان، ولم تتح فرصة لمقابلة الأمير لشرح هذا الموضوع له، وهو أهل لأن يهتم بمثله إذا اقتنع به.

وكانت خيبة الدكتور المعايرجي كبيرة، وصدمته بإهماله قاسية، فقد وضع كل آماله وأحلامه في نجاح هذا المشروع، وقيام دولة قطر به، وهي أهل لذلك، ولكن قطر خيَّبت ظنه، وحطمت بقسوة حلم حياته، ومشروع مستقبله، فأصابه من الأسى والكدر ما أصابه، وأظلمت الدنيا في وجهه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقت عليه نفسه، ودخل في حالة بائسة من الاكتئاب الشديد، وانقطع عن الناس، كما انقطع الناس عنه، لا يزور، ولا يُزار، ولم يكن يخرج من البيت، بل ظل فترة طويلة، لا ينزل من الدور الثاني، الذي هو مقيم

فيه، إلى الدور الأول من المنزل، وكأنما هو محتجٌّ على الناس، في قطر، وفي غير قطر، على العرب، وعلى المسلمين في كل مكان، حيث خذلوه ولم ينصروه، وأعرضوا عن دعوته، ولم يجيبوه، وانعكست كآبة نفسه على صلابة جسده، فانهار هذا الجسد تحت مطرقة الكآبة والهم والحزن.

هذا مع أن شخصيته شخصية انبساطية، مرحة منفتحة، وليست شخصية انطوائية منغلقة، وهذا دليل على ضعف الإنسان، الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

وما زالت به الحال حتى دخل المستشفى، وأصيب بالشلل، الذي طال به، ولقي ما لقي منه من المعاناة، جعل الله ذلك كفارة لسيئاته، وزيادة في حسناته، ورفعًا لدرجاته، اللهم آمين.

وأملنا في دولة قطر المعطاءة، التي أنشأت مؤسسات عديدة لتحقيق أهداف شتى: ألا تضن على مشروع المعايرجي في خدمة القرآن، وأن تنشئ هذه الهيئة العالمية، التي كان ينشدها أخونا وحبيبنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فإذا لم تنهض قطر بمشروع المعايرجي ـ كما هو العهد والرجاء فيها ـ فإني أحيل الموضوع إلى منظمة المؤتمر الإسلامي، وأمينها العام د. أكمل الدين إحسان أوغلو، وقد كان صديقًا للمعايرجي، وهو على علم بمشروعه وأهميته، نرجو أن تتولى المنظمة القيام على هذا المشروع، ولن تعجز الأمة الإسلامية على كبرها وسعتها، أن تقوم بمشروع يخدم كتابها العظيم: القرآن الكريم.

رحم الله حسن المعايرجي، وغفر له، وجزاه خيرًا عن الإسلام وعن القرآن العظيم.

* * *



الدكتور عبد الودود إبراهيم شلبي

المحارب الشجاع

(١٣٤٣ ـ ١٤٢٩هـ = ١٩٢٥ ـ ٢٠٠٨م)

في يوم (١٥ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، الموافق ٢١ مايو ٢٠٠٨م)، رحل عن عالمنا، الأديب الشاعر، المحارب الشجاع، والمدافع العنيد عن الإسلام، ضد دعاة العلمانية والتغريب في الداخل، الدكتور عبد الودود إبراهيم شلبي، الذي وقف بالمرصاد ضد حملات التشويه لمبادئ الإسلام، وشرائعه ورموزه.

ولد عبد الودود في محافظة المنوفية بتاريخ (٢٤ رمضان ١٣٤٣هـ، الموافق ١٨ أبريل ١٩٢٥م) وحصل على درجة تخصص التدريس من جامعة الأزهر، ثم حصل على درجة الدكتوراه من كلية الدراسات الشرقية بجامعة البنجاب بباكستان عام (١٩٧٦م)، وكانت حول موضوع (الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته)، عمل مدرسًا ومحاضرًا في العديد من الدول والمؤسسات الإسلامية وغير الإسلامية، وقد مثَّل جمهورية مصر العربية والأزهر الشريف في عدد من المؤتمرات حول العالم.

- **في ركب الإخوان:**

انضم عبد الودود إلى ركب الدعوة، وأذكر ونحن طلبة أنه حدث صدام في بعض البلاد المصرية بين حزب الوفد والإخوان، وكان الطلبة الوفديون في طنطا، في المعهد الديني وفي المدرسة الثانوية يعملون على استفزاز الإخوان، ولكن شباب الإخوان ـ وفق تعليمات الأستاذ البنا لإخوانه وأبنائه التي تشدد على الالتزام بالصبر والمصابرة، والتعامل بالحسنى، والفرار من المواجهة والصراع ما أمكن ذلك ـ يتجنبون الدخول في معارك معهم، فليسوا هم العدو،

إنما العدو هم الإنجليز. وكان الإمام البنا يؤكد للإخوان أن المستقبل للإخوان، ولدعوتهم، وأن هذه الأحزاب كلها إلى زوال ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وكان الوفد دائم الحملة على الإخوان في صحفه، وفي اجتماعاته، وهو يحرِّش أتباعه للاصطدام بالإخوان واستفزازهم، وجرهم إلى معارك لا لزوم لها، ولا فائدة منها إلا تفريق الصف، وغرس الأحقاد، في حين تحتاج الأمة إلى تجميع قواها، وتوحيد صفوفها، في مواجهة المحتل المستكبر الجبار.

ومن البلاد التي حصل فيها الصدام: شبين الكوم، التي قتل الوفديون فيها طالبًا من طلاب الإخوان ـ ولا أذكر كيف كان القتل ـ وهو الطالب صادق سعد مرعي، الذي كان لقتله ضجة كبيرة، وثورة عارمة في نفوس الإخوان، وقد قلت قصيدة في رثائه، نشرتها جريدة (الإخوان) اليومية، لا أذكر إلا مطلعها:

قتلوكَ شُلَّتْ كفُّ مَن قتلوك ... يا (صادقًا) لَهُمُو، وهُمْ كَذَبُوك!

وفي اليوم التالي نشر الشاعر الطالب بمعهد القاهرة الديني عبد الودود شلبي قصيدة رائعة في رثاء صادق مرعي، نُشرت في جريدة الإخوان، جاء فيها:

يا أخي في الله ما ... مِتَّ ولكنْ أنت حيْ
أيُّ وحْش ذلك القا ... تِلُ يا صادقُ أيْ؟
إنه الباطلُ، والبا ... طلُ إجرامٌ وغيْ
بل هي الأحزابُ يا قوْ ... م فهلْ في مصرَ وعيْ؟

وكنا في القاهرة في ذلك اليوم، وفي المركز العام للإخوان، لقينا الطالب عبد الودود، وهنأناه بقصيدته، وكان هذا عربونًا للقاء طويل سيأتي بعد.

• **في معتقل الهايكستب:**

وعندما دخلنا إلى المعتقل ونحن طلاب، في السنة الخامسة الثانوية، كنا نقيم بعض أحفال السمر في الليل؛ للترويح عن الأنفس، كما كان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًّا، وكما كان الصحابة يتمازحون، وقد قال الرسول ﷺ لحنظلة: «**يا حنظلة، ساعة وساعة**»[1].

وكان هناك عدة شعراء، منهم أخونا وصديقنا عبد الودود، وكان شاعرًا ينشدنا من شعره أحيانًا، ومن شعر اليساريين الثائر حينًا آخر؛ مثل قول بعضهم:

أيُّها الشعبُ تحرَّكْ ... أفلا تبصرُ قبرَك؟
ها هو الجلادُ قد ... ألهب بالكرباجِ ظهْرَك
ها هو الخفَّارُ قد ... أوشك أن يُنهيَ أمرَك
موكب الأحرار أنصارك ... للسجن تحرَّك
فتحرَّك أنت يا ... شعبُ كي تهدمَ قبرَك

ومن الأحداث المهمة والأليمة التي لا تنسى في معتقل (هايكستب) حادثة (العلقة السُّخْنة) التي تلقيناها في أحد الأيام، والتي سُلِّط علينا فيها جنود (بلوك النظام)، وهم جنود تابعون للشرطة، يجنَّدون عند الأزمات فقط؛ لفضِّ المظاهرات، أو مقاومة الشغب، أو نحو ذلك، وهم في غالبهم أميُّون قساة، كأنما هم أدوات في أيدي قادتهم، ينفذون بهم ما أرادوا.

ولا ندري حقيقة السبب الذي استدعي من أجله هؤلاء الجنود للانقضاض علينا، كأنهم وحوش مفترسة، أو كأنما يهاجمون عدوًّا قد اعتدى على أرض الوطن، وانتهك حرماته!.

قيل: إن الأخ عبد الودود شلبي ـ الذي كانوا يغلطون في اسمه إذا نادوه، ويقولون: «عبد الودِّ ودِّ» ـ تشاجر مع إدارة المعتقل لسبب من الأسباب، فأراد

---

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٠).

الضابط المسؤول ـ واسمه فريد القاضي ـ أن ينتقم من الجميع، ويعلمهم أدب التعامل مع القادة.

أيًا كان السبب، فقد فوجئنا بالجنود يدخلون علينا عنبرنا الرئيس كالتتار، يحملون العصيَّ الغليظة، والهروات الطويلـة، يضربون بها الكبير والصغير، والصحيح والمريض، لا يتحاشون أحدًا.

ولا أنسى موقف الأخ عبد الودود حين نزلت عليه الضربات، وهو يصيح ويقول: عثمان بن عفان، شهيد الدار من جديد!.

وبعد خروجنا من المعتقلات، وسقوط وزارة إبراهيم عبد الهادي، التقينا عبد الودود في كلية أصـول الدين، وفي مجال العمـل الطلابي في الأزهر، وانعقدت بيننا صداقة الدعوة والنشاط الثقافي والفكري.

وقد دعانا عبد الودود رَحِمَهُ اللَّهُ لزيارة بلدهم في المنوفية، وهي: ميت عفيف بمركز الباجور، وذهبنا إلى هنـاك، وأقمنا حفلًا خطبنا فيه، وتعرفنا على أهل البلد، ثم عدنا إلى القاهرة.

وقد كنا نلتقـي أحيانًا في زيارة بعض مشـايخنا، مثل الأسـتاذ الدكتور عبد الحليم محمـود، الذي كان يلبـس البدلة الإفرنجية، والـذي تخرج من باريس، ويعتز بتلمذته على رينيه جينو، الذي أسلم وتسمَّى: عبد الواحد يحيى، وكان يدرسنا (الفلسفة الإسلامية)، وبعض مقاطع من (الإرشاد والتنبيه) لابن سـينا، فيما يتعلق بالتصوف، كما كنا نذهب معًا لزيارة شيخ الجميع، الشيخ: محمد الأودن، أسـتاذ الحديث، ذلك الرجل الربَّاني، الذي كان يتدفَّق إيمانًا وروحانية، كنا نزوره في بيته في الزيتون، وكان يعطي جليسـه شـحنة روحية قوية؛ لأن كلامه يخرج من قلبه فيلامس القلوب.

- **توليه رئاسة تحرير مجلة الأزهر:**

بدأ عبد الودود حياته العملية في مكتب شـيخ الأزهر، ثم ترقى إلى أن صار مديرًا لمكتب الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، ثم عمل رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر.

ومن طرائفه مع الشيخ عبد الحليم محمود أن أرسل له الإمام الأكبر كلمة لينشرها في الافتتاحية، ولكن الدكتور شلبي حال دون نشرها، وحين سأله شيخ الأزهر عن ذلك، قال: يا مولانا، إن كلمتك يجب أن تكون أرقى كلمة في المجلة، ولكن لاحظت أن بعض المقالات يفوقها، وهذا ما لا أقبله. فقام الشيخ عبد الحليم محمود، وقبَّل رأس الأستاذ عبد الودود وقال له: سترك الله كما سترت تخلفي في هذا المقال.

• **مؤلفاته:**

من مؤلفاته رَحِمَهُ اللَّهُ: (كيف أرى الله؟)، و(حتى لا نخدع)، و(المهدي السوداني)، و(التزوير المقدس)، و(الإسلام وخرافة السيف)، و(في محكمة التاريخ)، و(الزحف إلى مكة)، و(لماذا يخافون الإسلام؟)، و(حوار صريح بين عبد الله وعبد المسيح)، و(أفيقوا قبل أن تدفعوا الجزية)، و(الأزهر إلى أين؟)، و(رسالة إلى البابا والفاتيكان)، و(صوت الإسلام يرتفع من موسكو)، و(خطاب مفتوح إلى الرئيس الأمريكي)، و(الحوار بين الأديان: أسراره وخفاياه)، و(إجابات حاسمة إلى الأخت الفرنسية المسلمة)، و(حوار مع طالبات جامعة: سان دي فتسن)، و(عرب ومسلمون للبيع)، و(الإسلام والغرب)، و(المحاولة الفاشلة لتنصير طالب أزهري)، و(قضايا إسلامية معاصرة)، و(أبو جهل يظهر في بلاد الغرب)، و(جنرالات تركيا: لماذا يكرهون الإسلام؟)، و(ما لا يعرفه المسلمون عن المسلمين في العالم)، و(بنديكت السادس عشر البابا الذي لا يعرف شيئًا)، و(السفور والحجاب)، و(حول العالم الإسلامي في ثلاثين عامًا)، و(الإسلام دين الحياة) باللغة الإنجليزية.

أسأل الله أن يرحمه، ويسكنه فسيح جناته، مع النبيين، والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، بما قدمه للإسلام والمسلمين.

* * *



الدكتور حسان حتحوت

أمة في رجل

(١٣٤٣ ـ ١٤٣٠هـ = ١٩٢٤ ـ ٢٠٠٩م)

ودعت الأمة الإسلامية، والدعوة الإسلامية، منذ أسبوع أو أكثر، عَلَمًا من أعلامها الفارعة، ونجمًا من نجومها الساطعة، ولسانًا من ألسنتها الناطقة بالصدق، وعقلًا من عقولها المفكرة بالحق، وقلبًا من قلوبها النابضة بالحب، ودّعت الطبيب النابغة، والعالم المتمكن، والكاتب البليغ، والشاعر المطبوع، والداعية المؤثر، والإنسان الرائع، الأستاذ الدكتور حسان حتحوت، الذي وافاه الأجل في لوس أنجلوس في الولايات المتحدة، بعد عمر حافل بالعطاء بلا منّ، وبالجهاد بلا كلل، وبالبذل بلا انتظار مكافأة من أحد: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٩ ـ ٢١].

وصف هو هذه الحياة بقلمه البليغ، فقال: إنها حياة ليس فيها مجال للملل، ولم يكن فيها للعبث مجال، يمد الناس أيديهم ليأخذوا، وأمد يدي لأعطي!.

يتحيّر من يرثي حسانًا أو يؤبّنه، عن أي جانب من جوانب هذه الشخصية الفذة، وأي ناحية من نواحي حياته العامرة بالخير والبركة يتحدث، وهو أمة في رجل؟.

ـ أيتحدث عن حسان (**الطبيب**) الذي نبغ في طبه، وأحب مهنته، وأعطى لها حقها، فأحبه مرضاه، واعتبروه أبًا لهم، لأنه لم يكن يرى الطب تجارة وكسبًا، بل يراه رسالة ورحمة. ولم يكن يتعامل مع المريض على أنه جسد، بل يتعامل معه على أنه نفس إنسانية، تحتاج إلى البسمة الصادقة، والكلمة الطيبة، كما تحتاج إلى التشخيص الجيد، والدواء الملائم. فلا غرو أن كانت

بشاشة وجهه، وحلاوة لسانه، وحسن معاملته، وصدقه مع نفسه، وتقواه لربه، من أدوات علاجه، مع الأسباب المعتادة.

ومن المعلوم أن تأثير النفس في الجسم أمر أقره العلم، وأقره الدين، وأقره الواقع.

ـ أم نتحدث عن حسان (**العالم**) الذي يشهد له المتخصصون أن له باعًا في اللغة والنحو والأدب، وباعًا في الفقه والدراسات الإسلامية، بجوار تضلعه في العلوم الطبيعية؟ وقد كنا ـ نحن علماء الشريعة واللغة العربية ـ نسمع له بإعجاب من سعة اطلاعه، وحسن فهمه في هذه المجالات.

ـ أم نتحدث عن حتحوت (**الكاتب**) الذي كان الكثيرون ينتظرون مجلة العربي، ليقرؤوا خواطره الحية المعبرة عن عقل متألق، وشعور متدفق، وقلم متأنق، يخاطب الكيان الإنساني كله: يقنع العقول، ويحيي القلوب، ويقوي الإرادات. ويعنى بالبشر كافة، عربهم وعجمهم، مسلمهم وغير مسلمهم، شرقيهم وغربيهم، متقدمهم ومتخلفهم، ويجتهد أن يعالج مشكلاتهم كلها، المادية والمعنوية، الدنيوية والدينية، فليس من طبيعته ولا من أخلاقه التعصب إلا للحق؟.

ـ أم نتحدث عن حتحوت (**الشاعر**) المطبوع، الذي ورث الشاعرية عن أبيه، ولذا كان هو وشقيقه ماهر شاعرين مجيدين وإن كان حسان أغزر وأشهر وأبهر، ومما عرفنا من شعر والده: الأبيات الجميلة التي ودع بها حسانًا، وهو ذاهب إلى أرض فلسطين:

اهبطْ على أرض السَّلا ... م جُعلتُ يا ولدي فِداك
ضَمِّدْ جراحاتِ العرو ... بةِ سَدَّدَ المولى خُطاك
وامسَحْ دموعَ الثَّاكلا ... تِ عساك تُسعدُها عساك
واذكرْ فلسطينَ الجريـ ... ـحةَ وانسَ أمَّكَ أو أباك
إنِّي وهبتُك للجها ... د وأين لي سيفٌ سِواك؟

وقد ضاع الكثير من شعر حسان، ولكن ما بقي منه أصدره في ديوان (جراح وأفراح) الذي أسعدني بإهداء نسخة منه إلي. ومن روائع شعره قصيدة:

(من وراء الأسوار)

التي كتبها، وهو في سجن أبو زعبل ـ طرة (١٩٦٥م)، وفيها يقول:

إلى رحمةِ الرحمنِ أشكو وأفزعُ ... سقَتْني الرزايا كأسَها وهو مترعُ
ألا إنْ ركنَ الحرَّ في الخطبِ قومُه ... فماذا إذا ما خانَه القومُ يصنع؟
لقد كان لي في عزِّ قومي مطمعٌ ... فأضحى لقومي في هلاكيَ مطمعُ
وقد أزمعوا أمرًا عليَّ وقدَّروا ... فبئس الذي قد قدروه وأزمعوا
وما أسَفي للقيدِ في الرُّسغ إنَّما ... لقيدٍ أرى فيه بلادي تمزَّعُ!
وما كُربتي سِجني ولكنَّ كُربتي ... لسجنٍ أرى فيه الملايينَ تقبع!
وُلدْنا من الأرحامِ أحرارَ أنْفُسٍ ... وتُرْضِعُنا مصرُ الإباءَ فنرضعُ
فما بالنا صارتْ تُرَوَّض أُسْدُنا ... فتغدو كَأُسْدِ السِّرْكِ تعنو وتخضعُ؟
إذا ما فقدتَ الظفرَ والنابَ لا تقلْ ... أنا أسدٌ بل أنت كبشٌ مطوَّعُ!
إذا الشعبُ رَبَّوْه على خشيةِ العصا ... فماذا لدَى ساحِ الوغى نتوقَّعُ؟
إلَامَ تظلُّ الأُسْدُ رهنَ سجونها ... وأبناءُ آوى في الكنانةِ ترتعُ؟
إلٰهيَ طالَ الليلُ ظُلْمًا وظُلْمَةً ... فهل تأمرُ الصبحَ المبينَ فيطلعُ؟!
فليس لها من دون صنعِكَ كاشفٌ ... وليسَ لنا من دون بابك مرجِعُ

ومن شعره في (العاطفيات) قصيدة:

(نسمة حب)

أنا بالكلية بالقاهرة.. وهي بالشرقية بالإجازة.. وهبت نسمة هواء شرقية ذات ليلة صيف ـ (١٩٤٦م):

وســـاريةٍ بالليلِ قلتُ لها هُبِّي صَبَتْ نحوَها رُوحي وخفَّ لها قلبي
مـعـطَّـرة فـــوَّاحـــة فكأنما على من أتت من عند حَيِّهِمُو تنبي
هموس أحاديث الصبابةِ كلَّما تصدَّت لها إصغاءة الفنن الرطبِ
من الشرق هبَّتْ تحمل الحبَّ هل أتتْ تعود فتى قد شفَّه الحبُّ في الغربِ؟
أقولُ لها هاتي الحديثَ وصارحي فقد نامتِ الدنيا سوى مقلةِ الصَّبِّ
ألا كيف هم مُذْ فارقَ الدارَ ركبهم وفارقني قلبي.. وراحَ مع الركبِ
وقد همست بي نسمةُ الليل همسةً سلامًا وبردًا فهي للروح كالطبِّ
بأنَّ الهـــوى حـــيٌّ وأنَّ أحِبَّتي يسيرون في شرعِ الوفاءِ على دربي

ومن روائعه في المدح النبوي قصيدة:

(في ذكرى المولد النبوي الشريف)

ذكرتُـــكَ فـــي ليلـــةِ المولـــدِ ونارِيَ فـــي القلبِ لـــم تخمدِ
ذكرتُكَ يا أشـــرفَ المرســـلين ويا خيـــرَ هـــادٍ لمـــن يهتدي
ذكرتُـــكَ والقدسُ فيـــه اليهودُ يعيثـــون بالنَّـــارِ في المســـجدِ
ذكرتُكَ والهـــامُ فـــوقَ التُّرابِ وقد كانتِ الهـــامُ فـــي الفَرْقدِ
ذكرتُـــكَ والوَطَـــنُ اليَعْرُبـــي تعيـــثُ بـــه نـــزوةُ المعتـــدي
ذكـــرتُـــكَ بـــانـــيَ أركـــانِـــه ولو لـــم يضيِّعْـــكَ لـــم يهددِ
ذكرتُـــكَ والقـــومُ فـــي فتنـــةٍ كمـــا لـــم تظـــنَّ ولـــم تعهـــدِ
ذكرتُـــكَ في أمَّـــةٍ لـــم تَصُنْكَ فَـــوَا خَجْلتـــا منك يا ســـيدي

ـ أم نتحدث عن حسان (**الداعية**) الموفق، الذي هيأ الله له القبول، بالعقول تفهمه، والقلوب تحبّه، والعزائم تستجيب له؛ فهو داعية بلسانه، وداعية بقلمه، وداعية بنثره، وداعية بشـــعره، وداعية بفكره، وداعية بعاطفته، وداعية بوجهه،

وداعية بأخلاقه، وداعية بحسن تعامله. داعية إذا جد، وداعية إذا مزح، داعية إذا تكلم، وداعية إذا صمت، داعية في المسجد، وداعية في العيادة، وداعية في الجامعة، وداعية في البيت، وداعية في الطريق.

كان ـ إلى جوار كونه كاتبًا وشاعرًا ـ محاضرًا متمكنًا، يحسن إعداد بحثه، وتوثيق مصادره، وإيضاح فكرته، وإجادة عرضه، وانتقاء أسلوبه.

وكان خطيبًا مفوهًا، يشد القلوب، ويحرك المشاعر، دون إسراف في تهييج العواطف، أو التعدي على حق الفكر، وكان سليم الأداء، لا تستطيع أن تمسك عليه لحنة واحدة في نحو أو صرف! كأنه عربي قح يتكلم بالسليقة، كما قال أحدهم قديمًا:

ولستُ بنحويٍّ يلوكُ لسانَه ولكنْ سليقيٌّ أقولُ فأعربُ

وكانت عدته ثقافة إسلامية رصينة، حصلها من صلته الباكرة بدعوة الإخوان وقربه من مؤسس الدعوة ومرشدها العام حسن البنا، وقد كان له مكانة عنده، كما كان حسان يعتز بتتلمذه على حسن البنا، ويرى فيه المعلم القوي الأمين، والمربي الأسوة، والقائد البصير. ثم أكملها بالقراءة والاطلاع، مع قريحة وقادة، وعقلية نقادة.

ـ أم نتحدث عن حسان (**الإنسان**) الذي لا يماري صديق ولا عدو ولا قريب ولا بعيد، ولا مسلم ولا غير مسلم، في إنسانيته التي وسعت الجميع في رحابها، وأظلتهم بظلالها، وهو يستمد هذه الإنسانية من صلب الإسلام، كما فهمه نظرًا، وآمن به اعتقادًا، وعاشه عملًا. ويرى أن الإسلام (دين إنساني) بكل ما تعنيه الكلمة من الإخاء والحب والمساواة والرحمة والبذل والتعاون والتكافل والتسامح.

وكانت عنايته بالإنسان من حيث هو إنسان، بغض النظر عن عرقه أو لونه أو وطنه أو لغته أو دينه، أو مذهبه أو طبيعته، أو غير ذلك مما يفرق الناس

بعضهم من بعض. وكيف لا وقد رأى النبي ﷺ يقوم واقفًا لجنازة يهودي، فقالوا له: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي! فقال: «**أليست نفسًا؟!**»[1].

ولا غرو أن كان حسان نبعًا ثرًا للحب لا يغيض ولا ينقص، كان الداعية الأول للحب، حب الناس كل الناس، وإطراح الكراهية والبغض، فإن البغضاء هي الحالقة، وكان يروى عن إمامه حسن البنا أنه كان يقول: سنقاتل الناس بالحب! يقول حسان: أنا إنسان محب، وأحب الحب، وأعتقد أنه إذا كانت المسيحية الحقة تقول: (الله محبة) فأنا كذلك أرى أن الله أوجز الإسلام كله في كلمتين، وذلك في خطابه لرسوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وأذكر أن آخر لقاء ضمني بالدكتور حتحوت كان في مقر منظمة الصحة العالمية في مصر، حيث كنا مدعوين فيها، من المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في الكويت ومن عدد من المؤسسات الإسلامية والغربية، لإعداد (الميثاق الأخلاقي) للأطباء. وفي ختام الاجتماع طلب حسان الكلمة، وألقى فينا خطبة، دمعت لها العيون، ورقت لها القلوب، وكأنها موعظة مودع، كانت كلها دعوة إلى الحب، وترغيبًا في الحب، وتعميقًا للحب، وأنه لم يجد أفضل للبشر ولا أنفع ولا أزكى من الحب، ولم يقدر لي أن ألقاه بعدها.

ومن إنسانية حسان: أنه حين ذهب في سنة (١٩٤٨م) متطوعًا للعمل في فلسطين في مجاله الطبي والعلاجي، ولاسيما في إسعاف الجرحى، وعلاج المصابين، جيء بمجموعة من الأسرى اليهود جرحى، ولكن حسانًا علم أن القيادة العسكرية قررت إعدامهم بالرصاص، انتقامًا لما ارتكبوه أو ارتكبه قومهم ـ وما زالوا يرتكبونه ـ من قتل النساء والأطفال والشيوخ! إلا أن حسانًا وقف في وجه هذا القرار بكل قوة قائلًا: لا ينفذ هذا القرار إلا على جثتي. فهؤلاء أسرى جرحى من حقهم أن يعالجوا كما يعالج كل جريح، ولا يحملون

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣١٢)، ومسلم (٩٦١)، كلاهما في الجنائز، عن قيس بن سعد، وسهل بن حنيف.

وزر قومهم، وقد قال تعالى عن الأسرى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، وقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. وغلبت إرادة حسان إرادة الإدارة العسكرية، ونجا هؤلاء وعولجوا حتى شفوا.

وقد عرف اليهود هذا الموقف وتحدثت عنه الصحف الإسرائيلية، وكانت سببًا في الإفراج عن طبيب مصري كان أسيرًا عند اليهود، وزميلًا للدكتور حتحوت.

• **بداية صلتي بحسان:**

في الحديث المتفق عليه: أن النبي ﷺ قال: «**الأرواح جنود مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»[1] صدق رسول الله ﷺ.

ـ تعارف روحي:

ويبدو أن رُوحي قد تعارفت مع رُوح أخي حسان حتحوت في (عالم الذر) كما يسمُّونه، فائتلفت معها: فقد أحببتُ حسانًا قبل أن ألقاه، وعرَفتُه قبل أن يعرفني.

فقد كنا نحن ـ طلاب الإخوان المسلمين في المرحلة الثانوية ـ نتابع نشاط إخواننا (الكبار) من طلاب الجامعة، نعتزُّ بمواقفهم، ونتغنَّى بأمجادهم، ونطرب لأفراحهم، ونأسى لفواجعهم، ونزهى بنوابغهم.

وكان من هؤلاء النوابغ: مصطفى مؤمن بكلية الهندسة، وسعيد رمضان بكلية الحقوق، وحسان حتحوت بكلية الطب، وكلهم اشتهر بفصاحة اللسان، وبلاغة اليراع. وكانت تأتينا أعداد من مجلة أصدرها إخواننا طلاب القاهرة، اسمها: (الطالب العربي)، وهذا العنوان دليل قديم على عمق الحس العروبي إلى جوار الحس الإسلامي، والحس الوطني لدى الإخوان.

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٦) عن عائشة، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٨)، عن أبي هريرة.

وكانت المجلة تشتمل على أخبار الطلاب، وعلى بعض كلمات ومقالات وقصائد للنابهين منهم.

ومنها لحسان، الذي يبدو أن والده سماه بهذا الاسم، ليقوم في الأواخر مقام (حسان) شاعر الرسول ﷺ في الأوائل، فقد عرَفتُ من مذكرات حسان: أن والده كان شاعرًا مطبوعًا، كما تجلَّى ذلك في أبياته التي بعث بها إليه، حين ذهب إلى أرض فلسطين سنة (١٩٤٨م)، لخدمة المجاهدين في الميدان، وقد سقناها من قبل.

ومما أذكره مما قرأتُه من قديم لحسان في عنفوان شبابه، يتحدَّث عن القرآن:

هذا الكتابُ، وإنَّ فيه سياسةً ... أتراه أمرًا في الكتابِ عجيبا؟
إنْ كانَ تزعجُكم سياستُه دَعُو ... ه، ونقِّبوا عن غيره تنقيبا!
أو فَاعْرِضوه على الرقيبِ فربَّما ... أفتى، فغادرَ نصفَه مشطوبا!
يا قومُ سحقًا للرقيبِ وأمرِه ... فكفى بربِّ العالمينَ رقيبا!

وحينما اقتادونا إلى الاعتقال في أوائل يناير سنة (١٩٤٩م)، ووضعنا في سجن قسم الشرطة، (قسم أول) بمدينة طنطا، وظللنا فيه نحو أربعين يومًا، كان من رفقائنا في السجن المهندس حكمت بكير، الذي جيء به من مقرّ عمله بمدينة كفر الزيات، وكان من نشطاء طلبة الإخوان في الجامعة، ويحمل ذكريات طيبة حدَّثنا بها عن إخوانه، وعلى رأسهم حسان، فزادني ذلك حبًّا له، وشوقًا إليه.

ـ لقاء في المعتقل:

ثم شاء الله أن ننتقل من سجن طنطا إلى معتقل الطور، وبعد فترة نقلونا ـ نحن طلبة الثانوي ـ من معتقل الطور إلى معتقل هايكستب، وفيه جاءنا حسان، من ميدان الجهاد في فلسطين إلى المعتقل، وهو ما استغربه حسان من قومه: أن يكون الاعتقال والحبس وراء القضبان جزاءه وجزاء أشباهه ممَّن خدموا أوطانهم بإخلاص، وعرَّضوا أنفسهم لخطر الهلاك من أجل أمتهم، وأنشد في ذلك قول طَرَفَة:

وظُلْمُ ذوي القُربى أشدُّ مضاضةً ... على المرءِ من وقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ!

وفي هايكستب عرَفتُه عن كثب، ولقيتـه وجهًا لوجه، وجلستُ إليه، واستمعت إليه، وإلى شعره الرقيق، وإلى نوادره وفكاهاته، التي تصدر دون تكلُّف، ورغم أنه كان طبيبًا نابهًا، وكنتُ طالبًا في نهاية المرحلة الثانوية، فلم أشعر فيه قط بتعالٍ أو صلف، بل كان قريبًا من الجميع، حبيبًا إلى الجميع، بزكاة نفسه، وطهارة قلبه، ورجاحة عقله، وحسن خلقه، وحبّه لإخوانه، ومسارعته لنفعهم.

ورغم أنه كان في استقامته كشعاع الشمس، وفي نقائه كماء المزن، وفي صرامته كحدِّ السيف، فقد شعر كلُّ مَن عاشره أو اقترب منه: أنه نعم الجليس، ونعم الأنيس، لخفَّة ظلِّه، ومرح رُوحه، وملاحة نِكاته، وقفشاته التي تصدر منه على البديهة، في غير إسفاف ولا ابتذال، ولا جرح لأحد.

وبعد أن خرجنا من المعتقل التقينا في ساحة الدعوة بالقاهرة، ثم فرَّقت بيننا الأيام، وعافاه الله سنة (١٩٥٤م) من (السجن الحربي)، الذي جمع الله به ـ رغم قسوته وما فيه من آلام وعذاب ـ بين كثيرين باعد بينهم الزمن، فقد كان خارج مصر. حتى هيَّأ الله لنا لقاءات ولقاءات في مرحلة النضج، في ندوات علمية، ومؤتمرات إسلامية، وخصوصًا ندوات (المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية) بالكويت، التي سنَّت سنَّة حسنة في الجمع بين علماء الفقه وعلماء الطبّ، للتباحث المشترك في القضايا الفقهية المتعلِّقة بالطبّ، وكان حسان من أبرز الأعضاء المؤسِّسين والمشاركين في هذه الحلقات، بخلفيَّته الإسلامية، وثقافته الشرعية، وبراعته الطبية، وقدرته الأدبية.

وأهم ما عرَفتُه في حسان خلال تلك المراحل كلِّها، خصال ست، لم تتغيَّر في شباب ولا هَرَم، وهي: **الصدق** الذي لا يعرف الكذب، **والإخلاص** الذي لا يشوبه رياء ولا طلب مغنم، **والاستقامة** التي لا تعرف العوج ولا الالتواء، **والاعتدال** الذي لا يعرف الشطط ولا التفريط، **والثبات** الذي لا يعرف التلون ولا التراجع، **والحب** الذي يَسَع الموافق والمخالف. كما

وصف ذلك هو بقوله: «الصفـــاء بالمحبَّة لكلّ الذيـــن لقوني في حياتي ظالمين أو مظلومين».

• **رجل يعرف الفضل لأهله:**

ومَن عرَف حســـانًا عرَف أنه رجل تميَّز بشعور رقيق، وحسٍّ دقيق، وفَهم عميق، لأنه رجل أخلاق من الطـــراز الأول، يقدِّر القيم الأخلاقية حقَّ قدرها، ويعترف لأهلها بفضلهم، وينوِّه بشأنهم، لتتَّخذ الأجيال منهم خير أُسوة.

ـ انظر حديثه عن **أبيه وأمه** رحمهما الله، في مطلع كتابه المؤثر (بهذا ألقى الله)، وهو يقول عن أمه: إنها كانت أُمَّة. وهو يذكرها أكثر مما يذكر أباه، وهذا يشير إلى أنه لا يحمل عقدة ضد جنس المرأة. كما وضح ذلك في حديثه عن زوجه د. **سلوناس**، التي يقول: إن قصته معها وقصتها معه، جديرة أن تُنشر في كتاب، وقد حاول ذلك، ولكن زوجته هي التي تأبى.

ـ وانظر حديثه ـ في مذكراته عن الســـنوات العشـــر التي ســـمَّاها (العَقْد الفريد) ـ عن أستاذه **الدكتور سليم صبري**، الذي أعتبره أستاذه في الطب، كما كان الأستاذ البنا أستاذه في الدعوة.

ـ وانظر: حديثه عن **الأستاذ محمد فريد عبد الخالق**، الذي قال عنه: إنه كان مخلصًا، وكان مثقَّفًا، وكان مفكِّرًا، وهو ثالوث نفيس ومفيد.

ـ وحديثه عن الأســـتاذ **صالح أبو رقيق**، وموقفه يوم (العلقة السخنة) في معتقل الهايكتسب، فقد وقف أمام العسكر ومدَّ زراعيه يتلقَّى الضربات عمن وراءه من الإخوان، وخصوصًا من صغار الطلبة، (مثل: محيي الدين عطية).

ـ وحديثه عن **الشـــيخ عبد المعز عبد الســـتار**، وهو يقـــول للجنود، وهم يضربونه بعصيهم الغليظة: اضربوا يا كلاب، اضربوا يا أنذال.

ـ وحديثه عن **الشـــيخ فرغلي، ومصطفى مؤمن، وسعيد رمضان، وحسن دوح**، وغيرهم وغيرهم.

• **حسان وحسن البنا:**

أما حديثه عن الأستاذ البنا فهو حديث المعجب المحب، حديث التلميذ عن أستاذه، والمريد عن شيخه، والجندي عن قائده، والابن عن أبيه، دون غلو ولا تقديس.

وهو يلتقط المواقف الهادية المعلّمة بحاسته المرهفة، ويختزنها في ذاكرته طوال تلك العقود، ليخرجها للناس حتى يلتمسوا فيها العظة، ويأخذوا منها العبرة، سواء كانت مواقف تنبئ عن عقل كبير، أو عن قلب كبير.

فمن المواقف التي تدلُّ على كبر عقل الرجل: حسن تخلُّصه من المآزق والمواقف الحرجة بلباقة منقطعة النظير، بكلمات بليغة معبِّرة.

كما سُئل عن السينما: أحلال هي أم حرام؟ فقال: السينما الحلال حلال، والسينما الحرام حرام.

وحين اعترض العالم التقي الورع الشيخ محمد الحامد الحموي على استخدام الأستاذ البنا لكلمة (الكأس) في مجال الكرة، حيث حصل فريق من الإخوان على (الكأس)، فقال الشيخ الحامد رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الكأس تستعمل في الخمر، فلا ينبغي أن تتَّخذ لدى الإخوان. فقال البنا: لا تغضب، يا شيخ محمد، لقد حصل الإخوان على (القدح)!.

ومن المواقف المؤثِّرة التي حكاها حسان في إحدى الكتائب التي أقامها قسم الطلاب، والتي كان يشهدها ويشارك فيها الأستاذ بنفسه: أنه استأذنهم لمدة ساعة، ثم عاد ليكمل برنامج ما قبل الفجر إلى نهاية الكتيبة. وبعد انصرافهم قال حسان لبعض رفقائه: كأني لحظتُ على وجه الأستاذ مسحة من حزن! فأنكروا ذلك.

وفي الساعة العاشـــرة اتصل الإخوان بهم ليدعوهم إلى جنازة ابن الإمام الشهيد حسام، فقد استأذن الإمام تلك الساعة ليودِّعه ويغطيه ويعود لاستكمال ما بدأه. وهذا ما لا يقدر عليه إلا الصديقون. نرجو الله أن يكون منهم.

• **رجل الاعتزاز والتسامح:**

وحسان كذلك رجل مسلم شديد الاعتزاز بدينه، مستمسك بعروته الوثقى، ملتزم بمثله العليا، يؤمن به ويدعو إليه عقيدة وشـــريعة، ودينًا ودنيا، ودعوة ودولة، وحقًّا وقوَّة، ويقف عند حدوده، وينزل على أحكامه، ولا يجد في نفسه حرجًا منها، بل يسلم تسليمًا.

وهو يؤمن بأن هذا الدين هو سفينة الإنقاذ للبشـــرية، وفيه خلاصها مما تعانيه من الفلسفات المادية والإباحية، ومن أخطار الأيديولوجيات والأنظمة الوضعية التي أشـــقت البشـــر، ومن طغيان الأقوياء على الضعفاء الذي يهدد العالم. ومع هذا لا يدفعه هذا الاعتزاز والالتزام إلى التعصُّب ضد الآخرين، أو التنكر لحقوقهم، أو الإزراء عليهم، بل نجد موقفه مع الأقباط ـ نصارى مصر ـ في غاية العدل والإنصاف، منطلقًا من القرآن الكريم الذي أمر ببرهم والإقساط إليهـــم ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، ومـــن الســـنة النبوية التي أوصت بأقباط مصر خاصة، في عدد من الأحاديث.

حتى إن بعض إخوانه أطلقوا عليه من باب المزاح (الأب) حسان! وقد كتب في مجلة الإخوان الأسبوعية مقالًا بعنوان (أخي جرجس)، ورد عليه القمص ســـرجيوس الكاتب القبطي الشهير في مجلة الأقباط، يبادله تحية بتحية، ووُدًّا بوُدٍّ، وهو في هذا ينطلق من حيث انطلق شيخه ومرشده الإمام البنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما وضَّح ذلك بما كتبه حســـان في مذكراته، في فصل (نحن والأقباط).

وأكثر من ذلـك: موقفه من اليهود، ودفاعه عن أسـراهم، وقد ذكرنا هذا الموقف من قريب.

• **رجل طابعه الاعتدال:**

ومن الدلائل على أن حسـانًا رجل معتدل حقًّا، وليس من أهل الغلو ولا التقصير: أنه يجتهـد أن يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، لا يغمـط أحدًا ما قدَّمه من فضل، ولا يضفي على أحد هالة لا يسـتحقُّها. لا يبالغ في المدح إذا احتاج إليه، ولا يذمُّ أحدًا إلا إذا ألجأته الضرورة، وفرضت عليه الحقائق المُرَّة ذلك، وقد يذكر الشخص بالوصف لا بالاسم، أو بحروف اسمه الأولى عند اللزوم أو نحو ذلك.

وقد ينتقد نفسـه في بعض الأحيـان، كما فعل حيـن كان طبيبًا في قرية بهوت، ودعاه البدراوي باشا إلى العشاء مع مهندس الري والمفتش الزراعي، ولكنه اعتذر، وبقي في مسكنه. قال: لكنني كنتُ حساسًا أكثر من اللازم في موضع حفظ الكرامة، ويخيَّل لي بالنظرة الخلفيـة: أنه لم يكن عليَّ غبار أن أذهب وأتعرَّف بالناس.

وقد تعرَّض في كثير من المواقف في مذكراته لإعطاء الرأي في كثير من المواقف والشخصيات والأحزاب؛ فقد تحدث عن (الملك) الذي كان أحب الناس إلى شعبه، فأمسى ـ بسوء سلوكه ـ أبغضهم إليه... وتحدث عن حزب الأغلبية (الوفد) وموقفه من الإنجليز والرأي والدستور، وعن أحزاب الأقلية التي تحكم مصر بالانتخابات المزوَّرة كلما أراد الملك أن يتخلَّص من الوفد، لكثرة الفساد والمحسوبية.

وتحدث عن قضية فلسـطين وعن دخول الجيوش العربية السـبعة فيها، وقال: يا ليتها لم تفعل... وتحدث عن الأسلحة الفاسدة... وتحدث عن بطولة المتطوِّعين من الإخوان.

وتحدث عن الإخوان وعن نظام (الكتائب) التربـوي الفريد، وقال: وما زلت أعتقد اعتقادًا راسخًا بأن الحركة الإسلامية لن تحرز النجاح إلا إن بدأت من هذه البداية: تكوين اللبنات الصالحة. أما البداية من النشاط السياسي، أو العسـكري أو المذهبي، فهو بداية المرحلة من منتصف الطريق، وشروع في البناء من غير حفر أساس.

وفي فصل (السؤال الأخير) الذي ختم به هذه المذكرات تحدث عن رأيه في (النظام الخاص)، وفي الديمقراطية، وفـي الحضارة الغربية، وحديثه هنا ـ وإن كان خـارج نطاق الذكريـات ـ حديث المهموم بشـؤون أمته، وهموم دعوته، وأنا معه فيما ذهب إليه من جملة الأفكار، وقد سجلت ذلك في أكثر من كتاب لي: فتاوى معاصرة، أولويات الحركة الإسلامية، من فقه الدولة في الإسلام، وفي مذكرات ابن القرية والكتاب، وغيرها.

- **لمحة عن حياة حسان:**

ولد حسـان فـي مدينة شـبين الكـوم عاصمـة المنوفية بمصـر، في (١٩٢٤/١٢/٢٣م) في بيت كريم، معروف بالوطنية أمًا وأبًا، وقد كان والده مدرسًا للغة الإنجليزية، كما كان شاعرًا مجيدًا.

ومنـذ كان طالبًا فـي الثانوي كان يخطـب في الطـلاب، ويقودهم في المظاهرات ضد الإنجليز، ثم انضم إلى الإخوان سنة (١٩٤١م)، وكان له نشاط قيادي في قسم الطلاب.

وقد التحق حسان بكلية الطب في جامعة القاهرة وأنهى دراسته بها، وتخصص في طب النساء والولادة، وحصل على دبلوم التخصص من نفس الكلية عام (١٩٥٢م).

ثم حصل على درجة الدكتوراه، ثم الزمالة مـن إنجلترا في علم الأجنة، وعمل في مستشفى الدمرداش بالقاهرة لمدة سنة، ثم بالقسم الريفي في قرية بهوت، مركز طلخا، التابعة لمديرية الغربية في ذلك الوقت.

ومن مصر انتقل إلى العمل في عدة دول عربية، منها: السعودية لمدة ثلاث سنوات، ثم انتقل للعمل بالكويت، وهناك مكث فترة طويلة، شارك خلالها في تأسيس كلية الطب، ورئاسة قسم أمراض النساء والولادة، كما شارك في النشاط الثقافي والدعوي والاجتماعي، وكان محترمًا محبوبًا من كل من عرفه.

وبعد أن استقر في عمله بالكويت، نسي ما أصابه في المعتقل، وأرسل إلى المباحث العامة المصرية يطلب العودة إلى مصر، ليشارك بجهده وعلمه وخبرته في خدمة بلده، فرحبت به السلطات المصرية، وعاد مدرسًا بطب عين شمس عام (١٩٦١م)، ثم بجامعة أسيوط الجديدة عام (١٩٦٣م)، وخلال هذه الفترة عمل على دعم العلاقة الودية بين المسلمين والأقباط، خلال محاضراته ودروسه حتى أحبه الجميع، ولكن كل هذا لم يكن شفيعًا له، إذ تم اعتقاله عام (١٩٦٥م)، بناء على القرار الشهير الغريب الذي أصدره عبد الناصر، وهو قرار (اعتقال كل من سبق اعتقاله)! واستمر الاعتقال عدة أشهر، ورغم عدم تعرض آلة التعذيب لشخصه، لكنه عايش وسمع ورأى بعينيه عمليات التعذيب الرهيبة، والتي عرفت باسم (المحرقة)، وخرج بعدها ليسافر إلى الكويت مرة أخرى، مقررًا عدم العودة إلى مصر ثانية.

- **حسان يتحدث عن حياته:**

ولقد تحدث حسان عن نفسه وعن نشأته حديثًا موجزًا، ولكنه نافع وممتع؛ في كتابه (بهذا ألقى الله: رسالة إلى العقل العربي المسلم)، فقال:

«ولدت في بلدة شبين الكوم في دلتا النيل بمصر. نشأة الريف وسماحته وطيبته، الصفصافة التي أسدلت فروعها في مياه بحر شبين، وكأنها عروس حلت ذوائبها الطوال. والساقية والنورج والحقول المعطاء الخضراء، وبحر شبين الذي كنت أظنه أكبر حاجز مائي، رغم أنه كان يجف في الشتاء فنعبره سيرًا على قاعه، حتى انتقلنا إلى القاهرة، فرأيت

النيل أكبر، وزرت الإسكندرية، فرأيت البحر أكبر وأكبر، وما زال الأفق ينداح أمامي طوال الحياة.

الوالد شاعر رقيق، وأديب ضليع، وفيلسوف هادئ، لم تستطع سراء ولا ضراء أن تمثل له الدنيا بأكبر من حجمها، ومخزون لا ينفد من سرعة البديهة وحلاوة النكتة، وبهجة المحضر، حتى كانت الناس تجتمع على محضره كالفَراش.

والوالدة شعلة لاهبة من الوطنية، أسهمت في الجهاد للوطن، وكانت أول من قاد مظاهرة نسائية في بلدتنا المحافظة المتواضعة، احتجاجًا على الاحتلال الإنجليزي، خرجت من المسجد العباسي، وسارت إلى كنيسة الأقباط، ولما تزوجَتْ وأنجبتْ أرضعتْ ولديها وغذتهما حب الله وحب الوطن.

ووفقني الله في دراستي وحصلت ما جعلني أستاذًا ورئيس قسم في مادة تخصصي.

وتزوجت من اخترتها على نساء العالمين، وقررت أن أتزوجها أول مرة أراها فيها، وأبلغتها بهذا القرار (يقصد زميلته الدكتورة سلوناس).

وفقدت ابنتي الأولى في حادث سيارة، فلما قرأت البرقية قلت على الفور: «اللهم إني أعلم أنك تنظر إلي وملائكتك.. اللهم إني أعلم أنك تختبرني فأرجو أن أنجح في الاختبار. اللهم إني أعلم أن الناس تستوي بعد سنة، ولكن الاختبار في الوهلة الأولى. اللهم إن كنت رضيت لي هذا فإني رضيت. إني رضيت. إني رضيت. اللهم إنها كانت وديعتك لدينا فأصبحت وديعتنا لديك».

وشهدتُ حربًا (يعني حرب فلسطين ١٩٤٨م) فشهدت قسوة الإنسان على الإنسان. وأحسست الموت يمر على مسافة سنتيمترات مني في زخّات الرصاص، فعلمت ألن يصيبني إلا ما كتب الله لي. وعهد إلي بجرحى من أسرى العدو فعاملتهم أكرم معاملة.

وأصاب معدتي مرض خبيث فلم أقل: ولماذا أنا! فمن الأنانية أن تطالعه في الناس بهدوء، فإذا أصابك جزعت! وجاء شبح الموت فقلت: ومن ذا الذي لا يموت؟! وسبحان الحي الذي لا يموت! وماذا عليّ لو وصلت إلى الشاطئ ونعمت في أكرم جوار!.

وأخذت العلاج فاشتدت عليّ وطأته، فقلت: لا بد أن أدفع البأس بالبأس، فألفت كتابًا بالإنجليزية اسمه (قراءة العقل المسلم)، ونجح الكتاب كوسيلة دعوة تطلع غير المسلمين (والمسلمين) على الوجه الحقيقي للإسلام.

وزال المرض والحمد لله، إلا أن العلاج ترك بصمته على قلبي، لكن ما دام ينبض، فالحياة مستمرة والجهاد قائم، فقد قررت ألا أموت قبل أن أموت.

وتوافر لي في حياتي ما لا يتوافر للكثيرين من معلمين ومرشدين ونماذج ناصعة، في الإيمان والمثالية الطيبة ونقاء القلب وخدمة الناس، رحمهم الله جميعًا.

وعشت في الكويت فترة طويلة. وللكويت عليّ يد لا تنسى، ليست الوظيفة وليس المرتب، فكان في وسعي مثل ذلك وأزيد، ولكن في وقفة وفاء لم يعلم بها إلا الأقلون من رجال الكويت، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلًا.

وعوضني الله خيرًا كثيرًا، وكان فضل الله عليّ عظيمًا».

- **انتقاله من الكويت للدعوة في أمريكا:**

ويكتب حسان بقلمه عن الدوافع التي جعلته يستقيل من عمله بالكويت ليتفرغ للدعوة إلى الإسلام في أمريكا، فيقول:

«والذي صاحبني طول حياتي حبي للإسلام، أحمل اسمه، وأحمل همه، وأعمل له. ودلتني زياراتي على أن للإسلام في أمريكا فرصة حقيقية وتاريخية،

إن ضيعناها فهي شـــيمتنا وما أكثر ما ضيعنا. وإن انتهزناها فربما أفضى ذلك إلى منعطف تاريخي يفيد أمريـــكا، ويفيد العالم، ويفيد المســـلمين وقضايا المسلمين.

فاســـتقلت من عملي بالكويت وســـافرت لأمريكا وطويت سجل العمل الطبي (الذي عشـــقته ولا أزال)، وقلت: أقصر شريحة من عمري على خدمة الإســـلام، وأنتهزها فرصة في زمن الاستطاعة، وأربعون سنة من الطب إسهام واف، والحمد لله.

وأفضل خدمة للإســـلام في أمريكا (وفي غيرها من البلاد مسلمة أم غير مسلمة) هو أن يعيشه الإنسان بإخلاص، ويحسن عرضه على الناس.

وأحببت أمريكا وإن كان بها فساد كبير، على مستوى الأخلاق، وعلى مستوى السياسة، لكنها تتيح قســـطًا من الحرية في خدمة الإسلام لا يتوافر في أكثر بلاد المســـلمين. وحيث تكون الحرية (حرية الصلاح والفســـاد) فالإسلام هو الرابح على المدى البعيد، وحين تغيب الحرية فالإسلام أول خاسر وأكبر خاسر».

اتصلت به مرة بعد مدة من استقراره في أمريكا، وسألته عن همه ونشاطه في تلـــك المرحلة، فقـــال: همنا الآن هو بنـــاء (المدارس) لنربـــي فيها أبناء المسلمين على الإسلام الصحيح، بجوار تعلمهم ما تقدمه المدارس هناك. إن الجيل الذي سبقنا كان همه بناء المساجد، ولكن إذا لم نرب للمساجد رجالًا يعمرونها ويحرسونها، سيأتي جيل يبيع المساجد للنصارى، كما باع النصارى لنا كنائسهم، لنحولها إلى مساجد ومراكز إسلامية.

وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ، فالمساجد وحدها لا تكفي للإبقاء على إسلام الناس حيًّا قويًّا، ما لم تسنده مؤسســـات أخرى، تحافظ على هوية الجماعة المسلمة، وبخاصة المؤسسات التربوية.

وقد ألَّف بعد مرضه كتابه (قراءة في تاريخ العقل المسلم)، بلغته الإنجليزية الجميلة، ليخاطب به العقل الغربي، ويقنعه بجمال الإسلام، وقد كان للكتاب أثره في كثير من الأمريكان، الذين أدهشتهم حقائق الإسلام، وطبع عدة مرات.

كما استطاع أن يؤثر في الكثير من المسيحيين حتى دعوه مرارًا إلى كنائسهم، كما استطاع أن يقيم تحالفات شتى مع مؤسساتهم الدينية، مثل: (التحالف ضد الأسلحة النووية)، و(التحالف ضد الإجهاض)، وغيرهما.

• **خوفه على المسلمين وأمله في الصحوة الإسلامية:**

وهو ـ مع وجوده في أمريكا ـ يعيش أبدًا حاملًا لهموم الأمة المسلمة، حريصًا على أن تحيا بالإسلام وللإسلام، قوية ناهضة، مكانها في الرأس لا في الذيل، وإن كان الواقع يصدمه بغير ما يتمنى، يقول:

«وأطالع الإسلام على خريطة العالم، فأطالع ما يسر وما يسوء. وأتأمل أحوال المنتسبين إلى الإسلام، فأجد فيهم من يخدم الإسلام وأجد منهم من يؤذيه.

وقديمًا هشت الدبة الذبابة عن وجه صاحبها بحجر. وربما رأيت من يرفع العقيرة حماسًا لكن وقود حركته الكره والبغض وربما طال أذاه الأبرياء بل قتل الأطفال والنساء.. وهو يحسب ذلك جهادًا وما هو بجهاد.. ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

والظاهر حقًّا أن عدوًّا عاقلًا خير من صديق جاهل. وبين الفصائل المحسوبة على الإسلام الآن من أصبحت بصدق أخاف أن يصلوا إلى الحكم أو يتقلدوا السلطة».

يرى د. حسان أننا نعيش عصر الصحوة الإسلامية، وهذا حق، ولكنه يرى أن الصحوة في حاجة ماسة إلى تعليم وترشيد قويين. وإسهامًا ـ متواضعًا ـ في هذا السبيل أصدر كتابه (رسالة إلى العقل المسلم) قال: أكتبه وأنا على قمة عمر جاوز السبعين، وتمرس كبير بقضية الإسلام في الشرق والغرب.. وعقل أرجو القارئ ألا يسيء الظن به، وقلب من يعرفه لا يشك في إخلاصه. ولعله إضافة إلى جهود رجال مؤمنين، وأساتذة علماء ودعاة هداة، نذروا أنفسهم لخدمة الإسلام والذود عنه من الداخل والخارج، ولا يخالجني ريب في أن جهودهم ستكلل بالنجاح، وأن العاقبة للتقوى، وأن الله سيلهمهم حسن الإجابة يوم ينشر الحساب ويقول الله: أعطيتكم الإسلام، فماذا فعلتم به؟وماذا فعلتم له؟.

وكان مما ركز عليه حسان في كتابه ذاك: قضية (الحريات) وهي مضيّعة في عالمنا العربي والإسلامي، مع أنها مدخل ضروري لكل تغيير وإصلاح، وهو يعيب على كثير من المسلمين بأنهم ضيّقوا الإسلام الواسع والكبير، فكادوا يجعلونه لحية للرجل، وحجابًا للمرأة، وضيّقوا الشريعة، فحصروها في الحدود والعقوبات. ويؤكد أنهم لم يفهموا الشريعة على حقيقتها، فهي رحمة قبل أن تكون عقابًا، وهي تصنع الضمير قبل أن تنزل العقاب.

ومع هذا يضيء مصباح الأمل أمام العاملين للإسلام حتى لا يقنطوا، أو يكسلوا، فيقول: ولقد يضيق الصدر أحيانًا بوعورة الطريق، وانتكاس المسار، لكن الحصيلة ـ والحمد لله ـ تقدم ملموس في مسيرة الإسلام، ومؤشرات ومبشرات بأن الله يغفر ما فات، ويصلح ما بقي إن شاء الله.

وعلى زمان النبي ﷺ كان يخطب الجموع بغير مكروفون أو مذياع فيدعو الله قائلًا: «**اللهم أسمع عن عبدك**».

وهو دعائي وأنا أطرح هذا الكتاب على الناس: اللهم أسمع عن عبدك.

قالت زوجته الدكتورة سـلوناس حينما اتصلت بها لأعزيها: لقد كان في الفترة الأخيرة قوي الصلة بمولاه، مستعدًّا للقائه سبحانه، وكان يردد: إني في شوق إلى لقاء ربي.

وأحسب أنه تعالى قد استجاب لدعائه الخاشع، الذي قدم به كتابه (بهذا ألقى الله) وفيه يناجي ربه بقوله:

اللهم اهدِنا واهدِ بنا
واجعل سعينا خالصًا لك
اللهم هون علينا بقاءنا في الدنيا
وهون علينا الخروج منها
واجعل خير أيامنا يوم نلقاك
عبدك الفقير إليك ـ حسان حتحوت

اللهم اغفر لعبدك المحب لك ولخلقك حسان حتحوت، وتقبله في عبادك المقربين، وأسكنه الفردوس الأعلى مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، واجزه خيرًا عما قدم لدينه وأمته، واخلف أمتنا فيه خيرًا، واجعله ممن رضيت عنهم ورضوا عنك. آمين.

* * *



الدكتور عبد العظيم الديب

وداعًا صديق العمر ورفيق الدرب

الداعية المربِّي، والعلَّامة المحقق

(١٣٤٨ ـ ١٤٣١هـ = ١٩٢٩ ـ ٢٠١٠م)

أفي كلِّ حينٍ لي حبيبٌ أودِّعُ؟ فلا أنَـا أقفوه ولا هُـوَ يرجعُ!

لقد ودَّعَنا صباح الأربعاء الماضي (٢٠ من المحرَّم ١٤٣١هـ، الموافق ٦ يناير ٢٠١٠م) أخ ولا كل الإخـوان، وصديق ولا كل الأصدقـاء، إنه صديق العمر، وشقيق الروح، ورفيق الدرب، وزميل الدراسة والدعوة، وصاحبي في الشباب والكهولة والشيخوخة، إنه أخي الحبيب عبد العظيم الديب.

لقد ودَّعَنا فجأة وبدون إنذار ولا مقدِّمات، بل مات في صمت، كما عاش في صمت رَحِمَهُ اللَّهُ، وفقدت الأمة الإسـلامية، والدعوة الإسلامية، والدراسات الإسـلامية، فحلًا من فحول العلم، وعَلَمًا من أعلام الأمـة، ورائدًا من روَّاد الدعوة والتربية بحقٍّ.

لقد تلاقينا منذ حوالي ثلثي قرن من الزمان، في المعهد الديني في طنطا، ونحن في مقتبل العمر، وريعان الشـباب، وجمعتنا الدراسـة الأزهرية، كما جمعنا الانضمام إلى دعوة الإخوان المسلمين، والتتلمذ على إمام الجماعة في طنطا الداعية الكبير الشـيخ البهي الخولي، الذي كنـا نلتقي عنده قبل صلاة الفجر من كلِّ أسبوع، نصلِّي خلفه، ونلتفُّ حوله، في حلقة أطلق عليها كتيبة (الذبيح)، إشـارة إلى إسـماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. وعنوان (الكتيبة) يُومئ إلى التضحية في سبيل الله، ولو بالنفس والدم.

ولعل كثيرًا من الناس لا يعــرف مَن هو عبد العظيم الديب، لأنه لم يكن ممَّن يظهرون على الشاشات، ولا يتعرَّضون للأضواء، رغم إلحاحها عليه، وهو يرفض ويأبى، راضيًا بالعمل في صومعته.

• **عالم عامل مُعلِّم:**

إنه أحد العلماء (الربانيين) في هذه الأمة، والرباني ـ كما فسَّره السلف ـ هو الذي يَعْلم ويعمل ويعلِّم، فهو يجمع بين الأمور الثلاثة: العلم والعمل والتعليم. وقد قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

ـ عبد العظيم العالم:

أما علمه، فقد شهد له به شيوخه، وشهد له به إخوانه، وشهد له به تلاميذه، وشهدت به آثاره التي خلَّفها، تأليفًا وتحقيقًا.

وفي شهادة أساتذته، نقل الأخ الدكتور علي السالوس زميل الديب في كلية دار العلوم: أن المشرف على رسالة الديب للدكتوراه، الأستاذ الجليل الدكتور مصطفى زيد، قال بعد مناقشة الرسالة: إن هذه أفضل رسالة قُدِّمت إلى دار العلوم، لا أستثني رسالتي (رسالة الدكتور زيد نفسه).

وقد لقيتُ الدكتور زيدًا يومًا بالمدينة، وهو أستاذ معار إلى جامعتها، وكان أول مَن سألني عنه، وحمَّلني السلام إليه، هو عبد العظيم، الذي أصبح صديقًا من أقرب الناس إلى أستاذه.

ولثقتي بعلمه وفقهه وأصالتــه، كنتُ في كتبي المهمَّة، أعرضها عليه، وأطلب إليه أن يقرأها، ويبدي رأيه فيها، ويُعمل قلمه في شطب ما يرى، أو إضافة ما يرى كذلك.

ـ عبد العظيم العامل:

وأما عمله، فقد شهد له كلُّ مَن عرَفه، وكلُّ مَن عايشه ـ وأنا منهم ـ أنه كان طوال حياته رجلًا عاملًا لا عاطلًا، وجادًّا لا هازلًا، وبانيًا لا هادمًا، يُعطي قبل أن يأخذ، ويضحِّي قبل أن يستفيد، وإذا عمل أتقن، وإذا قال أحسن، يقول ويفعل، ويَعِد وينجز، ويعاهد فيوفِّي، ويؤتمن فيؤدِّي.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ عفَّ اللسان، لا يسيء إلى أحد في حضرته، ولا يذكر أحدًا بسوء في غيبته، فقد شغله الحقُّ عن الباطل، وشغله العلم عن الجهل، وشغله الإيمان عن اللغو، وقد قال أبو الطيب:

وأكْبِرُ نفسي عن جزاءٍ بغيبةٍ وكُلُّ اغتيابٍ جهدُ مَنْ لا له جهدُ

وقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

وكان إذا وكِّل إليه عمل استفرغ فيه جهده، ووفَّى له حقَّه، صغيرًا كان كالاشتراك في لجنة، أو كبيرًا كرئاسته لقسم الأصول والفقه، الذي رأسه عدَّة سنين، وقام به حقَّ القيام، متعاونًا مع كلِّ إخوانه.

كان لي نِعْم الظهير في كلية الشريعة، وأنا عميدها، وكان لي نعم الظهير في مركز بحوث السنة والسيرة وأنا مديره، وكان عضو مجلس إدارته معي، من أول يوم، وكان هو مقرِّر اللجنة التحضيرية التي حضَّرت بكلِّ قوة وأمانة وإتقان لندوة (نحو موسوعة شاملة للسنة النبوية)، التي عقدناها في جامعة قطر، تحت رعاية أمير البلاد والرئيس الأعلى للجامعة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، حفظه الله. ودعونا فيها عددًا من الشخصيات والمراكز والجامعات والمؤسسات المهتمَّة بالسنة النبوية، من شرعيين وفنيين وحاسوبيين، وكان هو مقرِّر الندوة، بل عمودها الفقري رَحِمَهُ اللَّهُ. وقد أصدرت توصيات مهمة.

كما أقام د. الديب ندوة علمية ناجحة باسم جامعة قطر وكلية الشريعة فيها، عن شيخه إمام الحرمين، دعا فيها عددًا من رجال العلم والفكر والفقه

والسياسة، ممَّن يهتمُّون بإمام الحرمين وفكره وفقهه، وما قدَّمه للأمة وللتراث من بحوث وآراء ومؤلَّفات ظلَّت مُثمرة، رغم مرور الأعصار عليها، وقد طُبعت آثار هذه الندوة.

ولما وكِّل إليه إنهاء الكتاب الذي تكفَّلت به (كلية الشريعة)، بمناسبة بلوغي السبعين: أخرجه خير إخراج، متعاونًا مع بعض المخلصين من زملائه[1].

وحين ضمَّ إلى وزارة الأوقاف بعد تقاعده من الجامعة، كان يقوم بما يكلَّف به بكلِّ دقة، رغم ما أُصيب به من مرض القلب.

ـ عبد العظيم المعلم:

وأما تعليمه، فقد كان معلِّمًا بالفطرة، ومعلِّمًا بالدراسة، ومعلِّمًا بالخبرة والممارسة، وقد علَّم أولًا في المدارس الثانوية، ثم أمضى معظم حياته أستاذًا جامعيًا، وقد استكمل كلَّ مقوِّمات الأستاذ أو المعلِّم الناجح. وهي: قوَّته في المادَّة التي يعلِّمها، وتمكُّنه منها، ثم حسن طريقته في تعليمها، ثم أن تكون له شخصية تجذب طلَّابه إليه، وهو ما توافر لعبد العظيم بجدارة، وعُرف به في جامعة قطر، ولا سيما في قسم الدراسات الإسلامية وكلية الشريعة.

والحقيقة أنِّي منذ أُنشئت (كليتا التربية) في قطر نواة للجامعة المنشودة، وكُلِّفتُ فيها بتأسيس قسم للدراسات الإسلامية، حرصتُ على أن يكون عبد العظيم بجانبي، وكان أمامه عدَّة أشهر حتى يحصل على الدكتوراه من كلية دار العلوم، فلما حصل عليها استقدمتُه، فتحمَّل مسؤوليته من أول يوم، وشدَّ أزري، وقوَّى ظهري، كما قال الله تعالى لموسى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥].

---

(١) مثل: الأستاذ الدكتور عدنان زرزور حفظه الله، وكان لا يزال أستاذًا في جامعة قطر.

• **كان أبًا وصديقًا لطلابه:**

وقد كان نعم العضد لي، كما كان نعم الزميل لإخوانه، كما كان نعم المعلم لطلَّابه، وقد تخرَّجت على يديه أجيال بعضهم من النوابغ، كان لهم معلِّما وأبًا وصديقًا، وكانوا يحبُّونه حبًّا جمًّا، طلبة وطالبات، لغزارة علمه، وسَعَة أفقه، ورقَّة حِسِّه، وحسن خُلقه، وتفانيه في تدريس مادَّته، ونفع طلَّابه، والارتقاء بهم.

وقد عزَّاني بعض طلابه وطالباته من خريجي كلية الشريعة، ومنهم د. عائشة المناعي عميدة الكلية الآن، فذكرت لي أن آثاره لا تزال مغروسة في فكرها ووجدانها، وأنه كان يدرِّس مادَّته في الفقه وأصوله، وهي مادَّة صعبة، لكنه يدرِّسها بـ(مزاج)! ويحبِّبها إلى طلابه بما يُضفي عليها من رُوحه. وهكذا كلُّ مَن درَّسه لا زال موصولًا به فكريًّا وعاطفيًّا، فقد كان يمارس التدريس كأنه فنان يمارس هوايته.

وذلك لأنه لم يكن يعتبر التدريس مجرد وظيفة، بل يعتبره رسالة يؤمن بها، وعبادة يتقرَّب إلى الله بأدائها!.

• **أستاذ جامعي متميز:**

والحقُّ أن عبد العظيم الديب يعدُّ أستاذًا جامعيًّا متميِّزًا، بكلِّ المقاييس، باعتراف كلِّ مَن عايشوه من العمداء والزملاء.

وأشهد أنه منذ جاء عبد العظيم إلى قطر، قد حمل العبء معي، وكان الساعد الأيمن لي، وقد هضم نظام الساعات المكتسبة، وأصول الإرشاد الأكاديمي، وساهم في تيسير ذلك للطلاب مساهمة فعالة. كما أنه رجل مخلص في تدريسه، يتعب على دروسه، ويعدُّ محاضراته، ويقترب من تلاميذه، ويبتكر في طرائقه، حتى إنه كان يدرس كتاب (الحلال والحرام في الإسلام)، فاخترع له أسئلة على الطريقة الأمريكية، بملء الفراغات، أو

الإجابة بعلامة (✔) أو (✘)، أو بكلمة (نعم) أو (لا)، أو اختيار إحدى الإجابات، إلى غير ذلك.

ولهذا كان قريبًا من الطلبة والطالبات، محبَّبًا إليهم، محوطًا بعواطفهم، حتى بعد أن يتخرَّجوا، يظلُّون على صلة به، وقرب منه، وسؤال دائم عنه. وهذا ما لم أجده إلا عند القليلين من الأساتذة.

فمن الأساتذة مَن يحبه الطالب، ولا يحترمه، لأنه طيب القلب، دمث الأخلاق، جيَّاش العاطفة، فمثله يُحبُّ، ولكن ليس عنده من العلم والموهبة والشخصية ما يجعل الطالب يحترمه.

ومن الأساتذة: مَن يحترمه الطالب لقوَّة شخصيته، وسَعَة علمه، وضبطه لقاعة الدرس، ولكنه لا يحبُّه، لفظاظته أو كبريائه، أو جلافة طبعه، أو نحو ذلك، مما لا يجذب القلوب إليه.

ومنهم: مَن لا يحترمه الطالب ولا يحبُّه، فليس عنده من العلم والشخصية ما يحترمه الطالب ويقدِّره لأجله، ولا عنده من العاطفة، وحسن المعاملة، وانبساط الشخصية: ما يحبِّبه إلى الطالب.

ومنهم: مَن يجمع له الطلاب بين التقدير والحبِّ معًا، لما وهبه الله من علم، وما منحه من مواهب، وما يبذل من جهود: تفرض على كلِّ مَن اتَّصل به أن يقدِّره ويحترمه، ويعطيه حقَّه من الإكبار والتقدير، كما أن لديه من الفضائل النفسية، والمكارم الأخلاقية، والسلاسة والعذوبة في الشخصية: ما يجعله يألف ويؤلف، ويُحِب ويُحَب.

وأحسب أن عبد العظيم كان ـ إلى حدٍّ كبير ـ مع طلابه من هذا الصنف. ليست هذه شهادة صديق لصديق، وإنما هي شهادة رئيس أو عميد لأستاذ. على أن شهادة الصديق لصديقه ليست دائمًا موضع تهمة، فالله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ومن الأصدقاء مَن يجور على صديقه، أو لا يعطيه حقَّه من الثناء إذا كان أهلًا لذلك، حتى لا يُتَّهم بالتحيُّز، وهو بهذا قد ظلم صديقه، وظلم الحقَّ معًا. كما قيل: إن بعض القضاة حكموا على بعض الأمراء ظلمًا ليشتهروا بالعدل! وقد شاهدتُ بنفسي بعض الأساتذة، وأنا عميد لكلية الشريعة ظلم ابني، ولم يعطِه الدرجة التي يستحقُّها، حتى لا يقال: إنه جامل ابن العميد!.

- **لم يركض وراء الشهرة والمال:**

لقد عاش عبد العظيم الديب حياته راهبًا ومتفرِّغًا للعلم، لم يركض وراء الشهرة، ولم يسعَ إلى الأضواء، مثل كثير من زملائه، وغير زملائه. بل الحقيقة أن الأضواء سَعَت إليه، وركضت خلفه، ولكنه أبى أن يستجيب لإغرائها.

لقد كلَّمني كثير من أهل العلم أن تتاح لهم الفرصة ليظهروا في برنامج (الشـــريعة والحياة) الذي أقدمه في قناة الجزيرة، حين أغيب عنه لسبب أو لآخر. إلا عبد العظيم الذي ظلَّت الجزيرة تحاول أن تظفر به في حلقة من الحلقات، وهو العالم الكفء القدير على إيفاء أي موضوع يختاره حقَّه، فلم تصل إلى ما تريد، وقد وسَّـــطوني في ذلك لإقناعه، فلم أستطع، فقد كان موقفه مبدئيًا.

وظهرت المصارف (البنوك) الإسلامية، وهيئات الرقابة الشرعية فيها، وفيها مجال للإغراء، وهو من رجـــال الفقه المعدودين، فلم يقبل أن يدخل في هذا الميدان أيضًا، في حين نرى كثيرين من زملائنا قد أصبح هذا شغلهم الشاغل، الذي يســـتهلك كلَّ وقتهم أو جُلَّه، ويشـــغلهم عن العطاء العلمي المنشود من مثلهم.

ولقد شغله الاســـتغراق في خدمة العلم عن مجاملة الناس، وزيارتهم في مجالسهم، والتعرُّف على كبار الشيوخ الذين لهم منزلة وتأثير في البلد، كما فعل كثيرون. ولا غرو أن أُعطيت الجنسية القطرية لعدد من زملائه، وكلُّهم من

أهل الفضل، وكان هو أحقَّ بها وأهلها، فهو أقدم منهم في البلد، وأعظم كفاية، بشهادتهم أنفسهم، ولكن الكثيرين لا يعرفونه.

• **مشغول بهموم الأمة:**

ومع عكوفه على العلم، واستغراقه فيه، كان أبدًا مشغولًا بهموم الأمة، أمَّة الإسلام في المشارق والمغارب، ومشكلاتها السياسية والاقتصادية، وقضاياها الثقافية والاجتماعية، وله فيها رأي ورؤية، وما لقيتُه مرَّة أو حدَّثتُه بالهاتف إلا أخذتْ هذه الهموم جُلَّ وقتنا، فلا يستطيع العالم الحقُّ ـ وإن ترهَّب وتفرَّغ ـ أن ينفصل عن أمَّته وما تشكو من همومها، وهو جزء منها، وعضو في جسدها، ومن لم يهتمَّ بأمر المسلمين فليس منهم.

• **اشتغاله بالتحقيق أكثر من التأليف:**

اشتغل عبد العظيم بالتحقيق أكثر مما اشتغل بالتأليف، مع أنه قادر على التأليف بمنهجية وجدارة، ولقلمه نفحة أدبية ظاهرة، وله اهتمام بالثقافة العامَّة، وبالتاريخ الإسلامي خاصَّة، وله فيه دراسات وكتابات جيدة، نشرت له (الأمة) في سلسلة كتبها الدورية كتابًا منها بعنوان: (المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي)، حتى إنه كتب قبل ذلك كتابًا عن (أبي القاسم الزهراوي)، الطبيب الجراح المسلم المعروف، وقلما يعنى المشايخ بمثل هذه الأشياء! كما له عناية فائقة باللغة والأدب والشـــعر، ولا غرو فهو ابن دار العلوم الأصيل، وقبل ذلك ابن الأزهر والكُتَّاب.

ولم يؤلِّف فيما يُدرِّسه إلا كتابًا واحدًا في الميراث والوصية، ليوفِّر وقته لتحقيق الكنوز التي عكف عليها.

• **مقدمتي لتحقيق (نهاية المطلب):**

وقد كتبتُ مقدِّمة طويلة لعمله العلمي الكبير، وهو تحقيقه لكتاب (نهاية المطلب) لشيخه ومعشـــوقه إمام الحرمين، تضمنت ثلاث كلمات: كلمة عن

إمام الحرمين، وكلمة عن كتاب (نهاية المطلب)، وكلمة عن المحقِّق، ولا بأس أن أقتبس هنا بعض ما كتبته عن المحقِّق، قلتُ:

«وأما المحقق، فهو الأخ الصديق الصدوق: الأستاذ الدكتور عبد العظيم محمود الديب، الذي أعرفه منذ كان طالبًا في القسم الابتدائي بمعهد طنطا الديني، وتربطني به منذ ذلك الزمن صلة وثيقة، لم تزدها الأيام إلا قوَّة، وإن كان يصغرني ببضع سنوات.

عرَفتُ الدكتور الديب ـ منذ يفاعته ـ رجل صدق: صدق مع نفسه، وصدق مع ربِّه، وصدق مع إخوانه، وصدق مع دعوته، وصدق مع أمته، وصدق مع الناس أجمعين، مستمسكًا بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

عرَفتُه قوي الإيمان، عميق اليقين، نيِّر البصيرة، نقي السريرة، يقظ الضمير، حيَّ القلب، جيَّاش العاطفة، طاهر المسلك، بعيدًا عن الريبة.

وعرَفتُ فيه الحماس والغَيرة لما يؤمن به، لا يضنُّ بجهد ولا وقت ولا نفس ولا نفيس في سبيل ما يؤمن به، مدافعًا عنه، وإن خالفه الناس. وقد يغلو في الدفاع عن بعض الفصائل الإسلامية، حتى يكاد يحسبه سامعه من المتشدِّدين، وما هو منهم.

تجسَّدت فيه الأخلاق العريقة للقرية المصرية ـ قبل أن تُغزى بآفات الحضارة الحديثة ـ من الحياء والإباء، والشهامة والوفاء، والبرِّ والصلة، كما يتجلَّى ذلك في إهداءاته لكتبه، وشكره لشيوخه وزملائه، وكلِّ من عاونه بجهد. أحسبه كذلك، والله حسيبه، ولا أزكيه على الله تعالى.

وقد تجلَّت هذه الفضائل التي عُرف بها الديب يافعًا وشابًّا، في حياته العلمية المباركة، كهلًا وشيخًا، ومَن شبَّ على شيء شاب عليه.

وإذا رأيت من الهلالِ نموَّه أيقنت أنْ سيصيرُ بدرًا كاملا!

• **المحقق المتميز:**

فالدكتور الديب رجلٌ عالم بحاثة دؤوب، طويل النفس، دقيق الحسِّ، نافذ البصيرة، متمكِّن من مادَّته، قادر على الموازنة والتحليل، له مَلَكَة علمية أصيلة يقتدر بها على الفَهم والفحص، والنقد. صبور على متاعب العلم، وللعلم متاعب ومشقَّات لا يدركها إلا مَن مارسها وعايشها، كما قال الشاعر:

لا يعرفُ الشَّوقَ إلَّا مَنْ يُكابدُه ولا الصبابةَ إلَّا مَن يُعانيها!

وكما ذكرتُ أن الدكتور الديب رجل له قلم رشيق بليغ، كما تجلَّى ذلك في بعض ما كتب من مقالات ورسائل وكتب.

ومع هذا لم يشغل (التأليف) وقته كما شغله (التحقيق)، فقد اختار الطريق الوعر، والمهمَّة الأصعب، وهو لها بتوفيق الله: بما لديه من مؤهِّلات عقلية وعلمية ونفسية؛ فقد حفظ القرآن من صِغَره في الكتاب، وتكوَّن في معاهد الأزهر، الابتدائية والثانوية، ثم في كلية (دار العلوم) بالجامعة، وكان فيها فحول في علوم العربية والشريعة، وملك مفاتيح العلم، وعاش يقرأ ويدرس ويناقش، ويتعلَّم من كبار الشيوخ، وأساتذة التحقيق، وقد اكتملت له الخصال أو المزايا الست، التي أوصى بها شيخه الإمام الجويني طلَّاب العلم، فيما أنشدوا له من شعر، حيث قال:

أصْغِ، لن تنالَ العلمَ إلَّا بستةٍ سأنبيك عن تفصيلِها ببيانِ
ذكاء، وحرص، وافتقار، وغربة وتلقين أستاذٍ، وطول زمانِ

وقد عكف الأخ عبد العظيم منذ دخل ميدان التحقيق على تراث إمام الحرمين، فهو مُولَع بالرجل منذ عَرَفه في دراسته عنه بالماجستير والدكتوراه بدار العلوم.

بل هو في الحقيقة (عاشق) لإمام الحرمين، كما تحسُّ بذلك إذا تحدَّث

عنه أو كتب عنه. والعاشـــق تهون عليه الصعاب، ويجد البعيد قريبًا، والحَزْن سهلًا، في سبيل معشوقه.

أخرج الدكتور الديب قبل ذلـــك من كتب إمام الحرميـــن (البرهان) في أصول الفقه، وهو كما قال التاج السبكي: (لغز الأمة). وقد أمضى في تحقيقه سبع سنوات كاملة.

وأخرج بعد ذلك له أثرين مهمين:

١ ـ (الغياثي) أو (غياث الأمم) في السياســـة الشرعية، وهو نسيج وحده، وقد قدَّمه بدراسة رائعة كشفت عن مكنونه، وعرَّفت بحقيقة مقصوده، وبيَّنت ما سبق به الإمام، وما أُخذ عنه، وان لم ينسب إليه.

٢ ـ و(الدرة المضية في الخلاف بين الشافعية والحنفية)، وقدم لها بدراسة مهمة ونافعة كذلك.

أما تحقيق (النهاية) أو (نهاية المطلب)، فقد كان حلمًا وأمنية له، منذ عرف إمام الحرمين، ثم غدا أملًا ورجاء، ثم تحول إلى حقيقة، منذ بدأ يبحث عن نسخه منذ سنة (١٩٧٥م)، ومنذ وصل إلى قطر سنة (١٩٧٦م) وهو مشغول بالكتاب.

وظلَّ نحو عشـــرين عامًا، وهو عاكف على (النهاية) أو (نهاية المطلب)، عايشه هذه السنين ورافقه: يقرؤه على مهل، ويجتهد أن يفهمه على الصواب ما أمكن، وأن يفسر غامضه، ويفك طلاسمه.

وأنا أدرى الناس بما عاناه الدكتور الديب في تحقيقه لهذا المخطوط، من حيث جمع أصوله المبعثرة في شـــتى مكتبات العالـــم، فقد ظل يقرأ فهارس المخطوطات، ويتتبعها، ويزور المكتبات هنا وهناك بنفسه، ويسأل العارفين، ويستعين بالأصدقاء ـ وأنا منهم ـ ليبحثوا له عن نسخ من الكتاب، حتى جمع أقصى ما يمكن الحصول عليه من أجزاء الكتاب مـــن مظانه في العالم، عن طريق التصوير طبعًا.

جَهَد د. الديب جَهده، حتى جمع من الكتاب عشـــرين نسخة صوَّرها من مكتبات العالم: في القاهرة والإسكندرية وسوهاج من مصر، ودمشق وحلب من سورية، والسلطان أحمد وآيا صوفيا من تركية. ولكن لم توجد منه نسخة كاملة. وبلغ عدد مجلداتها (٤٤)، وعدد أوراقها (١٠٣٣٦) ونســـخت بخط اليد في (١٤٥٩٠) صفحة.

هذا، بالإضافة إلى المختصرات والنصوص المساعدة، وهي تسع نسخ، بلغ عدد مجلَّداتها (١٥) وعدد أوراقها (٣٧٥٠) تقريبًا.

ثم بدأ يقرأ النص قراءة العارف الخبير، ولكنه يقرأ نصًّا غير عاديٍّ، لرجل غير عاديٍّ، فبعض المصنَّفات تكون ترديدًا لكلام السابقين، أو تكرارًا وتأكيدًا له، فيستطيع قارئها أن يبحث عنها فيما نقلت عنه.

أما إمام الحرمين فهو مستقلٌّ في تفكيره، مستقلٌّ في تعبيره، فيحتاج من محقِّقه إلى فَهم دقيق، وتأمُّل عميق، وصبر جميل، ومراجعة طويلة، حتى يفهم ما يريد المصنِّف.

على أن إمام الحرمين كثيرًا ما يغرب في تعبيره، فيظلُّ المحقِّق يبحث طويلًا في المعنى المراد، حتى يجده باليقين أو بالظنِّ. وقد يظلُّ أسابيع أو شهورًا، يفتِّش عن المعنى، ويبحث عن المظانِّ، ويشاور مَن يثق به، إلى أن يشرح الله صدره لما يختار.

أضف إلى ذلك ما تعانيه المخطوطات أبدًا من كلمات مطموســـة، أو مخرومة، كلها أو بعضها، أو لعلها سقطت من المصنف نفسه أثناء الكتابة، كما يحدث لكلِّ مؤلف، زيادة عما يصنعه النسَّاخون بالكتب من تصحيف وتحريف، ومسخ وتغيير، وخصوصًا الجهلة منهم!.

زد على ذلك ما يستشهد به المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ من أحاديث، بعضها لا يكون معروفًا عند الفقهـــاء، وفي كتب الفقه المألوفـــة، بحيث نجده في تلخيص

الحبير، أو سنن البيهقي، أو غيرهما من الكتب التي هي مظان هذا اللون من الأحاديث.

ليس هيِّنًا ما قام به الدكتور الديب مـــن تحضير وتهيئة للعمل الكبير الذي نهض له، وهو له أهل، ليخرج (النهاية) إلى النور، ويحيلها من مقبور إلى منشور.

وقد قال بعض العلماء: من نشر مخطوطة، فكأنما أحيا موءودة! فكيف إذا كانت هي (النهاية)؟!.

• **مدرسة متميزة في التحقيق:**

ينتمي الأخ الدكتور الديب إلى مدرسة في التحقيق، متميزة، شيوخها الكبار: آل شاكر: أحمد ومحمود، وعبد السلام هارون، والسيد أحمد صقر، رحمهم الله، وأمثالهم.

وهي مدرسة تُعنى بخدمة النص ذاته، وتقديمه للقارئ بيِّنًا واضحًا مفهومًا، كما أراده مصنفـــه، بقدر الاســـتطاعة، ولا تثقل كاهل المتـــن المحقق بكثرة التعليقات التي لا لزوم لها، وتوسيعها بغير حاجة، كما يفعل الكثيرون.

ولقد زرت الدكتور الديب في (مخبئه العلمي) أو في (ورشة العمل) التي يزاول فيهـــا مهنته، ويمارس تحقيقـــه، وهي حجرة كبيرة فيهـــا عدة مكاتب، مجهزة بما سماه الدكتور الديب (حافظ عصرنا) الكومبيوتر، وبالجهاز القارئ للمخطوطات، وبالمراجع المختلفة: من فقهية وحديثية ولغوية، وغيرها.

وقد قدم الدكتور الديب من قبل دراســـة عن إمام الحرمين: حياته وآثاره، حصَل بها على درجة (الماجستير) من كلية دار العلوم، وأخرى عن (فقه إمام الحرمين) حصل بها على درجـــة (الدكتوراه) مع مرتبة الشـــرف، والتوصية بطباعة الرسالة وتبادلها مع الجامعات.

وهذا كله ساعده على فهم إمام الحرمين، وكتابه المتميز (نهاية المطلب).

لقد قدم الدكتور عبد العظيم الديب للمكتبة الإسلامية خدمة جليلة، بتحقيق هذا الكتاب الفذ، ولا يسعنا، بل لا يسع أي عالم، أو أي مسلم يهتم بدينه وثقافته وحضارته إلا أن يشكر للدكتور الديب ما قام به من جهد وعناء طوال تلك السنين».

• **مرض الشيخ بالقلب:**

لم يكن عبد العظيم من المرفَّهين ولا المدلَّلين، فهو ابن القرية حقًّا، الناشئ في ربوعها، الآكل من ثمارها، الشارب من لبانها، المتمتِّع بهوائها، وكان تكوينه البدني قويًّا، ولكن شاء الله تعالى أن يصيبه من أمراض العصر مرض القلب، وسافر إلى لندن لعمل عملية جراحية منذ سنوات، تمَّت بنجاح والحمد لله.

ولكنه ظلَّ تحت تأثير هذا المرض، فقلَّل من قُدرته على العمل، ومن لقائه بالناس، وما زال به حتى أصابته جلطة في رجله، دخل من أجلها المستشفى، وأُجريت له عملية، وكان قدر الله أن تكون فيها وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ.

• **العناية بتراث الشيخ ونشره:**

وأعتقد أن عبد العظيم قد ترك وراءه أشياء كثيرة جديرة أن تُنشر، سواء في باب التأليف أم في باب التحقيق، وإني لأرجو من تلميذه القطري الوفيِّ المخلص الذي كان ساعده الأيمن في تحقيقه، الأخ علي الحمادي حفظه الله: أن يحرص على كلِّ ورقة تركها، وأن ينشر ما هو جاهز للنشر منها، وأن يبحث مع بعض إخوان الشيخ على ما وصل إلى مرحلة قابلة للإتمام، للعمل على إتمامه، وفاء بحقِّ الرجل. ونرجو من جامعة قطر، ووزارة الأوقاف ووزيرها الشهم أحمد عبد الله المري، أن تساهما في ذلك بما للرجل من حقٍّ عليهما.

• **على طلَّاب الدراسات العليا تقديم أطروحات عن تراث الشيخ:**

كما أرجو من طلَّاب العلم في جامعاتنا العربية والإسلامية: أن يتناولوا سيرته العلمية وآثاره المنشورة، بالدراسة والتحليل، في أطروحات أكاديمية للماجستير أو الدكتوراه، لتنتفع بها أجيال الأمَّة القادمة.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يغفر لأخي عبد العظيم ويرحمه، ويتقبَّله في الصالحين من عباده، ويسكنه الفردوس الأعلى، ويجزيه خير ما يجزى به العلماء العاملين، والمعلِّمين الربانيين، والدعاة الصادقين، ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وأن يرزق أهله وإخوانه وتلاميذه ومحبيه الصبر والسلوان، وأن يعوِّض الأمة فيه خيرًا، وألَّا يحرمنا من بشرى الصابرين، ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧].

* * *



الدكتور عز الدين إبراهيم

رجل الثقافة والدعوة والتربية

(حوالي ١٣٤٦ ـ ١٤٣١هـ = ١٩٢٨ ـ ٢٠١٠م)

من أعظم المصائب التي تنزل بالأمة: أن تفقد علماءها وحكماءها، الواحد بعد الآخر، ولا تجد منهم عوضًا، فإنما الأمة برجالها، وقديمًا قالوا: الرجال قليل. وإذا كان الرجال قليلًا، فإن العلماء منهم قليل، وإذا كان العلماء قليلًا، فإن العاملين منهم قليل، وإذا كان العاملون قليلًا، فإن المخلصين منهم قليل، ومن هنا تجد الرجال العلماء العاملين المخلصين، هم قليل من قليل من قليل.

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ويقول تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [صٓ: ٢٤].

والنبي ﷺ يشير إلى قلَّة الفضلاء والأفذاذ من الناس بقوله في الحديث الصحيح: «**الناس كإبل مئة، لا تجد فيها راحلة**».

- **مصيبة الأمة بموت علمائها الربانيين:**

ومن هنا كان فقد الأمة لرجالها الأقوياء الأمناء، أو الحفَّاظ العلماء، نكبة أعظم من فقد الأموال، ونقص الثمرات، كما قال الشاعر:

لَعَمْرُك ما الرزيَّةُ فقدُ مالٍ ... ولا فرسٌ يموتُ ولا بعيرُ!
ولكنَّ الرزيةَ فقدُ حرٍّ ... يموتُ بموتِهِ خلقٌ كثيرُ!

وخصوصًا إذا كان هؤلاء الرجال من أهل العلم والدعوة، وأهل الرأي والحكمة، فإن المصيبة بفقدهم تتضاعف، والخسارة برحيلهم تتفاقم، حتى يُخْلِف الله على الأمة مَن يسدُّ مسدَّهم، أو يقوم ببعض دورهم، وهذا ما نبَّه

عليه الحديث النبوي الصحيح المتَّفق عليه: عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبقِ عالمًا، اتَّخذ الناس رؤوسًا جُهَّالًا، فسُئلوا فأفتَوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا**»[١].

وقال الحسن: إذا مات العالم ثُلمت ثلمة في الإسلام، لا يسدُّها شيء ما اطَّرد الليل والنهار[٢].

وسُئل سعيد بن جبير: ما علامة الساعة وهلاك الناس؟ قال: إذا ذهب علماؤهم[٣].

وقال عطاء في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١] قال: ذهاب فقهائها وخيار أهلها[٤].

وقال ابن عباس لما مات زيد بن ثابت رضي الله عنه: مَن سرَّه أن ينظر كيف ذهاب العلم، فهكذا ذهابه. يعني: أن يموت العلماء[٥].

وقال الحسن أيضًا: يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء![٦].

- **عرَفتُه منذ أكثر من ستين سنة:**

أقول هذا اليوم بمناسبة ما أُصيبت به الأمة الإسلامية، والدعوة الإسلامية، والثقافة الإسلامية، والتربية الإسلامية، من فقد رجل من خيرة رجالاتها،

---

(١) سبق تخريجه: ص٣٦٦ في كتابنا هذا.

(٢) إحياء علوم الدين (٧/١).

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٠٢٣).

(٤) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٠٣٠).

(٥) جامع بيان العلم (٦٠٠/١).

(٦) إحياء علوم الدين (٨/١).

وعَلَم من أبرز أعلامها، وحكيم من صفوة حكمائها، ورائد من أنبغ روَّادها، وحادٍ من أهدى حُـداة ركبها، إنـه الأخ الحبيب، والصديـق الأثير، العالم الباحث الأديب، والداعية المربي الكبير، الأستاذ الدكتور عز الدين إبراهيم، الذي ربطتني به روابط عدَّة منذ نحو ستين عامًا، حتى فرَّق بيننا هاذم اللَّذات، ومفرِّق الجماعات (الموت).

لقـد عرَفتُه قبـل أن ألقاه، فقد كان مـن طلَّاب الإخوان المسـلمين المتميِّزين في جامعة القاهـرة (جامعة فـؤاد الأول)، مع مصطفى مؤمن وسعيد رمضان، وغيرهما، وكنا نحن طلَّاب الإخوان في الثانوي حينذاك نعتزُّ بهم ونفخر.

- **أول ما استمعتُ إليه:**

أما أول ما لقيتُه واستمعتُ إليه، فأظنُّه كان في سنة (١٩٤٦م)، حين كنتُ في القاهرة لمناسبة من المناسبات، وكان شـأننا إذا كنا في القاهرة أن نزور المركز العام للإخوان، ونحاول لقاء الأستاذ المرشد حسن البنا، وقلَّما كان يُتاح لنا ذلك.

وفي هذه المرَّة قيل لنا: في هذه الليلة يُقام احتفال بذكرى المولد النبوي بشُعبة السيدة عائشـة بالقلعة، وسـيخطب فيه بعض الدعاة الشباب، ومنهم عز الدين إبراهيم.

وحرصتُ على أن أشهد الاحتفال لأسـتمع إلى عز الدين إبراهيم، الذي عشقته أذني قبل أن يراه بصري. والأذن تعشق قبل العين أحيانا.

وقد حضرتُ مع بعض الإخوة إلى الشـعبة المذكورة، وشـاركنا في هذا الاحتفال بالاسـتماع إلى خطبائه، الذين كان في طليعتهم الشـاب الجامعي عز الدين إبراهيم، الذي تحدَّث عن السيرة النبوية، وانتقد ما يقدَّم للشَّعْب في (قصة المولـد) التي تُتلى على الناس في كلِّ شـهر ربيـع الأول، وفيها من الأحاديث الواهية والموضوعة ما فيها.

اســتمعتُ إلى عز الدين إبراهيم يتحدَّث عن واجبنا نحو السيرة النبوية، حديثًا جديــدًا، كان فيه موثَّق العلم، مرتَّب الفكر، ســليم الأداء، يملك رؤية واضحة للســيرة النبوية، وخصوصًا قصص المولد النبــوي التي تُعرض على الناس في المساجد، وقد تُقرأ في البيوت، وضرورة تصفيتها من هذه الشوائب التي لا تتَّفق مع قرآن ولا سنة، ولا علم محقَّق. وعرض السيرة السليمة التي تُتَّخذ منها الأســوة المحمدية، ويقتبس الناس من دروســها النيرة ما ينفعهم، ويرقى بهم في دينهم ودنياهم.

• **اكتشاف داعية مصلح:**

وكان أهم ما اكتســبتُ مــن هذا الحفل: اكتشــافي هذا الداعيــة المعلِّم والمصلح، وإن لم تُتَح لي فرصة للتعرُّف به في تلك الليلة، لتزاحم الحضور عليه، ولأني غريب ومغمور لا يعرفني أحــد، أو يهتمُّ لي. كما كنتُ متعجِّلًا لأبحث عمَّن يستضيفني لأبيت عنده تلك الليلة، فهذا ما كان يهمُّني ويشغلني طوال مقامي في القاهرة.

• **لجوءُه إلى ليبيا في محنة (١٩٤٩م):**

وحين اعتقلنا ســنة (١٩٤٩م) في معتقل هايكســتب والطور، لم يكن معنا عز الدين، فقــد عرَفنا أنه واثنين من إخوانه غــادروا مصر عن طريق الصحراء الغربية، ورحلوا إلى ليبيا، ولقوا الملك إدريس السنوسي، وطلبوا منه اللجوء السياسي، بعد خطبة بليغة ألقاها عز الدين، فأجارهم الملك، فشعروا بالأمان، كما شعر موسى حين قصَّ قصَّته على الشيخ الكبير في مدين، فقال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

• **عودته إلى مصر بعد هدوء الأحوال:**

وبعد أن أفرج عن المعتقلين في مصر، وهــدأت الأحوال، عاد عز الدين ورفيقاه إلى القاهرة، وبدأ يمارس نشــاطه في (قســم الأُسَــر)، مع الدكتور

عبد العزيز كامل في عهد الأستاذ الهضيبي. وهذا يتَّفق مع اتجاهه الذي عُرف به هو ومجموعة من إخوانه: عبد الحليم أبو شقة، وجمال الدين عطية، ويوسف عبد المعطي، وغيرهم، الذين أسَّسوا ما عُرف باسم (لجنة الشباب المسلم)، التي كانت تُعنى بتقوية الجانب الفكري والثقافي وتوسيعه، في مقابلة ما تُعنى به جماعة النظام الخاص، وهو يوجِّه العناية الكبرى إلى الجهاد والجانب العسكري.

- **إنكاره احتلال المركز العام من قبل التنظيم الخاص:**

وقد كان صوته من أقوى الأصوات التي أنكرت على شباب (التنظيم الخاص)، الذي احتلَّ المركز العام في وقت من الأوقات، تنفيذًا لأوامر رئيسهم السابق عبد الرحمٰن السَّنَدِي، ثائرين على المرشد الشرعي المبَايع من الهيئة التأسيسية ومن جماهير الإخوان، الأستاذ حسن الهضيبي، وقد أنهى هؤلاء الإخوة احتلالهم بتوسُّط عبد العزيز كامل وغيره، وانعقد مؤتمر كبير في المركز العام ضمَّ الألوف، تحدَّث فيه كثيرون، كان منهم عز الدين إبراهيم، الذي ركَّز في حديثه على أن هؤلاء الشباب خرجوا عن أدب الإسلام في توقير الكبير، ومعرفة حقّ العالم، وطاعة مَن ولَّيته أمرك، واحترام نظام الجماعة.

- **التقاؤنا في العامرية في محنة (١٩٥٤م):**

وقد جمعنا الاعتقال في (الحلّ الأول) للإخوان في عهد الثورة في يناير (١٩٥٤م)، حين التقينا في معتقل العامرية، وقد عملنا على تحويل المعتقل إلى جامع وجامعة وجمعية: جامع للعبادة، وجامعة للتثقيف، وجمعية للتعاون على الخير. يبدأ يومنا من قبل الفجر بالتهجُّد، وتلاوة القرآن، وذكر الله، والتضرُّع إليه بالدعاء والاستغفار، ثم صلاة الفجر في جماعة، ثم قراءة الأذكار والأدعية المأثورات، ثم درس علمي رُوحي، أُلقيه أنا، أو الأخ العسال، أو الأخ عز الدين إبراهيم، أو الأستاذ عطية الشيخ، أو غيرهم من دعاة الإخوان.

وما هي إلا أيام قليلة ونحن في معمعة هذا النشاط، حتى نُودي على ستة من المعتقلين دون غيرهم، لينقلوا إلى القاهـــرة، كان عز الدين واحدًا منهم. وهم: محمود عبده، ومحمود حطيبة، ومحمود نفيس حمدي، وأحمد العسال، ويوسف القرضاوي.

في أول الأمر ظنَّ الإخوان أن هذا أول كشف من كشوف الإفراج!.

ولكن بالنظر في الأســماء التي نُودي عليها، يستحيل أن يفرج عنها قبل غيرها، وهم من قادة العمل الطلابي والشبابي والدعوي.

وذهبت ظنون الإخوان وتفسيراتهم مذاهب شتى، لماذا هؤلاء دون غيرهم؟ وهل هـــم مفرج عنهم؟ ولماذا؟ وكيف وهم من أنشـــط الإخـــوان؟ حتى قال بعضهم: إنهم أخذوهم ليحرموا الإخوان في المعتقل من نشاطهم ومحاضراتهم، ولكن قد ينطبق هذا على عز الدين والعسال والفقير إليه تعالى.

وقال بعض الإخوان: لعلهم يريدون أن يتفاوضوا مع شباب الإخوان خاصة، وكله ظن وتخمين، والظن لا يغني من الحق شيئًا.

- **إلى السجن الحربي:**

على كل حال أخذنا نحن الســتة في ســيارة كبيرة، ووصلتنا إلى مكان في ضواحي القاهرة، أدخلنا إليه، فإذا هو السجن الحربي الذي بقينا فيه فترة اعتقالنا.

وقد وضعنا في سجن رقم (٤) في زنازين انفرادية، وكان هذا هو السجن الذي ضم بعد ذلك الأستاذ الهضيبي المرشد العام وعددًا من قادة الإخوان.

ورغم أن كلًّا منا كان في زنزانة انفرادية، فقد سمحوا بفتح الزنازين معظم النهار، وكنا نتزاور، ونصلي في جماعة، وقد أمرني الأستاذ المرشد أن أكون إمامًا لهم، فكنت أصلي بهم، وأطيل في الصلاة الجهرية، بحيث أقرأ ربعًا أو أكثر أحيانًا في الركعة، فنصحني الأستاذ أن أخفف. وكان هذا من فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ، رعاية للكبير والضعيف وذي الحاجة.

وأراد الأخ عز الدين أن يصدر مجلة باسم المعتقل، وطلب إلي أن أشارك فيها بقصيدة، فأنشأت قصيدة (زنزانتي) المنشورة بديواني (المسلمون قادمون) ومن قارن وصف الزنزانة في هذه القصيدة ووصفها في قصيدتي (النونية) الشهيرة يعرف الفرق بين الاعتقال الأول في يناير (١٩٥٤م) والاعتقال الآخر في أكتوبر (١٩٥٤م) وما بعده.

• **سفره إلى سورية للعمل بها:**

بعد خروجه من السجن الحربي، واصطلاح رجال الثورة مع الإخوان، في ظاهر الأمر على الأقل، في أواخر مارس (١٩٥٤م) فكر عز الدين وجماعة من أصدقائه أن يغادروا مصر إلى سورية الشقيقة، وكانت الأجواء فيها آمنة بعد زوال حكم الشيشكلي، وكانوا لا يأمنون تغير الأحوال في مصر، وبخاصة أن العسكر غير مأمونين. فخرج عز الدين وعبد الحليم أبو شقة وحسن المعايرجي، وإخوة آخرون، للعمل هناك، وقد تزوج عز الدين من سورية، كما تزوج صديقه المعايرجي من لبنان.

• **من سورية إلى قطر:**

ثم فتح لهم باب جديد، هيأه الله لهم، وهو (قطر)، والتي كانت في بداية نهضتها، ووصلها قبلهم زميل لهم من الإخوان، وهو الأستاذ عبد البديع صقر، الذي تولى إدارة المعارف، في عهد الشيخ علي، وتحت إشراف الشيخ قاسم درويش، رئيس لجنة المعارف. وأضحى في حاجة إلى رجال ثقات يعاونونه في التدريس والإدارة والتفتيش.

كانت قطر واحة طيبة وارفة الظلال لعز الدين وإخوانه، وقد التقى بهم فيها إخوة جاؤوا من السودان، مثل: كمال ناجي وعلي شحاتة، ضمتهم المعارف. وذلك قبل أن أجيء إلى قطر بعدة سنوات.

وبعد مدَّة حدثت فيها عدة تغيرات؛ غادر عز الدين قطر إلى لندن للحصول

على الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة لندن، ثم عاد إلى قطر، وقد أصبح زميله وصديقه كمال ناجي مديرًا للمعارف، فأصبح الساعد الأيمن له.

• **شخصية حكيمة محببة:**

وكان عز الدين من الشخصيات المحبَّبة إلى النفس، يأسر جليسه بحديثه العذب، ومنطقه المرتَّب، وتفكيره المنظَّم، ووجهه البشوش، وثقافته الواسعة، وصدره الرحب، وخلقه الحسن.

وكان من الرجال الذين يتَّصفون بالحكمة، في تصريفهم للأمور، وإدارتهم للأعمال، فلم يكن يستخدم العنف والجبروت مع أحد، مع أن بيده السلطة، بل كان له قبس من أخلاق النبوة، كما قال تعالى لرسوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فكان الرفق ديدنه مع كلِّ مَن يتعامل معه من كبير أو صغير، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا نُزع من شيء إلا شانه.

ومن مقومات الحكمة: أنه يتمتَّع بخُلقين وصفهما رسولنا الكريم بأنهما يحبُّهما الله ورسوله، وهما: «**الحلم والأناة**»[1].

وقد قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

• **بصمات عز الدين في قطر: كتب للعربية فريدة في نوعها:**

وقد كان لعز الدين (بصماته) الواضحة في معارف قطر، فهو الذي قاد مسيرة تأليف كتب معاصرة في اللغة العربية، مستوفية لكل الشروط اللازمة للكتاب المعاصر.

---

(١) إشارة إلى قول النبي ﷺ لأشج عبد قيس: «**إن فيك خَلَّتَيْن يحبهما الله: الحِلمُ والأناةُ**» رواه أبو داود في الأدب (٥٢٢٥) وقال الأرناؤوط: حسن لغيره، وقصة الأشج صحيحة، والطبراني (٢٧٥/٥).

وقد اجتهـد الدكتور عز الدين أن يراعي في هـذه الكتب كلَّ المتطلَّبات العلمية والدينية والتربوية والاجتماعية والسياسية، بدقَّة وأمانة وإتقان. وظهرت مجموعة كتب في القراءة والنصوص متميِّزة في موضوعاتها وشمولها وتنوُّعها وتوازنها وأسلوبها، كانت نموذجًا يُحتذى في المنطقة.

كان الدكتور عز الدين قد عُيِّن مساعدًا لمدير المعارف، وهو الأستاذ كمال ناجي، بعد أن استقال المدير السابق الأستاذ عبد الرحمٰن عطية، وكان عز الدين مكمِّلًا لصديقه ناجي، فعز الدين يتميَّز بقوَّة التفكير، وسَعَة الثقافة، والتخطيط بأناة، وكمال ناجي يتميَّز بالإدارة الحازمة، والقدرة على البتِّ، وسرعة التنفيذ، وتعاون مثل هاتين الكفايتين جدير أن يُثمر خيرًا.

- **مؤتمرات المديرين للمدارس:**

وكان لعز الدين مبادرات مبتكرة وبناءة، ومنها: ما اقترحه من عقد مؤتمرات دوريَّة لمديري المدارس، وكان هو يرأس هذه المؤتمرات، ويساعده بعض المفتِّشين، وهذه المؤتمرات ناقشت المشكلات التي تواجهها المدارس، من جهة الطلاب، أو من جهة المدرسين، أو من جهة المناهج أو الكتب، أو من جهة أهالي الطلاب أو غيرها. وتدرس الاقتراحات من خلال الممارسة العملية، والتجارب الواقعية.

وهذه المؤتمرات هي التي وضعت لوائح المدارس الداخلية، ومنها لائحة المعهد الديني. وأذكر أنه كان في مقدِّمة هـذه اللوائح: أن هدف هذه الوزارة بمدارسها ومؤسساتها: تكوين جيل جديد، مؤمن بالله، معتز بالإسلام، مستمسك بتعاليمه، متكامل النماء في جسمه وعقله وروحه ووجدانه، يعمل لرفعة وطنه ودينه وعروبته وأمته والإنسانية جمعاء.

- **جلسات روحية مع عز الدين:**

وكان لنا مع الدكتور عز الدين جلسات أخوية روحية وفكرية، نتبادل فيها الأحاديث ونتذاكر فيها المعارف، ونتواصى فيها بالحق والصبر، ونتعاون على

البر والتقوى، وكان عز الدين يسمي هذه الجلسات (جلسات التسليك) أخذًا من (تسليك) الصوفية لمريديهم في الطريق، حين يرتقون بأتباعهم من درجة (مريد) إلى درجة (سالك).

وكان حضور هذه الجلسات هم: عبد الحليم أبو شقة، وحسن المعايرجي، وعز الدين إبراهيم، وأحمد العسال، ويوسف القرضاوي. وكل واحد من هؤلاء (شيخ) في نفسه وفي حقيقة الأمر، فلم يكن بيننا شيخ ومريد. ولكن إخوة متحابون، يتناصحون ويتذاكرون، وإن كان أنشطنا هو الأخ عبد الحليم رَحِمَهُ اللَّهُ. وقد جاء عن سيدنا سلمان الفارسي: مثل الأخوين المؤمنين كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرًا[1]. ولما سافر الأخ العسال إلى لندن استمرت الحلقة بالأربعة الباقين.

وقد ظلت هذه الحلقة تجتمع اجتماعات غير منتظمة، حتى فرق بينها الزمن بعد ذلك، فسافر المعايرجي إلى ألمانيا لدراسة الدكتوراه، وتعاقد عز الدين مع جامعة الملك سعود بالرياض ليعمل بها أستاذًا، وعقد عبد الحليم العزم على أن يتخلى عن الوظائف الرسمية، وينشئ (دارًا للنشر) بالكويت، ليتفرغ للبحث والدراسة.

- **نزوع إلى العمل الأكاديمي:**

وبعد أن أرسى الدعائم الإدارية والتربوية في وزارة التربية في قطر، رأى أن يتفرَّغ للجانب العلمي والأكاديمي، حتى لا يستهلكه العمل الإداري، ويصرفه عما يحرص عليه من العلم والثقافة، فتعاقد مع المملكة العربية السعودية، وبالذَّات مع جامعة الملك سعود (جامعة الرياض)، ليعمل في تدريس اللغة العربية، وفي طرق تدريس اللغة العربية، وهو ما درسه في معهد التربية العالي في مصر.

---

(١) رواه أبو عبد الرحمٰن السلمي في آداب الصحبة (١٢٨).

وقد شجَّعتُه على ذلك، مع أنه سيحرمنا فرصة التلاقي المستمر، الذي كنا نسعد به في قطر، لما أعلمه من قدرته على العطاء العلمي والفكري، وحرام أن يظلَّ مثله حبيس العمل الإداري.

- **استقراره في الإمارات:**

ولكن بقاءه في السعودية لم يطُل كثيرًا، فسرعان ما اختطفته الإمارات، واحتضنته في رحابها، وأصبح واحدًا من رجالها القريبين جدًّا من قيادتها.

- **مستشار ثقافي للشيخ زايد:**

عمل في دولة الإمارات العربية المتحدة وتمتَّع بجنسيتها، منذ سنة (١٩٦٨م) بوصفه مستشارًا ثقافيًا لمؤسس الدولة الراحل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث كلَّفه بمهام تربوية ودينية وعلمية وثقافية متنوِّعة، من خلال التعاون مع وزارات التربية والتعليم والإعلام والثقافة والشؤون الإسلامية، وتولَّى إدارة جامعة الإمارات لمدَّة أربع سنوات.

- **إنجازات عظيمة:**

ومن إنجازاته: اقتراح وتنفيذ (المجمَّع الثقافي) في (أبو ظبي)، وهو صرح مشهود ومتميِّز هناك. والقيام ببرنامج ثقافي واسع باسم ديوان رئيس الدولة في مطلع السبعينيات، والتعاون مع (الحركة النسائية والاتحاد النسائي) وجمعياته في نشأتها، وتنفيذ مشروع (مؤسَّسة الشيخ زايد للأعمال الخيرية والإنسانية)، التي امتدَّ نشاطها إلى أنحاء العالم، والإشراف على (كراسيّ الدراسات الإسلامية) التي أنشاها طيب الذكر الشيخ زايد في عدد من البلاد الأوربية والآسيوية، وتنفيذ مشروع (مَعْلَمَة القواعد الفقهية)، التي اختار لقيادتها الدكتور جمال الدين عطية، ومعه الريسوني والندوي وآخرون، بالتعاون مع مجمع الفقه الإسلامي في جدَّة، وتمثيل الدولة في عدد من (المؤتمرات الإقليمية والعالمية) ذات الصفة الثقافية، والمشاركة الفعالة في (مؤتمرات الحوارات الحضارية والدينية).

• **ترشيد المسلمين السود في أمريكا:**

وكان له دور مهم مع الشيخ عبد الله بن علي المحمود عالم الشارقة المعروف رَحِمَهُ اللَّهُ، في ترشيد المسلمين السود في أمريكا، وإعادتهم إلى الإسلام الصحيح، وإلى حظيرة الأمة الإسلامية، وقد سافر إليهم مرارًا، واتصل اتصالًا وثيقًا بوارث الدين ابن أليجا محمد، وهو الذي ورث زعامة الجماعة، وقد عمل عز الدين على إعانتهم بكلِّ ما يحتاجون إليه، ليرجعوا إلى الكتاب والسنة.

• **تأليف وترجمة كتب متميزة:**

له أكثر من (٢٣) كتابًا تعليميًّا وبحوث كثيرة تتَّصِف بالتنوُّع والتركيز والأصالة، منها: رسائل النبي ﷺ إلى ملوك زمانه، مثل: رسالة هرقل ملك الروم، ومسيرة الجامعات الإسلامية، والحوار الإسلامي المسيحي، والسنوات المتأخِّرة من العمر.

كما عني بترجمة بعض الكتب إلى اللغة الإنكليزية، هي: الأربعون النووية، والأربعون القدسية، ومختصر (الكلم الطيب) لابن تيمية، و(رياض الصالحين) للنووي.

وكانت طريقته أن يقوم هو بالترجمة، وأن يراجعه أحد الإنجليز الذين يعرفون العربية، وقد اختار لذلك الأستاذ دنيس جونسون ديفيز، الذي أسلم بعد ذلك وتسمى بـ(عبد الودود)، ويرى أن هذه هي الطريقة المثلى في الترجمة من لغة إلى أخرى.

وكان على وشك إصدار مجلد من مختارات القرآن الكريم المبوَّبة حسب الموضوعات والمترجمة إلى اللغة الإنجليزية.

• **عضو المجالس العلمية:**

والدكتور عز الدين ابراهيم عضو في عدد جمٍّ من المجالس العلمية لكثير من المراكز العلمية والثقافية، والجامعات العربية والإسلامية والأوربية والآسيوية

والإفريقية، وهو مستشار للجنة الاستشارية لجامعة (ممباسا) الإسلامية، وعضو المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت، وعضو اللجنة الاستشارية العليا لكلية الدراسات الإسلامية بمؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع، ومستشار مركز إسهامات علماء المسلمين في الحضارة بدولة قطر، وعضو مجلس أمناء كلية الخليج الطبية بعجمان، وعضو مجلس أخلاقيات الطب في مدينة الشيخ خليفة الطبية في أبو ظبي.

وترجع مشاركته في المجالات الطبية إلى اهتمامه الشخصي بهذه الموضوعات من الناحية الدينية والأخلاقية والتراثية، وقد شارك بأوراق عمل بهذه الموضوعات في اجتماعات وحلقات دراسية ومؤتمرات متخصّصة، منها على سبيل المثال: الإنجاب والإجهاض، زراعة الأعضاء، بيع الأعضاء، الاستنساخ، رؤية حضارية وإسلامية حول دمج الطب التكميلي والبديل بالطب الحديث، حقوق الأطباء، التعاليم الإسلامية الأساسية حول أمور الطب والطبابة.

- **في مجال الحوار بين الحضارات والأديان:**

وفي مجال حوار الحضارات والثقافات والأديان والإيديولوجيات، شارك الدكتور عز الدين إبراهيم في العديد من الفعاليات في هذا المجال؛ حيث شارك في حوار الثقافات التي نظَّمتها منظمة الإسيسكو داخل الوطن العربي وفي أوربة؛ وعددها ثمانية... ودرَّس موضوع حوار الحضارات والثقافات في المعهد الدبلوماسي التابع لوزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة، لأكثر من فوج... وهو عضو مؤسِّس لحركة الإسلام والغرب التي أُنشئت في منتصف السبعينيات، وشارك على مدى الأربعين سنة الماضية في معظم الحوارات الإسلامية ـ المسيحية. وناب عن منظمة المؤتمر الإسلامي في مقابلة البابا بولس السادس سنة (١٩٧٦م)، وهو عضو مؤسس ومشارك في الفريق العربي للحوار الإسلامي ـ المسيحي ومقره بيروت. وناب عن العالم

الإسلامي في لقاءات السلام العالمية التي نظمتها الكنيسة الكاثوليكية في روما (٢٠٠٢م) وميلانو (٢٠٠٤م) وليون بفرنسا (٢٠٠٥م)، وأصدر رسالة مطبوعة بعنوان: بعد أربعين سنة من الحوار الإسلامي المسيحي، ما الجدوى؟ وما المستقبل؟.

وقد تشاركنا في عدد من هذه الحوارات، وخصوصًا حوارات القمة الإسلامية المسيحية الأولى في روما (٢٠٠١م)، والثانية في برشلونة (٢٠٠٤م)، وكنا على وشك عقد قمة ثالثة في روما، لولا إساءة البابا في محاضرته الشهيرة بألمانيا، إلى نبي الإسلام، ورسالة الإسلام، فجمَّد الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين العلاقة مع الفاتيكان، وقبل د. عز الدين وبعض المسلمين ما اعتبروه شبه اعتذار من البابا.

وقد قال في مؤتمر القمة الإسلامية المسيحية في برشلونة: إن الحوار الإسلامي المسيحي قد شاخ، فقد صار له أربعون سنة، ولم يحقق ما كان يُرجى منه من ثمرة!.

- **مدير صندوق التضامن الإسلامي:**

اختير لعدَّة سنوات مديرًا لصندوق التضامن الإسلامي، الذي يتبع منظمة المؤتمر الإسلامي، ويموِّل بعض المشروعات الإسلامية لبعض الأقليَّات والجماعات الإسلامية التي تفتقر إلى المعونة.

وكان بجهوده وعلاقاته الخاصَّة، يجمع للصندوق من بعض الجهات الرسمية والشعبية، ما يقيمه على ساقه. وقد سألني يومًا عن جواز وقف النقود، لتُستخدم في مثل هذا الصندوق، ودوام نشاطه، بدل أن تُجمع الأموال وتُنفق في الحال.

وقلتُ له: إن الفقهاء مختلفون في ذلك، وأنا من أنصار التوسُّع في إجازة الوقف، لما وراءه من خير للأمة ولأجيالها المستقبلة. وقد رأينا الغربيين يجيزون وقف النقود لسنوات معيَّنة، ثم تعود لأصحابها، ويمكن أن تتجدَّد.

• **لقائي الأخير بعز الدين:**

آخر مرة التقينا فيها كانت في قطر في اجتماع اللجنة الاستشـــارية العليا لكلية الدراسات الإسلامية، وقد كان حريصًا على ألا يتغيب عن اجتماعاتها، وكان له إسهام مبارك في مســـيرتها من أول يوم، وقد توادعنا على أن نلتقي، فلم يقدر لنا أن نلتقي. وكان من حسن وفائه أنه قال لي: إن ورائي واجبًا أريد أن أؤديه قبل أن أســـافر. قلتُ: خيرًا ما هو؟ قال: أن أزور الأمير الوالد الشيخ خليفة بن حمد، فقد عملنا معه سنين طويلة، ومن حقه أن نزوره ونطمئن عليه. قلت له: جزاك الله عن وفائـــك ومودتك خيرًا. وكنـــتُ أود أن أصحبه لزيارة الشـــيخ خليفة لما له علي من حق. ولكن كان يحتاج أن أســـتأذن الشيخ قبل زيارته، ولم يكن متاحًا.

• **مرضه ووفاته:**

وفي شهر رمضان اتصل بي الأخ الصديق محمد الشافعي صادق، وقال: هل بلغك خبر الدكتور عز الديـــن إبراهيم؟ قلت: خير، لـــم يبلغني عنه أي شيء؟ قال: عرفت أنه أصابه المرض الخبيث في كبده، وقد سافر إلى أمريكا للعلاج، والدولة هناك معنية به.

قلت: أسأل الله الذي كشف الضر عن أيوب أن يكشف الضر عنه، هل تعلم له هاتفًا كي نتصل به ونطمئن عليه وندعو له؟.

قال: عندما أعرفه ســـأعطيك إياه. وقد اتصل بي بعد ذلك، وأعطاني هاتف ابنته الدكتورة هدى. وقـــد اتصلت به عدة مرات، فيرد عليَّ مجيب الجوال المسجل.

ثم عرفت أخيرًا أن حالته تدهورت، وأنهم سينقلونه إلى (أبو ظبي).

وأخيرًا أخبرني صديقه وأخوه الدكتور جمال الدين عطية من جدة صباح السبت (٢٠١٠/١/٣٠م)، أنه وافاه الأجل في إحدى مستشفيات لندن في طريقه

إلى الإمارات، فلم نملك إلا أن نقول: إنا لله، وإنا إليه راجعون، إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى.

من نعزي في الفقيد الحبيب؟ أنعزي أنفسنا، أم نعزي أسرته التي فقدت أغلى ما لديها، أم نعزي الأمة الإسلامية في رجلها المثقف، وعالمها المربي، وداعيتها الكبير؟.

بل نعزي الجميع، وندعو الله تعالى لفقيدنا بالمغفرة والرحمة، والفردوس الأعلى، وأن يجزيه عـــن دينه وأمته ودعوته خير ما يجـــزي الأئمة الربانيين، والعلماء الهادين المهتدين، وأن يحشـــره مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

* * *



شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي

الأخ الصديق.. في ذمة الله

(١٣٤٧ ـ ١٤٣١هـ ـ ١٩٢٨ ـ ٢٠١٠م)

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١ ـ ٢].

نحتسب عند الله تعالى فضيلة الأخ الكريم، والصديق العزيز، الإمام الأكبر الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، الذي وافته المنية في مدينة الرياض، بالمملكة العربية السعودية صباح يوم الأربعاء (الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٤٣١هـ، الموافق ١٠ من مارس ٢٠١٠م).

لقد عرَفتُ شيخ الأزهر منذ كان طالبًا في كلية أصول الدين، وقد دخلها عقب تخرُّجي فيها سنة (١٩٥٣م).

وقد أخبرني بأنه عرَفني قبل أن أعرفه، حينما زرتُ معهد الإسكندرية، وكان طالبًا فيه بالمرحلة الثانوية، وكنتُ طالبًا في كلية أصول الدين ورئيسًا لاتحاد طلَّابها، وقد ألقيتُ خطبة أعجبت طلَّاب المعهد، ومنهم الطالب طنطاوي.

وكان بعد تخرُّجه يخطب في أحد جوامع منطقة شبرا، وكان يزورني بين الحين والحين، وأنا أسكن في حدائق شبرا، ويشاورني في بعض المسائل العلمية، وبعد زواجه اعتاد أن يزورني مع أهله، وتعرَّفت زوجته بزوجتي.

وأذكر أني حين اعتقلتُ سنة (١٩٦٢م) في قضية لا ناقة لي فيها ولا جمل، ذهب ليزورني، ففوجئ بأني معتقل، فعرض على زوجتي أن تكلِّفه بما شاءت من خدمات ليقوم بها هو وزوجته.

وحين كان يحضِّر رسالته للدكتوراه، وموضوعها: (بنو إسرائيل في الكتاب والسنة)، كان يتردَّد عليَّ، ويتناقش معي في بعض القضايا المتعلِّقة بالموضوع، حتى بعد إعارته إلى العراق ليخطب في أحد مساجد البصرة لعدَّة سنوات.

وقد طلبتُه أستاذًا زائرًا بكلية الشريعة في جامعة قطر، حين كنتُ عميدها، ثم بعدها بقليل عُيِّن مفتيًا للديار المصرية.

وظلَّت العلاقة بيننا على ما يرام، حتى بدأ الشيخ ينهج نهجًا جديدًا في الإفتاء، لم أرضَ عنه، ولا أكثر علماء المسلمين في مصر وفي غيرها، ولا سيما ما يتعلَّق بالبنوك وفوائدها، وهو ما اضطرَّني أن أردَّ عليه بقوَّة، وخصوصًا في كتابي: (فوائد البنوك هي الربا الحرام). فالحقُّ أقوى من الصداقات، والعلم فوق المودَّات.

وحدثت بيننا قطيعة فترة من الزمن، وحدثت معركة بينه وبين الأخ الصديق الأستاذ الدكتور علي السالوس، الذي كان أستاذا بكلية الشريعة بجامعة قطر، وقد هاجمه بعنف وحدَّة في مقالات، وفي رسائل، ما جعل الشيخ يرفع عليه دعوى في المحاكم المصرية أنه تعدَّى عليه، وخرج عن حدوده، وعُيِّن يوم للمحاكمة، وكان الشيخ يستعين ببعض الشهود، والسالوس يستعين ببعض الشهود وأنا منهم.

وذهبنا إلى المحكمة، وتجمَّع حشدان من علماء الأزهر، هذا مع الشيخ، وهذا ضدُّه، ولكن الحكماء من إخواننا ومنهم الدكتور أحمد كمال أبو المجد، تداركوا الموقف، وأقنعوا الشيخ بضرورة الصلح والتنازل عن الدعوى، وقَبِل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حفاظًا على سمعة العلماء، ووحدة صفِّهم، وحسب ذلك في ميزانه، وسُرَّ الجميع بهذه النتيجة.

وبعد أن عُيِّن الشيخ طنطاوي شيخًا للأزهر، تقابلنا في ندوة أو مؤتمر في الكويت، فبادرني الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتحيَّة والمصافحة، ونسي ما وقع من خصومة،

وأبى أن يتقدَّم عليَّ في دخول أو خروج، وكان هذا دأبه معي، حتى وافاه الأجل رَحِمَهُ اللَّهُ، أدبًا وتواضعًا منه.

وقد قلتُ مرَّة قدمني فيها أمام الملأ: إنَّ الشيخ يحترم السنَّ، وأنا أكبر منه بأربع سنوات. فقال: بل بسنتين فقط. فقلتُ: أنت دخلتَ الكلية بعدي بأربع سنوات، وأنا دخلتُ الأزهر ابن أربعة عشر عامًا! قال: ولكني دخلتُ الأزهر ابن ستة عشر عامًا!.

وقلتُ له مرَّة: أنت شيخ الأزهر، أكبر وأشهر منصب علمي ديني في العالم الإسلامي، ومن واجبنا أن نحترم هذا المنصب، ونقدِّمه على كلِّ مقام آخر. فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: أنا أستحيي أن أتقدَّم عليك، وأنت طول عمرك أستاذنا! ولا ريب أن هذه المواقف تعدُّ غاية في الأدب والتواضع وحسن الخلق.

كان الشيخ طنطاوي دمث الخلق، لطيف المعشر، ولكنه ابن الصعيد حقًّا، لا يحسن التجمُّل ولا التكلُّف، بل يتعامل على السجيَّة، فهو طيب القلب، يألف ويؤلف، ما لم يستفزَّه أحد بالحقِّ أو بالباطل، فيثور ويخرج عن طوره.

وقد ظلَّ مدَّة يقول لي: لا بد أن تكون معنا في (مجمع البحوث الإسلامية). قلتُ له: لعلَّ الساسة تمنعكم من هذا! قال: إذا صمَّمنا فلن يمنعونا. ولكن كانوا يقولون لي: قدِّم طلبًا للانضمام إلى المجمع. فقلتُ: كيف يقدِّم الإنسان نفسه لمجمع ما؟ المفروض أن يرشِّحه مَن يرونه أهلًا من أعضاء المجمع، ثم ينظر المجمع في قبوله أو رفضه. قالوا: هذا نظام مجمع البحوث. وأخيرًا لقيني الشيخ في السعودية، وقال: لا بد من إجراء لقَبولك في المجمع فساعدني عليه، أريد فقط أن توقِّع لي على ورقة بيضاء، وعليَّ أن أملأها، وأن أتولَّى تقديمها للمجمع. وأنهى كلَّ الإجراءات بعد ذلك، وعرض الشيخ الطلب على المجمع، وتمت الموافقة عليه بالإجماع، على ما نُشر.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ أستاذا متميّزا في التفسير، عاش عمره مشغولًا بتدريسه، وألّف فيه تفسيره الوسيط، حتى إني رشّحتُه ليكون بديلًا عني في تفسير القرآن الذي كان يشرف عليه الإذاعي المعروف الأستاذ محمد الطوخي، وكان فيه مجموعة من كبار المشايخ: الشيخ الغزالي، والشيخ عبد المعز عبد الستار، ود. الأحمدي أبو النور، ود. عبد الله شحاتة، ود. حسن عيسى عبد الظاهر، ود. محمد المهدي، والفقير إليه تعالى، وكنت قد اشتركت في تفسير الربع الأول من القرآن الكريم، ثم حدثت ظروف اقتضت أن أتخلف عن الربع الثاني والربع الثالث، وأن أشارك في الربع الأخير، فطلبوا مني أن أرشح لهم مفسرًا بدلي، فاقترحت عليهم اسم الدكتور طنطاوي، وقام بالمهمَّة على ما ينبغي.

ولكن الشيخ قد أدخل نفسه ـ أو أُدخل ـ في (بحر الفقه)، وهو لم يهيئ نفسه له، لا دراسة ولا ممارسة ولا تأليفًا، ولم يتمرَّس على السباحة والغوص في أعماقه، فكثيرًا ما خانه التوفيق في آرائه الجريئة، وهذا سرُّ اختلافنا معه، رغم المودَّة القديمة بيننا، ولكن كما قال الإمام ابن القيم في خلافه مع شيخ الإسلام إسماعيل الهروي الحنبلي، صاحب كتاب (منازل السائرين إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين) الذي شرحه ابن القيم في موسوعته الصوفية (مدارج السالكين)، وكان كثيرًا ما يختلف في شرحه مع مصنِّف المتن، ويردُّ عليه، ويبيِّن خطأ موقفه، فلما سُئل في ذلك؟ قال: شيخ الإسلام حبيب إلينا، ولكن الحقَّ أحبُّ إلينا منه.

وهكذا ينبغي أن تكون مواقف العلماء، لا تؤثِّر الصداقة ولا العداوة على مواقفهم العلمية الفكرية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

لقد خالفتُه في عدد من القضايا، وبخاصَّة تلك التي تتصل بشؤون الأمة، وعَلاقتها بالعالم من حولها، مثل: استقباله لأكبر حاخامات إسرائيل في مكتبه، ومثل:

تبريره لفرنسا في منع حجاب الطالبات المسلمات في المدارس، بناء على أن كلَّ دولة حرَّة في اتخاذ ما ترى من قوانين، ناسيًا أنه ليس من حقِّ أي دولة أن تسنَّ قوانين تُلغي الحرية الشخصية، وتناقض الحرية الدينية، وهما من أقدس حقوق الإنسان.

وغير ذلك من المواقف التي أثارت جدلًا واسعًا في مصر، وفي غيرها من بلاد العرب والإسلام.

واليوم فصل بيننا الموت، الذي يفصل بين الأخ وأخيه، وبين الابن وأبيه، وبين الصديق وصديقه، كما يفصل بين المتجادلين بعضهم وبعض، وسيجمع الله بيننا في يوم لا ريب فيه، يوم تُبلى السرائر، ويحكم بيننا بالحقِّ، وهو خير الحاكمين. وقد شاء الله أن يأتيه أجله في الرياض، وأن يُدفن في (البقيع)، بجوار قبور الصحابة والصالحين، وفي هذا بشارة خير.

إننا لنعزِّي أنفسنا، ونعزِّي الأزهر الشريف بمعاهده وجامعته ومجمع بحوثه، ونعزِّي الشعب المصري، ونعزِّي الأمة الإسلامية في شيخ أزهرها، وإمامه الأكبر، وندعو الله أن يأجرنا في مصيبتنا ويخلفنا فيها خيرًا.

كما نتمنَّى على مصر أن تنتهز هذه الفرصة لتستجيب لدعوات العلماء والمفكرين والمصلحين في مصر والعالم الإسلامي، أن يكون تعيين الإمام الأكبر بالانتخاب، أو على الأقل بترشيح ثلاثة يختار رئيس الجمهورية واحدًا منهم.

ولا نملك لأخينا وصديقنا الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي إلا أن ندعو الله له أن يغفر له ويرحمه، ويعافيه ويعفو عنه، ويَسَعَه بعفوه ولطفه، وبره وإحسانه، ويغسله بالماء والثلج والبَرَد، وأن ينقِّيه من الخطايا كما ينقَّى الثوب الأبيض من الدنس، ويسكنه فسيح جنته، إنه هو الغفور الرحيم، الشكور الحليم، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

* * *



الدكتور أحمد العسَّال

أخي ورفيق دربي، صحبة عُمْر، وأخوَّة حياة

(١٣٤٦ ـ ١٤٣١هـ = ١٩٢٨ ـ ٢٠١٠م)

• **معرفةٌ منذ نحو ثلثي قرن:**

مَن قرأ مذكِّراتـــي (ابن القرية والكتـــاب)، وجد أكثر الأســـماء تكررًا فيها بإطلاق، هو اسم أحمد العسَّال، لأنه رفيق الدرب، وصديق العمر، وشقيق الرُّوح، وأخ الدعوة، والصاحب بالجَنْب في الدراسة والدعوة، والمحنة والوظيفة.

فقد عرَفتُه منذ نحو ثلثي قرن (٦٥) خمس وستين سنة أو تزيد، حين كنا في مقتبل العمر، وفي نضارة الشباب، كان ذلك في السنة الأولى من المرحلة الثانوية بمعهد طنطا الديني الأزهري، وفي الفصل الســـادس لطلاب المعهد، وهو الفصل الذي يضمُّ طلَّاب مذهبين معًا: الحنفية والمالكية. وكنتُ حنفيًّا، وكان أحمد مالكيًّا.

• **نظام المعهد الديني:**

ذلك أنَّ نظام المعهد: أنَّ الفصول الثلاثة الأُوَل للشافعية، باعتبار مذهب الشافعي هو المذهب السائد في القاهرة، ومعظم مديريات الوجه البحري، ولا غرو، فقد اســـتوطن الإمام الشـــافعي مصر، واســـتقرَّ فيها، ودوَّن فيها مذهبه الجديد، ومات بهـــا، ودُفن فيها قريبًـــا من الإمام الليث بن ســـعد، وله قبره المعروف، ومسجده المشهور.

وكان المذهب الحنفي هو المذهـــب الثاني المتوارَث من عهد الدولة العثمانية، وكان له الصفوف التالية بعد الشـــافعي، وقد كان له في ســـنتنا

فصلان ونصف، ثم كمل النصف الآخر بالطلبة المالكية، وهم قليل في الوجه البحري، بخلاف الصعيد فهم الأكثريَّة.

وكنتُ بحكم الترتيب الهجائي وبحكم حرف الياء ـ يوسف ـ في الفصل الأخير، الذي يضمُّ الحنفية والمالكية، وجلُّهم من معهد دسوق، وهو معهد ابتدائي، يأتي طلبته ليكملوا دراستهم الثانوية في طنطا كمعهد دمياط. وبعضهم من قرى مركز كفر الزيَّات، وكان يتبعها في ذلك الوقت (بسيون)، وحولها عدد من القرى، منها: (الفرستق) قرية أخي وحبيبي أحمد العسَّال.

تعرَّفتُ على العسَّال في الفصل، وهو شاب وسيم، طويل القامة، ضخم الأطراف، مُشرق الوجه، ذكيٌّ ولكن في تواضع، جريءٌ ولكن في أدب، متحمِّس ولكن في رزانة، رقيق الصوت ولكن في قوَّة.

• **دراسته في المرحلة الابتدائية بمعهد المنشاوي:**

لم أعرفه في المرحلة الابتدائية، وذلك أني كنتُ أدرس في معهد طنطا الرسمي، وكان هو يدرس في معهد خاصٍّ، يُعرف بـ(معهد المنشاوي)، الذي حصل منه على الشهادة الابتدائية، وكان المنشاوي أحد باشَوَات مصر في العهد الملكي، وقد وقف ماله على عدد من المؤسسات الخيرية، مثل: المعهد الديني، وجامع المنشاوي، والمستشفى الخيري، كما وقف أوقافًا على طلبة المعهد الديني، نالنا منها نصيب.

• **بداية تعارفنا عقب حادثة طريفة:**

كانت بداية تعارفنا بعد واقعة طريفة، فقد جاءنا في فصلنا شيخ من أساتذة المعهد في حصَّة إضافية، بدلًا من مُدرِّسنا الأصلي، وكان الأستاذ يتمتَّع بشي من الأدب والظرف، فبدأ يسأل الطلبة: ماذا تتمنَّى أن تكون بعد تخرُّجك؟.

فيقول بعضهم: أريد أن أكون قاضيًا في محكمة شرعيَّة! فيقول: لن تكون أكثر من حاجب ينادي بصوت عالٍ: محكمة!.

ويقول ثان: أريد أن أكون مديرًا بمصلحة كذا. فيقول: ستكون فرَّاشًا تقدِّم القهوة والشاي في مكتب المدير!.

ويقول ثالث: أريد أن أكون عمدة القرية! فيقول له: بل ستكون خفير مقابر القرية.

وهكذا، حتى وصل إليَّ، فقال: وأنت ماذا تريد أن تكون؟ قلتُ له: أعفني يا فضيلة الأستاذ. قال: لا بد أن تُدلي بدلوك، أليس لك أمنية بعد تخرُّجك؟.

قلتُ: بلى. قال: وما هي؟.

قلتُ: إن كان ولا بد، فأمنيتي أن أكون شيخًا للأزهر!.

• **آمال كبيرة تتحقَّق:**

وهنا غيَّر الأستاذ لهجته من السُّخرية إلى الجِدِّ، واتَّجه إلى الطلبة يقول: لا تعجبوا يا شباب ولا تستبعدوا، فكم من شباب طامحين كانت لهم أماني كبيرة تحقَّقت. وضرب بعض الأمثلة على ذلك، وقال: إني أبارك هذا الطموح عند زميلكم، ولعلَّ عنده من المواهب، من الجِدِّ والاجتهاد ما يساعده على ذلك. إلى آخر ما قال.

هذا الموقف أعجب العسَّال، فجاء بعد انتهاء الدرس، يشدُّ على يدي، ويتعرَّف عليَّ، ويُعرِّفني بنفسه.

ومن الطرائف: أنه منذ سنين كنتُ في لقاء صحفي، وذكرتُ هذه القصة وسألني الصحفي: واليوم أما زلتَ تتمنَّى ذلك؟.

قلتُ: لا، لأسباب كذا وكذا. وكان أخي العسَّال حاضرًا بالمصادفة، فقال: إن الله ادَّخر لك ما هو أعظم من منصب مشيخة الأزهر: أن تكون شيخًا للأمة كلِّها! وهذا من حُسْن ظنِّه بأخيه[1]. هكذا بدأ تعارفنا.

---

(١) ذكرني بهذا التعليق تلميذنا عصام تليمة.

• **التقاؤنا في دار الإخوان:**

ثم ازداد تعارفنا وتوثَّق، حين التقينا في (دار الإخوان المسلمين) بطنطا شعبة قسم ثاني، وفي قسم الطلَّاب بها، وكنا مجموعة من شباب المعهد تضمُّ معنا: محمد الدمرداش مراد، الذي كان رَحِمَهُ اللَّهُ يسكن معي، وسعد الدين العراقي، ومحمد الصفطاوي، ومحمد الحشَّاش، وأخوه عبد الفتاح، وعبد العظيم الديب، وعبد الوهاب البتانوني، وهما أصغر منا قليلًا، وفي قسم الطلاب باشرنا نشاطنا الدعوي والتربوي.

كما التقينا في نشاط آخر داخل الإخوان، وذلك في (قسم نشر الدعوة)، حيث كانوا يبعثون بنا إلى بعض القرى والمراكز المحيطة بطنطا لنشر الدعوة فيها.

• **كنا معًا في كتيبة الذبيح:**

وهذه المجموعة هي التي تعرَّف عليها شيخنا البَهِي الخُولي، والتصَقَت به، وتتلمذت عليه، والْتَقَتْ معه كلَّ أسبوع، فيما سمَّاه شيخنا (كتيبة الذبيح)، ويعني به: إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي عرض أبوه عليه رؤياه أنه يذبحه، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، يريد شيخنا أن يُعلِّمنا ضرورة الصبر والتضحية ـ ولو بالرقبة ـ في سبيل الله.

• **تعبئة إيمانية روحانية قوية:**

كنا نلتقي في بيت الأستاذ البهي بطنطا قبيل الفجر، نُصلِّي ما تيسَّر لنا من ركعات، ثم يُصلِّي بنا الأستاذ الفجر، وبعد ختام الصلاة وقراءة الأدعية المأثورة، نجلس لتلقِّي درس الأستاذ، الذي يعبِّئنا به تعبئةً إيمانية ربَّانية رُوحانيَّة قويَّة.

ولكنها ـ والحقُّ يُقال ـ لم تكن مثل رُوحانية الدراويش من أتباع الطرق الصوفية، بل هي (رُوحانية اجتماعية) إيجابية، كما سمَّاها الشيخ في كتابه

الذي صدر بعد ذلك، وقدَّم له الإمام حسن البنا، وهو (تَذْكِرة الدعاة)، مربوطة أبدًا بالقرآن الكريم، الذي كان للأستاذ في فهمه ذوق وتميُّز خاصٌ.

• **من ثمار حركة الإخوان وتربية البنا:**

كان أغلب المجموعة من طلَّاب المعهد الديني، وقليل منهم من طلاب المدرسة الثانوية، منهم: عبد المنعم البدراوي، وسعيد شتا، وكمال العريان. وكنا نحسُّ بأننا أسرة واحدة، ولا نشعر بأيَّة فروق فكرية، أو ثقافية بيننا، فقد وحَّدت الدعوة بيننا، وأذابت الفروق التي يراها الناس في مصر وغيرها، عادة بين المشايخ والأفنديَّة، وهذا من ثمار حركة الإخوان، وتربية حسن البنا.

• **عملنا المشترك في القضية الوطنية والقضايا العربية الإسلامية:**

وكُلَّما مرَّت الأيام توثَّقت صلتنا، وازداد ارتباطنا، وتواصل نشاطنا في داخل المعهد لقيادة الطلاب في مناصرة القضايا الوطنية، وخصوصًا قضية الجلاء، ووحدة وادي النيل، والقضايا العربية، وفي مقدِّمتها قضية فلسطين، وتحرير بلاد شمال إفريقية: تونس والجزائر و(مُرَّاكش)، وهكذا كان يُعبَّر عن بلاد المغرب. والقضايا الإسلامية، مثل: قضية تحرير إندونيسيا من الاستعمار الهولندي، وتحرير الهند من الاستعمار البريطاني، وغيرها.

وكنا نُخرج الطلاب، ونقود المظاهرات، ونُلهب المشاعر، ونتعرَّض لمصادمة الشرطة، فيقبضون علينا، ونُلقى في حَجْز قسم الشرطة، وقد نتعرَّض للضرب، ثم يُفرج عنا، وفي كلِّ هذه الأنشطة كان العسَّال معي جَنْبًا إلى جَنْب، بالإضافة إلى أنشطتنا المشتركة داخل الإخوان، التي تتَّسع وتتعمَّق يومًا بعد يوم، في قسم الطلبة، وفي قسم نشر الدعوة.

• **زيارتي لبسيون وتعرُّفي على المربِّي أحمد البِس:**

ولقد زرتُ (بَسْيُون) للمشاركة في أنشطة الإخوان فيها، وتعرَّفت على رئيسها الرجل المربِّي المجاهد المحتسب: الحاج أحمد البِس، الذي كان يحبُّ

أحمد العسّال حبًا جمًّا، لإيمانه وحماسه ونشاطه في الدعوة والتربية، وكذلك كل مَن حولـه مثل الإخـوة: عبد المجيد الخلالـي، وإبراهيـم الباجوري، وغيرهما. كما وجدتُ أهل منطقته جميعًا يولونـه حبًا واحترامًا زائدين، وقد تكرَّرت زياراتي لـ(بسيون) وقُراها مرَّات ومرَّات.

• **زيارتي للفرستق وتعرُّفي على أسرة العسال:**

وقد زرنا معًا عددًا من القرى التابعة لبسيون، أشهرها (القضابة)، كما زرنا (الفَرَسْـتَق) قرية الأخ أحمد، وتعرَّفـت على والده ووالدتـه وإخوته، الذين اعتبروني واحدًا منهم، وأنني شـقيق لأحمد ابنهم، وما زال والداه على ذلك حتى لقيا ربَّهما.

وقرية (الفرستق) تقع على شاطئ (فرع النيل الغربي)، يقابلها على الشاطئ الآخر: قرية (نِكْلا العِنَب) من البحيرة، وهى قرية شيخنا الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقرية الفرستق، وكلُّ القرى حولها من قرى (كَفْر الزَّيَّات)، لا تنطق القاف همزة، كأهل القاهرة، وسائر بلاد مديرية الغربية، والمنوفية، والقليوبية، فتقول في القمر والقلم: (الأَمَـر) و(الأَلَم)، بل تنطقها بالجيـم القاهرية، مثل أهل الصعيد والشرقية والبحيرة في مصر.

• **سفرنا وراء حسن البنا:**

وكلَّما جاء الإمام حسن البنا إلى المنطقة سـارعنا إلى لقائه، والاستفادة منه، وإذا ذهب إلى إحدى المدن القريبة رحلنا وراءه بما لدينا من وسائل، فلما ذهب إلى (كفـر الزيات) ذهبنا وراءه، وحين ذهب إلى (دسـوق) ركبنا قطار الدلتا، لنصل إليه هناك، وكان ثالثنا دائمًا الأخ محمد الدمرداش مراد رحمه الله رحمة واسعة.

وحين زار الإمام حسـن البنا كفر المصيلحة بجوار مدينة شـبين الكوم، عاصمة المنوفية، وهناك استقبله آلاف من جوَّالة الإخوان، من شُعَب الإخوان

بالمنوفية والغربية، كنتُ أنا والعسَّـال والدمرداش من الجوَّالة الذين استقبلوا حسن البنا، في كفر المصيلحة، وشهدوا الحفل الكبير، ومحاضرة حسن البنا، وبتنا هناك، وصلَّينا معه الجمعة في الجامع العباسـي بشبين الكوم، وسمعنا خطبته الشـهيرة للجمعة، التي تحدَّث فيهـا عن أمرين أساسـيين، لا زلتُ أذكرهما، وهما: نصرة الفكرة الإسلامية، وتحرير الأرض الإسلامية.

• **كلمة العسَّال عن الماضي المجهول:**

وأذكر أني زرتُ مع العسَّال مدينة (شبين الكوم) بعد ذلك في مناسبة لا أذكرها، وفي دار الإخوان، كان للعسال كلمة لا زلتُ أذكر عنوانها، وقد أخذه من عنوان لفيلم سـينمائي مكتـوب ومعلَّق على الجدران، اسـمه (الماضي المجهول)، ومنه انطلق العسَّـال إلى حديث عن ماضي الأمة المجيد، الذي تجهله أجيالها الجديدة.

• **نصيحة استفدتُ منها:**

وألقيتُ في هذه المناسبة كلمة لم أكن مُوفَّقًا فيها، لأنها مُركَّبة، تحتاج إلى شرح ووقت طويل، لا يتَّسع المجال له في هذه المناسبة، وهنا نصحني العسـال: أنَّ الأَوْلى في هذه المناسـبات أن تكون الكلمة حماسية تُشعل القلوب، ولا تحتاج إلى وقت. وهو في هذا مُحقٌّ تمامًا، وقد استفدتُ من هذا الدرس.

• **صديقنا الشهيد عبد الوهاب البتانوني:**

وحين اشتعلت قضية فلسطين، ولا سيما بعد إعلان قيام دولة (إسرائيل)، وتداعي الفئات المختلفة في مصر وغيرها إلى الجهاد في فلسـطين، وفُتحت مراكز التدريب في المدن المختلفة في مصـر، كان الإخوان في طليعة الذين حوَّلوا دورهم إلى خلايا عمل ونشـاط، وأقاموا معسـكرات التطوُّع في كلِّ مكان، وتسابق شباب الإخوان إلى هذا الشرف.

ولم يَسمح الأستاذ البنا لطلبة المرحلة الثانوية بالتطوُّع، ولهذا لم نستطع نحن الدخول فيه، ولكن كان لنا أخ وصديق قريب جدًّا منا، هو عبد الوهاب البتانوني، وهو شابٌّ صافٍ كالبلور، نقيٌّ كماء السماء، كأنما نُقل من زمن الصحابة إلى زمننا، وقد كان في شوق عارم إلى الجهاد، وكان يتيمًا، وكانت أمه تحبُّه حُبًّا جمًّا، وقد استأذنها ليذهب للجهاد، فلم تأذن له، ورجانا أن نسافر لمقابلة أمّه والاجتهاد في إقناعها، وفعلًا ذهبتُ أنا والعسّال إليها في بلده (كَفْر البَتَانُون)، وقصصنا عليها من قصص أمهات المجاهدين ما ليَّن قلبها، وجعلها توافق على سفره للجهاد، ودموعها تجري على خدودها.

• **استئذان البنا في استثناء البتانوني:**

بقي استئذان الإمام البنا في استثنائه من قرار منع طلبة الثانوية، وسافرتُ مع العسّال والصفطاوي لمقابلة الإمام البنا، وإقناعه، وأنَّ عبد الوهاب مُولَع بفلسطين والجهاد فيها، كأنما هو قَيْسٌ وهي لَيْلاه. ولم يكن موافقًا في البداية ثم انشرح صدره، واقتنع، ووافق رَحِمَهُ اللَّهُ.

وعدنا من القاهرة لنبشِّر عبد الوهاب بتحقيق أمنيته، وسافر عبد الوهاب والتحق بالمجاهدين، وأبلى بلاء حسنًا، وقدَّر الله له أن ينال الشهادة في معركة عصلوج، فقد اختبأ من اليهود هو واثنان من زملائه، في مصنع للذخيرة، وما لبث أن عرَف اليهود بوجودهم، وعلموا أنهم إن أمسكوا بهم فهم مقتولون لا محالة، فوفَّقهم الله إلى تفجير المصنع، فذهب بكلِّ ما فيه، وثلاثتهم فيه، تقبَّلهم الله في الشهداء.

• **دم الشهادة يترقرق في وجه البتانوني:**

وقد ذكر ذلك الأخ يحيى عبد الحليم الذي كان شاهدًا للمعركة، وكتب عنها، وأشار إليها الأستاذ كامل الشريف في كتابه (الإخوان وحرب فلسطين)،

وتحقَّق ما قاله شيخنا البهي الخولي: كلما رأيتُ عبد الوهاب رأيتُ دم الشهادة يترقرق في وجهه! وكان يقول عنه: سيدي عبد الوهاب البتانوني.

• **جمع التبرعات لفلسطين:**

وكنا في هذه الفترة نجمع التبرُّعات لفلسطين، وكثيرًا ما ذهبنا إلى قرى (بسيون) وغيرها، لنخطب في الناس ونُحمِّسهم، لنجمع منهم ضريبة الجهاد المالي ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

• **الانشغال بالقضية الوطنية:**

كما كنا مشغولين في تلك الفترة أيضًا بالقضية الوطنية، التي تحدَّدت في جلاء الإنجليز، ووحدة وادي النيل، والتي أقام الإخوان لها مؤتمرات كبيرة في عواصم المديريات (المحافظات)، حضرها جميعها الأستاذ البنا، وشرح القضية شرحًا لم نرَ مثله.

• **حكومة النقراشي تحل الإخوان وتعتقلنا أنا والعسال:**

ولم نزل نمارس نشاطنا في معهد طنطا وفي الإخوان، حتى تأزَّمت العلاقات مع الحكومة، وهي حكومة مُكوَّنة من السعديِّين والدستوريِّين، من أحزاب الأقليَّة، التي يلجأ إليها القصر الملكي لضرب الوفد حزب الأغلبية. وكان رئيسها في ذلك الوقت محمود فهمي النقراشي باشا، وقد استجابت لطلبات سفراء إنجلترا وفرنسا وأمريكا، الذين اجتمعوا في منطقة (فايد) العسكرية، وأجمعوا على ما تُمثِّله جماعة الإخوان المسلمين ـ في زعمهم ـ من خطر على مصر، وعلاقتها بأصدقائها، وعلى المنطقة كلِّها، فأمسى حلُّها والتنكيل برجالها ضرورة.

• **مذكرة عبد الرحمٰن عمار ورد البنا عليها:**

وصادف طلب السفراء هوى لدى حكومة النقراشي، فكلَّف وكيل وزارة الداخلية عبد الرحمٰن عمار بكتابة مذكرة تتضمَّن حيثيات وأسباب

حلّ الإخوان، وإغلاق دُورها، ومصادرة أموالها وشركاتها، وتشريد أبنائها، واعتقال أعداد كبيرة منهم. وفيها من التحريفات والتلفيقات ما فيها. وقد ردَّ الأستاذ البنا على مذكرة عمار، وفنَّد ما استند إليه من أسباب واحدًا واحدًا.

• **اعتقال طلاب المعهد الديني:**

كان قرار الحلّ في (١٩٤٨/١٢/٨م)، وبعدها بدأ اعتقال الإخوان في القاهرة والمديريات المختلفة، ولم يكن طلبة المرحلة الثانوية عادة ضمن المعتقلين، إلا في (طَنْطَا) فقد كان رئيس المباحث فيها ضابطًا شديد القسوة والغلظة هو سعد الدين السنباطي، الذي ساق عددًا من طلاب المعهد إلى المعتقل، منهم: أنا، والعسّال، ومحمد الدمرداش، ومصباح عبده، والسيد النفاض، ولم نجد في المعتقل طلَّابًا من الثانوي غير طالبين من القاهرة، وطالبًا من المنوفية، وآخر من أسيوط، ثم لحق بنا بعد ذلك طلاب من معهد دمياط الديني الابتدائي، وهم بضعة عشر، سيقوا إلى المعتقل لسبب آخر لم يكن انتماؤهم للإخوان، منهم الأديب الشاعر ـ بعد ذلك ـ محمد أحمد العزب.

• **في سجن قسم أول طنطا:**

التقينا ـ العسّال وأنا ـ مع إخوة الغربية ـ من طنطا والمحلَّة وكفر الزيات وشِرْبين ـ في سجن قسم أول طنطا، وبقينا فيه أكثر من شهر، لا نرى فيه الشمس، ولا نقرأ صحيفة، ولا نسمع إذاعة، حتى طُلب ترحيلنا إلى القاهرة.

• **نبأ اغتيال حسن البنا:**

خرجنا من سجننا صباح (١٣ فبراير ١٩٤٩م)، ورأينا الصحف مع الشمس لأول مرَّة، وهي تحمل نبأ هائلًا، هو (اغتيال حسن البنا)، وبكى العسّال وبكيتُ معه، وبكى إخواننا جميعًا، ودعونا على الظالمين، وترحَّمنا على الشهيد.

وفي ضواحي القاهرة وصَلونا إلى معتقل كان معسكرًا للإنجليز اسمه (هايكستب)، أقمنا فيه أيامًا قليلة، ثم أُخذنا إلى السويس لنركب الباخرة (عايدة) إلى معتقل الطُّور.

• **إلى معتقل الطور:**

ونزلنا في حذاء رقم (٢) الذي يؤمُّنا فيه شيخنا الشيخ محمد الغزالي، الذي تعرَّفنا عليه، والتقينا به وجهًا لوجه، واستمعنا إلى دروسه البليغة، التي تُنْبئ عن عقل حرٍّ، وفكر متفتِّح، وقلب مشحون بحُبِّ الله، وحُبِّ الإسلام. وكانت أيام مباركات في الطور، الذي حوَّله الإخوان إلى جامع للعبادة، وجامعة للعلم، ومنتدى للأدب، وبرلمان للتشاور، ونادٍ للرياضة. وقد تحدَّثتُ بإفاضة عن هذه الفترة في مذكَّراتي (ابن القرية والكتاب) وذكرتُ فيها: أننا أطلقنا على معتقل الطُّور اسم (المخيم الدائم للإخوان المسلمين لسنة ١٩٤٩م) السفر والمصاريف والنفقات والتكاليف على حساب الحكومة المصريَّة.

• **إلى معتقل هايكستب:**

وبعد مدَّة لم تطُل كثيرًا، نُوديَ علينا ـ نحن طلاب الثانوي ـ لننزل إلى القاهرة، ونقلونا بسيارات نقل البضائع إلى القاهرة، لننزل في معتقل هايكستب ـ الذي رُحِّلنا منه إلى الطُّور ـ ولم يتحقَّق ما كان ظنَّه الكثيرون من الإخوان: أنهم نقلونا ليُفرجوا عنا!.

فالواقع أنهم لم يفرجوا عنا، بل بقينا في هذا المعتقل عدَّة أشهر، وقدَّمنا طلبًا لإدارة المعتقل، ليُسمح لنا بدخول امتحان الشهادة الثانوية الأزهرية، وملأنا استمارة دخول الامتحان، ولم يكن فيها صورة فوتوغرافية كالمعتاد، ولكن رُفض طلبنا، فطوينا كتبنا، وفوَّضنا أمرنا إلى الله، وفاتنا الدور الأول في الامتحان، ولم نكن نطمع أن ندرك الدور الثاني، لولا مشيئة ربِّنا ﷻ.

وبعد أشهر من الإقامة في هايكستب كانت مليئة بالنشاط والحركة، شهدنا فيها (العَلْقَة) الشهيرة، التي غزانا فيها جنود (بلوك النظام) أشبه بـ(جنود الأمن المركزي) اليوم.

ونلنا حظَّنا منها، أنا والعسّال ومصباح وعبد الودود شلبي ومحيي الدين عطيَّة، وكلُّ طلبة الإخوان، فلم يَنْجُ من شظايا المعركة طالب ولا أستاذ.

• **العودة إلى معتقل الطور:**

وبعد ذلك نُودي علينا مرَّة أخرى، لنذهب إلى معتقل الطُّور، وهو المقرُّ الأساسي للمعتقلين.

لماذا كانت هذه الرحلة الطويلة ـ بالسيارات المكشوفة ـ لا أدري! لعلهم فكَّروا في الإفراج عنا أول الأمر، ثم غلب عليهم شيطانهم، فاسْتَبْقُونا! والخير فيما اختاره الله لنا.

عدنا أنا والعسّال إلى الطور، ولكن لم نكن في حذاء واحد، فقد كان العسّال في حذاء رقم (١)، الذي يؤمُّه شيخنا الشيخ عبد المعز عبد الستار، وكنتُ في حذاء رقم (٢)، الذي يؤمُّه الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ.

• **الإفراج عنا وإدراكنا الدور الثاني للثانوية:**

وبعد أن سقطت وزارة إبراهيم عبد الهادي، التي كانت هدية الملك إلى الشعب بمناسبة عيد الفطر، وجاء الفرج من الله تعالى، وبدأ الإفراج عن المعتقلين، كنتُ في أول فوج أُفرج عنه، وكان العسّال بعدي بقليل، وأدرك كلانا امتحان الدور الثاني للثانوية الأزهرية، ونجحنا، ودخلتُ كلية أصول الدين، ودخل هو كلية الشريعة.

• **الانتقال إلى كليات الأزهر:**

وانتقلنا من طنطا إلى القاهرة، وسكنتُ بشبرا، بالقرب من كُلِّيَّتي، وسكن العسّال بالغُورِيَّة وما حَوْلها، بالقُرب من كُليَّته. ولكن جمعنا العمل

لدعوة الإخوان في الفترة التي كانت الجماعة محظورة رسميًا. ولكن هذه الفترة من أخصب الفترات في العمل الدعوي، الذي لا يعتمد على دُور مفتوحة، ولا مظاهر خلَّابة، ولا أحفال باهرة، ولا خُطب رنَّانة، بل عمل يشبه عمل الزارع المتمرِّس، يبذر الحبَّ، ويسقيه ويُسمِّده ويُنمِّيه، وينفي عنه الخبائث التي تعُوقه أو تقتله، حتى يُؤْتي أُكله بإذن ربه، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨].

• **عملنا في دعوة الإخوان:**

وكنا نعمل في قسم الطلاب، وفي قسم نشر الدعوة، وكنتُ قد ارتبطتُ بمسجد أخطب الجمعة فيه في مدينة المحلَّة الكبرى، قريبًا من قريتي صفط تراب، وكنتُ أذهب كلَّ خميس إلى المحلَّة، وأعود صباح كلِّ سبت، لنستأنف النشاط الإخواني المُكثَّف، وكان رئيسنا في ذلك الوقت المسؤول عن طُلَّاب الأزهر في كليَّاته الثلاث، إضافة إلى معهد القاهرة، هو الأخ الكريم الشيخ مناع القطان، وكنا أعوانه، ولما تخرَّج الشيخ منَّاع في الكلية، سلَّم إليَّ الزمام، والعسَّال بجَنْبي أبدًا، عون ومدد، وعضد وسند.

حتى عُيِّن الأستاذ الكبير حسن الهضيبي مرشدًا عامًّا ثانيًا للإخوان، وعادت جماعة الإخوان إلى الظهور رسميًّا، وغدونا نباشر نشاطنا جهارًا نهارًا، نعقد المؤتمرات، ونقيم المخيَّمات، وننشر الدعوة بين الطلاب.

• **الصدام مع الإنجليز وشهداء القناة:**

حتى جاء وقت الصِّدام مع الإنجليز المُحتلِّين، وبدأ شباب الإخوان يناوشونهم ببعض العمليَّات العسكرية في منطقة القناة، واسْتُشهد منهم أبطال لا زال التاريخ يذكرهم، مثل: عمر شاهين، وأحمد المنيسي، وعادل الأعسر، من شباب الجامعات المصريَّة.

• **تخريج الكتيبة الأزهرية الأولى والسفر إلى الشرقية:**

واشتعلت جذوة الحماس في مصر، وأُقيمت المعسكرات في الجامعات وفي الأزهر، بجوار قاعة الشيخ محمد عبده في الدراسة، وأقبل علينا الشباب الأزهري الظامئ للجهاد، التوَّاق إلى الشهادة، واحتفلنا بتخريج الكتيبة الأزهرية الأولى في قاعة محمد عبده بالأزهر احتفالًا تاريخيًّا، وسافرنا معها، العسَّال وأنا، وعدد من قادة الشباب الأزهري: محمد الصفطاوي، ومحمد عبد العزيز خالد، وعلي عبد الحليم، ومحمد المطراوي، وعبد اللطيف زايد، وغيرهم. والعسَّال كان في هذه المواطن النجم الساطع، والمُدرِّب الناجح، الذي اعتبره كثيرون متميِّزًا في التربية العسكرية، وتجلَّى ذلك في تدريبات (تلّ بَسْطَة) في الشرقية، بالقرب من الزقازيق، ومن هناك تخرج السرايا التي تُختار للعمليات ضدَّ الإنجليز.

• **العودة إلى القاهرة وقيام ثورة (٢٣) يوليو:**

وبعد انتهاء هذه المرحلة عدنا إلى القاهرة، لنجتهد في دراستنا، ونمارس أنشطتنا المعهودة، حتى فوجئنا بحدث كبير كان له ما بعده إلى اليوم، وهو قيام ثورة (٢٣) يوليو، بقيادة اللواء محمد نجيب، الرجل الذي رحَّب به الشعب، وكان محبوبًا عند جماهير الناس لبساطته وتواضعه وتلقائيته.

• **حراسة الإخوان للمرافق المهمة في الدولة:**

كنتُ في المحلة الكبرى، وكان العسَّال في القاهرة، وعرَفتُ منه ومن الإخوان عامَّة: أنهم عند قيام الثورة كُلِّفوا بحراسة المرافق المهمَّة، مثل: السفارات الأجنبية، والبنوك المهمَّة، والفنادق الكبرى، ونحوها، خشية أن ينتهز الشيوعيون الفرصة، فيرتكبوا أعمالًا تخريبية، يُشوِّشون بها على الثورة، التي سُمِّيت في أول الأمر (انقلابًا).

فلا غرو أن ظنَّ كثير منا في البداية أن الثورة ثورتنا، وأنَّ الضباط الذين

قاموا بها سُـمُّوا (حملة المصاحف)؛ لأنهم حملوا المصاحـف ليلتها تبرُّكًا، وأنهم كانوا يتتلمذون على شيخنا الشيخ محمد الأودن رَحِمَهُ اللَّهُ. وقد كان منهم بلا شك ضباط من الإخوان.

• **بداية التوتر بين الثورة وبين الإخوان:**

ثم بدأ التوتُّر بين الثورة وبين الإخوان شيئًا فشيئًا، حين طلبوا من الإخوان أن يُرشِّحوا لهم وزراء منهم ليشتركوا في الحكومة، فرشَّحوا لهم أسماء ليس لها شهرة شـعبيَّة، مثل الإخوة الأفاضل: منير دلَّة، وحسن العشماوي، وثالث نسيتُه، وهم كانوا يريدون أسماء لها رصيد شـعبي، مثل: الباقوري والغزالي ونحوهما. وأصرَّ الأسـتاذ المرشـد على ترشـيحه، وأصرُّوا على موقفهم، واختاروا هم الباقوري فوافق، وطلب منه المرشد أن يستقيل، حتى لا يتحمَّل الإخوان مسؤولية سياسته.

• **تخرُّجي والعسال في الكلية والتحاقنا بتخصُّص التدريس:**

في هذه المرحلة تخرَّجت في كلية أصول الدين، وتخرَّج العسَّال في كلية الشريعة، والتحقنا كلانا بتخصُّص التدريس، التابع لكلية اللغة العربية، لندرس فيه علوم النفس والتربية النظرية والعملية، وقد كان قبل ذلك يُدرس في سنتين كاملتين، وفي سـنتنا تغيَّر النظام، فأصبحت السنتان تُدرسان في سنة واحدة، حيث تُدرس السنة الثانية في الصيف وتنتهي في أكتوبر.

• **الصدام بين هيئة التحرير وطلاب الإخوان:**

وازداد الأمر سوءًا، يومًا بعد يوم بين الإخوان والثورة، حتى حدث ما حدث في جامعة القاهرة يوم (١١ يناير ١٩٥٤م)، وكنا ـ أنا والعسَّال وجمهور من الأزهريين ـ في الجامعة لتكريم الزعيم الإيراني نوَّاب صفوي، زعيم جماعة فدائيان إسـلام، وما حـدث فيها من صدام بيـن (هيئة التحرير) وجماعة الإخوان.

• **اعتقالنا معًا في العامرية ثم السجن الحربي:**

وكان الحل الأول من الثورة للإخوان، وفي اليوم التالي (١٢) يناير، اقْتِدْنا ـ العسَّال وأنا ـ إلى الاعتقال، بتنا ليلة أو ليلتين في السجن الحربي، ثم رُحِّلنا إلى معتقل العامريَّة، وهناك بدأنا نشاطًا ثقافيًا قويًا، شارك فيه بقوَّة أخونا الداعية المثقَّف عز الدين إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثم نُودي بعد أيام على ستَّة منا، وهم: عز الدين إبراهيم، والعسَّال، ومحمود نفيس حمدي، ومحمود حطيبة، ومحمود عبده، والقرضاوي، وظنَّ الإخوان ظنونًا مختلفة، حتى حسب بعضهم أنَّ هذا بداية إفراجات، ولكننا فوجئنا بأننا أُعدنا إلى السجن الحربي الذي مررنا به مرورًا.

وبقينا في السجن الحربي، وقد وجدنا فيه الأستاذ الهضيبي وأعضاء مكتب الإرشاد وقادة الإخوان، ثم نقلوا هؤلاء إلى سجن آخر يُسمَّى (سجن الإدارة).

• **تغير موقف الثورة من الإخوان:**

وفي هذه الآونة حدثت أحداث في مصر، عزل محمد نجيب عن منصبه في رئاسة الجمهورية، وثار سلاح الفرسان بقيادة خالد مُحيي الدين، وقامت مظاهرة كبرى قادها القاضي الفقيه عبد القادر عودة، وتفاعلت هذه الأحداث كلها، لتغيُّر موقف الثورة من الإخوان، لتُفرج عنهم، وتصطلح معهم، ويخرج الإخوان كلهم من السجن الحربي، ومنهم العسَّال، ولم يبقَ إلا شخص واحد، كأنما نُسي، وهو أنا. خرجت في اليوم التالي، ولم أحضر التجمُّع الكبير في المركز العام للإخوان، وحضره العسَّال.

• **تخرُّجنا في تخصص التدريس:**

وفي الأشهر التالية، واصلنا دراستنا في تخصص التدريس، وعادت العلاقات بين الثورة والإخوان إلى التوتر، الذي تزداد حِدَّته وشِدَّته يومًا بعد آخر.

• **خلاف كبير داخل الإخوان:**

والأكثر من ذلك والأشدُّ خطرًا ظهور خلاف في داخل الإخوان أنفسهم في موقفهم من الثورة.

فهناك فريق يرى ضرورة المصالحة مع الثـورة وعدم الزجِّ بالجماعة في معركة أشـبه بالانتحار، أو معركة قد يعرفون أولها ولا يعرفون آخرها، وعلى رأس هؤلاء: شـيخنا البهي الخولي، وعدد من علماء الإخوان، مثل: الشـيخ عبد المعز عبد الستار، والشيخ الغزالي، والشيخ سـيد سابق، ومعهم بعض أعضاء الهيئة التأسيسية.

والفريق الأكبر من الإخوان مع الأسـتاذ الهضيبي في سـوء ظنِّه بهولاء العسـكر، الذين لا يريدون بالإخوان خيرًا، ولا يضمرون للإسلام نُصرة، ولا احتضانًا.

وكنت أنا والعسَّال في بداية الأمر أقرب إلى منطق شيوخنا، ثم سرعان ما استدركنا على أنفسنا حين تبيَّن لنا أنهم إنما يضربون بعضنا ببعض، ولذلك كنتُ أنا والعسَّال من المطلوب القبض عليهم.

• **اعتقالنا مرة أخرى:**

وقُبض علينا نحن الاثنين، قُبض على العسَّال قبلي، واختبأتُ أنا في بيت خالتي في طنطا، وما أسهل ما اكتشفوه، واقتادوني بسهولة إلى مباحث المحلة الكبرى، التي أمرت بتعذيبي والتحقيق معي، ثم انتهى بي المطاف إلى القفص الكبير، السجن الحربي الذي فغر فاه لابتلاع الجميع.

• **تقديمي للمحاكمة مع العسال:**

وهناك قُدِّمت أنا والعسَّال للمحاكمة بتهمة إنشاء جهاز سرِّي مُسلَّح للقتل والتدمير والاغتيال إلى آخره، والمشاركة في مؤامرة لقلب نظام الحكم بالقوَّة،

وذهبنا إلى المحاكمة في يوم واحد، ولكن كان نصيب العسّال البراءة، ونصيبي الحكم بالسجن عشر سنوات مع إيقاف التنفيذ.

وبقينا في السجن الحربي، وإن كان كلٌّ منا في زنزانة غير زنزانة الآخر، حتى بدأت تباشير الانفراج، وفُتحت الزنازين، وأصبح من حقّ كلٍّ منا أن ينتقل إذا شاء من زنزانته إلى زنزانة أخرى، فنزلت من زنزانتي التي كانت في الدور الثالث إلى زنزانة العسّال التي كانت في الدور الأول، وبدأنا نقرأ بعض الكتب معًا مثل: نيل الأوطار، يشاركنا فيها الأخ الأستاذ يوسف توبة، ويعلِّق بعض التعليقات الاقتصادية أفدنا منها، كما أفاد هو من تعليقاتنا الشرعية.

- **إلى سجن القلعة:**

وبقينا في السجن إلى آخر فَوْج، حتى خرجنا إلى سجن القلعة لنقضي فيه أسبوعين، نكون فيه تحت إشراف وزارة الداخلية، والمباحث العامة مباشرة، بعد أن كنا تحت إشراف وزارة الدفاع، وبعد هذه المدَّة أفرج عنا في يوم (١٩٥٦/٦/١٦م) على ما أذكر.

- **البحث عن سكن مشترك بعد خروجنا من السجن:**

بعد خروجنا من السجن الحربي في آخر فوج، أنا والعسّال، بحثنا عن سكن مشترك، فوجدنا شقة بحدائق شبرا، حيث كنت أسكن من قبل، وسكن العسّال معي هو وبعض إخوته. ثم بدأنا نواجه مشكلاتنا معًا، وهي مشكلات مشتركة.

- **مشكلة العمل المعيشي:**

وأولاها: مشكلة العمل، فقد قدَّمنا للتعيين مدرسين في معاهد الأزهر، وعيِّنا بالفعل، وأعلن الأزهر عن اسمَيْنا في الأسماء المُعيَّنة، ثم سرعان ما جاءت مذكرة من الداخلية أو المباحث العامة إلى إدارة الأزهر، تلفت نظرهم إلى ضرورة عرض الأسماء التي تُوظَّف في الأزهر على المباحث؛ لأخذ

الموافقة عليها، قبل الإعلان عنها، وذلك بمناسبة الاعتراض على تعييننا في التدريس بالأزهر، أو في أيِّ عمل يتَّصل بالجماهير.

وبدأنا ـ العسَّـــال وأنا ـ في البحث عن عمل مناســـب لنا، بعيدًا عن العمل الرسمي.

• **تدريس اللغة العربية في المدارس الخاصَّة:**

وكان أنســـب عمل لنا هو تدريس اللغة العربية في المـــدارس الخاصَّة، وظللنا ـ العسَّـــال وأنا ـ نقرأ كل يوم الإعلانات المبوبـــة في صحيفة الأهرام وغيرهـــا، لنعرف منها المـــدارس الخاصَّة التي تطلب مدرســـين في العربية، لنذهب إليها، ونقطع المســـافات، ثم إذا وجدوا أننا من خريجي الشـــريعة أو أصول الدين، تأسفوا لنا، لأنهم يطلبون من خريجي اللغة العربية ودار العلوم.

• **كلمة ذهبت مَثَلًا:**

وقد قلتُ كلمة في تلك الأيام ذهبت مَثَلًا: أبأس الناس الموظفون، وأبأس الموظفين المدرسون، وأبأس المدرسين مدرسو اللغة العربية، وأبأس مدرسي اللغة العربية خريجو الشريعة وأصول الدين!.

• **في مدارس الشرق الخاصَّة:**

وبعد أن تعبنا ومللنا، وجدتُ إعلانًا في الأهرام: أن مدارس الشرق الخاصة في الزمالك تطلب مُدرِّسين، فدعوتُ العسَّال لنذهب إليها فرفض وأبى، وقال: لقد رفضتنا مدارس بولاق، أفتقبلنا مدارس الزمالك؟! اذهب أنت إن شـــئتَ! قلتُ: سأذهب وأعمل ما في وسعي والباقي على الله. وقد قال الشاعر:

علـــيَّ الســـعيُ فيما فيـــهِ نَفْعي ... وليـــسَ علـــيَّ إدراكُ النجـــاحِ!

وذهبتُ إلى المدرسة، وقدَّمتُ طلبي إلى مدير المدرسة، واسمه الأستاذ عبد الحليم بشير من رجال دار العلوم القدامى، وجلستُ أنتظر، ولم أتوقَّع إلا

أن يعتذر عن رفــض طلبي كما رفض إخوة له من قبــل، ولكني فُوجئتُ بأن الرجل طلبني ورحَّب بي، وقال لي: إني قبلــتُ طلبك، وإن كنتَ من أصول الدين، لأني وجدتُ أنك أول دفعتك في الشهادة العالمية بأصول الدين، وأول زملائك في تخصُّص التدريس، وهم خمسمئة طالب، فعرَفتُ أنك مُتميِّز، ولن تعجز عن تدريس اللغة العربية. فشــكرتُ له، وقلتُ لــه: أرجو أن أكون عند حُسْن ظنِّك، وأن أُبيِّض وجهك.

وكان المدير الإداري والمالي للمدارس حاضــرًا، فقال: ولكن لنا عندك رجاء يا شــيخ يوســف. قلتُ: تفضَّل، مُر. قال: أنت تعرف أن لــكلِّ بيئة ما يناســبها، ونحن في الزمالك محلة البكوات والباشوات، ربما لم تكن الجبة والعمامة هي الأنسب، وأعتقد أن (البذلة الإفرنجية) ستكون جميلة عليك!.

وقال الأستاذ بشير: وأنت تعرف قول الشاعر:

ألبــس لــكلِّ حالــةٍ لبوســها!

قلتُ: نعم، أعرف ذلك، وأعرف أن الشــرع يراعي الأعراف أيضًا، وعلى بركة الله.

• **يوسف أفندي:**

وعدتُ إلى مسكننا في شبرا، لأخبر أخي العسّال بما حدث معي، وبقَبولي في مدارس الشرق الخاصة بالزمالك، وبطلبهم مني أن أغيِّر زيي، فأصبح بدل (الشيخ يوسف) (يوسف أفندي)! وضحكنا على هذا التغيير المفاجئ. وقال الأخ العســال: أنت الآن تطبِّق نظرية ماركس في أنَّ الحاجات الاقتصادية هي التي تغيِّر سلوك الإنســان، فما كان أحدٌ يظنُّ أنَّ الشيخ يوسف سيخلع يومًا (كاكولته) وعمامته، لولا الضرورات الاقتصاديَّة التي تفرض على الإنسان ما لم يكن في خطَّته.

وبعد أيام عثر العسّال على مدرسة مناسبة أيضًا.

• **أنشطة مشتركة بعد الخروج من السجن:**

وكانت هذه الفترة مجالًا لأنشـــطة متنوّعة مشتركة بيني وبين العسَّال في الدراسة الرسمية، والدراسة الحرَّة.

• **مدارس (فاكس) لتعلُّم اللغة الإنجليزية:**

فمن الدراسات الحرَّة الاشتراك في مدارس (فاكس) لتعلُّم اللغة الإنجليزية، ومحاولة إتقانها. وأرجع إلى مذكراتي (ابن القرية والكتاب) فأجدني قد كتبتُ بخصوصها في الجزء الثاني ما يلي:

وكان من الأهداف التي اتَّفقتُ عليها أنا وصديقي أحمد العســـال: أن نُعمِّـــق معرفتنا باللغة الإنجليزيـــة، وقد كنا بدأنا دراســـتها معًا في معتقل هايكســـتب ســـنة (١٩٤٩م)، على يد الأخ محمود عبـــاس الطالب بكلية الهندسة، وهو من حلوان، وقد بدأ معنا شوطًا طيّبًا، ثم توقَّفنا عندما انتقلنا إلى معتقل الطور.

ثم بدأنا دراســـة الإنجليزية مرَّة أخرى في الكلية، درســـها في الشريعة، ودرســـتُها في أصول الدين، وكنا نُمتحن فيها تحريريًّا وشفهيًّا، وكنتُ أحصل فيها على عشرين من عشرين في التحريري والشفوي.

ولكن اللغة إذا لم تُنَمَّ بالممارسة والاستعمال سرعان ما تُنسى، وخصوصًا عندما تُعَلَّم في الكبر، لهذا كنا ننادي في مؤتمراتنا لطلبة المعاهد بالأزهر: أن تُعَلِّـــم اللغة الإنجليزية منـــذ المرحلـــة الابتدائية حتى تثبت. وقـــد قال أحد الحكماء: التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، يعني: إنه يثبت ولا يزول. قيل له: إنَّ الكبير أوفر عقلًا. قال: ولكنه أكثر شغلًا.

ولهذا بادرنا بعد خروجنا من المعتقل أن نستفيد من وقتنا بالانتساب إلى (مدارس فاكس) الشـــهيرة لتعليم اللغات، وكان مقرُّها في شارع (٢٦) يوليو، وقدَّمنا طلبنا وقَبِلَتنا، وحدَّدت لنا ثلاثة دروس في الأسبوع.

• **المدرس الأرمني (هارولد):**

وكان يدرِّسنا شاب أرمني متمكِّن حسن الطريقة: اسمه (هارولد)، وأذكر أننا حين سألنا عن اسمه، فقال: هارولد (نوت ماكميلان)، فقد كان رئيس الوزراء البريطاني في ذلك الوقت (هارولد ماكميلان).

• **أهمية تعلم الإنجليزية:**

وكان حرصنا على تعلُّم الإنجليزية نابعًا من شعورنا بحاجة العالم والداعية المسلم إلى تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس بلغاتهم، فالإسلام رسالة عالمية، ولكن كتابه نزل بلسان عربيٍّ مبين، وحديث رسوله بالعربية الفصحى، ولا يمكن إيصاله إلى العالمين إلا بتعلُّم لغاتهم لنبيِّن لهم بلسانهم عن طريق الترجمة، وهو ما ذكره علماؤنا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤].

وهو ما برع فيه غير المسلمين، حتى رأينا النصارى ترجموا الإنجيل إلى مئات اللغات وآلاف اللهجات.

على أن في تعلُّم اللغات إضافة فكر آخر، وثقافة أخرى، وتجارب أُخر للإنسان، ومن أجل هذا حثَّ حكماؤنا وآباؤنا من قديم على تعلُّم اللغات، وقال الشاعر:

بقدرِ لغاتِ المرءِ يكثُرُ نفعُه ... فتلكَ له عندَ المُلمَّاتِ أعوانُ
فأقْبِل على حفظِ اللُّغاتِ ودَرْسِها ... فكلُّ لسانٍ في الحقيقةِ إنسانُ!

وما أصدقها كلمة، وما أبلغها حكمة: كلُّ لسان في الحقيقة إنسان، فكأن الإنسان الذي تعلَّم لغة، أصبح إنسانين، فإذا تعلَّم ثلاثًا أصبح ثلاثة أناسي، وهكذا.

ولكننا بعد فترة انقطعنا عن هذه الدروس، فقد كثُرت علينا، وضاق وقتنا عنها؛ معهد الدراسات العربية، والدراسة العليا بالأزهر، والالتزام بواجبات

العمل في وزارة الأوقاف، والنشـاط الإخواني، كلُّ هـذا جعلنا نتخفَّف من مدارس (فاكس) إلى أجل آخر، لم أجده أنـا، ووجده أخي أحمد بعد ذلك، حين رحل إلى (كمبردج) ليتقن الإنجليزية، ويرجع بالدكتوراه.

• **الالتحاق بالدراسات العليا بالأزهر:**

كما أننا قدَّمنا للالتحاق بالدراسات العليا (شـعبة القرآن والسنة)، وكان نظام الامتحانات في هذه الدراسات قاسـيًا جدًّا، ولهذا قدَّم معظم الطلاب، وكانوا نحو ثلاثين، إجازات مرضيَّة لشـيخ الأزهر في ذلك الوقت (الشـيخ عبد الرحمٰن تاج)، الذي اعتبر هذه الإجـازات غير حقيقية، ورفضها جميعًا، واعتبر أصحابها راسبين.

ورسب بعض الطلاب في الامتحان الشفهي والتعيين، ورسب آخرون في الامتحان التحريري، وشـاء الله ألا ينجح في السنة الثانية غيري. فكان العسَّال يقول:

ليـسَ علـى اللهِ بمسـتكثرٍ أن يُجمـعَ الأزهرُ فـي واحدِ!

• **في معهد الدراسات العربية:**

وقدَّمنا معًا إلى معهد الدراسـات العربيـة العالية، التابـع لجامعة الدول العربية، هو في (قسم الشـريعة)، الذي يُشـرف عليه القانوني الكبير الدكتور عبد الرزاق السنهوري، وأنا في (قسم اللغة والأدب)، الذي يشرف عليه الدكتور إسحاق موسى الحسيني. وحاولتُ أن ألتحق بقسم الشريعة، ورجوتُ الدكتور السنهوري، فرفض، وقال: لا نقبل إلا خرِّيجي الشريعة أو الحقوق. وقد حصل العسَّال على دبلوم في الشريعة والقانون، وحصلتُ على دبلوم في اللغة والأدب.

• **مسابقة لتعيين وعاظ وخطباء:**

ومن المهم أنه في هذه الفترة عُقِدت مسابقة لتعيين وعَّاظ بالأزهر، وأئمة وخطباء بالأوقاف، وقدَّمتُ فيها أنا والعسَّـال وعدد من الإخوان، ونحن نعلم

أننا ممنوعون من الوظائف المتَّصلة بالجماهير، ومنها الخطابة والوعظ، ولكن قلنا: لن نخسر شيئًا إذا قدَّمنا، فربما نجحنا وقُبلنا.

ودخلنا الامتحان دخول مَـن لا يعتقد أنَّ وراءه جدوى، وسـرعان ما ظهرت النتيجة، وقد نجح فيه عشـرة من الإخوان: أنا، والعسّال، وسليمان عطا، وعبد الرؤوف عامر، وعبد التواب هيكل، ومحمد جودة، وعبد الحميد شاهين... إلخ.

• **موقف رجولة وإنسانية للشيخ الباقوري:**

وبعد نجاحنا كان للشيخ الباقوري وزير الأوقاف موقف رجولة وإنسانيَّة لا ننسـاه، وهو أنه عارض رجال الأمن، وقال: أنا سأُعيِّنهم على مسؤوليتي، في أعمال غير الخطابة والتدريس.

وفعلًا كانت وظيفتنا الرسـمية: الإمامة والخطابة، ووظيفتنا الفعلية التي انتدبنا لها ـ نحن العشرة ـ العمل بقسم النظار والأوقاف، ومقرُّه سطوح وزارة الأوقاف.

• **إشرافي على معهد الأئمة والعسال على مكتبة إدارة الثقافة:**

وقد حضرتُ أنا وأخي العسّال يومًا واحدًا في هذا القسم، ثم انتدبنا للعمل في مراقبة الشؤون الدينية، وكلَّفني المراقب العام للشؤون الدينية الأستاذ البهي الخولي بالإشراف على (معهد الأئمة)، وكلَّف العسّال بالإشراف على مكتبة إدارة الثقافة بمسجد عمر مكرم.

• **بعثة رمضانية إلى العريش والسَّلُّوم:**

وكان لوزارة الأوقاف بعثات في شهر رمضان من كلِّ سنة تبعث فيها عددًا مـن المُتميِّزين مـن أئمتهـا وخطبائها ومفتِّشـيها إلى بعض البـلاد العربية والإسلامية، وبعض الجاليات الأوربية والأمريكية، وتعطيهم مكافآت لا بأس بها، تُنعشهم وتقضي بعض حاجاتهم.

ونظرًا لظروفنا الأمنيـــة، لم يكن من الممكن أن يكـــون لنا حظٌّ في هذه البعثات الخارجية أنا والعسَّـــال، ولكن كانت هناك بعثات داخلية داخل مصر إلى الصحراء الشـــرقية (ســـيناء)، والصحراء الغربية (الســـلوم وما حولها). ورشَّحتني الوزارة للذهاب إلى ســـيناء وعاصمتها العريش، ورشَّحت العسَّال إلى الصحراء الغربية.

وكانت مكافأة هذه البعثات الداخلية قليلة بالنسبة للبعثات الخارجية، ولكنها على كلِّ حال أفضل من لا شيء، وكانت نحو سبعين جنيهًا، وقد تكرَّرت مرَّتين بالنسبة لنا، والحمد لله.

- **تفكيرنا معًا في إكمال نصف الدين:**

وكما أنَّ كثيرًا من أنشطتنا كانت مشتركة، فقد اشتركنا كذلك في التفكير في الزواج، وتكوين البيت المســـلم معًا، بعد أن اســـتقرَّ عملنا الوظيفي في الأوقاف، فبدأ كلٌّ منا يبحث عن بنت الحلال، حتى وجدتُ ضالَّتي في سمنود غربية، ووجد هو ضالته في طنطا.

وما هي إلا فترة قليلة حتى قدَّر الله أن يرحل أحمد عن الشـــقة التي استأجرناها معًا في حدائق شبرا، شارع الشيخ عبد الرحمٰن قراعة، ليسكن في مكان آخر في شبرا أيضًا هو وبعض أشقائه. لأُهيِّئ هذه الشقة لدخولي فيها.

وبعد قليل وُفِّق العسَّال للزواج أيضًا.

- **الانتقال من الأوقاف إلى الإدارة العامة للثقافة في الأزهر:**

كان وضعي أنا وأخي العسَّال في وزارة الأوقاف مريحًا، ولكنه قلق غير مســـتقر، فالعمل الذي يزاوله كلانا ليس واضح الأهداف، مُحدَّد المعالم، فأخي أحمد يشـــرف على مكتبة لا تحتاج إلى متفرِّغ مثله، والمعهد الذي أُشرف عليه ليس معهدًا حقيقيًّا، يحتاج إلى تفرُّغ مثلي له. وكلاهما مرهون

ببقاء الباقوري وزيرًا للأوقاف، والبهي الخولي مراقبًا للشؤون الدينية، ومعه الغزالي وسيد سابق.

لهذا فكَّرنا جديًّا أن ننتقل إلى الأزهر، فهو مكاننا الطبيعي، ولا سيما أن شيخنا العلَّامة محمود شلتوت هو الآن شيخ الأزهر، وإمامه الأكبر، وبيننا وبينه من قديم مودَّة مكينة، وصلة متينة، ونعتقد أننا إذا ذهبنا إليه وكلَّمناه في نقلنا إلى الأزهر، فلن يتأخَّر عن تلبية طلبنا.

وقد تمَّ ذلك بحمد الله، ونُقلنا إلى الأزهر، وعملنا معًا في الإدارة العامة للثقافة الإسلامية، التي كان مديرها المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ الدكتور محمد البهي.

• **إخراج كتب الشيخ شلتوت:**

فكَّر الدكتور البهي فيما يُسند إليَّ أنا وزميلي العسَّال من عمل، ثم قال: لدينا عمل كبير لا ينجزه غيركما، وهو: أن ننشر تراث الشيخ شلتوت على الناس في كتب كبيرة، ولا بد أن نجمع هذا التراث من مظانِّه المختلفة، في الصحف والمجلَّات، وفيما لدى الشيخ الأكبر من مقالات أو مُسودات. وأنتما أهلٌ لتجميع ذلك وتنسيقه وطباعته وتصحيحه، ومطبعة الأزهر رهن إشارتكما.

وقد أخرجنا أربعة كتب كبيرة للشيخ، هي: الإسلام عقيدة وشريعة، الفتاوى، من توجيهات الإسلام، تفسير القرآن الكريم (نظرات في الأجزاء العشرة الأولى)، جمعناها من الصُّحف والمجلات والإذاعة، ومن أوراق الشيخ ومُسوداته، وبعضها كانت رسائل وكتب صغيرة ضُمَّ بعضها إلى بعض في نَسَق جديد، لتصبح كتبًا كبيرة.

• **مراجعة الشيخ شلتوت في بعض الفقرات:**

وقد كنا نراجع الشيخ في بعض الفقرات التي تكون لنا عليها ملاحظة، فيقرنا عليها، وأحيانًا يوكِّلني بإتمام ما أراه ناقصًا، وأذكر أنَّا عرضنا عليه: أنَّ

بعض الآيات في سـورة الأنفال لم تأخذ حقَّها من الشرح رغم أهميتها، فقال لي: سُدَّ هذه الفجوة بما تراه، ذلك تفويض مطلق. وكان الأخ العسَّال كلما مرَّ على هذه الفقرة ونحوها يقول: هذه قرضاوية. فأقـول له: قد أصبحت بإقرار الشيخ شلتوتية!.

وكنـتُ أرى أنَّ من القُرُبات إلـى الله أن نعمل على إخراج علم الشـيخ شلتوت إلى النور، لتنتفع به الأمة، وأنَّ أيَّ جهد نبذله فهو ـ إن شاء الله ـ في ميزاننا، وإن ضاع عند الناس فلن يضيع عند الله.

• **التنويه بعملنا وإغفاله بعد ذلك:**

ولقد نوَّه الأستاذ الدكتور محمد البهي بما قمنا به ـ أنا والعسَّال ـ من جهد في تجميع هذه الكتب وتنسيقها، حتى خرجت للناس بصُورتها المشرقة مُبوَّبة مفهرسة.

وكان هذا التنويه في الطبعة الأولى لهذه الكتب التي طبعتها مطبعة الأزهر، فلما اختلف الدكتور البهي مع الشيخ شـلتوت بعد ذلك، وخصوصًا بعد أن صار وزيرًا للأوقاف، أمر الشـيخ بحذف مُقدِّمات الدكتـور البهي من جميع كتبه، وهذه المُقدِّمات هي الشـهادة الوحيدة التي سَجَّلت جهدنا العلميَّ في خدمة تراث الشـيخ، فلم يعد لجهدِنا هذا أيَّ ذكر في أيِّ طبعة من الطبعات. وأعتقد أنَّ من العدل والإنصاف، ومعرفة الفضل لأهله: أن يُذكر هذا أو يُشار إليه، على غلاف هذه الكتب، أو في مُقدِّماتها على الأقل.

• **زيارة لسورية لم تتم:**

في تلـك الآونة كانـت الوحدة بين سـورية ومصر قائمـة في إطار الجمهورية العربيـة المتَّحدة، وكانت تُرتَّب زيارات بيـن البلدين لتوثيق الصِّلات، وإذابـة الحواجز، وكان بعـض هذه الزيـارات تُنظِّمها جهات حكومية مختلفة.

وقد طُلِبَ من الأزهر أن يُرشِّح بعض الناس من علمائه ـ خصوصًا الشباب منهم ـ لزيارة سورية، والاطِّلاع على ربوعها، والتعرُّف على شعبها ومؤسَّساتها، وقد رشَّحنا مكتب شيخ الأزهر لهذه المهمَّة ـ العسّال وأنا ـ وقلنا لمدير المكتب الفني الشيخ: الأستاذ عبد الحكيم سرور: ربما لا توافق علينا جهات الأمن. فقال: نحن أبلغناهم بالاسمين، ولم يعترضوا، وكيف يعترضون على عالِمَين رشَّحهما شيخ الأزهر نفسه؟ ثم إنكما تسافران في بلدكما من إقليم إلى آخر!.

وأعددنا العدَّة، وأحضرنا حقائبنا للسفر، وذهبنا إلى المطار، وعملنا الإجراءات الأولى للسفر من الوزن وخلافه، وانتظرنا أن يُنادَى علينا لنركب الطائرة، وقبل أن نركب الطائرة: نُودي على اسمي، معتذرين عن عدم إمكان سفري. ولكن لم ينادوا على العسّال، وقلتُ له: ما أظنُّ إلا أنهم سينادون عليك. وقد ركب الطائرة بالفعل، ثم بعد دقائق، نادوا عليه وأنزلوه من الطائرة، وأخذنا حقائبنا وعُدنا إلى منزلنا، وفي اليوم التالي ذهبنا إلى الأزهر، ففوجئوا بنا، وقَصَصْنا عليهم ما حدث، وأخذ أخونا الشيخ سرور يضرب كفًّا على كفٍّ، ويقول: كيف يُمنع مواطن من التنقُّل بين أقاليم بلاده؟ إذن هي ليست وحدة حقيقية!.

• تتبع الصحف والمجلات في مواقفها من الإسلام:

وبعد أن فرغنا من إخراج كتب الشيخ شلتوت، كلَّفنا الدكتور البهي بعمل آخر، هو: أن نَتَتَبَّع ما تكتبه الصُّحف والمجلات عن الإسلام إيجابًا أو سلبًا، لتوظيفها بعد ذلك في خدمة الدعوة، ومعرفة أصدقائها وأعدائها، ووسائلهم وخططهم، والكشف عن أفكارهم ومفاهيمهم من خلال ما يكتبون أو يُكتب عنهم.

كان الهدف نبيلًا وجميلًا، ولكن لم تُهيَّأ له الوسائل الضروريَّة لتحقيقه،

فلم توضع ميزانية لشـــراء هذه الصحف والمجـــلات المصرية والعربية، لقراءتها واســـتخراج أهم مـــا فيها ممَّا يخـــدم موضوعنا، لأرشـــفة هذه المعلومات.

ولم تكن لدينا سكرتارية، لتســـاعدنا في عملنا هذا، ويبدو أنَّ المشروع اعتُمد ارتجالًا، دون إعداد وتخطيط كافٍ له، فقد أراد الدكتور البهي أن يشغلنا بعمل نبذل فيه جهدنا، دون أن يكون معنا من الآليات ما نستطيع أن نُحقِّق به ما يُراد منا.

- **الرد على الكراسة الرمادية:**

وفي هذا الوقت ـ على ما أذكر ـ نشر الشيوعيون في العراق هجومًا على الإسلام وتعاليمه: عقيدة وشـــريعة، وأخلاقًا وحضارةً، في بحث عُرف باسم (الكراسة الرمادية)، نشرت خلاصتها الصحف المصرية، والتي هيَّجت عليها الرأي العام المصري، المرتبط عقديًا وفكريًا وشعوريًا بالإسلام، والذي يثور كالبـــركان إذا عدا على حماهُ عـــادٍ، كما رأينا ثورته أخيرًا ضـــدَّ رواية (وليمة لأعشاب البحر).

وقد كلَّفنا الدكتور البهي ـ أنا والعسَّـــال ـ بكتابة ردٍّ علميٍّ على الشُّبُهات التي أثارتها هذه الكراسة، والأباطيل التي اتَّهمت بها الإسلام زورًا.

- **رسالة (الإسلام بين شبهات الضالين وأكاذيب المفترين):**

وقد أعددنا ردًّا بالفعل اطَّلع عليه الدكتور البهي وأقرَّه، وأمر بنشـــره في مجلة الأزهر، وقد اخترنا عنوانه: (الإســـلام بين شـــبهات الضالِّين وأكاذيب المفترين). كما كلَّف الدكتور البهي زميلنا الأستاذ حمودة عبد العاطي في إدارة الثقافة: أن يترجم هذا المقال إلى الإنجليزية، ويُنشـــر أيضًا في مجلة الأزهر، وكان هـــذا المقال هـــو الذي أوحـــى إلى أخينا الأســـتاذ حمُّـــودة أن يكتب بالإنجليزية كتابه بعد ذلك: (جوهر الإسلام ـ فوكس إن إسلام).

• **العمل بالمكتب الفني للوعظ والإرشاد:**

ولذا لم يستمرَّ هذا العمل (تتبُّع الصحف) طويلًا، وبعد مدَّة لم تطُل كثيرًا حُوِّلنا إلى العمل في المكتب الفني لإدارة الوعظ والإرشاد، لنعمل مع مدير الوعظ والإرشاد في ذلك الوقت، وهو الشيخ عبد الله المشدّ، وننتقل من مبنى إدارة الأزهر الـذي كنا نداوم به حيـث مراقبة البحوث والثقافـة، إلى مبنى (الرواق العباسـي) في الأزهر القديم، وكانت إدارة الوعظ والإرشـاد إحدى الإدارات التابعة للإدارة العامة للثقافة الإسلامية.

• **زملاؤنا في المكتب الفني للوعظ والإرشاد:**

وكان معنا في المكتب الفني عددٌ مـن العلماء الأفاضل، منهم: فضيلة الشيخ عطية صقر، والشيخ محمد رمضان مدير تحرير مجلة (نور الإسلام) لسـان حال علماء الوعظ والإرشـاد، والأَخَوَان أحمد حمد، وعبد الحميد شاهين.

• **مجموعة الشيخ شلتوت:**

وكان الشـيخ عبد الله المشـد مدير الوعظ من العلماء المستنيرين، ومن مجموعة الشيخ شلتوت، إذ كان الشيخ شلتوت والمشد والبهي وماضي، كلُّهم من منطقة واحدة من محافظة البحيرة، وكانوا جميعًا يدًا واحدة، وقلبًا واحدًا، ثم فرَّقت بينهم الأيام والفتن، وأهواء الأنفس، ودسائس الشياطين.

• **ترشيحنا إلى قطر:**

ولقد حضر إلى مصر في الإجازة الصيفية (١٩٦٠م) الشيخ عبد الله بن تركي من قطر، وهو المسؤول عن العلوم الشـرعيَّة في وزارة المعارف، وقابلته أنا والأخ أحمد العسّال، وكان لقاء علميًّا حيًّا، طرقنا فيه موضوعات في العقيدة والفقه والتربية، وسُرَّ بهذا اللقاء الشيخ ابن تركي، وطلبنا رسميًّا من الأزهر. وكنتُ قد تعرَّفت عليه قبل ذلك، حين صلَّى في مسجد الزمالك عندما كنتُ

أخطب فيه، وسمع خطبتي وأُعجب بها، وكتب كتابًا إلى الشيخ الباقوري وزير الأوقاف، يطلب منه إعارتي إلى قطر، وبالطبع لم يتحقَّق ذلك لعوائق كثيرة.

• **أنا والعسَّال إلى قطر:**

وسافر العسَّال إلى قطر، دون اعتراض، أما أنا فاعترضت المباحث العامة على سفري، فبقيتُ في مصر، أعمل بين المكتب الفني للوعظ والإرشاد، ومراقبة البحوث والثقافة.

وبعد مرور سنة دراسية، وبعد طلب وإلحاح من قطر ووزارة المعارف فيها على جهات الأمن المصريَّة، وافقوا على إعارتي إلى قطر لأعمل مديرًا للمعهد الديني الثانوي، وكان في استقبالي حين وصلت العسَّال وإخوانه من أصدقائنا القدامى، وبتُّ وأسرتي عند العسَّال.

• **البحث عن مسكن ملائم من مساكن الحكومة:**

بدأنا منذ الصباح نبحث عن سكن مناسب لي أنا والعسَّال، بحيث نكون متجاورَيْن، وكانت وزارة المعارف تُسلِّم المُدرِّسين سكنًا مؤثَّثًا، تُشرف عليه إدارة الإسكان الحكومي. وبعد أن رأينا عدَّة شقق اخترنا شقَّتين متجاورتين في بيت من أربع شقق، مكوَّن من طابقين، أخذت أنا والعسَّال الشقتين العلويتين، وكان البيت ملك الشيخ ابن تركي. وقد قضينا في هذا البيت أربع سنوات، ثم جاء عليه الأمر بالإزالة حين أُنشئ (جسر رأس أبي عبود)، المعروف في الدوحة، وانتقلت إلى بيت آخر هو (فيلا) من دور واحد.

• **اشتراكنا في تأليف كتب العلوم الشرعية:**

وكان من الأحداث المهمة: اشتراكنا في تأليف كتب حديثة في العلوم الشرعيَّة، التي تشمل التوحيد والفقه والآداب والتفسير والحديث والبحوث الإسلامية، وقد كلَّف مدير المعارف الأستاذ كمال ناجي لجنة برئاسة فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، وعضويَّة كل من: يوسف القرضاوي، وأحمد

العسّال، وعليوة مصطفى. لإنجاز هذه الكتب، مراعين رُوحَ العصر، وأسلوبه في الشكل والموضوع. فقسمنا الموضوعات على أنفسنا، وأصدرنا أول كتب مؤلفة في العلوم الشرعية في بلاد الخليج على ما أظن.

وقد لاقت الاستحسان في الدول المجاورة.

• **اعتقالنا معًا في سجن المخابرات المصرية:**

وممَّا ابتلينا به معًا بعد وصولنا إلى مصر لقضاء الإجازة في صيف سنة (١٩٦٢م)، بعد رجوعنا بعدَّة أيام: أنهم ساقونا إلى سجن مبنى المخابرات المصريَّة في سراي القبة، في قصة طويلة أوردتها في مذكراتي، وبعد أسئلة وتهديدات، حيث سألوا كُلًّا منا على انفراد، ولكنها أسئلة واحدة كانت عن اثنين من الإخوان: الأستاذ عبد العزيز كامل، والضابط محمود يونس. وتطابقت أجوبتنا تقريبًا، ولم يجدوا عندنا شيئًا يديننا، ولم تُوجَّه لنا تهمة، ومع هذا أبقونا نحو خمسين يومًا.

ولما أفرج عنا سألنا الناس: فيم أخذتم؟ وفيم اعتقلتم؟ وما تهمتكم؟.

قلت لهم: علمي والله علمكم، وأنا في الحقيقة لم تُوجَّه لي تهمة، ولا أعلم لماذا أخذوني وحجزوني عندهم هذه المدَّة؟.

وكلُّ ما سألوني عنه شخصان، لا أعلم عنهما شرًّا، ولا أعرف لهما جُرمًا، وهما: الأستاذ عبد العزيز كامل، والضابط محمود يونس، ولا أدري سرَّ الربط بينهما.

• **شبهة المشاركة في انقلاب ديني:**

وما هي إلا أيام حتى عرَفتُ من الناس التهمة التي أُخذتُ بها، وهي شبهة المشاركة في انقلاب ديني الطابع، دبَّره بعض الضباط في الجيش، مع فئة من القيادات الدينية الصوفية، وعلى رأسهم: الدكتور حسن عباس زكي وزير

الاقتصاد السابق، والأستاذ عمر مرعي، شقيق السيد مرعي رئيس مجلس الشعب، ومعهما الأستاذ عبد العزيز كامل، وقد قال الأستاذ عبد العزيز الشُّوربجي المحامي المعروف: إنَّ هذا الانقلاب لا وجودَ له إلا على ورقات تحمل مُجرَّد أفكار وتخيُّلات، لدى بعض الضباط!.

ولم يثبت التحقيق على أيٍّ من هؤلاء ما أُخِذوا به، وقد أفرج عنهم جميعًا بعد ذلك دون أن يُدانوا بشيء.

أما تُهمتي أنا والعسَّال ـ كما تخيَّلوها ـ فهي أنَّنا مُمَوَّلون من الخليج للانقلاب المزعوم، وذلك لما لنا من صلة بالأستاذ عبد العزيز كامل، والضابط محمود يونس!.

وكيف نكون مموَّلين، ونحن لم نزل حديثي عهد بالخليج، فلم يمضِ أكثر من تسعة أشهر لي في قطر، والعسَّال كان قبلي بسنة دراسية، فماذا عسى أن يكون لنا من مال نُسهم به في تمويل انقلاب؟!.

إنها الأوهام والخيالات التي يركض وراءها أحيانًا رجال الاستخبارات، يحسبون السَّراب ماء، حتى إذا جاؤوه لم يجدوه شيئًا.

• **اللقاء بصلاح نصر:**

جاء موعد سفرنا إلى قطر في منتصف سبتمبر، ولم يُؤْذَن لنا بالسفر، وبدأ العام الدراسيُّ، ولم نتمكَّن من مغادرة مصر. وعُدنا ـ أنا والعسَّال ـ لمباشرة عملنا في المكتب الفني لإدارة الوعظ والإرشاد بالرواق العباسي بالأزهر. ولم تكفّ وزارة المعارف في قطر عن إرسال البرقيات إلى الأزهر، وإلى الوزير المسؤول عن الأزهر السيد حسين الشافعي عضو مجلس الثورة، للسماح لنا بالسفر لمباشرة عملنا هناك.

ويبدو لي أنَّ هذه البرقيات وصلت إلى إدارة المخابرات التي كان على رأسها رجل الاستخبارات الشهير صلاح نصر.

وفوجئنا يومًا باستدعائنا ـ العسَّال وأنا ـ لمقابلة صلاح نصر في مكتبه في إدارة المخابرات، في المبنى الذي كنا ضيوفًا عليه سبعة أسابيع.

وفي الوقت المُحدَّد استقبلونا بالباب، وحملونا إلى مكتب الرجل الذي إذا ذُكر اسمه ارتعدت الفرائص، واصْطَكَّت الأسنان، وزلزل الرعب القلوب!.

• **دعوة صلاح نصر للتعاون مع المخابرات:**

دخلنا على صلاح نصر، فإذا هو رجل ناعم الملمس، حسن اللقاء، أحسن استقبالنا، ورحَّب بنا، وأظهر أسفه واعتذاره لما وقع لنا، وأنه كان خطأ لا مُبرِّر له، لم يعلم به إلا بعد رجوعه من سفر طويل.

وقال: إني سمعتُ كثيرًا عن إخلاصكما ونشاطكما وسمعتكما الطيبة في سائر الأوساط في الداخل والخارج، وإننا نعتبركم سفراء لبلدكم، ونريد أن نبدأ صفحة جديدة في التعاون من أجل مصر، وخير مصر، وتقدُّم مصر.

وقال: إنَّ همزة الوصل بيننا هو واحد منكم تعرفونه ويعرفكم، هو الأستاذ محمد نجيب جويفل، وسيُرتِّب معكم طريقة الاتصال بكم، وسأصدر الأوامر برفع الحظر عن سفركم، ويُمكنكم أن تستعدُّوا للعودة إلى قطر متى شئتم.

كان صلاح نصر يتكلَّم، ونحن نسمع، وهو يتكلَّم بثقة واطمئنان إلى ما يقول، كأنما يصدر أمره إلى جنود في كتيبة يقودها، فما عليه إلا أن يأمر، وما عليهم إلا أن يقولوا: سمعنا وأطعنا!.

ولهذا لم يتصوَّر أن يكون لنا رأي يخالف رأيه، أو إرادة تناقض إرادته. ومَن نحن حتى نقول: لِمَ؟ ناهيك أن نقول: لا!.

ولم نملك إلا أن نشكره على حُسْن استقباله لنا، وعلى إزالة العقبات من طريق سفرنا إلى عملنا، وانصرفنا بسلام.

• **حلقات التسليك مع الأخ عبد الحليم:**

ومن أنشطتنا المشتركة: الحلقات التي كانت تعقدها المجموعة الإخوانيَّة المتقاربة في الفكر والرؤى، وهم: عبد الحليم أبو شُقَّة، وعز الدين إبراهيم، وحسن المعايرجي، رحمهم الله، وأحمد العسَّال، ويوسف القرضاوي. وهي جلسات رُوحيَّة وفكرية واجتماعية، نتبادل فيها الرؤى والأفكار، ونناقش بعض القضايا، ونتواصى ببعض الوصايا، وكان أخونا عز الدين رَحِمَهُ اللَّهُ يطلق عليها: جلسات (التسليك). تشبيهًا بما يفعله الصوفية الملتزمون من تسليك المريد، حتى يرتقي من درجة إلى أعلى منها، وعندهم أن الطريق يبدأ بـ(المريد)، ثم يمر بـ(السالك)، ثم ينتهي بـ(العارف)، وهذا لا يصل إليه إلا السابقون بالخيرات بإذن الله، وهم قليل، أو أقل من القليل.

• **الاشتراك في زيارة العلماء والأمراء:**

وكنا إذا أردنا أن نزور كبار العلماء في قطر، مثل: ابن محمود أو الأنصاري أو ابن تركي أو ابن حجر آل بوطامي، نزورهم كلنا مع الشيخ عبد المعز، والشيخ عليوة، وصديقنا عبد الرحمٰن الجبالي.

وكذلك إذا زرنا حاكم قطر في ذلك الوقت الشيخ أحمد بن علي آل ثاني في قصره، (أو في مكتبته الخاصة بالريان)، وكذلك إذا زرنا الشيخ قاسم بن حمد آل ثاني وزير المعارف أو التربية بعد.

أو بعض وجهاء البلد، مثل: الشيخ خالد بن حمد، أو الشيخ محمد بن حمد، أو الوجيه قاسم درويش فخرو، أو الوجيه عبد الله عبد الغني وإخوانه، أو آل المانع، أو العطية، أو السويدي، أو الغانم، أو الخليفي، أو الهتمي، أو الدليمي، ونحوهم.

• **سفر العسَّال إلى لندن:**

وقرَّر العسَّال أن يغادر الدوحة إلى لندن للدراسة، للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة كامبردج، وقد فكَّرت أن أفعل ما فعل، ولكن كان عندي

أربع بنات، ولم أجمع من المال ما يكفي للإنفاق على هذه الأسرة التي يُرجى أن تتزايد.

وقد شاء الله ألا يُرزق العسَّال بأولاد، وكان ذلك عونًا على السفر للدراسة، ولله في خلقه أقدار لا يعلم حكمتها إلا هو.

• **العسال في لندن:**

وكان للعسال في لندن ـ مع دراسته الرسميَّة ـ حركة دائبة من الناحية الشعبية، مع المقيمين في لندن، والقادمين إليها، ولا سيما مع العمل الطلابي الإسلامي، وقد التفَّ حوله الطلاب المسلمون، وأمسى بمثابة الأب الروحي لهم.

وفي لندن أصيب العسَّال بقرحة المعدة، وقرَّر الأطباء أن يقصُّوا جزءًا كبيرًا من معدته، فكان لا يأكل إلا القليل، مع كثرة الوجبات، ولما رأيتُه بعد العملية، لم أكد أعرفه، فقد وجدته قد نزل إلى نحو نصف وزنه القديم، فلم يعد ذلك الجسم الضخم، بل أصبح نحيفًا نحيلًا.

• **لقاءات في الإجازة الصيفية:**

وكنَّا نلتقي في الإجازات الصيفية، وخصوصًا في السنتين اللتين ذهبت فيهما إلى إستانبول، حيث عقدنا ندوات فكرية إخوانية اشترك فيها عدد من الإخوان، مثل: د. توفيق الشاوي، وعبد البديع صقر، ود. صلاح شاهين، وأنا، والعسَّال، وبعض الإخوة لم أعد أذكرهم.

وسكنا معًا في بعض الإجازات في منطقة (يلُوَا) قرية (جوكشدرا).

• **لقاءات في السعودية بعد ذلك:**

ثم تلاقينا مرة أخرى في السعودية بعد عودة العسَّال من لندن حاملًا الدكتوراه في الدراسات الإسلامية، عن الإمام المحدِّث الزاهد المجاهد

عبد الله بن المبارك وكتابه (الزهد)، وكان مشرفه المستشرق المعروف ذا النزعة الصوفية (آربري).

وعُيِّن في جامعة الملك سعود، في كلية التربية، وفي قسم الثقافة الإسلامية، وقد زرته في القسم، والتقيته والتقيتُ صديقه وصديقي د. محمد سليم العوا، الذي كان يعمل معه في القسم.

• **لقاءات في إسلام آباد:**

وكان لنا لقاءات أخرى في إسلام آباد، حين أُعير إليها من السعودية، مساعدًا لمدير الجامعة الأستاذ الدكتور حسين حامد حسان، وكنت عضوًا في مجلس أمناء الجامعة، فلي زيارةٌ في كلِّ عام على الأقل، وقد أذهب لمناسبات أخرى، فيدعوني د. حسين، أو د. العسَّال إلى المحاضرة في الجامعة، أو التقاء الطلاب، كما طلب مني د. أحمد مرة التقاء الطلاب والطالبات من الصين، الذين ألحُّوا أن يلتقوني.

ولما ترك الدكتور حسين الجامعة، قام مقامه الدكتور العسال، وكانت الجامعة تعاني من نقص في ميزانيتها.

• **لقاءات في قطر:**

وكثيرًا ما كان يزورنا الأخ العسَّال في قطر على رأس وفد من كبار رجال الجامعة، للبحث عن دعم للجامعة في مسيرتها، وكنت أجتهد أن أشدَّ أزرهم ما استطعت.

• **العسال بجانبي دائمًا:**

وفي السنوات الأخيرة عرض الإخوان أكثر من مرة، منصب المرشد العام على الفقير إليه تعالى، فاعتذرت لأكثر من سبب، ومن ذلك ما عرضه عليَّ الأستاذ مأمون الهضيبي ـ بعد أن تولَّى منصب المرشد ـ أن يتنازل عن منصبه،

ويسـنده إليَّ بموافقة الإخوان طبعًا، إذا قبلت ذلك، وأرسل هذه الرسالة مع الأخ الصديق المفكِّر المسلم الكبير أ.د. محمد عمارة، الذي حاول أن يقنعني فلم يفلح. وعرف ذلك العسَّال، فكان تعليقه: خيرًا فعلت، إنَّ الله تعالى يريدك أن تكون مرشدًا للأمة كلِّها، لا لجماعة من الجماعات، وإنْ علا شأنها!.

وفي كلِّ المشـروعات الإسـلامية التي تبنَّيتُهـا، مثل: (الهيئـة الخيرية الإسلامية العالمية) في الكويت، ومثل (موقع إسلام أون لاين على الإنترنت)، ومثل (الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين)، كان العسَّال يعاضدني ويشدُّ أزري.

ورغم أنَّ إقامتي في قطر، وإقامته في مصر، فهو يواليني دائمًا بالسؤال عن طريق الهاتف، الذي قرَّب المسافات بين المتباعدين، فأدعو له، ويدعو لي.

فمثل هذه الأخوة التي بدأت لله، وفي الله، لا يمكن أن تنفصم عُراها، فما كان لله دام واتَّصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل، ونسـأل الله البرَّ الكريم، الذي جمعنا على الحبِّ فيه، أن يديم علينا النعمة، ويجمعنا في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه، إنه سميع قريب.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

* * *



الشيخ الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر

(١٣٤٧ ـ ١٤٣١هـ = ١٩٢٨ ـ ٢٠١٠م)

ينتمي الشـــيخ إلى أسرة شـــريفة، مهاجرة من الجزيرة العربية إلى صعيد مصر، ومن الصعيد إلى شبين القناطر، حيث ولد الشيخ رحمه الله في (١٦ أغسطس ١٩٢٨م)، ينتهي نسبه الطاهر إلى سبط رسول ﷺ الحسين بن علي رضي الله عنهما.

وقد أتم الشـــيخ حفظ القرآن في العاشـــرة من عمره في الكتَّاب، وارتبط الشيخ بالقرآن قلبًا وقالبًا، وعاش معه حياته كلها.

تقدم الشيخ لاختبار الابتدائية الأزهرية، وهو في الثانية عشرة من عمره، واجتـــاز الاختبار بتفوق ملحوظ، حيث أمضى أربع ســـنوات فـــي الابتدائية الأزهرية، وخمس سنوات في الثانوية الأزهرية.

وتعرف الشيخ على جماعة الإخوان المسلمين في سن مبكرة من عمره، فارتبط بها وانتمى إليها، وكان أحد شـــباب (جوالة الإخوان المسلمين) التي كان يشرف عليها الدكتور عبد العزيز كامل ذو الثقافة الواسعة الموسوعية، ومن هنا جاءت العلاقة بينهما وتأكدت المودة، ونشأ كنشأته بموسوعية عالية يطلب العلم ويحرص عليه، مع تواضع جم، وامتدت العلاقة بينهما واستمرت، وشاء الله عز وجل أن يجتمعا في محنة سنة (١٩٥٤م) في زنزانة واحدة.

دخل الشيخ كلية أصول الدين وتتلمذ على كبار علماء عصره، ومنهم: الشيخ محمد عبد الله دراز، الذي كان يدرســـه التفســـير وعلوم القرآن، وأُعجب الشيخ بشخصيته، وصار من حوارييه، فازداد تعلقه بكتاب الله تعالى بعد أن تلقى منهجية

التعامل مع الكتاب من شيخه دراز. وكذا تتلمذ فيها على الشيخ أحمد محمد شاكر في مادة الحديث الشريف؛ فتتلمذ الشيخ حسن عليه، وكتب من فمه تعليقات نادرة غاية في التحقيق العلمي على نسخته من (الباعث الحثيث) التي كان يحتفظ بها.

وكان الشيخ صديقًا لي ولأخي أحمد العسال، وقد تخرج في كلية أصول الدين بعدنا بعام؛ إذ تخرجنا عام (١٩٥٣م)، وتخرج عام (١٩٥٤م)، وكان عمره وقتها تجاوز (٢٥) عامًا.

في محنة (٥٤) كان الأخ الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر في الزنزانة نفسها التي فيها الأخ فتحي عثمان.

وأذكر أنني في صيف سنة (١٩٦٤م) حين أفرج عن الشهيد سيد قطب من سجنه بشفاعة الرئيس العراقي عبد السلام عارف، أردت أنا والأخ الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر أن نسلم عليه بعد خروجه من السجن، وذهبت مع أحد الإخوة الأزهريين العراقيين الذين كانوا يدرسون للدكتوراه في مصر، وهو الأخ الشيخ حسيب السامرائي، الذي تفضل بأخذنا في سيارته، وذهبنا إلى بيته في حلوان، ولكنا للأسف لم نجده، ولم تتح لنا زيارته مرة أخرى، إذ في السنة القادمة كانت محنة (١٩٦٥م)، والتي جرى فيها ما جرى، والحمد لله على كل حال.

بعد أن خرج الشيخ من المعتقل ـ وكان قد منع من الخطابة ـ شفع الشيخ أحمد حسن الباقوري إلى الرئيس عبد الناصر أن يخرجه من مصر في بعثات أزهرية، فذهب الشيخ إلى نيجيريا، وفتح له الناس قلوبهم لما رأوا فيه من دماثة الخلق، وعظيم الأدب، وحسن التواضع للعلم وأهله.

حاول دعاة القاديانية التقرب من الشيخ؛ فأهدوا إليه مجموعةً كبيرةً من كتبهم؛ لكن الشيخ استفاد من هذه الكتب في الرد على فرقتهم الضالة، وكتب بحثه (القاديانية) الذي حصل به على درجة الماجستير من الأزهر الشريف، وقد طبعها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وطبعت بعد ذلك مرتين.

وتعرف الشـيخ على أعلام الدعوة بإفريقية، فأثمر ذلك رسالته للدكتوراه عن (دولة الفولاني) وقد أشـرف عليها الأسـتاذ الدكتور عوض الله حجازي عميد الكليـة وقتها، ورئيـس جامعة الأزهر فيما بعد، وناقشـها الشـيخان عبد العزيز عبيد، والشيخ محمد الغزالي، وقد طبعت في كتاب بعنوان (الدعوة الإسلامية في غرب إفريقية وقيام دولة الفولاني).

تولى الشـيخ بعض المناصب في وزارة الأوقاف المصرية، منها: مفتش للمسـاجد، وكان له الفضل في اكتشـاف الشـيخ عبد الحميد كشك رحمه الله، وتمكينه من الذهاب إلى القرى والنجوع، والتواصل مع العامة والخاصة، وتنبأ له بمستقبل واعد في مجال الخطابة والدعوة قبل أن يعرفه أحد.

وتعرف إلى الشيخ حافظ سلامة، وتمكنت بينهما المودة وصفاء الصلة، وكان الشيخ حافظ سلامة يصطحبه دائمًا في جولاته الدعوية على خطوط المواجهة بين الجيش المصري وجيش الكيان الإسرائيلي في أثناء حرب الاستنزاف.

وبعد موت عبد الناصر، وتولي أنور السادات، وإزاحة مراكز القوى التي كانت امتـدادًا لحكم عبد الناصـر، والإفراج عن المعتقلين، وإعلان سـيادة القانون، تنفسـت مصر الصعداء، وأحـس الناس أن الغُلّ الـذي كان يطوق أعناقهم قد فك عنهم.

وفي هذا الجو الذي هبت فيه نسـمات الحرية، التـي طالما حرمها أهل مصر: بدأت أفكر في العودة إلى الأصل، لأخذ الدكتوراه من الأزهر، ومن كلية (أصول الدين) التي سـجلت فيها أطروحتـي عن: (الـزكاة وأثرها في حل المشكلات الاجتماعية).

لكن كان أمامي عقبات، منها: أن أقصى مدة يسمح فيها لطالب الدراسات العليا بتقديم رسالته، هي ست سنوات، وقد مضى حوالي ضعف هذه المدة، فهل يمكن الاستثناء؟.

والعقبة الأخرى: أن بحثي عن الزكاة قد نشر، وشرط قبول الأطروحة أن لا تكون منشورة.

وكان من فضل الله ورحمته أن وجدنا قانون أقصى مدة للتقديم قد عدل في عهد وزارة الشيخ عبد الحليم محمود للأوقاف وشؤون الأزهر من ست سنوات إلى اثني عشر عامًا، وهذا لم نكن نعلمه.

لكن حتى هذا القانون لا يسمح لي بالتقديم، فقد مضى اثنا عشر عامًا أو أكثر على التقدم بأطروحتي لكلية أصول الدين، لكن المفاجأة الغريبة التي لم أكن أتوقعها قط أني وجدت مجلس الكلية لم يعتمد الموضوع الذي تقدمت به إلا بعد سنة من تقديمه إلى الكلية، وهذا أمر لو عرفته في حينه لغضبت أشد الغضب، وأنحيت باللائمة على من أخَّره كل هذا الوقت.

لكن كان لله حكمة لا نعلمها في هذا التأخير، وكما يقول المثل: (كل تأخيرة فيها خيرة)، فقد أتاح لي هذا التأخير أن أجد بصورة قانونية فرصة للتقدم من جديد إلى الكلية لتعيين مشرف جديد على رسالتي، واستجابت الكلية بسرعة، وعينت أحد شيوخنا الفضلاء مشرفًا هو الشيخ الدكتور عبد الواحد عثمان أستاذ التفسير المساعد بالكلية. وكان الذي يركض وراء ذلك كله، ويحرك العجلة إلى الأمام، ويحل المشكلات المعقدة، هو الأخ الحبيب، والصديق الصدوق، الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر، الذي كان يعمل مدرسًا مساعدًا بالكلية، ولم يألُ جهدًا في تتبع الأمور، وتسهيل كل صعوبة تعترض الطريق.

قدم الشيخ إلى قطر عام (١٩٧٨م) بناءً على رغبة مني؛ ليدرِّس للطلاب في كلية الشريعة التي كنت عميدها، فقد حضرت مناقشة رسالته للدكتوراه، وعرضت عليه أن يأتي إلى قطر، فقال: إن أمامي ثلاث سنوات، لا بد أن أمضيها مدرسًا بجامعة الأزهر، حتى يحق لي الابتعاث للخارج. فقلت له: استقل ونتعاقد معك مباشرة. فقال: إن من حق الجامعة التي منحتني شهادة

الدكتوراه أن أوفي لها حقها.. وبعد أن أمضى المدة المحددة للتدريس بجامعة الأزهر، أصبحت الفرصة سانحة أمامه للابتعاث للخارج، وقد عرض عليه في هذا الوقت أحد عمداء الكليات في المملكة العربية السعودية أن يدرس عندهم، فقال له: أنا وعدت القرضاوي. فقال له: استأذنه. وبالفعل استأذنني في ذلك، لكني رفضت، وأصررت على أن يعمل معي في كلية الشريعة بقطر.

وقد احتضن الشيخ أبناءه الطلاب بالكلية؛ وعرفوا فيه الأبوة الحانية، ومارس الدعوة والخطابة في دولة قطر، بداية من مسجد إسحاق بأم غويلينا بالدوحة ـ زيد بن حارثة حاليًا ـ وجامع منيرة السويدي المجاور لمحطة بنزين الجامعة بالدفنة، وكانت له حلقاته المرئية والمسموعة في الإذاعة القطرية والتلفزيون القطري.

اختص الشيخ بمحبة خاصة للسيرة النبوية، حتى كاد أن يستظهرها، وكان من آخر ما سجَّل في ذلك حلقات برنامجه: عام الوفود.

كان الشيخ ذا عبادة وحرص شديد على إقامة السنة وذكر الله تعالى في كل حال من أحواله؛ فتجده دائمًا مرددًا الأذكار النبوية، حريصًا عليها مع خشوع يُلاحظه من اقترب منه، بعيدًا عن طلب الظهور أو السمعة، متذكرًا دائمًا أنه ما خرج من بلده إلا مهاجرًا إلى ربه جل وعلا، وكان دائمًا إذا خلا مع بعض خاصته يُردد قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]. ثم ينظر إلى ما توفر لديه من النعمة، وتخنقه العبرة وهو يقول: أرجو أن تكون هذه عاجل بشرى المؤمن، وألا تكون قد عُجِّلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا.

شغل الفقيد عدة مناصب دعوية وعلمية في مصر وقطر، وسافر مبعوثًا للأزهر في عدد من البلدان الإسلامية، واستقر به المقام في قطر عام (١٩٧٨م)، حتى وافاه الأجل.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ،

العلامة الإمام والداعية المجاهد الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي
حفظه الله ورعاه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وتحية من عند الله مباركة طيبة

وأسأل الله سبحانه أن تكونوا بحمد الله وفضله من خير حال يجعل الله ورسوله ونتمناها لكم من موفور الصحة وتمام العافية في البدن والدين والدنيا آمين

أستاذنا الجليل كيف حالكم ؟ وكيف صحتكم الغالية ؟ وكيف أنتم في سيدني بطرفكم الجديد القديم ؟ حياكم الله وحفظكم من كل سوء ونقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال آمين.

ولقد كنتم تحولتم عنا من سيدني هنا إلى سيدني هناك فقلوبكم وكلمتكم الطيبة بإذن الله تعالى وأنفاسكم الطاهرة في كل مكان وما بثيتم من أجيال وما غرستم من غرس ، وما قطعتم من واد تحملون على عاتقكم وكل أمانة وصدق ووفاء وإخلاص أمانة هذا الدين شاهدكم عند الله ولن يضيع الله لكم هذه الخطوات في سبيله ،

لقد استعذبتم في سبيل الله ما تتحملون من نصب ومشاق وجهد ليل نهار من جهد يبذله من أجل سيدني الدعوة إلى الله بصدق الكلمة ونبل الهدف وطهر العمل وشرف الوسيلة ، وأهنئكم والله هنيئكم من سبقوا بالخيرات ومن اصطفاهم الله لميراث هذا الكتاب ، ومن بلغوا به وبلغوه بصفقة مع قدم إلى الملأ الأعلى تقبل الله منكم ما تتحملونه في سبيل دعوته من مفارقة الأهل والأوطان وكتب لكم دعاء المخلصين في سبيل نشر دعوته على بصيرة وأيدكم بروح من عنده ، وأبقاكم ذخرا للإسلام والمسلمين.

وكنتم ومازلتم تحسون وتنظرون وتبصرون بنور الإيمان غاية أمنياتكم السامية إلى الجود لربط من السراء والضراء والفرار إلى ربكم في كل آن وعياكم الله من فضل وأنتم تطلبون للدعوة الله بالبينات من نور الكتاب والسنة وبالميزان من العقل والعلم وبالزاد الصابر والمصابرة الراشدة ثم أنتم الذين قربا طلكم على العهد الذي عاهدتم الله عليه وستلقون ربه السنة الخلق وأقلام الحق.

سلام عليكم قرة العين وأنتم تقرؤون وسلام عليكم من المخلصين وأنتم تقولون وسلام عليكم من المجاهدين وأنتم تصبرون ومصابرون وسلام عليكم من صبركم سرابطين وسلام عليكم في تقلبكم من الساجدين وداعيا إلى لقاء على الله وفي الله

أخوكم المخلص
حسن عيسى عبد الظاهر

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



الأستاذ الدكتور محمد فتحي عثمان

رجل التطور في الفكر، والتجديد في التراث، والترجيح في الإسلام

(حوالي ١٣٤٦ ـ ١٤٣١هـ = ١٩٢٨ ـ ٢٠١٠م)

عرفتُ محمد فتحي عثمان أوَّلَ ما عرفته، وأنا طالب في المرحلة الثانوية بمعهد طنطا الديني، من معاهد الأزهر الشريف، وكان هو طالبًا بكلية الآداب، قسم التاريخ، بجامعة القاهرة.

جاء مع أحد الإخوة الباكستانيين المسلمين، الذين يحسنون التحدث باللغة الإنجليزية، وهي اللغة الثانية لهم في تعليمهم الدراسي. وكان اسمه عليم الله الصِّدِّيقي، وكان الأخ فتحي عثمان هو الذي كُلِّف من المركز العام بالقاهرة بمرافقته، وبترجمة كلماته من الإنكليزية إلى العربية.

وكُنَّا نحن في هذا السن، وهذا الوقت نستبعد أن يقدر طالبٌ جامعي يدرس مادته التي يتخصص فيها باللغة العربية: أن يكون قادرًا على الترجمة الفورية العذبة، للجمهور في حفل كبير في أحد ميادين مدينة طنطا.

ولكنَّا حمدنا الله تعالى، وابتسمت ثغورُنا، وانشرحت صدورنا، حين وجدنا حبيبَنا الشابَّ العربي المصري، ينقل لنا كلام الصِّدِّيقي إلى العربية بسرعة وسهولة وبيان حلو المذاق، فعرفنا: لماذا اختاره الإمام الشهيد وإخوانه في القاهرة لهذا الموقف؟.

وعرفته مرة أخرى في طنطا، وفي نفس الموقف، متحدثًا بالعربية، مع أخيه وزميله أو رئيسه مصطفى مؤمن، زعيم طلاب الجامعة المصرية، والمتحدث باسم شباب مصر، وأخطبهم إذا اجتمعوا، وخصوصًا إذا تحدث

في السياسة، وكان له جمهوره الكبير من الطلاب وغير الطلاب، وإن كانوا هم الأكثر.

واستمعنا قبلَ حديثِ مصطفى مؤمن إلى الأستاذ فتحي عثمان، فتحدَّث حديثًا نبَّه العقول، وأيقظ الضمائر، وقوَّى العزائم، وشـــدَّ الشباب إلى قضايا الأمة الإسلامية الكبرى.

وثالثَ مرةٍ رأيتُه فيها: حين زار الإمامُ حسن البنا مدينةَ كفر الزيات، وذهبنا مجموعة من شباب طنطا من المعهد الديني، ومن مدرسة طنطا الثانوية، وكان معي في هـــذه الرحلة أخواي أحمد العســـال ومحمد الدمـــرداش مراد، وقد استمعنا لأول مرة إلى خطبة الأستاذ البنا من فوق المنبر، وقد كدتُ أحفظها؛ لما فيها من وضوح وتقسيم، ودلائل واضحة، وبينات من القرآن الكريم، ومن السُّـــنة النبوية، ومن ذخائر التراث، ومن ثمرات الفكر، وحقائق العلم، وعبر الاجتماع، وصولًا إلى الهدف، ونهوضًا بالأمة. وكان يصحب الإمام الشـــهيد فتحي عثمان، الذي التقى بالناس وبالشـــباب بعد الصلاة، مما يدل على أن الإمام حسن البنا كان شديد الثقة بالشاب فتحي عثمان، ويُعِدُّه ليكون له مكانه في مستقبل الدعوة.

وقرأت في ذلك الوقت في مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية بعض مقالات قوية، كأنما هي نور ونار للشاب الجامعي فتحي عثمان. ومنها: مقالة كتبهـــا يتلهف على عودة الإمام حســـن البنا من رحلة الحج، التي اســـتطالها الإخوان، والمحن داخل مصر تتطاول أذرعها، لتحيط بالجماعة، وقد اجتمع مكتب الإرشاد، ولم يستطع أن يفعل شيئًا، ومرشده غائب، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.

وأذكر أن الأستاذ عبد العزيز كامل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كتب في مجلة الإخوان في حياة الإمام البنا مقالة تحدث فيها عن (مهندســـي القاع) و(مهندســـي الســـطح)،

الأولون يعملـــون في (الورشـــة)، والآخـــرون يعملون في قاعـــات العرض (الفترينات)، وكأنه يشير إلى رجال النظام الخاص وإلى غيرهم من الإخوان العاديين، ورد عليه الكاتب الشاب المتألق محمد فتحي عثمان، منكرًا عليه هذه التفرقة، وأن المدار على صدق النية وصلاح العمل، سواء كان يعمل في السطح أم في القاع.

وفي صحيح البخاري: «**طوبى لعبد آخذٍ بعِنانِ فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرَّة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع**»[١]. يعني: أنه يؤدي مهمته حيث وضع.

وبعد أن تخرَّج فتحي عثمان من قسم التاريخ من جامعة القاهرة، وكنت أعلم أنه على صلة بعلَّامة الأدب والتاريخ والثقافة الإســـلامية: الأستاذ محب الدين الخطيب، صاحب الدار الســـلفية، ومصدر المجلتين الإســـلاميتين الشهيرتين: الزهراء والفتح، والذي تولّى بعد ذلك تحرير مجلة الأزهر ست سنوات.

لا أعلم أيـــن اختفى في ذلك الوقت، فلم أره في معتقل الهايكســـتب أو الطور مع كثير من شـــباب الإخوان، ولم يكن في الشـــباب الذين أخذوا إلى السجون في قضية (الأوكار)[٢] وغيرها، فلم يكن له انشغال بهؤلاء الشباب.

ولكن بعد خروجنا من المعتقل في أواخر سنة (١٩٤٩م) وجدنا فتحي يظهر من جديد في صورة مؤلف، له كتاباته، وله قلمه، كما له لسانه وخطبه.

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٧)، عن أبي هريرة.

(٢) هي قضية من القضايا التي لفقت للإخوان في عهد حكومة عبد الهادي، وهي قضية حشروا فيها كل من أرادوا حشره من الإخوان ـ الخطرين في نظرهم ـ وأسندوا إليهم تهمًا باتخاذهم أوكارًا جمعوا فيها أسلحة وذخائر ومحطات إذاعة لقلب نظام الحكم. وقد ضمت عددًا من المتهمين بلغ خمسين متهمًا.

رأينا له في ذلك الوقت: كتابه (**أضواء على التاريخ الإسلامي**).

ورأينا له مواقفه في تأييد المرشد الثاني للإخوان المستشار بمحكمة النقض الأستاذ حسن الهضيبي، فاجتمعتُ معه ومع الأستاذ الهضيبي في مدينة بسيون بمحافظة الغربية، وكانت ليلة حافلة، تحدث فيها الحاج أحمد البِس رئيس المنطقة، والأستاذ عبد العزيز عطية، والأستاذ محمد فتحي عثمان، ويوسف القرضاوي، وخُتم الحفل بكلمة المرشد العام الأستاذ الهضيبي.

وفي ثاني يوم ذهبنا إلى صلاة الجمعة في مدينة قطور، أحد مراكز مديرية الغربية التي نحن فيها، وطلب إليَّ أن أخطب الجمعة، وأن يعلق الأستاذ فتحي بتعليقاته المعتادة التي تربط بين الخطبة وواقع الحال، وتشدُّ الناس إلى الدعوة، وتوعي المجتمع بأهم ما له من حقوق، وما عليه من واجبات، تجاه وطنه، وشعبه العربي، وأمته الإسلامية، وتجاه العالم كله، كما هي نظرة الإسلام.

ولقيت الأخ فتحي مرة أخرى في مدينة المنيا ـ مسقط رأسه ـ حيث كان يعمل مدرِّسًا فيها في المعهد الديني الثانوي الأزهري، والذي جمعني به لقاء أعدَّه الإخوان في المنيا، وقد خطبتُ فيها الجمعة، واهتم بخطبتي شيخُنا الشيخ محمد أبو العيون، الذي أصبح شيخنا ومدرِّسنا في الحديث في كلية أصول الدين. وكان لقائي بفتحي في هذه الليلة لقاء جيدًا، وقد ازدادت معرفتي به، وبحصيلته الواسعة في معرفة الإسلام من جذوره؛ معرفة القرآن والسنة، والفقه وأصوله، فضلًا عن السيرة والتاريخ.

وما زال الزمن يجري بنا في سبله المختلفة، مشرِّقين ومغرِّبين، صاعدين إلى أعلى أحيانًا، ونازلين إلى أسفل في بعض الأحيان، نحِنُّ إلى الغاية، وقد نجدها في زمن ما، وسرعان ما يحيط بنا البلاء، فينسينا ما كنا فيه. وهكذا شأن أصحاب الدعوات، أمنهم قليل، ومخاوفهم كثير.

ثم رأيت الأخ محمد فتحي عثمان يعمل في المركز العام للإخوان المسلمين في الفترة التي توترت فيها العلاقات بين الإخوان وبين الانقلاب الجديد، الذي سمَّى نفسه (الثورة). وكان في هذه الفترة يعمل سكرتيرًا لتحرير مجلة (الدعوة) الأسبوعية، التي يرأس تحريرها الكاتب العربي والإسلامي الكبير الأستاذ سيد قطب، الذي عيَّنه مكتب الإرشاد مسؤولًا عن رئاسة قسم نشر الدعوة، وعن رئاسة تحرير المجلة.

وكان فتحي عثمان في موقعه الذي يحسن العمل فيه، وهو توجيه الأفكار والمشاعر والإرادات إلى العمل الإسلامي الواعي الناضج، أو الذي يجب أن ينضج، على نار الصراع القائم بين الفكرة الإسلامية وخصومها، وأول ساحات النضال هي الساحة الإعلامية والدعوية، التي تتمثل في الصحافة المكتوبة والمسموعة، فلم يكن لدى الناس في ذلك الوقت صحافة مرئية، ولا إلكترونية، فلم يعرف الناس بعدُ التلفزيون ولا النت.

وكانت صحيفة الإخوان في قلب المعركة، تحمل الراية، وتذكِّر بالأهداف، وتسير إلى الطريق، وتجمِّع المؤمنين بالفكرة، وتؤكد عليهم أن يرتبطوا بها، ولا يتخلَّوْا عنها، ليكونوا لها كما كان الصحابة رضوان الله عليهم لرسول الله ﷺ ودعوته: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣].

ولما جاءت المحنة، كان لا بد أن يصيب فتحي ما أصاب الإخوان في هذه المحنة التي ابتلاهم الله بها، وقد قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

أجل! ما زال الزمن يسير بنا كما يسير القطار في طريقه، أو كما تسير الطائرة في سمائها، أو كما يسير الصاروخ الجوي، حتى التقيت مع الأستاذ

فتحي في السجن الحربي، في المرة الثانية، لم أره في المرة الأولى التي كانت في يناير (١٩٥٤م). لقيته في فترة (البحبحة) التي انزاحت عنا فيها العصا الغليظة، والكرباج الملهب للجلد، لقيته في زنزانته في الدور الثاني، وكنت أنا في الدور الثالث، وقد كلَّفني الإخوة أن أمُرَّ على ما أمكنني من الزنازين، لتبشير الإخوان وتثبيتهم، وطمأنة قلوبهم، وملئها ثقة بالله تبارك وتعالى، الذي يبدل السيئات حسنات، ويعد بالفرج القريب، والنصر العزيز، والمباحثة معهم في بعض المسائل العلمية الشرعية التي يهتمون بها، والإجابة عن بعض أسئلتهم العاجلة التي يبتغون الإجابة عنها.

كان في زنزانة أخي فتحي صديقي من شباب علماء الأزهر الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر، وجلسنا نتحدث مع فتحي عن موسوعة الدعوة الإسلامية، وخزانة الفكر الإسلامي، وكنا نتباحث ونتناقش فيما هو الواجب بعد ذلك للعمل الإسلامي، وكان بحثًا شائقًا، أبدع فتحي فيما قال فيه.

وكان مما قاله الأستاذ فتحي في تلك الجلسة: إنه كان قد جمع من كثير من المكاتب والأشخاص والجماعة مصادر جمة ورائعة، لكتابة تاريخ الأستاذ البنا ودعوته، ووجد فيما وجد بعض المجلات له فيها مقالتان، وبعضها من النوادر، ولكن في الكارثة الكبيرة التي نزلت بالإخوان، أُخِذ ما جمعه الأستاذ فتحي، وضعوه في أشولة أو نحوها، وذهبت به شرطة المباحث السياسية، حيث لا يعلم أحد أين هي، ولا ما فُعِل بها.

وقبل ذلك علمت أن إمارة قطر، وخصوصًا وزارة المعارف، التي كان يمثلها في ذلك الوقت: الشيخ قاسم درويش فخرو، الذي أرسل إلى صديقه الأستاذ محب الدين الخطيب، يطلب شخصية إسلامية قوية تتولى قيادة التعليم في الابتدائي والإعدادي والثانوي، وأن يستعين بالجهات الإسلامية لإمداده بمن يرونه الأنسب لهذا العمل المرجو، وتحدث الأستاذ الخطيب مع الإخوان،

ورشَّحوا له الشاب النابه الذي درس التاريخ، وله معرفة كبيرة باللغة العربية، وبالقرآن والسنة والسيرة، والفقه والآداب والعلوم والفنون، كما له عناية كبيرة وفائقة باللغة الإنجليزية، وانتظرت قطر، وانتظر الشيخ درويش: الأستاذ أو الشيخ فتحي عثمان، ولكنه لم يحضر. لعله كان خارج مصر في تلك الفترة، لكنهم فكَّروا في بديل آخر، وكان هو الأستاذ الداعية عبد البديع صقر، الذي عين أول مدير لمعارف قطر، وظل فيها عدة سنوات، حتى أُخرِج منها.

المهم أني بعد أن خرجت من المعتقل، ووطئت قدماي أرض الكنانة، ذكرت ما قال الله لنوح حين استقلَّ السفينة وقال: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ [هود: ٤١]، قال الله له: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٨ ـ ٢٩].

وبعد أن ضربنا الزمن بمضاربه، نصرنا الله أخيرًا، فحططنا الرحال في وزارة الأوقاف في عهد وزيرها الشيخ الباقوري، الذي تكفَّل لرجال الداخلية أن يضمنَنَا، وأن يُبعدنا عن الخطابة والوعظ، والاتصال بالجماهير، وكنا عشرة من الإخوان، فطلب أن نعيَّن جميعًا في قسم النُّظَّار، ومكاننا في سطوح الوزارة.

وتسلمنا عملنا نحن العشرة، ولكن مراقبة الشؤون الدينية، التي كان يرأسها شيخنا البهي الخولي، ويدير مساجدها الشيخ محمد الغزالي، ويدير إدارة الثقافة فيها الشيخ سيد سابق، هذه الإدارة، استدعتنا ـ أنا والعسال ـ من قسم النُّظَّار إليها، وكنت مع الشيخ الغزالي في إدارة المساجد، وأخي العسَّال مع الشيخ سيد سابق في إدارة الثقافة.

وظللنا في وزارة الأوقاف نحو سنتين، تجري بنا سفائنها ونجري بها، حتى زُرنا شيخَنا محمود شلتوت شيخ الأزهر، وكنا من قبل على صلة به،

وعلم أننا فـي الأوقاف، وقال: الأزهـر أولى بكم، قدموا طلـب نقلكم إلى الأزهر، ونحن سنساعد في تسهيل نقلكم. وقد انتقلنا أنا والعسال إلى الأزهر، وإلى الإدارة العامة للثقافة الإسـلامية التي يرأسها أسـتاذنا العلَّامة الدكتور محمد البهي، أستاذ الفلسفة الإسلامية المعروف، الذي رحَّب بنا في إدارته، وكلَّفنا بالعمل على طباعة كتب شيخ الأزهر، الذي له مقالات كثيرة، ولكن لم يعرف الناس له كتبًا يقرؤونها، فعكفنا على هذا العمل.

ووجدنا أخيرًا أخانا العالم الكبير الداعية فتحي عثمان، يعمل في مكتب الدكتور البهي، وقد أصدر عددًا من الكتب، وأهمها كتابه: (الفكر الإسلامي والتطور) وفيه ملاحق علمية، تعد جزءًا منه، تشـير إلى مباحث واجتهادات، متفقة مع اجتهادات المباحث غالبًا، وقد أهدى نسخة منه إلى الأستاذ الدكتور البهي، فقال له: هكذا نريد الشباب الناضج: أن يسـير دومًا إلى الأمام، وألا يتوقف، وألا يخاف، ونحن من ورائه.

وصار لفتحي من بعده ومعه عدة كتب، منها: (الدين في موقف الدفاع)، ومنها: (الإسلام وحقوق الإنسان)، ومنها: (الدين للمجتمع)، وغيرها.

وبدأت فترة في مصر كأنمـا هي فترة هدوء، ولعله الهدوء الذي يسـبق العاصفة، كما يقولون. تهيأ لنا أن نتقدم للبعثات، بحكم مضي ثلاث سنوات علينا في الأزهر، ثم اختاروني ـ حسب الامتحان الذي عقد لنا ـ أول مبعوث من الأزهر إلى الخارج، ولي أن أختار من البلاد ما شئت، وقد اخترت قطر، التي كانت طلبتني منذ عدة سـنوات، ورضيت بها وإن لم أعرفها. ولكن في الإجراءات منعوني فأخروني سنة، وأخرجوا زميلي العسال.

وغاب عني في هذه الفترة الأستاذ فتحي عثمان، فلم يعد في إدارة البحوث والثقافة بالأزهر، ولم أعد أراه فـي الإخوان، ويبدو أنه عمل في بعض البلاد العربية، ثم عمل في المملكة العربية السـعودية، في جامعة الإمام محمد بن

سعود للعلوم الإسلامية، ومع الأستاذ الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي مدير الجامعة، الذي بدأ يسعى في أن تتطور الجامعة، وتصبح جامعة إسلامية عصرية، تستوعب الإسلام الصحيح على منهج السلف، ومتحدثة للمسلمين في أنحاء العالم، ولغير المسلمين، عن الإسلام الذي تدرِّسه الجامعة، وتثقف به أبناءها، وتدعو العالم كله إليه.

وكانت الذراع اليمنى للدكتور التركي هي الدكتور محمد فتحي عثمان، الذي أمده بفيض هائل من الكتابات الرصينة الأصيلة، في كل الموضوعات التي يطلبها وينشدها، ود. فتحي يحتسب عند الله ما قدَّم لجامعة الإمام محمد بن سعود ولمديرها والناهضين بها ما كانوا في أشد الحاجة إليه.

وفتحي عثمان رجل لا يقف في مكانه، ولا يعطِّل عقله، ولا لسانه، ولا قلمه، فإذا لم تتحرك به الحياة، حاول هو أن يحركها، ولذلك رأينا فتحي عثمان ينتقل من مكان إلى مكان، ومن عمل إلى آخر، ومن قارَّةٍ إلى أخرى، تحصيلًا للعلم وللشهادات العليا، أو عاملًا في مجال من مجالات الدعوة، في أي مكان في العالم.

وفي هذه الفترة حصل على شهادة الحقوق التي درس فيها الشريعة مع القانون، وحصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة القاهرة، وعلى دكتوراه عالمية من جامعة بريستون الأمريكية، التي اختير للتدريس فيها مدة من الزمن، وكان موضع الرضا والثناء من أساتذة الجامعة، ومن المعنيين بالفكر الإسلامي والشأن الإسلامي في تلك الديار.

كما أسهم بالكتابة في الموضوعات التي تتشارك فيها الأفكار، وتصطرع الأيديولوجيات، ويحتاج الناس في وسط هذا التماوج والتزاحم والتخاصم أن يعرفوا الحق ممَّن ينشد الحق، ولا يشده إلى الباطل تعصبٌ أعمى، أو تقليدٌ أصمُّ، أو كبرياء على غير حق.

كان فتحي يكتب بالعربية، وبالإنجليزية أحيانًا، وقد رأيته مرة في إحدى جولاتي الدعوية، فعرفت أنه يعمل في لندن في مجلة (أرابيا)، ومعه سكرتيره الأستاذ فهمي هويدي، وقد قضيتُ معه عدة ساعات، ثم سافرت إلى قطر أو إلى القاهرة.

وقبل ذلك، كنا قد اجتمعنا مع الصديق الحبيب الأستاذ عبد الحليم أبو شقة في بيروت، مجموعة من الإخوة الذين يثق بهم عبد الحليم، ومنهم الدكتور عز الدين إبراهيم، وزين العابدين الركابي، وجمال الدين عطية، وأحمد العسال، وعدد لم أعد أذكره، من أجل إنشاء مجلة عربية إسلامية فكرية علمية، عالمية المستوى، تخاطب العقل، وتحرك القلب، وتؤيد الدين، وتنشر الحقائق، وتفند الأباطيل، تنتمي إلى الفكر الإسلامي، ولكنها لا تشوِّهه بالتعصب والتقليد، ولا تعرِضه بطريقة الوعاظ، الذين يرغبون ويرهبون، فهؤلاء لهم محلاتهم، ولهم سوقهم، ولهم رجالهم.

لا بد من هذه المجلة التي تدعو إلى (الاجتهاد) وإلى (التجديد) وإلى (التحرير) لتنهض بالأمة، على أسس صحيحة، يقوم عليها رجال صادقون، يُعملون عقولهم، ويهتدون بما بين أيديهم، ممَّا خلفه السابقون من العلماء المحقِّقين، ولا يقبضون أيديهم عما عند الآخرين، مما لا يتنافى مع حقائق ما عندنا، فالحكمة ضالة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحق بها، يؤلفون بين العقل والنقل، ويجمعون بين التراث والمعاصرة، ويربطون بين الإيمان والعلم، يقرؤون الحق في سطور العلم، كما يقرؤونه في سطور الكتب المنزلة التي ختمت بالقرآن.

وكان الأستاذ عبد الحليم يدخر لرئاسة هذه المجلة في نظره الدكتور فتحي عثمان، الذي كان يراه أولى الناس بها، ولكن فتحي عثمان، أصبح بعيدًا عن المنطقة، ولا بد من البحث عن بديل غيره، وقد اتفق الحاضرون على أن يكون

الأخ الباحث المدقِّق في الشـرع والقانـون الدكتور جمـال الدين عطية هو المرشح لرئاسة تحرير المجلة.

ولقيت في جامعة قطر مرة من المرات، وأنا عميد لكلية الشريعة والدراسات الإسـلامية في جامعة قطر، الدكتور فتحي عثمان، فقد شاورني الدكتور محمد إبراهيم كاظم مدير الجامعة، فـي دعوة الدكتور فتحي، ورحبت باقتراحه جدًّا، وكانت له محاضرة، قدَّمه فيها الدكتور جمال عطيـة، وأنعِم به وأكرِم! ولكني كنتُ أودُّ أن أقدِّمه أنا بنفسي، لما له عليَّ من حقوق، وما أعرفه عنه مما لا يعرفه الكثيرون، ولكن كان الدكتور جمال وافيًا بالمراد على كل حال.

وقد التقيتُ بالأستاذ الدكتور فتحي في لوس أنجلوس، حينما زرتها في إحدى المـرات، وجدتـه غريقًا فيمـا يعده ويحضـره ويكتبـه للمؤتمرات والجامعات التي يزورها، وعرفت أنه مصمِّم على البقاء في الغرب عامة، وفي أمريكا خاصة ما بقي من عمره.

وآخر مرة رأيتُه فيها حين دعتنا جمعية سانت جديو بإيطاليا لحضور إحدى الجلسات الحوارية بين الإسلام والمسـيحية في مدينة لشبونة بإسبانيا، وقد دعت الدكتور فتحي، ودعت عددًا من العلماء والباحثين والدارسـين، وكان فرحي به كبيرًا، وسروري بلقائه بعدما غاب عني فترة، من أخصب أيام العمر، وكانت معه زوجته، على ما أذكر. وكل عائلته زوجته وابنته الوحيدة، التي لم يرزق غيرها، ولم يطلب غيرها.

كان هذا آخر لقاء بيننا، حتى فرَّق بيننـا الموت، الذي كتبه الله على كل حي ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

والأسـتاذ الدكتور فتحي عثمان علمٌ من أعلام الفكر العربي والإسلامي المعاصر، وقد مكّنته خلفيته العلمية الموسوعية: من دراسة متعمقة متخصصة

في التاريخ الإسلامي، وقد أصدر فيه كتابه الأول: (أضواء على التاريخ الإسلامي)، وسجل فيه رسالته العلمية الشهيرة في التاريخ الإسلامي بجامعة بريستون، وهي في ثلاثة أجزاء على ما أذكر، ومن دراسته الأكاديمية في القانون في كلية الحقوق بجامعة الإسكندرية، وفيها درس الشريعة أيضًا، وله في دراسة الشريعة من صغره قراءات ودراسات وموازنات، في علوم القرآن والسنة والفقه وأصوله، أوصلته إلى القدرة على الفرز والتمييز والتفسير والترجيح، وتعددت دراساته الأكاديمية من الآداب والتاريخ مرورًا بالحقوق، وتجربته العملية الواسعة في مجالات الدعوة والثقافة والتربية، والتدريس والتأليف والصحافة، وصلاته الممتدة بكثير من العاملين على أرض الواقع، من طرح رؤية متميزة في كثير من المجالات.

وفي نهاية الستينيات انتقل إلى (الجزائر) في المغرب العربي، وهي في بدايات استقلالها، حيث عمل محاضرًا في جامعاتها، فكان يبهر الطلاب والطالبات، بما عنده من علم واسع، ومعرفة بالثقافات.

ثم سافر إلى (الولايات المتحدة)، حيث حصل على درجة الدكتوراه من جامعة بريستون، في التاريخ عام (١٩٧٦م) عند بلوغه (٤٩) عامًا.

وعمل بعدها محاضرًا بجامعة الرياض في المملكة العربية السعودية.

ومن هناك جاء إلى لندن في عام (١٩٨١م) حيث عمل رئيسًا لتحرير مجلة (أرابيا)، التابعة لوكالة الصحافة الإسلامية، حتى توقفت عن الصدور عام (١٩٨٦م)، وكان الأستاذ فهمي هويدي نائبًا له.

انتقل إلى أمريكا مع الدكتور حسان حتحوت عام (١٩٨٧م)، ومن الأسباب التي دعت عثمان لاتخاذ قرار الهجرة التامة بعدما عمل في مصر والجزائر والسعودية ولندن: يأسه من واقع الحركات الإسلامية، وتحركها الفكري البطيء، وكذلك واقع المجتمعات الإسلامية، وأمله في ذات الوقت

في دعوة الغرب إلي الإسـلام، تأثُّرًا بفكرة سطرها صاحب مدرسة (المنار) العلَّامة المجدد الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (الوحي المحمدي) مفادهـا: أن الغـرب المتحضر هو من يسـتطيع أن يحمل الإسـلام الحي المتكامل المتوازن الذي نؤمن به، وأن ينقله إلى العالم.

ولكنه تراجع في أواخر حياته عن فكرة (أسلمة الغرب)، لما رأى أمامه من عوائق هائلة، وعقبات كأداء، نفسـية واجتماعية وعصبية وسياسية، فاكتفى أو رضي أن يعيش مناديًا بفكرتين تحلان محلها: الأولى: هو السعي إلى الاتفاق على أخلاقيات عامة مع الغرب، والأخرى: هي أن يتعلم المسلمون ـ وبخاصة الإسلاميون منهم ـ كيفية الحوار مع الغرب؛ لأن من إشكالية الإسلاميين أنهم يناقشون الغرب من واقع خلفية أمور هي مسلمات بالنسبة للإسلامي، في حين أنها غير معترف بها أصلًا عند الغرب، الأمر الذي لا يساعد على حدوث أي تلاقٍ بينهما.

انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وواصل جهوده العلمية، وجهاده الفكري؛ حاملًا مشعله على مفترق طريقين:

أحدهما: متجه صوب المسلمين أنفسـهم، للارتفاع بوعيهم إلى مستوى إسلامهم الموجِّه للعالم كله، مناقشًا وطارحًا القضايا الحساسة: حقوق الإنسان، المرأة، العدالة الاجتماعية، الشورى والديمقراطية، الاجتهاد.. وغير ذلك كثير.

وثانيهما: متجه نحو الغربيين تعريفًا بالإسلام كما هو، لا كما ورثوا تصوره من تاريخهم، محاورًا بالتي هي أحسـن، ومبيِّنًا للأصول المشتركة للأديان، وصولًا إلى الرسالة الخاتمة، يساعده على ذلك ثقافته الخصبة، وعلمه الغزير، وإحاطته بالتاريخ بحكم تخصصه.

تُوفِّي في الصيف، ولم تُشِر صحف مصر إلى وفاته، وما علمتُ بوفاته إلا بعد مدة من أحد الإخوة، فتحدثت عنه في برنامجي الأسـبوعي في قناة (الجزيرة):

(الشـــريعة والحياة)، فرحمه الله وغفر له، وتقبّله في الأئمـــة الصادقين، والعلماء العاملين، والداعين إلى الله على صراط مستقيم.

بعد وفاته بأربعة أيام نشرت صحيفة (لوس أنجلوس تايمز) مقالًا، وصفت فيه الراحل الكريم بأنه أكثر العلماء تأثيرًا في العالم الإســـلامي، وذكرت أنه نموذج فذ لعلماء المسلمين الذين ينطلقون من رؤية ليبرالية وإنسانية عميقة، تســـتند إلى تعاليم الإســـلام ونهجه، وتبعتها بعد ذلك بأربعـــة أيام صحيفة (نيويورك تايمز)، التي نشرت مقالًا مســـتفيضًا عن الكاتب والمفكر الراحل، وعدَّتْه أحد أهم علامات تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين.

صدر للراحل أكثر من (٢٥) كتابًا معظمهـــا باللغة الإنجليزية، لكن مؤلَّفه (الفكر الإســـلامي والتطور)، الذي صدر في بداية الستينيات، يعد أهم وأبرز مؤلفاته، حيث قدم فيه لأول مرة أطروحـــات جريئة حول إعادة صياغة الفكر الإســـلامي بما يتواءم مع العصـــر، خصوصًا فيمـــا يتعلق بحقوق الإنســـان والديمقراطية وحقوق غير المسلمين.

لقد كان الراحل رَحِمَهُ اللَّهُ كاتبًا ومفكِّرًا ومعلمًا وخطيبًا وداعية، وكان مناصرًا للقضايا الإنســـانية، مجتهدًا في القضايا المعاصرة، خلَّف العديد من الكتب، ومئات ـ إن لم يكن آلاف ـ الرســـائل والمحاضرات في شتى مواضيع الفكر الإنســـاني، كان جُلُّها حول القرآن، ومحاولات استجلاء معانيه، وتنزيل قيمه على واقع المسلمين اليوم.

وفي الجزء الثاني من مذكراتي كلمات عن الدكتور محمد فتحي عثمان، ذكرتها بمناســـبة نشـــاطنا نحن الشـــبان الإخوان في فترة الهدوء في السجن الحربي، قلت فيها:

«وكان الأخ فتحي عثمان من السباقين إلى النقد الذاتي، ودعوتنا إلى أن نسأل أنفسنا: لماذا؟ وما العلاج؟.

وأذكر أني زرته في زنزانته في الدور الثاني، وكان من رفقائه في الزنزانة الأخ الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر، وكان سؤاله: ما الذي تحتاج إليه جماعة الإخوان في المستقبل، والذي يجب أن نركز عليه؟ وأذكر أننا اتفقنا على وجوب الاهتمام بالجانب العلمي والفكري، وتعميقه في أفراد الجماعة، الذين تغلب عليهم السطحية والعاطفية والتعميمية، وأن من الضروري أن تخطط الجماعة لمستقبلها، بناء على معرفة حاضرها، معرفة علمية قائمة على الإحصاء والأرقام والدراسة والمقارنة والتحليل. ومن ذلك: أن تحدد مواقفها وعلاقتها بالآخرين ـ ومنهم الحكومة ـ تحديدًا قائمًا على أسس شرعية وموضوعية، لا أن تترك الأمور تسيِّرها عواطف الرضا أو الغضب، وردود الأفعال. وهذا لا يعني إغفال الجانب الرباني في التربية؛ فهو ضروري للدعوة، وهو الذي يحقق شعارها الأول: الله غايتنا»[1].

* * *

(١) ابن القرية والكتاب.. ملامح سيرة ومسيرة، الجزء الثاني، ص ١٩٣.



الشيخ عبد المعز عبد الستار
لسان الدعوة والحركة والأمة
(ت: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م)

ودَّعت الأمة الإسلامية على اتِّساع أوطانها في يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى (١٤٣٢هـ)، الموافق الثالث عشر من إبريل (٢٠١١م)، عَلَمًا من أعلام الدعوة الإسلامية، وقُطبًا من أقطاب الحركة الإسلامية، وفارسًا من فرسان علماء الأزهر الشـــريف، ورائدًا من رواد التوجيه التربوي في دولة قطـــر، حيث رأس التوجيه التربوي للعلوم الشرعية لعدة سنين في وزارة التربية والتعليم في قطر.

• العالم الداعية الرباني:

إنه الداعية الإسلامي الكبير الشيخ عبد المعز عبد الستار، الذي بارك الله في عمره، فمات عن نحو (٩٥) عامًا، قضاها في العلم والعمل والتعليم، وقد قال ســـلفنا رضي الله عنهم: العالم الرباني هو الذي يَعْلم ويَعمَل ويُعلِّم، فمن جمع بين هذه الثلاثة فهو الرباني، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

أما من عَمِل بغير علم، أو عَلِم بغير عمل، أو عَلِم وعمل ولم يُعلِّم الناس ما عنده ـ أو بعبارة أخرى: لم يدعُ الناس إلى مـــا عنده ـ فليس من الربانيين المعدودين!.

• الانضمام المبكر إلى الإخوان:

وهو من علماء الأزهر الذين التحقوا بدعوة الإخوان، فقبل أن يتخرج في كلية أصول الدين، التقى الإمام الشهيد حسن البنا لأول مرة عام (١٩٣٧م)، وهو

طالب في الكلية، عندما ذهب الإمام ليودع بعثتي حج الأزهر وجامعته في محطة القطار، وكان الشيخ عبد المعز أحد المشتركين في بعثة الجامعة.

• **خطيب موهوب يملك كل المؤهلات:**

ولكن الشيخ عبد المعز نذر حياته للدعوة إلى الإسلام منذ شبابه، فقد عرف أن الله قد آتاه موهبة الخطابة، والتأثير في الناس، وكان الشيخ عبد المعز كأنما أعده الله إعدادًا خاصًا ليكون خطيب الأمة الإسلامية في محافلها الكبرى، فقد هيَّأ الله له كل الأسباب الشخصية المطلوبة، من حفظ القرآن وتجويده في الصغر، ومن حسن إخراج الحروف العربية من مخارجها، لا يغلط في الحروف التي يجب إخراج اللسان فيها من الثاء والذال والظاء، أو حروف القلقلة في القرآن، أو حروف الإدغام والإخفاء.

وكانت كل الملكات والمواهب التي للخطيب الموهوب المؤثر متوافرة فيه، من حيث الصوتُ الجهوري، والقامة الطويلة، والوجه البشوش، والقدرة على الإشارة والتلويح ذات اليمين وذات الشمال، كما أن لديه من الثروة اللغوية والأدبية، والمعاني القرآنية والنبوية، والتاريخية والواقعية، ما يجعل تراثه وحصيلته ومعارفه قادرة على أن تمدَّه بما يريد، وكانت ثروته هذه عميقة ممتدة في آفاق الآداب العربية، قديمها ووسيطها وحديثها، فقد كانت له قراءات أدبية في كتب الأدب القديمة؛ مثل: العقد الفريد، وكتب الجاحظ، وابن قُتَيبة، وأبي عليٍّ القالي، والكامل للمبرد.. وفي غيرها، كما أنه كان يقرأ باستمرار لأديب العربية الرافعي، وللمنفلوطي، وللشيخ محمد عبده في (العروة الوثقى)، وغيرهم، ويحفظ لشعراء العرب القدماء والمحدثين، من الشعر الجزل، ما يجعل لعبارته رونقًا ومذاقًا، ويشهد أن له نفحة أدبية تنبئ له في عالم الأدب بمستقبل مرموق، وكان شجاعًا لا يخاف ولا يتصدع، ولا يخنع أمام الطغاة، أو الفراعين.

• **ابن الشرقية:**

وُلِدَ هذا الفتى في مدينة مديرية (محافظة) فاقوس في الشـــرقية، وحفظ القرآن الكريم في كُتَّابها، والتحق بعد حفظه بمعهد الزقازيق الديني، ثم كلية أصول الدين، حيـــث التقى فيها بصديقه وزميله الشـــيخ محمد الغزالي، كما التقى بإخوانه الشيخ زكريا الزوكة والشيخ إسماعيل حمدي.

• **أول ما سمعت الشيخ عبد المعز:**

عرفتُ الشيخ عبد المعز أول ما عرفته عن طريق المشاهدة والسماع، فقد كُنَّا طلاب الإخوان في المعاهد الثانوية الأزهرية، ننتهز الفرص لنزور القاهرة، وكل مهمتنا من زيارة القاهرة أن نزور المركز العام للإخوان، لننعم بلقاء الأستاذ حسن البنا، ونســـعد بحضور حديثه الأســـبوعي، الذي يجتمع الألوف للاستماع إليه، وكثيرون منهم جـــاؤوا من خارج القاهرة، ولكني ـ لســـوء حظي ـ لم أحظَ مرةً واحدة بلقاء حسن البنا، في حديث من أحاديث الثلاثاء، بل كثيرًا ما أجده خارج القاهرة، أو يكون حديثه في غير يوم الثلاثاء، أو يكون في إجازة من الحديث.

ولكن كان الإخوة في المركـــز العام كثيرًا ما يدلُّوننـــا على أماكن خارج المركز العام فيها نشـــاط لدُعاة مرموقين، وقد دلُّونـــا في إحدى المرَّات على حفل في دار المعاملات الإسلامية في شارع محمد علي، يتحدث فيها الشاب الأزهري، والخطيب البارع: عبد المعز عبد الستار، وذلك في منتصف النهار، ودلونـــا مرة أخرى علـــى احتفال بالمولد النبوي في شـــعبة الإخوان بقســـم (القلعة)، وسيخطب فيه الأستاذ عز الدين إبراهيم، الداعية المعروف من شباب جامعة القاهرة، ومعه داعية معروف من شباب الأزهر اسمه صادق حميدة.

وذهبتُ لكلا الحفلين، وكان أولهما الحفل الذي فيه الشـــيخ عبد المعز، وقد دخلت وهو يتحدث بصوته القوي الجهير، الذي ملأ أذني وعقلي وقلبي، وهو يشـــير بيده اليمنى إلى أعلى، إشـــارة أصبحت من مميـــزات حركته في

خطابته، وهو يشير إلى معان بسيطة من سورة النور في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

سمعت حديث الشيخ وأعجبت به، ولكنه بعد أن أنهى حديثه خرج بسرعة، فلم أستطع التعرُّف عليه، ولم يُتَحْ لنا اللقاء بالشَّيْخ، إلى أن التقينا من وراء ستار في معتقل هايكستب، سمعنا صوته ولم نره.

• **موقف الشيخ أيام ضربنا في معتقل الهايكستب:**

فقد اعتقلنا في أيام الملكية في سجن قسم أول طنطا، بعد حلِّ الإخوان في (١٩٤٨/١٢/٨م)، وبقينا مدة طويلة في سجن القسم، أنا والإخوة محمد الدمرداش مراد، وأحمد العسال، ومصباح محمد عبده، وعدد من إخوان طنطا أو الغربية الكبار، مثل: الأستاذ حسني الزمزمي، ومحمد فكيه، وشفيق باشا، وإبراهيم الباجوري، والحاج محمود عبية[1].

وقد بقينا في سجن قسم أول طنطا أكثر من شهر، ثم رحلنا منه يوم (١٩٤٩/٢/١٢م)، وقرأنا الصحف بعد أن حرمنا منها تلك المدة كلها، وفوجئنا بالنبأ الفاجع: اغتيال الشيخ حسن البنا، مقتل الشيخ البنا أمام جمعية الشبان المسلمين، ونقلنا إلى مكان في أطراف القاهرة، عرفنا أن اسمه (الهايكستب)، وهو مكان كان معسكرًا لجنود الإنجليز في أيام الحرب، وقد وُضِعَ فيه عدد من الإخوان، وبعض الشيوعيين واليساريين ومنهم يهود، مثل: هنري كوريل، المليونير الإيطالي، مؤسس جماعة (حَدِتُّو) الشيوعية، وحدتو اختصار لـ(الحركة الديمقراطية التحررية الوطنية).

---

(١) كان الحاج محمود عبية ـ الذي كانوا يسمونه: ابن حزم، لتمسكه كثيرًا بمذهبه ـ من مدينة شربين التي كان تابعة لمحافظة الغربية.

وكان معنا في هذا المعتقل: الشـيخ محمد جبـر التميمي، والدكتور حسـان حتحوت، والشـيخ عبد الودود شـلبي، وعدد من طلاب القسم الابتدائي الأزهري بمعهـد دمياط الديني، أذكر منهـم أصغر طالب فيهم محمد أحمد العزب.

وكان بجوارنا العنبر الآخر الذي فيه عدد من كبار الإخوان، عزلوهم عنَّا، وقد ضيقوا عليهم في المأكل والمشـرب، منهم: الأسـتاذ الشيخ عبد المعز عبد الستار، والأستاذ عبد الحكيم عابدين، وعدد من الإخوة، وقد سمعت من الشيخ عبد المعز أنه قال: حاولنا يومًا أن نشرب من الماء المخزن في (سيفون) المرحاض، فوجدناه كأنه طين لا يمكن شربه.

وكنا سـمعنا أنهم ركبوا لهم (أجهزة تسجيل) خفية، تسجل أحاديثهم بعضهم مع بعض، فأردنا أن نبلغهم بذلك، فأبلغناهم بذلك بطريقة ملحنة كأنما نقرأ القرآن، حتى لا يحس الحراس، وقد فهموا عنا ما أردنا.

وقد بقينا في (الهايكستب) إلى يوم (العلقة) الشهيرة، حيث أرسلوا إلينا جماعة من عساكر (بلوك النظام) لتأديبنا، وكان الجنود يوجِّهون ضرباتهم إلى الشـيخ عبد المعز، وهو يصرخ فيهم: (اضربوا يا أنـذال، اضربوا يا كلاب). وبعض الإخوة استجار بالملك، قائلًا: أنا في عرض جلالة الملك!.

وانفضت المعركة المفتعلة بقليل من الإصابات والجراحات الخفيفة، وكثير من العجب والاستغراب لما حدث، ولكن في عهود الظلم والاستبداد لا يُستغرب أي شيء يقع؛ لأنه لا يوجد من يحاسب الظالم، ولا من ينصف المظلوم.

- **قصيدتي عن المعتقلين في معركة الضرب:**

وقد تحدثت عن هذه (العلقة) في مذكراتي، وفي قصيدتي (هجمة الجند)، التي قلت فيما قلت فيها:

ما للجنودِ ذَوِي العصيِّ وما لي؟ ما كنتُ بالبَاغِي ولا المحتالِ!
ما بالُهُـمْ هجموا علينـا بغتةً متوثِّبيـن كهجمةِ الأغـوالِ؟!
قد كشَّروا عن نابِهم، وتقدَّموا ببسـالةٍ للثَّـأر مـن أمثالـي!

وكان مما قلته فيها أصف به ما تعرض له الشـيخ عبد المعز، وشـموخه واعتزازه على جلاديه:

وبِقُرْبِنا شـيخٌ يجلجلُ صوتُه في الجندِ يصرخُ صرخةَ الرِّئبالِ
عبدُ المعزِّ يقولُ: دونكمو اضربوا ضربَ الخسيسِ لشامخٍ متعالِ

• **نقلُنا إلى معتقل الطور:**

وجُمِعنا بعد ذلك أهل (الهايكستب) جميعًا، ونُقِلْنا إلى (معتقل الطور)، ولكن الشيخ عبد المعز وُضِعَ في حذاء رقم (١)، حيث اتخذه المعتقلون إمامًا لهم، وأما أنا فوضعوني في حذاء رقم (٢)، وكان إمامه الشيخ الغزالي، وهو في الحقيقة أحب إليَّ، وأهـوى عندي، فقد كنت قرأت لـه بعض المقالات في صحيفة الإخوان، وقرأت له كتاب (الإسـلام وأوضاعنا الاقتصادية)، وإن لم ألقه أول مرة إلَّا في الباخرة (عايدة) التي ركبناها باسـم الله مجراها ومرساها إلى معتقل الطور.

• **الشيخ إمام في جانب من معتقل الطور:**

وجاء شهر رمضان، ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقـرة: ١٨٥]، وهو شهر الصيام والقيام، والذكر والدعاء والاستغفار، وهي في الطور أصفى وأحلى ما يشعر به المؤمنون.

لم أسـعد بالشيخ عبد المعز في الطور، ولكن سـعد به رفيقي وصديقي أحمد العسَّال، الذي حدثني عنه حديث المعجَب المعتزِّ به، وأسعدني حديثه، وقد بقي العسَّال بعدي عدة أسابيع، ثم أُفرِج عنه.

• **الشيخ في مذكراتي:**

وقد ذكرتُ الشيخَ عبد المعز أكثر من مرة في ذكرياتي، منها:

«وفي سنة (١٩٤٦م) أرسل الإمامُ حسن البنا: العالمَ الداعية الشيخ عبد المعز عبد الستار، وهو في ريعان شبابه، ليطوف بمدن فلسطين مشرِّقًا ومغربًا، لتنبيه العقول، وإحياء القلوب، وإشعال المشاعر، وتجميع الصفوف، وقد بقي الشيخ عبد المعز ـ كما سمعتُ منه ـ شهرين كاملين في فلسطين، ولكنه عاد من هناك يحمل همًّا كبيرًا، ويُشفق على مصير فلسطين؛ فحينما زار المسجد الأقصى، لم يجد فيه غير صفين من المصلين أو ثلاثة، فآلمه ذلك أشدَّ الإيلام، ولما قال لبعض المقدسيِّين ذلك، قال له: صحيحٌ أنَّ الصلاة ثقيلة عليهم، ولكن إذا ناديتهم إلى المعركة لبُّوا النداء في سرعة البرق. وقال لهم الشيخ: إن أول الجهاد أن نجاهد أنفسنا، وأن ننتصر عليها، والله تعالى يقول: ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وممَّا لاحظه الشيخ أن القادة كلهم غائبون؛ الحاج أمين الحسيني منفيٌّ في الخارج، والآخرون متفرقون، كما لاحظ أن اليهود يعملون ليل نهار، وفي غاية من اليقظة والاستعداد، والعرب ليسوا على هذا المستوى، ولهذا حين عاد إلى مصر قال للأستاذ البنا: الحقيقة أن دولة اليهود قائمة بالفعل، ولا ينقصها إلا الإعلان عنها!»[1].

• **دفاع الشيخ عن القدس والأقصى:**

كان ممَّا تهيَّأ له الشيخُ عبد المعز: الدفاعُ عن قضية القدس والمسجد الأقصى، وغزة وفلسطين كلها، فهي من القضايا التي عرفها بالرؤية والزيارة والوقائع مبكرًا، في بداية حياته العملية والعلمية: حين كلفه الإمام الشهيد حسن البنا أن يذهب إلى الإخوة في فلسطين، ليحييهم ويحركهم، ويبعثهم

---

(١) مذكرات ابن القرية والكتاب، الجزء الأول، ص ٢٦٢.

ويجمعهم، ويوقظ فيهم الآمال، وينعش فيهم العزائم، ويرفع الهمم التي أناخ بها القنوط، وأثقلتها هموم العيش، ودوَّختها مآسي الاختلاف والتفرُّق، فرأى في أول الأمر ما كاد يُميت عزمه النفسي، وإيمانه القوي، وتصميمه الأبيَّ، ولكنه صبر وصابر، ورابط واتقى الله تعالى، كما أمره القرآن في آخر آية في سورة أحد، سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

كانت هذه المواجهة مع قصة فلسطين منذ فجر حياته الوطنية، فتحًا له، ليبحث عمَّا يُكِنُّه اليهود لإقامة هذه الدولة، التي يزعمون أن الله تعالى أعطاها لهم، وأنها ميراث لهم من الله، وأن أحدًا لا يستطيع أن يأخذه منهم، كما قضى الربُّ ﷻ.

وقد عمل اليهود على ذلك، وتسلَّطوا على السياسة والساسة، لتُمِدَّهم بما يحقق أحلامهم، وينفِّذ وعودهم، لمَّا سعَوْا في ذلك في الحرب العالمية الأولى ليحصلوا على وعد من آرثر جيمس بلفور وزير خارجية إنجلترا، وهو ما سُمِّي (وعد بلفور).

وظلوا يحاولون استخدام أسفار التوراة الخمسة، وما بعدها من مزامير داود، وأسفار الرسل والأنبياء، ليتخذوا منها تُكأة لهم، لاحتلال ما يريدون احتلاله من أرض فلسطين، والسطو على بلاد قوم ليست لهم، وليس لهم فيها أي مساحة ولو صغرت.

- **فترة ما بعد المعتقل:**

«وخرج الإخوان من معتقلاتهم أشد عزمًا، وأقوى إصرارًا على دعوتهم، واستمساكًا بعروتها الوثقى، ونشاطًا في سبيلها.

وكانت هذه الفترة من أخصب الفترات في تاريخ الدعوة، فلم يكن للدعوة دور ولا لافتات، ولا أية مظاهر رسمية، وإنما كان هناك عمل هادئ صامت،

يقوم به أبناء الدعوة في كل مكان، وخصوصًا بين الطلاب، وكان العمل أشبه ببذر البذور الطيبة في أرض خصبة، بأيدٍ أمينة، وكان لا بد أن يؤتي أكله.

وكنا نكسب باستمرار شبابًا وجنودًا جددًا ينضمون إلى الدعوة مخلصين، لا يرجون إلا الله والدار الآخرة، وقد كان هذا أمرًا جليًّا بالنسبة لطلاب الجامعة والأزهر، وقد جمعت بيننا لقاءات دعوية للتفاهم وتنسيق العمل المشترك.

وكان من أهم جولات النشاط العلني الذي قمت به في هذه الفترة: تأييد مرشحي الإخوان في الانتخابات؛ فقد رُشِّحَ عددٌ منهم في بعض الدوائر، وكان ذلك لغاية مهمة، وهي أن الانتخابات تتيح لهم ـ رسميًّا ـ الحديث عن الدعوة وأهدافها ومنجزاتها ومستقبلها، وإن لم يكن لديهم أمل في النجاح.

رُشِّح الشيخ الباقوري في دائرة القلعة، والأستاذ طاهر الخشاب في العباسية، والأستاذ مصطفى مؤمن في الجيزة، والأستاذ علي شحاتة في شبرا، والشيخ عبد المعز عبد الستار في فاقوس، والأستاذ فهمي أبو غدير في الواسطى وأسيوط.

وكنا ننتقل من دائرة إلى أخرى لنشارك في المسيرات المؤيدة، أو في حملات الدعاية، بدافع من أنفسنا، ورغبة صادقة في مساندة إخواننا، الذين لا يملكون من وسائل الدعاية والتجنيد ما يملك خصومهم المرشحون»[1].

وقد كُلِّفْتُ من الإخوان بالسفر إلى أسيوط لأسهم في تأييد مرشح الدعوة المحامي فهمي أبو غدير.

- **سفري إلى فاقوس لتأييد الشيخ عبد المعز:**

«وبعد رجوعي من أسيوط كُلِّفت أن أسافر إلى (فاقوس) بالشرقية، لتأييد مرشحها فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، وبقيت هناك نحو أسبوع، أنتقل

---

(١) ابن القرية والكتاب، الجزء الأول، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

في أحياء فاقوس، وفي قرى الدائرة، لمساندة ابنها البار، وعالمها الجليل، وخطيبها المُفَوَّه، الذي دوَّى صوته في جنبات الأزهر، وفي أنحاء مصر، ووصل إلى فلسطين، فهزَّ المنابر، وأيقظ المشاعر، وزلزل عروش الظالمين.

وعدت بعد ذلك إلى القاهرة لأواصل نشاطي الدراسي والدعوي.

وقد جرت الانتخاب بعد أيام قليلة، ولم ينجح أيُّ مرشح من الإخوان، وهو ما كان متوقَّعًا؛ فالانتخابات فنٌّ لم يُتقِنه الإخوان بعدُ، ويحتاج إلى تهيئة وإعداد طويل»[1].

استمعت إلى الشيخ عبد المعز وهو يخطب الجمعة في فاقوس، وسمعته وهو يخطب في بعض أعيان فاقوس بمناسبة ترشحه، وفي بعض قرى فاقوس، فكان دائمًا هو فارس الميدان، وصاحب الصوت الأعلى.

وظل الشيخ عبد المعز في مكانه في قسم الدعوة والإرشاد، وهو يتبع الأزهر في إدارته، ولكنه كان مكينًا في قلوب الإخوان، لما يعرفون من منزلته عند الإمام الشهيد حسن البنا.

- **الشيخ عضو في مكتب الإرشاد:**

وكان الشيخ عبد المعز عضوًا في مكتب الإرشاد الثاني، الذي تشكل مع تولي الأستاذ حسن الهضيبي منصب المرشد العام، وكان معه في عضوية المكتب كل من محمد حامد أبو النصر، وعمر التلمساني، وعبد القادر عودة، وعبد الرحمٰن البنا، وعبد الحكيم عابدين، ومحمد فرغلي، وحسين كمال الدين، ومحمد خميس حميدة، وكمال خليفة، وأحمد شِريت، وعبد العزيز عطية، بجانب مُنِير أمين دلَّة، وصالح أبو رقيق، والبهي الخولي، وعرف رموز العمل الوطني والإسلامي الصادقين خلال القرن العشرين، كالحاج أمين الحسيني، والشيخ عزّ الدين القسّام وأمثالهما.

---

(١) ابن القرية والكتاب، الجزء الأول، ص ٤٣٥.

• **اختلاف الثورة مع الإخوان:**

وقد قامت ثورة (٢٣ يوليو ١٩٥٢م)، قام بها الجيش، وعاونه الإخوان، وكان على رأس الانقلاب ـ كما سموه ـ اللواء الركن محمد نجيب، ثم ظهر القائد الحقيقي للثورة: جمال عبد الناصر، الذي أبدى للإخوان تجاوبًا وتأييدًا أول الأمر، ثم بدأ الجو سريعًا في التعكر، فقد كان عبد الناصر يحب أن تكون مصر كلها في يده، يفتحها كما يشاء، ويغلقها متى يشاء، ولذلك سرعان ما اختلف مع الإخوان في عدد من الأمور، ووسع وزاد الخلاف يومًا بعد يوم.

وكان أشد خلاف الثورة مع مرشد الإخوان الأستاذ حسن الهضيبي، وكان بعض الإخوان لا يرون ضرورة للخلاف مع الثورة، وكان هؤلاء مجموعة من قدامى الإخوان، منهم الشيخ عبد المعز الذي قال ما قال عندما قُدِّم للمحاكمة هو وعدد من الإخوان.

ولقد رجعت إلى ما كتبته بقلمي في مذكراتي الخاصة (ابن القرية والكتاب) وما أوردته فيه عن هذه الفتنة التي تركت آثارها داخل الإخوان أولًا، ثم عافى الله الجماعة منها، واستمر الصف قائمًا ثابتًا في سبيل الدعوة.

• **انقسام داخل الإخوان:**

وهذا ما كتبته:

أشد ما يصيب الجماعات خطرًا: أن ينقسم بعضها على بعض، وخصوصًا في ساعات الشدة، وأيام الحرج والأزمة. ويزداد هذا الأمر خطرًا بالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين، حيث يقوم كيانها أساسًا على الأخوة والترابط، حتى إن اسم الجماعة نفسه ليدل على ذلك بجلاء (الإخوان المسلمون).

وكان مؤسس الجماعة الأستاذ البنا حريصًا كل الحرص على توثيق روابط الجماعة: فكريًا وعاطفيًا وتنظيميًا، وكان يقول: دعوتنا تقوم على: الفهم الدقيق، والإيمان العميق، والحب الوثيق. وكان في كل ثلاثاء يَلْقى فيه الإخوان

يبدأ حديثه إليهم بما سماه (عاطفة الثلاثاء)، وهي كلمات يُحيي فيها المشاعر الإيمانية، ويلهب فيها العواطف الأَخَوية، بأحاديث الحب في الله، والتجالس في الله، والتزاور في الله.

ولقد كان عبد الناصر حريصًا على أن يقسم صفوف الإخوان، ليضرب بعضهم ببعض، ويستفيد من خلافهم فيما بينهم. ولطالما حاول ذلك وباءت محاولاته بالإخفاق.

واليوم وقد وجدت محاولَتُه الجوَّ الملائم، والمحضن الذي تفرخ فيه وسوساته للجماعة ولقياداتها المختلفة، وساعد على هذا اختفاء المرشد عن ساحة الأحداث، ولجوءُه إلى مخبأ غير معروف، يأوي فيه إلى أمد غير معلوم.

ولقد احتدم الصراع بين الإخوان وحكومة الثورة، وكل يوم يمرُّ؛ يتطاير الشرر، ويتزايد الضرر، ويتفاقم الخطر.

وكان كثيرٌ من الإخوان القدامى يتوجسون شرًّا من استمرار الصراع بين الإخوان والثورة، ويرون ضرورة العمل على رأب الصدع، ورتق الفتق بين الفريقين، والصلح دائمًا خيرٌ، والخلاف أبدًا شرٌّ.

وكان شيوخنا في الدعوة: البهي الخولي، وعبد المعز عبد الستار، ومحمد الغزالي، وغيرهم من قدامى الإخوان، وممن لهم قدم راسخة في الدعوة على هذا الرأي. وكانت عواطفي في أول الأمر أنا وأخي أحمد العسال معهم، إشفاقًا على الجماعة. أو هكذا كُنَّا نتصور. وقد قيل: العاقل من يتقن فنَّ الخروج من المضيق، وأعقل منه من لا يدخل المضيق أصلًا.

كانت تلك الأيام من أشق الأيام علينا، أنا وأخي أحمد العسال، وبعض شباب الدعوة، المتأثرين بالأستاذ البهي وشيوخ الدعوة المعروفين، أمثال: الشيخ محمد الغزالي، والشيخ عبد المعز عبد الستار، والشيخ سيد سابق وأمثالهم، وقد كانت عواطفنا معهم من ناحية، يؤكدها عاطفة الإشفاق على

الدعوة ومستقبلها أن تدخل معركة غير متكافئة مع ثورة عسكرية متجبرة، معركة لا يعلم مصيرها إلا الله. فلو أمكن الصلح بين الجماعة والثورة، واللقاء في منتصف الطريق، بدل الصدام المجهول النتائج، ربما كان ذلك خيرًا.

وشاء القدر الأعلى أن يخرجنا من هذه الحيرة والأسى الذي أرق جفوننا: حادث خطير، اهتزت له أركان مصر، وهو حادث المنشية، الذي على إثره اقتيد الإخوان جميعًا إلى المعتقل، وفي هذه المحنة تعرض الشيخ للأذى الشديد، شأنه في ذلك شأن باقي إخوانه الذين مرت عليهم هذه الشدة العظيمة.

وفي (٤ ديسمبر ١٩٥٤م) أصدرت محكمة الشعب أول أحكامها ضد الذين اشتركوا في محاولة القتل، ورؤساء كل من الجهاز السري والجمعية العلنية، فحكم على سبعة من أعضاء مكتب الإرشاد كلهم من مستشاري الهضيبي بالسجن مدى الحياة مع الأشغال الشاقة، وهم: كمال خليفة، ومحمد خميس حميدة، وأحمد عبد العزيز عطية، وحسين كمال الدين، ومنير الدلة، وحامد أبو النصر، وصالح أبو رقيق، كما حكم على عضوين آخرين من أعضاء المكتب بالسجن خمسة عشر عامًا، وهما: عمر التلمساني، وأحمد شريت. وبُرِّئت ساحة ثلاثة أعضاء من المكتب، كلهم من أصدقاء الحكومة وهم: عبد الرحمٰن البنا، وعبد المعز عبد الستار، والبهي الخولي. وحكم بالإعدام شنقًا على سبعة من أعضاء الجمعية وهم: حسن الهضيبي، ومحمود عبد اللطيف، وهنداوي دوير، وإبراهيم الطيب، ويوسف طلعت، والشيخ محمد فرغلي، وعبد القادر عودة، ثم خفف مجلس الثورة الحكم على الهضيبي إلى السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة، بحجة أنه ربما وقع تحت تأثير من حوله، وهو رأي يعزِّزه «ضعف صحته وكبر سنه». ورفضت الحكومة التماسًا لعبد القادر عودة بإعادة النظر في القضية.

- **رحلة الشيخ عبد المعز إلى قطر:**

ثم جاء الشيخ عبد المعز إلى قطر عامَ جِئت، ليعمل في التوجيه والتأليف والإشراف على مناهج العلوم الشرعية، مع العالم القطري الشهير: عبد الله بن

تركي، الذي كان هو المفتش الوحيد للعلوم الشرعية، وانتهى عمله الوظيفي رئيسًا لتوجيه العلوم الشرعية، ولقي من تقدير الدولة وشيوخها ووجهائها وأمرائها وشعبها كل التقدير والإكرام.

وكانت كلمات الشيخ في خطبه ومواعظه، كأنها حبات عقد من الدر أو اللؤلؤ، تصدر من فمه كأنها زخات مطر نازل من السماء، وأحيانًا كأنها شعل تلتهب، تثير العزائم، وتحفز الهمم، وتطهر القلوب، وتحيي الأرواح إذا أصابها الجمود.

كان وجود الشيخ معنا في قطر كأنما هو ظلة نستظلُّ بها، وواحة نلجأ إليها عند وعثاء السفر، لنستريح فيها، يأوي إليه من كان ذا حاجة، ويسأله من كان له طلب، وحتى حين وهن عظمه واشتعل رأسه شيبًا، كان لا يبخل عن إجابة من يطلبه، أو إغاثة من يستغيثه.

- **الإخوة الهنود ولجوءُهم إلى الشيخ:**

وكم لجأ إليه إخواننا الهنود في ولاية (كيرلا) الهندية، التي يعيش فيها آلاف من المسلمين في دولة قطر، وكانت لهم مشروعات علمية وتربوية وإغاثية، كبيرة ومتوسطة وصغيرة، وكم استُقْبِلنا من أبناء كيرلا، وناصرناهم، وكان الشيخ مِن أهم مَن ناصرهم، وعاونه الشيوخ والحكام وبعض رجال المال الذين لم يستعبدهم المال، وإنما جعلوه لله تعالى، ولدينه ولخلقه، وتحقيق عبادته.

وكم كان بيت الشيخ دائمًا يلتقي بهؤلاء الضيوف، كلما جاؤوا سارع الشيخ إلى استضافتهم، ودعانا ودعا عددًا من إخواننا لمشاركتهم. وكان الثريد واللحم والخضروات هي المائدة المفضلة لدى الشيخ وزوَّاره.

- **اجتماعنا كل عيد في منزل الشيخ:**

وكنا في العيد كثيرًا ما نصلي في المصلى الذي بجوار بيته، ثم نخرج من صلاة العيد ووجهتنا منزل الشيخ، وقد أعدوا لنا: وجبة الإفطار في العيد:

التمر والجبن والبيض والحلاوة والفول المدمس، وكل ما لذ وطاب، حتى إذا أكل منا من أكل، وشرب منا من شـــرب، ذهبنا لندرك السلام على أمير البلاد في قطر.

وكان وجودنا في قطر معًا منذ سنة (١٣٨١هـ) الموافق (١٩٦١م)، حيث جئنا من القاهرة في طائرة واحدة، إلى وزارة معارف قطر، الشـــيخ عبد المعز جاء ليعمل مساعدًا للشـــيخ عبد الله بن تركي المفتش الوحيد للعلوم الشرعية في قطر، وأنا جئْت لأُعيَّن مديرًا للمعهد الديني الثانوي الذي ابتدأ منذ سنة بصفين كانا فيه قديمًا، ويحتاج إلى صف جديد، وكنت أشكو من عدم وجود طلاب يرغبون في المعهد الديني.

• **تعاون بيني وبين الشيخ طوال مدة الإقامة في قطر:**

كان العمل في قطر فرصة للتعارف والتعاون أكثر بيني وبين الشـــيخ عبد المعز، وبيننا وبين الإخوة مدرسي العلوم الشرعية، وكلهم من الأزهر، وكان الشيخ ابن تركي يفخر أنه أوَّل من أدخل الأزهريين إلى قطر.

وكانت علاقتنا جيدة برجال العلم الشـــرعي في قطر، مثل: الشـــيخ ابن تركي، والشـــيخ عبد الله الأنصاري، والقاضي الشرعي الوحيد في البلد، وهو العلَّامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود، وبعض المشايخ الذين لم تكن لهم مناصب، وبعضهم أصلًا من الإمارات المجاورة، مثل: الشيخ مبارك بن سيف الناخي والشيخ ابن غُبَاش.

وبعد فترة وجيـــزة، انضم قاضٍ جديد مع ابن محمود، وهو الشـــيخ أحمد بن حجر البنعلي، وقوي اتصالنا به، وما زال القضاء يتوسع ويتوسع حتـــى أصبح له عدة محاكـــم، وعدد مـــن القضاة، وصار هنـــاك القضاء الابتدائي والاســـتئناف والتمييز، وأصبح ابن محمود هو الرئيس لهؤلاء القضاة جميعًا.

• **العلاقة بالشيخ قاسم بن حمد وزير المعارف:**

وكذلك تطور التعليم ووزارة المعارف، التي كان وزيرها معالي الشيخ قاسم بن حمد آل ثاني، شقيق ولي العهد وقتها، وهي أكبر الوزارات وأعلاها وأقدرها في البلاد، وقد وطَّدنا علاقتنا بشيوخ البلاد الحاكمين، وكنا نتحرك معًا: الشيخ عبد المعز، وأنا معه، ومعي أخي وزميلي أحمد العسال، وبعض المشايخ أحيانًا، مثل: الشيخ عبد الرحمٰن المراغي، والشيخ عليوة مصطفى، والشيخ عبد اللطيف زايد، والشيخ علي جمَّاز.

• **العلاقة بالشيخ أحمد بن علي حاكم قطر:**

وقد سبقنا إلى الدوحة الشيخ عبد البديع صقر، الذي كان أول مدير للمعارف، ثم حدث تغيير، بعد أن أصبح سمو الشيخ أحمد بن علي بن عبد الله آل ثاني حاكم البلاد، حين تنازل أبوه له عن الإمارة، وأصبح الشيخ عبد البديع من جلساء الأمير والمقرَّبين إليه، وأصبح مديرًا لمكتبات الحاكم، وكان أمينُها أخانا الشيخ محمد مصطفى الأعظمي، عالم الحديث الهندي المعروف.

ودعانا الحاكم إلى العشاء معه مرة، فرحَّبْنا، وحضرنا نحن والمشايخ المعروفون، وتحدثنا حديثًا حول الربا والفوائد والبنوك، وتحدث سمو الشيخ الحاكم عن الربا، وعن تشدد بعض العلماء فيه، واضطررت أن أرد عليه، وأبين له أن تحريم الربا أمر قطعي، وأن الفوائد هي الربا، وأن الله تعالى لا يحرم على الناس إلا ما يضرهم، وأن الواجب على المسلمين: أن يحرموا ما حرم الله ورسله، وانتقدت الأوضاع السائدة، وقد ظنَّ الجميع أني أغضبت الحاكم وجماعته، وانتقدوني في ذلك، ولكنه بعد ذلك أبدى لهم سروره وإعجابه بما قلت، وانبساطه مني، والحمد لله.

ودعانا الشيخ قاسم بن حمد وزير المعارف إلى عشاء عنده في الزُّبارة، ولبينا الدعوة وتوثقت الصلات.

وكان لنا كل سنة لقاء بالطلاب والطالبات في حفظ القرآن، وللطلاب في المدارس في أجزاء معينة، وفي القرآن كلـه، من أبناء قطر، من قَطَريِّين وغير قطريين، وكان هؤلاء كلهم من الباكسـتانيين والهنود والبنغاليين والأفغانيين وأمثال هؤلاء، وما زالوا يزيدون كل سنة عما قبلها.

• **الشيخ عبد المعز خطيب المؤتمر السنوي لحُفَّاظ القرآن:**

وكان الشيخ عبد المعز هو الذي يُلقي كلمة الاحتفال السنوي بالناجحين، وتوزيع المكافآت عليهم، وكانت كلمته كالعهد به، تحيا بها القلوب، وتستنير بها العقول، وتطمئن بها الضمائر.

• **تأليف كتب لوزارة المعارف في العلوم الشرعية:**

وقد شكونا إلى إدارة المعارف وتفتيش العلوم الشرعية ما يشتكيه الطلاب من صعوبة الكتب المقررة عليهم، وهي كتب في غاية التعقيد، كما في كتب الفقه، الذي كان يدرس من كتاب (أخصر المختصـرات) في الفقه الحنبلي، وهو في الواقع أعقد المعقَّدات!.

وقلنا: لا بد من كتب جديدة، وأمر الوزير مديرَ المعارف الأسـتاذ كمال ناجي: أن يبدأ بالمطلوب، فشكَّل لجنة برئاسة الشيخ عبد المعز، وفي عضويتها أنا وإخواني: أحمد العسال، وعليوة مصطفى، وعبد الرحمٰن الجبالي.

ثم قُدِّر للشـيخ أن يسـافر إلى القاهرة، وأن نبقى نحـن الأربعة نكمل الموضوع، وكلفتُ أنا بإدارة اللجنة، وخصوصًا أن الشـيخ لم يحضر السـنة المُقبلة، وقدمنا الكتب، فحازت القبول، واستمر عليها الطلب عدة سنوات.

ولما عاد الشيخ عبد المعز، استمرت اللجنة ووُسِّعت مطالبها، وخَطَّطت لتنفيذ كتب المدارس الابتدائية في سـنواتها السـت، والإعدادية في سنواتها الثلاث، والثانوية في سنواتها الثلاث.

وألَّفنا كتبًا خاصة للمعهد الديني، شـــاركت في بعضها أنا والشيخ عليوة والشـــيخ علي الجماز في كتب التوحيد للمرحلة الثانوية، وصنفنا كتابَيْن أنا والأخ الأستاذ ســـليمان السَّـــتَّاوي للمعهد، هما كتاب (المجتمع الإسلامي) وكتاب (الإلزام الخلقي).

هذا مع مجموعـــة الكتب التي امتلأت بها كل مـــدارس وزارة معارف قطر، التي سبقت مدارس الجيران في الخليج، بما وضعت من مبادئ، وما عزَّزت من وصايا، ومـــا أصدرت من توجيهات وتعليمـــات، وكانت هناك الكتب التي انفرد الشـــيخ بالكتابة فيها مثل: كتاب الصف الثالث الثانوي: (في السياسة والحكم الإسلامي)، ومثل: كتاب (القدر) وما يدور حوله من بحوث في العقيدة.

- **استقبال السيد موسى الصدر:**

وفي ســـنة (١٩٦٥م) زار قطر أحد علماء الشـــيعة الكبار، وهو الشخصية اللبنانية المعروفة في ذلك الوقت، وكنا نسمع به ونرى صُوَره، ونقرأ تصريحاته في صحف لبنان، حين نزورها في الصيف، وهو اليـــوم يزور قطر، وبالذات يزور الطائفة الشيعية الإمامية الاثني عشرية، الذين نعرف أنهم موجودون في قطر، وما كُنَّا نعرف إلا عددًا قليلًا منهم، مثل: حيدر سليمان حيدر، ولاري، والفردان، وبعض العائلات، ولا نكاد نعرف آخرين منهم.

إنه السيد موسى الصدر، العالم السياسي المشهور، الذي زار المجموعة الشيعية في قطر، فاحتفَوْا به احتفاءً بالغًا، ودعونا: الشيخ عبد المعز وأنا وبعض المشايخ. وبهذه الدعوات عرفنا العائلات الشيعية في قطر، وكنا قبل لا نعرفهم.

وقد تحدثنا مع الضيف كثيرًا، وتحدَّث معنا، وتناقشنا في بعض ما عندهم، وبعض ما عندنا، وعرفت في هذه المحادثات أن الرجل سياسي قدير، ويمكن أن يكون له مستقبل في سياسة الشيعة، وأنه جدير أن يجمع الملايين من شيعة قطر،

ليضعها في لبنـــان، أو في المكان الذي يحتاج إلى إنفاق، فالشـــيعة متكافلون، وأمورهم مرتبة أكثر من أمورنا نحن أهل السُّـــنة، الذيـــن نُمَثِّل الأغلبية الهائلة، ولكن حدثت أحداثٌ في المنطقة غيَّرت مجريات الأمور، واختفى الصدر اختفاء أبديًا بعد زيارته ليبيا للقاء قائد ثورتها، الشـــاب الملتهـــب، أو المجنون معمّر القذافي، الذي استولى على مقاليد الأمور في ليبيا سنة (١٩٦٩م).

- **حضور مهرجان ندوة العلماء بالهند:**

وممَّا اشتركنا فيه مع شيخنا عبد المعز الرحلة إلى الهند، لحضور مهرجان ندوة العلماء السنوي سنة (١٩٧٥م)، وإن لم يبلغ المئة سنة ولكن قرب، وأراد العلَّامة الشيخ أبو الحســـن الندوي الهندي أن يُحيِي مؤسسته الكبيرة بزيارة العلماء العرب والمســـلمين من أنحاء العالم. وخصوصًا علماء العرب، مثل: الشـــيخ أحمد عبد العزيـــز المبارك، رئيس قضاة الإمارات، وشـــيخ ســـورية عبد الفتاح أبو غدة.

وكان مـــن المدعويـــن الشـــيخ عبد المعز، وأنا، وكان شـــيخنا الشـــيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر مدعوًّا لهذا الاحتفال، وكذلك الشيخ محمد حسين الذهبي وزير الأوقاف المصرية، وعدد كبير من علماء مصر والمغرب الكبير والسودان وسورية والعراق، ومن كل بلاد العرب والمسلمين، مدعوِّين على مائدة الإمام أبي الحسن الندوي.

وقد بقينا أيامًا في ضيافـــة النَّدْوِيِّين، وأتيح لبعضنا أن تكون له جولات لزيارة بعض المناطق الســـياحية في الهند، مثل: دلهي وبومباي، وذهبنا إلى (تاج محل)، هذا الأثر الإســـلامي الذي خلَّد الجمال الإسلامي، فهو تحفة هندســـية معمارية فنية لا نظير لها، وهو يُعَدُّ من عجائب الدنيا السبع، وقد أعده شاه جهان الإمبراطور المغولي المسلم، ليكون قبرًا لزوجته ممتاز محل التي يحبها.

ومن المهم أن نعلم أن كل المعالم السياحية التي تتباهى بها الهند وتفخر: هي معالم إسـلامية، فلم نكد نجد شـيئًا له قيمة يمكن أن يزار غير ما خلَّفه المسلمون.

• **رحلة مع الشيخ إلى تركيا:**

وكان من الرحلات التي اشتركنا فيها مع شـيخنا عبد المعز: رحلتنا إلى تركيا، فقد كنتُ في لبنان، وكان الشـيخ عبد المعز في الدوحة، ومرَّ بسـمو الشيخ خليفة بن حمد ولي العهد وقتَها، وقال له: إنه يريد أن يسافر إلى تركيا، فطلب إليه أن يكون سفره على حساب قطر، وأن يأخذني معه، لنسافر إلى كل الأماكن التي نحبُّ زيارتها في تركيا، ومرَّ الشيخ عليَّ في لبنان، بعد أن عُدت من سورية، بعد أن زرتها أنا وصهري الأستاذ سامي عبد الجواد، وأعددنا العدة للسفر، وكانت الرحلة غاية من الجمال والروعة، والشيخ عبد المعز رجل حلو المعشر، عذب الحديث، جوادٌ كريم، لا يضيق به صاحبه، بل يستمتع بما عنده من حكايات وقَصَص بعضه موروث، وبعضه من الحياة، فهو محدِّث مؤنِس ومُعاشِر محبَّب.

سافرنا معا إلى إستانبول، ولي خبرة بها وبمساجدها الكبرى، ومتاحفها، ومواقعها المهمة، ليست عند الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، فكنت كثيرًا ما أنبِّه الشيخ ومن معه إلى المواضع التي ينبغي أن يزوروها، وربما لا أكون معهم فيها؛ لأني زرتها أكثر من مرة.

وبعد أن زرنا أكثر ما يمكن أن يزار في إسـتانبول، وزرنا الجزر الكبرى، عن طريق الباخرة، ثم صمَّمنا أن نزور يومًـا (بورصة)، وهي التي وقعت بها معركة عمورية، التي قال فيها أبو تمام:

السيفُ أصدقُ إنباءً مِنَ الكُتُبِ ... في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللعبِ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في ... متونهنَّ جلاءُ الشـكِّ والرِّيَبِ

ذهبنا إلى مدينة بورصة، وصمَّمنا على أن نبيت في أحد فنادقها، ونذهب في الصباح لنركب (التليفريك) ونصعد الجبل من (التليفريك) حتى ننتهي إلى القمة التي يتجمع فيها الناس، ونشتري اللحم، ويوقد الفحم، ونشوي اللحوم، ونشـــقُّ البِطِّيخ، وتكون أكلة من الأكلات الشـــهية في ذلك الجو البارد، الذي تســـطع فيه الشـــمس، وقد تغيب أحيانًا، ويقضي الناس نهارًا طيبًا، وكثيرًا ما يركبـــون فيها (تليفريكًا) مصغَّرًا، حـــول هذه المنطقة التي يفرش فيها الناس خيامهم وأغطيتهم، ويعودوا في آخر النهار إلى عرباتهم أو إلى فنادقهم.

وأذكر أننا بتنا هذه الليلة في بورصـــة، ثم بدأنا في الصباح نركب الباص إلى مدينة (يالُوَا) على بحر مَرْمَرة، لنعود كما جئنا إلى إستانبول.

وركبنا الباص، وتلونا أدعية السفر كما هي عادتنا في أسفارنا، ودعونا الله تعالى أن يصحبنا في سفرنا بالبر والتقوى، وأن يَخْلُفنا في أهلينا وأموالنا، وأن يُنزلنا منزلًا مباركًا وهو خير المُنزلين.

وكان الجو غائمًا بعض الشـــيء، فكان الجو يمطر مطـــرًا خفيفًا، وأحيانًا تطلع الشـــمس، وأحيانًا يشـــتد المطر، والطريق ينزل من أعلى إلى أســـفل، وحواليه مهوًى جانبي سحيق، وزاد المطر واشتدَّ، وبدأ الباص يتحرك حركة تُخيف الـــرُّكَّاب، وامتدت الأصـــوات، وارتفعت إلى الســـماء داعية: يا رب، يا رب، يا رب. وكاد الباص يترنَّح بمن فيه، وبدأت تقع منه بعض الأشياء التي كان يحملها الركاب من البطيخ والشمَّام والخوخ أو الدُّرَّاق أو (الشَّفْتَلِي) كما يطلق عليه، وبدأت تتساقط من السيارة، ولا يكاد أحد يهتمُّ بها، المهم هو حياة الناس، وبقاء الإنسان.

وبينما الدعوات تتصاعد، والأنفاس تتلاحق، والمخاوف تتزايد، والقلوب تخفق، والأكف ترفع إلى الســـماء، أن يكشف الله الضرَّ، ويزيل البأس، وينقذ

الباص، وينزل السكينة، وإذا الباص يتجه إلى جهة الشِّمال ويقف، ولو حدث العكس واتجه إلى اليمين، لكانت الكارثة، ولسقط الباص في المهوى العميق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ما أقرب الموت، وما أسـرعه! وما أضعف الإنسـان، وما أضيعه! يدَّعِي القوة وهو أضعف ما يكون، ويدَّعي القدرة وهو أعجز ما يكون، ويدَّعي الغِنَى وهو أفقر ما يكون، ويدَّعي العلم، وهو أجهل ما يكون.

يا الله، لحظة واحدة كانت ستتغير أشياء كثيرة، خصوصًا نحن السائحين الغرباء، الذين تركنا جوازات سفرنا وليست معنا، فلا يوجد ما يدل علينا، وليس معنا أحد يعرف من نحن، ولا من أي البلاد جئنا، ولا إلى أي البلاد نذهب.

يا ربنا لك الحمد، كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سـلطانك، وأفاق الشـيخ من هذه الصدمة الكبيرة مشـرق الوجه، ناصع الجبين، قوي اليقين، حامدًا لله رب العالمين.

- **محاولة من الشيخ لزيادة التقارب بيننا بخطبة ابنتي لابنه:**

وقد زارني في أحد الأيام فضيلة الشيخ عبد المعز ومعه أحد أبنائه، وهو عبد السـتار، وأظن ذلك كان في آخر سـنة لبناتي إلهام وسهام في الجامعة، وقال: تَعْلم يا شـيخ يوسـف أننا أقرب ما نكون كلانا للآخر، فنحن وأسرنا متكافلـون ومتعاونون والحمد لله، وهذا يقتضـي أن يقترب بعضنا من بعض بصفة أقوى وأمتن، ولا يكون ذلك إلا عن طريـق التصاهر، وقد قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤]. وقد رزقني الله البنين، ورزقك أول ما رزقك البنات، فكان هذا سببًا لتوفيق الترابط والتواصل بين أُسرتينا.

قلتُ: يا شيخ عبد المعز، أنت تعرف، وأولادك يعرفون، والإخوان جميعًا

يعرفون، مـــدى معزَّتِك ومحبتك عندنا، أنا وزوجتـــي وأولادي جميعًا ذكورًا وإناثًا، وإننا نتمنى أن تكون لنا صلة منتظمة بكم، تمتد إلى ما شاء الله.

قال الشـــيخ: هذا والله ما كنتُ أتوقعه، ولا أتوقع غيره، وهذا شجعني أن أقول: إني أخطب ابنتَكم (ســـهامَ) لابني عبد الســـتار، على أنه يشترط شرطًا واحدًا، نرجو أن تستجيب له.

قلتُ: وما هو الشرط؟.

قال: أن تستريح من العمل، وتجلس في البيت.

قلت: أنا والله لا أتدخل فـــي هذا الأمر، هذا الأمر للبنـــت إذا رغِبَت في الدراسة، وأرادت أن تستكمل دراستها بالحصول على الماجستير والدكتوراه، فأنا لا أحجر عليها، وإذا كانت ترغب في الاكتفاء فأنا لا أمنعها.

قال الشيخ: جزاك الله خيرًا، نرجو أن تستجيب الابنة لنا.

قلتُ للشـــيخ: أنا أرجو أن نســـكت قليلًا عن هذا الأمر؛ لأننا الآن على أبواب الامتحان، وإثارة هذه الأمور تشـــغل الأولاد والبنات عن دراســـتهم، والأولى تأجيل الكلام حتى تظهر النتائج.

وقد أخبرت امرأتي بما قاله الشـــيخ، وما قلتُ لـــه. وقالت لي: هل تظنُّ سهامَ تقبل القعود في المنزل، وهي تتطلع أن تصبح معيدة، ومبعوثة لدراسة الماجستير ثم دراسة الدكتوراه؟ ما أظنها تقبل ذلك أبدًا.

ويبدو أن ســـهامَ علمت ببعض ما قيل في ذلك، فأبدت رأيها في الحال، وقالـــت: أنا أرحب بكل ما يأتي من شـــيخنا الشـــيخ عبد المعـــز، وأنا أحبه وأحترمه، ولكن قلبي متعلق بالدراسة والاستمرار فيها إلى النهاية.

وعرف الشيخ هذه النتيجة، فقال: يبدو أن ابني لا نصيب له فيها. قلتُ له: الله يرزقه من هي مثلها أو ربما تكون خيرًا منها له.

• **كانت ابنتي من نصيب ابن أخيه عبد العليم (هشام):**

ولكن لم تكد تنجح سهامُ في البكالوريوس، حتى جاء الأستاذ عبد العليم شقيق عبد المعز وزوجته الأستاذة صفية تطلبان (سهامَ) لابنهما هشام، يحجزانها، ليراها وتراه، بعد نزول مصر في أول إجازة الصيف.

وكانت النتيجة هي القبول والحمد لله، وعلم الشيخ عبد المعز بذلك، وقال: الحمد لله، أردنا أن ترتبط العائلتان، فارتبطتا، والحمد لله.

• **كلمات الشيخ في المناسبات:**

ظللنا سنين في أرض قطر، سماحة الشيخ عبد المعز وأنا نعمل معًا، كل منا فيما هو مشغول به، ومستغرق فيه، وفي الأعياد نزور إخواننا الأزهريين في أماكنهم، ونأكل معهم الترمس والحلبة والكعك والبسكويت، ونزور الأمراء، وكبار الشيوخ، ونزور شيوخ العلم والقضاء، كالشيخ ابن محمود، والشيوخ الأنصاري، وابن حجر، وعبد القادر العماري، وعبد العزيز الخليفي، ووجهاء البلد الدرويش وعبد الغني والمانع والمناعي والخليفي والمِرّي والهواجر والكوارة، وغيرهم.

وكنت أتمنى أن يكون للشيخ عبد المعز في كل حين جمعة يخطب فيها الناس، يسمعهم من مواعظه ما يجلو قلوبهم، وكنت في المعهد الديني أحب أن يزورنا في المعهد ويلقي إلينا بعض خُطبه، وفي رمضان حين كنتُ ألقي دروس العشاء في مسجد الشيوخ، كنت أدعو الشيخ أن يزورنا كل سنة مرة أو مرتين؛ ليُتحف الناس بتجلياته الربانية.

• **قلم الشيخ:**

كنت أحس إحساسًا قويًا، مستندًا إلى الأدلة والبراهين: أن الشيخ عبد المعز لديه القدرة على الكتابة، ولديه الثروة اللغوية من قراءاته الكثيرة، المبدوءة بالقرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والحكم المنثورة من قرون

الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، وممَّا يحفظه من شعر الشعراء، وقراءاته للكتاب والأدباء السابقين واللاحقين والمعاصرين.

وكنت حين أسمع خطبه الحماسية، أراها قطعًا أدبية جديرة أن يُعنى بها وتُدرس. وكم كنت أتمنى أن يفرِّغ الشيخ عبد المعز نفسه ساعات للكتابة كل يوم، ليكتب ما ينبغي أن يكتب، وما يُطلب منه أن يُكتب، وما تلهم به الأحداث والأيام أن يكتب.

وقد جرَّبنا ذلك منه في بعض الأحيان، حين طلبت منه أن يكتب شيئًا بمناسبة شهر رمضان، فكتب كتابًا في التربية، بيَّن فيه صلاحية الإسلام لتربية الأفراد والأمم والمجتمعات. وأحيانًا طُلب منه أن يكتب بعض مواضيع فُرضت عليه حين طلب منا أن نكتب للوزارة، وأحيانًا كتب هو أشياء، يتطلب الموقف أن يدلي فيها برأيه، مثل: كتاباته عن اليهود والصهاينة، وما يريدون لبيت المقدس.

لقد بدأ الشيخ يبحث عن ذلك من زمن بعيد، وكتب فيه أخيرًا كتابات قيمة؛ أهمها: كتابان نشرهما الشيخ فيما نشره: أولهما: (اقترب الوعد الحق يا إسرائيل). وثانيهما: (الشعب المختار في الميزان)، وقد ناقش الشيخ في الكتابين قضايا مهمة، استطاع فيهما أن يُلقم اليهود والصهاينة الحجر، وأن يسكتهم، وأن يمد المجادلين لهم بأدلة قوية من كتبهم نفسها، ومن مصادرهم ذاتها.

وقد حضرت مع الشيخ بعض مؤتمرات الأزهر التي دعا إليها شيخه في ذلك الوقت الشيخ طنطاوي، وحين عَرض الشيخ عبد المعز هذه الصفحات وهذه الأدلة، لم يجد المشايخ بُدًّا من أن يصفقوا للشيخ ويثنوا عليه.

كثيرًا ما كنت أحب أن أمرَّ بالشيخ عبد المعز في بيته، زائرًا أو سائلًا، لأطمئن على صحته، وعلى ما عنده من طمأنينة أو رؤى. وكثيرًا ما كنت أجد

عنده السكينة التي حُرمها كثيرٌ من الناس، وكثيرًا ما كان يقول: وراء الساعات الحالكة الشـــديدة الظلام في آخر الليل: نور الفجر الذي يوشـــك أن يشرق، وينشر الأضواء في الآفاق.

وكثيرًا ما كان يخصُّني بالدعاء أن يحفظنـــي الله تعالى ويكلؤني برعايته، ويمدني بروح من عنده، ويقول لي بـــكل ثقة: إنك تقوم بدلًا عني وعن كثير من أمثالي ومن هو أسبق مني من علماء المسلمين ودعاتهم، وهم لا يستطيعون أن يقدموا لدينهم شـــيئًا، يقوِّم من عوج المســـلمين، ويصلح من فســـادهم، ويقويهم من ضعف، ويعزهم من ذل، ويجمعهم من تفرق، والله إني لأدعو الله تبارك وتعالى لك في الأسحار، وفي الأوقات التي يستجاب فيها الدعاء، أن يشدَّ أزرك، ويحمي ظهرك، وييسر أمرك. ويكثر من هذا الدعاء الذي أسأل الله تعالى أن يجعلني أهلًا له، وأن يســـتجيبه للشـــيخ، وأن يزيدنـــي إقبالًا على الخيرات التي ينشدها، وعلى الآمال التي يريد تحقيقها، وأن تبلغ الأمة أمانيها التي ترجوها، حتى يقوم عمودها، ويضيء نورها، ويستقيم أمرها.

كنت في مقدمة المشـــيعين للشـــيخ في جنازته، وقد أكرمنـــي الله تعالى بالصلاة على جثمانه، حيث دُفن بمقبرة أبو هامور بالدوحة، وشارك في تشييعه لفيف من الدعاة والعلمـــاء، وأبناء الفقيد، وتلاميذه، ومحبـــوه من أبناء قطر وسكانها، يبكون عليه، ويدعون له.

ولم يُقَدَّر لي أن أخطب الجمعة في جامع عمر بن الخطاب، الذي أخطب فيه، لمرض ألمَّ بي بعد موت الشيخ، ومنعني من الخطابة لعدة أسابيع، وكان من المقرر أن نقيم مهرجانًا خطابيًّا وشعريًّا لبيان منزلة ومكانة الفقيد وجهوده في خدمة الإسلام والمسلمين، طوال ثلاثة أرباع قرن.

رحم الله الشيخ عبد المعز، وجزاه خيرًا على ما قدم لدينه وأمته من علم وعمل، وخدمـــات دعوية وفكرية وخيرية، أســـأل الله تعالـــى أن يتقبلها منه،

ويجعلها خالصة لوجهه، وأن يغفر له ولإخوانه ما قد كان منهم، إن كان منهم اجتهاد لم يصب موضعه، وندعوه تعالى أن يرزقهم به أجرًا واحدًا، ولا يحرمهم من المثوبة أبدًا.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

* * *



الشيخ فيصل مولوي

العالم الباحث الداعية المربي القائد

(حوالي ١٣٦٠ ـ ١٤٣٢هـ ـ ١٩٤١ ـ ٢٠١١م)

هناك أناس يعيشون في الدنيا ويموتون، ولا يُحِسُّ بهم أحد؛ لأنهم لم يفعلوا شيئًا في حياة الناس، يجعلهم يشعرون بوجودهم.

وهناك آخرون يعيشون، ويتركون وراءهم صخبًا وضجيجًا، وغَبَرة ترهقها قترة، هناك من يطبِّل لهم ويزمر، ومن يرقص ويغنِّي، ومن يمدح ويُثني، ولكن هذا كله كسرابٍ بِقِيعَةٍ، يحسبه الظمآنُ ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

وهناك آخرون، ممَّن رزقهم الله الهداية والتوفيق، يتعلمون فيعلِّمون، ويعلَمون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيُقبَلون، وهم أبدًا يعلمون ويعلِّمُون، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]؛ يعلمون لإنهاض أمتهم من كبوتها، ولتعليمها بعد جهالتها، ولتنبيهها بعد غفلتها، ولتوحيدها بعد فُرقتها، مهمتهم أن يبنُوا لا أن يهدموا، وأن يجمعوا لا أن يفرقوا، وأن يُحْيُوا لا أن يُميتوا، وأن يوقظوا لا أن ينوِّموا.

هؤلاء ليس همُّهم الضجيج، ولكن العمل، وليس همهم الدويّ، ولكن الإصابة، وليس غايتهم إرضاء الناس، ولكن إرضاء الله، فهم يحبون العمل في صمت، والقول في حكمة، والجدال بالتي هي أحسن.

يقول أحدهم ما علمه الله أن يقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

هؤلاء ممَّن ادَّخرهم مِن خَلْقه، لمقاومة المرتدِّين، ومجاهدة المارقين، الذين يُضمرون الشرَّ للإسلام وأمَّته، ممن قال الله فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومن هؤلاء المدَّخرين: الأخ الحبيب، العالم الجليل، الباحث الدؤوب، الداعية الصادق، المربي المعلِّم، القائد الميداني، والزعيم السياسي، الجاد الذي لا يهزل، والصادق الذي لا يكذب، والمؤتمن الذي لا يخون، والخالص الذي لا يَزِيف، والواعد الذي لا يخلف، والمعاهد الذي لا يغدر، والمخاصم الذي لا يفجر، والوسطي الذي لا ينحرف، الشيخ فيصل مولوي.

إنه ممن قال الله فيهم: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]. وممن وكَّلهم بتبليغ دعوته، إذ قال: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وهو من (الطائفة المنصورة) التي صحَّت بها الأحاديث[١]، وادَّخرها الله في آخر الزمان، ليسيروا بالناس إذا وقفوا، وليهدوا الناس إذا ضلُّوا، وليستقيموا بالناس إذا اعوجُّوا، وليرتقوا بهم إذا انحطُّوا.

وهو من (الخلف العدول) الذي عرَّفهم رسول الله ﷺ في حديثه الذي صححه الإمام أحمد، وقوَّاه ابن القيم: «**يَحْمِل هذا العلم من كلِّ خلف عُدُوله، ينفُون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المُبطِلين، وتأويل الجاهلين**»[٢].

---

(١) إشارة إلى حديث معاوية، المتفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧): «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرُّهم مَن خذلهم، ولا مَن خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**».

(٢) رواه ابن وضاح في البدع، حديث رقم (١)، والبيهقي في الكبرى (٢٠٩/١٠)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٨). وقواه ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة، ومنشور أهل العلم والإرادة»، عن إبراهيم بن عبد الرحمٰن العذري.

من حق أخي الشيخ فيصل: أن أشارك في تأبينه، وأن أتحدَّث عنه، وإن لم تمكنِّي الظروف أن أحضره بنفسي، وما كان أولاني أن أحضر بنفسي.

- **أسباب تلزمني أن أكتب عن الشيخ:**

وهناك أسباب ثلاثة تُلزمني أن أكتب عن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أولها: للصحبة الطويلة بيننا، والتي بلغت سبعًا وأربعين سنة، منذ زيارتي الثانية إلى لبنان سنة (١٩٦٥م)، وكان ما يزال شابًّا وقتها، يكتب بعض الفتاوى في مجلة (الشهاب) اللبنانية، وكان يعمل في الجماعة الإسلامية، المنبثقة عن الإخوان، ومعه الأستاذان فتحي يكن، وإبراهيم المصري، وغيرهما.

وثانيها: لما للشيخ من مكانة وأثر كبيرين في لبنان خاصة، والعالم الإسلامي عامة، بل في الجاليات المسلمة في أوربة كلها، التي ظل فيها سنوات مقيمًا إقامة دائمة، يدعو ويعلِّم، ويربِّي ويصلح، ويسوس ويقود.

ثالثها: لأني لم أتمكَّن من نعيه والحديث عنه وقت وفاته، للوعكة الصحية التي أصابتني وقتها، وعزلتني عن العالم كله، فلم أكن وقتها أرقى منبرًا، ولا أتَّصل بصحيفة، ولا قناة، لأقول قولًا، أو أكتب سطرًا. ونبّه عليَّ الأطباء الذين أشرفوا على علاجي، أن أترك السياسة ومتاعبها وآلامها، وأن أحيا بعيدًا عنها، وعن الناس ما استطعت، حتى تعود إلي عافيتي، وكان من ضمن ما حدث وقتها وفاة أخينا العالم الإسلامي الكبير الشيخ فيصل مولوي في لبنان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وخشي تلاميذي وإخواني وأبنائي من أثر الخبر عليَّ، لما يعرفون من مكانة للشيخ مولوي في قلبي، فأجَّلوا إخباري بالخبر إلى حين، حتى عرفته مصادفة من بعض زوَّاري، بعد عدة أسابيع.

الشـــيخ فيصل مولوي العالم العامل، الداعية المفكـــر، المحرِّك المربِّي، الكاتب السياسي، المستشار القاضي، الاجتماعي النقي، الفقيه المفتي، رجل لبنان والعالم الإسلامي، ابن الحركة الإسلامية، وأحد كبار رجالات أهل السنة بلبنان، سمح الوجه، حسن الخلق، عذب الحديث، حلو المعاشرة، حبيب إلى كل من عرفه، عزيز على كل من التقاه، لم أسمعه طوال حياتي يسب أحدًا، أو يؤذي أحدًا.

بعض الناس لا يعرف الناس قدرهم إلَّا حيـــن يُتوفَّوْن، ولكنَّا نعرف قدرَ الشيخ مولوي وهو حي بيننا، وذلك للمهامِّ الكبيرة التي يضطلع بها، والتي كنا نوكل له كثيـــرًا منها، فيقوم بها خيـــر قيام، في إخلاص وتفـــانٍ كبيرين، وما اجتمعنا مرة بعد أن أصابه المرض إلا وذكرناه، ودعونا الله له بالشفاء والعافية.

لقد شاركنا الشيخُ مولوي من أول يوم في تأسيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وحضر الجلسة التأسيســـية، وتولى أمانة المال (أمانة الصندوق)، وكان عضوًا بمجلس أمناء الاتحاد ومكتبه التنفيذي، ورئيسًا لفرعه في بيروت، إلى أن تُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكذلك كان قد ساهم في تأســـيس المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث، وكان نائبي فيه منذ إنشـــائه وحتى وفاته، وكثيرًا ما رأس أو شـــارك في لجنة الصياغة التي لخصت دائمًا مـــا قام به المجلس، وما أوصـــى به أبناء الأمة، وذلك لما له من اهتمام بقضايا المسلمين في الغرب، فقد سبق أن أقام منذ سنة (١٩٨٠م) حتى (١٩٨٥م) في فرنسا، وأسَّـــس اتحاد الطلبة المسلمين، ثم اتحاد المنظمات الإسلامية في أوربة، وأنشـــأ الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية، وكم تلاقينا في مجلســـها العلمي، ووضعنا مناهجهـــا، واخترنا لها أفضل ما وجدناه وما اقترحناه، حتى قامـــت على قدميها، وخرَّجـــتْ مَنْ خرَّجتْ من أبنائها، الذين أصبحوا دعاة ومعلِّمين، ومربِّين وباحثين.

وأصبح مرشدًا دينيًّا لاتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا، ثم في أوربة منذ سنة (١٩٨٦م)، وبقي على تواصل مع أكثر المراكز الإسلامية في أوربة حتى وفاته، وله عدد من البحوث العلمية الأصيلة، تناقش قضايا المسلمين في الغرب.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ مهتمًّا بقضايا المقاومة، وكيف لا وهو الابن البكر للدعوة الإسلامية العالمية، وابن لبنان، إحدى دول الجوار مع إسرائيل، والتي عانت من احتلال الصهاينة حينًا من الدهر، ولذلك كان مهتمًّا أكثر من غيره بقضية فلسطين والقدس والمقاومة، وحين أسَّسنا في بيروت مؤسسة القدس الدولية سنة (١٩٩٤م)، واختارني الإخوة رئيسًا لمجلس أمنائها، اخترنا بالإجماع الشيخ فيصل مولوي رئيسًا لمجلس الإدارة، ورأس مجلس إدارة مؤسسة القدس الدولية لأكثر من دورة، وكان له أثره الطيب في إدارته على أفضل ما تكون الإدارة.

وكان عضوًا مرموقًا في المؤتمر القومي الإسلامي، الذي أسهم في تأسيسه في بيروت.

وحين أصدر الشيخ ابن جبرين في السعودية فتوى أثناء حرب تموز من العام (٢٠٠٦م)، بعدم نصرة (حزب الله) في حربه مع إسرائيل؛ لأن من ينصر حزب الله، ينصر مصدره الأعلى وهو إيران، أصدرنا يومها فتوانا المعروفة، كما أصدر يومها الشيخ فيصل مولوي ردًّا مفصلًا على فتوى الشيخ ابن جبرين.

لم يكن الشيخ عالمًا دينيًّا فقط، بل كان زعيمًا سياسيًّا، وقائدًا ميدانيًّا، فهو أمين عام الجماعة الإسلامية في لبنان.

وكانت لبنان في كثير من الأحيان ـ بوجود الشيخ فيصل مولوي فيها ـ ملاذنا نعقد فيها اجتماعات مجلس أمناء الاتحاد، واجتماعات المكتب التنفيذي، ويشرف على ترتيبات اللقاء الشيخ فيصل بنفسه، ويتابعها بكل كفاءة

وإتقان وإخلاص، ولا سيما أن لديه عددًا من الدعاة الأقوياء الأمناء، القادرين على القيام بالواجبات في ساعات الشدة.

وما دعوناه إلى اجتماع للاتحاد، أو للمجلس الأوربي للإفتاء، إلا كان من أول من يلبِّي.

شارك في وفد الاتحاد الذي ذهب إلى الخرطوم من أجل تجميع الشعب في قضية دارفور، والتقى بالطوائف المختلفة، وذهب معنا إلى مدينة الفاشر عاصمة دارفور.

وله مشاركته في الهيئة الخيرية الإسلامية العامة بالكويت، وكم حضر جمعيتها العامة، وكان له نشاطه وإسهاماته فيها.

وللشيخ مكانة ودور في دعوة الإخوان المسلمين العالمية، فهو عضو مجلس شوراها، وهو من رجالها المعروفين، وعلمائها المعدودين، وله آراؤه السديدة، وأفكاره القيمة، التي تتسم بالواقعية والاعتدال.

وشارك الشيخ فيما سماه الإخوة بقطر (ملتقى الإمام القرضاوي)، وألقى كلمة في الجلسة الافتتاحية أثنى فيها على الفقير إليه تعالى، وهذا من تواضعه، قال فيها: «إن القرضاوي يستحق أن يكون قائد ركب الأمة الإسلامية؛ لما يتميَّز به من العلم والعمل والإخلاص للإسلام والمسلمين».

وشارك ببحث في الكتاب التذكاري الذي صدر من جامعة قطر بمناسبة بلوغي سن السبعين، ببحث (القرضاوي والمؤتمرات الإسلامية).

وشارك في مؤتمر علماء المسلمين لنصرة شعب فلسطين سنة (٢٠٠٨م)، والذي دعوت إليه في الدوحة عام (٢٠٠٨م)، عند العدوان على غزة.

وله كثير من الكتب والبحوث النافعة الرصينة، التي استفاد منها الكثير من أبناء الإسلام، وأبناء الدعوة.

هذا ما أمكن تلخيصه من سيرة علَّامتنا، الشيخ فيصل المولوي، وهو جدير أن نكتب عنه كتابة أوسع وأوفى، وكان أحق بها وأهلها، ولا أستطيع في ختام كلمتي هذه التي أعتبرها موجزة، إلا أن أقول:

أسأل الله أن يرحمه برحمته الواسعة، وأن يجزيه خيرًا عن الإسلام وأهله، وأن يبارك في أهله وأولاده، وتلاميذه وإخوانه، وأن يخلفنا فيه خيرًا.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

* * *



العلَّامة عبد الرحمٰن شيبان
رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
(١٣٣٦ ـ ١٤٣٢هـ = ١٩١٨ ـ ٢٠١١م)

في يوم (١٢ رمضان ١٤٣٢هـ، الموافق: ١٢ أغسطس ٢٠١١م)، تلقينا نبأ وفاة العالم الجزائري المربي، الداعية إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، الشيخ الجليل عبد الرحمٰن شيبان رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، رجل العلم والجهاد والعمل، عرفته الجزائر داعية ومصلحًا ومفكرًا، ووزيرًا للشؤون الدينية، وعرفته الأمَّة الإسلامية مدافعًا عن قضاياها العادلة، وعلى رأسها القضية الفلسطينية، بعد حياة حافلة بالعطاء والدعوة إلى الله تعالى، وتربية أجيال عظيمة على المنهج الوسط، فكان حقًّا أحد أعلام التربية والتزكية والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

بدأ الشيخ شيبان حياته العملية محرِّرًا في الجرائد الجزائرية، منها: جريدة (النجاح)، و(المنار)، و(الشعلة) وغيرها. وكان من الكُتاب الدائمين في جريدة (البصائر) لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بتكليف من الإمام محمد البشير الإبراهيمي، المدير المسؤول عن الجريدة. التحق بالمجاهدين في المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني خلال ثورة التحرير بالجزائر، وكان عضوًا في لجنة الإعلام فيها، وشارك في تحرير جريدة (المقاومة الجزائرية)، لسان حال جبهة التحرير الوطني وجناحها المسلح **جيش التحرير الوطني**. وفيها كتب عدة مقالات هامة تحت عمود (صفحات خالدة من الإسلام)، يسقط فيها الماضي على الحاضر.

• **لقائي بالشيخ عبد الرحمٰن:**

في ربيع سنة (١٩٨٢م)، زارني أحد الإخوة الجزائريين ـ نسيت اسمه ـ في مكتبي في كلية الشريعة بجامعة قطر، وبعد الترحيب وتبادل الأحاديث الودية، وجَّه إليَّ سؤالًا مباشرًا: لماذا تقاطع الجزائر، ولا تعطيها شيئًا من اهتمامك؟.

قلت له: أنا لـــم أقاطع الجزائر، ولكـــن لم تتح لي الفرصـــة حتى اليوم لأزورها.

قال: ولكنك طوفت في العالم مشـــرّقًا ومغرّبًا، ولم تجعل الجزائر ضمن اهتماماتك!.

قلت: لم يكن هذا إهمالًا للجزائر أو قصدًا مني، وقد عرفت الجزائر عن طريق بعض أبنائها الذين جمعني بهم السكن في شقة واحدة، فحببوا الجزائر إلي، ثم عرفتها أكثر عن طريق جهادها ضد الاســـتعمار الاستيطاني الفرنسي، الذي لفت إليها أنظار العالم، ولا سيما المســـلمين، وقد خطبت على المنبر لتأييد هذا الجهاد خطبة، أذاعتها إذاعة القاهرة.

قال: ألم تُدع يومًا إلى (ملتقى الفكر الإسلامي) الذي يعقد سنويًّا بالجزائر، ويشارك فيه العلماء والمفكرون من أنحاء العالم العربي؟.

قلت: أحسب أنه وصلتني دعوة منذ مدة، واعتذرت عن عدم الاستجابة لها.

قال: ولماذا؟.

قلتُ: سمعت أن هذا الملتقى إنما أنشئ لخدمة أهداف الدولة الاشتراكية ذات النظام الشمولي، التي تحكم الشعب بالحديد والنار، عن طريق الحزب الواحد، ولا يســـمح لأحد بنقد ولا معارضة، ومن اجتـــرأ على ذلك فمصيره معروف. كما قيل لي: إن رئيس المؤتمر ـ وهو وزير الشؤون الدينية ـ لا يحترم ضيوفه، ويعقب عليهم تعقيبات خشنة، ولا يستطيع أحد أن يرد عليه.

قال: على كل حـال، لقد تولى الـوزارة وزيرٌ جديد، مـن تلاميذ ابن باديس، ومن جمعية علماء الجزائر، وهو الشيخ عبد الرحمٰن شيبان، وأعتقد أنه يرحب بوجودك. كما أن الرئيس الحالي له توجهات انفتاحية طيبة، وهو: الشاذلي بن جديد.

قلت: إذا كان الأمر كذلك، فأنا أرحب بقبول الدعوة إذا جاءتني.

قال: سأسـعى بعد رجوعي لتصلك الدعوة المنشودة، ويسعد بك شعب الجزائر ضيفًا على أرضه، بل كما قال الشاعر:

يـا ضيفَنَا لـو زرتَنَـا لوجدْتَنَا نحنُ الضيوفُ وأنت ربُّ المنزلِ!

وانصرف الأخ الكريـم من عندي، ولـم تمر إلا أيـام قلائل، حتى وصلتني دعوة مـن وزير الشـؤون الدينية الجزائري، يدعونـي فيها إلى المشاركة، في الملتقى الذي يعقد بمدينة تلمسان في الصيف القادم، ويدور موضوعه حول (السـنة المطهرة)، وألحّ الوزير الداعي عليَّ ألا أتخلف، قائلًا: إن من حق الجزائر عليك أن تزورها وتلتقي بشـيوخها وشـبابها، وتشارك في بناء نهضتها.

وفعلًا أرسـلت إليهم في الحال بقبولي للدعوة، وعزمي على الحضور في الوقت المطلوب، وفعلًا سافرت لحضور الملتقى، وكان أول من تعرفت عليه وزير الشؤون الدينية الشـيخ عبد الرحمٰن شيبان، الذي هرع لمقابلتي والترحيب بي، والاعتذار عن عدم مقابلتي في المطار، وأخبرني أنه قرأ عددًا من كتبي، ويعرفني جيدًا قبل أن يلقاني، وقد رددت على تحيته بمثلها، أو أحسـن منها. وقال لي: معك دعوة دائمة لحضور الملتقيات التي نرجو ألا تتخلف عنها بعد اليوم.

قلت: إني حريص على المشـاركة فيها، وفيما هو أكثر منها، وأسـأل الله العون والتسديد.

وقد عرَّفني الوزير على عدد من الإخوة النشـطين، الذين يعملون لله في الوزارة، وينظمون معه ملتقيات الفكر، ويتقابلون مع الضيوف، منهم: الشاب النابه المتوقد عبد الوهاب حمـودة مدير الملتقيات ومنظمهـا، و(الدينامو) المحرك لها، والذي اسـترحتُ إليه بمجرد لقائه ورؤية وجهه، فلما شاهدت تحرُّكَه، وسمعت كلامه بعد ذلك: ازددت حبًّا له، وتقديرًا لما يبذله من جهد وإعداد وتنظيم، في سبيل إنجاح الملتقيات.

وعرفت من أعوانه كذلك من الشباب الواعين والمرجوِّين: الهادي الحسني من رجال وزارة الشؤون الدينية، ومن المعاونين من أساتذة الجامعات: الدكتور عبد الرزاق أبو جسُّـوم، والدكتور عمـار الطالبي، والدكتـور أحمد عروة، والدكتور سـعيد شـيبان طبيب العيون، صاحب الثقافة الإسـلامية الواسعة، والنشاط الإسلامي المتعدد، الذي أحبه كل من عرفه وعايشه. كما لقيت العالم الجليل الشيخ أحمد سحنون، شيخ العلماء، الذي كنت تعرفت عليه من قبل في المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، الذي عقد بالمدينة المنورة.

وكانت فرصة لتأكيد التواصل مع الأخ الداعية الشيخ محفوظ نحناح الذي تعرفت عليه من عدة سنين، إذ كان ممثلًا لحركة الإخوان المسلمين بالجزائر. ثم تعرفت على كثيرين بعد ذلك، بالتدريج، والجزائريون قوم ـ على ما فيهم من شدة وصلابة ـ يتميزون بسلاسة الطبع، وصفاء النفوس، وعدم الالتواء، فلا غرو أن تحبهم ويحبوك.

وبعد أن حضرت المؤتمر، عدنا إلى الجزائر العاصمة، وبقيت يومين أو ثلاثة، وفيها نظم الإخوة في وزارة الشؤون الدينية: محاضرة عامة لي في أحد المسـاجد، وبعد ذلك عزمت على السـفر والعودة إلى القاهرة، وجاء الشيخ عبد الرحمٰن شـيبان، ليودعنـي، ويؤكد عليَّ أن أحرص علـى الحضور في الملتقى القادم، الذي سـيكون في مدينة (قسنطينة) مدينة الشيخ ابن باديس،

ومنطلق نشاطه، وقال لي: لقد رأيت كيف تعلق الشباب الجزائري بك، حتى كادوا لا يفارقونك، وهذا يوجب عليك ألا تتخلى عنهم. فقلت له: إن شاء الله لن أتخلى عنهم أبدًا.

ثم اشتركت في ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر عن الاجتهاد في قسنطينة (١٩٨٣م)، وقد حضرت قبل يومين من انعقاد المؤتمر، فدعوني إلى إلقاء محاضرة شعبية، في أحد المساجد الكبرى، حضرها أكثر من عشرة آلاف، معظمهم من الشباب والشابات، ثم سافرت إلى (قسنطينة)، بلد الإمام ابن باديس، مؤسس جمعية العلماء، وبادئ النهضة الإسلامية هو ومن معه من إخوانه العلماء، وكان من أبنائه الشيخ عبد الرحمٰن شيبان.

واشتركت أيضًا في المؤتمر الذي بعده، وكان عن الصحوة الإسلامية (١٩٨٤م)، وكانت وزارة الشؤون الدينية لملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر تحت رئاسة وزيرها الشيخ عبد الرحمٰن شيبان، مع الجهاز المعني بالملتقيات يحسنون اختيار الموضوعات، فقد عقدوا مؤتمرًا عن القرآن، ثم عن السنة، ثم عن الاجتهاد، ثم عن الصحوة. وهو ترتيب منطقي يدل على حسن فهم.

وكانت كلمات الشيخ عبد الرحمٰن التي يلقيها في بداية الملتقى وفي نهايته، بمثابة المصباح المضيء، والشعلة النيرة.

وكنت أرى أن عدم حضوري في مثل هذه الملتقيات بغير عذر قاهر يُعد فرارًا من الميدان، ولا سيما وأن وزيرها ابن جمعية العلماء وتلميذ الشيخ ابن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ: الشيخ عبد الرحمٰن شيبان، الذي كان يعاملني وشيخنا الغزالي، معاملة متميزة، واستمر حضوري للملتقيات، إلا لعذر قاهر يمنعني، فقد حضرت أغلب الملتقيات التي استمرت إلى سنة (١٩٩٠م)، ثم تغير الوضع في الجزائر، وتغيرت القيادة.

وظلت علاقتي بالشـــيخ عبد الرحمٰن متينة وثيقة العُرا، حتى بعد أن ترك الوزارة، إلى أن جاء أخوه الدكتور سعيد وزيرًا للأوقاف.

ثم داهمتني ظروف جعلتني أدع الجزائر للعودة إلى قطر، ولكن كان الشيخ شـــيبان دائمًا قريبًا مني، فحين أعلنت عـــن افتتاح الاتحـــاد العالمي لعلماء المسلمين في لندن، ودعوت العلماء الشرعيين في العالم الإسلامي للانضمام إلينا، للوقوف ضد أعداء الأمة، وأعداء الإسلام، كان الشيخ شيبان في مقدمة المستجيبين، وأعلن أنه معي في كل المواقف على أساس من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وفهم الســـلف الصالح رضوان الله عليهم، وأن جمعية علماء الجزائر إنما هي جزء من الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

ثم لقيته في الملتقى الدولي للإمام محمد البشـــير الإبراهيمي بمناســـبة الذكرى الأربعين لوفاته سنة (٢٠٠٥م)، حينما دعاني إليها رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد هاتفني عندما علم بدخولي المستشـــفى العسكري بعين النعجة في الجزائر عام (٢٠٠٧م)، وهنأني باســـمه الخـــاص ونيابة عـــن جمعية العلماء المسلمين بالتماثل للشفاء.

- **قوته في الحق:**

كان الشيخ شـــيبان رَحِمَهُ اللَّهُ قويًّا في الحق، مع العلم أنه كان في آخر عمره مريضًا، ففي صيف (٢٠٠٩م) أصدر شيخ الطريقة العلوية خالد بن تونس كتاب (الصوفية الإرث المشـــترك)، والذي تضمن صورًا للرسول وحوله صحابته، يلقنهم القرآن، بالإضافة إلى صور سيدنا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في هيئة امرأة، واشتمل العديد من الآراء حول الإسلام والمرأة والعقيدة، وكان الشيخ شيبان أول من تصدى لما جاء في كتاب (الصوفية الإرث المشـــترك)، واتهم زعيم الطريقة العلوية في الجزائر بالإساءة للمقدسات الإســـلامية، والرموز الوطنية، وحتى للتصوّف الحق، ودعا السلطات إلى التدخل وسحب الكتاب من السوق.

ولما أصدر وزير الداخلية السابق نور الدين يزيد زرهوني، تعليمات لبعض مصالح الوزارة، وتقضي بإلزامية الصور في بطاقات الهوية من دون لحية أو خمار، رأى الشيخ الشيبان ما أقدمت عليه الوزارة وقتها «غرابة لم تأمر بها حتى الدول الأوربية»، وأصدر بيانًا عبر فيه عن دهشته من أن تسمح الدول الأوربية بصور الخمار للمسلمات في جواز السفر، في حين تلزم الجزائر مواطناتها بنزع الخمار. واستنكر شيبان عدم استشارة وزارة الداخلية أهل العلم، ودعا إلى اجتماع لجنة من الخبراء والقانونيين والفقهاء لتوضيح الموقف الشرعي والقانوني لهذه المسألة، وتقديمه لوزارة الداخلية.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ بصيرًا بالأمور، وبسياسة الدول الكبرى الاستعمارية، فكان دائمًا ما يردد تلك العبارة الشهيرة لرفيق دربه الشيخ البشير الإبراهيمي: احذروا أمريكا التي يدها في الظهران، ورجلها في طهران، وعينها على وهران.

نسأل الله أن يرحمه رحمة واسعة، وأن يحشره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* * *



الدكتور محمد فريد عبد الخالق

(١٣٣٤ ـ ١٤٣٤هـ = ١٩١٥ ـ ٢٠١٣م)

الأخ الكبير الأستاذ: محمد فريد عبد الخالق، كان من القريبين من الأستاذ البنا المرشد الأول، وكذلك من المرشد الثاني الأستاذ: الهضيبي، وهو من مواليد فاقوس محافظة الشرقية.

التقى بالإمام حسن البنا (مؤسس جماعة الإخوان المسلمين) للمرة الأولى عام (١٩٤١م)، فهو واحد من الرعيل الأول للإخوان المسلمين، الذي كان له دور كبير في تاريخ الجماعة، واتُّهم واعتقل أكثر من مرة بمحاولة قلب نظام الحكم قبل الثورة وبعدها.

تولى الدكتور فريد أحد الأقسام المهمة في الجماعة وهو قسم الطلبة، فقد أصبح رئيسًا لقسم الطلبة من عام (١٩٤٢م)، وحتى عام (١٩٥١م)، ثم رئيسًا لقسم الخريجين حتى عام (١٩٥٤م). واختير عام (١٩٤٨م) عضوًا في الهيئة التأسيسية لجماعة الإخوان المسلمين، كما أنه كان عضوًا بمكتب الإرشاد، وعيَّنه الإمام البنا مسؤولًا عن صحيفة (الإخوان المسلمين) اليومية من عام (١٩٤٦م)، وحتى توقفها عن الصدور عام (١٩٤٨م). وليس ذلك فقط، بل عمل لفترة سكرتيرًا للإمام حسن البنا، وهو في نظر كثيرين (كاتِم أسرار) الجماعة، وأحد (الآباء الرّوحيين) للكثير من شباب الإخوان.

كان أحد القيادات التي اختارت المرشد الثاني للجماعة المستشار حسن الهضيبي عام (١٩٥١م)، كما كان أحد قيادات الإخوان التي تفاوضت مع جمال عبد الناصر قبل وبعد قيام ثورة يوليو عام (١٩٥٢م).

اعتُقل في يناير عام (١٩٥٤م) مع كافة قيادات الإخوان، بعد قرار حل الجماعة، ثم أُفرج عنه في مارس، ثم اعتُقل مرة أخرى في أكتوبر من العام نفسه، وحُكم عليه بالسجن عشر سنوات مع إيقاف التنفيذ، في القضية التي اتُّهم فيها الإخوان المسلمون بمحاولة قلب نظام الحكم واغتيال جمال عبد الناصر، ثم أُفرج عنه عام (١٩٥٨م).

- **شهادته على موقف الإمام حسن البنا من قتل الخازندار:**

يقول: إنه دخل على الأستاذ البنا، بعد نشر وقوع الحادثة، فوجده أشد ما يكون غضبًا وحنقًا، حتى إنه كان يشد شعره من شدة الغضب، وقال له: أرأيت ما فعل إخوانك يا فريد؟ أرأيت هذه الجريمة الحمقاء؟ إني أبني، وهم يهدمون، وأصلح، وهم يفسدون! ماذا وراء هذه الفعلة النكراء؟ أي مصلحة للدعوة في قتل قاض؟ متى كان القضاة خصومنا؟ وكيف يفعلون هذا بدون أمر مني؟ ومن المسؤول عن الجماعة: المرشد العام أم رئيس النظام الخاص؟ هؤلاء سيدمرون الدعوة. إلى آخر ما قال الأستاذ حسب رواية الأستاذ فريد، وقد سمعت منه هذه القصة أكثر من مرة.

- **من شهادته على حكم عبد الناصر:**

قال الأستاذ عبد الخالق: إن عبد الناصر يريد أن يحكم البلد وحده، لا يشاركه أحد في حكمها، ولا ينتقده في رأي، فقد قال له عبد الناصر في إحدى جلسات الحوار معه: أنا أريد أن أضغط على زر، فتتحرك البلد من الإسكندرية إلى أسوان، وأضغط على زر آخر فتتوقف البلد.

- **شهادته على تنظيم (٦٥):**

يرى الأستاذ فريد عبد الخالق أن الهضيبي لم يوافق على قيام تنظيم (١٩٦٥م) أو نشاطه. وإن كان وافق على نشر (معالم في الطريق)، الذي كان الأساس النظري الذي استند إليه التنظيم، على الرغم من أنه طلب من الهضيبي

أن يوصي بعدم نشـــره، لما تضمن من أفكار تخالف فكر جماعة (الإخوان)، خصوصًا ما يتعلق بتكفير المجتمع. ويضيف أن ســـيد قطب تراجع كتابةً عن أفكاره التي ضمنها فـــي الكتاب أثناء التحقيق معـــه ومحاكمته، وأن الأوراق المتعلقة بذلك كانت لدى شمس بدران الذي كان يحقق شخصيًا معه.

• **مؤلفاته:**

للدكتور فريد عبد الخالق كثير من المؤلفـــات الموجودة في المكتبات، ويعتبر أول نتاجه العلمي بحث قيم بعنوان: (أساسيات في موضوع: الإسلام والحضارة)، ألقـــي في (الندوة العالمية للشـــباب الإســـلامي) بالرياض عام (١٩٧٩م)، وبحث بعنوان (الإخوان المسلمون.. فكرة وحركة)، ألقي في ندوة البحرين بتكليف من مكتب التربية للخليج العربي عام (١٩٨٤م)، ثم (الإخوان المســـلمون في ميزان الحـــق) كتاب صدر لـــه عام (١٩٨٧م)، وتلاه (مأســـاة المسلمين في البوسنة والهرسك) ـ ملحمة شعرية ـ عام (١٩٩٣م)، وتبعه (ديوان المقاومة) تقديم فهمي هويدي عام (٢٠٠٣م)، ثم (تأملات في الدين والحياة) عام (٢٠٠٣م)، وأخيرًا (في الفقه السياسي الإسلامي) عام (٢٠٠٧م).

قدم الدكتور رسالة الدكتوراه وكان موضوعها (الاحتساب على ذوي الجاه والســـلطان) وحصل عليها وقد تجاوز عمره (٩٤) عامًا، ودخل بذلك الإنجاز موســـوعة جينيس للأرقام القياســـية، كونه أكبر باحث في السن يحصل على درجة الدكتوراه في العالم، متفوّقًا على صاحب اللقب السابق الذي كان عمره (٩١) عامًا.

تشـــكلت لجنة المناقشة من: الأســـتاذ الدكتور يوســـف قاسم، أستاذ الشريعة بكلية الحقوق جامعة القاهرة (مشرفًا)، والمفكر الإسلامي الدكتور محمد سليم العوا، أستاذ القانون الجنائي بكلية الحقوق جامعة الزقازيق، والأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين (مناقشًا)، والدكتور محمد

نجيب عوضين، أستاذ الشريعة الإسلامية ووكيل كلية الحقوق بجامعة القاهرة (مناقشًا).

منحت اللجنة الباحث محمد فريد عبد الخالق درجة الدكتوراه بتقدير (امتياز)، مع التوصية بطبع الرسالة على نفقة جامعة القاهرة، وتوزيعها على الجامعات، لتعميم الفائدة من موضوعها المهم، ومعالجاتها المتميزة، باعتبارها أول رسالة علمية تبحث في مسألة الرقابة الشعبية على الحكام ومسؤولي السلطة التنفيذية من منظور إسلامي.

- **وفاته:**

توفي الأستاذ فريد يوم الجمعة الموافق (١٢ أبريل ٢٠١٣م) عن عمر يناهز (٩٨) عامًا.

رحمه الله، وتقبله في عباده الصالحين، وأسكنه الفردوس الأعلى مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وجزاه الله خيرًا عمَّا قدَّم لدينه وأمته ودعوته.

* * *



الشيخ زهير الشاويش
المدرس والمحقق والناشر الإسلامي
(١٣٤٤ ـ ١٤٣٤هـ = ١٩٢٥ ـ ٢٠١٣م)

نحتسب عند الله تعالى فضيلة الأخ الكريم، والصديق العزيز، الداعية الإسلامي الشيخ محمد زهير بن مصطفى الشـــاويش، المشهور بـ(زهير الشـــاويش) رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي وافته المنية في مدينة بيروت، عصر يوم السبت (٢٢ رجب ١٤٣٤هـ، الموافق أول يونيو ٢٠١٣م).

• **المكتب الإسلامي:**

افتتح الشيخ زهير ســـنة (١٣٧٠هـ = ١٩٥٠م) دارًا لتحقيق التراث الإسلاميّ ونشره، باسم (المكتب الإسلامي)، في محلَّة الحَلْبُوني بدمشق، ثم اضطُرَّ مكرَهًا إلى الانتقال إلى بيروت ســـنة (١٣٨٢هـ = ١٩٦٣م)، وصارت الدار من أكبر دور النشر في العالم العربي؛ فقد أخرجت الروائع الإسلامية لكبار الكتاب المسلمين في الدعوة والثقافة والتربية والعلوم الشـــرعية، وأخرج أيضًـــا من كبار الكتب الإسلامية في التراث؛ في الفقه، والتفسير، والحديث، والأصول، واللغة العربية، والأدب العربي، والتاريخ، حقَّق الشيخ زهير عددًا منها، فكان من رجال التحقيق، ومن رجال القلم، ومن رجال الدعوة.

والشيخ وإن عاش ردحًا كبيرًا من حياته في بيروت، إلا أنه سوري الأصل، وُلِدَ في سورية، ونشأ فيها، وتعلَّم فيها، وعمل فيها، وانضمَّ إلى دعوة الإخوان المسلمين، وعاشر كبار رجالها، وعاشر علماء سورية المعروفين، عاشر الأستاذ الدكتور الســـباعي، الفقيه الداعية أول مراقب للإخوان في ســـورية، وقد لقي الإمام الشهيد حسن البنا، والأســـتاذ الكبير مصطفى الزرقا، والأستاذ معروف

الدواليبي، والأستاذ محمد المبارك، والأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، كل هؤلاء عايشهم في سورية، وكذلك الدكتور محمد أديب صالح، والدكتور عدنان زرزور، ثم حدث بينه وبين السوريين ما حدث، فترك سورية وذهب إلى قطر، وعاش في قطر عددًا من السنين، وتعرَّف على رجال قطر، كالدكتور عز الدين إبراهيم، والدكتور كمال ناجي، والأستاذ عبد الحليم أبو شقة، وحسن المعايرجي، ومحمد مصطفى الأعظمي، وعبد البديع صقر، وتعرف على الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني، حاكم قطر، ونشر له عددًا من الكتب القيمة، في الفقه الحنبلي والحديث والتفسير، والتاريخ والأدب واللغة، وغير ذلك من الكتب.

ثم غادر قطر قبل أن آتي إليها، فلم أتعرف عليه إلا بعد ذلك، حين طبع أحد الشيوخ، وهو الشيخ غانم بن علي آل ثاني كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) عنده ليوزع في قطر، وقد راسلني بعد ذلك ليجعل الكتاب أحد مطبوعاته، فوافقت.

وفي سنة (١٩٦٥م) بدأت التعرف عليه، والزيارة له وبدء الاتصال به، حتى توفاه الله إلى رحمته.

- **بيت الشيخ زهير في بيروت:**

كان بيت الشيخ (مَعْلَمًا) من معالم بيروت، لا يكاد يمر ببيروت عالم أو داعية أو شخصية ذات وجاهة في قومها، إلا مرَّ بالشيخ وسلَّم عليه، وقد تعرفتُ عنده على رجال فضلاء من زواره، أذكر منهم الوجيه السلفي المعروف، أشهر رجال جُدَّة في زمنه: الشيخ محمد نصيف، وهي المرة الوحيدة التي قابلته فيها خارج المملكة، وقد التُقطت لنا صورة تذكارية مع الشيخ في منزل الشاويش، وكذلك الشيخ الألباني، والشيخ أبو غدة.. وغيرهم من العلماء، وكثير من الإخوة الذين جاؤوا من مصر ومن بلاد عربية.

وكانت مزية بيت زهير الشـــاويش أنه يحوي مكتبة فيها من الكتب ما لا يوجد في غيرها، وقلَّما يريد الإنسان كتابًا إلا وجده فيها، ناهيك بما فيها من مخطوطات ونوادر، فضلًا عن الكتب التي ينشـــرها، بالإضافة إلى أن الشيخ زهيرًا رجل كريم مضياف، فكثيرًا ما كانت تتغذى عقولنا على مكتبته، وتتغذى بطوننا على مائدته.

وكان موضع القبول من مشـــايخ لبنان وأعلامها الكبار: صديقنا الشـــيخ حسن خالد رَحِمَهُ اللَّهُ مفتي لبنان، وصديقنا الدكتور صبحي الصالح، والشيخ رشيد القباني، ورفقاؤه في الـــدرب الدكتور فتحي يكن، والشـــيخ فيصل مولوي، والأستاذ إبراهيم المصري، وغير هؤلاء من أبناء الدعوة الإسلامية.

• **أعماله:**

لهذا العلَّامة أكثر من (٥٠) خمســـين كتابًا في الدراسات المختلفة، ما بين علوم قـــرآن، وعلوم حديث، وفقه، وتربيـــة، وتاريخ، جُلُّها في خدمة السنة المشرفة.

فقد حقق عددًا من الكتب، منها: (إبطال الحيـــل) لابن بطة، و(الأجوبة الجلية في الأحكام الحنبليـــة) للقدومي، و(الاحتجاج بالقـــدر) لابن تيمية، و(الأربعون الكيلانية) لعبد الرزاق بن عبد القادر الكيلاني، و(تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب) للآجُرِّي، و(كتاب الرد على الجهمية) للدارمي... وغيرها.

وقدم لعدة كتب، وجمع مقدماته تلك في كتاب تحت عنوان: (المقدمات لمطبوعات المكتب الإسلامي للطباعة والنشر).

ومن كتبه: (تبويب وترتيب أحاديث صحيح الجامع الصغير وزيادته على أبـــواب الفقه) وطبع معـــه (معجم ألفـــاظ أحاديث صحيـــح الجامع الصغير وزيادته)، و(الملحوظات على الموسوعة الفلسطينية).

• **وفاته:**

عاش الشيخ زهير للدعوة الإسلامية والثقافة الإسلامية والأمة الإسلامية، وبذل ما يبذله الرجال المخلصون لدينهم ولدعوتهم ولأمتهم.

فلا نملك إلا أن ندعو الله تبارك وتعالى له أن يتقبله في الصالحين، وأن يسكنه الفردوس الأعلى، وأن يجزل الأجر لأهله وذويه، وأبنائه وإخوانه وأحبائه جميعًا، وأن يلهمهم الصبر، وأن يجزل لهم الأجر، وأن يجزيه عن أمته خير الجزاء.

نسأل الله ﷻ أن يجزيه عمَّا قدَّم للدعوة، وما قدَّم للثقافة الإسلامية، وما قدَّم للكتاب الإسلامي، وما قدم لأمة الإسلام.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

* * *



الشيخ عبد الكريم زيدان
(حوالي ١٣٣٥ ـ ١٤٣٥هـ = ١٩١٧ ـ ٢٠١٤م)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا ومعلمنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

أقرأ في هذا الموقف الجلل، قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وأقرأ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

ونحن نترحم على أخينا وحبيبنا وشيخنا وأستاذنا وإمامنا عبد الكريم زيدان، نسأل الله تبارك وتعالى أن يغفر له ويرحمه ويجزيه خير ما يجزي به العلماء الربانيين، والأئمة الصادقين الذين يعملون من أجل دينهم وأمتهم، نسأل الله ﷻ أن يجمعنا به في جنة الفردوس أجمعين.

أيها الإخوة، من فضل الله تعالى أنه يرحم الناس بالعلماء أحياء وأمواتًا، فعبد الكريم زيدان رحم الله تعالى به الناس حيًّا، ورحم الله به الناس حال موته، رحم الله به الناس في بلاد كثيرة؛ في العراق، وفي البلاد حول العراق، وانتهى به الأمر في اليمن، هذا الرجل ليس رجلًا عاديًّا، خسرنا به رجلًا، كما يقولون: فقدنا رجلًا والرجال قليل، وحقيقة الرجال قليل، كما قال السموءل بن عاديا:

تُعيِّرُنـا أنَّـا قليـلٌ عديدُنـا فقلـتُ لهـا إنَّ الكـرامَ قليلُ
وَمَـا ضرَّنا أنَّـا قليـلٌ وجارُنا عزيزٌ وجـارُ الْأَكْثَريـن ذليلُ

كان عبد الكريم زيدان رجلًا، وكان أيضًا عالمًا، ليس كل الرجال علماء، العلماء من الرجال قليلون، ما معنى عالم؟ يعني يعلم أشياء ويتخصص فيها، يعرفها من جذورها، يعرف ظاهرها وباطنها، ويعرف كُليها وجزئيها، ويعرف مقاصدها وظواهرها، وهكذا كان عبد الكريم زيـدان عالمًا، بل أحد العلماء القليلين في هذه الدنيا، الناس كثيرون والعلماء قليلون.

عبد الكريم زيدان ورث العلم العراقي بعد أن رحل الشيخ أمجد الزهاوي علامة العراق، الشيخ أمجد الزهاوي كان من الذين يؤلفون الرجال ولا يؤلفون الكتب، كما كان الشيخ حسن البنا، ولكن عبد الكريم زيدان كان ممن جمع بين الأمرين.

كان الرجل الأول المسؤول عن دعوة الإخوان المسلمين في العراق، بعد أن رحل الشيخ الصواف منها، وأجمع الإخوان على اختياره مراقبًا عامًا لهم، وظل يقودهم ويفقههم ويربيهم حسب الأصول الشرعية، وله في ذلك كتابات ودراسات.

عبد الكريم كان أحد علماء الأمة، هو عالم ولكنه تميز في العلم بالفقه، ليـس كل العلماء فقهاء، الفقهاء مـن العلماء قليلون جـدًا، كثير من العلماء خطباء، يخطبون ويهزون المنابر، ويجمعون الناس بالألوف، ولكن من ناحية الفقه لا تجدهم فقهاء، ولكن عبد الكريم زيدان كان أحد الرجال القليلين في علم الفقـه، وقد بدأ ذلك بكتابه الشـهير (أحكام الذميين والمسـتأمنين في الإسـلام) رسـالته لنيل الدكتوراه من جامعة القاهرة، التي شهد له أساتذتها بالعلم، وناقشهم وناقشوه، وعرفه الناس أول ما عرفوه بهذا الكتاب الذي أثبت أصالته العلمية، ثم بدأ يكتب في أمور أخرى في أصول الفقه والفقهيات، ألف

في فقه المرأة كتابه الشهير (المفصل في فقه المرأة) في عشرة مجلدات، وأخذ عليه جائزة الملك فيصل في الفقــه، واعترف بعلمه وفقهه كل الناس، اعترف بهذا السعوديون، وهم قلما يعترفون لأحد بالفقه من خارج مذهبهم الحنبلي ومن خارج فكرهم، وهو أول من اختير عضوًا في (مجمع الفقه العالمي) الذي يمثل المسلمين في أنحاء العالم، كل بلد يختار منها واحد، ليس من الضروري أن يكون أعلم أهل بلده، عادة يكون ممن يعرفه الناس، وبخاصة المسؤولون، لكن عبد الكريم زيدان كان ممن اختاره العلمــاء، كان أول من اختاره علماء الســعودية، وعلماء مجمع الفقه العالمي. كذلك عرفــه علماء اليمن، وعلماء اليمن زيدية وشافعية، اعترفوا بفقهه وقدموه، وحينما انتقل إلى اليمن أصبح الأســتاذ الأول الذي يخرج أصحاب الدكتوراه، ويعطيها للشــباب من الدول المختلفة، وبعضهم درس عليه بعض الكتب، الشــيخ فضل مراد درس عليه كتاب (بدائع الصنائع) في الفقه الحنفي للكاساني.

كان عبد الكريم زيدان ـ وإن كان حنفيًّــا ـ يدرس كل المذاهب، ويوازن بينها ويختار منها ما هو أصح وأرجح في نظره، لذا فقد كان يتبع الدليل ويسير مع الدليل، وهو مع فقهه كان داعية، ليس كل الفقهاء دعاة، فهناك من يتميز في الفقه ومسائله والترجيح بينها، ولكنه لا يستطيع أن يلقي خطبة أو محاضرة أو درسًــا للعامة. كان عبد الكريم زيدان أول الدعاة، بل كتب في مجال الدعوة عدة كتب؛ منها (أصول الدعوة)، كلنا تعلمنا من كتاب (أصول الدعوة)، هذا الكتاب علَّم المسلمين في العالم.

بعد الدعاة الأوائل: الغزالي، والبهي الخولي، وفتحي عثمان، وأمثالهم؛ قام عبد الكريم زيدان، وتتميز كتبه الدعويــة بأنها تكتب بلغة الفقيه، يجتمع فيها فقه الداعيــة ودعوة الفقيه، وله في هذا المجال عدة كتب منها: (الســنن الإلٰهية في الأمم والجماعات والأفراد)، (المستفاد من قصص القرآن).. وغيرها من الكتب التي ألفها عبد الكريم زيدان في الدعوة.

كان عبد الكريم زيدان عالمًا فقيهًا، وداعية كبيرًا، اجتمع عليه أبناء الأمة باختلاف مشاربهم، وتتلمذوا على كتبه، وأصبحت كتبه الفقهية والدعوية تعلم في الجامعات الإسلامية، وأصبحوا يأخذون منها مناهج للتدريس والتعليم.

وهو مع كونه الداعية الأول كان رجلًا مجاهدًا صداحًا بالحق، فهناك دعاة يخافون أن يتحدثوا عن الجهاد، أن يعلموا الناس الجهاد، فضلًا عن أن يجاهدوا بأنفسهم.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ حريصًا على المقاومة، ويربي الناس على المقاومة، كان رَحِمَهُ اللَّهُ مجاهدًا جاهد في العراق أول ما جاهد، وجاهد من أجل فلسطين، وجاهد في اليمن، وظل في اليمن مجاهدًا يحمل راية الجهاد.

وأهم ما يحمله من راية الجهاد ليس حمل السيف بل الصدع بالحق، بعض الناس يظن أن أهم شيء في الجهاد السلاح، لا، النبي ﷺ يقول: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»[1].

أفضل أنواع الجهاد، وأعلى مراتب الجهاد هو أن تحمل كلمة حق عند سلطان جائر، أنا لم يتح لي أن أذهب للجهاد، وكنت أود أن أذهب للجهاد، لكني لم أترك جهاد الكلمة، الذي قدمه رسول الله ﷺ ـ إذا صدق صاحبه فيه ـ على جهاد السلاح؛ لأن جهاد الكلمة يقاوم الفساد في الداخل، بينما جهاد السلاح يقاوم الغزو من الخارج، ولا بد من علاج الداخل قبل الخارج.

وعلمنا النبي ﷺ بقوله: «**سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه، فقتله**»[2]. إن المجاهد بالكلمة قريب المسافة من سيد الشهداء.

---

(١) رواه أحمد (١٨٨٢٨) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والنسائي في البيعة (٤٢٠٩)، عن طارق بن شهاب.

(٢) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (١٩٥/٣) وصحح إسناده، وقال الذهبي: الصفار ـ وهو أحد الرواة ـ لا يدرى من هو، والخطيب في تاريخ بغداد (٥٣/٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٤)، عن جابر بن عبد الله.

كان عبد الكريم زيدان له طلاب في كل مكان يربيهم على الجهاد، ويفقههم في الجهاد، ليكونوا هم الذين يقودون جهاد الأمة في بلدانهم وأقاليمهم.

التقيت عبد الكريم زيدان في لبنان، لعله أول لقاء جمعني به، وأهديت له كتابي (فقه الزكاة) وأهداني بعض كتبه، وكتبت على الكتاب إهداء، ولكنه كان يخشى عليّ أن يعرف النظام العراقي من لقيه من هذا الإهداء، وقلت له: ربنا يسلم.

والتقيته في قطر عدة مرات، كان يشكو عينيه، فكان يأتي لطبيب ألماني كان يعالجني في قطر، واتفق معه ليقابله هنا ويعالجه، والتقيته في السعودية في لقاء مجمع الفقه الإسلامي، ومجمع رابطة العالم الإسلامي، وكان له الرأي المسموع المحترم، والتقيته عدة مرات في اليمن.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ كثير الاتصال بي يطلب مني أن أقول كذا في بعض المواضيع، خصوصًا فيما يتعلق بالعراق، مع كونه بعيدًا عن العراق، كُتِب عليه هذا، كان وزيرًا في وزارة عبد السلام عارف، ثم غادر العراق ولم يعد إليه، لكنه كان مشغولًا به، ويتابع كل ما يحدث فيه.

كان فوق التسعين لكنه كان شابًّا في روحه وعزيمته، كان يعمل بكل ما يستطيع في كل مجال لخدمة الإسلام، كان من الرجال القلائل الذين جمعوا بين الرجولة والعلم والفقه والدعوة والجهاد، كان ربانيًا إنسانيًا أخلاقيًا عالميًا، له أثره في كل من عرفه، ومن لم يلقه تأثر بكتبه أو بعض كتبه، ومن لم يقرأ منه قرأ لتلاميذه الكثر.

نسأل الله تعالى أن يرحم هذا الفقيد الجليل الذي فقدته أمتنا، والأمة في هذا العصر إذا فقدت رجلًا قل أن تعوض مثله، الذي يذهب قلما يوجد مثله، عبد الكريم زيدان قلما يوجد مثله، نحن فقدنا رجلًا والرجال قليل.

النبي ﷺ قال في الحديث المتفق عليه: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا،**

ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسُئِلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[1].

هؤلاء العلماء الذين يحفظون على الأمة دينها وعقيدتها، وقيمها وأخلاقها، إذا ذهب العلماء ذهبت الأمة، النبي ﷺ قال: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[2].

إني والله لحزين على رحيل أخي وحبيبي وأستاذي الشيخ عبد الكريم زيدان، أحد رجالات العراق، ورجالات العراق معروفون، قل أن يوجد مثلهم، بل هو أحد رجالات الإسلام، إذا أردنا أن نحدد رجالات الإسلام، رجالات العلم والدعوة والجهاد والربانية الصادقة، فهو على رأسهم، هو فقيد الأمة، فقدته الأمة كلها.

أسأل الله تعالى أن يتغمده برحمته وأن يسكنه فسيح جنته، وأن يسكنه الفردوس الأعلى، وأن يجزيه خير ما يجزي به العلماء العاملين، والأئمة الصادقين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، وأن يبارك في تلاميذه وفي بلده وإخوانه، وفي كل بلد وطئته قدماه من بلاد الإسلام.

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

* * *

---

(١) سبق تخريجه: ص ١٩٧ في كتابنا هذا.

(٢) سبق تخريجه: ص ٧٣٧ في كتابنا هذا.



الأستاذ محمد قطب

علامة الفكر والدعوة والتربية

(١٣٣٧ ـ ١٤٣٥هـ = ١٩١٩ ـ ٢٠١٤م)

ودَّع العالم الإسلامي، وودعت الأمة الإسلامية الكبرى في مشارق الأرض ومغاربها الجمعة (رابع جمادى الآخرة سنة ١٤٣٥هـ = رابع أبريل سنة ٢٠١٤م): قطبًا من أقطابها، وعلمًا من أعلامها، وقلمًا من أقلامها، ونجمًا من نجومها، وَهَبَ عمره من أوله إلى آخره لها ولدينها، ودعوتها وثقافتها، وحضارتها وتراثها، وهو الداعية الكبير، والكاتب القدير، المصري وطنًا، الإسلامي هُوية، العالمي امتدادًا: الأستاذ محمد قطب، الذي صلى الناس عليه عشاء في الحرم المكي، وصليت عليه وإخواني في قطر صلاة الغائب.

بعد حياة حافلة راضية، ثائرة على الطاغوت، مؤمنة بالله، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ قضى هذه الحياة في خدمة الفكرة الإسلامية والدعوة الإسلامية، التي بها يعيش، ولها يحيا، ومن أجلها يدرِّس ويحاضر، ويؤلف ويكتب، ويدعو ويربِّي، حتى لقي ربه راضيًا مرضيًّا، بمكة المكرمة بجوار بيت الله الحرام.

ولقد لقي ما لقي، وقاسى ما قاسى، في سبيل دعوته وفكرته؛ دخل السجن، وسُقِي المر، وتحمَّل الأذى، وتلقى نبأ قتل الظالمين أخاه سيد قطب صاحبَ (العدالة) و(الظلال) و(خصائص التصور الإسلامي ومقوماته)، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. وردد ما قاله يعقوب: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وتلقى بعد ذلك نبأ وفاة زوج شقيقته كمال السنانيري، الذي سيق إلى معتقلات السادات، وتوفي في بداية عهد مبارك، في شبهة إيذاء وتعذيب، أدى إلى نهاية حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كان محمد قطب آخر عضو في أسرة قطب إبراهيم، وهم أطياف أربعة[1]: سيد، ومحمد، وأمينة، وحميدة. وكانوا كلهم من أصحاب القلم، ومن أهل النور والدعوة إلى الإسلام، وإنا لندعو الله أن يتقبلهم في الصالحين.

آل قطب كلهم برجالهم ونسائهم: أسرة أدب ودعوة، وثقافة وفكر، وقد كان موطنهم بالصعيد، فانتقلوا إلى القاهرة، ومن القاهرة انتقلوا بفكرهم ودعوتهم إلى العالم العربي، بل العالم الإسلامي، بل إلى كل العالم.

وكان سيد قطب في بداية حياته من مدرسة العقاد، في الأدب والنقد، ولم يكن من أنصار الرافعي، المعروف بانتمائه للإسلام.

وكان محمد قطب في أول أمره مشغولًا بالأدب والفن، حتى انتقل الرجلان معًا إلى الإسلام، سيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القرآن) وكتابه الآخر (مشاهد القيامة في القرآن)، وكان الكتابان فتحًا جديدًا في اتجاههما الفريد، ثم دخل الدعوة بكتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، وبدأ محمد قطب يوجه قلمه وفكره، ليكتب عن الإسلام.

كان أول كتاب قدمه إلى عالَم المؤلفين هو: (الإنسان بين المادية والإسلام)، فدلَّ على أصالةٍ في فكره، وتمكُّن في علمه، ونبوغٍ في مواهبه.

واستمر تدفقه في عالم التأليف، يمتع المسلمين في بلاد العرب، والعالم الإسلامي، وعالم الغرب والشرق، بكتبه القيمة، التي تقدم البيّنات، وترد على الشبهات، وتقاوم الباطل، وتنشر الحق، فهو من الطائفة المنصورة، التي شهد لها محمد ﷺ، بأنها التي تظل قائمة على الحق، لا يضرها من خالفها، حتى

---

(١) لآل قطب كتاب اشتركوا جميعًا في تأليفه يسمى: (الأطياف الأربعة).

يأتي أمر الله وهم على ذلك، وهي التي قال الله فيها: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

قدم من أول ما قدم (شبهات حول الإسلام)، و(منهج التربية الإسلامية)، و(منهج الفن الإسلامي)، و(جاهلية القرن العشرين). ويعني بها جاهلية الغرب التي زيف بهـا الحقائق، وروج بها الأباطيل، وقدم للناس حلوى مسـمومة، ولكنها في عُلَب جميلة، وكان عندنا نحن جاهلية القرن الرابع عشر، ولكنها جاهلية مقلِّدة، اتخذت الغرب ربًّا، فاتخذ أهلها له عبيدًا.

وما زال محمد قطب، وخصوصًا بعد فقد شقيقه الأكبر سيد قطب، الذي أصر عبد الناصر على إعدامه رغم توسط المتوسطين، وشفاعة الشافعين له من زعماء العالم العربي، فلقي ربه شهيدًا، كما قال الله ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وظل أخوه محمد يحمل الراية، ويمد المكتبة الإسلامية بكتبه الإسلامية الكبيرة والمتوسـطة والصغيرة، وكلها قذائف في وجـه الباطل، وكواكب في سماء الحق، ويمد الجامعات بما يمد به شبابها من فقه وثقافة، حتى استقرَّ به المقام في مكـة ـ حفظها الله ـ يدرِّس لشـبابها، ويهيئهم لحمل الماجسـتير والدكتوراه، وقد تتلمذ عليه كثيرون، ودانوا لفكره.

وقد كنت، وكثيـرون مثلي، ننتظر ظهور كتبه الجديـدة، فنتلقفها لنقرأها وندرسها ونقتبس منها، ومنها: (واقعنا المعاصر)، و(مذاهب فكرية معاصرة)، و(كيف نكتب التاريخ الإسـلامي؟)، و(دراسـات قرآنية)، و(حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية)، و(مفاهيم ينبغي أن تصحح) وغيرها.

ولقد كان يعيد طباعة كتبه القديمة مرات ومـرات، وكثيرًا ما كان يراجع نفسه فيها، ويتراءى له من الأفكار ما قد يعاتب عليه نفسه. انظر إلى ما كتبه في مقدمة الطبعة الرابعة، بعد عشـرين سـنة من الطبعة الأولـى، لكتابه الأول (الإنسان بين المادية والإسلام)[1]. يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) نشر دار الشروق ـ القاهرة.

«هذا الكتاب هو أول كتبي، ومن أحبها إلي!.

إنه يمثل في نفسي خط الاهتداء إلى الإسلام!.

ولقد عشته سنوات طويلة قبل كتابته بالفعل؛ عشته خواطر متفرقة، وتأملات متشعبة في النفس والحياة؛ ولكنها لم تتبلور، ولم تأخذ صورتها النهائية، إلا في أثناء كتابة الكتاب!.

ولذلك أحسست وأنا أكتبه، أنني أجد نفسي! وأجد إسلامي واضح الصورة، مفصل القسمات!.

ولقد كان مدخلي إليه هو دراسة النفس الإنسانيَّة، وما زال هذا أوسع مداخل البحث لدي؛ فأنا أشعر دائمًا أن دراسة النفس الإنسانيَّة هي القاعدة التي نبني عليها معرفتنا وتصوراتنا، في كل ما يختص (بالإنسان) سواء كان أدبًا وفنًّا، أو تاريخًا، أو سياسة، أو اقتصادًا، أو اجتماعًا، أو تربية وعلم نفس.. وأننا لا نستطيع أن نخوض في هذه المجالات بغير تصور سليم، ودراسة وافية للنفس الإنسانية.

وأيًّا كان الرأي، فهذا هو المدخل الخاص الذي دخلت منه إلى الدراسة الموضوعية في هذا الكتاب، وفي كتب كثيرة تالية.. وما زلت مقتنعًا بأنه يمكننا التوصل إلى كثير من الحقائق عن هذا الطريق!.

ثم إن هذا الكتاب ـ في الوقت الذي تبلورت فيه أفكاري ومشاعري و(مدخلي) إلى الإسلام ذاته ـ كان في الحقيقة (مستودعًا) لكثير من الأفكار التالية التي تولدت عنه، فكانت امتدادًا له أو بلورة أو تخصيصًا لما جاء فيه من موضوعات. وبهذه النظرة أنظر مثلًا إلى كتبي: (شبهات حول الإسلام) و(في النفس والمجتمع) و(معركة التقاليد) و(منهج التربية الإسلامية) و(دراسات في النفس الإنسانية) و(التطور والثبات في حياة البشرية) وحتى (جاهلية القرن العشرين)!.

لقد كانت كلها بـــذورًا محتواة في الكتاب، أو براعـــم تفتحت فيما بعد، وامتدت في شتى الاتجاهات..

وربما كان هذا كله تفسيرًا للصلة النفسية التي تربطني بالكتاب!.

غير أنه ينبغي لـــي أن أقول: إنني عند مراجعتي له مـــن أجل هذه الطبعة ـ وتلك أول مراجعة حقيقية منذ كتبته أول مرة سنة (١٩٥١م) ـ وجدت أن هذه المدة المتطاولة من الزمن قد فعلت فعلها ـ ولا شك ـ في طريقة تفكيري، وفي موقفي من بعض قضايا الكتاب!.

لقد وجدت مثلًا أنني أعطيت فرويـــد ـ والتفكير الغربي عامة ـ أكثر مما ينبغي من (التوقير العلمي)! وأن هذا التفكير الغربي ـ بما فيه فرويد بالذات ـ لا يســـتحق كل هذا التوقير، ولا كل هذه العناية بتفنيده! ولست أعني بذلك أنني عدلت عن منهج المناقشة الموضوعية لأية فكرة أو نظرية، بل هذا الذي ينبغي دائمًا أن نفعله، ولكن المناقشة الموضوعية شيء و(التوقير) شيء آخر.. وأرى اليوم ـ بعد زيادة خبرتي بانحرافات الفكر الغربي، وبمخططات الإفساد التي تخطط لإفساد البشـــرية ـ أن ذلك الفكر يناقش ـ إذا لزم الأمر ـ مناقشة موضوعية، نعم، ولكن بغير الحفاوة والاحتفال الذي كان قبل عشرين سنة من الزمان! وأن الأجدر بنا أن نعرض حقائق الإســـلام المشـــرقة الوضيئة، دون التفات لتلك الانحرافات!»[1].

ومن أهم كتبه (منهج التربية الإسلامية) بجزأيه، وقد نال على تأليفه لهذا الكتاب جائزة الملك فيصل، وهو جدير بذلك.

إن محمد قطـــب ـ بكتبـــه المتنوعة فـــي موضوعاتها وموادهـــا، أو في محاضراته الشائقة المركزة وفي إنتاجه الغزير ـ أصبح يمثِّل مدرسة إسلامية في الدعوة والتربية، والحوار والفكر الإسلامي، الذي يتميز بالأسلوب النيِّر، الذي

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام.

يخاطب العقل، ويحرك العاطفة، ويحـاور الآخر، ويرد على الغرب، كما يرد على المخالفين، ويثير في الشـباب اعتزازًا خالصًا للإسـلام، وتكاتفًا عليه، وجهادًا في سبيله، ورفضًا لما سواه.

لا أريد أن أظهر ما فارق به محمد قطب غيره، فليس هذا وقت الممايزة ولا المفاضلة، حسـبنا أن الرجل كان ابن الإسلام في كل ما يصدر عنه، لا يتبنى فكرًا غيره، ولا يشـرك به دينًا ولا مذهبًا ولا فلسفة لمخلوق، كبر أو صغر، شرقيًا كان أو غربيًا، بل رأيناه فيما طبعه أخيرًا من كتبه الأولى يعتذر عما كان فيه من توقير زائد لبعض رجـالات الغرب الذين رآهم حادوا عن سواء السبيل، مثل: (فرويد) في كتابه الأول (الإنسان بين المادية والإسلام). وهو كلما اتسـعت ثقافته وامتدت وتعمقت، ازداد إيمانًا بصدقية الإسلام، وأحقيته بأن يسـود ويقود؛ لأنه كلمة الله؛ وهي الوحيـدة في هذا الوجود، وكلمة الله هي العليا.

تزوج الأسـتاذ محمد قطب بعدما تقدم به العمر من أسـرة دمشـقية عريقة، وأنجب ثلاثة أبناء بررة: أسامة، وعبد الرحمٰن، وابنته المتخصصة في علم التاريخ.

وبقي رغم طول مكثه في المملكة يحمل الجنسية المصرية، إلى أن انتقل إلى رحمة الله.

انتقل مدرسًا في قسم الدراسـات العليا بجامعة الملك عبد العزيز بمكة، والتي سميت بعدُ بجامعة (أم القرى)، واستفاد منه طلابه، وتعلقوا به، وأنزلته المملكة آنذاك منزلته، فكان محاضرًا في كل الجامعات وشـتى المناسبات، وحظيت كتبه بالشـهرة والانتشـار، وطلب منه وزير التعليم العالي الشـيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ بإشارة من الأستاذ محمد المبارك أن يكتب (منهاج التوحيد) لطلاب الثانوية، فألف كتاب (التوحيد) بأجزائه الثلاثة، وقرأه ألوف الطلاب وانتفعوا به، ثم غُيِّر المنهاج إلى أسلوب آخر، وكاتب آخر. وقد أخرج

فيما بعد كتبه التي كتبها في منهج التوحيد إلى كتاب سماه: (ركائز الإيمان)، وهو من كتبه التي يستفاد منها كسائر كتبه.

وبعض الشباب السعودي الذين تخرجوا على يديه، ساروا على دربه، وحملوا فكره الحر، ودافعوا عنه، وجادلوا رجال المملكة، بما آمنوا به، وأشرف على بعض رسائلهم، ولا يعني إشرافه الموافقة على كل ما كتبوه، بل الطالب هو الذي يحمل مسؤولية ما سطره بقلمه، واختاره بفكره؛ ربما كان موقف هؤلاء الطلبة وتشددهم أحيانًا، هو الذي خوف بعض العلماء على فكرهم التقليدي الموروث من الشيخ محمد وأمثاله، ولعل هذا هو الذي سول لبعض غلاة المشايخ والعلمانيين أن يطلب إبعاده عن المملكة.

وكم دُعي محمد قطب إلى محاضرات في بلاد شتى: في بلاد الخليج ومنها قطر، وفي بلاد العرب وغيرها، يستمع إليها العلماء والمفكرون والدعاة، ويستمع إليها المثقفون، والشباب والشابات خاصة، فتؤثر محاضراته في أفكارهم وتنورها، وتؤثر في عواطفهم وتوجهها، وتؤثر في عزائمهم وتحفزها.

وقد دعوته أكثر من مرة إلى جامعة قطر، وإلى كلية الشريعة فيها، فاستجاب لدعوتنا عدة مرات، وألقى محاضرات جامعية، ومحاضرات عامة، واستفاد الطلبة، واستفاد الجمهور، وسعد العلماء والدعاة والمهتمون بالشأن الإسلامي بالجلوس والمحادثة والمناقشة معه. وكم شعرت بالسعادة حين دعوته في بيتي مع الإخوة، فاستجاب، وملأ بيتنا سرورًا وبهجة.

وقد دعوته لينتقل إلى قطر، ليعمل فيها، ويستقر بها، وكل أهل قطر يرحب به، وكم حاول معه صديقنا وصديقه الدكتور عبد الرحمٰن بن عمير النعيمي، ولكنه رفض أن يترك جوار المسجد الحرام الذي جعله الله قيامًا للناس وأمنًا.

وقد أراد أناس من المملكة أن يخرجوه منها، مع من خرج من الإخوان، ولكن كثيرين توسطوا له، وحققوا له ما أراد، من الإقامة والاستقرار بمكة المكرمة، دون أن يمارس أي نشاط، فوافقت المملكة على ذلك، فبقي بها، حتى وافاه الأجل وهو فيها ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

كان محمد قطب يعرف أن لي ملاحظات على كتابات شقيقه الشهيد سيد قطب، وما يضره هذا؛ لأن ما قاله إنما قاله عن اجتهاد، والمجتهد ـ وإن أخطأ ـ مأجور على اجتهاده أجرًا واحدًا. وربما كان لي ملاحظات على بعض كتبه هو، ولكنه لم يكلمني قط في ذلك، ولم أكلمه، لأننا نتحدث في المتفق عليه، لا في المختلف فيه، وهو يعلم أن اختلاف الناس في بعض هذه الأمور وارد، وأن لكلٍّ فكرَه، ولا حرج عليه فيما اجتهد فيه، وكل مجتهد يعتز باجتهاده، وهذا من حقه، وإنما المهم هنا هو النية، «**وإنما لكل امرئ ما نوى**».

وكنت لقيته عدة مرات في زياراتي إلى مكة المكرمة وجدة، وكم دعاني أن أزوره في بيته في مكة المكرمة، ووعدته بذلك، وكم تمنيته والله، ولكن كل زياراتي في مكة كانت سريعة، ولم يتحقق لي ما رجاه مني، فأرجو أن يسعني صفحه، فما له مني غير المودة والتقدير والحب في الله، وصدق الله إذ يقول: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وكنت على تواصل معه، ولما بلغني دخوله إلى المستشفى في رمضان (١٤٢٣هـ) إثر نوبة قلبية، اتصلت به، واطمأننت على صحته، وبثثته حبي وتقديري ودعائي الخالص.

كان محمد قطب في عالم الدعوة والثقافة الإسلامية في دنيا المسلمين: نورًا يهدي، وغيثًا يُحيي، وروحًا يسري، وصوتًا يدوّي، وعزمًا يقوّي، وشمسًا تشرق، وشهابًا يثقب ويحرق، ولكنه لا يحرق إلا الشياطين.

اللهم ارحم آل قطب الأبرار، وارحم محمد قطب واغفر له، وعافه واعف عنه، وتقبل منه، واكتبه في عبـــادك المرضيين، وعلمائك العاملين، ودعاتك الصادقين، وأســـكنه الفردوس الأعلى، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، واحشرنا في زمرتهم يا رب العالمين.

* * *



الدكتور عبد السلام الهراس
رجل الأدب والدعوة والثقافة
(حوالي ١٣٤٩ ـ ١٤٣٦هـ = ١٩٣٠ ـ ٢٠١٥م)

انتقل إلى رحمة الله، الجمعة (٢٠١٥/٢/٢٠م) صديقنا العربي المسلم، عالم المغـــرب، البحاثة الداعيـــة الثبت المعروف، الأســـتاذ الدكتور عبد الســـلام الهراس، أحد كبار علماء المغرب المعروفيـــن، وأدبائها المرموقين، ودعاتها المخلصين، أستاذ الأدب الأندلسي بجامعة محمد بن عبد الله بفاس، ورئيس جمعية العمل الاجتماعي والثقافي بالمغرب، وأحد الأعضاء المبرزين في عدد من الجمعيات العلمية والإسلامية والخيرية في العالم الإسلامي.

عرفته منذ ما يقارب أربعة عقود، لقيته أول ما لقيته في المدينة المنورة، مشـــاركًا في المؤتمر الأول للدعوة الإســـلامية وإعداد الدعـــاة، الذي نظمته الجامعة الإسلامية، سنة (١٣٩٧هـ)، ودعت له كبار الدعاة والكتاب والمفكرين الإسلاميين، من مختلف بلاد العالم الإسلامي، فكان منهم الدكتور عبد السلام الهراس من المغرب، والشيخ أحمد سحنون من الجزائر.

ثم لقيته فـــي العام التالي في المغرب، في شـــهر رمضـــان (١٣٩٨م)، الموافق أغسطس (١٩٧٨م)، وقد دعيت من قِبل وزير الأوقاف المغربي الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، عن طريق سفير المملكة المغربية بالدوحة، للمشاركة في الدروس الحسنية الشـــهيرة، التي اعتاد ملك المغرب الحســـن الثاني أن يقيمها كل رمضان، ويدعو إليها عددًا من العلماء من خارج المغرب، بالإضافة إلى علماء المغرب.

وقد قدر الله ﷻ أن يدخل الملك المستشفى لإجراء عملية جراحية، فلم تعقد هذه الدروس في ذلك الموســـم.. ومن ثم رتبوا برنامجًا ثقافيًا آخر، من

ذلك ندوة عقدهـا التلفزيون المغربي حول (غزوة بدر والدروس المستفادة منها)، وكان معي فيها مؤرخ الفتوحات الإسلامية اللواء الركن محمود شيت خطاب، المعروف بمؤلفاته ودراساته المتوافرة في السيرة والتاريخ، والأخ العالم الأديب المعروف الدكتور عبد السلام الهراس.

ومن الطرائف أن اللواء الركن محمود شيت خطاب، توجه لمدير الندوة بقوله بلهجة عسكرية صارمة: لا أحب أن تقدم الشيخ يوسف بالدكتور، بل بالشيخ، لأن الشيخ في تربيتنا وفي نظرنا أعظم وأكبر، وله في قلبنا مهابة واحترام وإجلال منذ طفولتنا.

فاضطرب الأستاذ مقدم الندوة، وكان حييًّا ليِّنًا وقال: يشترك معنا في هذه الندوة: اللواء الركن يوسف القرضاوي، والشيخ محمود شيت خطاب، والدكتور عبد السلام الهراس. فانفجرنا ضاحكين واضطررنا لإعادة التسجيل. وقد عقب الشيخ عبد السلام الهراس رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: لو كانت رتب تعطى للعلماء، لكانت رتبة الشيخ يوسف القرضاوي من الرتب العزيزة السامية.

ثم زرت ـ في هذه الفترة التي خلت من الدروس الحسنية ـ عدة مدن مغربية لإلقاء بعض الدروس والمحاضرات، ومنها العاصمة العلمية للمغرب مدينة فاس، حيث جامعة محمد بن عبد الله، التي يدرِّس فيها الهراس، التي دعيت لإلقاء محاضرة بها، وقد قدم المحاضرة الدكتور الهراس، وسألني عن موضوعها، فتركت له حرية الاختيار، فاقترح أن تكون عن (مكانة العلم في الإسلام) فألقيتها ارتجالًا، واستمرت لنحو ساعتين، وسر بها الشيخ والحضور، والحمد لله على فضله.

ثم لقيته في ملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر التي ابتدأت الاستجابة إليها والمشاركة فيها منذ سنة (١٩٨٢م) وما بعدها، وفي الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته سنة (٢٠٠٥م)، وفي

الكويت في اجتماعات الهيئة الخيرية العالمية، فقد اخترناه عضوًا مؤسسًا في جمعيتها العامة، وكان حضوره فيها حضورًا مؤثرًا له وزنه وتقديره عند الجميع، وهو حريص على التزام القيم والآداب العربية والإسلامية، يذكر بها من نسيها، وينبه إليها من غفل عنها.

وفي لندن في تأسيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين سنة (٢٠٠٤م)، دعوناه للمشاركة ليكون من أول الأمر من المؤسسين، وكذلك في الدوحة، وإستانبول، وغيرها من المدن والمؤتمرات.

وهو بالفعل أحد الأعضاء المؤسسين المهمين للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، المسهمين بفكره ولسانه وكلامه في إثراء العمل وحسن توجيهه.

وله دائمًا حضور ملموس، ومشاركات إيجابية رصينة في كل الاجتماعات في الهيئة الخيرية، وفي اتحاد العلماء، وفي اجتماعات العربية السعودية، وفي كافة اللقاءات، تميز فيها بحرصه البالغ على سلامة الدين واللغة والأخلاق من التحريف والتزييف والتمييع.

وقد شارك فضيلة الشيخ عبد السلام الهراس بكتابة بحث عن شخصي الضعيف، في الكتاب التذكاري المنشور عني بمناسبة بلوغي سن السبعين بعنوان (الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي القيادة الحكيمة في مسيرة التأصيل والتجديد والتوحيد).

وله مقالات دعوية، ومؤلفات رصينة، وتحقيقات نافعة لاقت قبولًا واسعًا، مثل: تحقيقه لـ(التكملة لكتاب الصلة) لابن الأبار، ومشاركته في تحقيق (أزهار الرياض في أخبار عياض) لشهاب الدين أحمد بن محمد المقّري التلمساني، و(ديوان ابن الأبار البلنسي)، و(صلة الصلة) لابن الزبير الغرناطي، و(درر السمط في خبر السبط). وكان مجيدًا للغة الإسبانية، وترجم عنها عدة قصائد وقطع وأبحاث أدبية.

كان للشيخ الهراس صلات وثيقة بكبار رجالات العلم والفكر في العالم الإسلامي، ويعتبر هو أحد تلاميذ المفكر الجزائري الكبير مالك بن نبي، حيث لقيه وأخذ عنه، وساهم في نشر أفكاره ورؤاه، وأشار على الدكتور عبد الصبور شاهين بترجمة كتبه لأهميتها. وكان لترجماته النصيب الأكبر في نشرها.

وكثيرًا ما شارك رَحِمَهُ اللَّهُ في التوقيع على بيانات تخص قضايا العالم الإسلامي والعربي: القدس، وفلسطين، والعراق، وغيرها من القضايا.

وتعتبر التجربة المغربية التي شارك فيها الشيخ عبد السلام الهراس، بانضمام عدة جمعيات إسلامية في كيان واحد باسم (حركة التوحيد والإصلاح) نموذجًا يجب أن يحتذى في العمل الإسلامي في عصرنا الحاضر.

وقد شيعته المغرب، شعبًا ممثلًا في الجماهير الغفيرة التي شاركت في الجنازة المهيبة، وحكومة ممثلة في رئيس وزراء الحكومة عبد الإله بن كيران، وودعه محبوه وعارفوه من مختلف بلاد العالم الإسلامي، من العلماء والدعاة والأدباء والباحثين والغيورين.

نعزي الأمة الإسلامية، ونعزي أسرته، ونعزي أنفسنا، في وفاة الرجل المثقف، والعالم المربي، والداعية الكبير الشيخ عبد السلام الهراس، الذي قضى شبابه، وكهولته، وشيخوخته، وعمره كله في خدمة الإسلام والدعوة إليه، وإلى رسالته العالمية، وإلى أصوله ومنهجه، وإلى لغته العربية وآدابها. فإنا لله، وإنا إليه راجعون، له ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى.

نسأل الله تعالى أن يغفر له، ويرحمه، وأن يسكنه الفردوس الأعلى، وأن يجزيه عن دينه وأمته ودعوته خير ما يجزي به الأئمة الربانيين، والعلماء الهادين المهتدين، وأن يحشره مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا. آمين.



الدكتور حارث الضاري
رجل العلم والدعوة والجهاد والأمة
ورئيس هيئة علماء المسلمين
(١٣٥٩ ـ ١٤٣٦هـ = ١٩٤١ ـ ٢٠١٥م)

منذ عدة أيام نعينا للأمة الإسلامية، وللأمة العربية، ولأهل العراق، وخصوصًا أهل السنة منهم، أخانا الحبيب إلينا، الأثير لدينا، العزيز علينا، الرجل، العالم، الداعية، المجاهد، الثائر، المقاوم للباطل، المكافح للظلم، الواقف دائمًا ضد الضلال والباطل، والطغيان والفساد، الشيخ الدكتور حارث سليمان الضاري، الأمين العام لهيئة علماء المسلمين العراقية، التي جمعت كل علماء العراق، ليواجهوا الطغيان والاستعمار والعنصرية، وهي الهيئة الأساسية لعلماء السنة في العراق، وهو عضو مجلس الأمناء السابق للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، منذ عرفته لم أعرفه إلا رجلَ حق ورجلَ خير ورجل هداية ورجل مسؤولية.

اسمه: حارث الضاري، فهو مكون من لفظين، أو من اسمين، لهما معنيان واضحان، أحدهما الحارث، والآخر الضاري، وقد ورد في الحديث الشريف: «**أصدق الأسماء: حارث، وهمام**»[(١)].

وذلك أنه ما من إنسان إلا ويتحرك ويحرث، وقبل ذلك لا بد أنه يهم ويريد، وكذلك الشيخ حارث، كان يسعى ويحرث ويبذر، من أجل مستقبل بلده، ومستقبل أمته ودينه، ومستقبل الإنسانية. ومع هذا لا يدع الآخرين يفسدون عليه زرعه وحرثه، فكان ضاريًا في الحفاظ عليه، ومقاومة من يحاول إفساده ويكون ضده، كان أسدًا ضاريًا لا يخاف من أحد، يقول: لا! بملء فيه، ولا يبالي.

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٩٠٣٢)، وأبو داود في الأدب (٤٩٥٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٤١٤٠).

والدكتور الضاري ينتمي إلى واحدة من كبرى عشائر العراق، وهي عشائر زوبع، التي تنتمي إلى قبائل شمر الطائية العربية العريقة، وقد لعبت دورًا بارزًا في مقاومة الاحتلال البريطاني للعراق في العشرينيات من القرن الماضي، وجدُّه الشيخ ضاري شيخ عشائر زوبع، هو من قام بقتل الجنرال الإنجليزي (لجمن) القائد المكلف بالسيطرة على المنطقة الغربية إبان الثورة العراقية، ووالده كان ممن وقف وصمد وجاهد ضد الاستعمار البريطاني من قديم.

توفي الشيخ الدكتور حارث الضاري عن عمر يناهز (٧٤) عامًا، في إحدى مستشفيات إستانبول، بعد أن عاش حياةً حافلة بالعطاء والجهاد والبلاء، سواء في ميدان تدريس العلم الشرعي، وتربية الأجيال العراقية على الإيمان، وتخريج العلماء منهم على التأصيل، والدعوة إلى الله على بصيرة، أم في ميدان العمل السياسي، وهو ميدان يقاوم الاستعمار الذي يريد السيطرة على البلاد، ويقاوم التقسيم الطائفي الذي يريد أن يجور على أهل السنة، حتى تضيع حقوقهم، وتنتهك حرماتهم، أم في الجهاد ضد المحتل الأمريكي في العراق، الذي أراد أن يفسد البلاد، ويذل العباد، كما قال الله تعالى على لسان ملكة سبأ: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]؛ فقد كانت له مواقفه الداعية لخروج القوات المحتلة من العراق، وقد أطلق العديد من المبادرات الوطنية الداعية لوحدة وتكاتف العراقيين في وجه مخططات التقسيم والطائفية.

كان عالمًا ليس ككل العلماء، فهناك أناس حصَّلوا العلم، ووصلوا إلى أعلى الدرجات في العلم، ولكنهم رضوا بأن يكونوا في ركاب الظالمين، وأن يحنوا ظهورهم، ويطأطئوا رؤوسهم للظالمين المستكبرين في الأرض، أما هو فكان كالطود الأشم الراسخ الراسي، رفض أن يحني رأسه إلا لله في ركوعه وسجوده، لم يخضع إلا للجبار الأعظم، جبار الأرض والسماوات، عرف معنى الله أكبر، فآثر أن يكون دائمًا لله، ومع الله، ومجاهدًا في الله حق جهاده.

كان ملتزمًا بالحق، كان يمثل الحق الواضح الصريح، وكان مقاومًا المبطلين المتلونين، الذين يتلونون تلون الحرباء، كان لا يداهن الباطل ولا يزين موقفه بالتهريج والهزل، فهو رجل لم يعرف الهزل إليه طريقًا.

كان الهم العراقي لا يفارقه في حله وترحاله، وكم رأيته هنا في قطر، وفي الكويت، وفي الأردن، وفي مصر، وفي المملكة، وفي لبنان، وفي تركيا، وفي غيرها، منافحًا عن العراق وأهله، كان يريد أن يكون العراق لأهله، وكان يقول: إن أهل السنة في العراق هم الأغلبية، ويجب أن يأخذوا حقوقهم.

وقد عانى الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرًا من أجل مواقفه، فقد صدرت في حقه مذكرة توقيف من الحكومة العراقية عام (٢٠٠٦م)، اضطر بعدها إلى أن يخرج إلى الأردن، وقد قتل أخوه ضامر ـ وقبله ابن أخيه ـ غيلة، فقابل كل المحن بصبر وعزيمة، وثقة بالله، وإصرار على المضي قدمًا في طريق الجهاد، فقد كان يعلم أن الجهاد الصادق طريقٌ، من بدأه، فلا بد له من الاستمرار فيه، ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

ولا بد أن يكون جهادًا بالنفس وبالمال كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد قال الحسن البصري: اشترى أنفسًا هو الذي خلقها، وأموالًا هو الذي رزقها، وأعطى الثمن فأغلى، جنة عرضها السماوات والأرض.

وظل على إصراره أن المقاومة في العراق حق مشروع، وأن كل من يعين الاحتلال يعد من المحتلين، ويعد من الخائنين، والله لا يحب الخائنين، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

تخرج في جامعة الأزهر، بعد حصوله على الدراسات الابتدائية والثانوية في مدارس العراق، وحصل من جامعة الأزهر على شهادة العالمية من كلية أصول الدين عام (١٩٦٣م).

ثم تابع تعليمه بعد العالي وحصل على شـهادة الماجسـتير في التفسير (١٩٦٩م)، وبعدها سجل في شعبة الحديث، فأخذ منها أيضًا شهادة الماجستير، ثم حصل علـى الدكتوراه في الحديـث عام (١٩٧٨م)، كمـا حصل الدكتور عبد الكريم زيدان على الدكتوراه مـن مصر، من جامعة القاهرة، وكما حصل الدكتور علي القرداغي على الدكتوراه من جامعة الأزهر، وبعد ذلك عاد إلى العراق، حيث عمل مفتشًـا في وزارة الأوقاف، ثم بعد ذلك نُقل إلى جامعة بغداد بوظيفة معيد، فمدرس، فأستاذ مساعد، فأستاذ.

وتربى على يديه عدد من خيرة أبناء العراق، من الدعاة المجاهدين، الذين أدعوهم ليتحدثوا ويكتبوا عن شيخهم وأستاذهم. وقد لقيت أحدهم في حفل العزاء في الدوحة، وقال: إننا تعلمنا من الشـيخ حارث أمورًا كثيرة، منها: ألا نجعل أوطاننا للبيع أو للإجارة للمستعمر الأجنبي، ومنها: ألا نبيع ديننا بملك المشـرق والمغرب، وأن نحتفظ بشـخصيتنا حرة صلبة، لا يستطيع أحد أن يتصرف فيها غير أصحابها.

وهذه مبادئ عظيمة، يجب أن نرحب بها، وندعو إلى الاستمسـاك بها؛ فإنها من العروة الوثقى.

عمل الأستاذ الدكتور حارث أكثر من (٣٢) عامًا بالتدريس الجامعي، في عدة جامعـات عربيـة، كجامعة اليرموك فـي الأردن، وجامعـة عجمان في الإمارات العربية المتحدة، وكلية الدراسـات الإسلامية والعربية في دبي، ثم تقاعد ليتفرغ لإدارة هيئة علماء المسلمين في العراق.

كان الضاري الأب الروحي لمقاومة الاحتلال الأمريكي للعراق، ورفض المشاركة في الانتخابات التي أجريت أواخر يناير عام (٢٠٠٤م)، تحت سلطة المحتل، ورفض تشـكيل أي كيان سياسـي أو رسـمي، ما بقـي الاحتلال الأمريكي في العراق، وهو الأمر الذي خالفته فيه، ورأيت أن المشـاركة في

الانتخابات وفي العمل السياسي ضرورة، والضرورات تبيح المحظورات، والانتخابات لا تعفينا من واجب المشاركة في مقاومة الاحتلال وآثاره.

ظل الضاري في الأردن ـ بعد خروج الاحتلال الأمريكي من العراق ـ معارضًا لنظام الحكم الطائفي في العراق، ودعا الشعب العراقي إلى القيام بثورة شعبية سلمية ضد حكومة نوري المالكي، الطاغية الطائفي الذي فرض على العراقيين أن ينقسموا إلى طوائف، وصمم أن يعلي إحدى الطوائف على الأخرى، وهو ما رفضه أهل السنة بحق.

وبعد سيطرة مسلحي العشائر العراقية على بعض المناطق العراقية العام الماضي، اعتبر الضاري أن ما وقع ثورة من أجل رفع الظلم عن جميع المظلومين والمستضعفين في العراق، وضد ممارسات إجرامية وسياسات طائفية استبدادية اتبعها رئيس الوزراء نوري المالكي.

وانتقد الشيخ الفتاوى الطائفية التي صدرت من بعض المراجع الشيعية؛ لأنها تؤجج الفتنة بين العراقيين، وتدعم الحاكم الظالم، وأكد في حوارات صحفية متعددة أهمية وحدة العراق، وأن مشروع الفيدراليات والأقاليم مشروع أعداء العراق الدوليين والإقليميين لتقسيمه على أسس طائفية وعرقية مقيتة.

انتقد الضاري تنظيم الدولة الإسلامية وإعلانه عما أسماه بـ«دولة الخلافة»، معتبرًا ذلك تمهيدًا لتقسيم العراق وتفتيت الوطن العربي.

لم يشغل الشأن العراقي الشيخ الدكتور حارث الضاري، عن الاهتمام بمشكلات المسلمين الأخرى، وقد كانت له إسهاماته في القضية الفلسطينية وغيرها من قضايا الأمة، مثل: قضية سورية، وقضية ليبيا، وقضية اليمن، وقضية مصر، وكل قضايا الوطن العربي والإسلامي، فكلها قضاياه، يعيش لها، ويموت عليها، ويدافع عنها بكل ما يملك. بل كل قضية عادلة يخوضها شعب من أجل حريته وعدله وحقوقه فهي قضيته؛ لأن الإسلام علَّمه أن يكون إنسانًا عالميًّا.

كما كان الشيخ المجاهد الضاري أحد العلماء الذين أحسنوا فهم الإسلام، فرفضوا الطائفية البغيضة، والمذهبية المتعصبة، والتقليد الأعمى، وكان من العلماء الدعاة المعلمين ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]. كان يدعو إلى الحق، ويشيع الخير، ويذود عن الحمى، ويقاوم كل من يريدون تحريف الدين، وتزييف الوعي، والبعد عن حقيقة القرآن والسنة، فهو من هؤلاء الذين أثنى عليهم رسولنا المعلم حين قال: «**إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، ليصلون على معلم الناس الخير**»[١].

وهو أيضًا من (الخَلَف العدول) الذين جاء فيهم الحديث: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[٢].

وقد كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الأمة الوسط، التي قال الله فيها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقد رفض كل الدعوات التي تنأى بالأمة عن المنهج الرباني القرآني النبوي، فرفض الإفراط والتفريط، ورفض الغلو والتسيب، وتمسك بمنهج الاعتدال، الذي يرفض الوكس والشطط، رفض أن يدخل في غلو الفئات التكفيرية، التي تكفر سائر المسلمين، وتستحل دماءهم وأموالهم، ولذا كان من الذين رحبوا بالاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، ودعا له، ووضع يده في أيدينا من أجل إنشائه وتقويته.

وقد انتخب عضوًا في مجلس أمناء الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين أكثر من مرة، وكان له رأيه الواضح، وصوته المدوّي، ووقفته الصارمة في كل جلسة

---

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٥)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، والطبراني في الكبير (٢٣٤/٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٨)، عن أبي أمامة.

(٢) سبقه تخريجه، ص ٧٣٧ في كتابنا هذا.

من جلسات الاتحاد، ضد الذين أرادوا أن يَحْرِفوا الاتحاد عن موضعه، ويصرفوه عن وسطيته، فكان الشيخ لهم بالمرصاد، وما عرفنا فيه إلا الصدق والصبر ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

لقد وقف بصراحة ووضوح ضد ما رآه من تعصب الشيخ محمد علي التسخيري، المرجع الشيعي، الذي اخترناه معنا من أول يوم، وجعلناه أحد نواب رئيس الاتحاد، وأوصينا إخواننا أن ينتخبوه، فانتخبوه، ولكنه ـ للأسف الشديد ـ كما لاحظ الشيخ حارث الضاري قبلنا: أنه كان يريد أن يكسب من وجوده في الاتحاد لمذهبه وطائفته، ولم نكن نحن ننظر للأمور هذه النظرة، بل رجونا أن يكون القوم قد أدركوا أن من الخير للأمة أن تتحد ولا تتفرق، لكنهم رأوا أن تتحد الأمة وراءهم، وتسير خلفهم، تتغنى بأناشيدهم، مع أنهم الطرف الأضعف، والعدد الأصغر، والبند الأقل.

كان الشيخ الضاري يصر على أن يناديني دائمًا بهذا اللقب: إمام أهل السنة والجماعة، وإمام علماء المسلمين، ويعلن ذلك في المؤتمرات العالمية، ويصر عليها، ولا يبالي بما يجره ذلك عليه.

رحم الله فقيد العراق، وفقيد الأمة: الشيخ حارث الضاري، وتقبله في الصالحين، ونسأل الله أن يرزقه أجر الشهداء، كما قال رسول الله ﷺ: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»[1].

وما علمناه إلا مجاهدًا بنفسه، ومجاهدًا بماله، وطالبًا للشهادة بصدق.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* * *

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٩)، وأبو داود في الصلاة (١٥٢٠)، والنسائي في الجهاد (٣١٦٢)، عن سهل بن حنيف.



الدكتور عبد الهادي التازي

المؤرخ والدبلوماسي المغربي

(١٣٤٠ ـ ١٤٣٦هـ ـ ١٩٢١ ـ ٢٠١٥م)

ودعت المملكة المغربية مساء الخميس (١٣ جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ، الموافق ٢ أبريل ٢٠١٥م) العالم والمؤرخ واللغوي والدبلوماسي، الدكتور عبد الهادي التازي، الذي وافته المنية عن عمر يناهز (٩٤) عامًا، قضاها في العلم والتأليف وخدمة قضايا بلاده وأمته.

والدكتور التازي حفظ القرآن في الكُتَّاب في سن التاسعة، ثم ترقى في سلم التعليم من المدرسة إلى جامعة القرويين التي حاز فيها على الإجازة سنة (١٩٤٧م)، ثم واصل تعليمه إلى أن حصل على دبلوم الدراسات العليا من جامعة محمد الخامس، ثم دكتوراه الدولة من جامعة الإسكندرية، حيث كان موضوع أطروحته (جامعة القرويين). وبذلك كان الدكتور التازي ممن جمع بين الثقافتين: ثقافة القرويين بأصالتها الدينية واللغوية، والثقافة الحديثة بتوجهاتها الحديثة نحو المنابع الغربية.

اتجه د. التازي إلى السلك الدبلوماسي، فكان سفيرًا لبلاده في العراق ثم ليبيا.

شغل التازي عدة مناصب علمية في المغرب وخارجه، منها: إدارة المعهد الجامعي للبحث العلمي. وعضوية كل من أكاديمية المملكة المغربية، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة،

والمجمع العلمي العراقي، والمعهد العربي الأرجنتيني، ومؤسسة آل البيت، ومجمع اللغة العربية بالأردن، ومجمع اللغة العربية بدمشق. كما عين عضوًا في

المعهد الإيطالي الإفريقي والشرق، ومقره في العاصمة الإيطالية روما، واختير عضوًا بالمجلس العلمي لهيئة المعجم التاريخي للغة العربية، وعين رئيسًا للمؤتمر العالمي السادس للأسماء الجغرافية بنيويورك.

للدكتور التازي عدة مؤلفات تؤرخ للمغرب ثقافة ومجتمعًا، منها: (جامع القرويين: المسجد والجامعة)، و(أعراس فاس)، و(قصر البديع بمراكش من عجائب الدنيا)، و(أوقاف المغاربة في القدس)، و(دفاعًا عن الوحدة الترابية)، و(الإمام إدريس مؤسس الدولة المغربية)، و(المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي). وأخرى في العلاقات الدبلوماسية والسياسية، منها: (جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي) في خمسة عشر مجلدًا، و(تاريخ العلاقات المغربية الأمريكية)، و(العلاقات المغربية الإيرانية)، و(الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريخ)، و(إيران بين الأمس واليوم)، و(الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية). وله في الأدب العربي: (آداب لامية العرب)، وفي التحقيق: (تاريخ المن بالإمامة) لابن صاحب الصلاة، و(الفريد في تقييد الشريد) لأبي القاسم الفجيجي.

كما ألف في الدعوة والثقافة الإسلامية: (تفسير سورة النور)، و(في ظلال العقيدة)، بالإضافة إلى ترجمته عدة أبحاث بالعربية والفرنسية والإنجليزية، منها: (حقائق عن الشمال الإفريقي) للجنرال دولاتور، و(ساعات من القرن الرابع عشر في فاس) لديريكج دي صولا برايس، و(لو أبصرت ثلاثة أيام) للكاتبة الأمريكية كيلير هيلين أدامس، و(الحماية الفرنسية: بدؤها ونهايتها) لمجموعة من الدبلوماسيين والساسة، بالإضافة إلى نشره العديد من المقالات في عدد من المجلات.

لقيت الدكتور التازي كثيرًا في المؤتمرات العلمية، وفي المجامع والندوات الفكرية والثقافية، التي شارك فيها في عدد من البلاد العربية: في المغرب، وفي

قطر، وفي المجمع اللغــوي في مصر، وفي المجمــع الفكري لآل البيت في الأردن، وفي ملتقى الفكر في الجزائر، وفي غيرها.

وقد سرني منه حرصه على الأصالة الثقافية الإسلامية والعربية، وعراقته في اللغة العربية، وتمكنه من التراث التاريخي للأمة. وهو يعتبر من القامات العالية، التي قربت بين المغرب والمشرق، واعتزت بشموخها وعراقتها، ولم تداهن في دينها وعقيدتها. وقد ساعده على ذلك سعة ثقافته وتنوعها، وطول باعه في معرفة العربية، كما كان يعرف الفرنســية والإنجليزية، ويترجم عنها. وكان بيني وبينه مودة عميقة، نشــأت من هذا الارتباط الثقافي، والوقوف في وجه المخرفين والمحرفين.

ندعو الله ﷻ أن يتغمد أخانا الدكتور عبد الهادي التازي برحمته ومغفرته، وأن يرزق أهله ومحبيه الصبر والســلوان، وأن يعوض المغرب والعرب بمن يخلفه في دينه وثقافته وتماسكه. آمين.

* * *



الدكتور وهبة الزحيلي
بقية الشام.. إلى رحمة الله
(١٣٥١ ـ ١٤٣٦هـ = ١٩٣٢ ـ ٢٠١٥م)

استقبلنا بأشـــجان القلوب، وعبرات الأعين، ثم رضا الأنفس بقضاء الله وقدره، يوم السبت الماضي (٢٣ من شـــوال ١٤٣٦هـ، الموافق ٨ من أغسطس ٢٠١٥م) نبأ وفاة أخينا العلَّامة الدكتور وهبة مصطفى الزحيلي المفســـر الفقيه الأصولي، أحد أبرز علماء السنة في الشـــام، ومؤلف كتاب (الفقه الإسلامي وأدلته)، عـــن عمر ناهز الـ(٨٣) عامًـــا، قضاها في العلـــم والتعليم والبحث والتأليف، والتدريس في عددٍ من الجامعات العربية، واشتهر بكتبه العلمية في مجال الفقه الإسلامي وأصوله، والتفسير، كما وقف في وجه الفرق المنحرفة، والمذاهب الضالة، وكشف مخططاتهم، وأبطل شبهاتهم.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ متفوقًا فـــي تحصيله العلمي منذ الصغـــر، وكان دائمًا في مقدمة الصفوف، فكان ترتيبه الأول في شهادة الثانوية الشـــرعية. التحق بعدها بكلية الشريعة في جامعة الأزهر الشريف، ليحصل على الشهادة العالية، بالترتيب ذاته.

كما حصل على شهادة الدكتوراه في (الشريعة الإسلامية) بمرتبة الشرف الأولى، إلى جانب ذلك نال شهادة الليســـانس في كلية الحقوق جامعة عين شمس، ودبلوم معهد الشريعة (الماجستير) من كلية الحقوق بجامعة القاهرة. كما حصل على إجازة تخصص التدريس من كلية اللغة العربية بالأزهر.

أخوه الأصغر: الأستاذ الدكتور محمد الزحيلي، كلاهما فرسا رهان، اشتركا في الفقه وأصوله. وإن كان محمد أقل من أخيه إنتاجًا، وكلاهما على خير.

عرفته وعرفت عددًا من إخوانه وزملائه وشيوخه، ممن درسوا في مصر، وتتلمذوا على أساتذتها في الأزهر ودار العلوم، كالشيخ السباعي، وأبو غدة، والشيخ محمد أديب الصالح، والشيخ عدنان زرزور، والشيخ عبد الرحمٰن الصابوني، والشيخ عبد الستار أبو غدة، وغيرهم.

تميز الدكتور وهبة الزحيلي، بتمكنه من الفقه الإسلامي دون غلو ولا تقصير، إذ كان يعرض لآراء الفقهاء المختلفة، ويوازن بينها حسب الأدلة، ويرجح ما يراه أرجح منها حسب موازينه، وهو غير متعصب لمذهب أو مدرسة؛ بل يحرص على أن يتبع الطريق الوسط، أو المنهج الوسطي.

وقد تتلمذ في سورية على عدد من أعلام هذا المنهج الذين عرفوا به، ونسبوا إليه، أمثال: الأستاذ الكبير مصطفى الزرقا، والأستاذ الدكتور الداعية الأول: مصطفى السباعي، والأستاذ الدكتور السياسي الأول: معروف الدواليبي أستاذ الأصول.

عاش الشيخ وهبة للعلم والاطلاع والكتابة في حياته كلها، وربما استكثر الناس ما صدر عنه من مؤلفات، ولكن من تفرغ للعلم، وانقطع لخدمته، صدر منه كل عجب. ومن أوائل ما ألفه كتابه (آثار الحرب في الإسلام) وقد انتهى فيه إلى آراء جيدة، نقلها من كتب فقهنا الإسلامي الواسع، تدل على أنه بدأ مبكرًا يفرق بين ما تحتاج إليه الأمة وما لا تحتاج إليه، فكان له اختيارات جيدة، نقلناها عنه في كتابنا: (فقه الجهاد).

وقد اختار الإخوة من العلماء في العالم الإسلامي أخانا الشيخ الدكتور وهبة الزحيلي معنا في الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، عضوًا في الاتحاد، ممثلًا لسورية، ولكن الشيخ بحكم ظروفه، وبحكم وضعه، وحاجته إلى الاستئذان للسفر، وصعوبة ذلك، كتب إلي معتذرًا عن الاشتراك في العضوية، مع عدم قدرته على المساهمة، ولو مرة واحدة. وقد اضطررنا أن نقبل معذرته، مقدرين ظروفه.

عمل رَحِمَهُ اللَّهُ في العديد من الجامعات العربية والإسلامية: في جامعة دمشق، وجامعة محمد بن علي السنوسي بمدينة البيضاء في ليبيا، وكلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات، وجامعة الخرطوم، وجامعة أم درمان الإسلامية. كما أعير إلى قطر والكويت للدروس الرمضانية.

حاولت جماعة الأسد النصيرية والبعثية أن تجعله من أذنابها: يسير في ركابها، ويجري وراء سرابها، كما نجحت مع علماء آخرين من إخوانه، ولكن الله تعالى عصمه من كيدهم، ونجاه من براثنهم، حتى رحل إلى ربه مرضيًا عنه.

وكان الشيخ يشارك كثيرًا في مؤتمرات الفكر الإسلامي في الجزائر، التي حرصت عليها، منذ جاء وزيرًا للأوقاف الشيخ عبد الرحمٰن بن شيبان. وكم التقينا في عدد من البلاد العربية والإسلامية، في ندوات ومؤتمرات علمية وفقهية.

أشرف رَحِمَهُ اللَّهُ على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه في دمشق وبيروت والخرطوم، وقد قيل: إنها تزيد على سبعين رسالة. وحصل على جائزة أفضل شخصية إسلامية في حفل استقبال السنة الهجرية الذي أقامته الحكومة الماليزية سنة (٢٠٠٨م) في مدينة بوتراجايا.

وله رَحِمَهُ اللَّهُ العديد من الأحاديث الإذاعية في تفسير القرآن، وغيرها من الندوات في الإذاعة والتلفزيون، والفضائيات المختلفة، إضافة إلى حواراته مع الصحافة في دول عدة.

والدكتور الزحيلي قد أمد المكتبة الإسلامية بعشرات المصنفات النافعة والمفيدة، منها بل أولها وأهمها: كتابه الشهير: (الفقه الإسلامي وأدلته)، في (١١) مجلدًا؛ وقد تناول فيه جميع أبواب الفقه الإسلامي، في جميع المذاهب، دون تعصب لأحدها على الآخر. و(التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج)

في (١٦) مجلدًا. و(الوجيز في الفقه الإسلامي)، و(الوجيز في أصول الفقه)، و(موسوعة الفقه الإسلامي والقضايا المعاصرة)، و(التفسير الوسيط) و(الوجيز)، و(العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث)، و(القانون الدولي الإنساني وحقوق الإنسان)، و(العالم الإسلامي في مواجهة التحديات الغربية)، و(مشكلات في طريق النهوض)، و(الأسرة المسلمة في العالم المعاصر)، و(المصارف الإسلامية)، و(المعاملات المالية المعاصرة)، و(الاقتصاد الإسلامي).

- **عضويته للجان والمجامع العلمية:**

كان رَحِمَهُ اللَّهُ عضوًا في العديد من المجامع والهيئات والمؤسسات العلمية والفقهية، فكان عضوًا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن (مؤسسة آل البيت)، وخبيرًا في مجمع الفقه الإسلامي بجدة، والمجمع الفقهي في مكة المكرمة، ومجمع الفقه الإسلامي في الهند وأمريكا والسودان، ورئيسًا لهيئة الرقابة الشرعية لشركة المضاربة والمقاصة الإسلامية في البحرين، ثم رئيسًا لهذه الهيئة بالبنك الإسلامي الدولي في المؤسسة العربية المصرفية في البحرين ولندن، وخبيرًا في الموسوعة العربية الكبرى في دمشق، ورئيسًا للجنة الدراسات الشرعية للمؤسسات المالية الإسلامية، وعضو مجلس الإفتاء الأعلى في سورية، وعضوًا للجنة البحوث والشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف السورية، وعضوًا مراسلًا للموسوعة الفقهية في الكويت، والموسوعة العربية الكبرى في دمشق، وموسوعة الحضارة الإسلامية بالأردن، وموسوعة فقه المعاملات في مجمع الفقه الإسلامي في جدة وغيرها.

ومما يذكر للرجل كيف وقف في وجه الدكتور محمد علي آذرشب الأستاذ بجامعة طهران ورئيس مركز الدراسات الثقافية الإيرانية ـ العربية عندما هاجمني في إحدى جلسات مؤتمر الدوحة لحوار المذاهب الإسلامية عام

(٢٠٠٧م) عندما استعرضت عددًا من النقاط التي تعوق التقارب بين السنة والشيعة، فاتهمني الدكتور آذرشب بالتحريض، بدلًا عن التهدئة! عندها استهجن الدكتور وهبة الزحيلي انتقادات آذرشب، مؤكدًا أن كلمتي تعبر عن «واقع قائم، وحقائق ملموسة»، وأضاف أنني تحدثت عما يجري في الشارع الإسلامي بعيدًا عن التطرف والدعوة إلى التعصب المذهبي.

وأكد أنني أدعو إلى استئصال المشكلة من جذورها من خلال الدعوة إلى عدم سب الصحابة، وأن يبتعد بعض رجال الدين الشيعة عن الطعن في أمهات المؤمنين، وتبرئتهن من التهم التي نسبوها إليهن.

رحم الله أخانا الشيخ وهبة الزحيلي رحمة واسعة، وجزاه خيرًا على ما قدم لدينه وثقافته وأمته، وعظم الله أجرنا فيه، وألهم أهله ومحبيه جميل الصبر، ورزقهم وافر الأجر، وخلف الأمة فيه خيرًا.

* * *



٨٥ صديقنا معالي الشيخ عيسى بن محمد آل خليفة

(ت: ١٩٣٨ ـ ٢٠١٥م)

عرفناك أيها الأخ الحبيب، والصديق العزيز، والقاضي العادل، والمحامي الصادق، والوزير المخلص: في شبابك، وفي كهولتك، وفي شيخوختك، فكنت شبابك في طاعة الله، وكهولتك في عمل الخير، وشيخوختك في تأييد المناضلين عن الحق، المقاومين للباطل.

بدأت في البحرين، وأكملت في مصر، وتسلمت الراية من مصر، وبقيت في الخليج قمرًا منيرًا، تضيء لكل الناس، تزرع ليحصد الناس، وتغرس ليجني الآخرون، وتبني ليستظل الكل بظلك. قالوا بأنك من الأسرة الحاكمة. وأنعم بأسرة: أبناؤها علماء عند الحاجة، وزراء عند المشاركة، ومع كل الناس في ساعة المحنة.

رأست نادي الإصلاح أول ما ظهر، ولما تطور إلى جمعية الإصلاح، كنت القائد الذي لا يتخلف، والجندي الذي لا يفري أحد فريَّه. دعوناك للمشاركة في الهيئة الخيرية العالمية بالكويت، فكنت أسرع من لبوا واستجابوا، وحملوا العبء في سكرتارية الهيئة لعدة سنين. وهيأت لنا اللقاء مع أمير البحرين المحبوب الشيخ عيسى بن سلمان رَحِمَهُ اللَّهُ. وجندت مكتبك للمحاماة لخدمة الهيئة الخيرية، كما هو لخدمة قضايا الناس.

كنت ـ رحمك الله ـ نموذجًا للعمل المخلص والحركة الدؤوبة، والسعي بكل جد إلى كل ما فيه خير ونفع، في عملك في القضاء، وفي توليك وزارة العدل، ثم وزارة العمل، إلى أن ختمت حياتك رئيسًا لجمعية الإصلاح المباركة.

لا ننسى تواضعكم الجم حين قلتم: «لسنا نحن من أسس الحركة الإسلامية في البحرين، وإنما كنا على صلة بها». ولا إيمانكم العميق حين قلتم منذ ستين سنة: «أحيانًا تحتم علي الظروف أن أقوم ببعض الأعمال تجاه الدعوة التي آمنا بها، ولن يستطيع أي طاغية أو ماجن من خلعها من بيننا، إلا إذا خلع القلوب والأفئدة، ودون ذلك قطع الرقاب».

سيذكر التاريخ كيف كان إصراركم وتمسككم بثوابت الإسلام ودعوته الغراء، وحمل مشروع نهضة فكرية واجتماعية يقوم على فكر مستنير معاصر، ونشر الثقافة الإسلامية التي تعزز نهج الاعتدال والوسطية.

وسيذكر تفانيكم في العمل الدعوي، وكيف جعلتم من جمعية الإصلاح نموذجًا يحتذى في ميدان العمل الخيري، ومثالًا مشرفًا لمؤسسات المجتمع من خلال دعم العمل الخيري وتطويره إلى آفاق أرحب، فلم تكن جمعية الإصلاح مجرد جمعية أهلية، وإنما مدرسة فكرية تقوم على العمل الجماعي المتماسك مع العمل الفردي المخلص.

كل إخوانك في البحرين، وفي الخليج العربي، وفي بلاد العرب، وبلاد الإسلام يدعون لك، ويصلون عليك، ويطلبون لك الرحمة والمغفرة والرضوان. يقولون: هذا رجل عاش لله؛ ومن عاش على شيء مات عليه.

نعزي فيك شعب البحرين، وملك البحرين، وأمراء البحرين، وجمعية الإصلاح. سائلين الله تعالى أن يتغمدك بواسع عفوه ورحمته، وأن يسكنك فسيح جناته، وأن يجزيك عما قدمت لدينك ووطنك وأمتك خير الجزاء، وأن يلهم أهلك وذويك الصبر والأجر، وأن يجمعنا الله بك في جنة الفردوس.

* * *



الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني

راهب العلم والفكر والفقه

(١٣٥٤ ـ ١٤٣٧هـ = ١٩٣٥ ـ ٢٠١٦م)

غاب عنا نوره، كما تغيب الأقمار عن أفلاكها، وانطفأ ذلك السراج العلمي، كما تنطفئ السرج الوهاجة في سمائها. فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ علمًا من أعلام الفقه الفكري والأصولي، ورائدًا من رواد (إسلامية المعرفة)، وباحثًا من الباحثين المهتمين بمخاطبة عقول المسلمين المستنيرين، ليصل منها إلى مخاطبة غير المسلمين في العالم.

كان ممن أسهموا من العلماء في إنشاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ثم ازداد عطاؤه في تطويره وإخصابه، وإمداده بالكتابات والريادات حتى أصبح واحدًا من الرجال الذين يعتد بهم، وببحوثهم في هذا الجانب، كما يعتد ببحوثهم الأخرى التي بدؤوها في الأزهر الشريف، كما في بحثه الأصولي، الذي حصل به على الدكتوراه بمرتبة الشرف، وأدخله ضمن رجال العلم من الأزهريين.

في مساء الجمعة (٢٣ جمادى الأولى ١٤٣٧هـ، الموافق ٢٠١٦/٣/٤م) عرف الناس نبأ وفاة: طه، وإن لم أعرف إلا بعد ذلك بأيام، عرفت بوفاة أخي الحبيب، وصديقي العزيز، العالم الأصولي الداعية المفكر، الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني العراقي، الذي امتد به المرض، فأقعده في فراشه، وقطعه عن زيارة إخوانه وأحبائه، والمواطن العلمية التي كان له مشاركة إيجابية في إنشائها وتطويرها.

فقد توفي في القاهرة عن عمر ناهز الثمانين عامًا، تاركًا وراءه آثارًا علمية

نافعة، ومشاريع دعوية متنوعة، وكتبًا يتداولها الطلاب والباحثون والدارسون، وتلاميذ يزداد حبهم للاطلاع على هذه الثروات الثمينة.

والدكتور العلواني من مواليد الفلُّوجة بالعراق، حصل على شهادة الدكتوراه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، بمرتبة الشرف الأولى. وهو يتقن العربية والإنجليزية، وله إلمام بالفارسية.

عُين أستاذًا للفقه والأصول في كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود، ثم أستاذًا لكرسي الفقه وأصوله والفقه المقارن بجامعة قرطبة (فيرجينيا)، ثم امتد نشاطه وتوسع في المجامع والكليات والأقسام.

أول ما رأيت الدكتور طه جابر في مدينة (لوجانو) التي يقيم بها أخوانا: يوسف ندا، وغالب همت، من رجال الأعمال الإسلاميين. وقد دعوا طائفة من رجال الفكر الإسلاميين على ضيافتهم للبحث في سبيل الدعوة. وكان في هذا اللقاء: محمد المبارك، وإسماعيل الفاروقي، ومحمود أبو السعود، والفقير إليه تعالى، وعبد الحميد أبو سليمان، وعدد من الدعاة والعلماء العاملين في أوربة وأمريكة وبلاد الغرب.

وشغل د. طه منصب رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي (هيرندن ـ فيرجينيا) من سنة (١٩٨٥م) وحتى سنة (١٩٩٧م).

كما كان رئيسًا لتحرير مجلة (إسلامية المعرفة)، الصادرة عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، من سنة (٢٠٠٢م) وحتى وافاه الأجل.

كتب الدكتور العلواني في (أدب الاختلاف في الإسلام)، وقد أسس مع أخيه وصديقه الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، وصاحب الفكرة الأولى في هذا الموضوع، وأول من كتب فيه ودعا إليه، مع مجموعة من إخوانه قبل أن يتمثل في (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) في أمريكا سنة (١٩٨١م)، وكان له مكتب في مصر، قام على إدارته أولًا لعدة سنين الأخ القانوني الشرعي

الباحث الأستاذ الدكتور جمال الدين عطية، الذي قام بنشاط ملموس في خدمة أفكار المعهد، وجند له عددًا من أساتذة الأزهر وكلية دار العلوم، والجامعات الأخرى، وأصدروا بعض الكتب والدراسات القيمة.

وقد طلبوا مني أن أكتب لهم كتابًا في (السنة النبوية)، ردًّا على الأباطيل، التي أشاعها من أشاعها، فكتبتُ كتابي: (كيف نتعامل مع السنة النبوية؟)، كما تعاونت معهم في كل ما طلبوه مني.

وقد أصدر المعهد ـ ولا يزال ـ مجموعة كبيرة من الإصدارات في شتى العلوم والآداب، ملأت الآفاق، تمثل علماء المسلمين المستقلين في أنحاء العالم.

والدكتور طه رحمه الله عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وعضو المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث، ورئيس المجلس الفقهي في أمريكا منذ عام (١٩٨٩م). وكم سعدنا به في جلساتنا في المجلس الأوربي. وكتب بحوثًا قيمة، فيها نزعة اجتهادية، ربما ضاق بها بعض إخواننا الذين ارتباطهم بالماضي أكثر من تطلعهم إلى الغد.

وقد اجتمعت معه في كثير من المناسبات، واشتركت معه في عدد من المؤتمرات في أمريكة وفي مصر وفي أوربة وفي ماليزيا، وغيرها. وأدار هو بعض هذه الندوات، التي شارك فيها الدكتور المسيري رحمه الله صاحب موسوعة (اليهود واليهودية والصهيونية) والذي له موقفه من العلمانية الشاملة الأصلية، ونظرته الصادقة إلى الإسلام.

والفقيد رحمه الله كانت له أيادٍ بيضاء في ميادين العطاء العلمي، وجهود مشكورة في خدمة العلم وطلابه، وبصمات واضحة في محاريب الفكر والدعوة..

وامتد عطاؤه العلمي، وجهاده البحثي، ومداده الفكري فشرق وغرب، وحلّ موجهًا، ونزل أستاذًا في محطات علمية بارزة، ومنابر فقهية متخصصة،

ومارس الكثير من النشاطات العلمية والفكرية الإسلامية، حيث كان رئيسًا للمجلس الفقهي بأمريكا، وعمل أستاذًا لأصول الفقه في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وكان عضوًا للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وعضو مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة، وكان مستشارًا قانونيًا في الحقوق الخاصة بوزارة الداخلية في المملكة العربية السعودية من سنة (١٩٧٥م) وحتى (١٩٧٦م).

هاجر إلى الولايات المتحدة في عام (١٩٨٣م)، وكان رئيس جامعة قرطبة الإسلامية في الولايات المتحدة. وكم تلاقينا هناك في ندوات للمعهد، وفي كلمات للعاملين فيه، وفي دراسة قضايا تهم العالم الإسلامي كله.

وكم التقينا على الشكوى من أمراض مجتمعاتنا، التي كلما داوينا منها مرضًا، يظهر لنا مرض جديد أشد مما عالجنا! وكم جلسنا نتشاكى همومنا حين أصبت في رجلي وأنا في مراكش، وهو كان يشكو من جملة ما يشكو من رجليه. وقد جاء معي في أمريكا إلى الطبيب الذي يتعالج عنده، وأوصاه بي.

ولقد كان أخي طه رجلًا واسع الصدر، يحسن الابتسامة، ويتحمل صدمات الآخرين، ولا يتهاون في أمر علمي أو عملي، ولا يستسلم للحياة ومآسيها، ولذا صبر على مكاره البشر، وهي كثيرة وبعضها مؤلم.

ويشهد الله أن حياتنا معه كانت حياة طيبة سلسة، متعاونة على البر والتقوى، ولم نجد في حياتنا الطويلة أي مشكلة والحمد لله.

وفي الكتاب الذي صدر عني في سن السبعين، كان له مقال رائع بعنوان: (القرضاوي العالم الداعية المفكر) وشرح هذه العلاقة، حتى انتهى بها إلى القمة.

وكان رئيس التحرير المؤسس لمجلة (إسلاميّة المعرفة)، الصادرة عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، من سنة (٢٠٠٢م) وحتى (٢٠٠٧م).

لم يكن له كثير حضور في المنابر الثقافية والإعلامية العامة، ولذلك لم يعرفه الكثيرون من عموم المثقفين، لكن أهل العلم يعرفون له قدره ومكانته، وينزلونه منازل المجتهدين والمفكرين، كما أن ساحات المؤتمرات العلمية بوأته أعلى منصاتها..

حمل هَمَّ الأمة في واحدة من أبرز قضاياها المعاصرة فيما اصطلح عليه بـ(إسلامية المعرفة) فكتب وحاضر، وشارك في مؤتمرات ومنتديات مدافعًا عن القضية، مؤصلًا لها، فكرة ومشروعًا، وأجاب عن السؤال الأبرز في هذه الملحمة الذي يقول: لماذا إسلامية المعرفة؟.

لقد خاض كثيرون في الإجابة عن هذا السؤال، ولكن المهم المطلوب: أن تحسن جيدًا فهم السؤال، ثم تسدد في الإجابة عنه، وما تتطلب الإجابة عنه. والمعرفة إنما هي سؤال وجواب.

وكان الفقيد رَحِمَهُ اللَّهُ مثالًا للعالم المخلص لأمته وقضاياها، وسعى بجد وجهد إلى إبراز الحلول للأزمات والقضايا التي تؤرق كل غيور على أمته.

وكان من العلماء العاملين المخلصين على تجديد الفكر الإسلامي، وكتب في هذا المجال كتبًا وبحوثًا ودراسات مهمة.

وكان حريصًا شديد الحرص على التعليم والتعلم، كان يقدم الدروس والحلقات والدورات التدريبية الشرعية في منزله، على الرغم من المرض الذي أقعده المقعد في السنوات الأخيرة.

ولم تخلُ حياة الدكتور طه العلواني عن الساحة السياسية أيضًا، فقد وقف معارضًا لنظام البعث في العراق منذ العام (١٩٦٩م)، الذي سبب لمغادرة بلدته، فخرج عن الوطن وظل في الخارج طيلة (٤٧) سنة ولغاية انتقاله إلى جوار رحمة الله.

• **من أهم أعماله العلمية:**

للدكتور طه جابر العلواني دراسات وبحوث ومصنفات عديدة تتجاوز المئة، ومن أهمها:

١ ـ علم أصول الفقه: نشأته وتدوينه.

٢ ـ تحقيق ودراسة كتاب «المحصول في علم الأصول» للإمام فخر الدين الرازي.

٣ ـ الاجتهاد والتقليد في الإسلام.

٤ ـ أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة.

٥ ـ أدب الاختلاف في الإسلام.

٦ ـ إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم.

٧ ـ مقدمة في إسلامية المعرفة.

٨ ـ ابن تيمية وإسلامية المعرفة.

٩ ـ مقدمة في المنطق والمقدمات الأصولية.

١٠ ـ إصلاح الفكر الإسلامي.

١١ ـ إسلامية المعرفة فكرة ومشروعًا.

١٢ ـ لماذا إسلامية المعرفة؟.

١٣ ـ مقاصد الشريعة.

١٤ ـ الأزمة الفكرية ونهاية التغيير.

١٥ ـ إشكالية التعامل مع السنة النبوية.

١٦ ـ عالم في المنهج القرآني.

١٧ ـ نحو موقف قرآني من إشكالية المحكم والمتشابه.

١٨ ـ حاكمية القرآن.

١٩ ـ أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها.

٢٠ ـ ابن رشد الحفيد: الفقيه والفيلسوف.

وكان عضوًا فعالًا ونشطًا في العديد من المؤسسات، منها:

أنه كان مؤسسًا وعضوًا لمجلس أمناء المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا.

وعضوًا في المجمع الفقهي الدولي بجدة، وعضوًا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وعضوًا في المجلس الملكي لبحوث الحضارة (مؤسسة آل البيت ـ الأردن).

وعمل العلواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أستاذًا زائرًا في العديد من الجامعات، ومنها:

جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب، والجامعة الإسلامية في كوالالومبور، ماليزيا، وجامعة بروناي، في سلطنة بروناي، وجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في الجزائر، وجامعة ستراسبورج، فرنسا.

نسأل الله أن يتغمد الفقيد بواسع رحمته، ويتقبل منه صالح عمله، ويغفر له، ويجعل مثواه الفردوس الأعلى، ويجزيه خير ما جزى عباده الصالحين، والعلماء العاملين.

* * *



الدكتور حسن الترابي
العالم الداعية المفكر المجاهد
(١٣٥١ ـ ١٤٣٧هـ ـ ١٩٣٢ ـ ٢٠١٦م)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه، وبعد:

بعد أن صليت مع إخواني صلاة الجنازة ـ صلاة الغائب ـ على أخينا وصديقنا الحبيب، العالم الفقيه الداعية المفكر، أحد أعمدة المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن: الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني في مكتبنا في الدوحة؛ حيث فوجئنا بموته، بعد أن اتصلنا به من عدة أيام ورد علينا ابنه الكريم. وكتب الله له أن يدفن مع زوجته في أمريكا. فوجئنا في اليوم التالي(السبت ٢٠١٦/٣/٥م) بفقد آخر من القادة والعلماء والدعاة والمفكرين المجاهدين، أحد من امتلأت حياتهم بالعلم والعمل، والدعوة والجهاد.

فإذا كان هناك أناس يعيشون في الدنيا ويموتون، ولا يُحِسُّ بهم أحد؛ لأنهم لم يفعلوا شيئًا في حياة الناس، يجعلهم يشعرون بوجودهم، فهناك آخرون، ممَّن رزقهم الله الهداية والتوفيق، يتعلمون فيعملون، ويعملون فيعلِّمون، وينشطون في دعوتهم، باذلين أعمارهم وجهدهم في سبيل رسالتهم التي آمنوا بها، ومن هؤلاء أخونا الحبيب إلينا، الأثير لدينا، العزيز علينا، الرجل، العالم، المفكر، الداعية، المجاهد، الثائر: الدكتور حسن الترابي، الذي كان بحق أحد رجالات الأمة العربية والإسلامية، وأحد رجالات الفكر والتربية والسياسة، لا يشك في ذلك أحد؛ فهو مفكر وزعيم سياسي وديني، يعتبر من رواد التجديد السياسي الإسلامي.

حســن الترابي هو الحسن الثالث في الإســلاميين، بعد حسن البنا الأول، وحسن الهضيبي الثاني، هو سوداني قح، تعلم القرآن الكريم وحفظه وجوده في صباه، وتعلم اللغة العربية والشــريعة، ولم يتغير فكره الإســلامي الأصيل عن أصله، رغم أنه حصل على قمة الدراسات العليا في الغرب: الماجستير من جامعة أكسفورد، ثم الدكتوراه من جامعة الســوربون، وأتقن رَحِمَهُ اللَّهُ عدة لغات بفصاحة: الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ولكنه بقي سودانيًا عربيًا مسلمًا، يقول:

أبي الإســلامُ لا أبَ لي سِــوَاه إذا افتخــروا بقيــسٍ أو تميمِ!

كان حسن الترابي من النوع الحيّ المتحرك المحرِّك، لا يعرف البلادة، ولا الكسل ولا الرقاد الطويل، ولكنه رجل حر، مســتقل الفكر، مستقل الإرادة، مستقل القرار، عقله متوقد، ولسانه فصيح، وجهه سوداني أصيل، مبتسم دائمًا، من غير تكلف.

تزوج أخت الصادق المهدي، فكانت نعم الزوجة له، ونعم الرفيق له في دربه، لم يتزوج غيرها، واختلف مع الإخوان اختلافًا في الطرق؛ لأن له فلسفة في الحركة لا تتفق تمامًا مع المســيرة العامة لحركة الإخــوان، ولذلك قال للتنظيم العالمي للإخوان: اعذرونا فيما قد نتخذه من خطوات أو قرارات، ربما لا توافق ظروفكم المحلية والإقليمية والسياســية على إقرارها أو تلبيتها، أو الموافقة عليها، وظلوا ســنين على هذا الموضع حينما كنــت لا أزال ملتزمًا بالارتباط التنظيمي مع الإخوان.

قاد حسن الترابي الجماعة السودانية في الشدة والرخاء، وفي العسر واليسر، وكانوا معه كتلة واحدة، وإن خالفه بعضهم بعد ذلك لعدم اســتطاعتهم تحمل مخالفاته في اجتهاده لبعض تقاليد الإخوان، وطبيعة الناس ليست واحدة في هذا الجانب؛ منهم من لا يطيق الخروج عن المتوارث أو المألوف، في السياسة، أو في الفكر، أو فــي الحياة. لا بد أن تظل الحياة في نظــره خيطًا منتظمًا، يتصل

بعضه ببعـــض، والترابي ليس من ذلـــك الصنف، ومثلي يقبلـــه، ولكن بعض إخواني من المقدسين للنمطية الموروثة التي لا تجوّز لأحد الخروج عليها.

التقيت الشـــيخ الترابي من قديم، ووجدته رجلًا يتمتع بفهم دقيق، وحِسٍّ رقيق، وإيمان عميق، وعلم وثيق. ما ذهبت للسودان، أو لبلد عربي، أو لقيته في قطر وغيرهـــا، إلا تحدثنا عن ثقافة الأمة وهموم الأمـــة، وكيفية علاجها، وحال المسلمين، ووسائل النهوض بهم، وكيف ننهض بالدعوة، وكيف نطورها.

أول ما لقيت الترابي في لبنان سنة (١٩٨٥م)، وكان في قمة الشباب، وكان يزور بيروت في ذلك الوقت، وقد قاد الحركة الشعبية الجامعية، التي انتهت بإسقاط الحكم العسكري برئاسة عبود، وعودة الحكم المدني إلى السودان.

وأذكر مما جرى بيني وبينه من حديث: أني قلت له: لعلكم تلتفتون إلى الجيش ونشـــر الدعوة فيه، حتى لا يقوم بانقلاب آخر ضدكم. فقال لي: نحن في الواقع لا نهتم بالجيش، وإنما نهتم بالشعب. وعندنا أن نكسب معلمًا في مدرسة خير من أن نكسب ضابطًا في الجيش. قلت: ولكن الجيوش الآن كثيرًا ما تنقلب على الحكم المدني، وتسيطر على مقدرات الشعوب. قال: لتنقلب، ونحن سنسقطها!.

كانت هناك أنشطة كثيرة تجعلني أتردد على السودان، منها أنهم اختاروني في المنظمـــة الخيرية الإفريقية الإســـلامية، ولها أعمالها في الســـودان، وفي إفريقية عامة، وأحيانًا نلتقي في الخرطوم أو في بلد آخر.

وقد أُدعى لجامعة إفريقية، أو لجامعة الخرطوم، أو لجامعة أم درمان، أو لجامعة القرآن، أو للحركة الإسلامية، أو لبنك فيصل الإسلامي، أو لغيره من الهيئات.. وهذا ما جعلني ألتقي به كثيرًا في الخرطوم، أو في مناسبات شتى، بعضها في قطر حينما دعاه أمير البلاد ـ آنذاك ـ الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني ليتشاور معه، ويستفيد من علمه في وضع دستور يلائم البلاد. وكم دعته قطر

في مناسبات رمضانية، والتقينا معًا، على مائدة سمو أمير البلاد، وعلى موائد القرآن والعلم.

وقد سجن هو وعدد من أتباعه في أيام حكم النميري، فترة من الزمن، ثم تفاوضوا معه على أن يستعين بهم، وأن يستعينوا به، وأن يتولى بعض المناصب، وقبل الدكتور الترابي، فهو يؤمن بالمرحلية. وحضرنا معه الثورة الشعبية السودانية التي أعلنها النميري لإقامة التشريع الإسلامي، وكان الترابي وجماعته مشاركين بقوة في هذه المسيرة الكبيرة التي سميت (الثورة المليونية).

كنت والشيخ صلاح أبو إسماعيل رَحِمَهُ اللَّهُ، نتطلع إلى هذه المسيرة، وهي تمر أمامنا أفواجًا أفواجًا، من الصباح حتى الظهيرة، والناس يهتفون للشريعة وللإسلام وللقرآن، بحرارة طبيعية ومن تلقاء أنفسهم، فكنا نذرف الدموع ونقول: هل يكون لنا يوم في القاهرة مثل هذا اليوم؟.

ومع هذا قلت للسودانيين: ليس المهم أن نعلن قيام التشريع، ولكن المهم أن يقوم المجتمع المسلم، وأن يحيا بالإسلام وللإسلام، وليس هذا بالشيء الهين.

وما أسرع ما تغيرت الحياة في السودان، ولم تكن مع ثورة العسكر ثورة تربوية وفكرية وأخلاقية، فكان لا بد من تغيير، وقامت ثورة عسكرية بيضاء مسالمة، يقودها لواء شريف، هو رجل الإيمان والمحبة، والإسلام والسلام: عبد الرحمٰن سوار الذهب، الذي ضرب المثل في الزهد والتضحية بالملك والسلطان، وتنازل بعد سنة عن السلطة إلى حكم مشترك، آلت البلاد فيه إلى حياة قلقة غير مستقرة.

وبعد انسداد الأفق السياسي في السودان، كان لا بد أن يقوم أحد الأقوياء في البلد بالسيطرة على مقاليد الأمور، وكان الدكتور الترابي أكثرهم تصورًا وإدراكًا للموقف وخطورته، وأكثر قدرة على التحرك بسرعة، فبادر إلى ذلك، واختار مجموعة من العسكريين على رأسهم عمر البشير لهذا الأمر.

ولو لم يبادر الترابي بهذا العمل لسبقه إليه الشيوعيون أو البعثيون، وقد حاولوا الثورة المسلحة في أول الأمر على الذين سبقوهم، فكان جزاؤهم أن قضي عليهم.

كان حسن الترابي رجل العزيمة الماضية، يتمثل بقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ويعجبه في الشعر قول القائل:

إذا كنتَ ذَا رأيٍ فكنْ ذا عزيمةٍ ... فإنَّ فسادَ الرأيِ أن تتردَّدا

وإن كنتَ ذَا عزمٍ فانْفِذْه عاجلًا ... فإنَّ فسادَ العَزْم أنْ يتقيَّدا

وقد التف الشباب المسلم في السودان حول الترابي، واختاروه قائدًا للحركة الإسلامية في عموم السودان. وعندما قامت الثورة، التي هيأ لها الأسباب وقادها بحكمة وانتصرت، أبى إلا أن يدخل السجن، ويجعل القائد عمر البشير، ويأمره أن يدخله السجن، ويدير الأمر من داخل محبسه بالأوراق.

بعد ذلك ظهر الترابي، وخرج من السجن، وعُرِف وضعه، وانفتح الترابي بعدها على العالم العربي والعالم الإسلامي، ودعا الناس إلى السودان، وكنا ممن دُعي إليه.

وكان منهج الترابي منهجًا عروبيًّا إسلاميًّا، يركز على عدة أمور:

١ ـ قضية الإيمان بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبالشريعة والتربية منهاجًا عامًّا.

٢ ـ حرية الشعوب جزء من الفرائض الإسلامية، التي نجاهد في سبيلها.

٣ ـ حرية التعبير والفكر والمقاومة للظلم فرائض أساسية.

٤ ـ قضية فلسطين قضية أصلية، لا يجوز التهاون فيها. والدفاع عنها فريضة.

٥ ـ العدالة الاجتماعية ومحاربة المظالم والطغيان والفساد جزء لا يتجزأ من الإسلام.

٦ ـ الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها أمة واحدة، يجب أن تتوحد، ولا يجوز أن تتفرق.

٧ ـ نسالم كل من يسالمنا ونضع أيدينا في يده، ونعادي كل من عادانا.

٨ ـ البشرية كلها أبناء آدم، وكلهم إخوة، وعليهم أن يتحابوا ويتعاونوا.

وقد التقيت الدكتور الترابي منذ فترة قصيرة في مكتبي بالدوحة، حيث تفضل هو بزيارتي حين جاء إلى قطر، وكانت آخر زيارة له. وظللنا نحو الساعتين، نتشاكى هموم الأمة، ونتدارس في حلولها، والعمل من أجلها، وكنا في ذلك نعمل سويًا من أجل أمتنا، وهاتفته منذ أيام قلائل، ودعوته للمساهمة في الكتاب الذي يصدره مركز القرضاوي للوسطية والتجديد، عن سيرتي وأنشطتي، بمناسبة بلوغي التسعين في شهر سبتمبر القادم، ورحب بإسهامه فيها، وأنه سيرسل مشاركته إلى مكتبي حين ينتهي منها.. ثم كان قدر الله أسبق: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقد ساءني أن أحد الإخوة قال عنه: إنه ليس منا! وشبهه آخر بهيكل مصر، وأنا أرى ذلك من الغلو المجافي للإسلام؛ فالدكتور حسن الترابي رجل لا ننكر فضله وجهوده في الدعوة الإسلامية، وفي الحركة الإسلامية في السودان، وفي مقاومة الصهينة والصليبية، والعِلمانية واللادينية، ولكنه ليس معصومًا، ولديه شطحات في بعض الأمور، ننكرها عليه جميعًا. وقد قال الشاعر:

ومَنْ ذا الذي تُرضى سجاياه كلُّها كفَى المرءَ فضلًا أن تعدَّ مَعَائِبُه

وقد اختلفت مع الترابي في مسائل عديدة، تحدثت عنها في بعض البرامج التلفزيونية، وضمنتها الجزء الخامس من فتاواي، وليس هذا موطن بسطها. وهذا لا يعني إهمال الترابي وإغفال اجتهاداته، فقد ظل رجل السودان والعرب والمسلمين. وقد يختلف الناس حوله، لكنه يعتبر أحد رجالات الأمتين العربية والإسلامية بالفكر والدعوة والتربية والجهاد والسياسة، وإن مؤلفاته ومعارفه

وتوجيهاته التي استفادها تلامذته وأصدقاؤه محفوظة مبثوثة مدوَّنة. فقد ظل مرتهنًا حياته لهذا الدين وأمته الكبرى، وعمل من أجله، واجتهد فيه، وللمجتهد أجران إن أصاب، وأجر إن أخطأ. وإن في رحيله لثلمة للإسلام والمسلمين.

ليس من شأن الناس أن يتفقوا في كل شيء، ولا مانع أن يكون هناك خلاف بين الترابي وغيره. ولا يعني هذا أن الترابي ينبغي أن يكون على حق في كل كلمة ينطق بها، أو كل قضية يتبناها، فكلٌّ يؤخذ منه ويرد عليه، إلا النبي ﷺ. والدكتور الترابي أحد إخواني ـ وإن اختلفت معه في بعض الأمور ـ وليس من أخلاقي أن أخاصم إخواني.

اختلف الترابي وإخوانه في عدد من القضايا الفكرية والسياسية، وساءني ذلك كما ساء كثيرًا من الإخوان المسلمين في أنحاء العالم العربي. وطالبني الإخوة أن أقود حركة من كبار الإسلاميين لمحاولة رأب الصدع، وتسوية الخلاف، واتفقنا أنا والإخوة القادة: الشيخ عبد المجيد الزنداني من اليمن، والشيخ فيصل مولوي من لبنان، والدكتور إسحاق الفرحان من الأردن، وأن ينضم إلينا من السودان الأخ الدكتور عصام البشير وزير الإرشاد والأوقاف في الخرطوم، وكلنا من الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وظللنا أكثر من عشرة أيام نتشاور ونتحاور مع الفريقين؛ لنقرب ما بينهما. وسافرنا بالطائرة إلى بعض الجهات في السودان؛ لنشاهد بأعيننا، وتعبنا كثيرًا، ولكن لم نصل إلى موقف عملي يوحد الجميع. فتعصُّبُ كل من الفريقين حال بيننا وبين النجاح. وقد قال الشاعر:

عَلَيَّ السَّعيُ فيما فيهِ نَفْعِي ... وليسَ عليَّ إدراكُ النجاحِ

والترابي وإن كان يشاور من حوله، فقد كانت له خصوصية تدفعه لارتكاب بعض الأشياء التي لا نرضاها، وكان للترابي رحمه الله آراء في الفقه والأحكام يراها كثير من الناس مسرفة، ونزاعة إلى الغلو في الاجتهاد، ومحاولة طأطأة

رأس الشريعة العالية، لتنزل إلى قاع المجتمع، الذي بدأ يتضعضع وينخفض، وينزل إلى أسفل إلى حد كبير، وهو ما أحس أني غير مستريح إلى هذه الاجتهادات التي أعتبرها شاذة.

على أن للترابي ميزة ليست لغيره من السياسيين، إنه ليس مجرد زعيم سياسي، ولكنه رجل فقه ودعوة، ينطلق في كل مواقفه وأعماله من فكر مؤطر، وهو فكر ينبثق من الإسلام، أي: من القرآن والسنة، وما تفرع عنهما من الأصول والمقاصد والقواعد، وهو لا بد أن يستند إلى هذه الأصول، ويحتكم إليها، ويسائلها وتسائله، ويجاوبها وتجاوبه، فإن تجاوبت معه في الجملة وأعطته فرصة، ولم يجد من يرد عليه غلطه، ويبين له موضع خطئه، فهو معذور، بل هو مأجور حتى وإن أخطأ، وهذه إحدى روائع الاجتهاد الإسلامي.

المهم أن يكون الشخص قد بلغ مرتبة الاجتهاد، وأن يراجع في مسألته كل ما يمكنه، وأن يتشاور مع أمثاله من أهل الاجتهاد، ومن أهل الفكر ما يستبين به الموقف كله بما له وما عليه، ثم يتخذ الموقف على بصيرة، فإن كان صوابًا فله أجران، وإن كان خطأ فله أجر واحد، كما جاء في حديث عمرو بن العاص في الصحيحين.

والدكتور حسن الترابي، الطموح إلى الامتلاء بالعلم والإيمان، وإلى مقاومة الطغيان والفساد، الذي قرن بينهما القرآن حين قال: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١١ ـ ١٤]، وإلى الوقوف في وجه الجبابرة والمستكبرين في الأرض من الصهاينة والصليبيين والماديين الذين قال قائلهم: إن أهل الدين زعموا أن الله قد أيد الدين في الأرض، ولكنا نقول: ليس صوابًا أن الله خلق الإنسان، وإنما الصواب أن الإنسان هو الذي خلق الله!.

وقف الترابي في وجه الطغيان الماركسي، وفي وجه الطغيان الرأسمالي (الأمريكي وأتباعه)، وفي وجه الطغيان الصهيوني، ولكنه رضي أن يقاوم هذه

الطغيانات الكبيرة المتألهة، بالحياة العادية القليلة، لا يريد أن يسكن القصور الشامخة، ولا أن يركب السيارات الفارهة، ولا أن يعيش الحياة الناعمة، يريد أن يعيش كما يعيش الناس، ويتعب كما يتعب الناس.

ولهذا رحب بأن يعارض، وأن يقـول الحق كما يراه، وأن يغالب الباطل، وإن أداه ذلك إلى الدخول في صراع مع كثير من إخوانه وتلاميذه الذين نقلهم من الكوخ إلى القصر، ومن الأسفل إلى الأعلى.

وظل ينتقل من معتقل إلى سـجن، ومن سجن إلى معتقل، حتى لا يكاد يهنأ له عيش في بيته، وقد دعيتُ إلى إحدى المنتديات في السودان، للمشاركة في الاجتماع الثامن لمؤسسة القدس العالمية بالخرطوم، منذ سنوات، لكني رفضت المشاركة حتى تفرج الحكومة السـودانية عن زعيم المؤتمر الشعبي: حسن الترابي، فلما أبى المسـؤولون، رفضت أن أحضر مثل هذا المؤتمر في بلد يُسجن فيه رجل في مكانة الترابي وتضحياته وعمره! فقد بلغ الثمانين، ولا يزال يحمل إلى السجن! ومِنْ أتباعه!..

د. حسن الترابي غني النفس، كما جاء في الحديث: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس**»[1]. وكما جاء عن سيدنا علي:

يعزُّ غنـيُّ النفسِ إن قـلَّ مالُه ... ويَغْنَى غنيُّ المـالِ وهو ذليلُ!

ويقول أبو فراس الحمداني:

إنَّ الغنـيَّ هـو الغنيُّ بنفسـهِ ... وَلَوَ انّهُ عـارِي المَناكِبِ، حَافِ

ما كلُّ ما فوقَ البسـيطةِ كافيًا، ... فإذا قَنِعتَ فبَعضُ شـيءٍ كافِ

عاش الترابي في بيته، وكما سمعت من سفير السودان بالدوحة يقول: إنه حتى لا يملك بيته في الخرطوم. حسن الترابي العالم المؤلف القائد صاحب الكتب المتنوعة لا يجد ما يمتلك به بيتًا متواضعًا. كم دعانا الدكتور إلى بيته،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١)، عن أبي هريرة.

فأكلنا فيه الأكلات السودانية المعروفة، وامتلأت بطوننا من خيره وحلوه، ومع هذا يقول عارفوه: إنه لا يملك ما يملك الآخرون من أموال في البنوك، أو من عقارات في النواحي، أو من غير ذلك مما يملك الناس.

حياك الله يا أخي حسن، وحيا أرضًا أنجبتك، وبارك الله فيك وفي تلاميذك وأبنائك وإخوانك، وإن خالفوك أحيانًا ووافقوك أحيانًا، وكلهم معك على الخط السليم، وعلى الصراط المستقيم ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وكان الله معك يا أخي إبراهيم السنوسي في قيادة الجماعة، ومحاولة توحيدها مع المجموع الإسلامي، وما ذلك على الله بعزيز.

وأوصي أبناء السودان بما أوصيتهم به في كلمتي في المركز الثقافي السوداني بالدوحة، وقد تجمع السودانيون على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم، وطلبت منهم أن يتخذوا من موت الترابي شعارًا لهم لتتحد القلوب، وتجتمع الصفوف، وتتصاف الهمم، ويعمل الجميع على كلمة سواء: ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله.

وهو ما سمعت أخي الأستاذ خالد مشعل نادى به الإخوة السودانيين في الخرطوم، أن يجعلوا منه مبدأً لوحدة الصفوف.

نسأل الله لأخينا الحبيب حسن الترابي أن يجزيه خيرًا عما صنع لدينه وعما صنع لأمة محمد ﷺ، وأن يغفر له ويرحمه، وأن يتقبله عنده في الصالحين، وأن يغفر له أخطاءه في الاجتهاد، وأن يخلفه في ذريته وإخوانه بخير ما يخلف به عباده الصالحين.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

* * *



٨٨ الأديب الشاعر: محمد حوطر

الشـــاعر الأديب الداعية الموفق، ابن المحلة، وابن الأزهر، وابن الدعوة، الأســـتاذ: محمد أحمـــد حوطر، رزقني الله بـــه، عندما كنـــت أخطب الجمعة باستمرار في مســـجد آل طه بالمحلة، وأنا طالب في كلية أصول الدين، فكان يسجِّل خطبي بطريقته الخاصة، ويقدمها لي مكتوبة بعد ذلك، وكان طالبًا في المعهد الديني الأزهري الثانوي بطنطا في ذلك الوقت، وكان قد آلى على نفسه أن يســـجل هذه الخطب ويحفظها للمســـلمين عامة، وللدعاة خاصة، حتى لا تضيع بعد إلقائها. ولم تكن طريقة التســـجيل الآلي قد شاعت بين الناس في ذلك الوقت، وقد سجل حوطر عددًا من الخطب، وراجعتها، وهذبت ما يتطلب تهذيبًا منها، وضممتها في كشكول كبير، وأرسلته إلى مفتش المباحث، ليسمح بنشرها. ولكن سرعان ما تكهرب الجو، وتفاقم الخطر، واعتقلنا للمرة الأولى في عهد الثورة، وذهب الكشكول وما فيه إلى حيث لا رجعة.

وكانت طريقته أن يحضر (كشكولًا) وعدة أقلام من الرصاص، يبريها له زميل مرافق، وهو يكتب أول الآية ولا يكملها، وكذلك الأحاديث، ونصوص الحكم والأشعار وغيرها. وكان يكتب بسرعة عجيبة، وبخط لا يستطيع غيره أن يقرأه، بل هو لا يستطيع أن يقرأه إذا تركه لليوم التالي، ولذلك يجتهد أن (يبيِّضها) في اليوم نفسه، وهو يذكر الكلمات والعبارات.

كان حوطر أحد شـــباب المحلة الذين أحاطوا بي من أول قدومي إليها، لأخطب الجمعة، وكان جامع آل طه الذي أخطب فيه، أحد الجوامع الحديثة

بالمحلة، أقيم في شـــارع البحر، في وسط المدينة العمالية الكبيرة القريبة من قريتي (صفط تراب)، والتي تضم أكبر شركة للغزل والنسيج في مصر.

كان حوطر هو وعـــدد من طلاب الأزهر وطلاب الثانوية من الشـــباب الملازمين لي، كان بعضهم من شـــباب الإخوان، وكان بعضهم راغبين في الانضمام إليهم. وكانوا كلهم متعطِّشـــين إلى المعرفة، وإلى التثقيف ثقافة الإسلام الخالصة.

ولقد سعدت بهم وســـعدوا بي، وفتحت لهم قلبي، وفتحوا لي قلوبهم، وأصبحوا بجواري دائمًا، منهم : كمال الســـامولي، وعبد الرحمٰن الكموني، وعبد الغني العنتري، ومحمد حوطر، وزيـــن العابدين البلاوي، وآل البيطار، ومحمود القوطي، وماجد المالكي، ومحمـــد جحا، وإهاب الصياد، ومجدي السعدي، وأعداد لم أعد أذكر أسماءهم، ولكن الله تعالى يذكرهم ولا ينساهم.

كان محمد حوطر خطيبًا وشاعرًا وكاتبًا وشعلة حية من النشاط والدعوة.

وأعير الشـــيخ محمد حوطر إلى دولة قطر، وإلـــى وزارة التربية والتعليم مدرِّسًا للغة العربية في المرحلة الثانوية، وكان وصوله إلى قطر يمثل فرحة لي بعد انقطاع دام عدة سنين.

وكان محمد مدرسًـــا ناجحًا، محببًا إلى طلابه، لمـــا يملكه من مواهب وقدرات وإمكانات، بعضها بالفطرة الموهوبة، وبعضها بالدربة المكســـوبة، وهو خطيب مفوَّه، وشـــاعر متمكن، ومدرس متميـــز. جربته مدارس المحلة الكبرى، فأثبت فيها وجوده، واعترف له زملاؤه بالتفوق.

ومن هنا خطا خطواته بســـرعة بين الزملاء، وأصبح معروفًا بين الطلاب والموجهين بأنه مدرس من الطراز الأول، يدرس فيُفهم ويُحَبّ، ويلقي فيُسمع ويُجاب، وسرعان ما عُرِفَت شـــاعريته، فأصبح يلقي قصائده في المناسبات، وهو متعوِّد على حسن الإلقاء من قديم.

وكذلك تعرف المجتمع على قدرته على الخطابة، فأُعطي أحد المساجد، ليخطب فيه، وكان له تلاميذ ومريدون.

وكانت علاقته بي وبأسرتي في غاية الجودة والمتانة. وقد درس لبناتي كلهن في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية اللغة العربية، فأجدنها وأجادها بعدهن أخواهن: محمد وأسامة، أما عبد الرحمٰن فكان في المعهد الديني الثانوي، وكان عنده من المدرِّسين متميزون في العربية.

وكم كان يدخل مع الطلاب في مناقشات من أجلي، حين أتناول في بعض خطبي بعض المواضيع التي يجادل فيها المجادلون، وينقسمون إلى أطراف، وهو عادة يكون مع طرفي، وإن بدا أنه هو الأضعف، ولكنه وجد دائمًا أن الجمهور الأعظم من الطلاب مع القرضاوي، فهم يعتبرونه رجلهم والمتحدث باسمهم والنائب عنهم. وكذلك تكون الأغلبية العظمى مع القرضاوي، وأحيانًا يكون الإجماع معه. أسأل الله أن يرحمه برحمته الواسعة، وأن يجزيه عني خيرًا.

• **محمد حوطر الشاعر:**

وقد أصدر أخي محمد عدة دواوين، لا ليتغنَّى فيها بهوى ليلى، وقيسها المجنون، فقد شغله عن ليلى وسُعدى ولُبْنى شؤون وشجون، حلَّت بساحة أمَّته الكبرى، فقد جعل من قصائده سلاحًا في معركة المواجهة مع أعداء دينه ووطنه وأمَّته، وهو لا ينسج خيوط شعره من حروف وكلمات، بل من قطرات الدم في الوريد، أو قطرات الدموع في المآقي.

وصف حال بنته الصغيرة وقد أُخِذ أبوها إلى السجن أمام عينيها :

فَزِعَتْ فأفزعتِ الكواكبَ في السَّحَرْ ... وبكتْ، فأسقطت المدامع كالمطرْ
لمَّا رأتْ صفَّ العساكر حولنا ... قالت ودمع العين يجري: ما الخبرْ؟
هذي ذئاب الناس تعوي يا أبي ... وكبيرهم عيناه ترمي بالشررْ
يا رب، هل يرضيك سجن أبي بلا ... ذنب ويلهو في الرذيلة من فجرْ؟

ويصف محمد حوطر الجندي الذي اعتقله من بيته وسار به إلى السجن فيقول :

قلتُ للشرطيِّ همسًا: أين تمضي ... وحيث لم تضبط جناياتٍ لديَّ؟
عاد لطمًا: كيف لا تدري بأني ... لا أذيع العُمْرَ سِـرًّا عسكريًّا؟
لا تسلني، أو فَبَطْنُ الأرضِ قبرٌ ... فيه تُطوى في سـواد الليل طيًّا

وله قصيدة في مدح رسول الله ﷺ بعنوان: «ماذا أقول في مولد الرسول؟» يقول فيها :

ماذا أقول وفي نفسي من الألم ... ما قد يفجِّر بركانًا من الحممِ؟
يا سيد الرُّسْل، يا مَن كان مولدُه ... نـورَ النبوة يهدي سـائر الأممِ
طرقتُ بابَك في ذكراك معتذرًا ... فقد نظمتُ قصيدي غيرَ مبتسمِ

وقد أهداني رَحِمَهُ اللَّهُ بعض دواوينه، منها ديوانه الرائع: «أنا.. والسجين».

رحم الله أخي محمد وأسكنه فسيح جناته.

* * *



٨٩ مصطفى الغنيمي

بدأت التعرف على دعوة الإخوان المسلمين، وعلى مؤسسها وإمامها الأول حسن البنا في مدينة طنطا، عاصمة مديرية الغربية، وكبرى المديريات في مصر في ذلك الوقت، أوائل الأربعينيات من القرن العشرين، فقد كانت تشمل كل ما يسمى الآن: محافظة كفر الشيخ، وما كان جزءًا من محافظة الدقهلية، ومن محافظة دمياط.

كان معهدي الأزهري الذي درست فيه بمرحلتيه الابتدائية والثانوية (تسع سنوات) بمدنية طنطا، ولقيت الإمام حسن البنا، واستمعتُ إليه، واستوعبتُ خطبته وما يقصد إليه، وأنا في السنة الأولى، وإن لم أنضم إلى الإخوان رسميًا إلا في أول السنة الرابعة.

وكان اتصالي بالمحلة الكبرى قليلًا، أو نادرًا، ثم بدأ يتدرج شيئًا فشيئًا، حتى أصبحت جزءًا منهم. وخصوصًا بعد خروجي من المعتقل في أغسطس سنة ١٩٤٨م، وبعد أن تعرفت على الإخوة في المحلة، أصبحوا يدعونني عندهم في ندوات وملتقيات ومناسبات يقيمونها، وكان لي فيها صولات وجولات.

ثم شاء الله تعالى أن يتفق معي (آل طه) من أغنياء المحلة، الذين أسسوا مسجدًا متوسطًا في المدينة، واتفقوا معي على أن أعمل فيه خطيبًا للجمعة، وفي فصل الصيف حيث تكون الإجازة أتفرغ للدروس والإمامة في المسجد.

بدأتُ أخطب الجمعة في الوقت الذي كان العمل الرسمي فيه محظورًا على الإخوان، فلم يكن لهم دُور ولا شُعَب ولا مراكز، إنما يعملون في بيوتهم، وفي الأماكن التي يمكن أن تتسع لهم.

بدأت أول أسبوع، فامتلأ المسجد، وبقيت فئة قليلة صلت في الشارع، وفي الجمعة الثانية تكاثر الذين لم يتسع لهم المسجد، وصلوا في الشوارع، وفي الجمعة التالية كان الزحام شديدًا. وكان المسجد في وسط البلد، وفي منطقة حية فيه، وبدأ الناس يتحدَّثون عن الخطيب الجديد، وعن موضوعاته الجديدة، وعن أسلوبه في الخطابة، وعن صوته القوي، وتعبيراته البليغة، وتجاوب الناس معه، وفهمهم لخطبه، حتى بدؤوا يتحدثون بجُمَلٍ منها، وكان هذا من فضل الله قبل كل شيء.

ثم انتصرتْ جماعة الإخوان على الحكومة، واستطاعوا أن يحصلوا على حقهم في الرجوع إلى دُورهم ومراكزهم وقاعاتهم واجتماعاتهم العلنية.

وأصبحنا بعد خطبة الجمعة في الجامع، والإجابة عن أسئلة المصلين نذهب ويذهب معنا الناس بالمئات، وربما أحيانًا بالآلاف إلى شعبة الإخوان.

وكان يوم الجمعة يومًا حافلًا، أخطب الجمعة فيه، وأجيب عن الأسئلة، ثم أذهب إلى الشُّعبة، وأحدث الإخوة حديثًا يتعلق بالدعوة الإسلامية التي يدعو إليها الإخوان الناس: ما هي؟ وما أهدافها؟ وما وسائلها؟ ومن هم أحق الناس بها؟ أي: أعضاؤها العاملون لها والداعون إليها.

وفي بعض الليالي نذهب إلى إحدى القرى القريبة، كمحلة أبي علي، أو كفر حجازي، أو محلة زياد، أو بشبيش، أو دمرو، أو غيرها من قرى المحلة في الشرق والغرب، أو الشمال والجنوب.

كان مركز المحلة في ذلك الوقت مركز إشعاع، وكانت شعبة الإخوان دارًا للحركة والنشاط الدائم، العُمَّال والموظفون والطلاب من كل المراحل،

والنساء والأطفال، وقسم الدعوة، وقسم الأُسَر والكتائب، وقسم المهن، وقسم الاتصالات، وقسم الرحلات والأناشـــيد والرياضة، وكل ما شئت مما يحتاج إليه الجمهور المسلم، وبخاصة الشباب، فله رجاله، وله مجاله، وله نشاطه.

كنتُ أعمل في أكثر من قسم في دار الإخوان: في قسم نشر الدعوة، وفيه أخاطب الجماهيـــر، ابتداءً من خطبـــة الجمعة إلى الـــدروس والمحاضرات الأسبوعية، وفي هذا القسم كنا ندرِّب عددًا من الأخوة المتميزين المستعدين للتدرب على الخطبة والدرس والمحاضرة، وكتابة المقالة. وقد كان فيهم من لديه الفطرة والموهبة والقدرة، ولكن تنقصه الدُّربـــة، وقد وجد أمامه الدربة فيمن يراه يخطب من الشباب، فيؤثر في الناس، ووجد عنده الفرصة ليتدرب في لقاءات الإخوان في الشُّعَب.

وبرز الإخوة من شـــباب الأزهر الذين كانوا في معهـــد طنطا الديني، في الثانوي، وهم أليق وأنسب، وبعضهم في الابتدائي، وهم الأصغر سنًّا، ولكن كان منهم نابهون، كان من شـــباب الثانوي الأديب عبد الغني العنتري، ومعه ـ وهو أصغر سنًا ـ: محمد أحمد حوطر، وزين العابدين البلاوي، وآل البيطار، ومحمود القوطي، وماجد المالكي، ومحمـــد جحا، وإهاب الصياد، ومجدي السعدي، وعدد آخر لا يتســـع المقام لذكرهم جميعًا، وبعضهم لا يحضرني اسمه الآن، كان معنا عائلات بأكملها، أو هكذا يخيل إلينا، كعائلة الأخ مدحت البسيوني وإخوانه وأبناء عمه، والأخ صادق البيطار وشقيقه رشدي.

وكان مصنع المحلة للغزل والنســـيج ـ وهو أكبـــر مصنع في مصر وفيما حولها من بلاد العرب ـ يمد الدعوة بالرجال وبالشباب، من الرجال: الأستاذ محمد عبد العال، الذي انتخبه الإخوان رئيسًا لشعبتهم، ومعه عدد من الإخوة الأخيـــار الباذلين للدعـــوة، العاملين لهـــا على كل مســـتوى، مثل: مصطفى الغنيمي، وحسين عتيبة، وعبد الخالق عيطة، وســـيد أحمد الغزالي، ومحمد

محفوظ حلمي الشاب الرياضي، الذي طالما أخذنا ومجموعة الشباب للتدريب على الرياضة وبعض أعمال التكتيك الخفيف.

وكان بعض الشباب ينسحب من العمل في المحلة لمجرد ابتداء السنة الدراسية، مثل: عبد الرحمٰن الكموني في كلية الحقوق، وكمال السامولي المهندس، الذي كان في كلية الهندسة على ما أذكر، وكمال حسين ترك، أحد الشباب البارزين الذي استشهد في حادث سيارة.

كانت شعبة الإخوان في المحلة هي الشعبة الرئيسية في مركز المحلة، وهو مركز من أكبر المراكز المعروفة، تتبعه عشرات القرى ومنها قريتنا صفط تراب، وما حولها من الهياتم والشجاعية وبلقينة ومنية ششتا عياش والعلو وغيرها، وكانت هذه البلاد تستمد نشاطها من المحلة، كنا نفيء إليها ونزورها باستمرار في المناسبات، في أيام الجمع وغيرها، كما أن المحلة تبعث إلى هذه الشعب الدعاة والطلاب والشباب، لإحياء هذه الشعب وإقامة الأنشطة المختلفة فيها، ولا سيما أن المحلة كان فيها أعضاء نشيطون يستطيعون أن ينهضوا بدور في هذه الشعب مثل: الأخ عبد الحي غالي.

الحقيقة أني لم أكن أريد أن أتحدث عن شعبة المحلة ونشاطها، إنما كنت أريد أن أتحدث عن عمود من أعمدة المحلة، الذين عرفتهم وصادقتهم في الله، وزاورتهم في الله، وجالستهم في الله، وانطبق علينا معًا حديث النبي ﷺ الذي يرويه عن رب العزة سبحانه: «**وجبتْ محبَّتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ، والمتناصحين فيَّ**»[1].

وقال: «**إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي**»[2].

---

(١) رواه مالك في الموطأ بإسناد وصحيح (٢/٩٥٣ ـ ٩٥٤)، وابن حبان في صحيحه (٥٧٥)، وأحمد (٥/٢٣٣)، والحاكم (٤/١٦٨)، عن معاذ بن جبل.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة والأدب (٢٥٦٦)، عن أبي هريرة.

هذا العمود الإسلامي الراسخ، الذي أسس على تقوى من الله ورضوان هو الأخ الكريم الحبيب، الـذي عرفته في الله، وصافيته لله، وأحببته لله، كما عرفني في الله، وأحبني لله، وصافاني لله، إنه الأخ مصطفى الغنيمي، الموظف في الماكينات في شـركة الغـزل، والذي عرفته مـن أول ما وطئت قدماي المحلة للدعوة.

كان هذا الأخ يحبُّني، ويحب كل من يحبني، ويحب أقربائي وأهل بلدي، ويحب أصحابي وأصدقائي، ويسأل عنهم، ويبحث عن مشكلاتهم، ويجتهد ما أمكن في حلها، ويحب مشايخي الذين يحبونني.

حين عرف أني أحـب الأخ محفوظ حلمي بدأ يحبـه، وحين عرف أني أحب الأخ الشيخ مصباح محمد عبده، أصبح في زمرة محبيه، وحين عرف أني أحب الأخ محمد حوطر صار من زمرة أحبابه.

كان يتمنَّى ألا يفارقني، ويتمنَّى لو أعيش معه، عرَّفني بأهل بيته، ودعاني إلى أن أزوره في بيت العائلة في مدينة السـنطة، وتعرفتُ على أخيه الضابط الكبير وأبنائه، وعرفت أن أسرته أسرة عريقة محترمة في بلدتها، لها فضلها، ولها مكانتها.

وكم كان يتمنَّى لو أتغدَّى معه باستمرار كلما أمكن ذلك، ويقول لي: نحن أسـرة صغيرة، لم يرزقنا الله أولادًا، فأعيش وزوجتي التي تحبك، وتدعو لك دائمًا، والبنت الصغيرة قريبتنا، التي أنهت الدراسـة الإلزامية، ثم لحقت بنا؛ لأنها يتيمة، فهي تعيش معنا، وتسـاعد امرأتي، وإن كانت امرأتي لا تشكو، وكم تمنيت أن يرزقهما الله أولادًا صالحين، ولكن:

ما كل ما يتمنـى المرء يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن!

ما رأيت أحدًا من إخوان المحلة يكره مصطفى الغنيمي، أو يضمر له في نفسه شـرًّا، رجل طاهر في طهر ماء الغمام، مستقيم استقامة الشعاع،

رقيق كنسمة أول الصباح، ومع هذا هو حاد كالسيف، هصور كالأسد، منضبط كالميزان.

فتًى تم فيه ما يسُرُّ صديقه على أن فيه ما يسوء الأعاديا
فتًى كمُلت أخلاقه غير أنه جوادٌ فما يُبقِي من المال باقيا

عرض عليَّ أن يزوِّجني من الفتاة الصغيرة، قريبته اليتيمة، التي تعيش معه، فهي فتاة طيبة، ظاهرها كباطنها، وقد انتقلت من قريتها إلى منزله بالمحلة، ولا تعرف ألاعيب الدنيا، ولا دوَّامات المتعلِّمات، وما في المدن والعواصم من دواهٍ ومكايد، وأنه مستعدٌّ أن يجهِّزها لي بكل ما تطلبه وما أطلبه، وأنه مستعد بالمساهمة في الزواج من الآن، وكان يقول ذلك بكل صدق وإخلاص. وكم كنتُ أتمنى أن أحقِّق له ما يطلب، لمزيد حبِّي له، وحرصي عليه، وتقديري لكل ما يتمنَّاه، ويعمل على تحقيقه.

ولكن كان في نفسي شيء آخر، هو تأخير الزواج حتى أتخرَّج، ولا داعي لأنْ أورِّط نفسي أو أورِّط أحبتي في أمر لم يزل فيه سعة وفسحة.

وقلت له: إن خالي شقيق والدتي، سعى من قبل في أن يزوجني زواج مثل هذا من قريبة لي، أبوها ابن عمة أمي، وبالطبع ابن عمة خالي، وهو من قرية قريبة، هي قرية شبشير، وكان رب هذه الأسرة هو الحاج عبد الغني الدواخلي، أحد الرجال الأغنياء، والتجار الصالحين في شبشير، وقد عاش خمسًا وعشرين سنة مع زوجته، ولم ينجب منها، فأصرت زوجته التي تحبه عليه أن يتزوَّج، وخطبت له عروسًا من أكبر عائلة في البلد.

ودخل الرجل بالزوجة الجديدة، وأنجب منها أبناء وبنات، كانت أحداهن قد حصلت على الشهادة الابتدائية وبقيت في المنزل، ولما تُوفي الحاج عبد الغني رَحِمَهُ اللَّهُ، ذهبتُ إلى شبشير وعزيتُ فيه، وألقيت خطبة كانت حديث الناس في سهرتهم وفي صباحهم. وكم تمنى خالي لو تزوجت هذه البنت

وهي في غايــة الجمال، وفي غايــة الأدب، ولا تحتاج مني إلى شــيء، لما خصهم الله به من بركة ومال.

وفعلًا ألح عليَّ خالــي لنزور هؤلاء الناس في بيتهــم، ونتحدث معهم، ويتحدثوا معنــا، ونتعرف عليهم ويتعرفوا علينا، وأبــدوا ترحيبهم بنا بطريقة لطيفة، ولكن قلت لخالي: أنا رجل معروف الآن بين الطلاب، وبين المشايخ، وبين كثير من النــاس في مصر، وغدًا ســأعرف في البــلاد العربية، والبلاد الإســلامية، ويلزمني امرأة جامعية، أو على الأقل تحمل الشــهادة الثانوية، لتصلح زوجة لي، وتصلح أمًّا لأبنائي وبناتي، ولا أستحسن أبدًا أن أتزوج من امرأة تتحمــل هي النفقة عليَّ، وأكــون أنا ضمن رعيتها، فهذا يســوءُني ولا يفرحني. فلا بد أن نصبر قليلًا حتى أتخــرَّج، وأبحث عن بنت الحلال التي يوفِّرها القدر لي. ووافق خالي على رأيي.

وقد اقتنع الأخ مصطفى بوجهة نظري، ودعا الله تعالى أن يحقق أملي فيمن أتزوجها، وأن تكون زوجة الدنيا والآخرة.

وقد هيأ الله تعالى لأختنا هذه قريبة الأخ مصطفى عريسًا من أقاربها، من أبناء أخي الأستاذ مصطفى، وكان ضابطًا مثل أبيه في الشرطة، وقد علمت أنه كان زواجًا طيبًا مباركًا، وسألت الله لهما: أن يبارك لهما، ويبارك عليهما، وأن يجمع بينهما في خير، وأن يرزقهما الأولاد الصالحة، ودعونا لهم بدعاء عباد الرحمن في سورة الفرقان: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وبعد ذلك تغيــر الحال في مصر، مــن الملكية إلــى الجمهورية، وكان الإخوان هم أول من ســاند الثورة ووقفوا معها، وحرسوا المباني الهامة التي يُخاف عليها من الشيوعيين وأمثالهم من السفارات والبنوك ومنازل الشخصيات المهمة وغيرها، قام الإخوان بكل ذلك.

ثم لم تزل الأمور تتبـــدل وتتغير من حال إلى حال، حتـــى اكفهرَّ الجو، وعصف بالرعود والبروق التي نزل معها الماء والثلج والبرد، وغرقت الدنيا، وتوقف الركب، وازداد الخصام، حتى وقع الخصام الأول، والحل الأول، وكنتُ في أوائل المعتقلين، ثم هيَّأ الله أســبابًا للرجعة إلى الســعة واللقاء والتصافي، وذهب عبد الناصر ورفاقه إلى فضيلة المرشد الأســتاذ حسن الهضيبي، وقلنا: الحمد لله. ربنا يهيئ للبلد السلام بالإســلام، والأمان بالإيمان، ويصفي قلوب الجميع من الغل والحسد والإحن.

وعدت إلى المحلة مرة أخرى، وصعدت منبري أخطب فيه بقوة الروح، وروح القوة، آملًا أن اليوم خير من الأمس، وأن يكون الغد خيرًا من اليوم، وأن تصفو الأجواء من الغيوم والعواصف التي تهب بكل ما يزعج ويخيف.

وما هي إلا أسابيع حتى عدنا إلى ما كنا فيه، بل دخلت عليه عوامل زادت الجو توترًا، وما زالت الأمور تتعكر وتتعكر، وتتعسف وتتعسف، حتى كانت حادثة: إطلاق النار على عبد الناصر في المنشية بالإسكندرية.

وكان ما كان مما لســتُ أذكره فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر

ودخلنا في المحنة الكبيرة، التي شــنق فيها من شــنق، وسجن فيها من سجن، وأوذي فيها من أوذي، وقتل بالرصاص في سجن طرة أكثر من عشرين شخصًا، ضربوا وهم في زنازينهم.

وغادر مصطفى الغنيمي المحلة في وســط هذه المعركة، وانتقل إلى بيته وبيت العائلة.

وبعد مدة من السنين حين خرجت من السجن، وعُيِّنت بمكافأة في مسجد الزمالك أخطب فيه لأحافظ على الروح المعنوية في الشعب، حتى لا تنفرط عقدته، ثم سُمح لي في السفر بعد لَأْيٍ إلى قطر معارًا من الأزهر.

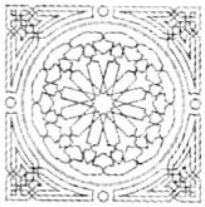
وهناك سمعت بأن أخي الحبيب مصطفى قد أصيب بالعمى، في آخر حياته، كم حزنت له، وكم أسفتُ أني لم أتمكن من الذهاب إلى بلدِهِ لأزوره في محنته، وكم دعوت له ودعوت، ولا زلت أشعر بأني لم أقم بحقه كما ينبغي أن يكون، ولقد تُوفِّي رَحِمَهُ اللَّهُ وأنا في الدوحة، لا أدري بالضبط متى كان ذلك.

ودعوت الله لأخي وحبيبي وصديق عمري، المخلص الوفي البر مصطفى الغنيمي، رحمه الله رحمة واسعة، وتقبله في الصالحين من عباده، وجعله من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

* * *



النادي الشبابي



الفهـرس

مقـدمـة ٥

١ ـ الإمام حسن البنا ١٣

٢ ـ العلَّامة محمد عبد الله دراز ٣٤

٣ ـ الشيخ الفضيل الورتلاني ٣٩

٤ ـ محمد الدمرداش مراد ٤٨

٥ ـ العلَّامة محمود شلتوت ٥٨

٦ ـ الدكتور محمد يوسف موسى ٦٧

٧ ـ الشيخ الدكتور مصطفى السباعي ٧٤

٨ ـ الشيخ العلَّامة محمد بن مانع ٨١

٩ ـ المفكر الإسلامي سيد قطب ٨٤

١٠ ـ العالم الداعية عبد الله بن تركي السبيعي ١١٢

١١ ـ الأستاذ محب الدين الخطيب ١٢٢

١٢ ـ الأستاذ حسن الهضيبي ١٣٢

١٣ ـ الإمام محمد أبو زهرة ١٦١

١٤ ـ الشيخ محمد الأودن ١٦٧

١٥ ـ الشيخ مصباح محمد عبده ١٧١

١٦ ـ شيخنا العلَّامة البهي الخولي ١٧٥
١٧ ـ شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود ١٨٧
١٨ ـ الإمام أبو الأعلى المودودي ١٩٢
١٩ ـ الأستاذ محمد المبارك ٢٠٥
٢٠ ـ الدكتور محمد البهي ٢١٧
٢١ ـ الشيخ أحمد حسن الباقوري ٢٢١
٢٢ ـ الأستاذ عمر التلمساني ٢٣٢
٢٣ ـ الشيخ عبد البديع صقر ٢٣٧
٢٤ ـ الشيخ عبد الله الأنصاري ٢٤٤
٢٥ ـ الشيخ السيد أحمد صقر ٢٥٦
٢٦ ـ العلَّامة الشيخ صلاح أبو إسماعيل ٢٦٥
٢٧ ـ الشيخ عبد الله المشد ٢٧٠
٢٨ ـ الدكتور عبد العزيز كامل ٢٧٣
٢٩ ـ الدكتور محمد إبراهيم كاظم ٢٨٢
٣٠ ـ الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري ٢٨٩
٣١ ـ الأخ الحبيب الشيخ عبد اللطيف زايد ٣٠٥
٣٢ ـ الدكتور محمود أبو السعود ٣١١
٣٣ ـ الدكتور علي جمّاز ٣٢٦
٣٤ ـ الدكتور سعيد رمضان ٣٣٠
٣٥ ـ الأستاذ عبد الحليم أبو شقة ٣٤٠
٣٦ ـ الشيخ محمد الغزالي ٣٥٢

٣٧ ـ الشيخ جاد الحق علي جاد الحق ٣٦٦
٣٨ ـ الشيخ الفقيه عبد الله بن زيد المحمود ٣٧١
٣٩ ـ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ٣٨٠
٤٠ ـ الأستاذ محمود محمد شاكر ٤١٧
٤١ ـ الشيخ عنتر حشَّاد ٤٢٢
٤٢ ـ الشيخ محمد متولي الشعراوي ٤٢٣
٤٣ ـ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ٤٣٣
٤٤ ـ الشيخ علي الطنطاوي ٤٣٨
٤٥ ـ العلَّامة مصطفى الزرقا ٤٥٠
٤٦ ـ الشيخ مناع القطان ٤٧٢
٤٧ ـ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ٤٧٩
٤٨ ـ العلَّامة أبو الحسن الندوي ٤٨٣
٤٩ ـ الشيخ سيد سابق ٤٩٤
٥٠ ـ الشيخ محمد بن صالح العثيمين ٥٠٢
٥١ ـ الدكتور محمد قُطْبَة ٥٠٤
٥٢ ـ الأستاذ عادل حسين ٥١٠
٥٣ ـ الأستاذ أنور الجندي ٥١٦
٥٤ ـ العلَّامة أحمد بن حجر آل بوطامي ٥٢٧
٥٥ ـ الدكتور عبد الله شحاتة ٥٢٩
٥٦ ـ الأستاذ مصطفى مشهور ٥٣١
٥٧ ـ الشيخ محفوظ نحناح ٥٣٦

٥٨ ـ الدكتور أحمد صدقي الدجاني ٥٣٨
٥٩ ـ المستشار مأمون الهضيبي ٥٤٨
٦٠ ـ الشيخ أحمد ياسين ٥٥٠
٦١ ـ الدكتور عبد العزيز الرنتيسي ٥٥٨
٦٢ ـ الإعلامي ماهر عبد الله ٥٦١
٦٣ ـ عبد الله علي المطوع ٥٦٤
٦٤ ـ الأستاذ محمد عبد الرحمٰن خليفة ٥٧٦
٦٥ ـ الدكتور حسن المعايرجي ٥٨١
٦٦ ـ الدكتور عبد الودود إبراهيم شلبي ٥٨٨
٦٧ ـ الدكتور حسان حتحوت ٥٩٣
٦٨ ـ الدكتور عبد العظيم الديب ٦١٤
٦٩ ـ الدكتور عز الدين إبراهيم ٦٢٩
٧٠ ـ شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي ٦٤٥
٧١ ـ الدكتور أحمد العسّال ٦٥٠
٧٢ ـ الشيخ الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر ٦٨٨
٧٣ ـ الأستاذ الدكتور محمد فتحي عثمان ٦٩٤
٧٤ ـ الشيخ عبد المعز عبد الستار ٧٠٩
٧٥ ـ الشيخ فيصل مولوي ٧٣٦
٧٦ ـ العلّامة عبد الرحمٰن شيبان ٧٤٣
٧٧ ـ الدكتور محمد فريد عبد الخالق ٧٥٠
٧٨ ـ الشيخ زهير الشاويش ٧٥٤

٧٩ ـ الشيخ عبد الكريم زيدان ٧٥٨
٨٠ ـ الأستاذ محمد قطب ٧٦٤
٨١ ـ الدكتور عبد السلام الهراس ٧٧٣
٨٢ ـ الدكتور حارث الضاري ٧٧٧
٨٣ ـ الدكتور عبد الهادي التازي ٧٨٤
٨٤ ـ الدكتور وهبة الزحيلي ٧٨٧
٨٥ ـ صديقنا معالي الشيخ عيسى بن محمد آل خليفة ٧٩٢
٨٦ ـ الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني ٧٩٤
٨٧ ـ الدكتور حسن الترابي ٨٠١
٨٨ ـ الأديب الشاعر: محمد حوطر ٨١١
٨٩ ـ مصطفى الغنيمي ٨١٥
الفهـرس ٨٢٥



النادي الشبابي